

الحروب الصليبية
حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى
دراسات لتكريم
أ.د/ إسحق عبيد

تحرير

أ.د/ محمد مؤنس عوض
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة عين شمس
وجامعة الشارقة

ط. القاهرة 2014م

المقدمة

يتناول هذا الكتاب عدداً من البحوث والدراسات من جانب عددٍ من المؤرخين والمؤرخات من جامعات مصر واليمن والسعودية؛ من أجل تكريم أ.د/ إسحق عبيد، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة عين شمس.

سيلاحظ القارئ العزيز أن المشاركين في هذا العمل التكريمي من مصر والمملكة العربية السعودية واليمن، هم جميعاً يدينون بالفضل الكبير لسعادة أ.د/ إسحق عبيد، الذي ترك أفضل الأثر علمياً وإنسانياً في قلوب تلاميذه الذين تأثروا به بصورة أو بأخرى.

وأود أن ألفت النظر هنا إلي أن من بين المشاركين مؤرخين شبان واعددين خاصة د/ محمد فوزي رحيل، بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وهو مؤرخ واعد ينتظره مستقبل زاهر، ناهيك عن أخلاقه الرفيعة التي عوضت كاتب هذه السطور عن أحد الجاحدين الصغار، كذلك هناك ابن أسيوط المؤرخ الواعد ياسر كامل وهو كذلك من الواعدين الذين تعقد عليهم الآمال.

أما المؤرخ الكبير أ.د/ علي أحمد السيد، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة دمنهور، فقد أثرى هذا الكتاب بجهده البارز الذي يعكس خبرة عريضة بمصادر تاريخ أوروبا العصور الوسطى وعلاقتها بالشرق .

إن الصفحات التالية تشعرني علي المستوى الشخصي بالفخر، وتعليل ذلك يتمثل في أن الهلال يحتضن الصليب علي أرض النيل الخالد، وأذكر القارئ الكريم بيت شعر من ابداع أمير الشعراء أحمد شوقي حيث قال :

الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما

والآن أترك القارئ لمطالعة البحوث والدراسات التالية التي تضيء الأمل الأخضر الوثاب في مستقبل مصر .

أ.د/ محمد مؤنس عوض

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة الذاتية العلمية

للأستاذ الدكتور/ إسحق عبيد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المتفرغ

كلية الآداب - جامعة عين شمس

السيرة الذاتية العلمية:

محل الميلاد: أسيوط في 11/5/1933م

الحالة الاجتماعية: متزوج، وله 3 أولاد .

العنوان الدائم: 154 ميدان الحجاز - مصر الجديدة - القاهرة

الدرجات العلمية: الدكتوراه - جامعة نوتنجهام - إنجلترا 1968م.

دبلوم التربية العالي - الإسكندرية 1956م.

ليسانس آداب بمرتبة الشرف - جامعة الإسكندرية 1955م .

الإنتاج العلمي:

أولاً: 13 كتاباً باللغة العربية، ومن بينها:

- الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية (دار المعارف 1972م).

- الفرسان والأقنان في مجتمع الاقطاع (بنغازي 1975م).

- محاكم التفتيش (دار المعارف 1979م) .

- معركة الماضي من هيردوت إلي توينبي (دار المعارف 1981م) .

- أوروبا في بحر الظلمات (دار القلم- الكويت 1995م) .

- حكمة المصريين مع آخرين (- فاز الكتاب بجائزة معرض القاهرة الدولي لعام

2000م).

ثانياً: 24 بحثاً باللغتين العربية والإنجليزية، نشرت في عدد من الدوريات العلمية

المعتمدة، ومن بينها :

- "Aurelius prudentius Clemens and his CONTRA SYMMACHUM, Annals of the Faculty of Arts, Benghazi University, 1974.
- " A Fragment of a tenth Cermon (Arabic Manuscript) - edit, annotated and translated jointly with Dr. Allia Hanafi .Bulletin of the centre of papyrological studies. Cario1986.
- "The Legacy of Egypt as a pattern for Dialogue amongst Civilization", Internaional Conference on: " World Heritage in young Hands" .Egyptian National Commission for UNESCO- ASWAN, 2002.

* شارك بمساهمات علمية في مؤتمرات إقليمية ودولية حول العديد من القضايا التاريخية الجدلية، وحول حوار الحضارات، وأخلاقيات البيئة في كل من: بواتيه، أوكسفورد، الرباط، الكويت، قبرص، بالرمو، ميلان، أسوان (مع منظمة اليونسكو) .

* سافر أستاذاً زائراً إلي: أرشيفات البندقية، رويال هولواي كوليغ لندن، جامعة ليدز بإنجلترا، جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة، معهد جورج إيكرت بألمانيا، المكتب الثقافي لمصر في واشنطن 2008م .

* عمل ويعمل رائداً في دورات إعداد المدرس الجامعي بجامعة عين شمس منذ بدايتها حتى اليوم، وقد كرمته جامعة عين شمس في احتفالية خاصة " رائداً مثالياً في يناير 2002م .

* يلقي محاضرات ثقافية بصفة دورية للقادة في وزارة الشباب والرياضة، والعاملين بالإرشاد السياحي في وزارة السياحة.

* اختير عضواً بلجنة اختيار أساتذة الجامعات المصرية المرشحين للتبادل الثقافي مع الجامعات الأمريكية من خلال هيئة الفولبرايت .

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

* كلفته وزارة التربية والتعليم بكتابة الجزء الخاص بالحقبة القبطية (مع آخرين) لطلاب مرحلة التعليم العام، إلى جانب قيامه بإعداد أقرص الليزر التعليمية الموسوعة "زعماء وشخصيات مصرية"؛ و"العصر اليوناني الروماني". كما شارك في لجان تطوير مناهج التعليم الثانوي .

* تم ترشيحه ضمن شخصيات "الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة" (الهيئة العامة للإستعلامات) .

* قام بالعديد من الترجمات من وإلى اللغة الإنجليزية، ومن بينها "العجوزو البحر"؛ "بروميثيوس في الأغلال"؛ "أثينا السوداء"؛ "فلسفة العصور الوسطى"؛ "مدائن من رماد" (إلى الإنجليزية)، وغيرها .

* وجهت إليه جامعة تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية الدعوة لزيارتها لمدة تسعة أشهر للمشاركة في تطوير مناهج الدراسات الإفريقية بما من منظور حضاري .

* عضو في العديد من المجالس والجمعيات واللجان افريقية والدولية، ومن بينها المجلس الأعلى للثقافة.

* صاحب مدرسة متميزة في تاريخ العصور الوسطى في مصر والعالم العربي، أشرف علي العديد من الرسائل الماجستير والدكتوراه في مصر وخارجها، ويحتل تلاميذه مواقع الأستاذية بالعديد من الجامعات المصرية والعربية .

* شارك في إعداد التقرير الخاص بـ "مستقبل الثقافة في مصر" لمجلس الشوري.

* مقرر لجنة الجغرافيا والتاريخ والآثار بمكتبة الإسكندرية. (سابقاً) .

* مقرر لجنة التاريخ بالمجلس العلي للثقافة (سابقاً) .

* عضو مجلس إدارة المجلس العلي للآثار (سابقاً) .

* عضو مجلس إدارة البرديات - جامعة عين شمس (سابقاً) .

* عضو الهيئة الاستشارية للمركز القومي للترجمة (سابقاً) .

* مقرر اللجنة العلمية الدائمة لترقية أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية (شعبة التاريخ) سابقاً.

* عضو اللجنة الوطنية المصرية للتراث اللامادي (وزارة التعليم العالي)، (سابقاً).

كلمة الأستاذة الدكتورة/ عفاف صبرة أستاذة تاريخ العصور الوسطى بجامعة الأزهر

أشعر بسعادة بالغة، وزهو أن يكون لي شرف المشاركة في الإحتفاء بواحد من شوامخ وأعلام التاريخ، ومن أقطاب الفكر المشهورين الذين يعتبروا في هذه الأيام عملة نادرة ويصعب وجودها، أو وجود جزء منها.... فهو أستاذنا العظيم، والعالم والمؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور / إسحق تاووروس عبيد أستاذة أستاذة تاريخ العصور الوسطى في كلية الآداب، جامعة عين شمس، وأن شئت قلت في جميع كليات الآداب بمصر والعالم العربي والأجنبي.

يجد الإنسان صعوبة بالغة، وكبيرة عندما يكتب في تحية، وتقدير أستاذ، وعالم متميز يشهد له الجميع، ولم يختلف عليه أحد، وكلما ورد اسمه أو ذكر في مجلس إلا وذكره كل الحاضرين بالتبجيل والتشريف.

أستاذنا الغالي أن لم يكن لي الحظ التلمذ علي يديك، لكن زادي شرفاً أن أهمل من علمك الغزير الذي لو قمنا بإحصائه لما تمكنا من ذلك، وكل ما أستطيع أن أقدمه هو بعضاً من كل.

يتمتع أستاذنا الدكتور إسحق عبيد بمكانة مرموقة في المجتمع الجامعي فهو أستاذ أستاذة العصور الوسطى، الذي جال في جميع مجالاته خاصة في فرع التاريخ البيزنطي أو التاريخ الأوروبي الوسيط، ولعل ما يميز مؤلفاته عن غيره هو تمكنه من اللغات القديمة، وإتقانه لها خاصة اللغتين اليونانية واللاتينية والتي إذا سمعته، وهو يتحدث بها، ويناقش فيها يظن أنه أحد أبنائها، وهذا ما هيأ لسعادته القدرة البالغة علي الإطلاع علي الأصول القديمة، والتي يصعب علي كثير من الدارسين قراءتها، وفهم مكنونها.

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

أما إذا تطرقنا إلى قدراته البحثية فيشهد عليها مؤلفاته العديدة، والتي لم تترك قضايا تاريخية مهمة في عالم العصور الوسطى لم تعالجها، فنجد الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، وكذلك الدولة البيزنطية من قطيعة فوشيوس إلى الغزو اللاتيني، وهما جزء من كل عظيم متعدد إلى جانب البحوث والمقالات، والإسهامات العلمية في المؤتمرات المحلية والدولية.

أما في مجال الإشراف علي الرسائل العلمية نجد اعداداً لا حصر لها من رسائل الماجستير والدكتوراه في موضوعات متميزة عجت بها المكتبات، وقد أثمرت هذه الرسائل، وهذا الإشراف عن تخريج أعداداً كبيرة من الباحثين، منهم من أصبحوا أساتذة في فرع التخصص، شاركوه في حمل مشعل العلم في الجامعات المصرية والعربية بل والعالمية.

إن تقيماً لمكانة الأستاذ الدكتور إسحق العلمية لا تتسع لها هذه الصفحات القليلة لأن ما قدمه يفوق ذلك بكثير، لكنني أريد أن أقول كلمة عن شخص الأستاذ الدكتور إسحق عبيد الإنسان، والذي تتمثل فيه حقيقة معني كلمه انسان بكل القيم، والمبادئ، والأخلاق، والتواضع الذي يصعب أن يجتمع مثله في شخص واحد.

الدكتور إسحق حلو الشمائل كريم المنبت، والأصل طيب المعاشره عرفته أستاذاً عظيماً يقدرنا تقديراً أكبر كثيراً من شخوصنا المتواضعة، يشعرونا دائماً بأننا أهل خبرة، ولنا قيمة كبيرة، وهو الذي نري فيه هذه الخبرة، وهذه القيمة. ومع ذلك يتواضع تواضع العلماء الأجلاء ويثني علي كل ما نكتبه، ونقدمه مما يرفع من ثقتنا بأنفسنا ويدفعنا الي التقدم الدائم.

يتمتع الدكتور إسحق بورع وتدين لازمه في حياته كان له نبراسا أضاء له طريقه، لم نعرف فيه تعصباً بل رأينا تسامحاً، ومحبة جمعته مع كل من حوله، وكان لإلتزامه في عمله ووعدده، ما أدي الي هذه المحبه أيضاً فأصبح صديقاً، وأستاذاً ووالداً للجميع. نري العدالة

صفة لازمتها في حياته، وهي التي جعلت الكثيرين يلجأون إليه ليحكم بينهم أو ليديلي برأيه في قضية من القضايا التي عجزوا عن حلها، كما كان لصفه الصدق التي تمتع بها أيضاً ما جعل الجميع لا يختلفون عليه بل يتفون في كل عمل وفي كل رأي يقدمه لهم.

لم يعرف الشر أو الحقد على الناس طريقه إلى نفس أستاذنا بل نراه يقبل على كل خير، ويساعد كل باحث علي إتمام بحثه بإمداده بالمصادر، والمراجع اللازمة، يفتح له مكتبه وبيته لكي يسهل له كل ما صعب عليه، بل نراه لم يعنف أحداً أو يرفع صوته علي أحد، بل بكل قلب حان ينصح ويقوم، ويربي، ويصادق، ويزامل.

وإذا رجعنا إلى ماتمتعت به مؤلفاته نجد فيها خصائص واضحة ومميزة، براعة لغوية، منهجية علمية عالية، توثيقاً متميزاً، دقة في الخبر ومصادره، ثقافة موسوعية غلبت علي كل مؤلفاته، حتي أصبح قدوة علمية ندعو الجميع أن يحتذي بها، فقدراته العلمية جعلته عندما يتكلم لا بد أن يصمت الآخرون.

لا يسعني في هذا المجال إلا أن أدعو الله سبحانه وتعالى له بالصحة والعافية، وأن يعطيه العمر المديد حتى يكمل رسالته، وأن يبارك له في أهله، وخاصته ليكون ملاذاً لجميع طلاب العلم، وأن تكون كلمتي هذه بمناسبه تكريمه من زملائه وأبنائه خالصه لوجه الله تعالى.

أ.د/ عفاف سيد صبره

أستاذ التاريخ العصور الوسطى

كلية الدراسات الإنسانية بالقاهرة

جامعة الأزهر

أ.د/ إسحق عبيد

فيلسوف "البدارى" الذي علمني الحكمة!!

في الصفحات التالية أقدم للقراء في كل مكان شهادة للتاريخ! نعم شهادة للتاريخ عن رجل عرفته منذ 37 عاماً، وأكتبها بمداد الصدق، وعلى أوراق الأمانة، لا أطمع من ورائها في شيء، بل أخطها بقلمني لإحقاق الحق ولا شيء إلا الحق، وهي بالتأكيد ليست عن شخصية عادية مكررة مثل الكثيرين الذين قابلتهم في رحلة حياتي العلمية.

وإسحق عبيد أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة عين شمس، هو ابن "البدارى" تلك البقعة الطيبة من أسيوط منبع الأفذاذ من الأدباء والمؤرخين والساسة، الذين أفنوا أعمارهم عشقاً لأرض الكنانة التي ما عقت يوماً، بل هي دوماً حبلتي بالعباقرة، والأفذاذ، حيث ولد هناك عام 1932م.

وهكذا، قدمت لنا أسيوط عدداً من الأعلام الذين حفظهم تاريخ أم الدنيا، وأم الحضارة، ولم لا؟ أليس منها حافظ إبراهيم، ومحمود حسن إسماعيل، وأحمد بهاء الدين، ومحمد الفحام، وزعيم مصر الخالد جمال عبد الناصر؟، وهكذا، فإن أستاذي إسحق عبيد ولد في منطقة ذات خصوصية حضارية في تاريخ أمنا جميعاً.....مصر.

لقد كافح ذلك العالم، الذي كان عصامياً ولم يولد وفي فمه ملعقة من ذهب، بل واصل العمل ليلاً ونهاراً، وواصل دراسته حتى حصل على ليسانس الحضارة الأوروبية من كلية الآداب - جامعة الاسكندرية، وعين معيداً بكلية الآداب جامعة عين شمس، وأوفد في بعثه علمية إلى جامعة نوتنجهام بالمملكة المتحدة حيث درس على يدى برنارد هاملتون، وهو أحد أبرز مؤرخي العصور الوسطى على مستوى العالم.

وقد أشاد المؤرخون الانجليز بأطروحته للدكتوراه عن "العلاقات بين روما وبيزنطة من

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين عام 1204 م"، بل ووصفت أطروحته بأنها "مصححة" لأفكار سابقة مغلوطة عن الحملة الصليبية الرابعة، وخاصة في ما يتصل بدور البابا انوسنت الثالث في توجيه الحملة إلى تلك العاصمة الإمبراطورية.

وعاد ابن أسيوط أدراجه إلى أرض الكنانة، حيث تتلمذ على يديه الآلاف في مجال دراسة التاريخ الأوروبي الوسيط، والتاريخ البيزنطي، وتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، وواصل رسالته العلمية خارج مصر بأن أعير إلى ليبيا، واليمن، والكويت، وشارك في مؤتمرات دولية فصار معروفاً في إنجلترا، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وفي كل ذلك قدم دليلاً ناصعاً لا يحتاج إلى ذرة ريب في أن اسيوط الساحرة الجميلة المعطاءة أنجبت مؤرخاً مصرياً فريداً صاحب مكانة دولية لا تنكر.

وإسحق عبيد يا عزيزي القارئ هو المعادل الموضوعي لكلمة مصر!!، نعم هو كذلك، فإذا نظرت إلى أبرز الصفات التي تتمتع بها، سنجد إنه تجسيد حقيقي لها مثل: الوفاء والتسامح والمحبة وغيرها من صفات شعب بلادي الخالد .

ولقد دَرَسَ والدي الأستاذ / أحمد عوض حماد منذ قرابة نصف قرن لاستاذي المفضل في مدرسة إخوان ويصا بأسيوط، وظل إسحق عبيد يتذكر ذلك بوفاء نادر المثال في عصر نجد فيه صغار التلاميذ يعدون دكتوراه أخرى في الجحود ومهاجمة أساتذتهم ، وفي مناسبات عديدة كان يشير إلى تتلمذه على يدي أبي، وكيف أنه أفاد من سلوكياته وأسلوبه في التعامل مع طلابه؛ على نحو دل على أصالته الفريدة .

ولا أنسى عام 1976م عندما دَرَسَ لدفعتي مادة تاريخ أوروبا العصور الوسطى وعلاقتها بالشرق، وسأل الطلاب عن من حصل على تقدير جيد جداً في العام السابق، وعندما رفعت يدي وذكرت اسمي سألني والدك هل دَرَسَ في مدرسة إخوان ويصا أم لا ؟ وكان ما كان من بعد ذلك من لقاء إنساني عاصف بينه، وبين أبي حيث انهمر شلال

الذكريات المشتركة في لحظة واحدة فارقة بينهما، ولقد تبناني ذلك العالم الفاضل المعطاء الذي لن أنسى ماحييت فضله بعد الله تبارك وتعالى، ومنذ أن عملت معيداً إلى أن صرت استاذاً لا يمكن بأي حال من الأحوال أن أغفل اسم ابن أسيوط الفذ: إسحق عبيد الذي وقف بجواري مشجعاً، ومدعماً طوال رحلتي العلمية. !!

وهو بالتأكيد رجل المحبة، فما رأيته حاقداً على أحد، بل كان دوماً يتمتع بحب عجيب للجميع، ولذلك أحبه الجميع، وعندما رأيت بعض المواقف المؤسفة، كان يقول لي: "المشكلة في غياب المحبة!"، ولقد رأيت شخصيات قاسية أنانية، ليس لديها أدنى قدرة على العطاء وهي عموماً تعيسة في حياتها، وإذا بهذا المؤرخ الوفي المحب للجميع يتعامل معها ببراعة وبحب وكأنه الطبيب النفسي الذي يعالج جراح مرضاه النفسية.

ما رأيته يوماً ينفعل على أحد، أو يهين إنساناً أياً كان صغيراً أو كبيراً، بل صار واحة خضراء للمحبة لكل الناس وهنا قدرته الفذه على العطاء وتجاوز العقد والأحقاد إلى آفاق أرحب لأنه كبير لا يلتفت إلى الصغائر، وفي مجلس قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة عين شمس كان رأيه هو الملاذ الأخير في مواقف عديدة احتدم فيها الخلاف والنقاش بين الزملاء .

وهو رجل التسامح، الذي رأى دوماً أن الأديان جميعها تصل بالإنسان إلى الله تعالى، ولذلك نظر إلى الحركة الصليبية كحركة عنصرية متعصبة مثلت كارثة حقيقية في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ولذا لم يكن عجيباً أن هاجم الصليبيين، وكشف عوراتهم من منطلق أمانته كمؤرخ حقيقي راصد للعلاقات الدولية خلال تلك الحقبة . وإسحق عبيد رجل التسامح هو الذي طلب مني أن أدعو له عند الكعبة المشرفة عندما كنت معاراً إلى المملكة العربية السعودية، وهو أيضاً الذي يردد العديد من العبارات القرآنية دون أدنى حرج، وهو نفسه الذي أعد مقالاً تاريخياً فريداً قررته على تلاميذي بقسم

التاريخ بكلية الآداب - جامعة عين شمس عنوانه، " شمس العرب تسطع على أرض النيل " أنصف فيه الفتح العربي لمصر على نحو أكد على مدى تسامحه وموضوعيته، وهو نفسه الذي أعد بحثاً بعنوانه: " شمس العرب تسطع على باليرمو "، وهي عاصمة دولة النورمان في صقلية، وهي أحد معابر انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى، والتي ألف الإدريسي كتابه الرائع نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

وهو نفسه الذي دافع عن الإسلام ضد من يهاجمه ويصفه بالإرهاب والعنف والدموية؛ لذلك وضعت آراءه على موقع اسلام أون لين، وأشاد به الجميع لأنهم بالفعل أمام قامة علمية وأخلاقية نادرة، ولذلك لم يكن عجباً أن أرسل إليه خطاب من ا. د. محمود زقزوق وزير الأوقاف يدعوه إلى الإنضمام إلى عضوية المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وصار أحد أفراد مجموعة من أبناء مصر الأقباط الذين أنصفوا الإسلام مثل نظمي لوقا، ونبيل لوقا بياوي، وادوار غالي الذهبي وغيرهم من علماء مصر ومفكريها.

هكذا علمني أستاذي الحكمة من خلال صفات الوفاء والتسامح لأن الأديان جميعها لله تعالى ولا يصنع التعصب إلا قصيري النظر من البشر الذين لا يرون في المرأة إلا أنفسهم دون إدراك أن أمير الشعراء أحمد شوقي قال يوماً:

الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما

وإسحق عبيد - عزيزي القارئ - عاشق حقيقي لمصر الذي ما غادرها وما غادرته يوماً!، وكل يوم مر عليه من أيام عمره المديد كان نهر حبه يتدفق شلالات في أعماق روحه وقلبه وعقله! ولم لا؟ ألم يصفها بأنها " مرضعة حوض البحر المتوسط "؟ وألم يكتب عنها أنها أم العالم وأم الحضارة، وأن عالم المصريات البارز جيمس برستد وصفها بأن فجر الضمير ولد على أرضها الخالدة خلود التاريخ!!

أما أسيوط فهي بالنسبة له مصر المصغرة، وهي معشوقة حقيقية لديه، وعندما

أوصلنا القطار إليها يوماً ما لمناقشة الطالب النابه / ياسر كامل في أطروحته ماجستير عن مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الرابع (1174 - 1185م) كانت معنوياته ترتفع تدريجياً كلما اقترب من عاصمة صعيد مصر، ومعشوقة النيل الخالد، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامات طفولية، وكأنه على موعد زفاف لمعشوقته أسيوط. ولم يكن وفاؤه لها إلا جزءاً من وفائه لأرض الكنانة ذاتها، وبالتالي فإن القضية كل واحد لا يتجزأ في نفس ذلك المؤرخ الفذ والفيلسوف الحكيم .

واسحق عبيد هو ذلك الحكيم الذي طالع أعلام التصوف الإسلامي، وناقشته في الملامتية وهم طريقة صوفية تأثر أتباعها بفكرة النفس اللوامة، ولذلك كان دائماً يرى أن الزهد هو الخلاص الحقيقي من كارثة عبادة المال الذي يلهث وراءه الكثيرون، بل إعتقد تماماً في أن الغنى في الاستغناء وهي مقولة خالدة للصوفي البارز ابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم الشهيرة التي هي جزء من التراث الصوفي الإسلامي الزاهر في العصور الوسطى، مع ملاحظة أن أستاذه معجب عموماً بالتجارب الصوفية في كافة الأديان على تنوعها واختلافها، لأن منبعها واحد فكأنها طريقة واحدة مجزأة.

إن حيوية ذلك المفكر المصري الأصيل تتجلى في تعدد منابع ثقافته الواسعة وتكوينه الفكري، فقد بحث عن الحقيقة لدى كافة الأديان، متسلحاً بعشق حقيقي للمعرفة أينما وجدت، ولم يكن سلاحه في كافة مراحل تطوره الفكري سوى الرغبة في الوصول إلى الحقيقة والتسامح الديني، ولذلك هاجم الكنيسة في أوروبا العصور الوسطى التي أقامت محاكم التفتيش ضد كل من عارضها، وقد خصص دراسة علمية مركزة عن جان دارك عذراء أورليان وبطلة حرب المائة عام بين فرنسا وإنجلترا (1337 - 1453م) التي كفرتها الكنيسة، وأتهمتها بالهرطقة، وتم إحراقها، وفيما بعد تم إعتبارها قديسة !!، كذلك أعد دراسة علمية قيمة عن محاكم التفتيش، وفي كافة مؤلفاته كان يركز على أمراض تلك العصور من أجل

تجنبها في عصرنا الحالي.

وهكذا، تعلمت من فيلسوف البدارى الذي أتى إلينا من صعيد مصر كي ينير عقولنا، تعلمت منه الوفاء، والتسامح، والسعي نحو الحقيقة من أي منبع لها، ويضاف إلى كل ذلك "المحبة" لكل البشر دوغما تعصب أو تحزب لأن ذلك يخالف ألف باء الحياة ذاتها!! .

وعلى مدى ثلاثة عقود ونصف من حياتي العلمية، صرت صديقا لأستاذي، وفي كل لقاء كان نهر عطائه متدفقا للأحباب وما أكثرهم، والخصوم وما أقلهم، وقد ذكرني في ذلك بأبي الذي ردد أمامي نصيحته التي تفيض بالحياة: أعمل الخير في أهله وغير أهله!، وهي عبارة تنطبق تمام الإنطباق على أستاذي العلامة: إسحق عبيد.

وفي معرض تناولي لعطاء ذلك المؤرخ المصري الأصيل ابن أسيوط الفذ أتذكر أنه في إحدى برامج التلفاز وكان يوم البرنامج عيداً من الأعياد الدينية سأله المذيع لو كان بيدك الآن كارت معايدة إلى من ترسله؟ فأجاب من فوره: إلى صلاح الدين الأيوبي الذي دخل بيت المقدس فاتحاً في 2 أكتوبر عام 1187م ولم يرق فيها قطرة دماء صليبية واحدة فقدم مثلاً فريداً وفذاً للتسامح في عالم العصور الوسطى الملطخ بالدماء!!.

إن ذلك الرد البليغ، هو تعبير حقيقي وصادق عن شخصية أستاذي ابن البدارى الذي علمني الحكمة وقدم لي ولزملائي دروساً لا تنتهي في العطاء والسمو الروحي، والتعالي، والترفع عن الصغائر، فلا عجب إذا أحبه الجميع وصار ملكاً متوجاً على عرش القلوب!! و صار مسكنه بميدان الحجاز بمصر الجديدة ملتقى للجميع على اختلاف انتماءاتهم الدينية، والاجتماعية، والثقافية، فهنيئاً لك يا فيلسوف البدارى يحب الناس، الذي هو الميراث الحقيقي الباقي لأن سيرة الانسان أطول من عمره، كما يقال في المثل الشعبي المصري الصادق.

ومن جانبي حاولت - قدر المستطاع - تكريم ذلك العلم المصري البارز، فأهديت له كتابي: الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب وذلك عام 2000م، وذكرت في نص الإهداء "..... الذي علمني كيف يكون إشراق العلم وسط دياجير الظلام!"، كما ترأست مجموعة من الباحثين في تاريخ الحروب الصليبية، وأصدرت كتاباً تكريمياً له بعنوان: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (العصور الوسطى) وقد صدر عام 2002م، حيث سعد به استاذي غاية السعادة لأنه أدرك أن ثمار غرسه أينعت وصارت غابات حب وأدغال مودة بملاء قلوب تلاميذه ومحبيه!!، ومن بعد ذلك خصصت عنه فصلاً في كتابي رواد تاريخ العصور الوسطى في مصر الصادر عام 2007م. وتناولت فيه ملامح حياته وإصداراته العلمية القيمة التي أثرى بها المكتبة العربية سواءً من تأليفه أو ترجمته حيث يوصف بالفعل بأنه حجة في اللغة الإنجليزية التي كتب بها شعراً عذباً سلساً حتى أن المؤرخين الإنجليز أنفسهم شهدوا له بتلك البراعة المشهودة في لغتهم تأليفاً وترجمة منها إلى لغة الضاد التي عشقها هي الأخرى.

والآن أجد نفسي في حيرة محيرة وقلق مقلق، كيف أنهي هذا المقال عن ذلك المؤرخ الفذ؟ إن لغتي عاجزة ومعجمي اللغوي يرفع راية الاستسلام البيضاء! ومع ذلك سأستجمع مالدئ من حصاد الهشيم المتواضع وكلماتي المبعثرة هنا وهناك وسأقول: شكراً جزيلاً ووافراً لفيلسوف البداري ا. د. إسحق عبيد الذي تعلمت منه الحكمة التي هي ضالة المؤمن، فأنت مثل قارورة المسك المعتق الفواح الذي عم كل تلاميذك ومحبيك وهم كثر، وقدمت مثلاً فريداً على المؤرخ العالم الزاهد في المناصب إلا منصب واحد باق هو: محبة الناس جميعاً! وبوركت يا أسيوط يا من عشقك نيل بلادي إذ أنجبت أرضك المعطاءة الطاهرة ذلك الفارس النبيل والفيلسوف المحب للمحبة وابن الحكمة. د. اسحق عبيد أستاذي الذي لن أنساه ماحييت.

أ.د/ محمد مؤنس عوض

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

بجامعتي عين شمس والشارقة

كسوف الشمس عام 1124م
دراسة لظاهرة فلكية في تاريخ الصليبيين

د.أ / محمد مؤنس عوض

كسوف الشمس عام 1124م دراسة لظاهرة فلكية في تاريخ الصليبيين

يتناول في هذا البحث ظاهرة فلكية في تاريخ الصليبيين في بلاد الشام في صورة كسوف الشمس الذي حدث عام 1124م، ويتجه إلي تناول ذلك علي المستوى الفلكي العام، ثم ما ورد في شأن تلك الحادثة من إشارات في الكتابة التاريخية الصليبية المعاصرة، و دلالاتها وأثر تلك الحادثة علي الصليبيين في ذلك العصر .

واقع الأمر، يعد القرن الثاني عشر م قرناً ثرياً في حوادثه ذات الطابع الجغرافي سواءً في الأرض أو في السماء علي نحو يكشف لنا عن أهمية العنصر الجغرافي في حركة التاريخ، ولا تغفل هنا الإشارة إلي أن الجغرافيا توجه التاريخ، وما التاريخ إلا الصراع عليها من جوانب عدة، وهكذا وجدنا ظاهرة الزلازل(1)، وكذلك إغارات أسراب الجراد(2)، وقد اتجهت إلي دراستهما من قبل، والآن أتجه إلي دراسة ظاهرة فلكية في صورة كسوف الشمس في العام المذكور .

الواقع أن الباحث في هذا الموضوع تواجهه عدة مصاعب منها ندرة الإشارات في المصادر الصليبية، وكذلك العربية علي حد سواء، وهو أمر يمكن تعليقه من خلال انهماك المؤرخين المعاصرين - بصفة عامة- في عرض الأحداث السياسية، والعسكرية الطابع الواقعة علي الأرض، وعدم توجيههم ذات الاهتمام لظواهر فلكية في السماء، وينطبق ذلك علي المؤرخين المسلمين والصليبيين علي السواء .

وبالتالي فعلينا التعامل مع عبارات موجزة، ومقتضبة من ذلك العصر، وتحليلها لاعتصار دلالاتها الجغرافية، والتاريخية مع عدم إعتساف الحكام أو القولية بصورة تخل بالموضوعية.

ويضاف إلي ذلك أن موضوع البحث ذاته واقع بين الجانبين الجغرافي الفلكي، والتاريخ - كما أسلفت الذكر - ومثل هذا الوضع يتطلب من الباحث عدم الاعتماد فقط

علي المؤلفات التاريخية، وكذلك الفلكية الصرفة أيضاً .
كما لا نغفل أيضاً قلة الدراسات الحديثة الخاصة بتاريخ الظواهر الفلكية - بصفة عامة - (3) إلا ما ندر، وهو أمر زاد من مصاعب الدراسة بطبيعة الحال، ويتطلب البحث، تسليط الضوء علي الشمس ذاتها كنجم من أجل إدراك طبيعة الكسوف كظاهرة فلكية كي ندرسها من الجانب التاريخي .

وتجدر الإشارة، إلي أن الشمس **The Sun**، هي قلب النظام الشمسي **Solar System**، وقطب رحي الكواكب، وتوصف بأنها كرة ضخمة من الغاز المشتعل يبلغ قطرها حوالي (1391000) ك.م، وهي في حقيقتها مفاعل نووي جبار تحول في كل ثانية ملايين من الأطنان من قوى الهيدروجين إلي قوى الهليوم، والطاقة الشمسية المتحررة نتيجة لهذا التحول في الإندماج تقدر في كل ثانية بملايين الملايين علي نحو يسمح بريقها، ولمعناها المستمر منذ أن تكونت منذ حوالي خمسة آلاف مليون عام (5000,000,000 عام) (4)، ويلاحظ ان متوسط درجة حرارة الشمس تبلغ (6000) درجة مئوية(5).

من ناحية أخرى، نعرف أن متوسط بعد الشمس 150 مليون ك.م تقريباً، ويبلغ قطرها (1391000) ك.م، أي ما يعادل (109) من قطر الأرض وكثافتها تساوي (1,4) من كثافة الماء(6).

ويلاحظ أن الشمس تدور حول نفسها، إضافة إلي حركتها البيضاوية حول مركز المجرة (مجرة التبانة) أو (الطريق اللبنة **Milky Galaxy**) مع المجموعة الشمسية، وسرعتها في هذه الحركة الأخيرة تساوي (250) ك.م في الثانية الواحدة(7)؛ أي ما يعادل (15000) ك.م في الدقيقة أو ما يعادل (900,000) ك.م في الساعة الواحدة، مما دل علي السرعة البالغة لحركتها، وكل ذلك يكشف لنا عن جلال صنع الله تبارك وتعالى، وهو أعظم الخالقين .

وتجدر الإشارة، إلي أن الشعوب القديمة قدرت الشمس بل، وجعلتها من

المعبودات كما في حالة المصريين القدماء الذين اطلقوا عليها "رع" وجعلوها إلهاً(8).
ومن الظواهر الفلكية المتصلة بالشمس ما يعرف بالكسوف Solar
Eclipse ومنه الكلي Total Solar Eclipse ، ومنه الجزئي Partial
Solar Eclipse، وهناك أيضاً الكسوف الحلقي Annular Eclipse ،
والكسوف المختلط (9) .

أما الكسوف الكلي فيحدث عندما يكون القمر بين الأرض والشمس، وهو في
أقرب نقطة من الأرض، والكسوف الجزئي يحدث عندما يكون القمر بين الأرض،
والشمس، ولكنه يغطي جزءاً من الشمس بالنسبة للأرض، ويحدث الكسوف الحلقي
عندما يكون القمر بين الأرض والشمس، وهو في أبعد نقطة من الأرض، ويكون القمر
محاقاً، أما الكسوف المختلط فيري حلقياً في منطقة، وكلياً في منطقة أخرى من علي
سطح الأرض.

ومن المهم هنا الإقرار بأن ظاهرة الكسوف الشمسي تحدث إذا وقع جسم في
منطقة ظل أو شبه ظل جسم آخر، فإذا حجب ظل القمر الشمس من الأرض علي
نحو كلي أو جزئي يحدث كسوف كلي أو جزئي للشمس (10) .

ويتراوح بعد القمر عن الأرض ما بين (360) و(405) ألف كم، بينما يبلغ
طول مخروط الظل الناتج عنه حوالي 383 ألف كيلو، وبذلك يمكن ان يصل إلي
سطح الأرض، او يحدث الكسوف فقط عندما يقع القمر مباشرة بين الأرض
والشمس أي قرب ميلاد الهلال الجديد (11) .

ولا تغفل زاوية مهمة، وهي أن الكسوف لا يحدث كل شهر، لأن الاقتران في
أول الشهر لا يعني وقوع القمر علي خط واحد مع الأرض والشمس؛ فمدار القمر
يميل علي دائرة البروج إلا عندما يمر بعقدتي المدار، وبذلك لا يحدث الكسوف إلا إذا
تحقق الشرطان الآتيان:

أولاً: أن يكون القمر عند مولد الهلال الجديد قريباً من إحدى هاتين العقدتين .

ثانياً: يكون بعده عن الأرض مناسباً لوقوع ظل عليها (أي أقرب من 383 ألف كيلو) أو ما يطلق عليه الحضيض (12) .

ودائرة البروج السالفة الذكر، هي الدائرة السماوية العظمى التي يقع فيها مستوى مدار الأرض حول الشمس، وتميل علي مستوى الاستواء السماوي بزاوية مقدارها 23 و 27، ونقطع دائرة الاستواء السماوية في نقطتين (الاعتدالين الربيعي والخريفي)، وهي هابطة باتجاه نصف الكرة السماوي الجنوبي (23 سبتمبر) وهي صاعدة باتجاه نصف الكرة السماوية الشمالي في (21 يونيو) حيث تدخل نظرياً في برج السرطان كما يبلغ أقصى إمتداد لها في السماء الجنوبية في (21 كانون الأول) حيث تدخل نظرياً في نطاق برج الجدي، وتعرف بدائرة البروج بهذا الاسم نظراً لأنها تضم في طياتها البروج الشمسية الإثني عشر ولذا فهي تشغل حزاماً عريضاً في الكرة السماوية (13).

وبصفة عامة، فإن الكسوف إذا كان كلياً فلا بد أن يسبقه، ويعقبه كسوف جزئي، كما ان الكسوف الكلي لا يستمر أكثر من (5,7) دقيقة (14) . وفي أثناء فترة الكسوف الكلي يمكن مشاهدة بعض النجوم، والكواكب في السماء نهاراً، وهناك من يقرر أن بعض أنواع الزهور تغمض قبل بدء الكسوف مباشرة كما تبدي الطيور سلوكاً غير معتاد، مثل: العودة إلي أعشاشها معتقدة أن الغروب قد حل (15)، مما يدل علي أثر تلك الظاهرة الفلكية علي النباتات والطيور التي تحيا علي الأرض، وكذلك الإنسان بطبيعة الحال .

وتجدر الإشارة، إلي أن ظل القمر يتحرك عند خط الاستواء، وتزداد في العروض العالية، وعلي جانبي منطقة الكسوف الكلي كثيراً حوالي (269) ك.م (16). ويلاحظ أن كسوفات الشمس وكسوفات القمر تحدث كل (18) سنة، و(11) يوماً، وتسمى هذه الفترة التي عرفها البابليون بدورة ساروس (17) .

بصفة عامة، اندلعت الحروب الصليبية Crusades, Croisades علي أثر

خطاب البابا أوربان الثاني Urban II (1089-1099م) في كليرمونت Clermont بفرنسا في 17 نوفمبر عام 1095م، وبعد أعوام قلائل كان الصليبيون قد تمكنوا من إقامة كياناتهم في بلاد الشام، والجزيرة في صورة إمارات الرها Edessa، وأنطاكية Antioch، ومملكة بيت المقدس Jerusalem، وطرابلس Tripolis، وكانت الإمارات المذكورة تابعة لتلك المملكة (18).

وبعد ربع قرن من استقرار الغزاة في المنطقة، حدثت حادثة كسوف للشمس ذكرها المؤرخ الصليبي فوشيه الشارترى Fulcher of Chartres، حيث قدم تناولاً لتلك الحادثة في نص مركز حيث قال: " في ذلك الحين، بدت لنا الشمس بلون باهر مدة ساعة واحدة، وقد تبدلت بجمال أرجواني غير معتاد، وأنقلبت إلي شكل قمري كما لو كانت في كسوف مزدوج، حدث ذلك في اليوم الثالث قبل منتصف أغسطس عندما قاربت الساعة التاسعة علي الانتهاء " (19).

ويمكن استنتاج عدة دلالات من خلال النص المذكور علي النحو التالي:
أولاً: تدل عبارة " بدت لنا الشمس بلون باهر " علي حدوث كسوف كلي لها، كما أن عبارة " وانقلبت إلي شكل قمري " فهي تدل علي حدوث كسوف جزئي، ومدته أطول من السابق، ومن خلال معرفتنا الفلكية نعلم ان مدة الكسوفين معاً بلغت نحو الساعة و40 دقيقة تقريباً .

ثانياً: اتسم عرض ذلك المؤرخ عموماً بالدقة في الوصف، ومن المرجح أن حادثة الكسوف الشمسي عموماً لم تكن غريبة عليه، ونستطيع أن ندرك من السياق العام للنص، وجود سابق خبرة يمثل تلك الظاهرة الفلكية بالنسبة له، ومن المفترض حدوث مثيلات لها عاصرها في الغرب الأوروبي فيما قبل عام 1095م، لذلك جاءت عباراته مقتضبة، ومركزة، إذ في حالة حدوث عكس ذلك، لأفاض وفصل في الأمر بصورة تعكس الدهشة والعجب .

ثالثاً: من الخطأ البين تصور عبارة " مدة ساعة واحدة " علي أنها بالفعل زمنية (60

دقيقة)؛ إذا أن العرض السابق لتلك الظاهرة يكشف لنا ان الكسوف الجزئي والكلي امتداد إلي (100) دقيقة تقريباً .
رابعاً: أدت مدة الكسوف الطويلة نظراً لازدواجه إلي أن شاهد ذلك عشرات الآلاف من الصليبيين في ربوع المملكة الصليبية، وكذلك المسلمين الخاضعين لهم، وبالتالي ففوشيه الشارترى أحد شهود العيان لتلك الحادثة .
خامساً: حدد ذلك المؤرخ وقت تلك الحادثة بيوم 12 أغسطس عام 1124م (20) - وذلك التحديد يعكس إدراكه لأهمية الحادثة ذاتها - وإن اشارت فرانسيس ريتاريان في تعليقها علي النص أن هناك من المؤرخين - الذين لم نذكرهم - من حددها بيوم 11 أغسطس 1124م (21)، وأن كنت أرجح يوم 12 أغسطس علي اعتبار وضوح نص المؤرخ المذكور الذي عرف عموماً بالدقة .
سادساً: لم تكن هذه أول حادثة فلكية في تاريخ الصليبيين، إذ سبقها في يوم 24 فبراير من عام 1100م حادثة خسوف القمر أشار إليها المؤرخ الأرميني متى الرهاوي(22)، وتبقي حادثة عام 1124م أي بعد نحو ربع قرن كأول حادثة كسوف للشمس في تاريخ الغزاة في بلاد الشام .
وبصفة عامة فإن ذلك حدث خلال حكم الملك الصليبي بلدوين الثاني(23) BaldwinII (1118-1131م) الذي يعد تاريخه مكماً لعهد سلفه بلدوين الأول(24) Baldwin I ، وتجدر الإشارة إلي ان الحادثة المذكورة ليست هي الأولى في تاريخ المنطقة في عصر الحروب الصليبية، ففي بلاد الشام ومصر، نجد أن هناك حالتين للكسوف في 5 يناير، وكذلك 25 ديسمبر عام 1098م (25)، وقد شوهدا من القاهرة الفاطمية .

من ناحية أخرى، نجد أن المؤرخ الصليبي فوشيه الشارترى أورد تلك الحادثة، إلا أن المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي (ت1160م) علي الرغم من معاصرته لها خلال وجوده في مدينة دمشق، لم يورد شيئاً عنها، ومن المفترض أن انهماكه في الأحداث السياسية،

والعسكرية خاصة تلك الواقعة علي الساحل اللبناني علي نحو خاص، وكذلك علاقات دمشق - عاصمة بلاد الشام التاريخية - مع القوى الإسلامية، والصليبية كل ذلك جعله يشغل عن عرض حادثة من الحوادث الفلكية في السماء، وليست علي الأرض، وهناك احتمال آخر في صورة أن الكسوف المذكور شوهد في مناطق مملكة الصليبيين، ولم يشاهد في مناطق المسلمين، وهو احتمال غير مرجح نظراً لقرب المسافات بين مناطق الجانبين.

كما أن المؤرخ الصليبي William of Tyre (ت1186م) لم يشر إلي حادثة الكسوف المذكورة هو الآخر، ولعل من عوامل ذلك أنها حدثت قبل نحو 3 أعوام من ميلاده عام 1127م، ومن المفترض انه في حالة معاصرته لها لأوردها في كتابه تاريخ الأعمال *Historia rerum* ، ولا يفهم من هذا أن ذلك المؤرخ لم يهتم بالظواهر الجغرافية الأخرى، إذ أنه قدم إشارات علي جانب كبير من الأهمية تتعلق بظاهرة الزلازل *Earthquakes* ، إذ أنه قدم إشارات علي جانب كبير من الأهمية تتعلق بظاهرة الزلازل *Earthquakes* كما حدث في تناوله لزلازل عام 1170م علي سبيل المثال .

أما عن تلك الحادثة الفلكية، فمن المفترض انها أحدثت أثرها النفسي السيء علي الصليبيين أنفسهم كما هو متوقع. وكذلك كان لها تأثيرها علي الكتابة التاريخية *Historical Writing* التي وصلت إلينا من ذلك العصر، وهكذا، نجد أن ذلك الكسوف عكس خوف، وقلق، وتشاؤم الصليبيين خاصة انها اول حادثة علي هذا النحو في بلاد الشام التي هي بمثابة عالم جديد بالنسبة لهم، ومع استفحال ظاهرة التدين العاطفي في أوروبا العصور الوسطى، وامتدادها في الشرق اللاتيني، فقد تصور البعض منهم أنها " معجزة " (26) كما يفهم من نص فوشيه الشارترتي نفسه.

أما علي الصعيد الكتابة التاريخية، يلاحظ ان المؤرخ الصليبي المذكور ربط بين ما حدث في السماء، وكذلك ما وقع علي الأرض من تغيرات جذرية في حياة الصليبيين،

حيث لفت نظرنا إلى "معجزات" الأرض مثلما هناك ما تصوره قطاع من الصليبيين بأنه معجزة في السماء وعلق قائلاً: " .. أنني اتوسل إليك أن تمنع الفكر ملياً كيف حول الله في عصرنا هذا الغرب إلى الشرق " (27) .

وبالتالي فإن تلك الحادثة جعلت ذلك المؤرخ يقدم لنا نصاً فريداً عن تأثر الصليبيين بالبيئة الجديدة في بلاد الشام التي احتوت الغزاة، والذين تم غزؤهم معاً، وصهرت الفريق الأول، وبالتالي كانت ظاهرة التمشق هي بمثابة المفاجأة التي كانت تنتظرهم (28) .

والواقع أن المؤرخ المذكور شرح لنا تلك الزاوية من خلال لحظة تأمل عميق علي نحو ميز تاريخه في الناحية الحضارية عن غيره من المصادر التاريخية الصليبية في بلاد الشام علي مدى القرن 12م علي الأقل دونما مبالغة.

لقد أوضح أن من كان ينتسب إلي مدينة في الغرب الأوروبي صار شرقياً، وصار ينتسب إلي مدن صور، وأنطاكية، وأن الصليبيين نسوا أماكن ولادتهم، وهي غير معروفة للكثيرين منهم، ولا يرد ذكرها لديهم (29) .

كذلك أشار إلي التزاوج بين الصليبيين والمسيحيات الشرقيات مثل السوريات، والأرمنييات (30)، والمسلمات اللاتي تنصرن ضمن مشروع البابوية لتنصير مسلمي الشرق في عصر الحروب الصليبية (31)، كما أشار إلي وجود أحفاد وأولاد أحفاد ولدوا علي أرض بلاد الشام من الأجيال الصليبية (32)، وإن كنت أتصور وجود مبالغة في عبارة أولاد الحفاد علي أساس أن الغزاة عند كتابته لتاريخه ما مكثوا في المنطقة سوى ما زاد قليلاً علي الربع قرن من الزمان علي نحو لم يسمح بوجود أكثر من جيل صليبي واحد.

من جهة أخرى، أشار إلي أن من كان يملك من الصليبيين ضيعة في الغرب الأوروبي، صار يملك قرية في الشرق. ولذلك من ذا الذي يفكر منهم في العودة إلي هناك؟ (33)، وبالتالي أكد ما ورد أصلاً في خطاب البابا اوريان الثاني السالف الذكر (34) عندما أشار إلي الدافع الاقتصادي صراحة إذ ذكر أن الأرض هناك

ضاقت بساكنها، وبالتالي طلب مستمعيه بالتوجه إلى أرض كنعان (أي فلسطين) التي تفيض لبناً وعسلاً، وبالتالي أتضح لنا أن الصليبيين اعتبروا وجودهم في بلاد الشام، ومن خلال إماراتهم بمثابة وطن **Patria**، ولا ريب في أن ثراء بلاد الشام الزراعي، والتجاري قد حفزهم علي التمسك بما أغتصبوه من أملاك المسلمين .

كذلك أشار إلي تعدد لغات الكيان الصليبي، وأن الناس لجأوا إلي استعمال تعابير من لغات مختلفة في التحادث فيما بينهم (35)، وبالتالي أكد الخليط السكاني القادم من الغرب الأوروبي بلغات عديدة، مع ملاحظة أن ذلك كان مظهراً من مظاهر عدم تجانس الكيان الصليبي، وكان عاملاً من عوامل انهياره في ختام المطاف عام 1291م .

وهكذا، فإننا ندين لظاهرة الكسوف التي حدثت عام 1124م في دعوة ذلك المؤرخ لإدراك حجم التغيير الذي لحق بالصليبيين في بلاد الشام بعد جيل واحد من وجودهم هناك .

ومع ذلك، علينا أن ندرك عبارة الإنتساب إلي المدن الشامية التي أوردها ضمن سياقها التاريخي الصحيح فقد ذكر أن من الصليبيين الذين قدموا من " الراين أو شارتر صار الآن مواطناً في صور أو أنطاكية!! (36)، والواقع أن صور كانت حديثة الوقوع في قبضة الصليبيين العسكرية إذ أنها لم تسقط إلا في أوائل يوليو 1124م (37)؛ أي في الشهر السابق مباشرة لحادثة الكسوف، وبالتالي كان إنتساب الصليبيين إليها "حديثاً" للغاية علي عكس صيدا مثلاً التي سقطت في عام 1111م (38) قبل 13 عاماً من الحادثة المذكورة، ولعل حماسه الصليبي قد جعله يذكر أمر مدينة صور علي هذا النحو علي اعتبار أن نشوة الانتصار الذي حققه الغزاة في عهد الملك بلدوين الثاني جعله يورد نصه بمثل تلك الصورة خاصة أن تلك المدينة التي اشتهرت بحصانتها الطبيعية، والصناعية استعصت عليهم علي مدى ربع قرن من الزمان، بعد محاولات مستميتة منهم لإخضاعها .

ولا نغفل هنا ملاحظة أنه علي مدى عملية إخضاع الساحل الشامي التي امتدت أكثر من نصف قرن من عمر الزمان (1100-1153م) أي بعد إخضاع المدينة الأولى ب29 عاماً وبالتالي نحن أمام كتابة مؤرخ لديه شعور بالتفوق علي أعداء قومه .

ومن المهم هنا إدراك، أن ذلك المؤرخ وصف تلك الحادثة التي وقعت عام 1124م وكان قد بلغ من العمر نحو (65) عاماً، ومعني ذلك أنه كان رجلاً ناضجاً حنكته تجارب الحياة بين ضفتي المتوسط الغربية والشرقية، ولذلك كانت دعوته المذكورة للتأمل في تلك المعجزة التي ذكرها، وبالتالي فإن المرحلة العمرية التي كان قد بلغها حينذاك دعته إلي تأمل ذلك الأمر بمثل تلك الصورة مع عدم إغفال قدرته علي المقارنة، والتعمق فيما وراء الظواهر المختلفة خاصة الاجتماعية .

وقد أورد أمردلك الكسوف قبل ثلاث سنوات فقط من نهاية حوليته التي توقفت عند عام 1127م، ويلاحظ أن المؤرخ المتأمل بإمعان للجزء الأخير من تاريخه يدرك عموماً تزايد النزعة التأملية لدى ذلك المؤرخ وسعيه لرصد واقع الصليبيين المعاش بنظرة عميقة .

وقد جاء عرضه لها بعد نحو (50) يوماً فقط من احتفال الصليبيين بذكرى غزورهم لبيت المقدس، ودخولهم لها في يوم 15 يوليو عام 1099م (39) ، وهو يوم صار بمثابة العيد السنوي الذي يحتفل فيه الغزاة بإنجازهم الحربي المذكور الدموي علي المسلمين، وقد عمق عن شعوره بوجود " معجزة " أن الحادثة المذكورة وقعت في مرحلة وسط الاحتفالية المذكورة، وكذلك إسقاط صور في القبضة الصليبية .

ومع ذلك ندرك أن ما تصوره ذلك المؤرخ من التحول الذي طرأ علي الصليبيين بالحياة في الشرق لم يكن في صالحهم دائماً، إذ أن ذلك دل علي ضعف موقفهم الحضاري، واستفحال نفوذ أعدائهم، وصار الغزاة في مازق إذ أن من أقام منهم زمناً طويلاً في الشرق تأثر بالمسلمين

حضارياً علي عكس الحديث العهد بالمنطقة.

ومن جهة أخرى، نلاحظ استمرار حالات الكسوف علي مدى قرني تاريخ الحروب الصليبية في الشرق، ومن ذلك حدوث تلك الظاهرة في التحديدات الزمنية التالية .

* 26 نوفمبر 1174 م .

* 11 أبريل 1176 م .

* 13 سبتمبر 1178 م .

* 6 أكتوبر 1241 م (40). وهي في أغلبها كسوفات جزئية حدثت في مواقع مختلفة .

ومن الجلي البين أن عقد السبعينيات من القرن الثاني عشر م شهد تعدد حدوث مثل تلك الظاهرة، وليس هنا مجال إيراد كافة حالات الكسوف علي مدى قرنين كاملين، بل ما نذكره ما هو إلا مجرد نموذج فقط تؤكد علي أن حادثة عام 1124م ما هي إلا امتداداً لحالات سابقة، ومقدمة لأخرى تالية .

يبقي أن نذكر هنا أن حادثة 1124م التي أوردها فوشيه الشارترى لم يذكر عنها أي تحليل يوصف بأنه " علمي " علي الرغم من أن علماء الفلك المسلمين من قبل القرن 12م، قاموا برصدها، وتحليلها بدقة كبيرة، ويكفي أن نذكر في هذا المجال الفلكي البارز ابن يونس المصري (41) (ت 1009م) الذي فصل أمرها من خلال مؤلفاته المتعددة خاصه كتابه: " الزيج المالكي الكبير " الذي وقع في أربعة مجلدات، وكتابه " جداول السمات وجداول في الشمس والقمر " (42) .

أما البيروني (43) (ت 1048م) ؛ وهو من أكبر الفلكيين المسلمين في العصور الوسطى نجده قد أورد امر ظاهرة الكسوف في مؤلفاته حيث ذكر " ... وكسوف الشمس إن هو إلا ستر القمر للشمس عنا ... ولأن سائر القمر عظيم فإن ضوءه يضمحل عند إنكساف نصفه، وسائر الشمس ليس بعظيم، ولذلك يكون قوى الشعاع مع الكسوف " (44)، كما لا نغفل أن القزويني (45) (ت 1287م)، أورد أمر

كسوف الشمس في مؤلفاته هو الآخر (46) .

ولا ريب في ان ذلك يدل دلالة وضّاحة علي أن هناك فوارق عليمّة متسعة بين المسلمين والصليبيين في إدراك مثل تلك الظاهرة الفلكية التي اعتبروها "معجزة!!"، مع ملاحظة انه فيما بعد عصر فوشيه الشارترى حدثت نهضة القرن الثاني عشر في الغرب الأوروبي، وتمثلت مظاهرها في حركة ترجمة بارزة تمت خلالها ترجمة مؤلفات في الفلك مثلما حدث من جانب جيرارد الكريمويني Gerard of Cremon (47) (1114-1187م)؛ مما ادي إلي توسع معارف الأوروبيين الفلكية، ولا تزال هناك مسميات فلكية تستخدم إلي الآن ذات أصل عربي (48)، وهو أمر من حصاد الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى وميراثها .

وهكذا يتضح لنا بجلاء أن الغزاة الصليبيين الذين تمكنوا من هزيمة المسلمين حريباً في المرحلة الباكرة من تاريخهم في المنطقة، بعد ان أنقشع غبار المعارك؛ أتضح ان أولئك الذين تم غزوهم، كانوا أرقى حضارة من الصليبيين .

نخلص من ذلك إلي عدة نتائج يمكن إجمالها علي النحو التالي :

أولاً: إن التاريخ الجغرافي أو الجغرافية التاريخية تحتل أهميتها البارزة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، وخاصة تاريخ الصليبيين أنفسهم، فلا يمكن الاعتماد علي المصادر التاريخية الصرفة، ونعني الجانبين السياسي والعسكري دون الاهتمام بالظواهر الأخرى مثل تلك المتصلة بالجغرافية الفلكية كما في حالة بحثنا هذا، ولا تزال هناك العديد من الموضوعات الجديدة بالدراسة في النطاق المذكور من أجل إثراء دراسة تلك المرحلة البالغة الأهمية تاريخياً. في مجال العلاقات بين الشرق والغرب .

ثانياً: تأكد لنا أن دراسة حالة كسوف الشمس التي شاهدها الصليبيون في أغسطس من عام 1124م، سلطت الأضواء علي تلك الظاهرة الفلكية علي الكتابة التاريخية عصر الحروب الصليبية، وكذلك علي رؤية أحد المؤرخين المعاصرين

الحروب الصليبية – حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

أنفسهم، وجاء ذلك في وقت انهمك فيه الكثيرون منهم بتناول الأحداث السياسية، والعسكرية الصاحبة .

ثالثاً: أقرت المصادر التاريخية الصليبية ان الغزاة بعد أن تمكنوا من إقامة كياناتهم الدخيلة في بلاد الشام والجزيرة، ارتبطوا بالمنطقة ارتباط المستعمر بالفريسة التي أراد نهبها نهباً منظماً، ولذلك لا عجب إذ أقر المؤرخ فوشيه الشارترى صراحة أن الصليبيين الذين كانوا غربيين صاروا شرقيين، وجاءت عباراته واضحة، وقوية بعد ربع قرن فقط من تاريخ الوجود الصليبي في المنطقة .

رابعاً: لعل النتيجة البارزة من وراء هذا البحث أنه يكشف عن ضرورة مطالعة النصوص المصدرية لعصر الحروب الصليبية التي كتبها المؤرخون الصليبيون أنفسهم وتاملها لأنها تلقي أضواءً كاشفة علي الطرف الغازي، ونظرته للعالم المحيط به علي نحو لا تستطيع أن تقدمه لنا المصادر العربية المعاصرة إلا في حالات بالغة الندرة مع عدم إغفال أهمية المصادر الأخيرة في قضايا الصراع الحربي، والسياسي بين الجانبين علي نحو خاص. ذلك عرض عن حادثة كسوف الشمس عام 1124م كظاهرة فلكية في تاريخ الصليبيين.

الهوامش

أغتنم فرصة إعداد هذا البحث من أجل تقديم شكري ووافر تقديري للعالم العراقي ا.د. حميد مجول النعيمي مدير جامعة الشارقة بالوكالة، ورئيس الاتحاد العربي لعلوم الفضاء والفلك الذي قدم لي العديد من الملاحظات العلمية القيمة، والشكر موصول لمرصد حلوان للبحوث الفلكية والجيوفيزيقية، ومكتبتي الجامعة الأمريكية بالشارقة وكذلك بالقاهرة، ومكتبة كلية العلوم - جامعة عين شمس، ولا اغفل فضل مركز جمعه الماجد للثقافة والتراث بدبي بمكتبه العامرة، كما افدت من عدد من المواقع علي شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) .

(1) عن الزلازل في بلاد الشام في ذلك العصر أنظر :

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز، ط. بيروت 1908م، ص 354، الفتح البنداري، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، ط. القاهرة 1989م، ص 47، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، ط. بيروت 1971م، ص 189، السيوطي، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ط. بيروت 1987م، ص 195-197، ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودو، ط. دمشق 1982م، ص 25، الذهبي، دول الإسلام، ط. حيدر آباد الدكن 1365هـ ن ص 79 .

Geoffry of Donjon, in H. Mary , " Two unpublished Letter on The earthquake of 1202", in Medieval and Middle Eastern Studies , in honor of Aziz Surial ATiya ,ed. Sami Hanna , Leiden 1972, pp.306-307.

عبد الله يوسف الغنيم، " أسباب الزلازل وأحداثها في التراث العربي - دراسة جغرافية "، مجلة المجمع العلمي العراقي، م (32)، ج (4) عام 1984م، ص 235 - 236، محمد مؤنس عوض، الزلازل في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة 1996م،

ص 55-157، هدي الويسي، الهزات الزلزالية في بلاد الشام في القرنين 12،13م، ط. القاهرة 2008م، ص 51-181 (وهو في الأصل أطروحة ماجستير تحت إشراف بكلية الآداب - جامعة أسيوط)، عماد الدين خليل، نور الدين محمود وتجربته الإسلامية، ط. دمشق 1987م، ص 18، إياهو اشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ت. عبد الهادي أبو عبلة، ط. دمشق 1985م، ص 281.

R. Ruhricht, Geschichte des Konigrichs Jerusalem, Innsbruck 1889,p.348.

(2) عن إغارات أسراب الجراد في ذلك العصر أنظر :

Fulcher of Chartres, A History of The Expedition to Jerusalem, Trans by Frances Rita Rian, Tennessee 1969, p.210.

العظيمي، تاريخه، تحقيق علي سوم، الجمعية التاريخية التركية، ط. أنقرة 1976م، ص 34، العماد الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية م (7)، (8) B.E.O., T. VII- VIII, Annee 1937-1938 ص 130، ابن أيبك الدواداري، الدرّة المضيئة في اخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. القاهرة 1961م، ص 56، محمد مؤنس عوض، إغارات أسراب الجراد وأثرها في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية 1114-1159م 509-554 هـ، ط. القاهرة 2002م، ص 5-49.

(3) من أمثلة ذلك أنظر:

حسين الطرابلسي، سجلات الكسوف والخسوف عند المؤرخ ابن إياس الحنفي فكتابه " بدائع الزهور " ومقارنتها بالحسابات الفلكية الحديثة، الدارة العدد (1)، محرم 1426هـ السنة (32)، ص 107-134، حسن محمد بابة، " المذنبات التي سجلت في التاريخ الهجري"، مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: العلوم، م (16)، عام 2004م / 1424هـ،

ص 3-17.

(4) يحيى الشامي، علم الفلك صفحات من التراث العلمي العربي والإسلامي، ط. بيروت 1997م، ص 23 .

(5) نفس الصفحة .

(6) نفسه، نفس الصفحة .

(7) محمد عباس، المدخل إلي علم الفلك والتقاويم، ط. دمشق 1991م، ص 20.

وعن الشمس بصفة عامة، انظر :

القرآن الكريم، سورة الرحمن، آية (5)، أسماء محمد سليمان، موسوعة الفلك والكون، ط.

عمان 2004م، ص 31-32، محمد محمود الصواف، المسلمون وعلم الفلك، ط.

الرياض ب- ت، ص 60-69، دانيال موشيه، علم الفلك دليل التعليم الذاتي، ط.

الرياض 2003م، ص 153-191، خزعل الماجدي، موسوعة الفلك عبر التاريخ، ط.

عمان 2001 م، ص 192، خليل البدوي، الموسوعة الفلكية، ط. عمان 1999م، ص

24، محمود عصام الميداني، الأطلس الفلكي، ط. دمشق 1996م، ص 46-52،

محمد عباس، المدخل إلي علم الفلك والتقاويم، ط. دمشق 1991م، ص 20-

22، مجموعة من الباحثين، موسوعة الفلك، الكون، البيئة، والتلوث، ط. بيروت

1997م، ص 18-21، كرنيليوس فانديك، أصول علم الهيئة، ط. بيروت 1874م،

ص 76-90، مجموعة من الباحثين، بهجة المعرفة - الكون، المجموعة الأولى، (2)، ط.

بيروت ب- ت، ص 48-51، مراد إبراهيم الدسوقي، موسوعة علم الفضاء الميسرة، ط.

القاهرة 1991م، ص 2-10، محمد جمال الدين الفندي ومحمد يوسف حسن، قصة

السموات والأرض، ط. القاهرة 1957م، ص 18-19، علي موسي ومخلص الرئيس،

المنظومة الشمسية، ط. دمشق 1983م، ص 11-74، زغلول النجار، من آيات الإعجاز

العلمي السماء في القرآن الكريم، ط. بيروت 2007م، ص 431-448، محمد يوسف

حسن وعمر حسين شريف وياقر النقاش، اساسيات علم الجيولوجيا، ط. عمان 190م،

ص 40-42، ماجد السيد ولي محمد، حركة الشمس الظاهرية في مدينة البصرة"، مجلة
الجمع العلمي العراقي، ج(3)، ج(45) عام 1948م، ص 146-163.

D. Rousseau, Notre Soleil, Papeos 1953, pp. ii-252.

J. D. Cuttnell & K.W. Johnson, Physics, U.S.A. 2007, p.225.

H. Collins & T. Pinch, The Golem what you should know about Science, Cambridge 1998, pp. 57-78.

*ar.wikiperdia .org/ wiki.

*www.salahws .com / oss / OSun / Sun .php.

*www. mor 3ben .com / mayso 3a/index 3236.htm.

* www .saaid .net / Doat /yahia /12.htm.

(8) يلاحظ أن إله الشمس " رع " في عقيدة قدماء المصريين ظهر عادة في نقوش
مقابرهم علي شكل رأس صقر موضوع علي جسم إنسان، وقد اعتقدوا بتحكمه في الكون
من خلال الإبحار بقاربه حاملاً معه الشمس عبر السماء وكان ينقل العالم من النهار إلي
الليل ثم يقوم بإعادته مرة أخرى من الليل إلي النهار، عن ذلك انظر :

مراد إبراهيم الدسوقي، المرجع السابق، ص 9، محمد الخطيب، مصر أيام الفراعنة، ط.
دمشق 2001م، ص 75، ووليس بدج، توت عنخ آمون من عادة عبادة آتون إلي التوحيد
في مصر القديمة، ت هشام كامل الدين الحناوي، ط. القاهرة 2003م، ص 183-
186، إريك نونج، وادي الملوك أفق الأبدية، العالم الآخر لدي قدماء المصريين، ط. القاهرة
2002 م، ص 356، شتيندوف وسيل، عندما حكمت مصر الشرق، ت. محمد العزب
موسي، ومحمود ماهر طه، ط. القاهرة 1990م، ص 165، مي إبراهيم زكي، الأعياد في
مصر القديمة، ط. القاهرة 2006م، ص 84، سيريل ألدريد، الحضارة المصرية من
العصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة، ت. مختار السويفي، ط. القاهرة
1996م، ص 160، زكريا رجب عبد الحميد، في التاريخ المصري القديم عصر الدولة
الحديثة، ط. الإسكندرية 2009م، ص 245، مرجريت مري، مصر ومجدها الغابر، ت.

محرم كمال، ط. القاهرة 1998م، ص 128، جورج بوزنر، معجم الحضارة المصرية القديمة، ت. سيد توفيق، ط. القاهرة 2003م ن ص 170-171.
(9) عن الكسوف وأنواعه أنظر :

صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية، ط. استانبول 1979م ج 1979م، ج2، ص24، البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مردولة، ط. حيدر أباد الدكن 1958م، ص 434، القزويني، عجائب المخلوقات، وغرائب الموجودات، ط. بيروت ب- ت، ص 18، ميرفت عوض ومصطفى كمال، علم الفلك العام، ط. القاهرة 1999م،

ص ص 181-183، عماد مجاهد تاريخ الفلك من عصر الهرامات إلى عصر الفضاء، ط. بيروت 2001م، ص 46، خليل البدوي، الموسوعة الفلكية، ط. عمان 1999م، ص 24، محمد باسل الطائي، المرجع السابق، ص ص 130-139، مجموعة من الباحثين، بحجة المعرفة، ص ص 148-152، عبد الأمير مؤمن، قاموس دار العلم الفلكي، ط. بيروت، 2006م، ص ص 391-392، عبد الرحمن بدر، دليل السماء والنجوم، ط. طرابلس 1985م، ص ص 55-57 فؤاد إسماعيل فهمي وعواطف عبد الدائم، المعجم العلمي في الرياضيات، الفلك، الفيزياء، ط. القاهرة 1987م، ص 232، حمد بسام حاتم، الكسوف والخسوف، ط. دمشق 1999م، ص ص 14-83، إبراهيم مصطفى، رحلة إلى السماء، ط. القاهرة ب- ت، ص 30، عبد الهادي علوان وحلال كريم، الشمس والمجموعة الشمسية، ط. بغداد 1985م، ص ص 59-61، محمد بن زيان، معاجم في مصطلحات الفلك في التعليم العالي، معاجم المؤتمر الثالث للتعريب، ط. الدار البيضاء 1977م، ص 13 .

(10) ميرفت عوض ومصطفى كمال، المرجع السابق، ص 181 .

(11) نفسه، نفس الصفحة .

وعن القمر بصفة عامة أنظر :

القرن الكريم، سورة يونس آية (5-6)، ابن الهيثم، ماهية الأثر الذي يبدو علي وجه القمر، تحقيق يوسف زيدان، ط. الإسكندرية 2002م، حميد مجول النعيمي، محاق القمر وهلاله في حساب التقويم الهجري فلكيا وشرعيا بين الماضي والحاضر"، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ العلوم عند العرب والمسلمين بجامعة الشارقة، مارس 2008م، علي محمد السكري، جيولوجية القمر، ط. الإسكندرية 1980م .

R.B. Baldwin, A fundamental Survey of The Moon, New York 1965, pp.24- 138.

(12) مرفت عوض ومصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص 138.
(13) تجدرالإشارة إلي أن الفلكي العراقي البارز البتاني (ت927م) - وهو الذي عرف لدي الأوروبيين باسم Albatagni أو Albatagnius ووصف ببطليموس العرب - حدد ميل دائرة البروج أو ما يطلق عليه علماء الفلك بالدائرة الكسوفية بـ (235) درجة، و(35) دقيقة وهو تحديد بالغ الدقة ويلاحظ أن عالم الفلك الفرنسي لاند قام بقياس ذلك الميل بعد عشرة قرون من رحيل البتاني فوجده (235) درجة، و(35) دقيقة، و(041) ثانية مما شهد للعالم المسلم بالعبقريّة، عن دائرة البروج أنظر :

صبري فارس الهيتي، التراث الجغرافي العربي الإسلامي، ط. عمان 2007م، ص 121، علي حسن موسي، علم الفلك بين السائل والمجيب، ط. دمشق 2004م، ص 150، محمد أمين فرشوخ، موسوعة عباقرة الإسلام في الفلك والعلوم البحرية وعلم النبات وعلم الميكانيكا، ط. بيروت 1995م، ص 69، أحمد مدحت إسلام، علماء العرب والمسلمين وإنجازاتهم العلمية في بناء الحضارة الإنسانية، ط. القاهرة 1999م، ص ص 68- 72.

(14) مرفت عوض ومصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص 182.

(15) حمد بسام حاتم، المرجع السابق، ص 33 .

(16) مرفت عوض ومصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص 182.

(17) حسن الطرابلسي، المرجع السابق، ص 112، حميد مجول النعيمي ومجيد محمود جراد، المدخل إلى علم الفلك، ط. الشارقة 2010م، ص 15.
وتجدر الإشارة إلى أن العراقيين من سكان بلاد ما بين النهرين *Mesopotamia*، تفوقوا في علوم الفلك إلى درجة كبيرة، ويذكر الباحثون أن الجداول، واللوحات، والروزنامات الكلدانية التي هدفت إلى وصف حركة الكواكب والشمس والقمر، أظهرت قدرتهم الفائقة على التنبؤ بكسوف الشمس بطريقة نظرية جبرية فهي جداول تنبؤية رياضية، ولذلك منذ آلاف السنين؛ مما عكس ريادةهم في المجال المذكور، عن ذلك انظر:

هدى المهدي، ريادة البابليين في علم الفلك، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ العلوم عند العرب والمسلمين، جامعة الشارقة، مارس 2008م، محمد الجزائر، الإنسان في مجال العلم والتكنولوجيا، ط. الإسكندرية 2006م، ص 199، خزعل الماجدي، المرجع السابق، ص 192، عماد مجاهد، المرجع السابق، ص 46، حربي عباس وحسان حلاق، العلوم عند العرب وأصولها وملاحمها الحضارية، ط. بيروت 1995م، ص 310-311، هوارد تيرنر، العلوم عند المسلمين مقدمة مصورة، تفتح الله الشيخ، ط. القاهرة 2004م، ص 114، عبد السلام غيث، علم الفلك، ط. اربد 1992م، ص 8.

(18) فوشيه الشارترى *Fulcher of Chartres* مؤرخ فرنسي ولد في مدينة شارتر بفرنسا حوالي عام 1098م أو 1059م، وأشترك في الحملة الصليبية الأولى ورافق بلدوين دي بويون، وأقام في إمارة الرها *Edessa* حيث حكمها ثم انتقل معه إلى بيت المقدس، وبقي ملازماً له حتى وفاته عام 1118م، وظل ذلك المؤرخ في بيت المقدس حتى عام 1127م، وقد ألف كتابه تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، وبعد تاريخه من أهم مصادر الحملة الصليبية الولي والوجود الصليبي حتى عام 1127م، وقد اعتمد عليه المؤرخون الصليبيون الذين أتوا من بعده مثل وليم الصوري علي سبيل المثال، عن فوشيه الشارترى أنظر:

Fulcher of Chrtres, 3-56.

جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى هـ، ط. الإسكندرية 1963م، ص ص 6-8، صفاء عثمان، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين (1097-1151م / 490-546هـ)، ط. عمان 2002م، ص ص 20-25، محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الحربية في مملكة بيت المقدس اللاتينية القرنين (7،6هـ) / 12، 13م، ط. رام الله 2004م، ص 21، إغارات أسراب الجراد، ص ص 50-51، حاشية (3)، الإمبراطورية البيزنطية دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة (330-1453م)، ط القاهرة 2007م، ص 69، حاشية (1)، السيد الباز العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ط. القاهرة 1962م، ص ص 37-44، علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية 1099 - 1187م 492 - 583 هـ، ط. القاهرة 1998م، ص 28، حاشية (2)، نور الدين حاطوم، المدخل إلي التاريخ، طز دمشق 1965م، ص 411، مفيد الزبيدي، موسوعة تاريخ الحروب الصليبية، ط. عمان 2004م، ص 229، جلال حسني سلامة، عكا أثناء الحروب الصليبية الثالثة، ط. نابلس 1998م، ص 25، سعيد البيشاوي، نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية 492-620 هـ / 1099-1290م، ط. عمان 1990م، ص 28، حاشية (10)، نفسه، " الاستيطان الفرنجي في بيت المقدس والمناطق المحيطة بها 1099 - 1187م " ضمن بحوث في تاريخ العصور الوسطى، كتاب تذكاري للأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران، تحرير علي احمد السيد وإبراهيم خميس، ط. الإسكندرية 2004م، ص 287، حاشية (1)، ت. محمد عبد الرحمن برج، ط. القاهرة 1984م .

(19) Fulcher of Chartres , pp.270-271.

(20) Ibid,pp.271.

(21) Ibid, p.271, note (1) .

(22) متى الرهاوي، تاريخ متى الرهاوي (الإفرنج) (الصليبيون) - المسلمون - الأرمن،

ت، محمد الرويضي وعبد الرحيم مصطفى، ط. إربد 2009م، ص ص 97- 98 .
(23) عن بلدوين الثاني انظر:

Fulcher of Chartres, pp .222- 295, William of Tyre, A history of deeds done beyond The Sea, Trans by E. babcock and A.C. krey, New York 1943, Vol ,I .pp.511- 535.

Albert d, Aix Historia, R.H. C., Occ., Vol .IV, Paris 1879, pp.710 -713.

ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ط. بيروت 1992م، ص 201، صفاء عثمان،
مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني 1118- 1131م، ط.
القاهرة 2008م، الكتاب في الأصل رسالة ماجستير متميزة من كلية الآداب - جامعة
عين شمس تحت إشرافي.

(24) عن بلدوين الأول انظر :

Fulcher of Chartres ,pp.137- 223. William of Tyre, Vol. I, pp .415 – 516, Daniel, Pilgrimage of The Russian Abbott Daniel in The Holy land, Trans. by Wilson, p.p.,T.S., Vol , II , London 1895, p.55.

أنا كومينا، الكسباد، ت. حسن حبشي ، ط. القاهرة 2004م، ص 437.

H. Mayer, " Etudes Sur L, Histoire de Baudouin ler Roi de Jerusalem, in Melange Sur L, Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, Memoire de L, Academie des inscriptions de Belles – Lettres, Paris 1984, pp.10-91

هنادي السيد محمود، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول 1100-
1118م، ط. القاهرة 2008م، والكتاب في الأصل رسالة ماجستير تحت إشرافي، أسامة
زكي زيد " حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين في عهد الوزير الفاطمي الأفضل
1101- 1105م / 495- 499هـ "، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، العدد

(29) عام 1981م، ص ص 38-48، مصطفى الكناني، حملة بلدوين الأول عام 1118م أول حملة صليبية علي مصر، ط. القاهرة ب-ت، صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي علي العالم الإسلامي 490-515 هـ م 1097 - 1121م، ط. الإسكندرية 1993م، ص ص 335-245.

(25) حسن الطرابلسي، المرجع السابق، ص 118.

(26) Fulcher of Chartres ,p.271.

(27)Ibid, p.271.

(28) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ط. القاهرة 1999م - 2000م، ص 132.

(29) Fulcher of Chartres ,p.271.

(30) Ibid, p.271.

(31) عن التنصير عصر الحروب الصليبية انظر:

أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، ط. بيروت 1981م، ص 168، ابن جبير، الرحلة، ط. بيروت 1964م، ص 281.

Jacques de Vitry, A History of Jerusalem, trans. A. Stewart P.P.T.S., Vol. IX, London 1896, p. 138.

Oliver of padenborn The Capture of Damietta, Trans. John Cavigan, Philadelphia 1948.

M. Baldwin, "Mission To The East in The Thirteenth and Fourteenth Centuries", in Setton, A History of the Crusades, Vol. V, Philadelphia 1985, pp. 452-518.

B. Kedar, Crusade and Mission, European Approaches to the Muslims, Princeton 1988.

على إبراهيم النملة، التنصير في المراجع العربية - دراسة ورصد وراقي للمطبوع، ط الرياض 1994م، ص ص 38-39، محمد عبد النعيم محمد، " حقيقة دعاوي المؤرخ الصليبي توديوود حول ارتداد بعض المسلمين عن الإسلام خلال الحملة الصليبية الأولى"،

حصاد الندوة العلمية لقسم التاريخ بآداب القاهرة 17-18 إبريل 2007م، علي عودة الغامدى، الراهب الفرنسيسكاني ريمون لول ومحاولاته نشر النصرانية في شمال إفريقيا، المؤرخ العربي العدد (6)، م (6) مارس 1998م، ص ص 133-168، محمد مؤنس عوض، المسيحية والإسلام بين الاعتناق والارتداد في عصر الحروب الصليبية، ضمن كتاب الحروب الصليبية دراسات في التاريخ المقارن، ص ص 214-215، محمد عبد الله المقدم، الجهود التبشيرية لكنيسة الكاثوليكية في المنطقة العربية في عصر الحروب الصليبية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب - جامعة المنصورة عام 2010م، ص ص 24-448، دراسة ممتازة لمؤرخ يمني واعد .

(32) Fulcher of Chartres, p.271.

(33) Ibid, p.271.

(34) عن الخطاب المذكور أنظر :

Robert The monk, in E Peters, The First Crusade, The Chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials, Philadelphia 1971, p. 14, Guilbert of Nogent, pp. 10-13, Baldric of Dol, pp. 6-10.

حيث نجد فيه الإشارة ذات الطابع الاقتصادي .

D. Munro, "The speech of pope Urban II at Clermont 1095", A.H.R, Vol II, 1906, pp. 231-242.

ولا تزال أفضل دراسة باللغة الإنجليزية علي الرغم من مرور (104) من الأعوام علي صدورها .

حسن عبد الوهاب، " دراسة تحليلية لخطب البابا أربان الثاني في كلير مونت 18-27 نوفمبر 1095م"، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، عدد (51)، عام 2001م، ص ص 121-148، محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ص 65-69، نفسه، الإمبراطورية البيزنطية دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة، ص ص 316-317، ولا يزال الخطاب المذكور الذي بقي خلال دقائق قليلة يحتاج

إلى مزيد من البحث والدراسة لثراء دلالاته ولنتائجه البارزة علي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى .

(35) Fulcher of Chartres, p.271.

عن تلك الناحية بالتفصيل أنظر :

البدراوي زهران، اللغة العربية في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة، نفسه، الصراع اللغوي عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة .

(36) Fulcher of Chartres, p.271.

(37) عن سقوط صور أنظر :

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 211.

Fulcher of Chartres, pp.266-267.

صفاء عثمان، المرجع السابق، ص ص 110-115، راغب السرجاني، المرجع السابق، ص 316، سهيل زكار ووفاء جوني واكتمال إسماعيل، حروب الفرنجة (الصليبية)، ط. دمشق 2005م، ص 174 .

(38) عن سقوط صيدا في قبضة الصليبيين أنظر :

Fulcher of Chartres, pp.199-200.

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 179، أبو الفداء، المختصر في اخبار البشر، ط. بيروت ب - ت، جـ 12، ص 172 ن الذهبي، العبر في خير من غير، ط. بيروت 1971م، ج5، ص 193، الحريري، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين علي ديار المسلمين، تحقيق مهدي رزق الله، ط. الإسكندرية 1984م، ص 18، أسامة زكي زيد، صيدا ودورها في الصراع الصليبي - الإسلامي، ط. الإسكندرية 1981م، ص ص 71- 161، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ صيدا في العصر الإسلامي، ط. الإسكندرية 1986م، ص ص 99- 103، أحمد عارف الزين، تاريخ صيدا، ط. صيدا 133هـ، ص 57.

(39) عن ذلك انظر :

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ص 136-137، حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، ط. القاهرة 1958م، ص ص 178-179.

(40) عن ذلك أنظر :

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط. بيروت 1406هـ، ج 9، ص 138، المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عطا، ط. بيروت 1418هـ، ج 1، ص 411.

(41) ابن يونس، هو أبو الحسن علي عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري هو ابن المؤرخ والمحدث الكبير، ويعد من أكبر الرياضيين والفلكيين في تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، وقد قربه الفاطميون وبنوا له مرصداً علي جبل المقطم في موضع سمي بركة الجيش، وقد قام ابن يونس برصد كسوف الشمس، وخسوف القمر حوالي عام 978م، وصنف العديد من المؤلفات مثل الزيج المالكي الكبير، والزيج الصغير، والتعديل المحكم، وكذلك جدول السمات، وجداول في الشمس والقمر، ورعاية الانتفاع في معرفة الدوائر والسمات من قبل الارتفاع ومما يذكر له اختراعه لرقاص الساعة أو البندول، وذلك من قبل أن يخرعه الأوروبيون بسبعة قرون، وقد توفي ابن يونس عام 1009م .
عنه أنظر :

ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط. بيروت ب- ت، ج3، ص 156، حميد موراني وعبد الحليم منتصر، تاريخ العلوم عند العرب، ط. القاهرة ب- ت، بيروت 1997م، ص ص 23-24، باقر بن الورد، معجم العلماء العرب ن ط. بيروت 1986م، ص 67، علي عبد الله الدفاع، أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك، ط. بيروت 1981م، ص ص 68-77، محمد فارس، موسوعة علماء العرب والمسلمين ط. بيروت 1993م، ص ص 62-63، إسماعيل الربيعي، تطور العلوم عند العرب، ط. دمشق 2003م، ص ص 131-132، محمد محمود الصواف، المسلمون وعلم الفلك، ط. بيروت ب- ت، ص 32، مسلم شلتوت، الفلك والمرصد الفلكية في مصر الفاطمية الإسلامية، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ العلوم عند العرب والمسلمين، جامعة الشارقة، مارس 2008م، أحمد السكري، موسوعة علماء العرب، ط. عمان 2004م، ص 106، خليل بدوي، معجم العلماء والمخترعين، ط. عمان 2008م، ص ص 118-119.

(42) باقر بن الورد، المرجع السابق، ص 67 .

(43) البيروني، هو محمد بن احمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي، ولد في خوارزم، وفيما بعد تنقل بين العديد من مدن المشرق الإسلامي طلباً للعلم، وبرع في مجال الفلك، ويلاحظ أنه بعد استيلاء السلطان محمود الغزنوي علي جرجان إتجه البيروني إلى الهند حيث عاش فيها أعواماً عديدة، وظل متصلاً بالبلاط الغزنوي حتى بعد وفاة السلطان محمود، وقد ألف العديد من المؤلفات منها : كتاب في تحقيق منازل القمر، وكتاب جدول التقويم، وكتاب مفتاح علم الهيئة، وكتاب الإرشاد في علم النجوم، وكتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، وكتاب للاستشهاد باختلاف الأرصاد، وكتاب إيضاح الأدلة في كيفية سمت القبلة، وكتاب القانون المسعودي في الهيئة والنجوم، وكتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية، ومما يذكر عن البيروني أن عدداً من المؤتمرات العلمية الدولية عقدت لتكريمه ولدراسة مؤلفاته في كل من الاتحاد السوفيتي السابق وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية، ووصفه المستشرق الألماني سخاو بأنه صاحب أعظم عقلية علمية في العصور الوسطى، وقد توفي البيروني عام 1048م، ويلاحظ أن الربع الجنوبي الغربي من سطح القمر يحمل اسم البتاني، عنه أنظر :

البيروني، القانون المسعودي في الهيئة والنجوم، ط. حيدر آباد الدكن 1948م، محمد جمال الفندي وإمام إبراهيم أحمد، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، ط. القاهرة 1968م، محمد عبد الرحمن مرحبا، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، ط. بيروت 1988م، ص 427، موريس شربل، موسوعة علماء الرياضيات، عند العرب، ط. بيروت 1991م، ص ص 81 - 84، علي عبدة، الفلك والأنواء في التراث، ط. عمان 1998م، ص ص 212- 214، سعيد الدمرداش، البيروني أبو الريحان محمد بن أحمد، ط. القاهرة 1980م، ص ص 17 - 140، سمير عرابي، علوم الأدوية والصيدلة عند العلماء العرب والمسلمين بيروت 1997م، ص 238- 246، ط. القاهرة 1999م، ص ص 42- 44، عواد الزحلق، علم الفلك والكون صفحات من التراث العلمي العربي الإسلامي بيروت 1997م، ص 238- 246، حكمت نجيب عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ط. الموصل ب- ت، ص ص 215- 222، محمد امين فرشوخ، موسوعة عباقرة الإسلام في الفلك والعلوم البحرية وعلم النبات وعلم الميكانيكا، ط.

بيروت 1995م، ج5، ص ص 77-83، محمد رضا البغدادي، تاريخ العلوم وفلسفة التربية العلمية، ط. القاهرة 2003م، ص 70، محمود الشيخ، علماء العرب، ط. عمان 2007م، ص 42، خالد حربي، علوم الحضارة الإسلامية ودورها في الحضارة الإنسانية، ط. الإسكندرية 2010م، ص ص 251-254 .

I. Mumiov, Marking The 1000th anniversary of The Birth of Abu Raihan Beruni, Tashkent 1973.

(44) تحقيق ماللهند من مقولة، ص 434 .

(45) القزويني، وهو زكريا بن محمد بن محمود القزويني، ولد في بلدة قزوين الواقعة في شمالي إيران، ويقال أن نسبه انتمى إلي الإمام مالك، وفيما بعد تنقل بين مدن أقاليم المشرق الإسلامي، وتولي منصب القضاء في مدينتي واسط والحلة بالعراق، ووصف بأنه كان حجة في القضاء، وظل يتولى ذلك الأمر حتى غزو المغول لحاضرة العباسيين بغداد عام 1258م ومن بعد ذلك ارتحل إلي بلاد الشام، وقد توفي بدمشق عام 1287م .

عنه أنظر :

ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، ط. بغداد 1352 هـ، ص ص 128-130، علي عبد الله الدفاع، "علوم الكون في الإسلام: القزويني"، الدارة، العدد (3)، السنة (7)، ربيع الثاني 1402 هـ / فبراير 1982م، ص 227، أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ط. جدة ب-ت، ص 297، محمد مفيد آل ياسين، الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري، ط. بغداد 1979م، ص ص 316-317، محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة 1995م، ص ص 113-124 .

(46) عن ذلك انظر :

عجائب المخلوقات ، ص 18.

وعن علم الفلك في ظل الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى أنظر هذه المصادر والمراجع المختارة :

البتاني، الزيج الصابي، تحقيق كارلو نلينو ، ط. روما 1899م، الصوفي، صور الكواكب الثمانية والأربعين، ط. حيدر اباد الدن 1962م، صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ت. حياة علوان ط. بيروت 1985م، ص ص 150 - 151.

(46) E.S. Kennedy, "Late Planetary Theory", *Isis*, Vol 57, 1966, pp. 365-378.

D.King, *Al Khawarizmi and New Trends in Mathematical Astronomy in The Ninth Century*, New York 1983, Id, *Astronomy In The service of Islam*, Varorum 1993.

G. Saliba, *A History of Arabic Astronomy: Planetary Theories during The Golden Age of Islam*, New York 1994.

V. Roberts, "The Solar and Lunar Theory of Ibn ash - shatir: A pre Copernican Model": *Isis*, Vol. 48, December 1957, pp.428-432

أيدين صابلي، المراصد الفلكية في العالم الإسلامي، ت. عبد الله العمر، ط. الكويت 1995م (دراسة ممتازة)، ناجي معروف، المراصد الفلكية في العصر العباسي، ط. بغداد 1967م، فوزية الرويح، آفاق فلكية، ط. الكويت 1997م، احمد مختار صبري، الأسطرلاب عند العرب، ط. القاهرة 1947م، كرلو نلينو، علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، ملخص المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية، ط. بيروت 1993م، إدوارد كيندي وعماد غانم، ابن الشاطر فلكي عربي من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، معهد التراث العلمي العربي، ط. جامعة حلب 1976م، عبده القادري، مؤسسة علم الفلك العربي (دراسة في التاريخ السوسولوجي لعلم الفلك العربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين) ط. دمشق 2009م، ص ص 51 - 204 (دراسة علمية جديدة بالتقدير)، ريجيس مورلون، "مقدمة في علم الفلك"، ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية ج 1، علم الفلك النظري والتطبيقي، ط. بيروت 1997م، عبد الحي حمودة، تاريخ علم الفلك، ط. القاهرة 1952م، أحمد مختار صبري، الأسطرلاب عند العرب، ط. القاهرة 1947م، ريجيس مورلون، "علم الفلك الشرقي بين القرنين الثامن والحادي عشر"، ضمن كتاب تاريخ موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد

ط. بيروت 1997م، ج1، ص ص 47 - 94، جورج صليبا، "نظريات حركات الكواكب في علم الفلك العربي بعد القرن الحادي عشر"، ضمن الكتاب المذكور، ص ص 95 - 171، دافيد كنج، "علم الفلك والمجتمع الإسلامي" ضمن الكتاب المذكور، ص ص 173 - 238، هنري غوتار - روش، تأثير علم الفلك العربي في الغرب في القرون الوسطى"، ضمن الكتاب المذكور، ص ص 239 - 291، قدرى حافظ طوقان، أثر العرب في تقدم الفلك، ط. القاهرة 1961م، واسماؤها العربية، ط. بيروت 1950م، كرم حلمي فرحات، التراث العلمي للحضارة الإسلامية في الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجري، ط. القاهرة 2004م، ص ص 500 - 501، لطف الله قاري، "أضواء جديدة على أبي الفتح الخازني"، ضمن كتاب إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية، ط. الرياض 1996م، ص ص 193 - 211، عوض زنيبات، المختار من تاريخ العلوم عند العرب، ط. عمان 2008م، ص ص 195 - 196 .
(47) عن نخضة القرن 12م أنظر :

C.- Haskins, The Renaissance of The Twelfth century, Cambridge 1928.

و جيرارد الكريموني Gerard of Cremona (1114 - 1187م) مترجم بارز من العصور الوسطى، وهو في الأصل من كريمونا بإقليم لومبارديا بإيطاليا، وقد اتجه إلى مغادرة إيطاليا والذهاب إلى طليطلة للمساهمة في حركة الترجمة النشطة هناك، وينسب له ترجمة أكثر من (70) كتاباً مهماً إلى اللاتينية في الرياضيات والطب والهندسة والفلك، ومن أمثلة ذلك ترجمته لكتاب الخوارزمي "الجبر والمقابلة" وكتاب أساسيات الفلك في الحركات السماوية للفرغاني، وكتاب تصنيف العلوم للفارابي، وكتاب المناظر للحسن بن الهيثم، كذلك قام بترجمة كتاب القانون في الطب لابن سينا والمقالة الثلاثين من كتاب التصريف عن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوي أكبر جراح عرفته العصور الوسطى، وقد توفي ذلك المترجم البارز عام 1187م، عنه أنظر :

إسحق عبيد، عصر النهضة الأوروبية، ط. القاهرة 2008م، ص 5، الموسوعة العربية الميسرة، إشراف شفيق غربال، ط. بيروت 1995م، عن فروخ عمر فروخ وماهر عبد القادر وحسن حلاق، تاريخ العلوم عند العرب، ط. بيروت 1990م، ص 229.

(48) هناك (157) نجم بأسماء عربية الأصل من أمثلة ذلك الآتي :

Adara	العذارى
Algol	الغول
Al Tare	الطرف
Arakab	العرقوب
Arnab	الأرنب
Azimuth	السمت
Belegeuze	يد الجوزاء
Caph	الكف
Cursa	كرسي الجوزاء
Deneb	الذنب
Deneb Algedi	ذنب الجدى
Dubhe	الدبة
Fomelhout	فم الحوت
Regulus	رجل الأسد
Sadr	صدر الدجاجة
SadelSud	سعد السعد
Tauri	الثور
Wega	النسر الواقع
Zaurek	الزورق

عن ذلك انظر: يحيى الشامي، المرجع السابق، ص ص 290-300، عمر فروخ وماهر محمد علي وحسان حلاق، المرجع السابق، ص 238، هاني الضليع، النجوم ذات الأسماء العربية في الأطالس الفلكية الحديثة"، مؤتمر تاريخ العلوم عند العرب والمسلمين - جامعة الشارقة مارس 2008م، فوزية الرويح، المرجع السابق، ص 24، حميد مجول - النعيمي وفاضل عبد اللطيف المرجع السابق، ص ص 441-447.

قانون التأمين على خيل الحرب في مملكة
بيت المقدس الصليبية
قراءة في مجموعة قوانين بيت المقدس

الدكتور / محمد فوزي رحيل
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

قانون التأمين على خيل الحرب في مملكة بيت المقدس الصليبية قراءة في مجموعة قوانين بيت المقدس

تعد الحرب الصليبية أهم محاور العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وسعيًا من الصليبيين للبقاء في الشرق حرصوا على إتباع وسائل شتى لتثبيت أقدامهم في الأرض التي اغتصبوها في بلاد الشام، ومن تلك الوسائل إصدار التشريعات والقوانين التي هدفت إلى حل المشاكل التي عانى منها هذا الكيان. وفي هذا البحث سوف نتعرض لدراسة إحدى هذه التشريعات وهو قانون التأمين على الخيول المخصصة للأغراض العسكرية. وقد قُسم البحثُ إلى نقاطٍ عديدةٍ كالتالي: الدراسات السابقة حول هذا القانون، ومشكلات هذه الدراسة، والتعريف بقوانين بيت المقدس، ثم مشكلة نقص الخيل لدى الصليبيين في الساحل الشامي، ثم تشريع التأمين كوسيلة من وسائل حل هذه المشكلة وما حواه هذا القانون من بنود، ومدى تأثير هذا القانون بالنظم الإسلامية، ثم جدوى هذا القانون في حل المشكلة التي سن من أجلها وأخيراً نتائج هذا البحث.

وفيما يتعلق بالدراسات السابقة حول هذا الموضوع فلم يتم دراسة هذا القانون بعد -على حد علمي المتواضع - لكن وردت عنه إشارة في كتاب الإقطاع الملكي لجون لامونت في إطار عرضه لما سماه سياسة استبدال Restore الخيول(1) .

وبصفة عامة هناك إحجام من قبل الدارسين العرب عن دراسة قوانين بيت المقدس(2) ، وهذا الإحجام في العالم العربي عن دراسة هذه القوانين لم ينبع من فراغ، لكنه ينبع من مشكلتين أساسيتين هما نفس مشكلة هذه الدراسة: أولهما، بقاء النص بلغته الفرنسية القديمة حتى الآن، وبالرغم من وجود نشرة حديثة لجزء مهم من هذه القوانين وهو

كتاب حنا أبلين إلا أنه بقي بلغته الأصلية مع استدراقات وشروح للنشرة القديمة (3). أما الصعوبة الثانية التي واجهت هذه الدراسة فهي ندرة المدونات التاريخية أو الوثائق التي تمدنا بمحالات عملية أو اختفائها بالكلية وهي التي تبين مدى تطبيق هذه القوانين، لكن الذي نؤكد عليه منذ البداية أن هذه القوانين قد دونت في جزء كبير منها نتيجة حالات عملية أو مشكلات حقيقة عانى الصليبيون منها في بلاد الشام، ومن الأعمال المبكرة التي تدل على ذلك وثائق مجمع نابلس عام 1120م الذي عقد لإيجاد حل لكثير من مشكلات المجتمع الصليبي الناشئ الذي عانى من تفشي كثير من الجرائم (4).

أما عن قوانين بيت المقدس فتعد أهم المصادر التاريخية والتشريعية الخاصة بمملكة بيت المقدس خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وقد صيغت هذه القوانين من أجل تسيير عجلة الحكم في جميع شؤون المملكة سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية، ولم يقتصر عمل هذه القوانين على مملكة بيت المقدس وحدها بل طبقت في مملكة قبرص أيضاً بحكم أن مملكة قبرص هي إحدى نتائج الحرب الصليبية (5)، وفي القرن الثالث عشر الميلادي حدث تداخل كبير بين المملكتين من حيث الموظفين وحياسة مواطني المملكتين لممتلكات في كليهما، بل هاجر سكان الساحل الشامي إلى قبرص بصورة تدريجية منذ نشأتها وحتى رحيل آخر جندي صليبي من الساحل الشامي عام 1291م (6).

وقد صدرت هذه المجموعة القانونية في جزأين يحتوي الجزء الأول منها على قوانين المحكمة العليا *La Haute Cour* وكتب حنا أبلين *Liver dl Jean d'Iblin* وجوفري لي تور *Geaffrey le Tort* وجاك أبلين *Jacques d'Iblin* وفليب النوفاري *Philippe de Navarre*. أما الجزء الثاني فيحوى قوانين المحكمة البرجوازية في مملكة بيت المقدس بجانب الإشارة إلى مملكة قبرص بالإضافة إلى الكثير من الوثائق شديدة الأهمية بالنسبة للبناء السياسي والعسكري وبصفة خاصة الوثائق المتعلقة بالخدمة العسكرية ومن بينها قانون التأمين على الخيول موضوع بحثنا هذا (7).

ومهما يكن من أمر ففي السابع والعشرين من نوفمبر عام 1095م (488هـ)

اختتم البابا أوربان الثاني Urban II 1088-1099 (8) مجمع كليير مونت (9)، الذي أنهى أعماله بإشعال شرارة الحرب الصليبية، وبالفعل استجابت جموع غفيرة من مختلف طبقات المجتمع الأوروبي كل يحمل الصليب، ويدعي الخروج لتحرير القدس ولا يعلم ما يبطنه وما يهدف إليه بالفعل إلا الله (10). وقد كان الفرسان هم العمود الفقري لهذه الحرب بل ربما كانوا هم سبب اندلاعها نتيجة لاتساع الحروب فيما بينهم، القليل منهم يدافعون عما بأيديهم، والكثيرين يريدون انتزاع ما في يد القلة حتى لا يبقوا فرسانا بلا أرض في ظل قانون التوريث الإقطاعي الذي منح الابن الأكبر كل شيء بملكه الأب وترك باقي الإخوة بلا إقطاع (11). ومن ثم كانت الحرب الصليبية في أهم أهدافها تخلص المجتمع الأوروبي من حروب الفرسان، الذين امتدت أيديهم إلى كل شيء حتى إلى أموال وأملاك الكنيسة (12). وفي ظل حالة التمزق والتشاحن السياسي للذين عانى منهما المجتمع الإسلامي في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وصعود قوى صغيرة هددت وجود القوى الإسلامية الكبرى (13)، تمكن الصليبيون من تأسيس أربعة كيانات هي: إمارة الرها عام 1098م (14) وإمارة أنطاكية 1098م (15) ومملكة بيت المقدس الصليبية عام 1099م (16)، وأخيراً إمارة طرابلس 1109م (17) وما أن استقر الصليبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية حتى نجح الحزب العلماني في تأسيس نظام حكم ملكي على الطراز الأوروبي الإقطاعي (18). وبمقتضى هذا النظام قام الملوك الصليبيون بتقسيم المملكة إلى إقطاعيات ثم قاموا بتوزيع هذه الإقطاعيات بين النبلاء والفرسان الفرنجة، وصار على كل إقطاع تقدم عدد معين من الفرسان تم تفصيلهم في قوانين بيت المقدس، وبلغ عدد هؤلاء الفرسان التابعين للتاج الملكي (577) فارس، يجب عليهم أن يلبوا نداء الملك في حالة طلبهم في أي وقت للقيام بالدفاع عن المملكة، أو التوسع على حساب الجيران المسلمين (19).

وبالطبع كان الفرسان هم القوة الضاربة في جيوش العصور الوسطى في الشرق والغرب على حد سواء، وقد تميز الفارس الصليبي مثل الفارس الأوربي بالتسليح الثقيل، وعلى حد قول براور (20): "يمكن مقارنة قوة الفارس في العصور الوسطى بقوة الدبابة في

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

العصر الحديث". وقد كان ثقل العتاد العسكري والتسليح الصليبي يفرض على الفرسان الصليبيين استخدام خيول ضخمة قوية، حتى يمكنها حمل الفارس ثقيل التسليح سواء في ميدان المعركة أو في حلبات المبارزة، (21) ومن ثم كانت حركة هذه الخيول ثقيلة بسبب وزنها الفعلي ناهيك عن وزن ما تحمله من معدات بالإضافة إلى الفارس نفسه (22).

وكان الفرس الذي يمتطيه الفارس يزود بسرج وركاب ولجام (23)، وكان من المفضل أن يكون هذا الفرس أبيض اللون وذكرًا وليس أنثى (24)، ذلك أن استخدام الفارس لأنثى الفرس اعتبر من الأعمال المشينة للفارس، كما احتاج هذا الفرس إلى كثير من المران والتدريب لخوض المعارك، ونظراً لثقل تسليح الفارس كان من المعتاد أن يسقط منه لجام الفرس؛ ومن ثم كان يجب عليه أن يدرّب جواده على الحركة وفقاً لوخذه بالمهماز، ومن ثم كان طقس الحصول على المهماز من أهم طقوس تدشين الفارس، كما كان يدرّب الفرس على الاستجابة لحركة الأقدام وبخاصة عند المناورة والمراوغة (25).

وبسبب أهمية الفارس ومقدار تأثيره في المعركة كان هدفاً دائماً للنبالة المسلمين الذين حرصوا على تجريد الفارس الصليبي من ميزته النوعية، وهي الحصان ومن ثم كان الفرس هو أول هدف تصوب نحوه السهام وبمجرد تجريد الفارس من جواده، يفقد الفارس ميزته ويترجل ويصير محدود الحركة وفي الغالب لم يكن بمقدوره الصمود أمام أي مقاتل راكب من جانب المسلمين (26). ذلك أن الفارس ثقيل التسليح والذي ارتدى السترات الحديدية، حين يسقط عن حصانه على ظهره، كان يصير حاله أشبه بالسلحفاة، ومن ثم يكافح بصعوبة حتى يعدل من وضعه ويستطيع الوقوف ثانية، وفي ذلك الوقت كان يمكن لأي جندي مشاه أن يهجم على الفارس ويرفع مقدمة خوذته ويطعنه في عينه، وينهي حياته (27). ومن هنا كان الفرسان المسلمون وخاصة الأتراك أقدر على الحركة من الفرسان الفرنجة، في ظل خفة تسليحهم وسرعة حركتهم وهو ما أعطاهم قدرة أكبر على المناورة، وكذلك بقائهم على بعد مناسب من العدو حتى يجدوا الفرصة مناسبة للالتحام، وفرصة أكبر على الانسحاب إذا لزم الأمر (28). وال رغم من ذلك لم يمتلك الفرنجة المهارة الحربية التي تمكنهم من تقليد الفرسان

الأترك، وبالتالي بقوا كما هم حتى نهاية التواجد الصليبي في الساحل الشامي (29). ومن هنا حرص الصليبيون طوال فترة تواجدهم في بلاد الشام على تأمين احتياجاتهم من الخيول التي تعددت مصادرها سواء من قبرص أو من سورية أو أرمينيا وأوربا، ومن ثم تعددت أنواع الخيول التي استخدمها الصليبيون ومن بينها الجواد العربي، الذي حصلوا عليه من خلال الهدايا أو الشراء أو الغنائم (30)، وكان من يحصل عليه يعتبره مكافأة كبيرة. وحصلوا أيضاً على الخيول الكردية والفارسية والذين اعتبرهما ماركو بولو Marco Polo (1254-1324م) (31) من الخيول الجيدة، وبجانب هذه الأنواع الثلاثة استخدموا الخيول التركمانية والأرمينية، أما الخيول الأوربية فقد جاءت إلى الشرق مع الحملات الصليبية المختلفة غير أنها لم تعمر طويلاً، ومعظم من جاء منها عن طريق البر لقي حتفه قبل الوصول إلى الأراضي الشامية المحتلة إما بسبب الإجهاد أو المرض أو الجوع أو الإصابة (32).

وقد عانى الصليبيون من نقص الخيول طوال فترة تواجدهم في بلاد الشام، وهو أمر يمكن ملاحظته بمطالعة المصادر الصليبية وعلى سبيل المثال في عام 1097م (490هـ) تأخر الزحف على أنطاكية بسبب ندرة الخيل وهو جعلهم يقررون تأجيل الزحف حتى يمنحوا أنفسهم فترة كافية للحصول على مزيد من الخيل وإراحة ما لديهم من الخيول المنهكة (33). وبالرغم من أعداد الخيول التي جمعوها في طريقهم إلى القدس سواء من النهب أو أسلاب المعارك أو الهدايا التي قدمها حكام المدن الشامية لتجنب مدتهم ويلات الحصار (34). إلا أن المشكلة ظلت قائمة وهو ما دفع البنادقة عام 1123م للقيام بأول عملية نقل للخيول عبر البحر لتعويض العجز الذي تعاني منه مملكة بيت المقدس في الخيول (35). وظل هذا العجز يؤرق مضاجع الملوك الصليبيين وقادة التنظيمات العسكرية باستمرار وهو ما اضطر مقدم الداوية هيوأوف بايين Hugh of Payns (36) عام 1129م إلى عقد اتفاقاً مع الجمهوريات البحرية الإيطالية لتيسير عملية نقل الخيول من أوربا إلى الساحل الشامي عبر البحر (37). وفي الحملة الصليبية البيزنطية التي شنت على مصر عام 1169م تم

استخدام ستين سفينة لنقل الخيول (38) وتكرر الأمر مع الحملات الصليبية التالية، ونظراً للنقص الخطير في أعداد الخيل فقد منع القانون المنظم لهيئة الفرسان الداوية الأخوة العائدين إلى أوروبا من اصطحاب خيولهم معهم (39).

ومن المسلم به أن الخيول الصليبية قد تعرضت لنقص كارثي بعد موقعة حطين التي دمر فيها الجيش الصليبي (40)، وفتحت بعدها القدس ومعظم مدن مملكة بيت المقدس، ولو أخذنا فتح اللاذقية نموذجاً للصلح سوف نجد شرطاً هاماً يتعلق بالخيول، فقد سمح صلاح الدين لأهل المدينة أن يرحلوا عنها بنسائهم وأموالهم خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب (41). وبالتالي نعتقد أن كل المدن التي تسلمها صلاح الدين قد خرج منها الصليبيون دون خيول، ومن ثم حين جاءت الحملة الصليبية الثالثة كان يجب على قادة الحملة الثلاثة إصطحاب أعداداً كبيرة من الخيول الصالحة للقتال حتى يتمكنوا من قتال صلاح الدين وهو ما تم بالفعل فقد وصل كل من ريتشارد قلب الأسد

Richard I the Lion Heart 1189-1199م، وفيليب أغسطس Philip II Augustus

1156-1223م، عن طريق البحر وفي صحبة كل منهما أعداداً كبيرة من الخيول، التي

نقلت على سفن ايطالية وعلى سبيل المثال تعاقد الدوق هيو البرجندي Hugh of Burgundy مع الجنوية عام 1190م على أسطول لنقل ستمائة وخمسين فارساً وألف وثلاثمائة من مرافقيهم ووألف وثلاثمائة حصان (42). أي بمعدل مرافقين وفارسين لكل فارس (43)، وكان المعتاد قبل الاشتباك في المعارك أن يسير أمام الفارس أحد تابعيه حاملاً رمحه، أما التابع الثاني فيتكفل بالحصان البديل (44).

واصطحاب هذا العدد الكبير من الخيول يؤكد إلمام الأوربيين بحجم النقص الخطير الذي عانت منه مملكة بيت المقدس الصليبية في الخيول. أما الملك ريتشارد قلب الأسد فقد استعان في ميناء مرسيليا بأربعة عشر سفينة من نوع الطرائد (45) كل منها تحمل أربعين حصاناً للحرب وأربعين من المشاة وخمسة عشر من البحارة لتنقل خمسمائة وستين حصاناً (46). ومن سوء حظهم وقرب شواطئ سورية تمكن البحارة المسلمون من أسر

خمسة من هذه الطرائد وعليها أربعين فرساً (47). وهذه الحادثة توضح حرص المسلمين على تجريد الصليبيين القادمين من الغرب من أهم أدواتهم وهي الخيل وحينها يتحول الفرسان إلى مشاة وهو ما يحقق ميزة نوعية كبيرة للمسلمين الذين لا يعانون من هذا النقص. أما الامبراطور الألماني فردريك بارباروسا 1152-1192م الذي سلك طريق البر فقد عانى من فقد كثير من الخيول ومن ثم وضع بندا في اتفائه مع السلطان قلع أرسلان الثاني سلطان سلاجقة الروم عام 1190م (586هـ) ينص على نصب سوق يشتري منه جنوده ما يحتاجون من خيول (48). أما من جاءوا عن طريق البحر فقد كانت سفن نقل الخيول - التي تعددت أنواعها وسعاتها- جزءاً أساسياً من أساطيلهم (49).

واستمرت المعاناة من نقص الخيول ومن ثم حين دعي للحملة الصليبية الرابعة عام 1204م كان أمر الخيول في المقدمة ومن ثم تم التعاقد مع البنادقة على نقل أربعة آلاف وخمسمائة فرس (50) وبالطبع لم يصل منها للشرق اللاتيني شيء بسبب توجه الحملة نحو القسطنطينية. وكذا الحال مع الحملة الصليبية الخامسة 1218 - 1122م والسابعة 1248-1250م إذ حرص الصليبيون على اصطحاب خيولهم معهم بسبب إدراكهم لنقص الخيول وارتفاع أسعارها هناك، وهنا حدثنا جوانفيل عن خيوله التي اصطحبها معه من فرنسا إلى مصر (51)، ووصل إلى أيدينا وثيقة عقد بين لويس التاسع وبين الجنوية تنص على تزويد حملة لويس باثني عشر سفينة مزودة بإسطبلات لنقل الخيول (52).

كما وافقت المحكمة العليا الصليبية في عكا عام 1258م على مرور القوات المملوكية بالأراضي الصليبية مقابل بيع الخيول والدواب التي يغنمها الجيش المملوكي من القوات المغولية (53)، ونظراً لتفشي نقص الخيول في الساحل الشامي فقد وافق شارل الأنجوي (54 Charles of Anjou) على السماح للداوية بنقل الخيول والسلاح من أملاك أخيه فيليب أمير أختيا إلى الساحل الشامي لصالح هيئة الفرسان الداوية وذلك من خلال وثيقة صدرت في 15 إبريل 1276م (55).

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

هناك أمر آخر نؤكد به على استمرار أزمة الخيول في المستعمرات الصليبية في الساحل الشامي حتى نهاية التواجد الصليبي ألا وهو رسالة وجهها خان المغول أرغون خان (1284-1291م) إلى ملك فرنسا يعرض عليه وعلى ملوك أوروبا خاصة ملك إنجلترا القيام بحملة عسكرية مشتركة على سلطنة المماليك انتقاماً من فتح المنصور قلاوون (1279-1291م) لمدينة طرابلس عام 1289م وقدم لهم عرضاً مغرباً ليشجعهم على المشاركة في الحملة وهذا العرض تمثل في توفير 20000 أو 30000 حصان حسب الحاجة بأسعار مغرية (56) .

ولم تكن رحلة الخيول إلى الساحل الشامي رحلة يسيرة، بل كانت محفوفة بالمخاطر في ظل حالة البحر المتقلبة، وظروف نقل هذه الخيول التي كانت تعاني أشد المعاناة من ضيق المساحة المخصصة لها في السفينة، وسوء التهوية، واستخدام رافعات ترفع الحيوان من أسفل البطن لضمان بقاء الحيوان على قدميه طوال الرحلة طالت أم قصرت، ناهيك عن تقلبات البحر وزمجرته التي أصابت الحيوانات بالرعب، ومن هنا لقي كثير من الخيول المنقولة مصرعها وألقيت في البحر لتكون طعاماً للأسماك بدلاً من أن تصل للشرق لتستخدم في قتال المسلمين، أما ما كان يصل منها إلى الشرق فكان يحتاج إلى فترة غير قصيرة ليستعيد حيويته ويتمكن من حمل الفارس (57) .

وحتى لو وصل الحصان الأوربي إلى الشرق فلم يكن من المنتظر أن يبقى في الخدمة طويلاً، وربما تكون المقارنة بينه وبين الحصان العربي مفيدة في هذا المجال. فقد كان مناخ الشرق غير مناسب لحصان الحرب الإفريقي، وكان تركيب عظامه أقل كثافة من الحصان الشرقي، لذلك كان أكثر عرضة للضعف والتوقف الحركي، وكان تركيبه من عظام أكثر نفاذاً للسوائل، ويحمل حملاً ثقيلاً غير مناسب للمناوشة السريعة التي أكثر المسلمون من استخدامها. كما كان الحصان الإفريقي أكثر عرضة للتعرض للأمراض في الشرق، وكان يحتاج إلى طعام أكثر من الحصان الشرقي، ليس فقط بسبب اختلاف الحجم، لكن أيضاً بسبب اختلاف نسب الأيض الناتجة عن العادة الأوربية لإلتخام خيول الحرب (58).

أما الحصان العربي فكان فعالاً، وعندما كان يتدرب بشكل كاف لا يصاب بالسمنة كما هو شائع بين الأنواع الأوربية الثقيلة. والتفاضل بين مختلف الأنواع بقي موجوداً عبر الزمن بالرغم من مرور ستة قرون، لأنهم مختلفون. ويلاحظ بيرتراند بركيير **Bertrandon de la Brocquière** الذي سافر بين الأتراك في بداية القرن الرابع عشر - أن الأتراك يحتفظون بخيولهم عجافاً ولا يمكنونها من السمن. كما ذكر قدرة الخيول التركية على العدو السريع لمسافة طويلة، وحقيقة الرئة الواسعة ميزة الخيول العربية والشرقية الأخرى؛ مما يتيح تحسين كمية الهواء وبالتالي زيادة القدرة على استدامة السرعة. وهناك عامل آخر ثبت حديثاً هو اختلاف تركيبة الألياف العضلية لصالح الجواد العربي. وباختصار فعضلات الحصان الشرقي أكثر طولاً مرتين من نظيره الأوربي، وبالتالي هو أكثر قدرة على الاحتمال(59).

نخلص مما سبق إلى أن مملكة بيت المقدس الصليبية عانت طوال فترة وجودها من نقص الخيول التي كان لنقصها دور كبير في التراجع النوعي للقوات الصليبية أمام القوات الإسلامية طوال تلك المدة، وكان يجب على الملوك، والقادة الصليبيين إيجاد حل لهذا التحدي. وبالفعل ومنذ وقت مبكر من التواجد الصليبي في الساحل الشامى اتجه هؤلاء الملوك والأمراء إلى إيجاد حل لهذا التهديد، وثمة محاولة مبكرة لتوفير وتعويض ما يخسره المقاتلون أثناء المعارك قام بها تانكرد **Tancred** (ت 1112م)، وذلك في عام 1109 حين هاجم شيزر ووجد صدوداً من الفرسان وعدم رغبة منهم في تشديد الهجوم ولم يكن سبب ذلك سوى خوف الفرسان من فقد خيولهم فما كان منه سوى تقديم تعهد بتعويض من يفقد فرسه بفرس آخر محله(60).

وبالرغم من عدم تصريح المصادر بحالات مماثلة في مملكة بيت المقدس إلا أن الأمر كان متفشياً ونقص الخيول عانى منه الجميع ومن هنا وجب على ملوك بيت المقدس إيجاد حل جذري لهذه المشكلة وكان هذا الحل هو التأمين، وعلى الأرجح وفي عهد عموري الأول (61) تم سن قانون للتأمين على الخيول. ويقوى هذا الترجيح القانون المعروف بقانون

بليس الذي أصدره الملك عموري عام 1168م أثناء حصاره لبليس. ومن الواضح ارتباط هذا القانون بأمر الخيل إذ سن الملك قانوناً بمقتضاه لا يحق للسيد إرغام تابعه أثناء حصار مدينة أو قلعة ما لم يكن لديه من الدواب ما يكفي لهذه المهمة، وبجانب ذلك أشار هذا القانون بين مستخدمي الخيل من النبلاء وغير النبلاء، بحيث لا يجوز إرغام النبلاء على الترحل عن الخيل أثناء مهاجمة مدينة أو قلعة (62). ويبدو أن هذا القانون قد سن بسبب نقص الدواب وبخاصة الخيل وعليه نرجح صدور التأمين على الخيول بعد قانون بليس بفترة قصيرة عند عودة حملة عموري من مصر .

وقد نشر القانون ضمن الجزء الثاني من هذه قوانين بيت المقدس. وقد شغل القانون أربعة فصول من كتاب الملك المكون من اثنين وخمسين فصلاً، وتمتد مواد القانون من الفصل العاشر إلى الثالث عشر: الفصل العاشر حول "شروط التأمين"، والفصل الحادي عشر عن "نفوذ الموظف المختص بفحص الجياد"، والفصل الثاني عشر يحمل عنوان "حقوق الأتباع في الحيوانات التي تموت دون مرض أو حادث، وعلي من ترجع الخسارة، كيف يحق لهم مطالبة المحكمة بتعويض عنها"، والفصل الثالث عشر والأخير حول موانع الحصول علي التعويض. وفيما يتعلق بالفصل الأول من القانون حول شروط التأمين، فقد حدد المشرع مبلغ التأمين علي الجواد وهو 40 بيزنت Besant (63)، كما اتسع القانون ليشمل البغال وحدد مبلغ 30 بيزنت للتأمين عليها، ومن الضروري تقديم الجواد أو البغل إلي الموظف المختص - ولا شك أن هذا الموظف كان ذا معارف بيطرية - للاطمئنان علي صحة الحيوان والتأكد من خلوه من الأمراض التي تمنع التأمين عليه. وبمجرد تأكيد الموظف المختص من سلامة الجواد يأمر كتبة السجلات بتسجيل هذا الحيوان في سجلات الملك بوصفه حيواناً يتمتع بالتأمين لضمان حصول صاحبه علي التعويض بمجرد موت الحيوان أو عجزه عن الخدمة العسكرية (64) .

وهذا الفصل يوضح بدء عملية التأمين التي اقتضت على الخيل والبغال وهما ضروريان للعمليات العسكرية فالبغل يحمل الأثقال أما الجواد فللقنال، وكان الفارس يحتاج

حال خروجه للقتال إلى اصطحاب فرسين أو ثلاثة (65)، حتى إذا ما أصيب الفرس المستخدم يمكن الفارس استبداله بسرعة حتى لا يقع فريسة سهلة للأعداء. وهكذا كان من الممكن أن يؤمن الفارس في الديوان الملكي على أكثر من جواد في نفس الوقت إذا دعت الحاجة إلى ذلك. كما يوضح هذا الفصل النفوذ الكبير للموظف أو البيطري متولي عملية التسجيل والذي يمكنه رفض الحيوان المقدم للتأمين إذا لم يكن لائقاً للخدمة العسكرية، لكن إذا ما قبل فإنه يقدم للفارس صاحب الحيوان وثيقة التأمين لضمان التعويض في حالة العجز أو النفوق .

أما عن صفات الجواد الصحيح فلم تفصلها بنود القانون وتركتها للموظف المختص، ومن الواضح أنه كان يخضع لسلطة كونستابل المملكة **The Constable** ومعاونه المارشال **The Marshal** الذي كان من مهامه الإشراف على الخيول، وتوزيع الخيول المستولى عليها خلال حروبهم مع المسلمين، وتزويد المقاتلين بخيول بديلة لما فقدوه خلال المعارك أو نفقت بسبب الأمراض (66). ومن الجدير بالذكر أن إشراف المارشال على الخيول أمر تفرد به مارشال مملكة بيت المقدس عن نظرائه في الدول الأوروبية مثل الإمبراطورية الرومانية المقدسة وإنجلترا وفرنسا (67)، وهذا الأمر يدل على أن مشكلة نقص الخيل كانت خطيرة إلى حد كبير لدرجة أن يعهد بها إلى مارشال المملكة ذا الرتبة العسكرية العالية .

ومن البدهي أن يكون هذا الموظف البيطري عالم بصفات الجواد الجيد، ولم يصل إلينا هذه الصفات، ونظراً لطول التجاور بين المسلمين والصليبيين يمكننا أن نستأنس بما ألفه المسلمون من مؤلفات بيطرية شملت صفات الجواد الصحيح، ومنها أن يكون أصيل النسب وفي مقدمة الأنواع الخيل العربية وخاصة الأدهم منها وهو شديد السواد. و أن يكون ذا وجه حسن قليل اللحم، طويل الشدقين بما يوفر له فرصة أكبر للتنفس وقت الجري، وأن يكون رقيق الأرنبة في موضع القلادة، بجانب اتساع منخرية واستواء قصبه أنفه، وبعد المسافة بين العينين وشدة اتساعهما وسوادهما، وحدة البصر، وأن يكون الفرس عريض الجبهة، وطول

لسان الحصان وكثرة ريقه، ويفضل أن يكون طويل العنق مرتفع الكتفين، عظيم خصلة العضد لطيف الزور، قصير الأذنين، غليظ العصب الظاهر على الذراعين فوق الركب وهو دليل على شدة الحصان وقدرته على العدو، بجانب اتساع الحافر وارتفاع إلية الحافر عن الأرض، وأن يكون ممسوح الركب سالم العيوب في العراقيب، بجانب كثرة اللحم في الجنبين خلف المرفقين والكتفين وذلك دليل على القوة، بجانب قصر الظهر وعرض فقارته وطول أضلاعه وغلظ الذنب وعرض الفخذين الخلفيين وطولهما(68).

ويتعلق الفصل الحادي عشر " بنفوذ الموظف المختص بفحص الجياد" ومنها: الفحص الدوري للحيوان المؤمن عليه والتأكد من عناية صاحبه به وتوفير عدة هذا الحيوان القتالية لضمان الاستعانة به في وقت الحاجة، ويحق للموظف المسئول عن صحة الجياد مصادرة عوائد الإقطاع الذي يتمتع به صاحب الجواد لحساب شراء أدوات هذه الجواد، وفي حالة وفاة الجواد المؤمن عليه وحصول صاحبه علي حيوان جديد يحتم عليه الإسراع بتجهيزه ليكون مستعداً عند الحاجة إليه. وإذا ما حصل علي مقابل نقدي للدابة النافقة يجب الإسراع بشراء دابة جديدة والتوجه بها إلي الموظف لتدوينها في الديوان لضمان الاستعانة بها في وقت الحاجة. ولا يمكن تبديل الدابة المتمتعة بالتأمين دون إذن الموظف المختص، لأنه إذا توفيت الدابة ولم يطلع الموظف علي ملابسات نفوقها فلا يحق لصاحبها الحصول علي مبلغ التأمين أو الحصول علي دابة جديدة(69).

هذا الفصل أيضا يرسخ من نفوذ الموظف المسئول عن عملية التأمين والذي يعطيه الحق في زيارة مالك الحيوان في أي وقت للتأكد من سلامته وعدم الإهمال في رعايته، كما تعدى دوره الحيوان إلي تجهيزاته العسكرية حتى يكون صالحاً للمشاركة في القتال وقت الحاجة. والجدير بالذكر أن الحصان كان يحتاج إلي تجهيزات خاصة حتى يكون جاهزاً للقتال، وهذه التجهيزات تنقسم إلي أربعة أقسام وهي:

1- اللجام والمقود وهي تتفاوت في أحجامها وصفاتها باختلاف الحيوان بحيث توفى بالغرض منها دون أن يصاب الفرس بأذى.

- 2- اللواوين والقلائد وتستخدم اللواوين في تسيير الخيول وقت السير، أما القلائد فهي ما يعمل في رقبة الحصان مثل الخرز أو القرون على سبيل الزينة.
- 3- السروج والعبي وهي تختلف باختلاف الحصان حسب عمره كما تختلف ألوانها باختلاف لون الفرس فللفرس الأدهم عباءة بيضاء والأشقر له العسلي.
- 4- الكنابيش والبراقع والمدبات، وهي أغطية للخيول تمنع عن الحيوان الغبار ولدغ الذباب(70).

وينود هذا الفصل تنم عن إهمال بعض الفرسان في رعاية خيولهم أو التقصير في تجهيزات هذه الخيول، أو عدم الإسراع بشراء جواد جديد بدلا من النافق أو العاجز وهو ما يهدد القوة العسكرية للمملكة، كما يوضح لجوء بعض الفرسان إلي تبديل الحيوانات المؤمن عليها دون إذن الموظف المختص. كل هذه التجاوزات ربما شاعت بشكل كبير ومن ثم وجب الحد منها عن طريق هذا الفصل الرادع من قانون الملك .

أما عن الفصل الثاني عشر فحول "حقوق الأتباع في الحيوانات التي تموت بمرض أو حادث، وعلي من ترجع الخسارة، وكيف يحق لهم مطالبة المحكمة بتعويض عنها" ومن هذا الفصل يتضح لنا عدد من أسباب عدم صلاحية الحيوان للخدمة لعسكرية بسبب الإصابة إما في العمليات العسكرية أو الخدمة الحكومية أو إصابتها بمرض خارج عن مسئولية الفارس صاحب الدابة، كما يوضح بعض الإصابات الأكثر انتشاراً بين الخيول مثل ألم السيقان أو كسر ضلع الدابة، إذ ينص القانون على أنه من حق صاحب الحيوان المؤمن عليه الحصول علي تعويض عن حيوانه في حالة موته أو عجزه عن العمل، وهذا التعويض إما بالحصول علي مبلغ لشراء حيوان مناظر أو الحصول علي حيوان جديد من جهة التأمين. وإذا ما تعرض الحيوان للكسر في ساقه أو فحذه أثناء المشاركة في عمل حكومي أو العمليات العسكرية، يحصل صاحبه علي مبلغ التأمين أو حيوان جديد. وإذا أصيبت الدابة المؤمن عليها بأي عائق يمنعها من العمل فمن حق صاحبها الحصول علي التعويض مع الاحتفاظ بدابته. وإذا أصيبت الدابة بمرض من حق صاحبها إعادتها إلي المحكمة التي تدفع ثمنها أو

تسلمه غيرها. وإذا تعرضت سيقان الدابة للألم من حق صاحب الدابة رفع دعوى أمام القضاء للحصول علي التعويض. وأخيراً إذا كسر الضلع العلوي للدابة فمن حق صاحبها رفع دعوى أمام المحكمة للحصول علي التعويض(71).

وختام فصول القانون تتمثل في الفصل الثالث عشر حول (موانع الحصول علي التعويض) وفي هذا الفصل يعالج القانون الحالات التي تحول دون حصول صاحب الدابة المؤمن عليها علي التعويض من المحكمة. ومن بينها إذا قام صاحب الدابة بإعارتها وتعرضت لمرض أدي إلي وفاتها، أو أصيبت بالعجز ففي هذه الحالة لا يحق لصاحب الدابة طلب التعويض وإذا رفع الدعوى أمام المحكمة فإنها دعوى مرفوضة. وفي حالة الخروج للتنزه واصطحاب الأسلحة دون إذن القائد وتعرض الدابة للإصابة فليس من حق صاحبها الحصول علي التعويض من الملك.

وإذا ما أهمل الرقيب في تعليق شريط السرج وأدي ذلك إلي خنق الدابة وموتها فلا يحق لصاحبها طلب التعويض من الملك أو اللجوء للقضاء. وإذا قام الرقيب بشد شريط القدم حول ساق الجواد بشكل شديد وأدي ذلك لكسر رجل الدابة فالخسائر تقع علي صاحبها وليس علي السيد. وإذا ما سقطت الدابة المربوطة في الإسطبل وتبين لصاحبها أنها أصيبت بمرض سقوط الشعر مما أدي إلي عجزها فالخسارة علي صاحب الدابة، ويجب علي الموظف المختص بالتأمين علي الجياد الكشف عن حالة الحيوان حال موته أو عجزه لتحديد علي من تقع المسؤولية وبالتالي لا يظلم السيد ولا تابعه صاحب الحيوان العاجز أو النافق(72).

ومن هذا الفصل يتضح لنا عدد من أسباب خروج الحيوان من الخدمة العسكرية مثل: الأمراض ومنها مرض سقوط الشعر، الذي يصيب الخيل إذا ما تعرضت للإهمال في الإسطبلات، أو إعاقة الدابة المؤمن عليها للغير الذي لا يلتزم برعاية الحيوان مما قد يتسبب في عجزه، كما يؤكد الفصل على ضرورة مراقبة الفارس لرقبائه والمسئولين عن رعاية خيوله، لأن الإهمال يؤدي إلي فقدان صاحب الدابة الحق في التعويض عنها. أيضا يشير الفصل إلي

انتشار كسور السيقان والضلوع بشكل واسع بين الحيوانات بسبب شد الرقيب شريط القدم حول الساق مما يؤدي إلى كسرها. وقد أكدت كتب البيطرة العربية على خطورة كسور الكتف ذلك أنه لا يرجى شفاؤه وكذلك كسر قصبه الرجل ومن ثم يخرج الحصان من الخدمة العسكرية إلى الأبد (73). أو يهمل الرقيب شد شريط السرج مما يؤدي إلى خنق الدابة ونفوقها، ومن هنا يلزم القانون تلميحا لا تصريحاً بضرورة متابعة الفارس لخيوله المؤمن عليها وطريقة رعاية الرقباء لها والتشديد عليهم في الالتزام بقواعد هذه الرعاية وعقابهم في حالة الإهمال.

ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من قوانين بيت المقدس قد تأثرت ببعض جوانب التشريع والأعراف الإسلامية ونسوق دليلين على ذلك: أولهما القانون البحري الصليبي الذي يتطابق في بعض جوانبه مع القانون البحري الإسلامي (74). وأيضاً القانون الطبي الصليبي الذي تأثر إلى حد كبير بكتب الحسبة الإسلامية التي فننت الممارسة الطبية (75)

أما بالنسبة لقانون التأمين على الخيول الصليبي فلا نجد مثل ذلك التأثير، ذلك أن التأثير أو التشابه بين بعض القوانين الإسلامية والقوانين الصليبية قد جاء نتيجة تشابه الظروف أو توافر حلول لمشاكل عانى منها الصليبيون ووجدوا لها حلاً لدى المسلمين بحكم طول التجاور، أما أمر نقص الخيول فلم يعان منها المسلمون في ظل توافر مصادر الخيول العربية بأنواعها: الحجازية واليمانية والشامية والجزرية والبرقية والمصرية والخفاجية والمغربية (76). ودأب الملوك والسلاطين على استعراض جيوشهم من آن لآخر خاصة قبل لقاء العدو لتفقد الجيش وإتمام ما نقص منه من عدة وعتاد ودواب وفي مقدمتها الخيل، وخير مثال على ذلك استعراض صلاح الدين لجنده بعد تعرضه لهزيمة محدودة من قبل الصليبيين بقيادة الملك بلدوين الرابع 1174-1185م (77) في الرملة عام 1177م، فما أن عاد إلى مصر حتى جمع جنده وتفقد أحوالهم وعوضهم خيلاً بدلاً عما فقدوه في المعركة (78)، كما دأب على مراجعة جيشه قبل المعارك الكبرى لنفس الغرض حتى يخوض المعركة وهو كامل العدة وفي مقدمتها الخيل، وهو ما حدث قبل حطين 1187م (79)

وقد اهتم حكام المسلمين بالفروسية والخيل منذ فجر الإسلام ومن ثم كثر في العواصم الإسلامية الكبرى منشآت فروسية من ميادين وإسطبلات، بجانب الأسواق المرتبطة بأدوات الخيل مثل أسواق السروج واللحم والمهاميز (80). وقد تفاخر الظاهر بيبرس بتوافر الخيل لدى المسلمين ودورها في الانتصارات على الصليبيين حين ذكر في رسالة إلى ملك قبرص يقول له فيها: "أنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول" (81). وبلغ الاهتمام بالخيل ذروته في عصر الناصر محمد بن قلاوون (ت1340م) ذروته الذي كان عالماً بالخيل وأنسابها وترك حين توفي في إسطبلاته عدداً كبيراً من الخيل التي تكاثرت، وصار يهدى منها لأمرائه في مختلف المناسبات على سبيل الجوائز (82). وهكذا تجاوز الاهتمام بالخيل لدى المسلمين المدى ومن ثم لم يعان المسلمون ما عاناه الصليبيون من نقص الخيل بصفة عامة وخيل الحرب بصفة خاصة.

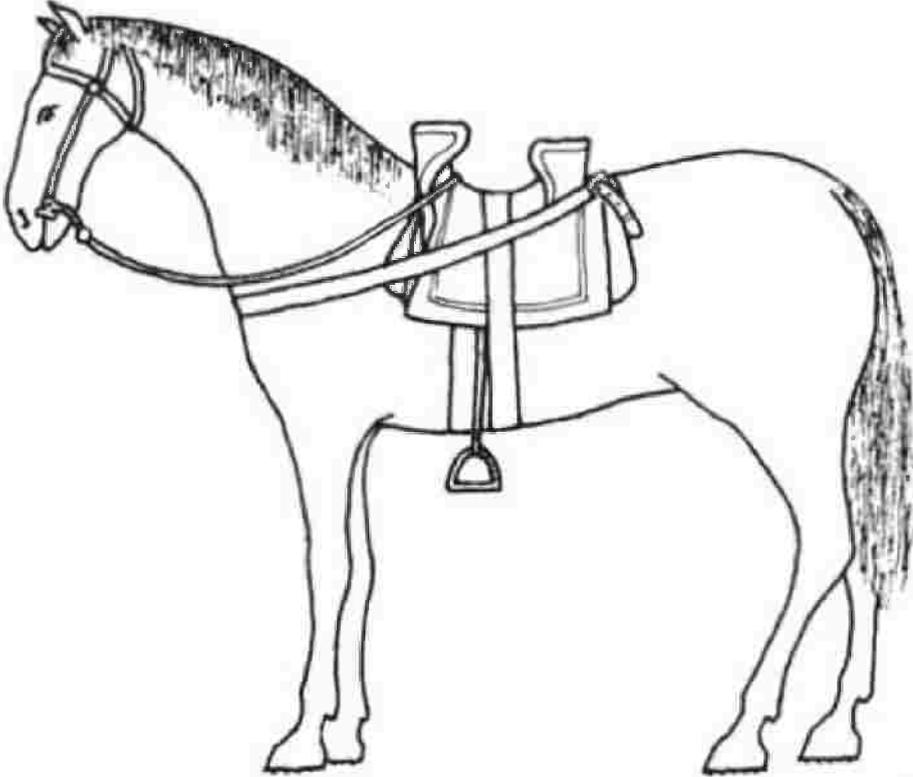
وقد ساهم فقهاء المسلمين في دعم توافر الخيل من خلال تقنينهم لحقوق الفرسان في الحروب، حين أقروا للفرس نصيباً مساوياً لنصيب الفارس في غنائم الحروب، أي أن الفارس كان يحصل على سهمين واحد له وواحد لفرسه، مع جواز تعدد الأسهم للفارس الواحد إذا كان معه أكثر من فرس (83). والمقصود من ذلك واضح فالراجل يتكلف مؤنه نفسه وسلاحه أما الفارس فالإضافة إلى نفقته تضاف نفقات الفرس وتجهيزه.

وفي النهاية يمكن القول أن قانون التأمين على الخيول عند الصليبيين كان قانوناً فريداً في عصره غير مسبوق في الغرب المسيحي أو الشرق الإسلامي، جاء استجابة لتحدي نقص الخيول المخصصة للأغراض العسكرية لدى الصليبيين لضمان توفيرها وقت الحاجة، غير أن الواضح أن التحدي كان أكبر من أن يعالجه سن قانون ومن ثم استمر الصليبيون يعانون من نقص الخيول حتى نهاية تواجدهم في الساحل الشامي.

شكل رقم (1) حصان الحرب الفرنجي

نقلًا عن:

Armies and Enemies of the Crusades 1096-1291, 1978,
Heath (Lane). p91.

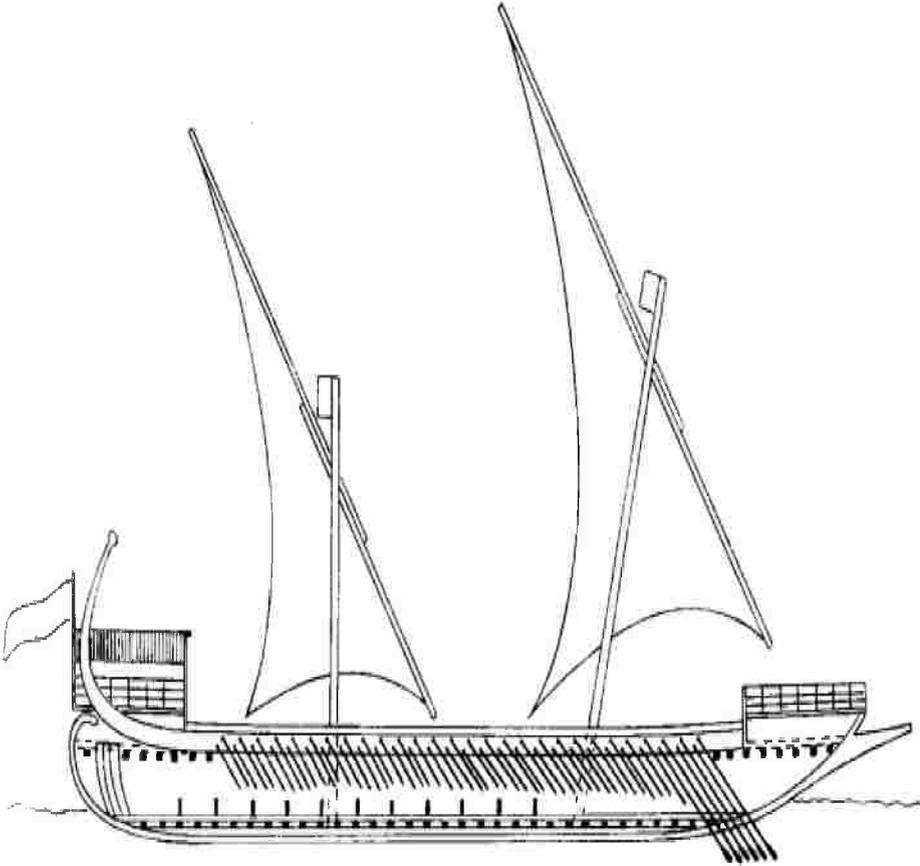


شكل (2)

شكل تخطيطي لسفينة لنقل الخيل بنيت في برانديزي عام 1278م لصالح شارل
أنجو صقلية

نقلاً عن :

Pryor, transportation of horses by sea during the era of the
crusades , part2, in The Mariner's mirror, vol. 68, 1982, p.118

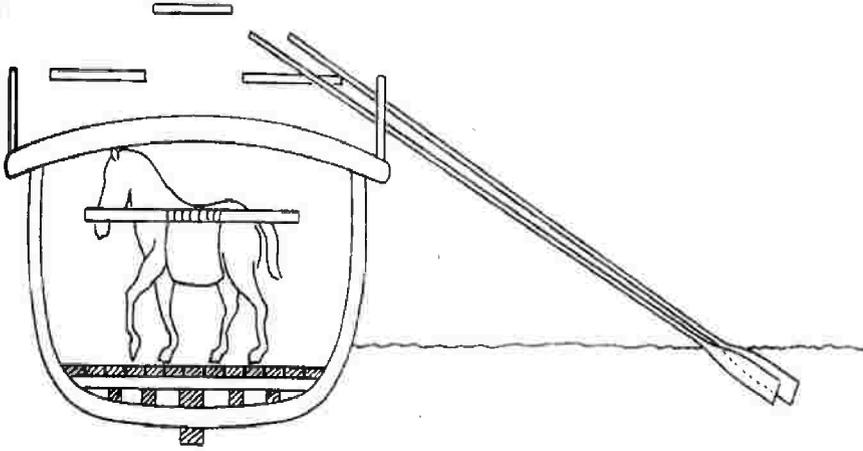


شكل (3)

القسم الأوسط من شانية بنيت في برانديزي
عام 1278م لصالح شارل أنجو ملك صقلية يوضح القسم الخاص
بشحن الخيل في السفينة

نقلًا عن:

Pryor, transportation of horses by sea during the era of the crusades, part2, in The Mariner's mirror, vol. 68, 1982, p.117



الهوامش

(1) La Mont, Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100 to 1291, New York, 1970, p.152.

(2) درست قوانين بيت المقدس بصفة عامة في بعض جوانبها ودونت فيها الأبحاث باللغات الأوروبية، أما في عالمنا العربي فهناك دراستان إحداهما وكانت الأولى من نوعها من إعداد الدكتور حاتم الطحاوي حول القانون البحري الصليبي، والأخرى أعدها الدكتور حسين عطية، بعنوان "قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية في ضوء المصادر الصليبية المعاصرة". من الأبحاث الأجنبية التي اتخذت أحد القوانين موضوعاً لها على سبيل المثال:

Susan B. Edgington, "Medicine and Surgery in the Livre des Assises de la Cour des Bourgeois de Jerusalem", in Al-Masaq, vol. 17, no. 1, 2005, pp.87-97; Marwan nader, Burgesses and Burgess Law in the Latin Kingdom of Jerusalem and Cyprus (1099-1325), Ashgate, Hampshire, 2006.

أما البحثان العربيان: حاتم الطحاوي، "القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية، قراءة في قوانين بيت المقدس"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد (58) عدد 4 أكتوبر 1998م، ص ص 477-529؛ حسين عطية، "قوانين بيت المقدس الصليبية في ضوء المصادر المعاصرة"، بحث مرجعي قدم للجنة الدائمة للترقية لدرجة أستاذ بالجامعات المصرية، 1999م.

(3) John of Iblin, Le Liver des Assies , ed. by Peter W. Edbury, Brill, Leiden, 2003.

(4) وليم الصوري الحروب الصليبية، ج 2، ترجمة د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م، ص 357؛ فليكس فابري، جولات الراهب فيلكس فابري، ترجمة د. سهيل ذكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج 38، القسم الرابع، دار الفكر، دمشق، 2000م، ص 1142. وعن نص قرارات المجلس انظر:

Mansi (I.C), *Sacrorum Conciliorum nova et amplissima Collectio*, Vol. 21, Graz, 1961, pp.256-266; Brundage, *Prostitution*, p.178-179 ; Kedar, "On the Origins of the Earliest Laws of Frankish Jerusalem: The Canons of the Council of Nablus", 1120, in *Sp.*, vol. 74, no.2 (April, 1999) , pp. 310-335.

راجع أيضا، حسين عطية، مجلس نابلس 23 يناير 1120م وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية، ص 45-47؛ محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين، دار عين، القاهرة، 2009م، ص 212 k.ص 218.

(5) سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002م، زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم موسكو، 1986م، ص 304-307؛ بيتر إديوري، قبرص والحروب الصليبية، دار الملتقى بيروت، 1997م، ص 26-38.

(6) حسين عطية، قوانين بيت المقدس الصليبية في ضوء المصادر المعاصرة، ص 10؛ محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين، ص 194-196.

(7) *Liver des Assises de Jerusalem (Lois I-II)* ed. By Beugont in R H C Lois, Paris, 1841-1843.

(8) عن أوربان الثاني انظر:

Becker, Alfons, *Papst Urban II. (1088-1099)*, 2 vols.(Stuttgart: Hiersemann, 1964-198); also "Le Voyage d'Urbain II en France," in *Le Concile de Clermont de 1095 et l'appel à la croisade*, ed. Andre Vauchez (Rome: Ecole française de Rome, 1997), pp. 127-140; *Le Concile de Clermont de 1095 et l'appel à la croisade: Actes du Colloque Universitaire International de Clermont-Ferrand (23-25 juin 1995)*, ed. Andre Vauchez (Rome: l'Ecole française de Rome, 1997); Cowdrey, H. E. John,

“Pope Urban II’s Preaching of the First Crusade,” History 55 (1970), 177–188. Blumenthal (Renate), Urban II, 1214-1217, in The Crusades an Encyclopedia, edited by Alan V. Murry, ABC Clio, Oxford, 2006, pp.1214-1217.

(9) فوشيه الشارترى، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، دار الشروق، القاهرة، 2001م، ص 79.

Blumenthal (Renate), Clermont Council of 1095, in The Crusades an Encyclopedia, edited by Alan V. Murry, ABC Clio, Oxford, 2006, pp. - 265

(10) حول دوافع الحروب الصليبية انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971م، ص 27-42؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، 1993، ص ص 55-103.

(11) سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1972م، ص 49.

(12) توماس ماتزنك، السلام الصليبي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ص18، قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص76.

(13) علية الجنزوري، الحروب الصليبية (المقدمات السياسية) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م، محمد فوزي رحيل، إمارة بنى مزيد أمراء الحلة، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 2003م.

(14) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج1، ترجمة الدكتور حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991م، ص 257-264؛ علية الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م، ص 70.

(15) مجهول، أعمال الفرنجة، ص64؛ وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج1، ص 367-421

Robert the Monk's , history of the first Crusades, pp. 121-161.

(16) مجهول أعمال الفرنجة، وحجاج بيت المقدس، ترجمة، د.حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1958م، ص 115-118.؛ بطرس توديود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة د.حسين عطية، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1999م، ص 164؛ وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 79-137.

Robert the Monk's, history of the first Crusades, trans by Carol Sweetenham, Ashgate, 2005, pp.196-214; The Gesta Tancred of Ralph of Caen, trans by Bernard Bachrach and Daivid Bachrach, Ashgate, Hampshire, 143.

(17) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج 2، ص 278-280.

(18) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 205.

(19) حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، 1999، ص 239.

(20) براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة عبد الحافظ البناء، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، 2001م، ص 389.

(21) موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة د.على السيد علي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2004م، ص 95.

(22) براور، الاستيطان الصليبي، ص 392.

(23) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج2، ص 67.

(24) كان المسلمون يفضلون إناث الخيل إذا قاموا بغارة وفي الكمائن، وفحول الخيل للصفوف الأمامية في المعارك، كما استحبوا خصيان الخيل في الكمائن والطلائع لأنها أصبر وأقوى جهداً، وهناك من فضل الإناث على الإطلاق وأشهرهم خالد بن الوليد، الذي برر ذلك بأن الأنثى إذا أرادت البول دفعته وهي تجرى أما الذكر فيحبسه في جوفه حتى يموت.

الختلي (محمد بن يعقوب)، عون أهل الجهاد من الأمراء والأجناد، تحقيق عارف أحمد عبد الغنى، دار كنان، دمشق، 1968م، ص 36؛ ابن جماعه (بدر الدين محمد بن إبراهيم)، مستند الأجناد في آلات الجهاد، تحقيق أسمة ناصر النقشبندى، بغداد، 1983م، ص 68 .
(25) موريس بيشوب، تاريخ أوربا، ص 95.

(26) براور، الاستيطان الصليبي، ص 405.
Marshall, Warfare in the Latin East, London, 1994, p.88-89.

(27) موريس بيشوب، تاريخ أوربا، ص 94.
(28) سميل، الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982م، ص 78.
(29) نفسه، ص 110.

(30) Hyland, The Medieval Warhorse from Byzantium to the Crusades, Cambridge, 1996, p.168.

(31) رحلات ماركو بولو، ج1، ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2004، ص 65. قام ماركو بولو برحلته بين عامي 1271م و1295م

(32) Hyland, The Medieval warhorse, p.168; Lan Heath, Armies and enemies of the Crusades 1096-1291, p.108.

(33) وليم الصوري، ج2، ص 20.
The Gesta Tancredi of Ralph of Caen, trans. Bernard S. Bachrach and David S. Bachrach, Ashgate, 2005, p.79.

(34) وليم الصوري، ج2، ص متفرق.
(35) سيمون لويد، "الحركة الصليبية 1096-1274م"، ضمن تاريخ الحروب الصليبية، تحرير جوناثان ريلي سميث، ج1، ترجمة د.قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009م، ص 123.

Gertwagen (Ruthy), " Harbors and facilities along the Eastern Mediterranean sea lanes to Outermer" in: Logistics of Warfare in the Age of the Crusades, edited by John H. Pryor, Ashgate, 2006, p.95, 98.

وصلتنا مواصفات بعض السفن التي استخدمت لنقل الخيل عام 1248م وأخرى عام

1274م وهي كالتالي: الطول العام تراوح بين 35.7م و37.9م. وعرض السفينة في الوسط تراوح بين 2.1م و2.2م. عرض أرضية السفينة 3.3م إلى 3.6م. ارتفاع جانب السفينة 3.9م إلى 4.9م. عرض السفينة 4.8م إلى 5.1م. وللسفينة في المؤخرة باب أو اثنان. أما ارتفاع الصاري الأمامي 17.4م إلى 19.3م. طول السري الأوسط 13.4م إلى 14.8م. طول الدفة 7.3م. عدد المجاديف 108 إلى 112 مجداف. طول جسر الإنزال 3.7م.

Pryor, ships, in *The Crusades an encyclopedia*, p.1101.

(36) عن هيو بايين انظر :

Phillips, Jonathan, "Hugh of Payns and the 1129 Damascus Crusade," in *The Military Orders: Fighting for the Faith and Caring for the Sick*, ed. Malcolm Barber (Aldershot, UK: Variorum, 1994), pp. 141-147; Barber (Malcolm), Hugh of Payns, in *The Crusades an encyclopedia*, p612.

(37)Pryor, transportation of horses by sea during the era of the crusades , part1, in *The Mariner's mirror*, vol. 68, issue1, 1982, p.15.

(38) وليم الصوري، ج4، ص 117

Pryor, "Transportation of Horses", Part 1, p18; Nettles, *Mamluk Cavalry Practices: Evolution and Influence*, PHD theses, The University of Arizona, 2001, p. 177.

(39) Lan Heath, *Armies and enemies of the crusades 1096-1291*, p.108

(40) ذكر أبو شامة أنه عقب نصر حطين كثرت الغنائم في يد المسلمين وبيعت بدمشق بأبخس الأسعار من كثرتها ومن بينها الخيول التي لم تجد من يشتريها. أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج2، تحقيق أحمد البيومي، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ص 139.

(41) ابن شداد(بهاء الدين أبو المحاسن يوسف)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق د.جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964م، ص 145.

(42) Pryor, Transportation of horses, part1, p.20.

(43) Pryor, Transportation of horses, part1, p.21.

(44) Marshall, Warfare in the Latin east, p.159.

(45) الطرائد: هي سفن كبيرة تشبه الشواني الحربية، لكنها مخصصة لأغراض النقل، وعادة ما كانت تستخدم في حمل الخيل، وكان لها خلفية مربعة لها بابا أو بابان، وعادة ما كانت

ترسو بظهرها إلى الشاطئ لتفريغ ما تحمله من بضائع. أنظر: Templar of Tyre, part III of the deeds of Cypriots, trans. By Paul Crawford, England, 2003, p.187

(46) Davis, Chronicle of Richard of Davizes, Concerning the Deeds of king Richard the first, in Chronicles of the Crusades, London, 1883, p.13-14; Pryor, Transportation of horses, part1, p.21

(47) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 239. وأيضاً:

Transportation of horses, part1, p.21 .

(48) ذيل وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002م، ص 166-167.

(49) Gertwagen, "Harbors and Facilities", p.95.

(50) فلهاردوين، الاستيلاء على القسطنطينية، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج10، ترجمة وتحقيق د. سهيل ذكار، دار الفكر، دمشق، 1995م، ص 37 .

Pryor, Transportation of horses, part1, p.21.

(51) جوانفيل، سيرة القديس لويس، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج35، ترجمة وتحقيق د. سهيل ذكار، دار الفكر، دمشق، 1995م، ص 41، سيمون

لويد، "الحركة الصليبية"، ص 126.

(52) Pryor, Transportation of horse, part II, p.105.

(53) Templar of Tyre, trans by Paul Crawford, p.38

(54) في العام التالي لذلك التصريح، تمكن شارل أنجوي عام 1277م من شراء حقوق ماري الإنطاكية في مملكة بيت المقدس الثانية، بتأييد من البابا بالرغم من رفض المحكمة العليا

في عكا تلك الحقوق، ومن هنا أرسل شارل نائبا عنه إلى عكا وهو روجر سان سفرينو Roger Sansevreno. ومن هنا يبدو أن شارل أنجو كان يمهّد لمد سلطانه إلى

الكيان الصليبي في الشرق، ذلك السلطان الذي لم يطل، إذ انتهى عام 1282م عقب فقدانه لنفوذه في صقلية. لمزيد من التفاصيل انظر: محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين، ص 67-73.

(55) Riccio (Camillo Minieri), Studi Stoici Su' Fascicoli Angioini Dell' Archivio Della Regia Zecca di Napoli, (Fasc. 42. Di fol. 133), Napoli, 1863, p.84; Pryor, "Transportation of horse", part II, p110.

(56) عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، عين للبحوث، القاهرة، 1997م، ص 125.

(57) Gertwagen, "Har bours and Facilities" p.100.

(58) Hyland (Ann), The Medieval Warhorse , p.140.

(59) Hyland (Ann), The Medieval Warhorse, p.141.

(60) أسامة بن منقذ، الاعتبار، دار الهلال، القاهرة، 2002م، ص 77.

(61) لم تذكر لنا مجموعة قوانين بيت المقدس أن عموري الأول هو مدون القانون لكن نرجحه على أساس أن مملكة بيت المقدس الصليبية بلغت قمة مجدها السياسي في عهده، واتجاه عموري إلى إصدار العديد من التشريعات الإقطاعية، ومن هنا نرجع وضعه لعدد من القوانين المنظمة للجيش الصليبي وتأمين إمداداته ومنها الخيول، وقد أتى وليم الصوري عليه ووصفه بالحصافة والرشد وبإلمامه بقوانين المملكة بجانب قرأته الواسعة للتاريخ. وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج4، ص 17. انظر أيضا حاتم الطحاوي، "القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية قراءة في مجموعة قوانين بيت المقدس" ضمن مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد (58) عدد 4 أكتوبر 1998م، ص 515.

(62) السيد الباز العريبي، "نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد 20، عدد 2، ديسمبر 1958م، ص 48، 49.

(63) البيزنت: هو نقد ذهبي بيزنطي الأصل كان يطلق عليه السوليدس، أو نومزما، وغير اسمه في فترة متأخرة من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية إلى بيزنت، وقد استخدم الصليبيون في أول عهدهم في الساحل الشامي بيزنتات الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع دوкас

(1071-1078م)، وبعد استقرارهم أدركوا ارتفاع قيمة الدنانير الفاطمية فقلدوها وأطلقوا عليها اسم البيزناتات الإسلامية. لمزيد من التفاصيل راجع: رأفت النراوي، النقود الصليبية في الشام ومصر، القاهرة، 2001م، ص ص 23-26.

(64) *Liver des Assises de Jerusalem (Lois II)*, p.613

(65) Lan Heath, *Armies and enemies of the crusades 1096-1291*, p.108; Marshall, (Christopher), *Warfare in the Latin East, 1192-1291*, Cambridge, 1994, p.94.

كان أصطحاب الفارس لأكثر من فرس أمراً شائعاً لدى الفرسان، في شتى جيوش العالم في العصور الوسطى، وكذلك في الدول الإسلامية منذ صدر الإسلام، ومن هنا دار جدل فقهي بين فقهاء المسلمين حول نصيب الفارس الذي يصطحب معه في القتال أكثر من فرس، وقد رأى الإمام أبو حنيفة أن الفارس لا يستحق من الغنيمة غير سهم عن نفسه وسهم عن جواد واحد، وكذا أخذ أهل العراق أما فقهاء الشام فقد رأوا أن من اصطحب فرسين فلهم أسهم ثلاثة سهم عن نفسه وسهمان عن الفرسين وهو رأي أخذ به الإمام أبو يوسف. انظر: السرخسي (أبو بكر محمد بن أبي سهل)، كتاب المبسوط، ج10، ار المعرفة بيروت، 1989م، ص 45.

(66) يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص 153.

La Monte Feudal Monarchy, p.117.

(67) *Ibid.*

(68) عمر بن يوسف الغساني، المغنى في البيطرة، تحقيق د. رمزية الأطرقي، جامعة بغداد، 1989م، ص 41؛ البيطار (أبي بكر بدر الدين)، كامل الصناعتين في البيطرة والزردقة، ج1، تحقيق د. عبد الرحمن إبريق، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، 1993م، ص 134-135؛ حسن الرماح، الفروسية والمناصب الحربية، تحقيق د. فاروق سليم، مركز زايد للتراث، 2007م، ص 128-129.

(69) *Liver des Assises de Jerusalem (Lois II)*, p.613

(70) البيطار، كامل الصناعتين، ج1، ص 138-140.

(71) *Liver des Assises de Jerusalem (Lois II)*, p.614

(72) *Liver des Assises de Jerusalem (Lois II)*, p.614

(73) البيطار، كامل الصناعتين، ج2، ص 145.

- (74) حاتم الطحاوي، القانون البحري، 490.
- (75) Susan B. Edgington, "Medicine and Surgery in the Livre des Assises de la Cour des Bourgeois de Jerusalem", in Al-Masaq, vol. 17, no. 1, 2005, pp.87-97.
- (76) البيطار، كاشف هم الويل في معرفة أمراض الخيل، ج1، تحقيق د.عبد الرحمن الدقاق، دار النفائس، بيروت، 1991م، ص 79.
- (77) عن بلدوين الرابع انظر: ياسر كامل، مملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الرابع، رسالة ماجستير، جامعة أسيوط، 2008م.
- Aube Pierre, Baudouin IV de Jerusalem, Le Roi Le Preux, (Paris 1981), Hamilton, The Leper King and His Heirs, Baldwin IV and the Crusader Kingdom of Jerusalem, (Cambridge: Cambridge University Press, 2000).
- (78) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، مطبعة وادي النيل، القاهرة، 1278هـ / 1861م، ص 274؛ محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، دراسات في التاريخ المقارن، دار العالم العربي، القاهرة، 2010م، ص 168.
- (79) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 126.
- (80) البيطار، كامل الصناعتين، ج1، مقدمة المحقق ص 34.
- (81) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق د.عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976م، ص 388؛ البيطار، كامل الصناعتين، ج1، مقدمة المحقق ص 14.
- (82) البيطار، كامل الصناعتين، ج1، مقدمة المحقق ص 28.
- (83) الشافعي (محمد بن إدريس)، الأم، ج4، دار المعرفة، بيروت، 1393هـ، ص 145؛ الشيرازي (أبي اسحق)، المهذب في فقه الإمام الشافعي، ج2، بيروت، د.ت، ص 244؛ السرخسي، المبسوط، ج10، ص 42، ابن رشد (أبي الوليد)، البيان والتحصيل، ج2، تحقيق سعيد أعراب، دار الغرب الإسلامي، 1988م، ص 570.

سياسة مملكة بيت المقدس الخارجية تجاه البابوية
وبيزنطة, والغرب الأوربي, والإمارات الصليبية
خلال عهد الملك بلدوين الرابع
(1174 – 1185م)

د/ ياسر كامل محمود أحمد
كلية الآداب – جامعة أسيوط

سياسة مملكة بيت المقدس الخارجية تجاه البابوية،
وبيزنطة، والغرب الأوروبي، والإمارات الصليبية خلال
عهد الملك بلدوين الرابع (1174-1185م)

يتناول هذا الفصل السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الرابع تجاه القوى الخارجية كالبابوية، وبيزنطة، والغرب الأوروبي، وبقية الإمارات الصليبية، ويناقش الفصل مدى تأثير المملكة بهذه السياسة سواء بالسلب أو الإيجاب. الواقع أن مملكة بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الرابع شهدت تراجعاً واضحاً في إقبال الغرب الأوروبي على تقديم المساعدات لها، وذلك لعدة أسباب منها: النزاعات والمحن التي مرت بها المملكة الصليبية، بالإضافة إلى ذلك فإن المملكة خلال فترة حكم بلدوين الرابع لم تعد يُنظر إليها بأنها أرض كنعان التي تفيض لبناً وعسلاً، كذلك فإن الامتيازات التي كانت تُمنح للقادمين من الغرب تقلصت في عهد بلدوين الرابع (1). بالإضافة إلى انشغال الغرب الأوروبي بنزاعاته. ولما كان بقاء المملكة الصليبية في الشرق مرهوناً بالمساعدات الخارجية التي كانت تأتي من الغرب الأوروبي، فقد تركزت معظم سياسة بلدوين الرابع الخارجية في محاولة إقامة علاقات وتحالفات مع قادة وهيئات الغرب الأوروبي وفي مقدمتها البابوية من أجل الحفاظ على المملكة الصليبية.

في بداية الحركة الصليبية، وُصفت العلاقة بين مملكة بيت المقدس والبابوية بأنها علاقة قوية وذلك لعدة اعتبارات أولها: أن مملكة بيت المقدس وغيرها من الكيانات الصليبية تأسست بدعوة من البابوية وبمباركتها (2)، وثانيها أن المملكة كانت شديدة الارتباط بالكنيسة، لهذا لم يعترف ملوك بيت المقدس لأحد بالسلطة سوى للبابوية التي وجهت الجيوش وتحملت مسئولية إقامة مملكة صليبية في الشرق (3). ولكن هذه العلاقة لم تلبث أن أصابها بعض الفتور عقب فشل الحملة الصليبية الثانية (1147-1149م)، حيث

صارت المملكة عبئاً ثقيلاً يرهق كاهل البابوية (4).

وقد ظهر ذلك بوضوح أثناء فترة بابوية اسكندر الثالث (7 سبتمبر 1159-30

أغسطس 1181م) والذي أقيمت على عاتقه مهمة مساعدة المملكة الصليبية في الشرق

اللاتيني، والواقع أن مهمة البابا تلك لم تكن بسيطة وسهلة، حيث كان ميراث الحملة

الصليبية الثانية لا يزال يُلقي بظلاله المعتمة على المملكة الصليبية (5).

ثم لم تلبث البابوية أن انشغلت بنزاعها مع الإمبراطورية حول التقليد العلماني،

وقد اشتد هذا النزاع بين البابا إسكندر الثالث وفردريك الأول برباروسا (Fredrick I

Barbarossa إمبراطور ألمانيا 1152 - 1190م) حيث رفض الإمبراطور فردريك

الاعتراف بابابوية اسكندر الثالث، وقد انشغلت البابوية في هذا النزاع طيلة الفترة من عام

1159م وحتى عام 1177م، مما جعل الأمور في الغرب الأوربي تزداد تعقيداً (6)، وقد

أعاق هذا الأمر البابا اسكندر الثالث في الدعوة لحملة صليبية جديدة لإنقاذ مملكة بيت

المقدس ومساعدة ملكها بلدوين الرابع من هجمات المسلمين (7).

وعلي الرغم من انشغال البابا اسكندر الثالث بمشاكله، إلا أن ذلك لم يمنعه أن

يتابع سير الأوضاع في المملكة الصليبية، حيث أبدى البابا قلقاً متزايداً بشأن الحالة السيئة

التي تعيشها المملكة الصليبية، ومن ثم طلب البابا من أرنولد من تورجا **Arnold of**

Toroga مقدم الداوية أن يقدم له تقارير موثقة ومستقلة حول أوضاع المملكة الصليبية،

وملكها المريض بلدوين الرابع (8).

من خلال هذه التقارير علم البابا اسكندر الثالث في سنة 1174م أن مملكة

بيت المقدس، صارت في حالة سيئة، ومهددة بالانهيار بسبب النزاعات التي ثارت في المملكة

من أجل الوصول إلى منصب الوصاية (9)، ورغم ذلك بدت هناك بادرة أمل لإنقاذ المملكة

الصليبية، تمثلت في محاولة البابا اسكندر الثالث عقد صلح بين لويس السابع ملك فرنسا

ونظيره هنري الثاني ملك إنجلترا. لهذا أرسل البابا مندوبه الكاردينال

بيترأوف سان جريسوجونو **Peter of San Grisogono** لمحاولة عقد صلح بين

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

هذين العاهلين الكبيرين، وإقناعهما بأن عداوتهما هذه من شأنها أن تضر ببقاء المملكة الصليبية في الشرق (10)

وفي نهاية الأمر؛ نجح البابا في مساعيه، حيث تم التصالح بين ملكي فرنسا وإنجلترا، وبمبادرة من البابوية عقد الملكان معاهدة في الخامس والعشرين من أغسطس عام 1177م اتفقا فيها على القيام بحملة صليبية مشتركة ضد المسلمين ومساعدة الملك بلدوين الرابع (11). ولكن لأسباب سيفصلها الباحث في موضعها، لم يخرج هذين العاهلين الكبيرين في حملة لمساعدة المملكة الصليبية.

إزاء ذلك واصل البابا إسكندر الثالث توجيه نداءاته المتكررة لحث ملوك وأمراء الغرب الأوربي على القيام بحملة صليبية لإنقاذ مملكة بيت المقدس المتدهورة، إلا أن الرأي العام الغربي لم يبد اهتماماً يذكر لهذه النداءات (12) ولم يلب دعوة البابا غير فيليب كونت فلاندرز، فهو الأمير الوحيد الذي قام بحملة لمساعدة المملكة الصليبية وملكها المجذوم سنة 1177م (13) والتي عرفت بالحملة الفلمنكية (14).

وبهذا لم تتلق البابوية رداً مطمئناً من الغرب الأوربي لاستنجادها المتكرر، والواضح أن السبب في فنور ملوك وأمراء الغرب الأوربي كان مبعثه هذا الوضع الحرج الذي كانت تعانيه البابوية آنذاك في الغرب الأوربي .

من جانبه لم يكف الملك بلدوين الرابع عن محاولة الحصول على المساعدة من البابوية. ولذلك في سنة 1179م أرسل الملك بلدوين الرابع عدداً من رجال الدين على رأسهم وليم الصوري رئيس أساقفة صور للمشاركة في مجمع اللاتيران الثالث **Third Lateran Council** الذي عقده البابا إسكندر الثالث في التاسع والعشرين من مارس سنة 1179م (15)، ودون أن نخوض في تفاصيل هذا المجمع، فإن ما يهمنا فيه أن السفارة الصليبية عرضت على المجمع باستفاضة الخطر الكبير الذي يتهدد المملكة الصليبية، بعد تدهور أحوال الملك بلدوين الرابع الصحية، لذلك خص مجمع اللاتيران الثالث المملكة الصليبية بعدة قرارات، أهمها القرار الخامس والعشرين والذي نص على إصدار قرار الحرمان

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

الكنسي، ومصادرة الأملاك والحرمان الشخصي لكل من يزود المسلمين بالأسلحة، ولوازم القتال كالخشب الذي تصنع منه السفن الحربية، كما طالب المجمع أمراء المقاطعات الأوربية وكذلك قناصل الدول في الشرق بمصادرة ممتلكات من يقوم بهذا العمل وأن يعمل معاملة العبيد، وهو ما يعنى تحريم التجارة مع المسلمين، وبخاصة في أدوات الحرب(16).

في الواقع لا نعرف فيما إذا كان أعضاء الوفد الصليبي- الذي حضر المجمع - هم الذين دفعوا البابا اسكندر الثالث إلى اتخاذ ذلك القرار، أم الجنوية الذين وقعوا معاهدة مع بلدوين الرابع سنة 1177م، واشترطوا عليه أن يكون لهم ثلث إيراد مصر في حالة الاستيلاء عليها، ورداً على هذه المعاهدة وقع البنادقة معاهدة تجارية مع صلاح الدين الذي منحهم حقوقاً وامتيازات في مصر في سنة 1177م (17)، على أن الأهم من ذلك هو أنه لم تنظم أية مساعدة عسكرية لمملكة بيت المقدس(18).

فعلى الرغم من قرارات البابوية المتشددة في وقف تعامل الصليبيين مع المسلمين إلا أن حب الربح الوفير حمل شعوب أوروبا على مخالفة قرارات البابا، فكانوا يتاجرون مع المسلمين في صنوف التجارة بما فيها أدوات القتال والحرب مستخدمين كل الأساليب والحيل التجارية لإيصال بضائعهم سراً إلى الشرق الإسلامي وكانوا يعودون إلى مدتهم وهم مرتاحين الضمير حسب تعبير مارينو سانوتو(19).

ومع ذلك لم تتوقف دعوات البابا اسكندر الثالث عند هذه المحاولة بل واصل نشاطاته في الدعوة إلى حملة صليبية إلى الشرق، وظهر ذلك من خلال خطابه المؤرخ بالسادس عشر من يناير 1181م، حيث وجه منشوراً كبيراً إلى زعماء الغرب الأوربي وبخاصة الأمراء العلمانيين، ناشدهم بإعداد حملة لإنقاذ المملكة الصليبية(20). وفي هذا المنشور أشار البابا إلى الأخبار التي وصلتته من مملكة بيت المقدس من خلال التقرير المشترك للحجاج المسافرين، والذي جاء فيه: "لقد أزعج قلبنا، وقلب أخوتنا ما آل إليه وضع مملكة بيت المقدس من سوء بسبب النزاعات والصراعات التي تنشب بين نبلاء المملكة.. ونحن يساورنا القلق أن تؤدي هذه النزاعات إلى سقوط المملكة في يد الأعداء(21).

وعلى الرغم من سوء حالة المملكة الصليبية فإن البعض يرى أن الذي أزعج البابا اسكندر الثالث ليس الانقسامات التي أصابت المملكة، ولكن حالة الملك بلدوين الرابع الصحية ويتبين ذلك من خلال رسالة البابا اسكندر الثالث والتي جاء فيها: "أن الملك بلدوين الرابع ليس مثل هذا الرجل الذي يمكنه أن يحكم المملكة، فهو مصاب بشدة بمرض عضال من قبل الرب، كما نعتقد أنه بالكاد قادر على تحمل العذاب المستمر في جسمه(22).

على الرغم من أن رسالة اسكندر الثالث السابقة لا تخلو من تجريح في قدرة بلدوين الرابع على الحكم، إلا أن ذلك لم يثن الملك بلدوين الرابع عن تكرار طلب المساعدة من البابوية مرة أخرى. حيث أرسل الملك بلدوين الرابع في أواخر سنة 1181م وفداً خاصاً رفيع المستوى لإبلاغ البابوية، والغرب الأوربي بخطورة الموقف داخل المملكة، وكان هذا الوفد تحت رئاسة هرقل بطريك بيت المقدس، وأرنولد من تورجا **Arnold of Toroga** مقدم الداوية وروجر من مولينيه مقدم الإيستارية، في ذلك الوقت كان قد مات البابا اسكندر الثالث في أغسطس 1181م، وقابل هذا الوفد البابا الجديد لوسيوست الثالث(1181-1185م) في فيرونا(Verona) (23).

ورداً على طلب المساعدة الذي تقدم به الصليبيون سنة 1181م، قام البابا لوسيوست الثالث بإرسال رسالة إلى هنري الثاني ملك إنجلترا، يطلب منه ضرورة الإسراع لإنقاذ مملكة بيت المقدس، التي باتت على وشك السقوط في يد صلاح الدين(24)، لكن الملك هنري الثاني رفض العرض متعللاً بخطورة الموقف في بلده إنجلترا(25).

ولما أيقنت البابوية بعدم خروج حملة صليبية لمساعدة الملك بلدوين الرابع ومملكته، بدأت البابوية تعيد جدولة مخططاتها العسكرية الاستعمارية والتحول إلى الدبلوماسية في تنفيذ فكرة الحروب الصليبية، لعلها تحافظ على الوجود الصليبي في بلاد الشام عامة وفي مملكة بيت المقدس بصفة خاصة، لذلك لم تجد البابوية غضاضة في الاتصال مع حكام مصر وبلاد الشام الأيوبيين، وكان البابا لوسيوست الثالث أول الباباوات الذين اتصلوا بصلاح الدين

الأيوبي، بعد أن أدرك مدى خطورة توحيد الجبهة الإسلامية في مصر وبلاد الشام على الكيان الصليبي في المنطقة، وبخاصة أن البابوية لم تكن قادرة آنذاك على إرسال حملة صليبية جديدة (26) ولذلك أرسل البابا لوسيوس الثالث عام 1182م رسالة إلى العادل سيف الدين الأيوبي شقيق صلاح الدين الأيوبي ونائبه في مصر، وفيها طلب البابا من العادل عقد هدنة سلام بين مملكة بيت المقدس وبين مصر يتم فيها إطلاق سراح الأسرى الصليبيين وبخاصة أسرى مملكة بيت المقدس، ورد العادل على البابا برسالة مماثلة في الحادي والثلاثين من مارس سنة 1183م وأخبره بأنه تلقى رسالته، وأنه عرض على صلاح الدين إطلاق الأسرى الصليبيين، وأن صلاح الدين وافق على هذا المطلب بشرط أن يخضع المسيحيون في القدس وصور لأوامر البابا وبخاصة إقامة السلام، وإطلاق سراح أسرى المسلمين الموجودين في السجون الصليبية، وفي ختام الرسالة ذكر العادل أنه إذا لم يطع الصليبيين أوامر البابا بخصوص السلام، فإن صلاح الدين غير مسئول عما يحدث بعد ذلك "أما إذا خالفكم المسيحيون، ولم يطيعوا أوامركم، فنحن أبرياء من كل إجراء تقوم به معهم لإحلال العدل وليعطي الله كل منا حسب أعماله" (27).

كما أرسل البابا لوسيوس الثالث رسالة إلى صلاح الدين طلب فيها ضرورة تبادل الأسرى، ورد صلاح الدين على البابا برسالة سنة 1183م ذكر له فيها أنه سعيد بتحقيق السلام، وتبادل الأسرى بين الصليبيين والمسلمين، وأضاف صلاح الدين أن الأسرى الصليبيين عند المسلمين هم من النبلاء أما أسرى المسلمين هم من طبقة العامة، وأن الذي عنده أسرى أقل قيمة يعوض الطرف الآخر (28).

المرجح أن صلاح الدين وافق على عقد هذه الهدنة تجنباً لأي رد فعل بابوي يتمثل بالدعوة لقيام حملة صليبية جديدة تعرقل سير مخطط صلاح الدين في توحيد الجبهة الصليبية (29).

أما الملك بلدوين الرابع فقد بعث برسالة إلى البابا لوسيوس الثالث وجميع ملوك وأمراء الغرب الأوربي في سنة 1184م يخبرهم فيها أن صلاح الدين قد هاجم حدود مملكة

بيت المقدس خلال التاسع أو العاشر من شهر يوليو من العام نفسه ولمدة ثلاثة أسابيع متواصلة، وأنه تمكن من الاستيلاء على حصن فوريبيه، وأنه اتجه بعد ذلك إلى يزريعيل وقتل من بها، وأسر الكثيرين أيضاً، وأنه هاجم قلعة الداوية التي تسمى بلفوار Belverium وأسر من بها(30).

ردت البابوية على رسالة الملك بلدوين الرابع بأن فرض البابا لوسيوس الثالث ضريبة على الكهنة لإعداد المال اللازم للقيام بحملة صليبية لمساعدة الملك المجذوم ومملكته المنهارة، غير أن هذا المشروع لم يتم في حياة الملك بلدوين الرابع(31). وبعد فرض هذه الضريبة انشغل البابا لوسيوس بشؤون إيطاليا، ولم يبد أي اهتمام لمملكة بيت المقدس ولا لملكها بلدوين الرابع(32). وهكذا لم تستطع البابوية لعب دور حاسم تجاه المملكة خلال عهد الملك بلدوين الرابع مقارنة بالدور الذي لعبته قبل عهد بلدوين الرابع، ومن بعده أيضاً. فيما يتعلق بعلاقة المملكة ببيزنطة، فوسط عجز البابوية عن إرسال حملة صليبية لإنقاذ المملكة الصليبية، أدرك الملك بلدوين الرابع أن البابوية لن تقدم له المساعدة المرجوة لهذا بدأ في البحث عن حلفاء آخرين، والبديل الطبيعي كان الإمبراطورية البيزنطية، القوة المسيحية الأكبر في شرق البحر الأبيض المتوسط(33)، وسعى الملك بلدوين الرابع لالتماس مساعدتها في وقف هجمات المسلمين في هذا الوقت بالذات بعدما تغيرت موازين القوى لصالح المسلمين، وثمة عامل مهم آخر جعل بلدوين يتطلع إلى بيزنطة وهو احتياجه إلى أسطول حربي يمكن به تخفيف الضغط على المملكة وذلك بمهاجمة مصر، وقد رأى الملك بلدوين الرابع أن قيام الإمبراطورية البيزنطية بتقديم هذا الأسطول سيكون من أجل الخدمات التي تقدمها بيزنطة للمملكة الصليبية وفرصة يجب على الصليبيين اغتنامها(34). غير أن اغتنام هذه الفرص كان يتوقف على أحوال كلاً من المملكة الصليبية والإمبراطورية البيزنطية، وعلى نوع الحكومة فيهما(35).

كانت سياسة الملك بلدوين الرابع تجاه بيزنطة تتفاوت طبقاً للحزب الذي يتولى دفة القيادة في المملكة الصليبية(36). حيث كان حزب البارونات الوطنيين يميل إلى

التحالف مع بيزنطة، في حين كان حزب القادمين الجدد لا يجذ العمل مع بيزنطة كما سيتبين خلال ذلك العرض.

بالنسبة للحزب الأول، فقد كان أول من تولى الوصاية على بلدوين الرابع ممثلاً في زعيمه ريموند الثالث كونت طرابلس الذي تولى الوصاية خلال الفترة (1174-1176م)، وكان هذا الحزب يضم أيضاً، رينالد من صيدا، والكونستابل همفري دي تورون، وبالبيان من ايلين وأخوه بلدوين.

كان معظم أعضاء هذا الحزب من ذوي الميول البيزنطية، وبالنسبة لريموند الثالث فكانت ميوله تجاه بيزنطة غير واضحة، إذ لدينا رأيين متناقضين، الأول يتبناه المؤرخ هاملتون (37). والذي يرى أن ميول ريموند الثالث تجاه بيزنطة كانت عدائية واستدل على ذلك بالموقف الذي وقع عام 1160م حينما رفض مانويل الأول الزواج من ميليسند أخت ريموند (38). وانتقاماً من مانويل قام ريموند الثالث بتخريب سواحل الإمبراطورية ونهبها، رداً على الإهانة التي لحقت بأخته (39). في حين يرى المؤرخ ليلي Lilie أن هذه المسألة مرت عليها سنوات كثيرة، وأنها لم تؤثر على ريموند الثالث (40). ويضيف Lilie أن ريموند اتبع سياسة صديقة تجاه بيزنطة أثناء فترة وصايته (41). لكن الباحث يميل إلى الأخذ برأي المؤرخ هاملتون، لعدة اعتبارات أهمها: أن الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول حينما اعتزم محاربة السلاجقة سنة 1175م أرسل يطلب المساعدة من المملكة الصليبية، ولكن المملكة بقيادة بلدوين الرابع ووصيه ريموند الثالث لم يقدموا المساعدة لبيزنطة، وربما كان ريموند الثالث السبب في ذلك (42). والاعتبار الآخر، وهو أن ريموند الثالث كان ضمن المعارضين للحملة الصليبية البيزنطية سنة 1177م .

على أية حال، فإذا نحينا ريموند الثالث جانباً لعدم وضوح ميوله الشخصية فإن بقية أعضاء حزبه (حزب البارونات الوطنيين) كانوا يعتبرون الاتصال ببيزنطة أمراً ضرورياً في ذلك الوقت، فبالنسبة لبيت ابلين فقد بدا أنهم بيزنطيون الولاء، ومما يعزز ذلك أنه في سنة 1177م تزوج بالبيان ابلين من ماريه كومنين أرملة عموري الأول، وبذلك صار له مع

مانويل مصاهرة ونسب، أما الكونستابل همفري من تورون فكان مبعوث المملكة إلى البلاط البيزنطي منذ عهد الملك عموري. ويضاف إلى هذا الحزب شخص آخر وهو وليم الصوري، باعتبار أنه كان أول من اتصل مباشرة مع الدوائر البيزنطية سنة 1168م، ومرة أخرى في سنة 1179-1180م، وأقام في القسطنطينية مدة من الوقت قاد فيها المفاوضات مع البيزنطيين، وكانت آراؤه تمثل بوضوح حزب البارونات الوطنيين(43).

وعلى الجانب الآخر كان حزب القادمين الجدد، والذي يضم رينو دي شاتيون، وجي لوزيان، وأخوه أمليك وأجنيس كورتيناى أم الملك، وأخوها جوسلين الثالث. وكان هذا الحزب، ولأسباب غير واضحة يعارض الاتصال مع بيزنطة. بالنسبة لرينو دي شاتيون فكان قد غزا قبرص التابعة لبيزنطة، وقد أذل من قبل الإمبراطور مانويل سنة 1159م. أما بالنسبة لموقف الكونتيسة آجنيس المعادي لبيزنطة، فرمما يفسره ماضيها، حيث تم تطلقها من عموري، وتزوج عموري بعدها من الأميرة البيزنطية ماريه كومنين، وبذلك ثارت عداوة بين الزوجتين. أما بالنسبة لموقف أمليك وجي لوزيان، وجوسلين الثالث، فليس هناك دوافع معلنة لعداوتهم لبيزنطة(44).

هذا بالنسبة لأحوال مملكة بيت المقدس، أما بالنسبة لبيزنطة، فإن حكومتها كانت مهياة لإقامة علاقة تحالفه مع الصليبيين وذلك لوجود مانويل الأول على العرش والذي وُصف بأنه "لاتيني الطابع محباً للصليبيين"(45).

على أية حال، فقد بدأت علاقة بلدوين الرابع بمانويل كومنين عندما أرسل الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول يطلب مساعدة قوات مملكة بيت المقدس في حروبه ضد السلاجقة، وذلك سنة 1175م، غير أن الملك بلدوين الرابع لم يحرك قواته لمساعدة بيزنطة، وقيل أن ذلك تم بإيعاز من ريموند الثالث الذي كان وصياً على بلدوين الرابع آنذاك(46)، أما سنة الوصاية الثانية لريموند الثالث (1176م) فقد خلعت من الأحداث الهامة بالنسبة للعلاقة الخارجية مع بيزنطة على أن أهم ما جرى في المملكة أنه في نهاية تلك السنة اضطر الوصي ريموند الثالث إلى التقاعد، وانفرد بلدوين الرابع بالحكم بعد أن وصل عمره إلى السن

القانوني للحكم(47).

على الجانب الآخر,, كانت بيزنطة مشغولة بالنزاع مع ألمانيا, والمملكة النورمانية, والبندقية(48). ثم تلقت الهزيمة الفادحة على يد السلاجقة في معركة ميريوكيفالون Myriokephalun في سبتمبر عام 1176م(49).

والواقع أن كارثة ميريوكيفالون بلغت فاجعتها عند الصليبيين ما بلغته عند بيزنطة (50). فعلى الرغم من افتقاد الثقة المتبادلة بين الصليبيين والبيزنطيين، فإن الصليبيين كانوا يعلمون أن بقاء الإمبراطورية البيزنطية يعتبر حائط صد أمام انتصارات المسلمين بقيادة صلاح الدين(51). وعلى الرغم من أن جيش مانويل كومنين تعرض للدمار، فإن أسطوله كان لا يزال قوياً، وبوسع بيزنطة أن تستخدمه لمساعدة الصليبيين، ولذلك في صيف عام 1177م وعد مانويل كومنين بإرسال أسطوله ليساند الملك بلدوين الرابع في هجومه على مصر(52).

والواقع أن سياسة مانويل آنذاك كانت تقوم على تحقيق شقين: الأول وهو التحكم في طريق الحملات الصليبية عبر آسيا الصغرى، والثاني وهو إرسال حملة بيزنطية صليبية مشتركة للاستيلاء على مصر. لكن مانويل فشل في تحقيق الشق الأول من سياسته بعد الهزيمة التي تلقاها جيشه على يد السلاجقة سنة 1176م، ولذلك وجد مانويل أنه من الأسلم أن يعوض ذلك الفشل بالإسراع بالبدا في تنفيذ الشق الثاني من سياسته وهو إرسال حملة صليبية بيزنطية على مصر، وقد كان من الممكن لهذه الحملة أن تحقق أمل الطرفين، بتعويض خسائر البيزنطيين في آسيا الصغرى من ناحية، وكذلك تعويض خسائر الصليبيين على يد صلاح الدين في مصر وسوريا من ناحية أخرى(53). كذلك فإن بيزنطة كانت تتخوف من أن تسقط مصر في يد نورمان صقلية. فلو أن النورماندين سيطروا على الموانئ المصرية، لأدى ذلك إلى زيادة قوتهم، وصاروا أيضاً في موضع يؤدي التجارة البيزنطية، وحرمان القوات البيزنطية في الوقت نفسه من مساعدات الأسطول الغربي. كما كان واضحاً أن فردريك ملك ألمانيا معني بعقد سلام مع النورمانيين، الأمر الذي يجعل نورمان صقلية أحرار

في استئناف عدائهم التقليدي لبيزنطة(54).

لهذا يمكن القول إن غزو مصر كان يصب في المصلحة السياسية لبيزنطة، ولعل ما يدل على صحة ذلك ما ذكره وليم الصوري من أن القادة البيزنطيين صرحوا أنه من بين الأسباب التي دفعتهم للمشاركة في الحملة الصليبية على مصر هو العمل على زيادة مجد الإمبراطور البيزنطي(55). وبخاصة بعد النكبة التي تعرض لها الجيش الإمبراطوري في ميروكيفالون سنة 1176م .

ويؤكد ذلك أيضا مجريات الأحداث التي سبقت إعداد هذه الحملة. حيث سعى الإمبراطور مانويل إلى التماس مساعدة البابوية في حروبه ضد السلاجقة , ففي خطاب مؤرخ بالتاسع والعشرين من يناير 1176م بعث به مانويل إلى البابا اسكندر الثالث يطلب فيه من البابوية إرسال مساعدات عاجلة له تعيينه على الحرب ضد المسلمين (56). ودون تأخير, أجاب البابا طلبه. إذ كان يهمة الإبقاء على صداقة مانويل, واستخدامه في مواجهة عدوه فردريك الأول Frederick I إمبراطور ألمانيا (1125-1190م) لكن الأمور

تبدلت بعدما تم تشكيل العصبة اللومباردية(57) Lombard League

إذ أصبح البابا اسكندر الثالث أقل اعتمادا على مانويل, وبعد عقد صلح البندقية عام 1177م وهزيمة مانويل في ميروكيفالون, تلاشى أي أمل حقيقي في وجود تفاهم بيزنطي بابوي(58). وبدأ مانويل يخشى أن تعطيه البابوية ظهرها, ومن أجل تفادي حدوث ذلك, رأى أن مساعده لمملكة بيت المقدس في هذا التوقيت ربما يكون المنفذ الوحيد الذي يقربه مرة أخرى من البابوية, ويثبت للغرب الأوربي أن بيزنطة لا تزال قوية ولم تؤثر فيها هزيمة ميروكيفالون .

لهذا أرسل الإمبراطور مانويل سفارة بيزنطية لمقابلة الملك بلدوين الرابع, على رأسها وفد دبلوماسي رفيع المستوى, برئاسة أندرونيكوس أنجيلوس Andronicus Anjelus ابن أخت الإمبراطور مانويل كومنين, وكانت مهمة السفارة إبلاغ الملك بلدوين الرابع أن الوقت أصبح مناسباً لتنفيذ المعاهدة التي عقدها الإمبراطور مانويل مع الملك عموري الأول

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

في عام 1171م (59) والتي حددها الملك بلدوين الرابع بالشروط نفسها بهدف غزو مصر (60)، كما أبلغت السفارة الملك بلدوين الرابع أن الإمبراطور مانويل أرسل سبعين سفينة من نوع الشواني وبعض السفن الأخرى وهي راسية في ميناء عكا على أهبة الاستعداد لغزو مصر (61).

في هذا التوقيت نفسه كانت قد وصلت إلى المملكة الصليبية حملة بقيادة فيليب كونت فلاندرز، ونظراً للحالة الصحية السيئة التي كان يمر بها بلدوين آنذاك فقد عرض على فيليب كونت فلاندرز قيادة الحملة لغزو مصر، لكن الكونت فيليب رفض الأمر رفضاً قاطعاً متعللاً بأنه لم يأتي للقيام بحرب ولكنه جاء لتزويج ابنتي عمه الأميرتين سييلا، وايزابيلا (62).

لم يكن فيليب كونت فلاندرز الأمير الوحيد الذي كان يعارض مشروع الحملة (63). فقد كان هناك العديد من النبلاء داخل المملكة غير ميالين لمشاركة بيزنطة في حملتهم على مصر، فرينو دي شاتيون زعيم الحزب المعارض لبيزنطة والذي تم تعيينه مؤخراً وصياً تنفيذياً للمملكة ربما لم يكن يرغب في مشاركة البيزنطيين. بل أن ريموند الثالث الذي يفترض أن يكون ضمن الحزب الموالي لبيزنطة كان هو الآخر غير راغب في غزو مصر وأظهر ذلك بصورة علنية (64).

على الرغم من رفض كونت فلاندرز، إلا أن سفراء بيزنطة كانوا مُصرين على تنفيذ الاتفاقية، وقالوا: " إنه من المحتمل أن يؤدي التراخي في تنفيذ الاتفاقية إلى طريق محفوف بالخطر وأن قومهم الإغريق لا يرون من ناحيتهم أي سبب لعدم المضي قدماً في تنفيذ الاتفاقية (65) .

لذلك جرى عرض الأمر مرة أخرى على الكونت فيليب للقيام بقيادة القوات الصليبية ومشاركة الأسطول البيزنطي غزوه للأراضي المصرية لكن الكونت رفض هذا الأمر أيضاً (66)، وبدا واضحاً أن مشروع الحملة الصليبية البيزنطية مهدد بالفشل. لهذا صب وليم الصوري غضبه على المعارضين للحملة، وألقى بكامل اللوم على الكونت فيليب، وحمله

فشل الخطة لغزو مصر، كما اتهم كلا من الكونت ريموند والأمير بوهيموند الثالث أمير أنطاكية بأنهما حرضا الكونت فيليب على عدم قبول المشاركة في غزو مصر، رغبة منهما في الإفادة من جهود كونت فلاندرز في تحقيق مصالح شخصية لهما(67) .

هذا ويرى المؤرخ **Lilie** أن قسماً من نبلاء المملكة لم يرغبوا في غزو صليبي بيزنطي مشترك لمصر، لأنهم اعتقدوا بأنه يمكن تحقيق ذلك بدون بيزنطة، وأنه لأجل ذلك لم يرغبوا في تقسيم الغنائم المتوقعة، أو بسبب أنهم كانوا يشككون في نجاح الحملة، أما الكونت فيليب فقد بدا واضحاً أنه يرفض التعاون مع البيزنطيين، وإن كانت دوافعه لذلك غامضة، ربما كانت لديه خطأً أخري في مصر رأى أنه يمكنه تحقيقها بدون بيزنطة (68)، حتى أن المؤرخ جان ريتشارد (**Richard (J.)**) تساءل عما إذا كان فيليب يشتهي مصر لنفسه؟(69). وفي ضوء ذلك لم تستطع مملكة بيت المقدس أن تغامر بالمشروع بدون فيليب كونت فلاندرز(70) .

أياً كان المسئول عن فشل الحملة فمما لا شك فيه أن مشروع الحملة ضد مصر عام 1177م كان غير مضمون النتائج، بل ومحكوم عليه بالفشل لعدة أسباب: أولها، أن الأسطول البيزنطي الذي هاجم دمياط عام 1169م كان يعادل ثلاثة أمثال السفن التي أعدت لمشروع هذه الحملة، ورغم ذلك باء بالفشل. ثانيها: أن أي قيادة صليبية تتولي أمر هذه الحملة لم تكن مثل قيادة عموري الذي كان شديد التحمس لغزو مصر. وثالثها: أن الأوضاع السياسية والعسكرية داخل المملكة صارت أمراً مقلقاً بسبب تفتت وحدة الصليبيين، في الوقت الذي كانت الأوضاع قد تغيرت للأفضل بالنسبة لصالح الدين، بعد أن امتدت سيطرته على مصر ودمشق ومعظم بلاد الشام حتى هدد حلب (71). وفي رسالة لصالح الدين رداً على أنباء قدوم كونت فلاندرز أورد يقول إن جنودنا أخذوا قسطاً من الراحة وزُودوا بالمال تزويداً حسناً، والموانئ محصنة تحصيناً قوياً، وحالة الأسطول المالية مريحة. كما صرح أن الصليبيون لم يختاروا الوقت المناسب للهجوم - من وجهة نظره - لأن جيوشه كانت قوية ومجهزة تجهيزاً جيداً، وأن أخيه تورانشاه يعد العدة لحشد الجيوش السورية بحيث

يكونوا على أتم استعداد لصد أي عدوان صليبي على مصر (72).
وبذلك يتضح أن صلاح الدين كان يعلم بأمر هذه الحملة واستعد لملاقاتها (73)
على العكس من حملة عام 1169م التي فاجأت مدينة دمياط. وفي مثل هذه الأوضاع لم
يكن من الحكمة البدء بهجوم على مصر، لربما يدفع ذلك إلى اتحاد صلاح الدين مع حلب،
وأخيراً تطويق الدويلات الصليبية؛ في الوقت الذي كانت فيه الإستراتيجية الصليبية تعمل
على منع صلاح الدين من دمج حلب (74).

ولعل في هذه الأسباب ما يكفي للرد على الذين بالغوا في أمر هذا المشروع ورأوا
أنه أضعاف على الصليبيين فرصة فصل مصر عن بلاد الشام (75).
ولكن وليم الصوري كان يرى أنه من العار أن يفقد الصليبيون هذه الحملة: "إنه ليس من
الأسلم ولا الأشراف لنا أن ننسلخ من هذه الاتفاقية". وكان ما يُقلق وليم هو أن هذا
الموقف السلبي لبني جلدته سيقابل بغضب وبرد فعل خطير من جهة الإمبراطور: "لقد كان
عدم وفائنا بالاتفاق الذي ربطنا أنفسنا به يبدو أخط ما يزرى بالشرف.. ومن الخسارة أن
نفقد مساعدة الإمبراطور الذي استعد لمعاونتنا، زيادة على ذلك فقد خشنا غضبته التي قد
تسفر عن عواقب وخيمة تحيق بالمملكة" (76).

والواقع أن المؤرخ وليم الصوري بالغ كثيراً في روايته، ولا مراء في أن هذه المبالغة ترجع
إلى كونه الطرف الأساسي في عقد هذه الاتفاقية، حيث كان قد سافر من قبل للإعداد لعقد
هذا التحالف، لذلك كان غاضباً من المملكة لعدم تنفيذ بنود هذا الاتفاق.

ولكن بعيداً عن مبالغات وليم الصوري فإن المملكة الصليبية بدأت تدرك خلال
ذلك الوقت أهمية التحالف مع بيزنطة لذلك عقد صليبيو المملكة اجتماعاً مع المبعوثين
البيزنطيين، وفي هذا الاجتماع أكد الصليبيون أنهم لا زالوا حريصين على تنفيذ الاتفاق بغزو
مصر، وأنهم بحاجة إلى معرفة رأي البيزنطيين في ذلك، وكان رد بيزنطة أنها لا زالت تأمل في
تنفيذ الاتفاق، على الرغم من أن الوقت قصير ولا يسمح بالقيام بالتجهيزات اللازمة
لجيوشهم، إلا أنهم على الاستعداد للمشاركة إذا ما أقسم كونت فلاندرز على نفسه بالتعهد

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

بالعمل على تنفيذ الاتفاق، ودون الإخلال بأي شرط منه، ولما طال موضوع النقاش دون الوصول إلى هدف، تم فض الاجتماع وتأجيله إلى شهر أبريل من العام التالي 1178م، عند ذلك استأذن مندوبو الإمبراطور في السفر فعادوا بصحبة الأسطول البيزنطي إلى وطنهم (77) بعد أن أمضوا شهراً في محاولة لدفع الصليبيين لتنفيذ الاتفاق بغزو مصر (78). وبذلك انتهى التحالف الصليبي البيزنطي لغزو مصر ولم يجدد بعد ذلك قط. إذ كانت هذه آخر فرصة قدمتها الإمبراطورية لمملكة بيت المقدس (79).

على الرغم من فشل مشروع الحملة الصليبية البيزنطية، فإن ذلك لم يمنع وجود علاقات ودية بين مملكة بيت المقدس وبيزنطة، ويبدو أن الاتصالات بينهما لم تتوقف، وخاصة بين مانويل كومنين وبين الحزب الموالي لبيزنطة في المملكة، ففي أواخر سنوات حكم مانويل، توجه بلدوين من ايلين إلى القسطنطينية (80) يلتمس من الإمبراطور مانويل الأول دفع فديته، ليسترد حريته، والتي كانت شرطاً من شروط الأميرة سيبيللا للزواج منه (81). وطبقاً لرواية إرنول، فإن بلدوين ايلين أستقبل بترحاب في البلاط البيزنطي، وأعطاه مانويل من المال ما يكفي لدفع فديته وأكثر (82) ومن المرجح أن الإمبراطور مانويل كان يهيمه أن يتزوج بلدوين ايلين من الأميرة سيبيللا، كخطوة لعودة سياسة المملكة إلى يد الحزب الموالي لبيزنطة، ممثلاً في بلدوين ايلين (83).

في هذا الوقت أيضاً، توجه وليم الصوري إلى القسطنطينية، وفيها قضى سبعة أشهر في إجراء بعض المفاوضات مع البيزنطيين، وذكر وليم الصوري أنها كانت "مفاوضات جدية وشاقة.. عادت بالنفع علينا وعلى الكنيسة". غير أنه لم يذكر تفاصيل هذه المفاوضات أو عن أي شيء تمت. كذلك أشار وليم أنه أثناء رحلة عودته لبيت المقدس مر بأنطاكية، حيث نقل إلى بطريكها أوامر الإمبراطور مانويل، وطبقاً لرواية وليم فقد كان برفقته بعض المبعوثين البيزنطيين من أشرف القوم، ولكن ليست لدينا معلومات عن مهمة هذه البعثة (84).

كما توجهت أيضاً سفارة صليبية بقيادة كل من بلدوين ايلين وجوسلين الثالث

كورتيناى سنكال المملكة إلى القسطنطينية فى مهمة رسمية للبلاد الإمبراطوري، ولكن لا يُعرف أية تفاصيل عنها، إذ إن كافة المصادر الصليبية والبيزنطية لاذت بالصمت حول هذه السفارة. ويحتمل كما افترض أحد المؤرخين أنها كانت مهمة رسمية لمحاولة تنسيق سياسات الدولتين (مملكة بيت المقدس وبيزنطة) ضد صلاح الدين والسلاجقة (85) على أية حال، ففي الرابع والعشرين من سبتمبر سنة 1180م مات مانويل الأول، فى الوقت الذى كانت سفارة بيت المقدس لا تزال فى القسطنطينية، وبوفاته فقد الصليبيون أقوى حليف لهم إذ كان مانويل الأول على حد قول روبرت كلاري: "لاتيني الطابع والنزعة، ولعاً بكل ما هو غربي، صادقاً فى ميله للصليبيين، ولو امتد به الأجل لأضحى أسطوله وأمواله بالغة الأهمية للصليبيين(86) .

وقد خلف مانويل على العرش ابنه ألكسيوس الثانى كومنين *Alxius II Comnenus* (1180-1183م) الذى كان فى الحادية عشرة من عمره، تحت وصاية أمه ماريا الأنطاكية، أرملة مانويل الأول، وأخت بوهموند الثالث أمير أنطاكية. ونظراً لأنها أميرة صليبية فقد سعت للتقارب مع صليبي المملكة، لذلك فى شتاء عام 1180م استكمل جوسلين الثالث باسم الملك بلدوين الرابع المفاوضات مع حكومة بيزنطة الجديدة ثم عاد جوسلين الثالث فى صيف عام 1181م إلى مملكة بيت المقدس، والراجح أنه عاد بمفاوضات ناجحة مع البيزنطيين(87).

فى صيف العام نفسه، أرسلت ماريا الأنطاكية بسفارة إلى القاهرة لتفاوض صلاح الدين فى عقد هدنة معه، وربما كانت تأمل فى استخدام صلاح الدين كحليف لها ضد سلاجقة الروم، وقد رحب صلاح الدين بعقد تلك الهدنة التى تمت فى يوليو سنة 1181م، والواقع أن هذه الهدنة لم تسبب أية مشاكل لمملكة بيت المقدس، التى كانت هى نفسها فى صلح وهدنة مع صلاح الدين فى ذلك الوقت أيضاً(88) .

لم تلبث هدنة الصليبيين مع صلاح الدين أن انتهت فى ربيع 1182م فى الوقت الذى كانت الحكومة البيزنطية قد تغيرت، فقد تعرضت الوصية ماريا الأنطاكية ذات

الميلول الصليبية لكراهية البيزنطيين، الذين ثاروا عليها وعلى ابنها، وكان زعيم الثورة رجلاً بيزنطياً طاعناً في السن هو أندرونيكوس كومنين **Andronicus Comnenus** (1183-1185 م) - ابن عم الإمبراطور مانويل - واستطاع هذا الثائر أن يقصي كلاً من ماريا وابنها عن العرش، بدعوى أنه جاء يخلص البيزنطيين من نير اللاتين، الأمر الذي أعطى الفرصة للبيزنطيين في الانقضاض على اللاتين الموجودين في القسطنطينية، فجرت ضدهم مذبحه مروعة، ولم يبق منهم على قيد الحياة إلا قلة ضئيلة فرت إلى الغرب الأوربي (89).

والواقع أن الحماية البيزنطية لمملكة بيت المقدس زالت بسقوط حكومة ماريه الأنطاكية سنة 1183م (90)، إذ اتخذ أندرونيكوس سياسة مخالفة تماماً لسياسة مانويل كومنين وابنه ألكسيوس، فقد كان أندرونيكوس كارهاً لكل ما هو لاتيني لذلك عقد معاهدة مع صلاح الدين، وكانت هذه المعاهدة موجهة ضد مملكة بيت المقدس وضد السلاجقة، والأخطر من ذلك أنه أطلق بمقتضاها لصلاح الدين الحرية التامة في مهاجمة الصليبيين (91). حينئذ أدرك الملك بلدوين الرابع أنه لا يمكن توقع مجيء مساعدة من بيزنطة (92).

لم تلبث أن ثارت ضد أندرونيكوس ثورة أطاحت به في سنة 1185م، وقد مزق الثوار جسده شر ممزق، وكانت الثورة برئاسة إسحاق أنجيلوس - **Isaac Angelus** (1185-1185 م) ابن عم الإمبراطور - والذي تم رفعه على عرش بيزنطة (93). وفي عهده أهملت بيزنطة علاقاتها بمملكة بيت المقدس، حيث أجرى أنجيلوس مفاوضات بينه وبين صلاح الدين، والتي كانت تعني انقطاع التعاون البيزنطي الصليبي، وابتعاد بيزنطة عن مد يد العون للمملكة الصليبية (94)، وحتى إذا سلمنا جديلاً بأن سياسة بيزنطة وتحالفها مع صلاح الدين لا تعني العداء التام للمملكة وللصليبيين، فإن الإمبراطورية البيزنطية لم تكن قوية بما يكفي للتدخل لصالح الصليبيين في الشرق (95).

هذه الأحداث التي وقعت لبيزنطة كانت بالغة الضرر بالنسبة للمملكة الصليبية، وبالغة النفع بالنسبة لصلاح الدين، إذ لم يعد بوسع الصليبيين وحدهم أن يعترضوا تقدم

صلاح الدين, كذلك لم يعد بوسع بيزنطة أن تبذل المساعدة لمملكة بيت المقدس, ومن ثم كان لزاماً على الملك بلدوين الرابع أن يبحث عن حليف آخر, يحل محل الدور الذي كانت تقوم به بيزنطة خلال حكم الإمبراطور مانويل ولم يكن هذا الحليف سوى الغرب الأوربي. لذلك بدأت المملكة الصليبية ترسل دعوتها لأمرء وملوك الغرب الأوربي للمبادرة بالقيام بحملات صليبية لإنقاذها ,

كانت إنجلترا من أولى الدول التي اتجهت إليها أنظار مملكة بيت المقدس, فعقب تولية بلدوين الرابع ملكاً لبيت المقدس في يوليو 1174م جرى توجيه دعوة إلى الملك الإنجليزي هنري الثاني بلانتجنوت (1154-1189م) لتولي الوصاية على المملكة باعتباره من أقرب الذكور صلة بالملك بلدوين الرابع (96). ولكن لأسباب غير معروفة رفض الملك هنري القدوم لتولي الوصاية, ربما بسبب مشاغله الكثيرة في الغرب. حيث دخل هنري الثاني في ثورة على عرش إنجلترا استغرقت الفترة من عام 1173 وحتى عام 1174م, لهذا لم يستطع تقديم المساعدة للمملكة الصليبية في بداية حكم بلدوين الرابع (97).

ومع ذلك ليس هناك خلاف حول التزام هنري الثاني بمساعدة الأرض المقدسة من الناحية المالية فخلال السنوات التي عاصرت حكم الملك بلدوين الرابع جرى فرض مراسيم من قبل الملك هنري الثاني لجمع ضرائب لمساعدة الأرض المقدسة (98), ففي عام 1177م أعطى هنري الثاني لفيليب كونت فلاندرز مبلغ خمسمائة مارك لتمويل حملته الصليبية المتجهة إلى القدس. بالإضافة إلى ألف مارك للدفاع عن الأرض المقدسة. وفي عام 1182م أودع هنري مبلغاً كبيراً من المال لدى الداوية الإيستارية, للدفاع عن مدينة صور, ويقدر هذا المبلغ بحوالي ثلاثين ألف مارك (99). وبدا ذلك وكأنه المنفذ الوحيد المتاح أمام الملك الإنجليزي في ضوء الظروف السياسية السائدة في إنجلترا في هذه الآونة. (100).

على أية حال, فإن التماسات الملك بلدوين الرابع وحكومته إلى الغرب الأوربي بدأت تحدث بعض التأثير على الرأي العام الغربي ابتداء من أواخر عام 1177م, وكانت أولى الدول التي استجابت لهذه النداءات هي فرنسا وإنجلترا, فهما المملكتان اللتان استأثرا

بنصيب الأسد في القيام بالحملة الصليبية التي وجهت إلى الشرق حتى الفترة قيد البحث (101).

وفي ذلك الوقت ترددت الأقاويل عن الاستعدادات لتوجيه حملة صليبية جديدة من الغرب, وجرى الحديث عن أن لويس السابع ملك فرنسا, وهنري الثاني ملك إنجلترا, قررا الاشتراك في حملة صليبية جديدة لمساعدة مملكة بيت المقدس (102). ففي عام 1177م, عقد الملكان هنري الثاني ولويس السابع معاهدة إيفري, Ivry (103) وفيها تعهد الملكان بالإبحار إلى الشرق على رأس حملة صليبية (104)

ولكن رغم هذا التعهد رفض كل من الملكين القيام بحملة صليبية لمساعدة الملك بلدوين الرابع في حروبه في تلك السنة. ويمكن تفسير هذا التراخي, بالارتياح المتبادل الذي كان بين ملكي فرنسا وإنجلترا, حيث كان هنري الثاني وأبنائه باعترابهم من الناحية الرسمية أفصلاً للملك الفرنسي كانوا يحكمون جزءاً كبيراً من الأراضي الفرنسية أكثر من ملك فرنسا ذاته (105). لذا فإن كلاً من لويس وهنري كان ينظر للآخر بارتياح عميق. ومن ثم فإن أياً منهما لم يكن يستطيع الذهاب بمفرده إلى الشرق وعلى رأس حملة صليبية, وهو مدرك تماماً أن الآخر في انتظار اقتناص هذه الفرصة لغزو أراضيه. حيث تكون النتيجة فقدان هيئته, وازدياد نفوذ سلطة منافسه. ولهذا لم يكن هناك مخرج لهذا الموقف. ولكن المساعدة المالية فقط هي التي كان يمكن إرسالها للملك بلدوين الرابع (106).

عقب ذلك عُقدت معاهدة نوناكورت Nonancourt بين الملك الفرنسي لويس السابع ونظيره هنري الثاني عام 1177م. وفي هذه المعاهدة وضع الملكان الإنجليزي والفرنسي الشروط التي تحدد سيرهما إلى القدس على رأس حملة صليبية مشتركة, وكان من بين ما جاء في نص المعاهدة مايلي: "وليعلم كل الناس أنني لويس ملك فرنسا, وهنري ملك إنجلترا, أننا تعاهدنا على حمل الصليب والذهاب إلى مملكة بيت المقدس لمساعدة الصليبيين هناك, كما تعاهدنا أن نكون أصدقاء أوفياء بيننا (107) .

ولكن حتى ذلك الوقت بقيت فكرة الحملة الصليبية مجرد اقتراح. كما أزاح هذا

الاتفاق النقيب عن انعدام الثقة بين الملكين, حتى ولو كان هذا المشروع من أجل تحقيق مصلحة دينية عليا(108) .

لم تفقد حكومة الملك الصليبي بلدوين الرابع الأمل في إنقاذ الغرب الأوربي لها، رغم خيبة الأمل التي اصطدموا بها جراء خلافات العاهلين الفرنسي والانجليزي. ومن ثم أوفد الملك بلدوين الرابع سفارة برئاسة البطيريك هرقل في شتاء 1184م إلى الغرب الأوربي, وكانت السفارة تضم أيضاً عدداً كبيراً من الداوية والإسبتارية, مثل أرنولد من تورج **Arnold of Torroge** سيد الداوية, وروجر مولينه سيد الإسبتارية, وكان هدف السفارة الدعوة لحملة صليبية جديدة(109). وفي فيرونا **Verona** تقابلت هذه السفارة مع كل من البابا لوسيوس الثالث, ثم الإمبراطور الألماني فردريك الأول برباروسا, ثم وصلت السفارة إلى إنجلترا في نهاية يناير 1185م والتقت بهنري الثاني في ريدنج **Reading** حيث وصف البطيريك المتاعب التي تعانيها المملكة خاصة ومع اشتداد مرض الجذام على الملك بلدوين الرابع(110) .

جاء رد فعل هنري الثاني على سفارة بيت المقدس انعكاساً للفتور الغربي بصفة عامة تجاه السفارات الصليبية القادمة من الشرق. حيث رفض المشاركة في أية حملة تتجه إلى الشرق في ذلك الوقت. ويعلل أحد المؤرخين رد فعل هنري الثاني تجاه هذه السفارة بأن الملك لم يكن يستطيع أن يأمن بترك السلطة في يد أحد من أبنائه في حالة ذهابه إلى الشرق, مما ينذر بحرب أهلية وخيمة العواقب في إنجلترا من خلال تمرد أبنائه ضده(111). لكن ذلك لم يمنع هنري الثاني من فرض ضريبة استثنائية في إنجلترا كان غرضها الأساسي مساعدة مملكة بيت المقدس من الناحية المالية(112). وكانت هذه الضريبة آخر ما وصلت إليه العلاقات بين مملكة بيت المقدس وإنجلترا خلال عهد الملك بلدوين الرابع .

وهكذا يتضح أنه بالرغم من الالتماسات المتكررة والعاجلة من قبل الملك بلدوين الرابع إلى إنجلترا وفرنسا لإرسال حملة عسكرية جديدة, إلا أن هاتين الدولتين لم تخرج منهما مساندة عسكرية على نطاق واسع إلى الشرق (113) شأنهما في ذلك شأن بقية

أوريا (114).

أما بالنسبة لنورمان صقلية فقد كانوا قد ظهروا آنذاك كقوة أوروبية خاصة بعد ما ساندوا البابا اسكندر الثالث والعصبة اللمباردية ضد فريدريك الأول Frederick I إمبراطور ألمانيا (1152-1190م) (115). لهذا كانت الفرص المؤكدة للمساعدات الغربية لمملكة بيت المقدس موجودة لدى الملك الشاب وليم الثاني William II (1166-1184م) ملك صقلية والذي كان قلقاً بشأن نمو قوة صلاح الدين، وخصوصاً حول توسعه الغربي خارج حدود مصر، لهذا جمعته بمملكة بيت المقدس علاقات ذات مصالح مشتركة (116).

بدأت العلاقات بين صقلية ومملكة بيت المقدس عندما عقد الملك وليم الثاني معاهدة مع عموري الأول سنة 1174م اتفقوا فيها على غزو مصر، ولكن لم يلبث أن مات عموري الأول في تلك السنة، تاركاً الأسطول النورماني يمضي في حملته بمفرده (117)، لكن ما يهمنا في هذا الموضوع هو أن الملك بلدوين الرابع لم يجدد المعاهدة التي عقدها والده مع النورمانيين، ومن المرجح أن السبب في ذلك يرجع إلى تخوفه من نورمان صقلية الذين كانوا يعملون على غزو مصر ليفوزوا بها بمفردهم (118).

أياً كان الأمر فبعد ثلاثة عشر يوماً فقط من تتويج بلدوين الرابع ملكاً لبيت المقدس، وبالتحديد في الثامن والعشرين من يوليو 1174م وصل الأسطول النورماني إلى الإسكندرية وأغار عليها (119). وكان أسطولاً كبيراً قدرته المصادر الإسلامية بمائتي واثنين وثمانين سفينة حربية تحمل المقاتلين النورمانيين بعدتهم وعتادهم، وبلغ عدد هؤلاء المقاتلين ثلاثين ألف مقاتل، وفي رواية، خمسين ألف مقاتل (120). ولا شك أن هذه الأرقام مبالغ فيها من جانب المؤرخين المسلمين، وإن كانت لها دلالتها أيضاً. أما المصادر الصليبية فقد قدرت هذا الأسطول بمائتي سفينة (121). وكان الأسطول بقيادة تانكريد Tancred، كونت ليتشي (122).

وقد ذكر ابن الأثير أن مجموعة من الثوار المصريين أرسلوا إلى ملك بيت المقدس،

وإلى ملك صقلية النورماني يستنجدون بهما ضد أقوى أمراء نور الدين وهو صلاح الدين، وكانت خططهم تقضى بأن يهاجم الأسطول النورماني وجيش المملكة حدود مصر الشمالية، وذلك لجذب صلاح الدين إلى خارج القاهرة، في الوقت الذي تنشب الثورات الداخلية، ويهاجموا مؤخرة جيش صلاح الدين، وبذلك يقع صلاح الدين بين نارين: هجوم الصليبيين من الخارج، واندلاع الثورات في الداخل (123).

وهكذا قدمت الظروف الخارجية آنذاك للصليبيين فرصة ثمينة للهجوم على صلاح الدين في عقر داره، والحد من قوته. لكن ذلك لم يحدث، حيث لم تتحرك القوات الصليبية لمساعدة النورمانيين (124).

هذا الموقف السليبي الذي وقفته المملكة تجاه الأسطول النورماني يثير العديد من التساؤلات حول الأسباب التي جعلت مملكة القدس تحجم عن غزو مصر، خاصة وأن صلاح الدين كان مشغولاً آنذاك بمشاكله الداخلية مع قواد نور الدين، فضلاً عن الثورات التي كانت تقوم ضده في مصر (125).

الواقع أن المصادر المعاصرة وخاصة اللاتينية منها لم تذكر أدنى إشارة عن أسباب إحجام المملكة في مشاركة النورمانيين حملتهم، فوليم الصوري المعاصر لتلك الحملة، حمل القيادة النورمان مسئولية هذا الفشل بسبب إهمالهم (126). وبذلك ألقى هذا المؤرخ باللائمة على عاتق النورمان. لكن يبدو أن هذا مبرراً ليس كافياً، إذ يُذكر أن ثمة نزاع نشب بين الصليبيين في مملكة بيت المقدس حول الوصاية على العرش، عطل تقديم المساعدة إلى الحملة النورمانية، الأمر الذي مكن صلاح الدين من إرسال الإمدادات الضرورية إلى حامية الإسكندرية، فتمكنت الحامية في اليوم الثالث من مباغته الأسطول وأحرقت بعض السفن وأغرقت البعض الآخر وألحقت بالأسطول خسائر كبيرة، مما أدى إلى فشل الحملة وانسحاب الأسطول النورماني إلى صقلية خائباً في الثاني من أغسطس عام 1174م (127).

علي الرغم من ذلك أرسل نورمان صقلية حملتين بحريتين سنتي 1175م، 1176م وكان السبب الظاهري مساعدة مملكة بيت المقدس، ففي خطاب أرسله صلاح

الدين إلى الخليفة العباسي أطلعته أن ملك صقلية يستعد للهجوم على مصر بمساعدة الصليبيين(128). وقد صدق ظن صلاح الدين, حيث قدمت حملتان من حملات صقلية على مصر, وبخاصة على مدينة تنيس(129). لكن الحملتين فشلتا أيضاً (130). وربما بسبب عدم مساعدة مملكة بيت المقدس لهما. وبخاصة بعد أن تبين للملك بلدوين الرابع وحكومته أن الحملتين كان غرضهما النهب والسلب وليس مساعدة المملكة(131). ومها يكن من أمر فقد كانت هذه آخر المشروعات التي حاولت صقلية القيام بها خلال عهد الملك بلدوين الرابع, فبعدها عقد الملك وليم الثاني مع صلاح الدين تعهد فيها بعدم مهاجمة الأراضي الإسلامية, كما تعهد بعدم تقديم المساعدات لمملكة بيت المقدس(132).

إذا انتقلنا إلى الحملات التي قدمت المملكة الصليبية خلال عهد الملك بلدوين الرابع, فهناك حملة بقيادة هنري كونت تروي, ابن كونت ثيوبولد الكبير, وقد وصلت هذه الحملة إلى ميناء عكا عام 1179م, وكانت الحملة تضم مجموعة من كبار رجال الغرب الأوربي, من بينهم بطرس دي كورتيناى **peter de Courtenay** شقيق لويس السابع ملك فرنسا, كما جاء فيليب أسقف بوفيه المنتخب بن كونت روبرت **Philip Bishop Pofee** وأخو الملك لويس(133).

جاءت هذه الحملة عقب مجمع اللاتيران الثالث, ويبدو أن الوفد الصليبي الذي حضر مجمع اللاتيران قد طلب المساعدة من كونت ثيوبولد, ولعل ما يرجح هذا القول أن وليم الصوري ذكر أن الوفد الصليبي ترك ابن كونت ثيوبولد خلفه في مدينة برنديزي بأبوليا أثناء رجوعه من مجمع اللاتيران(134).

الواقع أن تفاصيل هذه الحملة قليلة, وكذلك ليس لدينا معلومات عن أعدادها. وكل ما نعرفه أن هذه الحملة قدمت في وقت كانت فيه المملكة تعاني من ضربات صلاح الدين وحصاره لحصن بيت الأحزان, وقد أعاد قدوم هذه الحملة بعض الثقة إلى نفوس صليبي بيت المقدس, وقد أحييت لدى الصليبيين الآمال في أن يتجنبوا ضربات المسلمين

الموجعة, كما علق الملك بلدوين الرابع آمالاً كبيرة على أن يثأر بمساعدتهم من المسلمين (135). ولذلك فقد تحركت هذه الحملة مع الملك بلدوين إلى طبرية, في محاولة للضغط على صلاح الدين لرفع الحصار عن حصن بيت الأحزان, ولكن على حد رواية المصادر الصليبية فإن بلدوين الرابع ومن معه من جنود هذه الحملة أجلوا الاستعدادات ليوم واحد فقط, وخلال هذا اليوم تمكن صلاح الدين من الاستيلاء على الحصن وهدمه (136).

وهكذا فإن الآمال الكبيرة التي علقها المملكة على هذه الحملة قد ذهبت أدراج الرياح, ولم تستطع أن تغير من أمر الصراع الصليبي-الإسلامي شيئاً, ولذلك عادت المفاوضات مرة أخرى مع دوق برجنديا, هيو الثالث Hugh III وقد تجددت هذه المفاوضات مع عمه الكونت هنري, وانعقد الأمل مرة أخرى على قدومه بجملة إلى المملكة, ولكن لأسباب يقول وليم الصوري أنه لا يعرفها لم تأت الحملة إلى الشرق اللاتيني (137). على أن أشهر الحملات التي قدمت زمن بلدوين الرابع هي الحملة الفلمنكية, والواقع أن أحداث هذه الحملة تحتاج إلى إيضاح, لما لها من أهمية في تاريخ تلك المرحلة موضوع الدراسة, ولأهمية نتائجها التي تأثرت بها المملكة الصليبية بصورة تكاد تكون مباشرة والتي وقعت أحداثها خلال سنتي 1177 و1178م.

في أول أغسطس من عام 1177م وصلت إلى ميناء عكا حملة فلمنكية بقيادة فيليب الألزاسي ابن تيري كونت فلاندرز, وقد ذكرت المصادر المعاصرة أن هذه الحملة كانت مكونة من عدد كبير من الفرسان والمقاتلين, وإن لم تحدد هذه المصادر عدتها وعتادها على وجه الدقة (138).

كان الملك بلدوين الرابع يترقب وصول فيليب كونت فلاندرز بجملته منذ وقت بعيد (139). وفي الواقع فإن الكونت كان قد خطط لسفره بالفعل منذ سنة 1176م, لكن الملك الإنجليزي هنري الثاني طلب من الكونت فيليب إرجاء حملته الصليبية لمدة سنة أخرى, ووعدته بالمشاركة في نفقات الحملة الفلمنكية في حالة تأجيل الحملة. وقيل أن السبب وراء محاولة هنري الثاني منع فيليب من الذهاب, هو أنه كان يخشى أن يجعل فيليب من

نفسه ملكاً للقدس (140). وقد امتثل فيليب إلى رغبات الملك هنري الثاني, نظراً لحاجته إلى المال الذي وعده به هنري, واستناداً لرواية "روجر أوف واندوفر" فإن المال الذي عرضه هنري لفيليب كان مرتبطاً بشرط قيامه بحملة للدفاع عن مملكة بيت المقدس الصليبية (141).

والواقع أن فيليب كونت فلاندرز كان مهتماً ببيت المقدس لعدة أسباب أهمها أن والديه ضربا له أروع المثل للحماسة للأرض المقدسة, فوالده تييرى أوف فلاندرز قام بحملة صليبية لمساعدة بيت المقدس أربع مرات (142), بينما أمه انفصلت عن أبيه لكي تبقى في خدمة أحد الأديرة بالقرب من القدس, وظلت هناك حتى وفاتها سنة 1165, فضلا عن أنه كان ابن عم بلدوين الرابع, وبذلك كان ضمن القلائل من الذين كان لهم الحق في الوصاية على بلدوين الرابع أثناء اعتلائه عرش المملكة. (143)

مهما كان الأمر, فقد رحب الملك بلدوين الرابع بقدم فيليب في أغسطس 1177م أبلغ ترحيب, إذ أرسل كبار نبلائه لاستقباله الاستقبال اللائق, وخرج الملك بنفسه رغم شدة مرضه منقولا على محفة لاستقبال هذه الحملة (144), ويبدو أن الملك بلدوين الرابع كان يعول كثيراً على هذه الحملة, وربما رأى فيها طوق النجاة لمملكته, ويبدو أنه كان يأمل في إسناد وصاية عرش المملكة إلى فيليب خلفاً لريموند الثالث من ناحية, والإفادة من الحملة الفلمنكية في إتمام مشروع الغزو لمصر من جهة أخرى (145).

ومن ثم فقد عرض الملك بلدوين الرابع على الكونت فيليب تسليمه الإشراف على المملكة في السلم والحرب, كوصي له, وألح عليه في تولي قيادة الحملة الصليبية لغزو مصر بمشاركة القوات البيزنطية, لكن موقف فيليب جاء مخيباً لآمال الملك بلدوين الرابع (146). فقد رفض فيليب تولي الوصاية على مملكة بيت المقدس, مدعياً سببين هما: أولهما, أنه لم يأت إلى المملكة بقصد امتلاك السلطة "ولكنه جاء ليكرس نفسه لخدمة الرب التي هي هدف زيارته", وأن من خطته ألا يتحمل أية مسؤولية, حتى يكون حراً في العودة إلى بلده إذا تطلبت مصالحه هناك ذلك, كما أضاف أنه سيمثل الطاعة حيال من

يعينه الملك كوسي, شأنه في تلك الطاعة كشأنه تجاه مولاه ملك فرنسا (147). وثانيهما, أنه جاء لتزويج ابنتي عمه الأميرتين سيبيلا وايزابيلا (148).

أما عن أسباب رفضه المشاركة في الحملة على مصر فقد قدم ثلاثة أعذار: أنه يجهل جغرافية المنطقة, ويجهل نواحيها وبخاصة مصر, التي يتزامن فيها فيضان النيل, وأنه سمع أن حشداً من "الترك" المسلمين قد مضوا إلى مصر للدفاع عنها, وأضاف إلى هذين السببين سبباً ثالثاً, وهو أنه يخشى المجاعة التي قد تتفاقم بسبب ندرة التموين أثناء زحفهم على مصر (149).

لقد اعتبر وليم الصوري هذه الأعذار واهية, وأنها مجرد أعذار أراد بها فيليب تبرير إحجامه عن مساعدة الملك المريض في النهوض بأية مشاريع قد تقيل المملكة من عثرتها (150). ولكن إذا نحينا رواية وليم الصوري جانباً لتحاملها على الكونت فيليب. وأمعنا النظر في الأسباب الثلاثة المتعلقة بإشكالية رفض الكونت للمشاركة في الحملة على مصر, يتضح أن السبب الأول فقط هو الذي كانت له قوته, مع الأخذ في الاعتبار أن ادعائه بأن مصر على أبواب الشتاء أمراً يحتاج إلى تفسير, فقد كانت حماة وحارم التي توجه الكونت لغزوها كانت أيضاً تتعرض للظروف المناخية نفسها, فكانت على أبواب الشتاء أيضاً. كذلك فإنه في رسالة من صلاح الدين إلى بغداد من إنشاء القاضي الفاضل, يستفاد منها أن بلاد الشام كانت تتعرض إلى موجة من الجذب العام "... وكان أن خرج الفرنج إلى البلاد الشامية .. غادرين غدراً صريحاً, مقدرين أن يجهزوا على الشام لما كان بالجذب جريحا, ونزلوا على ظاهر حماة ...". أما السبب الثاني فليس لدينا ما يدعم صحته, بخاصة إذا علمنا أن بلاد الشام كانت على أبواب سنوات عجاف, مما يعني أن صلاح الدين لا يمكن أن يأمل مساعدة عاجلة ممن أسماهم كونت فلاندرز "الأتراك" والذي ربما يقصد بهم الحلبيين والمواصلة. أما السبب الثالث فيبدو غير مقنع بعض الشيء. والراجح أن تلك الأمور أخذت بعين الاعتبار من قبل الملك بلدوين الرابع ونبلائه, وفي محاولة من الملك في التغلب على تلك العلة فقد عرض على الكونت ستمائة جمل لنقل المئونة والسلاح وغير ذلك من المتاع عن

طريق البر، كما وعد الملك بإمداد الكونت بما يحتاجه من السفن لحمل الذخائر والآلات الحربية وكل مستلزمات القتال، لكن الكونت رفض كل هذه العروض رفضاً قاطعاً، وزاد على ذلك أنه لن يمضي إلى مصر تحت أي الظروف مخافة من شبح المجاعة التي قد تنزل به هو وعسكره على غير توقع. ثم أضاف الكونت أنه يسعى هو وعسكره إلى نصر سهل بجهود قليلة على بلد غني يحقق طموحات جنوده(151).

الواقع أنه كان هناك سبب يبدو أكثر منطقية وراء رفض كونت فلاندرز مهاجمة مصر لمساعدة مملكة بيت المقدس. وهو محاولة كل من ريموند الثالث كونت طرابلس، وبوهيموند الثالث أمير أنطاكية إبعاد كونت فلاندرز عن تقديم خدمات للمملكة الصليبية، وكان لكل من ريموند الثالث وبوهيموند الثالث أسبابهما في ذلك. بالنسبة لريموند، فإن الوصاية قد ضاعت منه على المملكة في هذه السنة (1177م) وتم تعيين رينو دي شاتيون مكانه، والذي لا حدود لأطماعه، وهو أمر أغضب ريموند. أما بوهيموند الثالث فقد أراد الاستفادة من خدمات فيليب كونت فلاندرز بالتوسع في شمال الشام، واستعادة حماة وحارم من يد المسلمين(152).

والواقع أن اختيار الحملة الفلمنكية لغزو حماة وحارم، على وجه التحديد، يؤكد أن كلاً من بوهيموند الثالث، وريموند الثالث قد قاما بمناورة أدت إلى جذب فيليب إليهما مما أدى إلى فشل الملك بلدوين الرابع في الإفادة من جهود الحملة الفلمنكية في غزو مصر. وقد صرحت المصادر المعاصرة بذلك حيث ذكرت أن الأميرين بوهيموند الثالث وريموند الثالث اجتهدا في شد انتباه كونت فلاندرز إلى أراضيها للقيام بعمل مشترك من شأنه أن يزيد من أملاكهما في شمال الشام ووسطه، وبخاصة وأنهما قد وقفا على الأعداء التي انتحلها فيليب كي لا يشترك في الحملة على مصر، ووجدا أن المشاريع التي يمكن أن يساهم فيها بقواته تنطبق تماماً على ما دبراه لنفسيهما من مشاريع(153).

أما عن أحوال حماة وحارم وجارتيهما حلب فقد كانت مضطربة بعض الشيء وربما مناسبة لخطة غزو الحملة الفلمنكية، فبالنسبة إلى حماة فقد كانت اختياراً جيداً كهدف

للسيطرة، فالمملك الصالح لم يكن يتوقع منه مساعدة حامية صلاح الدين التي كانت تتولى حماية حماة (154) وطبقاً لرواية ابن الأثير فإن فيليب كان على علم بخلو حارم من الدفاع لأن شمس الدولة بن أيوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين وليس لديه عدد كثير من العسكر، كما أن صاحب مدينة حماة وهو شهاب الدين محمد الحارمي - خال صلاح الدين - كان شديد المرض (155).

أما حارم فلم تكن أحوالها بأفضل من حماة، فقد أجمعت المصادر المعاصرة بأن أحوالها كانت مختلفة في ذلك الوقت. فقد كان والي حصن حارم "سعد الدين كمشتكين" تجمعه مع الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين محمود علاقات عدائية حيث كان يشعر كمشتكين أن الملك الصالح ينوي اعتقاله، بسبب تقربه من الصليبيين، وقد زاد خصوم كمشتكين هذا الشعور لدى الملك الصالح (156)، لذا فقد مال كمشتكين إلى التحالف مع الصليبيين، حيث أقسم له بوهيموند الثالث أن يحميه ويساعده ضد "أعداءه" الحلبيين (157). وأضاف ابن العديم أن سعد الدين كمشتكين راسل الصليبيين ووعدهم ببيع حصن حارم لهم مقابل مبلغ من المال، وليثبت حسن نيته لهم، قام بإطلاق سراح بعض الأسرى الصليبيين المحتجزين هناك (158). الأمر الذي صعّد التوتر بين الملك الصالح وكمشتكين، وترتب عليه أن ألقى الملك الصالح القبض على كمشتكين وطلب منه تسليم حارم، فرفض فأمر الملك الصالح بقتله (159).

أما بالنسبة لحلب "فعسكرها قليل، وملكها الصالح صبي، وصلاح الدين بعيداً عنها بمصر لا يستطيع الدفاع عنها"، هكذا ظن الصليبيون حسب رواية ابن الأثير (160). بهذه الصورة كان الطريق مهدياً أمام بوهيموند كي يستولي على حصن حارم الذي يفصل بينه وبين حلب. لذلك لم يجد صعوبة في إقناع كونت فلاندرز بمساعدته في الاستيلاء على هذا الحصن، وبخاصة إذا ما عرفنا أن سهولة الاستيلاء عليه تناسب طبيعة المشروعات التي ذكرها فيليب للملك بلدوين الرابع في حضور كل من ريموند وبوهيموند اللذين من المؤكد أنهما أطلعا فيليب على أحوال حلب. وربما فكر فيليب في عدم العودة إلى أوروبا دون

أن يحقق شيئاً، وربما كان الأنسب له أن يساعد بوهيمند في الاستيلاء على حارم من المسلمين، مستغلاً غياب صلاح الدين عنها، ومن ثم رحل بوهيموند إلى أنطاكية ليعد نفسه وقواته لهذا الأمر(161) .

أما بالنسبة لفيليب كونت فلاندرز فبعد فترة قضاها في تضليل الملك بلدوين الرابع بالتظاهر بالموافقة على الاشتراك في الحملة على مصر، رحل فيليب بصحبة كونت طرابلس إلى أنطاكية، وقد قدم له الملك بلدوين الرابع إمدادات قدرت بمائة فارس وحوالي ألفين من المشاة (162) وكان السبب الذي دفع الملك بلدوين الرابع إلى ذلك هو أنه تلقى سفارة في بيت المقدس من قبل كونت فلاندرز، وكانت السفارة برئاسة المحامي بيثون - أحد الذين رافقوا حملة الكونت - ومجموعة أخرى من المفاوضين، وقد تشاوروا مع المملكة حول حملة يقوم بها الكونت بمعونة مملكة بيت المقدس "حتى لا يعتبر الكونت في نظر الناس متراخياً، أو أنه أمضى وقته بلا عمل"، واتفق الكونت فيليب، وبلدوين الرابع، وبوهيموند الثالث، وريموند الثالث على مهاجمة مدينتي حماة وحارم (163) .

ومن المرجح أن الملك بلدوين الرابع أراد الإفادة من الحملة الفلمنكية لمهاجمة الأراضي الإسلامية التي يسيطر عليها صلاح الدين، ومحاولة إسقاط حماة وحارم التي كانت تفصل بين الأراضي الصليبية وحلب. وربما كانت خطط الصليبيين تتجه إلى محاولة السيطرة على حلب نفسها، وذلك للحيلولة بين صلاح الدين وبين مشروعه في توحيد الجبهة الإسلامية، والتي لم تكن خارج نطاقها سوى حلب والموصل آنذاك.

على أية حال، فقد سارت الحملة الفلمنكية إلى شيزر (164). ثم توجه كونت فلاندرز إلى طرابلس، وبعد أن اتخذ كل الاستعدادات اللازمة للحرب خرج بصحبة ريموند الثالث كونت طرابلس قاصداً حماة فوصلوها يوم الاثنين في الرابع عشر من نوفمبر 1177م، وفي اليوم التالي بدأ الحصار ولمدة أربعة أيام لم يحقق الصليبيون شيئاً، "ولم يظفروا بطائل" (165). وفي رسالة لصلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد حول هذا الموضوع، جاء فيها أن القتلى من الصليبيين زاد على ألف رجل، لذلك انسحبت الحملة الفلمنكية، بسبب

اتصال جيوش دمشق وحمص, وبعلبك بعضها ببعض والتي كانت تخطط للهجوم على معسكر الصليبيين(166)

بعد أن فشلت الحملة على حماة, اتخذت الحملة طريقها إلى الشمال لينضموا إلى بوهيموند الثالث أمير أنطاكية, لتنفيذ الشق الآخر من الاتفاق, وهو الاستيلاء على حارم, والتي سيكون استردادها ذا قيمة خاصة بالنسبة لأنطاكية(167). فتوجهها إلى حارم حيث قابلهم بوهيموند في الطريق حسبما تم الاتفاق من قبل(168)

كان أمر حارم في ذلك الوقت في أيدي أتباع سعد الدين كمشتكين, الذين رفضوا إعادة قلعة حارم إلى الملك الصالح إسماعيل(169). الأمر الذي أطمع صليبي الحملة الفلمنكية في مهاجمة حارم(170), وقد انضم إلى تلك الحملة أيضاً عدداً من فرسان الداوية والإستبارية, ورويين حاكم قيليقية الأرمني(171). وبعد أن اكتمل الحشد بدءوا في حصار حارم مباشرة. ولم يحدد المؤرخون بصفة عامة تاريخ بدء هذا الحصار, ويرجح أنه كان في الثامن عشر من نوفمبر 1177م(172).

ومهما يكن من أمر, فقد بدأ الصليبيون في نصب معسكرهم حول حارم من كل ناحية, وحالوا بين من بها وبين الخروج, كما سدوا كل الطرق في وجه من يريد الاقتراب منها أو أراد مساعدة أهلها, كما قاموا ببناء أكواخ من الخشب, وسوروا معسكرهم بأسياخ قوية للمحافظة على أمتعتهم حتى لا تجرفها مياه الأمطار المتدفقة(173). وفي الوقت نفسه نصبوا المجانيق والسهل لم استعدادا لاقتحام حارم(174) كذلك تسابق المسيحيون المقيمون في نواحي حارم بحماسة في مساعدة الصليبيين حيث جلبوا المؤن من أنطاكية إلى المعسكر الصليبي والمناطق المجاورة لها " فندم من بحارم حيث لم يسلموها إلى الملك الصالح", بعد أن رأوا حماسة الصليبيين في حصارهم(175)

لم يلبث أن هاجم الصليبيون أسوار حارم من الجهة الجنوبية, واستطاعوا أن ينقبوه, كما استطاعوا أن ينقبوا جزءاً من السور من الجهة الشمالية, غير أن السور انهار على من تحته مما أدى إلى توقف القتال(176). بالإضافة إلى ذلك يذكر وليم الصوري سبباً آخر

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

لتوقف القتال, وهو انغماس كبار رجال الحملة في مفاصد الشراب وغيرها من الملذات الجسدية, وألعاب الحظ, وانصرفوا عن أمور الحرب وأهملوا متطلبات الحصار (177), الأمر الذي مكن أهل حلب من إرسال من يطلب الأمان والنجدة من الملك الصالح في حلب. فبعث الأخير بقوات بقيادة الأمير "طمان" لدعم حامية حارم. فتسلل هؤلاء إلى الحصن أثناء الليل, واحتلوا القلعة وتقوى بهم من كان بحارم, بعد أن عوضوا خسائرهم في الرجال أثناء هجمة الصليبيين الأولى (178).

وفي الوقت نفسه أحرق جند الصالح بالمكلفين من الصليبيين بجلب المؤن إلى المعسكر الصليبي وأخذوا "ينحطفون من يمكنهم أخذه من الفرنج ويحفظون أطراف البلد". وهكذا انهارت معدات الحصار الصليبية, وانهارت معها الروح المعنوية للجنود, وبخاصة بعد أن صرح فيليب كونت فلاندرز برغبته في العودة إلى بيت المقدس (179).

في هذا الوقت كان "طومان" مبعوث الملك الصالح قد وصل إلى تفاهم مع كبار الحملة الصليبية. حيث عرض عليهم الرحيل عن حارم مقابل مبلغ من المال يعوضهم عما أنفقوه في حصارهم لها. كما هددهم بوصول صلاح الدين إلى الشام "فصلاح الدين واصل وما لكم بعد حصوله عندكم حاصل" (180) وذكر لهم أن من بحارم قد يسلموا إلى صلاح الدين قلعته (181). ولا شك أن قيام صلاح الدين بنجدة حارم لن يكون في مصلحة أي من الطرفين (الحملة الفلمنكية - والزنكيين) (182), ولعل هذا يفسر سهولة الاتفاق الذي تم بين الملك الصالح وزعماء الحملة الفلمنكية.

وبعد أربعة أشهر من الحصار, وتحت إلهام فيليب وفرسان الداوية على قبول العرض, وافق بوهيموند ورحلت الحملة الفلمنكية عن حارم في الثامن عشر من مارس 1178م (183)

لقد انتقد المؤرخون المحدثون أعمال الحملة الفلمنكية, وكان أكثر المنتقدين هو المؤرخ الفرنسي جروسية, الذي اعتبرها قصر نظر في التفكير السياسي الصليبي, وذلك لأن الزنكيين في حلب هم حلفاء طبيعياً للقوى الصليبية, وتجمعهما مصالح مشتركة أهمها

الوقوف في وجه صلاح الدين, وكان الأجدى أن يحافظوا على علاقة الود معهم ليكسبوا ثقتهم, ويدعموا الجبهة المعادية له(184).

على أن ما يهمنا هنا من نتائج الحملة الفلمنكية, انخيار التحالف الصليبي - الزنكي, حيث استغل صلاح الدين فرصة غياب فيليب كونت فلاندرز في شمال الشام ومعه معظم جيش المملكة, وقام بمهاجمة مملكة بيت المقدس, لتخفيف الضغط عن حارم, الأمر الذي أدى لوقوع معركة تل الصافية (مونتجيسارد) (185)

من بين النتائج المباشرة أيضاً للحملة الفلمنكية, فقدان الصليبيين لفرصة التحالف مع الحلبين الذين طالما استنجدوا بهم ضد صلاح الدين. وهكذا قدر لمملكة بيت المقدس وملكها المجذوم أن يدفع ثمن اعتداء الحملة الفلمنكية على حماة وحارم(186).

أما عن علاقة مملكة بيت المقدس بالإمارات الصليبية (كونتية طرابلس, وإمارة أنطاكية), فالواقع أن تلك الإمارات شكلت جانباً في السياسة الخارجية للملك بلدوين الرابع, ويلاحظ اختلاف وتباين تلك السياسة من إمارة إلى الأخرى وفقاً لموقعها, وأهميتها بالنسبة للمملكة الصليبية. كما يلاحظ أن هذه السياسة كانت تصل أحياناً إلى حالة التحالف, وأحياناً أخرى إلى حالة العداء.

بصفة عامة, كان لملك بيت المقدس حقوق في تلك الإمارات تظهر عندما يخلوا العرش في إمارة من الإمارات, أو كان متولي الحكم حدثاً صغير السن, أو حين يقع نزاع سواء داخل الإمارة أو بين إمارتين, فإذا مات أمير من الأمراء دون أن يترك وريثاً في سن البلوغ, صار لملك بيت المقدس الحق في أن يكونوا أوصياء (187).

أما بالنسبة لعلاقة مملكة بيت المقدس بكونتية طرابلس في عهد الملك بلدوين الرابع, فقد بدأت أول اتصالات بينهما, عقب تولي الملك بلدوين الرابع الحكم خلفاً لأبيه الملك عموري سنة 1174م, حيث تولى ريموند الثالث كونت طرابلس الوصاية على بلدوين الرابع (188), وقد تولى ريموند الوصاية مرتين, الأولى امتدت سنتين (1174-1176م), والثانية امتدت أيضاً سنتين (1183-1185م) (189). وكانت هذه هي المرة الأولى التي

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

يتولى فيها أمير إمارة صليبية الوصاية على المملكة, إذ جرت العادة أن يتولى ملوك بيت المقدس الوصاية على بقية الإمارات.

ومنذ ذلك الحين بدأت العلاقة تأخذ شكل الريبة والشك, بل والعداء المتبادل بين الطرفين(190). يوقفنا وليم الصوري على أسباب العداء بين بلدوين الرابع وأمراء الدويلات الصليبية (طرابلس وأنطاكية), فيذكر أنه في سنة 1180م قدم إلى المملكة ريموند الثالث كونت طرابلس, وبوهيموند الثالث أمير أنطاكية ومعهما مجموعة من الفرسان لحراستهما, الأمر الذي أزعج الملك بلدوين الرابع أشد الانزعاج, حيث شك في أسباب قدومهما, وظن أن هذين الأميرين ما جاءا إلا للإطاحة به عن العرش, والاستيلاء على المملكة(191) ومن جانب أمير طرابلس وأنطاكية, فقد غضبا من نظرة الملك وباروناته إلى قدومهما بعين الشك والارتياب وعدم الارتياح, لذلك كرا راجعين إلى ديارهما بعد أداء مراسم الحج(192).

والواقع أن هذا الموقف تسبب في قطع العلاقات بين مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس لمدة عامين, وبذلك فقد الملك مساعدة أمير طرابلس. لذلك نرى في مايو 1180م أن مملكة بيت المقدس تعقد بمفردها هدنة مع صلاح الدين لمدة عامين(193), ولم تشمل تلك المعاهدة كل الصليبيين في بلاد الشام, حيث شملت مملكة بيت المقدس وحدها دون بقية الإمارات الصليبية الأخرى(194) لهذا أطلقت هذه الهدنة يد صلاح الدين في شمال الشام, فقد استغل صلاح الدين عدم شمول هدنته بقية الإمارات الصليبية فهاجم كونتية طرابلس, مما اضطر كونت طرابلس ريموند الثالث إلى الإسراع بعقد هدنة ماثلة لهدنة بلدوين الرابع مع صلاح الدين(195).

في عام 1182م توترت العلاقات مرة أخرى بين مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس, وذلك لأن مجموعة من رجال طرابلس أوغروا صدر الملك بلدوين الرابع ضد كونت طرابلس ريموند الثالث, وأوهموا الملك بلدوين الرابع أن الكونت ينوي القدوم إلى مملكة بيت المقدس لخلعه عن العرش والجلوس مكانه, وقد أصغى الملك لتلك

الوشاية(196) , ولم يقف الأمر عند هذا الحد, بل زادت الشكوك لدى الملك بلدوين الرابع وبخاصة بعد أن أفتتته أمه آجنيس, وخاله جوسلين الثالث أن الكونت ريموند يتآمر عليه, لهذا بادر الملك في الحال بإرسال رسالة إلى الكونت ريموند الثالث يرفض فيها السماح له بدخول مملكة بيت المقدس, ومنعه من دخول أملاك زوجته بالجليل وطبرية(197) .

لقد أغضبت هذه الرسالة الكونت ريموند وعددها إهانة له وجرحاً لكبريائه, ولذلك عاد يشتت غضباً إلى طرابلس(198). واستناداً إلى رواية وليم الصوري فقد كان من مصلحة قلة من النبلاء إبعاد ريموند الثالث عن الملك بلدوين الرابع, وذلك للسيطرة على الملك, واستغلال مرضه وضعفه في تحقيق مصالحهم الشخصية(199) .

أما أغلب نبلاء المملكة وبخاصة النبلاء المحليون فقد انزعجوا أشد الانزعاج حينما علموا بخبر العداء بين الملك والكونت, فقد خافوا أن يؤدي حرمانهم من حماية كونت طرابلس لهم إلى سقوط المملكة في يد المسلمين, "وعندئذ يحق عليهم مقولة: كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب(200) .

عندئذ توسط بعض بارونات المملكة - ولعلمهم من حزب البارونات الوطنيين - في الصلح بين الكونت ريموند الثالث والملك بلدوين الرابع, حيث قبل الملك "كارها أن يرى ريموند الثالث" الذي استطاع أن يبرئ ساحته من تلك التهم التي ألصقت باسمه(201) . وبعدها عاد السلام بين مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس, وعهد الملك بلدوين الرابع لريموند الثالث بالوصاية على ولي العهد بلدوين الخامس, وذلك في العشرين من نوفمبر سنة 1183م, واستمر ريموند وصياً على المملكة حتى بعد وفاة الملك بلدوين الرابع سنة 1185م(202).

يتضح مما سبق, أن العلاقة بين مملكة بيت المقدس وبين كونتية طرابلس كانت علاقة وصاية وتبعية في بعض الأحيان, وفي بعض الأحيان الأخرى كانت تشهد حالات من القلق والاضطراب.

أما عن علاقة المملكة بإمارة أنطاكية, فقد كانت علاقة مختلفة عن علاقتهم بإمارة

طرابلس وذلك ربما لبعد إمارة أنطاكية عن مملكة بيت المقدس, بخلاف طرابلس التي كانت قريبة بعض الشيء .

كان بوهيموند الثالث أمير أنطاكية تربطه ببلدوين الرابع علاقة قرابة ربما تقف على قدم المساواة مع قرابة ريموند الثالث لبلدوين الرابع (203). لذلك كان من حق بوهيموند الثالث أن يطالب بالوصاية على الملك بلدوين الرابع, ومع ذلك لم يتقدم للمحكمة العليا بطلب الوصاية كما فعل ريموند الثالث, ربما بسبب مشاغله الداخلية من ناحية, ويُعد الإمارة عن المملكة من ناحية أخرى, وفي هذه الحالة يكون كونت طرابلس هو الأفضل لتولي الوصاية إذ يمكن لكونتيته أن تبادر بتقديم النجدة لمملكة بيت المقدس بسرعة أكبر من نجدة أنطاكية(204)

ومع ذلك قدر لبوهيموند الثالث أمير أنطاكية أن يلعب دوراً سلبياً في سياسة مملكة بيت المقدس, حيث قام بوهيموند بما كان من شأنه أن يشغل الملك بلدوين الرابع ومملكته, وعرض سوء سلوكه المملكة والإمارة إلى الخطر(205) .

فقد استغل بوهيموند موت مانويل كومنين إمبراطور بيزنطة سنة 1180م, وقام بتطليق زوجته تيودورا - ابنة يوحنا أخو الإمبراطور مانويل كومنين, وأخت ماريه أرملة عموري الأول - واتخذ لنفسه امرأة ساقطة تدعي "سبيل" Sibylle (206) كخليفة له, والتي وصفها المصادر بأنها "امرأة ساقطة, غير شريفة" (207), وكان ارتباط بوهيموند بها وبالأعلى الصليبيين عامة, وعلى إمارة أنطاكية بصورة خاصة. ويؤكد ذلك ما ذكره ابن الأثير من أنها كانت تقوم بالتجسس على الصليبيين لحساب صلاح الدين حيث كانت "تراسله وتماديه, وتعلمه بالأمور التي تؤثر", وزاد أبو شامة على ذلك قوله وكانت "في مولاة السلطان, عيناً له على العدو" (208) لهذا حاول بطريك أنطاكية في إقناع بوهيموند بأن يترك حياة "الدعارة الخسيسية التي يجهاها جهراً" (209). ولما عجز عن ذلك, أصدر البطريك قرار الحرمان ضد بوهيموند, كما أصدر قرار الحرمان أيضاً ضد الإمارة بأسرها, فألقى قرع الأجراس, حتى لم يعد يدفن الموتى, وتوقفت بذلك حركة الحياة في الإمارة, لكن

بوهيموند لم يمثل لذلك القرار واستمر في خطيته، وعامل البطرك والأساقفة الأنطاكيين كما لو كانوا أعدائه، ولم يتورع عن نهب ما حوته الكنائس والأديرة من النفائس المقدسة (210). ويذكر وليم الصوري أن بوهيموند الثالث حاصر البطريك وبقية رجال الدين في قلعة تابعة للكنيسة، وقام بضرب القلعة "كما لو كانت قلعة من قلاع العدو". واشتعلت بذلك حرب أهلية في الإمارة (211) ورأى أصحاب الخبرة أنه إن لم يحل ذلك النزاع فإن الإمارة سوف تسقط في يد المسلمين (212).

إزاء هذه المشكلة، وبدلاً من التفرغ لمواجهة صلاح الدين اضطر الملك بلدوين الرابع إلى التدخل لإنهاء النزاع بين الأمير والكنيسة. حيث عقد الملك بلدوين الرابع مجلساً حضره هرقل بطريك بيت المقدس، وعدد من كبار النبلاء ورجال الدين، وتشاوروا فيما ينبغي اتخاذه من سبيل لحل المشكلة في أنطاكية، وخلال المجلس استبعد الملك بلدوين الرابع استخدام القوة في حل تلك المشكلة، خوفاً من أن يستغل المسلمون هذا الانقسام في الإغارة على الكيان الصليبي، أو خوفاً من لجوء بوهيموند إلى صلاح الدين، ورأى الملك البدء بإرسال وفد للأمير بوهيموند الثالث لإسداء النصح والتحذير له، لإنهاء النزاع بينه وبين كنيسة إمارته (213).

كان الوفد الذي أرسله الملك بلدوين الرابع لإمارة أنطاكية على رأسه هرقل بطريك بيت المقدس، وبصحبه رينو دي شاتيون (أرناط) ومقدمي الداوية والإسبتيارية فضلاً عن بعض كبار رجال الدين بالمملكة، واصطحبوا معهم أيضاً ريموند الثالث كونت طرابلس الذي كان أشد الناس مودة لبوهيموند الثالث (214).

وطبقاً لرواية وليم الصوري فإن الداعي الذي جعل الملك بلدوين الرابع يتدخل من أجل حل النزاع في إمارة أنطاكية، هو تخوفه من أن ترميه البابوية والغرب الأوربي بالإهمال، وخوفاً من أن يُتهم بسوء النية ولؤم القصد (215). لذلك فعندما وصل وفد المملكة إلى اللاذقية، عقدوا اتفاقاً بين الأمير بوهيموند الثالث وبين بطريك أنطاكية، ونص الاتفاق على إلغاء قرار الحرمان عن بوهيموند الثالث، مقابل أن يقوم بطرد خليلته

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

سيبيلا، ويرد زوجته الشرعية تيودورا، وأن يقوم الأمير برد جميع الممتلكات الكنسية التي استولى عليها إلى بطريك وأساقفة الإمارة (216). وبذلك نجحت جهود الملك بلدوين الرابع في حل الأزمة في أنطاكية .

إلا أن التوتر بين بوهيموند الثالث وباروناته زاد لدرجة أن بوهيموند قام بنفي عدد من كبار نبلائه، والذين فروا إلى أرمينيا، وهناك استقبلهم أميرها " روبين الثالث Robin " III (1175-1185م) (217) أحسن استقبال، الأمر الذي أوجد عداءً بينه وبين بوهيموند الثالث، ولحسن حظ الصليبيين أن صلاح الدين لم يخرج من مصر في تلك الفترة التي شغلوا فيها بمشاكلهم الداخلية التي كان لبوهيموند الفضل في إثارتها إلى حد كبير. والواقع أن سياسة بوهيموند تلك حرمت الصليبيين في بلاد الشام من مساعدة بيزنطة، وأرمينيا، وقبرص، تلك المساعدة التي كانوا في حاجة إليها لتجنب هذه الكارثة (218).

ومما لا شك فيه أن تلك الأحداث تركت أثارها على العلاقات بين المملكة والإمارات الصليبية، ولا شك أن مثل تلك الصراعات وغيرها أجهزت على جانب كبير من قوة الصليبيين، وأدت إلى انتشار القلاقل والاضطرابات، كما أنها أثرت على الأوضاع السياسية في مملكة بيت المقدس، وصارت الإمارات الصليبية مجرد حلف مفكك ومهدد بالانهيار (219).

ذلك عرض لسياسة الملك بلدوين الرابع الخارجية مع البابوية، والغرب الأوربي، وبيزنطة، وبقية الإمارات الصليبية

الهوامش

- (1) محمود محمد الرويضي: "قرارات البابوية وتأثيرها على بلاد الشام زمن الحروب الصليبية" مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة المنيا، عدد (41)، يوليو 2001م، ص 570.
- (2) يوشع براور: الاستيطان الصليبي، ص 193، 244.
- (3) La Monte, Feudal Monarchy, p.203
- (4) John G. Rowe, " Alexander III and the Jerusalem Crusade and overview of Problems and Failures " in M.M., p. 112
- (5) Ibid., p.112
- (6) بلغ الصدام بين فردريك بارباروسا والبابا اسكندر الثالث مرحلة حرجة من التوتر حول مسألة التقليد العلماني، خاصة بعد أن عقد بارباروسا مجلساً في مدينة بافيا أعلن فيه شرعية البابا المعارض فيكتور الرابع وذلك نكايه في البابا الشرعي اسكندر الثالث، الأمر الذي شغل البابا اسكندر الثالث عن لعب أي دور فعلي تجاه المملكة خلال الفترة من 1159 وحتى 1177م وهو العام الذي شهد الصلح بين البابا اسكندر الثالث وبين فردريك بارباروسا. انظر: اسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص 272-273، 277.
- (7) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 185.
- (8) Hamilton, The Leper King, p. 164.
- (9) Rowe, " Alexander III and the Jerusalem", p.129
- (10) Migne (J.P.), P.L., Vol. 200, pp.12 96-1297 See also: Rowe, op. cit., p.129
- (11) Roger of wendover, Flowers of History, tran. From Latin by Gilles J. A. ,(London 1849), vol. II, p.
- (12) اسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص 286.

(13) Lilie, Byzantium, P. 215.

(14) عن الحملة الفلمنكية. انظر: ما يتقدم من هذا البحث .

(15) Krey (A.C.), "William of Tyre", Spec. Vol. 16, No. 2, p.160, Note 1, p. 157. See also: Baldwin, Raymond III, pp. 31-33

مجمع اللاتيران الثالث: عقد هذا المجمع في روما، وقد حضره ثلاثمائة وعشرة أساقفة، من المندوبين من إيطاليا، وفرنسا، وإنجلترا، والدنمارك، وأيرلندا، واسكتلندا، وألمانيا، وأسبانيا، وهنغاريا، والممالك الصليبية في الشرق، وقد أقر هذا المجلس سبعة وعشرين تشريعاً كنسياً، ما يهمننا منهم قرارين هما: القرار رقم خمسة وعشرين الذي نص على تحريم الاتجار مع المسلمين وتحريم بيع الأسلحة لهم. والقرار الآخر: رقم سبعة وعشرين، والذي نص على أن يمتلك الأشخاص المجذومين، الذين يعيشون في عزلة عن المجتمع مُصلّى خاص بهم مع كاهن لهم. انظر: مارينو سانوتو: كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، إعداد ومراجعة: البروفسور بلليفرينورونكاليا والدكتور سمير الخادم، نقله إلى العربية الأب سليم رزق الله، مؤسسة دار الريحاني، ط. بيروت 1991م، ص7-8؛ روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، ضمن كتاب الموسوعة الشامية، ج39، ص297-298.

وللمزيد عن تفاصيل مجمع اللاتيران الثالث وقراراته. انظر:

Third Lateran Council (1179) in Catholic Encyclopedia
.in www. Medieval Source book .com

(16) مارينو سانوتو: كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب، ص7-8

(17) عفاف سيد صبره: العلاقات بين الشرق والغرب، علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من 1100-1400م، دار النهضة العربية، ط. القاهرة 1983م، ص85-86.

(18) Baldwin , The Decline, in Setton, Vol. I, p. 596.

(19) مارينو سانوتو: المصدر السابق، ص8.

(20) Migne (J.P.), P.L., Vol.200, pp.1294-1297 ; Rowe, " Alexander III and the Jerusalem", p.130.

(20) عن نص الرسالة انظر:

Migne (J.P.), P.L., Vol. 200, pp. 1296-1297.

(21)Hamilton, The Leper King, p. 164.

(22)ماير: تاريخ الحملات الصليبية, ج1, ص187؛ اسحق عبيد: روما وبيزنطة, ص286. وانظر أيضاً :

Deschamps , La Défense , pp. 65-66.

(23)عن نص رسالة البابا لوسيوس الثالث إلى الملك هنري الثاني. انظر: روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ, ضمن كتاب الموسوعة الشامية, ج39, ص311-312 .

(24) Mayer, Henry II, p727.

(25) محمود الرويضي: قرارات البابوية وتأثيرها على بلاد الشام, ص577.

(26) Saphadini, totius multitudinis Sarracenorum domini, Fratrī Saladini, ad Lucium Papaum, de eodem negotio, March 31, 1183" in RHGF, t. XVII, p.623 ; Rohricht (R.), Regesta, no.626, p.166.

وأيضاً انظر: نظير سعداوي: الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي, مكتبة النهضة المصرية, ط.القاهرة 1961م, ص18-19؛ عادل عبد الحافظ حمزة: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية, الهيئة المصرية العامة للكتاب, ط.القاهرة 2001م ص391-392.

(27) Saladini, omnium Regum Orientalium Facienda mutua Perumutatione Captiverum tam Christianorum quam Sarracenorum, in RHGF, t. XVII, p.623; Rohricht (R.), Regesta, no.635, p.168.

(28) محمود الرويضي: المرجع السابق, ص577-578.

(29) عن نص رسالة الملك بلدوين الرابع إلى البابوية والغرب الأوربي سنة 1184م أنظر:

Balduini IV, Regis Jerosolymitani, ad Partes Occidentales Profectos ad Perquirendum anxilium christianis Terrae Sanctae, de Statu Terrae Sanctae, 1184, in RHGF, t. XVII (Paris 1778), p.624

وانظر أيضاً: ملاحق الرسالة, ملحق رقم 4.

(30) ماير: تاريخ الحملات الصليبية, ج1, ص188.

(31)Hamilton, The Leper King, p. 164.

(32)Ibid., p. 64.

(33)Hamilton, "Manuel I Commenus and Baldwin IV of Jerusalem", in Crusaders, Cathars and the Holy Places, pp. 354-355

وانظر: محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية, ص355-356.

(34) Lilie, Byzantium, P.

(35)Ibid., P.

(36) Hamilton, "Manuel I Commenus and Baldwin IV of Jerusalem", pp. 354-355

(37) عن الآراء المختلفة في تفسير أسباب رفض مانويل للزواج من الأميرة ميليزند. انظر:

Kinnamos, Deeds, pp.158-160 ; Choniates, Annales, pp.

184- 185 ; Lilie, Byzantium, pp.65-66 وانظر أيضاً: إسحق عبيد:

روما وبيزنطة, ص224-225.

(38) وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج3, ص449.

(39)Lilie, op. cit., P.217.

عن زواج بليان ايبيلين من ماريه انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج4, ص211.

(40)Lilie, op. cit., P.

(41)Hamilton, Hamilton, "Manuel I Commenus and

Baldwin IV of Jerusalem", p. 355

(42)Lilie, Byzantium, P.

(43)Ibid., P.217

(44) روبرت كلاري: فتح القسطنطينية على يد الصليبيين, ت. حسن حبشي, القاهرة 1964م, ص 51-52.

(45)Hamilton, "Manuel I Commenus and Baldwin IV of Jerusalem", p. 355

(46)Lilie, Byzantium, P.

(47) عن تفاصيل أوضاع بيزنطة خلال تلك الفترة , وتوتر علاقتها مع البندقية, وألماني, وصفلية, والسلاجقة. انظر:

Kinnamos, Deeds, p. 211-224 ; Lilie, op. cit., PP.210-211, 315-316.

(48) عن تفاصيل معركة ميروكيفالون انظر:

Kinnamos, Deeds, pp. 221-224; Choniates, Annales, pp. 99-112; Vasiliev A. A., History of the Byzantine Empire, Vol.II, pp. 428-429 ;Lilie, op. cit., pp.211-214.

وأنظر أيضاً: علي عودة الغامدي "معركة ميروكيفالوم 1176م", مجلة كلية الشريعة, جامعة أم القرى. مكة المكرمة, العدد (1), عام 1409هـ, ص 123-150؛ محمد زكي نجيب: علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عصر أسرة كومنين (1081-1185م) رسالة ماجستير غير منشورة, كلية الآداب-جامعة القاهرة عام 1988م, ص 184 وما بعدها؛ سعيد عمران: السياسة الشرقية, ص 339-354؛ محمد مؤنس عوض: الإمبراطورية البيزنطية, دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة, ط. القاهرة 2008م, ص 326-328.

(49) رنسمان: الحروب الصليبية، م ج2، ص 667. وانظر :

Hussey, "Byzantium and the Crusades, 1081-1204", (ed.)

Setton, vol.2, p.140.

(50) رنسمان: المرجع السابق، م ج 2، ص 668.

(51) نفسه، م ج 2، ص 668.

(52) حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص 179-180.

(53) Hamilton , The Leper King, p.112.

(54) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 4، ص 209. وأنظر:

Lilie, Byzantium, P.119.

(55) عن نص رسالة مانويل إلى البابا اسكندر الثالث. انظر:

Manuelis I Comnenus, Graecorum Imperatoris, ad Pope Alexander III in R.H.G.F., T. XVI p. 952

(56) تشكلت العصبة اللومباردية في مايو 1177م، عقب عقد مؤتمر البندقية أبريل

1177م الذي حضره كل من البابا اسكندر الثالث (1159-1181م) والإمبراطور

فردريك برباروسا، وممثلي قومونات المدن اللومباردية بشمال إيطاليا، حيث تم الاعتراف

باستقلال هذه القومونات، وتم التصالح بين البابا والإمبراطور، وبذلك انتهت الخلافات بين

البابوية وألمانيا والمدن اللومباردية، وتلك الخلافات التي اعتاد مانويل أن ينتفع بها لتحقيق

سياسته في أوروبا. وتعتبر هذه الاتفاقية ضربة موجهة لسياسة مانويل، وأصبحت بيزنطة هي

التي تحتاج الحماية. وهكذا كان موقف مانويل في أوروبا ضعيفا للغاية. فهو عضو غير مقبول

في الأسرة الأوروبية أو كحليف للإمبراطورية أو للبابوية التي تهيمن على القضية الصليبية.

انظر: حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص 180-181.

(57) Hussey, "Byzantium and the Crusades, 1081-1204",

(ed.) Setton, vol.2, p.137.

(58) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 4، ص 205، 207.

(59) Lilie, Byzantium, P. 319

(60) وليم الصوري: المصدر السابق، ج 4، ص 205، 207.

الواقع أن المصادر البيزنطية لم تعطنا أية إشارات حول حملة 1177م وهو أمر يدعو

للتساؤل؟. فالمؤرخ البيزنطي كيناموس لم يشر إلى الحملة الصليبية البيزنطية على مصر لا من

قريب ولا من بعيد، وكل ما ورد لديه في نهاية كتابه هو أن الإمبراطور مانويل بعث بعد ربيع

عام 1176م، بمائة وخمسين سفينة حربية لغزو مصر، بينما ذهب هو نفسه بقواته لمحاربة قلج ارسلان. ولذلك افتقر إلى القوات الكافية للحملة ضد مصر، وهنا توقف كلامه عن هذا الموضوع، ومن ثم جاءت معلوماته ناقصة ومبتورة في هذا الشأن، وبعدها واصل كلامه عن هزيمة الإمبراطور في ميريوكيفالون ثم واصل كلامه حتى وفاة مانويل ثم انتهى تاريخه عند ذلك الحدث. أما خونيتاس فقد لازم الصمت حول موضوع الحملة؟. انظر:

Kinnamos, Deeds, p. 224 ; Hamilton, The Leper King, p. 164

(61)Ernoul, Le Chronique, pp. 33- 34.

(62) Lilie, Byzantium, P.218.

(63) Ibid., P.218

وانظر:

Mayer (H.E.), "Henry II and the Holy Land", in E.R.H., 97 (1982), p.727

(64) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص205-206.

(65) نفسه، ج4، ص206.

(66) نفسه، ج4، ص210.

(67) Byzantium, PP. 319-320

(68)Le Royaume Latin de Jérusalem , p. 55

(69)Mayer (H.E.), "Henry II and the Holy Land", in E.R.H., p.727.

(70) محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية، ص360.

(71) ليون وديفيد جاكسون: صلاح الدين، ص144.

(72) كان صلاح الدين يدرك أن الصليبيين يخططون لمهاجمة مصر. لكنه افترض بأن هذا يحدث بالارتباط والتعاون مع الأسطول الصقلي، ففي خطاب أرسله إلى الخليفة العباسي أطلعته أن ملك صقلية يستعد للهجوم على مصر بمساعدة الصليبيين. لذلك صرف السلطان صلاح الدين شتاء 1176-1177م يضع مصر وضع الاستعداد لهجوم مرتقب، فأشرف بنفسه على إكمال بناء الدفاعات الجديدة في دمياط، والإسكندرية، وتيس، كما بدأ بتقوية

وتجديد تحصينات أسوار القاهرة. وفي خطاب من إنشاء القاضي الفاضل, يُفهم منه أن السلطان أرسل سفارة إلى الجنويين لمفاوضتها في استيراد مواد لبناء السفن. لكن لم تصل أية سفن من الجمهوريات الإيطالية للرد عليه. لذلك حرك صلاح الدين جيشه إلى فاقوس غرب الدلتا, وفي نهاية يوليو 1177م استعد لصد هجوم الحملة الصليبية المشتركة. انظر: مالكوم ليون وديفيد جاكسون: صلاح الدين, ص 139-143 وانظر:

.Hamilton , The Leper King, p. 116

(73)Lilie, Byzantium, P. 219

(74) محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية, ص 360-361.

من بين المراجع التي هولت في أمر هذا المشروع وذكروا أنه أضاع على الصليبيين فرصة لغزو مصر وفصلها عن الشام الإسلامية, ما ذكره المؤرخ ليلي Lilie الذي أشار إلى أن صليبي المملكة أضاعوا فرصة جيدة وبشكل حاسم لتحسين موقف الدول الصليبية. بينما اعتبر المؤرخ بلدوين مارشال هذه الحملة بمثابة فرصة ثمينة, أضاعتها المملكة, مُعتبراً أن كل الظروف كانت مواتية للصليبيين بعد أن وضعت بيزنطة إمكانيات قواتها البرية والبحرية لمشاركة الصليبيين في غزو مصر

Archer and Kingsford, The Crusades, p.252; Brehier, Les Croisades, p. 340 ;Richard (J.) , Le Royaume Latin de Jérusalem, p. 56 ; Baldwin, "The Decline ", Vol. I, p. 595 ; Lilie, Byzantium, p. 320.

(75) وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج4, ص 207.

(76) وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج4, ص 209-210.

(77) رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية, م ج2, ص 669.

(78) إسحق عبيد: روما وبيزنطة, ص 279.

(79) الواقع أن تاريخ إقامة بلدوين ايلين في القسطنطينية غير محدد بالضبط, ومن المفترض أنه وصل إلى القسطنطينية قبيل فترة قصيرة من وفاة مانويل كومنين, وتسلم منه فديته التي قدرت بحوالي مائة وخمسين ألف دينار, ثم عاد الى المملكة. انظر:

Lilie, Byzantium , p.219, Note

(80)Ibid., p.219

- (81)Ernoul, Le Chronique, p. 58 .
- (82)Lilie, op. cit., p.
- (83) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص257-259. وراجع أيضاً:
- Lilie, Byzantium ,pp. 219-
- (84)Ibid.,p.219
- (85) روبرت كلاري: فتح القسطنطينية، ص51-52؛ رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، مج2، ص688.
- (86)Hamilton, "Manuel I Commenus and Baldwin IV of Jerusalem", pp. 372-373
- (87)Ibid., p.374
- (88) عن تفاصيل هذه الأحداث. راجع:
- Choniates, Annales, pp. 65-66 ; Hussey, "Byzantium and the Crusades, Setton, vol.2, p.145-146 .
- (89)Hamilton, "Manuel I Commenus and Baldwin IV, p. 375
- (90)Hussey, op. cit., vol.2, p. 146
- وراجع: إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص284.
- (91)Hamilton, op. cit., pp.374-375.
- (92) عن تفاصيل الثورة على أندرونيكوس، وتولية إسحاق أنجيلوس. انظر:
- Choniates, Annales, pp. 65-66 ; Hussey, op. cit., vol.2, p.146; Edgar H. Mcneal, The Story of Isaac and Andronicus, Spec., Vol.9, No.3 (Jul., 1934), pp.324-329.
- وراجع: مجهول: ذيل وليم الصوري، ص34-39؛ روبرت كلاري: فتح القسطنطينية، ص58-59؛ رنسمان: الحروب الصليبية، م ج2، ص692-693.
- (93)La Monte," To what extent, p. 264.
- (94)La Monte," To what extent, p. 264 .
- (95)Tyerman, England and the Crusades 1095-1588, University of Chicago Press, Chicago and London 2004, p.48.

لقد ناقش الباحث بالتفصيل قرابة هنري الثاني بلدوين الرابع في الفصل الأول من دراسته
(96) Tyerman, op. cit., p.43.

وعن تفاصيل ثورة هنري الثاني انظر :

The Annals of Roger de Hoveden, Comprising The History of England and Other Countries of Europe, From A.D. 782 To A.D. 1201, Trans. From The Latin By Henry T. Riley, 2 vols., (London 1853), vol. I, pp. 374-382.

(97) زينب عبد القوي: الإنجليز والحروب الصليبية, ص100.

(98) زينب عبد القوي: الإنجليز والحروب الصليبية, ص100. للمزيد أنظر:

Tyerman, op. cit., pp.45-47.

في عام 1170م أعطي هنري الثاني وعداً راسخاً لرئيس أساقفة صور بشأن اعتزامه الرحيل إلى الشرق على رأس حملة صليبية. وقدم الوعد نفسه مرة ثانية لمبعوث البابا في أفرانثيس Avranches عام 1172م. وذلك تكفيراً عن توبته وندمه بصدد مسؤوليته في اغتيال توماس بيكيت رئيس أساقفة كانتربري, ووعد أيضاً في ضوء اتفاقية أفرانثيس بالقسم على اتخاذ الصليب في عيد الميلاد التالي أي عام 1173م, والرحيل في صيف العام التالي أي في بداية حكم الملك بلدوين الرابع. انظر: زينب عبد القوي: الإنجليز والحروب الصليبية, ص100-101.

(99) نفسه, ص100.

كان الملك هنري الثاني منهمكاً خلال ذلك الوقت بعدة مشاكل, ربما كانت السبب في عدم خروجه على رأس حملة صليبية إلى القدس خلال عهد الملك بلدوين الرابع, من بين تلك المشكلات, انشغال الملك هنري الثاني بمقاومة الهجمات الإسلامية في أسبانيا, ولعل حملته الإسبانية هذه كانت السبب الشرعي لتأجيل حملاته لمساندة مملكة بيت المقدس, بالإضافة إلى ذلك انشغل هنري الثاني بنزاعه ضد أبنائه وضد لويس السابع. انظر :

Mayer, Henry II, pp. 721-723.

(100) زينب عبد القوي: المرجع السابق, ص99.

(101) رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية, مج2, ص668-669.

(102) عن تفاصيل معادة إفري Ivry التي تمت بين هنري الثاني ولويس السابع. انظر :

The Annals of Roger de Hoveden, vol. I, pp. 463-465.

(103) زينب عبد القوي: المرجع السابق, ص101.

وانظر Tyerman, England and the Crusades, p.44

(104) كان هنري الثاني وأبنائه يحكمون معظم دوقيات فرنسا مثل دوقيات نورماندي,

بريتاني, أكوتين, وكونتيات مين Maino , أنجو Anjou , لامارش La March ,

بواتو Poitou. انظر: زينب عبد القوي: الإنجليز والحروب الصليبية, ص101

(105) زينب عبد القوي: المرجع السابق, ص102.

(106)The Annals of Roger de Hoveden, vol. I, p.464

(107) زينب عبد القوي: المرجع السابق, ص103.

(108)Balduini IV, Regis Jerosolymitani, ad Partes Occidentales Profectos ad Perquirendum anxilium christianis Terrae Sanctae, de Statu Terrae Sanctae, 1184, in R.H.G.F., t. XVII (Paris 1778), p.624 .

(109) Balduini IV, Regis Jerosolymitani, ad Partes Occidentales Profectos ad Perquirendum anxilium christianis Terrae Sanctae, de Statu Terrae Sanctae, 1184, in R.H.G.F., t. XVII (Paris 1778), p.624. ; Mayer , Henry II, pp.731-732 .

(110) زينب عبد القوي: الإنجليز والحروب الصليبية, ص106 .

(111) عن تفاصيل ضريبة عام 1184م التي أصدرها الملك هنري الثاني من أجل مساعدة مملكة بيت المقدس. انظر :

Lunt (W.E.), "The Text of the Ordinance of 1184 Concerning an Aid for the Holy Land", E.H.R., Vol. 37, No. 164 (Apr., 1922), pp.235-242.

(112) Tyerman, England and the Crusades, p.36.

(113) Ibid, p. 36.

(114) محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية, ص356.

(115) Hamilton , The Leper King, p.75.

- (116) إسحق عبيد: روما وبيزنطة, ص234.
- (117) محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية, ص356-357.
- (118) Wieruszowski , The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades, in: Setton, vol. II, pp. 34-35. See also: Graham A. Loud: "Norman and the Holy Land in: The Horns of Hattin, ed. Kedar, Israel -Exploration Society, Jerusalem, Variorum. London 1992, p. 51 ; Richard (J.), Le Royaume Latin de Jérusalem , p. 55.
- (119) ذكرت المصادر الإسلامية أن هذا الأسطول كان يتكون من مائتي سفينة تحمل كل سفينة مائة وخمسون من المشاة وستة وثلاثين مركبا تحمل الخيل, وأربعون مركبا تحمل الأوزاد, وست سفن تحمل آلات الحصار والحرب, وقد قدرت أحد هذه المصادر عدد المقاتلين بثلاثين ألفاً بخلاف صناع المراكب ومتولي أبراج الزحف والدبابات والمنجنيقات. انظر: أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية, تحقيق إبراهيم الزبيق, ط.1, مؤسسة الرسالة, بيروت 1997م, ج2, ص334-335؛ ابن الأثير: الكامل, مج11, ص412-414؛ ابن شداد: النوادر السلطانية, ص48-49؛ ابن واصل: مفرج الكروب, ج2, ص11-15؛ المقرئزي: السلوك, ج1, ص58.
- (120) وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج4, ص176-177.
- (121) رانسمان: تاريخ الحروب الصليبية, مج2, ص650. وانظر أيضاً:
- Grousset, Histoire de Croisades, Vol. II , pp. 617-618.
- ذكر ابن الأثير أن هذا الأسطول كان بقيادة ابن عم ملك صقلية. ربما يقصد به الكونت تانكرد. انظر: الكامل, م ج11, ص412 .
- (122) ابن الأثير: الكامل, مج11, ص412-413. وانظر أيضاً: نيكيتا أليسييف: السلطان نور الدين, ص400-402؛ صلاح الدين البحيري: "المخابرات الإسلامية في مواجهة الصليبيين", ص36.
- (123) Richard (J.), Le Royaume Latin de Jérusalem, p. 55; Hamilton , The Leper King, p. 87
- (124) كان صلاح الدين في ذلك التوقيت مشغولاً بثورة في صعيد مصر بزعامة رجل يدعى كنز الدولة. عن هذه الثورة بالتفصيل. راجع: أبو شامة: الروضتين, ج2, ص337-

- 339؛ ابن الأثير: الكامل، مج 11، ص 414؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 47-48. وانظر: Reinaud (M.), *La Vie De Saladin*, pp.9-10.
- (125) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 4، ص 177.
- (126) Graham A. Loud, *Norman Italy*, In: H.H., p.51. Helene Wieruszowski, *The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades*, in: Setton , vol. II, pp. 34-36 ; Grousset, *Histoire de Croisades*, Vol. II , pp. 618-619; Archer and Kingsford, *The Crusades*, p. 248 .
- (126) مالكوم ليونز وديفيد جاكسون: صلاح الدين، ص 139-143 .
- (127) مدينة تيس: مدينة مصرية تقع غرب دلتا النيل، وكانت من المراكز التجارية الهامة في مصر. انظر: المقرئزي: الخطط، ج 1، ص 291-292.
- (128) Wieruszowski, *The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades*, in: Setton, vol. II, p. 36. وانظر للمزيد: المقرئزي: الخطط، ج 1، ص 291-292.
- (129) Wieruszowski, op. cit., vol. II, p. 36. Wieruszowski, *The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades*, in: Setton, vol. II, p. 36.
- (130) Ernoul, *Le Chronique*, pp.53-54.
- (131) Ernoul, op. cit., p.54.
- (132) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 4، ص 237 .
- (133) نفسه، ج 4، ص 237. وانظر أيضاً :
- Ernoul, *Le Chronique*, p. 54.
- (134) وليم الصوري: المصدر السابق، ج 4، ص 237.
- (135) ابن الأثير: الكامل، ج 11، ص 144؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2، ص 64؛ ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، دمشق 1967م، ج 3، ص 36. وانظر :
- Ernoul, op. cit., p. 32
- (136) الحروب الصليبية، ج 4، ص 200.
- (137) Mayer, Henry II, p. 725.

هنا يجب التذكير بأن الملك بلدوين الرابع كان مريضاً بالجذام، وفي مثل ظروفه يمكن وضع المراهنات على حملة هنري الصليبية، ليحل محل الملك المجذوم، أو يخلفه في حالة وفاته. وهذه كانت لعبة سياسية مفضلة في الشرق، وكذلك في أوروبا لسنوات عديدة. أنظر

Mayer, op. cit., p. 725-726.

(138) The Annals of Roger de Hoveden, vol. I, p.438.

(139) كانت آخر مرة قدم فيها فيليب كونت فلاندرز إلى مملكة بيت المقدس بعد سقوط حارم في يد نور الدين محمود في الحادي عشر من أغسطس سنة 1165م وذلك من أجل مساعدة الملك عموري الأول في استرجاع حارم، لكن الجهود التي بذلت من أجل ذلك لقت الفشل الذريع وعلى إثرها عاد كونت فلاندرز بحملته إلى بلاده. انظر: محمود سعيد عمران: معركة حارم "التحالف البيزنطي الصليبي الأرميني ضد نور الدين"، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثامن، بغداد، ص 91.

(140) Hamilton, The Leper King, p. 119.

(141) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 200. وأنظر :

Ernoul, Le Chronique, p. 32

(142) Archer and Kingsford, The Crusades, p.254.

(143) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 200-201، 205. وانظر :

Grousset, Histoire de Croisades , Vol. II , pp. 654-655.

(144) وليم الصوري: المصدر السابق، ج4، ص 201.

(145) Ernoul, op. cit., pp. 33- 34.

(146) وليم الصوري: المصدر السابق، ج4، ص 206؛ حسن عبد الوهاب حسين: " أثر

العوامل الجغرافية على الحروب الصليبية منذ الحملة الأولى حتى معركة حطين (1097-

1187م/490-583هـ)، ضمن كتاب مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب

الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1997م، ص 309. وانظر:

Gibb (H.), "The Rise of Saladin," in Setton, Vol. I, p.

571; Baldwin, "The Decline", Vol. I, pp.594- 595.

(147) وليم الصوري: المصدر السابق، ج4، ص 206.

(148) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 207.

(149) حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص 180-181.

- (150) حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون, ص 182-183.
- (151) مالكوم ليونز وديفيد جاكسون: صلاح الدين, ص 154-155.
- (152) ابن الأثير: الكامل, ج 11, ص 202.
- (153) حسين عطية: المرجع السابق, ص 183.
- (154) ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني, ج 3, ص 340.
- (155) ابن العديم: زبدة الحلب, ج 3, ص 34-35.
- (156) ابن شداد: النوادر السلطانية, ص 53؛ أبو شامة: الروضتين, ج 2, ص 469.
- (157) ابن الأثير: الكامل, ج 11, ص 202؛ حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون, ص 183-184.
- (158) حسين عطية: المرجع السابق, ص 184.
- (159) وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج 4, ص 210.
- (160) نفسه, ج 4, ص 210-211.
- (161) ابن العديم: زبدة الحلب, ج 3, ص 35.
- (162) ابن الأثير: الكامل, ج 11, ص 201؛ ابن العديم: المصدر السابق, ج 3, ص 26؛ ابن واصل: مفرج الكروب, ج 2, ص 26؛ المقرئزي: السلوك, ج 1, ص 65.
- (163) مالكوم ليونز وديفيد جاكسون: صلاح الدين, ص 155.
- (164) نفسه, ص 155.
- (165) كان قد تم الاتفاق في أنطاكية بخروج الحملة الفلمنكية الى حارم على أن يلحق بها بوهموند الثالث بالقرب من حارم. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج 4, ص 211-212.
- (166) ابن العديم: المصدر السابق, ج 3, ص 25-26.
- (167) أبو شامة: الروضتين, ج 2, ص 470.
- (168) ابن العديم: المصدر السابق, ج 3, ص 36؛ ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني, ج 3, ص 340.
- (169) ناقش الأستاذ الدكتور حسين عطية آراء المؤرخين في تحديد بدء حصار الحملة الفلمنكية لحارم. انظر: حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون, ص 185.

- (170) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص212.
- (171) ابن العديم: زبدة الحلب، ج3، ص36.
- (172) وليم الصوري: المصدر السابق، ج4، ص212؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج3، ص36؛ حسين عطية: المرجع السابق، ص185.
- (173) ابن العديم: المصدر السابق، ج3، ص37.
- (174) وليم الصوري: المصدر السابق، ج4، ص224.
- (175) ابن العديم: المصدر السابق، ج3، ص37.
- (176) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص224؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج3، ص37؛ حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص186.
- (177) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص471.
- (178) ابن العديم: المصدر السابق، ج3، ص37-38.
- مالكوم ليونز وديفيد جاكسون: صلاح الدين، ص156.
- (179) أبو شامة: المصدر السابق، ج2، ص471؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج3، ص37-38؛ حسين عطية: المرجع السابق، ص186-187.
- (180) Grousset, Histoire de Croisades, Vol. II, pp. 646.
- (181) ابن الأثير: الكامل، ج11، ص201.
- (182) حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص189-190.
- (183) باركر: الحروب الصليبية، ص53.
- (184) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص181؛ السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط. الإسكندرية 1966م، ص157.
- (185) عنها أنظر: محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الأيوبي - الإعاقة - الكاريزما - المرض، ط. القاهرة 2014م.
- (186) Gordon H. Pirie, "The Reigning Princes of Galilee", E.H.R., Vol. 27, No. 107 (Jul., 1912), p. 455.
- (187) Rey, Les Colonies, p. 375 ; Baldwin, Raymond III of Tripolis, p. 17.
- (188) Gordon, op. cit., p.

- (189) Baldwin, Raymond III of Tripolis , p. 29
(190) وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج4, ص194-195. وانظر أيضاً:
Richard (J.) , Le Royaume Latin de Jérusalem, p. 55.
(191) رانسمان: تاريخ الحروب الصليبية, مج2, ص662؛ ملكوم كامرون ليونز وديفيد
جاكسون: صلاح الدين, ص98. وأيضاً انظر :
Grousset, Histoire des Croisades, Vol. II , p. 632-633;
Richard (J.), Le Royaume Latin de Jérusalem p. 55
(192) Gordon, "The Reigning Princes of Galilee",
E.H.R., p. 456; La Monte, Feudal Monarchy, p. 28.
(193) وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج4, ص253.
(194) Gordon, op. cit., p. 456
(195) Ernoul, Le Chronique, pp. 51-52; Felix Fabri, the
Book of the Wanderings, p. 626 Michaud, Histoire des
Croisades, Vol. II, p. 251.; Conder, The Latin Kingdom
of Jerusalem , pp. 138-139.
(196) ابن الأثير: الكامل, ج11, ص210.
(197) Gordon, "The Reigning Princes of Galilee",
E.H.R., p. 456.
(198) وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج4, ص271.
(199) Baldwin, "The Decline and Fall of the Jerusalem",
Vol. I, p. 598.
(200) وليم الصوري: المصدر السابق, ج4, ص272.
(201) نفسه, ج4, ص272.
(202) نفسه, ج4, ص272.
(203) رانسيومان: تاريخ الحروب الصليبية, مج2, ق2, ص688.
(204) وليم الصوري: المصدر السابق, ج4, ص332. انظر:
Gordon, "The Reigning Princes of Galilee", E.H.R.,
p. 457
(205) Grousset, Histoire des croisades, vol., II, pp. 612-
613; Hamilton, The Leper King, p. 89.

(206)Grousset, op. cit., vol., II, pp. 612-613; Hamilton, op. cit., p. 89 .

(207) حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون, ص197-198.
(208) سبيل: شقيقة زوجة صاحب حصن بزيرة, والذي يقع على بعد خمسة وأربعين كيلو مترا شرقي اللاذقية, وكانت سبيل هي ثالث امرأة يرتبط بها بوهموند الثالث. فقد تزوج من قبل عام 1170م من أورجو جليوزا Orgogliosa ابنة وليم فرزنل W. Fresnel سيد حارم في ذلك الوقت, ثم تزوج في سنة 1175م من ثيودورا كومنين. انظر: حسين عطية: المرجع السابق, ص198.

- (209) ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني, ج3, ص352.
(210) ابن الأثير: الكامل, ج12, ص8؛ حسين عطية: المرجع السابق, ص198 .
(211) وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج4, ص263-264.
(212) ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني, ج3, ص352.
(213) حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون, ص199.
(214) وليم الصوري: المصدر السابق, ج4, ص265.
(215) نفسه, ج4, ص265؛ ميخائيل السرياني: المصدر السابق, ج3, ص352؛ حسين عطية: المرجع السابق, ص199.
(216) وليم الصوري: المصدر السابق, ج4, ص266-267.
(217) وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج4, ص266.
(89) نفسه, ج4, ص266-267؛ ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني, ج3, ص352.
(219) روبين الثالث: صاحب أرمينية الصغرى التي تأسست في جبال طوروس تقريبا 1071م على يد روبين الأول. انظر: وليم الصوري: المصدر السابق, ج4, ص337, هامش 19.

الجهود التبشيرية لكثلكة النساء
عصر الحروب الصليبية (القرنان 12، 13م)

د/ محمد عبد الله المقدم
جامعة تعز - اليمن

الجهود التبشيرية لكثلكة النساء عصر الحروب الصليبية (القرنان 12، 13م)

حاول الصليبيون تنصير النساء المسلمات في أوقات مختلفة، كما أنهم خططوا لإستخدام المرأة الكاثوليكية لإصطياد المسلمين إلى حظيرة المسيحية الغربية، ووفقاً للمزاعم المسيحية، فإن استخدامهم لنسائهم في اجتذاب المسلمين قدم قدم الإسلام نفسه، وما اهداء المقوقس مارية القبطية - رضي الله عنها - لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا محاولة لإستمالة رسول الإسلام إلى المسيحية وفق تخيلاتهم الواهمة، كما أن المقوقس نفسه خطط لتنصير عمرو بن العاص عن طريق تزويجه بنت الإمبراطور البيزنطي هرقل وفقاً لنفس تلك الروايات الخيالية(1)

وتُصور الكتابات الغربية ايجلونا Egilona أرملة لذريق Roderic آخرملك قوطي لإسبانيا كأول مبشرة كاثوليكية، حيث حاولت إغراء زوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير والي الأندلس (713 - 716م) بهجر الإسلام والتحول إلى المسيحية الرومانية كخطوة تمهيدية لجرّ غالبية جيشه البربري حديث الإسلام إلى الكاثوليكية (2) وتُسمى المصادر الإسلامية هذه المرأة بأَم عاصم والتي تزوجها عبد العزيز " فحظيت عنده وغلبت عليه ... فقيل تنصر " (3).

ويبدو أن الأتراك الذين خطط الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين لتزويج أمرائهم بنساء يونانيات، لتحويلهم إلى المسيحية الأرثوذكسية (4) قد هاموا عشقاً بشقروا أوروبا الغربية، فقبيل وصول الجموع الصليبية إلى طرسوس في سبتمبر 1097م، سقط أحد الأتراك صريعاً في هوى راهبة غربية، ووعدها بإعتناق المسيحية الكاثوليكية (5).

وتُلقي المصادر الصليبية الضوء على حوار دار بين كربوغا ووالدته تظهر وكأنها مسيحية تقية تُلقي على أبنها مواعظ من الكتاب المقدس، وتحذره من عواقب قتال الأمة المسيحية التي فضلها الرب على العالمين، ووعدها بالنصر والتمكين من المشرق إلى المغرب

بحسب تلك التخيلات والأوهام التي تغنى بها المؤرخون الصليبيون (6).
لكن من الحقائق التي لا جدال فيها أن كثيراً من مُسلمات المدن المتساقطة قد وقعن في حبال الأسر الصليبي، فعملن بالطواحين أو الخدمة في المنازل، أو تم اقتيادهن إلى أسواق الرقيق مكبلات بإصفاة الحديد، فتتفطر لرؤيتهن الأفئدة، وتذوب لمواجهتهن القلوب بحسب تعبير ابن جبير (7) ولا شك أن الفرنجة قد انتهكوا شرفهنّ وعفتهنّ، كما ساوموهنّ أحياناً على دينهن لإستعادة حريتهنّ (8). وتزوج الصليبيون أحياناً " من المسلمات اللاتي اعتنقن المسيحية " (9) وتلقينّ نعمة المعمودية كما يحلو للمصادر الصليبية توصيفها، ويُعتقد أن زوجة الفارس روبرت أحد الفرسان الصليبيين ويدعي Robert الفرنجي كانت مسلمة قبل أن تُغمس بماء المعمودية (10).

ويبدو أن بعض الفرنجة قد أكرهوا المسلمات على الزواج منهم، وخاصة اللاتي عانينّ من حالة الترميل بعد أن فقدن أزواجهن في ساحات الوغى، وهو ما تعكسه قصة المرأة النابلسية التي " كانت مزوجة لرجل إفرنجي فقتلته " (11) ولا يُعرف سرّ كراهية تلك المرأة المسلمة لزوجها الفرنجي، هل لأنه تزوجها عنوة؟ أم أنه راودها عن دينها؟ فدفعت الضرر عن دينها بقتله.

وربما شاعت ظاهرة زواج الفرنجة من المسلمات اللاتي وأن كنّ قد غلبنّ على أمرهنّ في مسألة الزواج إلا أنهنّ استمسكنّ بدينهنّ، مما حدا بمجلس نابلس الذي انعقد عام 1120م لتحريم الزواج مع المسلمين (12) بسبب المانع العقدي، لأنه إذا ما انتفى هذا المانع يصبح الزواج جائزاً كما أكد القس فوشيه الشارترى .

وإذا كان رجال الكهنوت المسيحي قد حرموا الزواج مع المسلمين، فإن دين الإسلام يُبيح زواج المسلم من مسيحية، وقد شاع التسرى بالأسيرات الفرنجيات زمن الحروب الصليبية، فقد وهبّ والد أسامة بن منقذ صديقه مالك بن سالم العقيلي صاحب قلعة جعبر (13) جارية فرنجية حسناء، فنالت إعجابها، وأنجبت له ولداً أسماه بدران، جعله ولي عهده، وبعد فترة من موت مالك بن سالم (ت 1134م) فضلت أم بدران الفرار إلى

سروح لتتزوج بإسكافي فرنجي وكان أبنها حاكماً لقلعة جعبر(14) .

ومع أن أسامة يعزو أسباب فرارها لخلفتها العرقية الاجتماعية، فهي حسب قوله تنتمي لقوم " لا يألون لغير جنسهم " (15) إلا أن العامل الديني قد لا يكون غائباً، رغم أن أسامة لم يصرح بالتأكيد أو النفي لتحويلها إلى الإسلام أو عودتها إلى المسيحية، لكن يُحتمل أن تكون قد أسلمت قبل ارتدادها لدينها القديم خاصة وأنها قد صارت " الأمرة الناهية " (16) في دولة أبنها بدران، فمن المستبعد أن يسلم مسلمو جعبر زمام أمورهم لمسيحية وهم على ثغر من ثغور الإسلام.

على أية حال، لقد نال الأبطال المسلمون الكثير من الإعجاب في الأوساط المسيحية الغربية، مما دفع تلك الأوساط لإلحاقهم بالمسيحية، فقد عللت الأساطير الغربية عظمة عماد الدين زنكي لكونه يعود لإصول مسيحية، فهو بحسب تلك الأوساط أبن للكونتييسة Ida التي شاركت في صليبية 1101م (17) كما اصطنعت تلك الأساطير جذوراً مسيحية لصالح الدين، فمعاملته الكريمة للصليبيين ليس إلا نتاجاً لإنتمائته للأسرة المسيحية، وقد ارضعته امه الكونتييسة بونشيو Ponthieu المسيحية منذ طفولته (18) وتصور الأساطير الغربية أخت صلاح الدين مسيحية (19) كما أن الحوليات الألمانية تزعم أن الأمبراطور الألماني فردريك برروسا وافق على زواج إبنته من ابن صلاح الدين شريطة أن يتحول صلاح الدين وشعبه إلى المسيحية الكاثوليكية (20) ولا شك أن كل تلك الأوهام والأساطير من نسج المخيلة الشعبية الغربية التي أوغلت في الأماني والأحلام الخادعة، وحصرت البطولة والعظمة على المنحدرين من دوحه المسيحية.

ومع أن تلك الروايات الأسطورية لا أصل لها ولا حقيقة إلا أن تغني المخيال الشعبي الغربي بحوادث تنصر المسلمين يعكس الرغبة الكاثوليكية الطامعة في تحويل المسلمين عن دينهم، وقد حاول الفرنجة ترجمة تخيلاتهم إلى مشاريع واقعية، فقد وعد ريتشارد قلب الأسد صديقه العادل الأيوبي بتزويجه من أخته جوانا Joanna إن هو اعتنق النصرانية" (21) لكن شقيق صلاح الدين رفض العرض، كما أن قساوسة الفرنجة ورهبانهم استنكروا مشروع الزواج،

وحرصوا جوانا " وخوفوها وأتموها في دينها وعنفوها، وقالوا لها ... هذه فضيحة فظيعة، وسبة شنيعة، وقطع على النصرانية وقطيعة، وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة " (22) فما كان من جوانا إلا أن أقسمت ألا " تمكن مسلماً من غشيانها" (23) ما لم يوافقها على دينها، فإنهار ذلك المشروع الذي كان قد تم عرضه في 20 أكتوبر 1191م أثناء مفاوضات الصلح بين ريتشارد وصلاح الدين(24) .

ومع أن مشروع زواج جوانا من العادل قد مات في مهده، إلا أن مشاريع الصليبيين الوهمية لم تنته، فالقديس فرنسيس الاسيزي الذي جاء إلى الشرق لإنقاذ أرواح المسلمين بحسب التصورات الكاثوليكية، حاولت عاهرة عربية من مصر إيقاعه في حبائلها الشيطانية، لكن فرنسيس قاوم اغراء وقتنة جمالها، ومضى إلى النار لإثبات صحة المسيحية، وقد أنبهرت بمعجزة خروجه من النار سالماً، فتأيننت عن ممارساتها الخاطئة، وآمنت بالمسيحية، وبفضلها آمن الكثير من المصريين بدين المسيح (25) وبالطبع هذه أسطورة واهية صنعتها الأماني والتخيلات المسيحية دون أن يكون لها أي أساس من الواقع التاريخي .

والملاحظ أن القصص الأدبي الإسلامي يُبرز وع المسلم وعفته عن إقامة علاقات آثمة مع المرأة الفرنجية خارج نطاق الشرع الإسلامي، وطالما لم ينشر صدرها للإسلام(26) وكذلك يُصور الأدب الصليبي تمتع الفتى الفرنجي عن تقبيل محبوبته المسلمة طالما لم تعتنق المسيحية، وتغتسل بماء المعمودية (27) وهو ما يدل على أن الأدب الصليبي كان يحمل في طياته رسالة تنصيرية.

ومع أن تلك الروايات والقصص تنتمي لعالم الخيال، إلا أن عالم الواقع شهد جهوداً تبشيرية لكثلكة المسلمين، فقد سعت البابوية للمّ شمل الأسر التي اعتنق بعض أفرادها المسيحية حتى لو تعارض ذلك مع الشرائع المسيحية، فقد أجازت الفتاوى التشريعية للبابوية بالسماح لمعتنقي المسيحية بالإحتفاظ بزواجهم اللاتي تربطهنّ علاقة قرابة بإزواجهنّ حتى لو كان الزوجان أبناء عمومة أو حوولة، وهذا زواج شائع في المجتمع الإسلامي تُبيحه قواعد الشريعة الإسلامية، بينما تحظره القوانين الكنسية، لكن الكنيسة الكاثوليكية في عهد بابواتها

كليمنت الثالث وانوسنت الثالث وجريجوري التاسع تغاضت عن حرق شرائع الزواج المسيحية (28) لتحقيق مقاصد انتهازية رخيصة هدفها تثبيت المنتصرين، ومنع تأرجحهم بين خيارَي الرابطة الزوجية والإيمانية، وتطميناً لزوجاتهم المنتصرات وترسيخاً لإيمانهنّ، وأيضاً استدراكاً لعطف الزوجات اللاتي لم يسايرن أزواجهن المنتصرين حتى تتشرب قلوبهنّ الإيمان المسيحي.

ولا نعلم إن كانت تلك الفتاوى البابوية قُونت لإستيعاب حوادث تنصيرية مفترضة ومستقبلية، أم أنها شُرعت لتنزيلها على الواقع، لمعالجة حالات تنصيرية فردية أو جماعية وقعت بالفعل، كما حدث في عام 1201م عندما ساق أسقف طبرية اللاتيني بُشرى للبابا انوسنت الثالث بتنصر الكثير من المسلمين، وقد عبر الباب عن بالغ سعادته لأن الرب قد أ لهم أخيراً أولئك الوثنيين للهداية إلى الإيمان المسيحي - بحسب تعبيره - وأكد أن بإمكان المتحولين الإحتفاظ بزواجهم اللاتي تربطنّ علاقة قرابة بإزواجهن رغم تعارض ذلك مع القانون الكنسي (29).

ولم يوضح أسقف طبرية إن كان أولئك المنتصرين من أبناء المدينة التي يتشرف برئاسة اسقفيتها إسمياً رغم عدم خضوعها للسيادة الصليبية منذ أن فتحها صلاح الدين 1187م، أم أنهم من أبناء مدينة عكا التي يُعتقد أن الأسقف يُقيم فيها ؟ ويُحتمل أن يكونوا من أبناء مدينة شامية أخرى، كما يُحتمل أن يكونوا أشتاتاً متفرقة من مدن مختلفة، لكن يُرجح أن يكونوا من طبرية، لأنه من غير المنطقي أن يستفتي في شأن أناس لا يدخلون ضمن نطاق ولايته الأسقفية.

لقد كانت البابوية مهمومة بكل ما يفتح الأبواب مشرعةً أمام المنتصرين والمبشرين، فالبابا جريجوري التاسع كان حريصاً على نشر المسيحية الكاثوليكية وتذليل كافة الصعاب التي تعوق عمل المبشرين، وقد بعث رسالة بهذا الخصوص الأيوبيّ حلب في عام 1238م (30) ويُعتقد أن ضيفة خاتون بنت العادل الأيوبي وزوجة الملك الظاهر بن صلاح الدين هي المقصودة بالخطاب البابوي، فقد ملكت حلب (1236 - 1242م) بعد وفاة ابنها الملك العزيز " وتصرفت في الملك تصرف السلاطين، وقامت بالملك أحسن

قيام" (31) نظراً لحدائثة سن حفيدها الناصر يوسف الذي لم يكن قد تجاوز السابعة من عمره (32) .

لقد شارك في الجهد التبشيري الكثير من فئات المجتمع المسيحي الغربي، فبلانش القشتالية التي عُرفت بأصوليتها المسيحية، ربّت ابنها لويس على المفاهيم المسيحية، وكرسته كلياً لخدمة المسيح وكنيسته، وغرست في نفسه ضرورة إعلاء كلمة المسيحية ونشرها بين من لا يؤمنون بها (33) وقد عمل لويس على اجتذاب المسلمين ذكوراً وإناثاً للمسيحية الكاثوليكية أثناء الحملة الصليبية السابعة، وقد أبدى إهتماماً خاصاً بنساء المسلمين القتلى والأسرى لدفعهنّ لإعتناق المسيحية (34) كما أنه حرص على تزويج المنتصرين بنساء فرنسيات (35) لضمان استمرارية ثباتهم على المسيحية، ولتسهيل إدماجهم في المجتمع المسيحي الفرنسي.

وتجدر الإشارة إلى أن نساء الأراضي المحتلة من جانب الصليبيين كنّ أكثر عرضة للتنصر مقارنةً بشقيقاتهنّ المسلمات في الأراضي الخاضعة للسيادة الإسلامية، بحكم كثرة المؤثرات الصليبية، وعدم وجود أي كوابح للنشاط التبشيري، كما أن السلطة الأبوية والأسرية تضعف إلى حدٍ بعيد، ويصبح التنصر سلاحاً تشهره الأبنه في وجه أمها، والزوجة في وجه زوجها، في حالة المغاضبة، وعند العجز عن تلبية متطلباتهنّ وإحتياجاتهنّ، وهذا الوضع دفع بأحد الأباء في صقلية لعرض ابنته الصغيرة على أحد الحجاج المسلمين ليتزوجها أو يُزوجها بمن يرضى في ديار الإسلام "طمعاً للتخلص من هذه الفتنة" (36) وهكذا عاش الأباء والأزواج حياة مليئة بالخوف والترقب يدارون بناهم وزوجاتهم، ويشفقون عليهنّ من التردى في شباك المسيحية.

لقد أولى المجتمع المسلم عناية خاصة لتحرير النساء من الأسر خشيةً إغوائهنّ عن دينهنّ، فقد منح وقف دمشق امرأة مسلمة مبلغاً من المال لتحرير ابنتها الأسيرة لدى صليبيّ صور، لكن فرحة المرأة لم تكتمل بتحرير ابنتها، فقد وقعت المرأة وابنتها ضحية لكمين قرب صفد، نفذته مجموعة مسيحية من صور، حيث تم انتزاع البنت من بين أحضان أمها في مايو 1269م، وقد غضب السلطان بيبرس، وطالب صليبيّ صور بإطلاق سراح الفتاة المسلمة، لكنهم "اعتذروا بأنها تنصرت" (37) ويبدو أن المجموعة المسيحية التي اختطفت الفتاة تنتمي لجماعة تنصيرية كانت قد شرعت في إستمالة الفتاة للمسيحية، لكن تحرير الأم

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

لإبنتها أجهض تمام كتلك الفتاة، فما كان من تلك الجماعة إلا أن أسرت الفتاة لإستكمال عملية تنصيرها، ومما يعضد ذلك زُهد تلك الجماعة في أسر الأم وتنصيرها إلى جانب ابنتها.

ورغم فتامة الوضع الصليبي في أواخر القرن الثالث عشر، إلا أن البابوية كانت حريصة على بقاء المسيحية الكاثوليكية واستمراريتها في الشرق، فالبابا نيكولاس الرابع وجه خطاباً لزوجة أرغون لإقناعها بالكاثوليكية، ولتتولى بدورها إقناع زوجها بالقلب الغربي للديانة المسيحية (38) بما يُسهم في إنقاذ الوجود الصليبي، وتفادي دخول المسيحية الكاثوليكية في المشرق العربي في طور الذبول والإنحلال.

والجددير بالملاحظة، أنه طوال العصور الوسطى، وفي عصر الحروب الصليبية على وجه الخصوص، ظل الإسلام حبيساً للتصورات الكهنوتية المسيحية، والتي دأبت على تجسيد صورة شهوانية للمسلمين، فهم وفقاً لتلك التصورات لا يستطيعون ضبط غرائزهم، بل تسيرهم رغائبهم الدنئية، ويلهثون وراء شهواتهم المسعورة، والإسلام بحسب تلك الأفكار المترسخة في العقل المسيحي الغربي بُني على أساس المتع والإغراء الجنسي لجذب أكبر عدد من الناس (39) .

وقد ساهمت الكتابات البيزنطية في تعميق ذلك التصور المغلوط، فالمؤرخة البيزنطية أنا كومنينيا تعتقد أن المسلمين يعيشون حياة مترعة باللهو والفسق " فما من لذة جنسية إلا انغمسوا فيها " (40) وربما بناءً على ذلك الإعتقاد لم تتمنع النساء الأوربيات الساقطات - التي جئنَّ خصيصاً للتزويج عن صليبيّ الحملة الثالثة - عن تقديم خدماتهن الترفيهية لبعض المسلمين " حتى أن كثير من فسقة المسلمين تميزوا اليهم من أجل هذه النسوة " (41) ومن غير المعروف إذا كان ذلك التحيز دينياً، أم أنه تحيز مصلحة أملتته الشهوة التي عجز أصحابها عن كبحها .

وقد سخر جاك الفيتري من الإنحراف الجنسي للمسلمين (42) واعتبر هيمبرت الرومانسي أن دين الإسلام يستثير الشهوات ويشجع الإستمتاع بالنساء (43) وهو ما يدفع المسلمين لجلب النساء من مختلف الأمم لإشباع نهمهم الجنسي بحسب مارينو سانودوا (44) ورأى بيير دوبوا أنه يمكن استغلال نقاط الضعف عند المسلمين لتحويلها إلى نقاط قوة للمسيحية، فباستطاعة المسيحيين إغراء المسلمين بالمتعة لتحويلهم إلى المسيحية،

ويقترح دويوا انتقاء فتيات فائقات الحسن والجمال من ذوات الأصل النبيل والثروة الطائلة، أو ممن تبناهنّ الأمراء والنبلاء، ويتم إلباسهن أرقى الألبسة وأفضل الأزياء، ويُدربنّ في مدارس متخصصة، ليبرعنّ في الكتابة والطبابة والجراحة، ويتسلحنّ بالعلم والمعرفة الدينية العميقة(45).

وبعد أن يُستكمل تأهيل تلك الفتيات ذوات الأنوثة الطاغية والمتسلحات بالعلم والخبرة والثروة والمكانة يتم تزويجهن بكبار القوم المسلمين من الملوك والأمراء والعلماء والأثرياء والأعيان والوجهاء، وسيتمكّن بجهودهنّ " من اقناع ازواجهن ... وجرهم إلى الإيمان الكاثوليكي " (46) وسيغرسنّ في نفوس صغارهنّ بذور المسيحية وتعاليمها، وسيستحوذنّ على إعجاب سيدات المجتمع وسيجذبنهنّ لطرائق الحياة المسيحية وطقوسها(47).

ويتضح من خلال السطور السابقة أن المبشرين اولوا اهتماماً بكتلكة المرأة لمعرفةهم الأكيدة بالطبيعة العاطفية للمرأة، وسرعة تأثرها وانفعالها بالقصص والمواعظ، وكذلك ما جبلت عليه المرأة من الفضول، وحب الإستطلاع، ومعرفة كل جديد، لكن يبدو أن التقاليد الإجتماعية للمجتمعات الشرقية كبحت النشاطات التبشيرية في الأوساط النسوية إلى حد بعيد.

ومع ذلك، فلا شك أن الفرنجة سعوا لكتلكة الإماء والأسيرات المسلمات أسوةً بإخوانهن الرجال، وعادةً ما شملت الكتلكة ذات الطابع الجماعي الرجال والنساء على حدٍ سواء، كما إن استهداف الرجل بالكتلكة، هو استهداف غير مباشر للمرأة، بحكم التأثير الواضح للرجل على المرأة، حتى في دينها ومعتقداتها، وتعكس مسارعة المسلمون لإفتداء الأسيرات، خشية من إغتصابهنّ من ناحية، وخوف من تنصيرهنّ من جهة أخرى.

ويمكن القول في ختام هذه الدراسة إن المحصلة النهائية للجهود التبشيرية التي استهدفت النساء كانت ضحلة وعابرة، ولا تتناسب البتة مع المخططات التي رسمت، والطاقت والإمكانيات التي سُخّرت لإنجاح الأنشطة التبشيرية .

الهوامش

- (1) عبد الوهاب: التبشيرية، هامش رقم (1)، ص 123.
- (2) عن ايجلونا ومحاولتها التبشيرية، انظر: العبادي: الإسلام، ص 96؛ الشيال: النهضة، ص 17 - 18؛
- Cutler: Egilona, pp. 2 - 20.
- (3) ابن الأثير: الكامل، ج 4، ص 300.
- (4) عن ذلك، انظر:
- Cutler: Conversion, p123.
- (5) عن ذلك، انظر:
- دوبوا: الأرض، ص 155 - 156؛ عمران: دوبوا، ج 1، ص 35، 41؛ زكار: الموسوعة، ج 37، ص 79 - 80؛ ماستناك: السلام، ص 383؛
- Brand: Holy Land, p.41.
- Munro: Western, p.339.
- Friedman: Captivity, pp.144 - 145.
- Kedar: Mission, p. 63.
- (6) المؤلف المجهول: الفرنجة، ص 75 - 79؛ توديود: الرحلة، ص 201 - 204؛ شاهين: الحروب الصليبية، ص 47 (7) ابن جبير: رحلة، ص 244.
- (8) عن الفجائع التي تعرضت لها الأسيرات المسلمات، انظر: ابن جبير: رحلة، ص 244؛ عطية: المسلمون، ص 77، علي السيد: العلاقات، ص 165؛
- Friedman: Women, pp. 78 - 83.
- Mayer: Latin, p. 187.
- (9) الشارترى: بيت المقدس، ص 281؛ للمزيد عن ذلك، انظر: عوض: دراسات، ص 161؛ عطية: نابلس، ص 49؛ الشيال: النهضة، ص 66؛ زابوروف: الصليبيون، ص 335؛ ماير: اللاتين، ص 324؛ بردج: الحروب الصليبية، ص 130؛

Hadia: Palestine, p. 170.
Lamb: Crusade, p. 262.
Munro: Western, p. 335.
Krijni: East, p. 131.
Hoffman: Medieval, p. 97.

(10) عن ذلك، انظر:

Kedar: Mission, p. 79.

(11) اسامة: الإعتبار، ص 179؛ للمزيد عن ذلك، انظر: الحارثي: أسامة، ج 1، ص 288؛ عبد الوهاب: الجريمة، ص 53؛ البيضاوي: المقاومة، ص 224 - 225؛ زابوروف: الصليبيون، ص 138.

(12) عطية: نابلس، ص 36، 51؛ عطية: المسلمون، ص 8

Zeitler: Christian, p. 33.

Friedman: Captivity, pp. 141 - 142.

(13) قلعة جعبر: هي قلعة تقع بين بالس والرقة في الضفة اليسري للفرات ضمن حدود سورية حالياً، وكانت تسمى قديماً دوسر إلى أن استولى عليها جعبر بن مالك القشيري في القرن الخامس الهجري ومنحها اسمه. انظر: ياقوت: البلدان، ج 2، ص 142؛ زكار: الموسوعة، ج 16، هامش رقم (51)، ص 416.

(14) اسامة: الإعتبار، ص 130؛ ابن شداد: الجزيرة، ج 1، ص 131؛ الصفدي: الوافي، ج 10؛ ص 61؛ الحارثي: اسامة، ج 1، ص 283؛ جمعة: الإستهيطان، ص 297؛ عوض: الجغرافيون، ص 252؛

Friedman: Women, p. 85.

Friedman: Captivity, p. 145.

Lamb: Crusades, p. 299.

Hitta: Crusades, p. 47.

Hillenbrand: Crusades, p. 377.

Holmes: Europeans, p. 23.

- (15) اسامة: الإعتبار، ص 130.
- (16) اسامة: الإعتبار، ص 130.
- (17) قلعجي: صلاح الدين، ص 452 - 453؛ مكسيم: الإسلام، ص 29؛
Cate: Crusade, pp. 361 - 362.
Munro: Western, p. 339.
- (18) سعاد: صلاح الدين، ص 5؛ مكسيم: الإسلام، ص 29.
- (19) قلعجي: صلاح الدين، هامش رقم (2)، ص 337.
- (20) عبد الوهاب: التبشيرية، ص 136.
- (21) مؤلف مجهول: ذيل، ص 235 - 236.
- (22) أبو شامة: الروضتين، ج 4، ص 283 - 284.
- (23) ابن شداد: النوادر، ص 89 .
- (24) الكاتب: الفتح، ص 285؛ ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري، ص 327؛ ابن العبري: روايات، ص 435؛ أبو الفداء: المختصر، ج 3، ص 80؛ العليمي: الخليل، ج 1، ص 381؛ عاشور: بيت المقدس، ص 251 - 252؛ سهير: المرأة، ص 225 - 226؛ رياض: الرملة، ج 1، ص 481 - 482؛ الحيارى: صلاح الدين، ص 448؛ جاماتي: صلاح الدين، ص 19؛ عمر: الدبلوماسية، ص 177؛
- Rosebault: Saladin, p. 280.
Hindley: Saladin, pp. 173 - 174.
Newby: Saladin, p. 167.
Hitta: Crusades, p. 47.
Oldenbourg: Crusades, pp. 541 - 542.
- (25) ستانبلوي: القدس، ص 119.
- (26) كيلان: الصليبية، ص 127 - 132؛ جمعة: الإستهيطان، ص 276؛
Friedman: Women, pp. 85 - 87.
Friedman: Captivity, p. 142.

Hitta: Crusades, p. 49.

Kedar: Mission, p.70

(27) عن ذلك، انظر

(28) عن ذلك، انظر:

Kedar: Converson, p. 321.

Kedar: Mission, p. 153.

Prawer: Jews, p. 254 .

(29) عن ذلك، انظر:

Kedar: Converson, p. 322.

.Kedar: Mission, p. 81

(30) عن ذلك، انظر:

Dubois: Francois , p. 290 .

(31) ابن واصل: الكروب، ج 5، ص 313؛ أبو الفداء: المختصر، ج 3، ص 171.

(32) أبو الفداء: المختصر، ج 3، ص 158.

(33) عن التربية الدينية للويس، انظر: حبشي: الشرق، ص 14؛ ممدوح: الصليبية، ص

271؛ الباجي: تونس، ص 222.

(34) عن ذلك، انظر:

Kedar: Mission, p. 164.

(35) عن ذلك، انظر:

Kedar: Mission, p. 164.

(36) ابن جبير: الرحلة، ص 269.

(37) ابن عبد الظاهر: الروض، ص 347؛

Kedar: Mission, pp. 153 - 154.

(38) هلال: المغول، ص 122؛ بدر: المسيحية، ص 8.

(39) لوبون: العرب، ص 160 - 161؛ أرنولد: الدعوة، ص 460؛

Geusset: Musulmans, p. 59.

Daniel: West, p. 152

(40) كومنينا: ألكسياد، ص 389.

(41) أبين كثير: البداية، ج 12، ص 334.

(42) عن ذلك، انظر:

Zeitler: Christian, p. 34.

(43) عن ذلك، انظر:

Munro: Western, p. 342.

Throop: Crusade, p. 144.

(44) سانوتو: الأسرار، ص 112.

(45) دوبوا: الأرض، ص 148 - 149؛ عمران: دوبوا، ج 1، ص 35؛ عزيز: الغرب،

ص 478؛ ماستناك: السلام، ص 382 -؛

Brand: Holy Land, p.124.

Daniel: Propaganda, p.90.

Geanakoplose: Byzantium, p.52.

(46) دوبوا: الأرض، ص 155.

(47) دوبوا: الأرض، ص 155 - 156؛ عمران: دوبوا، ج 1، ص 35، 41؛ زكار:

الموسوعة، ج 37، ص 79 - 80؛ ماستناك: السلام، ص 383؛

Brand: Holy Land, p.41.

Munro: Western, p.339.

Friedman: Captivity, pp.144 - 145.

Daniel: Propaganda, p.90.

الملكة ميلسندا (1131-1153م)
وضيفة خاتون (1185-1242م)
دراسة مقارنة

د/ صفاء عثمان
جامعة عين شمس

الملكة ميلسندا (1131-1153م/525-548 هـ)

وضيفة خاتون (1185-1242م/581-640 هـ)

دراسة مقارنة

يتناول هذا البحث بالدراسة الملكة ميلسندا (Melisende 1131-1153م/525-548 هـ) (1) وضيفة (2) خاتون (3) (1185-1242م) دراسة مقارنة وذلك من حيث أن الملكة ميلسندا قد حكمت مملكة بيت المقدس الصليبية لما يقرب من 22 عاما بينما حكمت ضيفة خاتون مدينة حلب الإسلامية مدة ستة أعوام في عصر يعد من أخطر العصور وهو عصر المواجهة الصليبية - الإسلامية.

كما أن الملكة ميلسندا وضيفة خاتون كانا في فترة من فترات حكمها أوصياء على أبنائهم فعلى سبيل المثال الملكة ميلسندا كانت وصية على ابنها بلدوين الثالث Baldwin III (1144-1162 م) بينما ضيفة خاتون كانت وصية على ابنها الملك العزيز محمد بن السلطان الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي (1212-1236م) .

أضف إلى ذلك أن كلتاها واجهت العديد من الأخطار الداخلية والخارجية فالملكة ميلسندا واجهت خطر داخلي وهو الحرب الأهلية التي أدت إلى إنقسام المملكة بالإضافة إلى مواجهة الخطر الإسلامي المتصاعد بينما ضيفة خاتون واجهت الإنقسامات في البيت الأيوبي، بالإضافة إلى الخطر الخارجي المتمثل في التركمان والصليبيين والخورزميين، ولم يتسن لها مواجهة الخطر المغولي، إذ توفت قبل ذلك فإلى أى مدى حافظت تلك المرأتين على حكمهما من القلاقل الداخلية والخارجية وما مدى مساهمتها في إفشال المشروع الصليبي في بلاد الشام؟

زد على ذلك الجانب الإجتماعى لدى كل منهما فالمجتمع الإسلامى فى ذلك

الوقت كان يقوم على الحضارة والتمدن فإمتلكت المدن الإسلامية مثل دمشق وحلب بالعديد من الجوامع والمدارس والخانقاوات، بينما الكيان الصليبي لم يكن يمثل مجتمعا بالمعنى الحقيقي للكلمة، فقد كان قائماً على الحرب، وكل الإنشاءات تصب في آلة الحرب، ولم يترك لنا سوى القلاع، كما أن المنح والإقطاعات التي كان يهبها الملوك الصليبيين للكنائس والأديرة في إعتقادي كانت تصب في النهاية لدعم آلة الحرب وإسترضاء الكنيسة ورجال الدين.

وفيما يتعلق بالملكة ميلسندا نجد أنها قد تولت حكم مملكة بيت المقدس الصليبية وذلك بعد وفاة الملك بلدوين الثاني Baldwin II عام (1131 م) (4) فقد حرص الملك بلدوين الثاني قبيل وفاته على تدبير أمر وراثته العرش، حيث أنه لم ينجب سوى أربع بنات وهن: ميلسندا Melisende وأليس Alice وهوديرنا Hoderna وإيفيتا Iveta وكانت ميلسندا أكبرهن ويحق لها وراثته العرش (5)، فبحث لها عن زوج كفء يحمل عبء الحكم معها، وتم عقد مجلس لبارونات المملكة، ووقع الإختيار على فولك أوف أنجو Fulk of Anjou (1131-1143 م) (6)، وكان رجلاً في الأربعين من عمره وهنالك أصبح فولك وميلسندا يحكمان مملكة بيت المقدس الصليبية .

وقد كانت قوانين الوراثة في مملكة بيت المقدس الصليبية تنص على أن ينقل الحكم إلى أكبر الإناث في حال عدم وجود ذكر، شرط أن تكون متزوجة وتحكم مناصفة مع زوجها، وقد أدى ذلك إلى إختيار بلدوين الثاني زوجها لها، إما إنها لا ترضى به أو إنها تستبد به، وبحكم المملكة في النهاية بما لا يخدم الصالح العام في المملكة، وهو ما حدث بالفعل، فعلى سبيل المثال نجد أن الملكة ميلسندا كانت متعلقة منذ شبابها بفارس صليبي يدعى هيو دى بوازيه Hugh de Puiset كونت يافا، ولم تقلع عما هي عليه حتى بعد زواجها وتوليها العرش، وقد نعى الأمر إلى الملك فولك، ولكنه آثر السكوت، وفيما بعد لقي كونت يافا مصرعه على يد أحد الفرسان (7)، الأمر الذي زاد من حقن المملكة، فما كان من الملك فولك إلا أن إجتهد في كسب ودها فأطلق لها العنان تفعل ما تريد، فأقبلت تتدخل في كل شأن من شئون المملكة، ولم يعد يتخذ قراراً - مهما كان تافهاً دون علمها أو

"إستشارتها" (8).

ولم يلبث فولك أوف أنجوي أن توفي عام (1143 م) وآلت الأمور في مملكة بيت المقدس الصليبية لزوجته ميلسندا وإبنها القاصر بلدوين الثالث (9)، وكان ذلك في مرحلة حرجة أخذت تتجمع فيها بوادر تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة نتيجة لجهود عماد الدين زنكى - أتابك الموصل - الذى نجح فى الإستيلاء على الرها - أولى الإمارات التى أسسها الصليبيون فى الشرق عام (1144 م) - (10)، ولم تفلح القوة التى أرسلتها ميلسندا بقيادة كونستابل مناسيس Manasses فى منع وقوع إمارة الرها (11)، إذ أخذت وقتاً طويلاً كى تصل (12) وكانت تلك أولى المخاطر الإسلامية الخارجية التى تعرضت لها ميلسندا، وفشلت فى مواجهتها بل وسارت الأمور فى المملكة من سىء إلى أسوأ بدءاً من رحيل فولك أوف أنجو ثم سقوط الرها وتعرض إمارة أنطاكية لهجمات معادية على الدوام (13).

ومن ناحية أخرى لم تستطع ميلسندا جمع شمل الأمراء الصليبيين وقت الخطر، فلم تكن من القوة ما يجعلها توفق بين أتباعها، فمنذ وفاة الملك فولك أوف أنجو أصبح نفوذها ضعيفاً على أميرى الرها وأنطاكية (14)، ذلك أن إمارة أنطاكية لم تقدم الدعم والمعونة لإمارة الرها ولم يرسل أميرها أية نجدة (15)، على الرغم من أن إمارة أنطاكية هى الأقرب إلى الرها من مملكة بيت المقدس التى أستغرقت مساعدتها وقتاً طويلاً لكى تصل، وقد كان غياب التعاون بين كل من إمارتى الرها وأنطاكية ومملكة بيت المقدس الصليبية من أجل درء الخطر الإسلامى سبباً كافياً لسقوط إمارة الرها (16) مع عدم إغفال العوامل الداخلية والخارجية الأخرى، وهكذا كان فشل الملكة ميلسندا فى توحيد الجبهة الداخلية لمملكة بيت المقدس الصليبية، وبالتالي فشلها فى مواجهتها للمخاطر الخارجية المتمثلة فى المسلمين.

ولم تلبث أن زادت الأمور سوءاً إذ تحكمت الملكة ميلسندا فى توجيه سياسة المملكة توجيهها خاطئاً، ولم توفق فى الاستفادة من حملة لويس السابع Louis IV الذى وصل إلى الشام عام 1148 م (17)، حيث وجهت الحملة بسبب سياسة الأنانية التى

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

ينتهجها صليبيو بيت المقدس الذين يعارضون القيام بحملات الشمال إلى دمشق، علي الرغم من الصداقة الوطيدة التي ظلت لأعوام طوال بين أهل دمشق والصليبيين (18)، فقد عقد إجتماع في مدينة عكا الساحلية حضرته القوى الصليبية المتمثلة في: لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث Conrad III امبراطور ألمانيا، وميلسندا ملكة بيت المقدس الصليبية، وتشاوروا فيما بينهم ثم إستقر رأيهم على مهاجمة دمشق بدلاً من إستعادة الرها(19).

وهكذا إنخرفت الحملة الصليبية الثانية عن هدفها الأساسى الذى أتت من أجله إلى الشرق، وهو القضاء على الزنكيين وإسترداد شمال الشام، وإستعادة الرها، وجنحت نحو مساعدة بيت المقدس الصليبية التي كانت أقل الوحدات الصليبية تعرضاً لضغط المسلمين عندئذ (20). ويتعرض العديد من المؤرخين بالنقد لتلك السياسة التي أتهجتها ميلسندا ويصفونها بالحمق وضيق الأفق على نحو جعلها تحارب أقرب حليف لها في صورة أتابكية دمشق، وإختيار التحالف بين الجانبين بصورة نهائية (21) ، وأدى الهجوم الطائش لتلك الحملة إلى إندفاع دمشق نحو ذراعى نور الدين محمود عام 1154 م (22) وميل ميزان القوى لصالح المسلمين وربما رآه البعض أنها مقدمة لإنتصارات حطين(23).

وبذلك يتضح لنا مدى التغير الذى طرأ على أوضاع الصليبيين في بلاد الشام ومثلهم ومبادئهم، فبعد أن كان ملوك بيت المقدس السابقون مثل بلدوين الأول وبلدوين الثانى وفولك الأنجوى يضحون بأنفسهم ومصالحهم، ويتحملون الأخطار في سبيل نجدة الرها وأنطاكية وطرابلس، إذ بمملكة بيت المقدس في عهد ملكها القاصر بلدوين الثالث وأمه الوصية ميلسندا تسعى لحرمان الإمارات الصليبية في الشمال من حق مشروع في المساعدة أو النجدة لتستغل حملة صليبية في تحقيق مكاسب تكميلية لنفسها (24).

ومع ذلك لم تشأ ميلسندا أن تتخلى عن السلطة عندما بلغ إبنها بلدوين الثالث سن الثانية والعشرين - سن الرشد - وأصرت على أن تتوج معه؛ ليستمر زمام الأمور في يدها، فإتفقت مع بطريك بيت المقدس على أن يعاد تتويجها هي الأخرى مع ولدها إشارة

إلى مقاسمتها له النفوذ والسلطان، بل أن بعض أشياع ميلسندا وضعوا مشروعاً لتقسيم المملكة بين بلدوين الثالث وأمه، فتأخذ ميلسندا بيت المقدس ونابلس ومرتبطاتهما، وتترك لولدها - الملك الشرعى - الأطراف الساحلية مثل صور، وعكا، وملحقاتهما. وكان هذا حلاً سقيماً لا يقتنع به الملك ولا تستقيم به الأمور فتجدد النزاع بينهما، وصمم بلدوين الثالث على أن تكون مملكة بيت المقدس وحدة واحدة لا يحكمها غيره، ولذلك أجل الموعد المحدد الذى حدد لتتويجه حتى إذا ما مضت أيام دخل بمفرده كنيسة القيامة فجأة، وطلب من البطريرك تتويجه بمفرده، وقد غضبت ميلسندا لذلك التصرف من جانب ولدها؛ مما أدى إلى غضب أشياعها، ثم إلى قيام حرب أهلية فى المملكة عام 1152 م، وقف فيها الملك والأمراء فى جانب، والمملكة والبطريرك فوشيه ومناسيس كونستابل المملكة فى جانب. ولم يجد بلدوين الثالث مفرّاً من مهاجمة ميلسندا فلما سمعت بخطته غادرت نابلس فى رعاية بعض نبلائها المخلصين وأسعدت إلى بيت المقدس وقام بلدوين الثالث فى الوقت ذاته بجمع قواته ومحاصرة مناسيس فى قلعة يسمونها "ميرابل"؛ فإضطر مناسيس للإستسلام، وتلا ذلك قيام الملك بلدوين الثالث بالإستيلاء على نابلس، وزحف منها إلى القدس مطارداً لأمه، ولما سمعت الملكة بذلك؛ إرتدت إلى القلعة فبادر بمحاصرة القلعة التى إعتصمت بها الملكة الوالدة وإنتهى الأمر بتخلى الملكة عن بيت المقدس عاصمة المملكة، والإكتفاء بمدينة نابلس وما حولها (25)، وكانت هذه الخلافات الداخلية ذات نفع عظيم لنور الدين محمود، إذ أنه فى ذلك الحين كان قد مضى فى تنفيذ خطته للإستيلاء على مدينة دمشق (26).

وقد يتخيل للباحث من الوهلة الأولى أن الملكة ميلسندا كانت من القوة بحيث إستمرت فى حكم مملكة بيت المقدس مدة طويلة حوالى 22 عاماً ويكفى أن نطالع ما سطره المؤرخ الصليبى وليم الصورى عن الملكة ميلسندا وكيف "أنها إمراة حصيفة راجحة العقل كبيرة الخبرة بجميع السنون الدنيوية، وقد رأيت كل إمراة من بنات جنسها فما كانت تدانيها فى مستواها واحدة منهن؛ مما أهلها للقيام بمعالجة الأمور الخطيرة أحسن قيام، كما إنها تطلعت لمنافسة أعظم الأمراء مكانة وقوة، حتى لا تبدو دونهم كفاءة، ولما كان إبنها لا

يزال صيبا غرير، فقد إستقلت بمقاليده الحكم وحدها وسيرت شئون الحكومة بمهارة بلغت من الدقة غاية يمكن أن يقال معها بحق أنها كانت مكافئة لأسلافها في هذا المجال، وكان الشعب ينعم بما يرغب فيه من طمأنينة كما كانت تدير المملكة بنجاح وإستطاعت أن تحكم حتى ذلك الوقت كوصية حكماً هو فوق قدرة النساء وشجاعتهم " بل أنه يلوم على إبنها بلدوين الثالث مطالبته بالعرش " غير أن الرغبة في إضطهاد الملكة لم تحمد في صدر إبنها" (27).

والواقع كان غير ذلك، وكأن المؤرخ وليم الصورى يتحدث عن إمراة أخرى غير الملكة ميلسندا، فأى رجاحة عقل وخبرة، وما هى الأمور الخطيرة التى أحسنت القيام بها، هل كان من المفترض أن تقع المملكة فى عهدها ولم تقع؟ وكيف أهما مكافئة لأسلافها، وهى تعد أقلهم بشهادة المؤرخين، إن الأمر لا يتعلق بمدى الحكم وأن الملكة لم تسقط فى عهدها، وإنما يتعلق بمقدار ما حققته خلال تلك السنوات. وفى واقع الأمر أنها لم تحقق للمملكة سوى الخراب، ويكفى أنها لم تستطع توحيد الجبهة الداخلية للصليبيين، وتقسيم المملكة إلى نصفين. وأصبح قسم يدين بالولاء للملكة وقسم آخر يدين بالولاء للملك بلدوين الثالث، فأحدثت الفرقة فى صفوف الصليبيين، وذلك على عكس أسلافها الذين كانوا حريصون على وحدة الصليبيين وتماسكهم. وعندما تقارن الملكة ميلسندا بضييفة خاتون التى حكمت حلب لمدة ستة أعوام فقط تكتشف مدى الإختلاف وأن من يستحق أن يوصف ذلك الوصف هى ضيفة خاتون نفسها وليس الملكة ميلسندا.

ف نجد أن ضيفة خاتون قد ساست الأمور فى حلب خير سياسة بعد وفاة إبنها الملك العزيز، وتصدت بحكمة وحنكة سياسية للأخطار الداخلية والخارجية التى واجهت حلب آنذاك، كما دخلت فى علاقات دبلوماسية مع سلاجقة الروم ليكونوا رداءً لها ضد الأخطار وذلك عن طريق (الزواج السياسى) (28) ولم يتسنى لها مواجهة الخطر المغولى وأكرمها الله بعدم مشاهدتها لهجمة المغول على بلاد الشام لاسيما حلب. كما كان لها دور ملموس فى أحداث عصرها لا يقل شأناً عن الدور الذى لعبه

القادة العظام في ذلك العصر، لا فرق بينها وبين أى رجل، وهذا يفسر قوة شخصيتها التي تمتعت بها حيث كانت التواقيع والمكاتبات ترد إليها، فكانت الأمور كلها منوطة بها (29)، وكانت تخاطب في الرسائل الموجهة إليها (إلى الستر العالى الخاتونى) (30)، وكانت تباشر الحكم بنفسها، حيث كانت تسوس حلب في تلك الفترة، فكان لا يقرر أمر ولا يبرم إلا بعد موافقتها (31)، وكانت من أصحاب الرأى والكمال (32)، ودبرت الملك أحسن تدبير، وتصرفت في الملك تصرف السلاطين نحو ست سنين (33)، ونحضت بالملك أتم النهوض، ودبرت الأمور في حلب مرتين تدبيراً جيداً (34)، وكانت صانعة قرار حتى في أمور الحرب تتدخل في وضع الخطط (35)، فكانت بمثابة أساس الدولة (36)، والمرجع في الأمور إلى والدة الملك العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل، وهى امرأة عاقلة حازمة (الستر الرفيع والجناب المنيع الملكة الرحيمة عصمة الدنيا والدين) ومن ثم فقد أطلق عليها الملكة كما أطلق عليها أيضاً لقب عصمة الدين لما فيه من معنى العصمة التي يجمل وصف النساء بها (37) وكان للملك العادل عدة بنات أفضلهن ضيفة خاتون (38) صاحبة حلب ولقبها صاحبة والغالب أن هذا اللقب كان بلقب به كبار الوزراء مما يدل على مكانة صاحبه (39)، فقد كانت ذات شخصية قوية تضاهى ملكة مصر شجر الدر حازمة أمينة على السير على نهج زوجها وحكمته (40)، كما لقيت كل العون والإحترام من أبناء الأسرة الأيوبية الحاكمة، وأرسلت لبعضهم السفارات المختلفة فلم يردوا لها طلباً (41)، وتمكنت من الحفاظ على إستقلال حلب، وحفظ الملك بسببها لابنها وحفيدها (42).

ولقد ولدت ضيفة خاتون في قلعة حلب عام 1158م (43) وتزوجها الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف حاكم حلب عام 1212 م، وذلك بعد وفاة أختها غازية وأصدقها خمسين ألف دينار (44)، ولم يلبث أن توفي الملك الظاهر عام 1216م (45)، فملك ضيفة خاتون حلب كوصية على ابنها الملك العزيز محمد (46)، ولما مات أيضاً عام 1237م ملكت أيضاً ضيفة خاتون حلب كوصية على حفيدها الملك الناصر (47)، إلى أن كبر وإستقل بحكم حلب، فحكمت مرتين ولم تلبث أن توفت أيضاً

عام 1244م بقلعة حلب عن عمر يناهز التاسعة والخمسين عاماً ومن العجب إتفاق مكان مولدها ووفاتها(48).

ويلاحظ أنه في الوقت الذي قامت فيه ضيفة خاتون على حكم حلب كان النزاع والخلاف على أشده بين أبناء البيت الأيوبي خاصة بين السلطان الكامل في مصر وأخيه الملك الأشرف موسى بدمشق، وكان السبب ذلك ما نعى إلى مسامع الملك الأشرف موسى، أن أخاه السلطان الكامل، يريد أن يستولى على أملاك الأيوبيين في بلاد الشام والجزيرة، ويعوضهم عنها بمملكة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، بعد إستيلائه عليها. ومن أجل ذلك إجتمع ملوك الأيوبيين في الشام والجزيرة تحت قيادة الملك الأشرف موسى؛ لمواجهة السلطان الكامل، كما تحالفوا مع سلطان سلاجقة الروم ضد السلطان الكامل(49).

ولقد إنضمت ضيفة خاتون إلى الملك الأشرف موسى ضد أخيها السلطان الكامل، فقد كانت تخشى طموح الأخير (50)، كما أنه حدث بينها وبينه وحشة عندما أرسلت إليه رسولين لتخبره بوفاة إبنها الملك العزيز وقيام الملك الناصر إبنه على حلب على أن تكون الأمور كلها راجعة إليها، إلا أن السلطان الكامل لم يحسن إستقبال رسلها، كما أنه أشار على الرسولين بضرورة قيام الملك الصالح بن الملك الظاهر صاحب عينتاب على قيادة العسكر، ويكون له الوصاية على بن أخيه الملك الناصر، ولم ترحب ضيفة خاتون بذلك، بل رأت في ذلك تدخلاً مباشراً من السلطان الكامل في شئوون حلب؛ مما أثار شكوكها في طمعه للإستيلاء على المدينة، ومن ثم إتفقت مع الملك الأشرف وأنصارها على أن تكون كلمتهم واحدة على الملك الكامل وأن يمنعوه من النزول إلى الشام (51).

ويلاحظ أن بعض الأمراء في حلب ومنهم شهاب الدين يوسف بن عز الدين مسعود بن سابق الدين عثمان صاحب شيزر وكمال الدين بن العجمي أرسلوا في عام 1237م رسولاً إلى الملك الأشرف موسى الأيوبي؛ يطمعانه في الإستيلاء على حلب، بل وحاولا إيهامه بأنهما حولهما جماعة كبيرة من الحلبيين سوف يساعدونه على ذلك، ولما وصل الرسول إلى الملك الأشرف موسى بدمشق لم يستجب له بل قال لهم " بأنه لا يمكن أن يبدو

منى غدر ولا قبيح في حق ذرية الملك الظاهر"، ولما علمت صاحبة ضيفة خاتون بذلك أرسلت من أعترض طريق هذا الرجل أثناء عودته من دمشق، ولما وصل إلى حلب قبض عليه ومازالوا به حتى أخبر عمن أرسله وهما كمال الدين بن العجمي، وشهاب الدين صاحب شيزر فأمرت بإعتقالهما بالقلعة، ومصادرة أموالهما ولعل هذا يبين لنا مدى حزم هذه السيدة وقدرتها السياسية حتى أنها قضت على تلك الفتنة في بدايتها (52).

ولم يلبث أن توفي الملك الأشرف موسى الأيوبي عام 1237م، وقد أوصى أن يخلفه في دمشق أخوه الصالح إسماعيل صاحب بصرى الذى سار على نفس النهج، وأعاد تكوين الحلف المضاد للسلطان الكامل، فأرسل إلى ملوك الشام " ليحلفوا له ويتفقوا معه على القاعدة التي كانت مقررة بينهم وبين الملك الأشرف " (53). ووافق الحلبيون وعلى رأسهم صاحبة ضيفة خاتون على ذلك، وحلفوا له كما حلف له بقية ملوك الشام فيما عدا الملك المظفر صاحب حماه.

وما أن سمعت حلب بموت الكامل حتى سارعت إلى أخذ المعرة من الملك المظفر، ثم حاصرت حماة وضيق عليها الخناق حتى أنفق الملك المظفر الأموال الكثيرة، فأمرت صاحبة ضيفة خاتون بالرحيل عنها عام 1238م، وكان سبب ذلك موافقة صاحب حماة الملك الكامل على الهجوم على حلب بعد إستيلائه على دمشق، ولكنه توفي قبل ذلك (54)، يتضح من ذلك أن ضيفة خاتون كانت تسوس كل الأمور في حلب حتى في أمر الحرب، وتتدخل في وضع خطط الحرب وهي التي أشارت عليهم بالبدء بالمعرة ثم حماة، ومما يؤكد إدراكها للأمور الحربية وحنكها السياسية نجاح سياسة الضغط التي إتبعتها مع صاحب حماة في أن تبقى المعرة في أيدي الحلبيين (55).

كما أنه في نفس الوقت الذى توفي فيه السلطان الكامل وصل رسول السلطان غياث الدين كيخسرو إلى " الخاتون الملكة " وطلب منها الزواج من ابنة الملك العزيز (غازية خاتون) وأن يزوج الملك الناصر من أخت السلطان غياث الدين كيخسرو ووافقت صاحبة ضيفة خاتون على هذا الزواج السياسى حتى يكون سلاحه الروم رداءً لها ضد أى عدوان

عليها سواء مصر أو من الشام (56).

ولم تشأ ضيفة خاتون أن تدخل في عداوة جديدة مع ابن السلطان الكامل الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأرادت أن تكسب الجميع إلى صفها من أجل الحفاظ على عرش حلب، وقد نجحت في ذلك إلى حد كبير، ذلك أن الخوارزميين قد خرجوا على الملك الصالح وإستولوا على البلاد، كذلك طمع السلطان غياث الدين كيخسرو في أملاك الصالح أيوب في الجزيرة، لذلك لجأ إلى التحالف مع ملوك الأيوبيين في الشام على إقتسام أملاكه في الجزيرة، ويلاحظ أن ضيفة خاتون قد وقعت على هذا العرض من قبل سلاجقة الروم، غير أنها في نفس الوقت لم تقدم على الإستيلاء على تلك البلاد، ولم تتعرض لشيء منها، حيث أنها " لم تؤثر مضايقة بن أخيها الملك الصالح في البلاد "، ولما رأى الملك الصالح أيوب هذا الموقف من عمته ضيفة خاتون أرسل يعرض عليها أخذ البلاد وغيرها من بلاده فقال لها "البلاد كلها بحكمك وإن شئت إرسال نائب يتسلم هذه البلاد وغيرها فأرسله لأسلم إليه ما تأمرين بتسليمه فشكرته وطيب قلبه " (57).

ومن ثم أرادت ضيفة خاتون أن تستمر العلاقة الحسنة بينها وبين سلطان سلاجقة الروم، كما إنها لم تشرع في الإستيلاء على أملاك الصالح أيوب، مما يؤكد حنكتهما وقدرتها السياسية، وقد أتت هذه السياسة ثمارها عندما إعتلى الصالح أيوب عرش السلطنة في مصر عام 1239م، وكانت صاحبة ضيفة خاتون قد أرسلت إلى مصر ابن العديم ليطلب من السلطان العادل الثاني إحضار عماته بنات الملك العادل إليها، ويقول ابن العديم في هذا الصدد " إستحضرني الملك الصالح أيوب وقال تقبل الأرض بين يدي الستر العالى، وتعرفها أننى مملوكها وأنها عندى فى محل الملك الكامل وأنا أعرض نفسى لخدمتها، وإمثال أمرها فيما تأمر به " (58) وربما أراد من ذلك أن يرد لها الجميل ويحلها ومن ناحية أخرى يضمن ولاءها خاصة وأن حلب تمثل جزءاً كبيراً من بلاد الشام، وأن هناك أجزاء كبيرة من بلاد الشام تقف ضده مثل دمشق وحمص (59)، ويؤكد ذلك ابن العديم عندما مر بدمشق بعد خروجه من مصر، حيث وصل إليها في عام 1241م إلتقى بالصالح إسماعيل وحمله رسالة

إلى الصاحبة ضيفة خاتون يطلب منها مساندته ضد الصالح فلم تجبه إلى ذلك (60). وهكذا استطاعت ضيفة خاتون الحفاظ على عرش حلب ولم ترد إستعداد الصالح مثل أبيه الكامل، فأمنت شره ورتبت البيت الحلبي من الداخل وأمنته في مواجهة الأخطار الخارجية، والتي كان من أهمها التركمان مستغلين وفاة الملك العزيز فقد هاجموا في جمع كبير بقيادة رجل يدعى قنغر أطراف بلاد حلب، وتكررت هذه الإغارات من قبل التركمان أكثر من مرة، حيث كان قنغر هذا ومن معه يهاجمون أطراف حلب، ثم يدخلون إلى بلاد سلاجقة الروم، فأرسلت الصاحبة القوات الحلبية ورائهم، وتمكنت من إنزال الهزيمة بالتركمان، وظنت القوات الحلبية أن ذلك بإيعاز من سلطان سلاجقة الروم؛ لذلك أرسلوا إليه يخبروه بأمر هؤلاء التركمان، فأنكر معرفته بهذا، وأمر برد جميع ما أخذ من أعمال حلب بل أعلن نصرته ووقوفه مع السلطان الناصر صاحب حلب ضد أى عدوان عليه لذلك كف التركمان أيديهم عن حلب (61).

ولم يلبث أن إنتهز الصليبيين فرصة وفاة الملك العزيز وهاجم فرسان الداوية في بغراس التابع لحلب في عام 1237م، وإستولوا على ما فيه، ولما علمت الصاحبة بذلك أمرت القوات الحلبية بنجدة العمق، وخرج الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين مقدم القوات الحلبية على رأس جيش كبير إلى بغراس لمهاجمة الداوية، ولما وصلت القوات الحلبية إلى بغراس حاصروها وشددوا الحصار عليها، حتى كاد الحصن أن يسقط، لولا تدخل بوهمند الخامس صاحب أنطاكية وطرابلس (1233-1251 م) حيث شفع للداوية لدى الملك المعظم توران شاه .، وعرض عليه عقد هدنة معهم، ووافق الملك المعظم على الهدنة ورحلوا عن بغراس بعد أن حربت خراباً شديداً، ثم تحركت القوات الإسلامية، ووصلت إلى دريساك حيث رأى الداوية في هذه الهدنة إذلالاً لهم، فسارعوا بنقضها بعد فترة قصيرة وتمكنوا من إعداد حملة كبيرة بمساندة صاحب جبيل وغيره من الصليبيين، وتحركوا لشن هجوم مفاجيء على دريساك، وعندما وصل الخبر بذلك إلى القوات الحلبية القريبة منهم تحركت من فورها إلى دريساك لنجدتهم وإلتقت مع القوات الصليبية، وتمكنت من إنزال هزيمة ساحقة غير أن

القوات الحلبية لم تتعقبهم إلى بغراس، ولم تحاول الإستيلاء عليها، ربما لكي يتفرغوا لمواجهة أطماع السلطان الكامل (62) كما ذكرنا من قبل.

ذلك عن التركمان والصليبيين، أما الخوارزمية فقد إستولوا عام 1240م على "أوشين" التابعة للبيرة، وهاجموا أطراف البيرة، كما إستولوا على قلعة حران، فإمتدت أطماعهم إلى البلاد المجاورة لهم، وكثر ضغطهم على الملك الحافظ أرسلان بن الملك العادل بناحية جعبر، وهو يداريهم ويبدل لهم الأموال وأطماعهم تشتد، فإضطرت الملك الحافظ إلى مراسلة أخته ضيفة خاتون صاحبة حلب يعرض عليها التنازل عن قلعة جعبر، وبالس مقابل ما يقوم مقامهما من أعمال حلب، ووافقت ضيفة خاتون على ذلك خاصة وأن أخيها كان قد إشتد به المرض وأصبح غير قادر على الدفاع عن بلاد الجزيرة ويخشى أن يقوم ابنه بتسليمها إلى الخوارزمية (63).

وبالإضافة إلى ذلك فقد نجحت صاحبة ضيفة خاتون في إستقطاب العربان من جيش الخوارزمية، فوافقهم على بن حديثة، وأمرت طاهر بن غنام من آل فضل على سائر العربان، " وزوجته صاحبة بعض جواربها وأقطعته إقطاعاً يرضيه " (64).

تصدى الجيش الحلي للخوارزميين مدافعاً عن أطراف حلب، إلا أنه إنهمز أمام جمعهم الكثيرة، وقتل خلق كثير، وأسر قائد العسكر الملك المعظم توران شاه، وإستولى الخوارزميين على أثقالهم (65)، إلا أن الحلبيين حملوا عليهم ثانياً بالإستعانة بالملك المنصور إبراهيم صاحب حمص، كما أرسلت صاحبة ضيفة خاتون إلى أخيها الصالح إسماعيل في دمشق ابن العديم لطلب النجدة، فإستجاب لها (66)، ولم تكتف صاحبة ضيفة خاتون بالتحالف مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق بعد أن كانت خذلتها من قبل، ورفضت أن تسانده ضد الصالح أيوب، بل نجدها تلجأ إلى إطلاق أسارى صليبي الداوية الذين أسروا في حلب وقت إغارتهم على إقليم العمق عام 1237م؛ وذلك حتى تضمن عدم مهاجمة الصليبيين لها وقت إنشغالها مع الخوارزميين (67).

على أية حال فقد ولى الخوارزميون منهزمون وإستولى عسكر حلب على معاقلمهم

كلها غير أنه عام 1242م، عاد الخوارزميون للإعتداء على حلب فخرج لهم عسكر حلب وحدثت بين الفريقين معركة عند المجدل أسفرت عن هزيمة الخوارزميين وحلفاؤهم والإستيلاء على كل ما يملكونه في عسكرهم (68).

ومثلما تفوقت ضيفة خاتون في العمل السياسى ومواجهة الأخطار الداخلية والخارجية وحافظت على إستقلال حلب لإبنها ولإبنه من بعده، نجدها أيضاً تفوقت في العمل الإجتماعى فقد كانت ملكة عادلة في الرعية، قدمت إليهم الكثير من الأموال، ورفعت عن كاهلهم كافة الضرائب والمكوس والمظالم، بالإضافة إلى أنها كانت تؤثر الفقراء والزهاد، كثيرة الإحسان والتحنن إليهم، ولم تقتصر سياستها على الرعية في حلب، بل إمتدت إلى كافة أعمالها، ولم تزل صدقاتها دارة وإحسانها واصلاً إلى كل من يفد إلى بابها وما قصدها أحد إلا رجع مجبراً مجبوراً (69).

كما ينسب إليها رعاية عناصر الزهاد والعباد، فقد أنشأت الفردوس وجعلتها تربة ومدرسة، ورباطاً وجامعاً، ورتبت فيها خلقاً من القراء والفقهاء والصوفية (70)، كما أنشأت خانقاه الفرافرة (71)، والتي ينقطع فيها الصوفية للعبادة والذكر كما تحوى أخلاطاً من الفقراء وأبناء السبيل (72). وهكذا إمتازت ضيفة خاتون بنشاط وافر في العمل السياسى والإجتماعى (73) جعلت أبواب حلب تغلق لموتها لمدة ثلاثة أيام (74).

وعندما نقارنها بالملكة الصليبية ميلسندا سواء على المستوى السياسى أو الإجتماعى نجد أنه على المستوى السياسى لم تستطع الملكة ميلسندا رغم حكمها لمدة 22 عاماً أن توحد الجبهة الداخلية للصليبيين في مواجهة الخطر الإسلامى المتزايد بل وعلى العكس ساهمت في إندلاع حرب أهلية عملت على تقسيم المملكة إلى نصفين فأحدثت الفرقة في صفوف الصليبيين كما أنها لم تستطع أن تتصدى للأخطار الخارجية المتمثلة في حركة الجهاد الإسلامى، بدءاً من سقوط الرها وفشل الحملة الصليبية الثانية ثم إستيلاء نور الدين محمود على دمشق عام 1153 م، ومن ثم يمكننا القول أنها ساهمت بطريق غير مباشر في فشل

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

المشروع الصليبي في بلاد الشام بينما نجد ضيفة خاتون أي قرابة ربع مدة حكم ميلسندا باستثناء عامين استطاعت على الرغم من أن مدة حكمها أقل وهو ست أعوام أن تحافظ على إستقلال حلب لإبنها ولإبنه من بعده، وتمكنت من مواجهة الأخطار الداخلية المتمثلة في إنقسامات البيت الأيوبي، والخارجية المتمثلة في التركمان والصليبيين والخوارزميين، بل ويكمننا القول أنها حافظت على حلب، والتي كان عليها ضغط شديد من قبل القوى الصليبية على مدى الصراع الصليبي - الإسلامي.

وإذا كان هناك وجه إتفاق بين الملكة ميلسندا وضيفة خاتون فإن كلتاهما ساهمت بطريقة غير مباشرة في فشل المشروع الصليبي في بلاد الشام، ونجاح حركة الجهاد الإسلامي. أما على المستوى الإجتماعي فنجد تفوقاً ظاهراً لضيفة خاتون، الذي كان نتاجاً لتفوق الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، وذلك على عكس الملكة ميلسندا والتي كانت نتاجاً لكيان صليبي عدواني غاشم قائم على دعم آلة الحرب وسفك الدماء فقط على نحو ذكرناه من قبل.

الهوامش

* أوجه بالشكر للأستاذ الدكتور محمد مؤنس عوض الذي أقترح عليّ موضوع موضوع هذا البحث وشجع لي بالمشاركة في تكريم العلامة ا. إسحق عبيد.

(1) William of Tyre , History of the deeds done beyond the sea, Trans. by Beacock and Krey , Vol .II, New York 1943, PP.135-139, Mayer (H.E.), " Studies in the History of Queen Melisenda of Jerusalem", D.O.P., Vol.XXVI, 1972, PP.93-182.

أسامة زكي زيد، "ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري"، مجلة كلية الآداب، جامعة طنطا، عدد 8، يناير 1995م، ص 21-66.

(2) "السيدة ضيفة خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر ولدت في عام 1185 م / 581 هـ بقلعة حلب حين كان والدها ملكاً على حلب من قبل أخيه صلاح الدين وسبب تسميتها صيفة أنه كان عند أبيها ضيف وقت ولادتها فسماها ضيفة وهي شقيقة الملك الكامل محمد الذي إعتلى عرش السلطنة بعد وفاة والده العادل " أنظر :-

ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق خليل منصور، ط.بيروت 1996م، ص 513؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمد زينهم عرب ويحيى سيد حسنين، ج 3، ط.القاهرة ب.ت، ص 207-208؛ ابن الوردي، تنمة المختصر في أخبار البشر، ج 2، ط.القاهرة 1285م، 1866م، ص 172؛ الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، ط.القاهرة 1996م، ص 283 .

(3) الخاتون كلمة فارسية ومعناها المرأة صاحبة الكلام في البيت المتصرفة فيه ومنها خاتون التركية والكردية أنظر :- السيد آدى آشير، الألفاظ الفارسية المعربة، ط.القاهرة 1988 م، ص 51.

(4) عن الملك بلدوين الثاني أنظر:-

William of Tyre, op.cit, Vol.I, P.95, P.116, Vol.II, PP.45-

46.

صفاء عثمان محمد إبراهيم، مملكة بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الثاني، ط. القاهرة 2008م.

(5) Runciman, A history of the Crusades, Vol.II, London, 1978, P.117, La Monte (J.) ,The Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem ,Cambridge 1932 , New York 1970,P.10, Mayer (H.E.),”The Succession to Baldwin of Jerusalem English Impact on the East”, D.O.P, Vol.XXVI, 1972,PP.93-187.

حسين مؤنس، نور الدين سيرة مجاهد صادق، ط. القاهرة 1984م، ص154.

(6) عن فولك أوف أنجو أنظر :-

Orderic Vitalis , The Ecclesiastical History of Orderic Vitalis, ed.and trans.by Marjorie Chibnall, Oxford 1973, William of Tyre, op.cit, Vol.II, PP.47-91, Mayer (H.E.), “Angevins versus Normans the Men of king Fulk of Jerusalem “, A.P.S.,Vol.133,1989.

سرور عبد المنعم، السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد فولك أوف أنجو (1131-1143م/ 526-538 هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس عام 2001م؛ "الأوضاع الداخلية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوى"، ضمن دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، إصدار د.محمد مؤنس عوض، ط. القاهرة 2003م.

(7) وليم الصورى، الحروب الصليبية، ت.حسن حبشى، ج3، ط.القاهرة 1994م، ص123-124؛ حسين مؤنس، المرجع السابق، ص156؛ سرور عبد المنعم، السياسة الداخلية والخارجية، ص65-69.

Runciman,op.cit,Vol.II, PP. 192-193, La Monte, op.cit, P.13, Mayer, Queen Melisenda , P.102

(8) وليم الصوري، المصدر السابق، ج3، ص125؛ حسين مؤنس، المرجع السابق، ص157.

Runciman, op. cit, Vol. II, PP. 193, Mayer, Queen Melisenda, P. 104.

(9) عن الملك بلدوين الثالث أنظر:-

عبد اللطيف عبد الهادي، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الثالث (1146-1163)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس 1990م.

Baldwin , The Latin States Under Baldwin III and Amalric I, (1143-1174), In Setton, A History of the Crusades , Vol.I, Pennsylvania 1985.

(10) عن سقوط إمارة الرها الصليبية أنظر :-

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ط. بيروت 1908م، ص279-280؛ الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ط. بيروت 1980م، ص187؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق يوسف الدقاق، ج9، ط. بيروت 1998م، ص331-332؛ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، ط. القاهرة 1963م، ص66-69؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ج1، ط. بيروت 2002م، ص170-171؛ ابن العديم، المصدر السابق، ص324-325؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، ج1، ط. القاهرة 1953م، ص93-94؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ط. بيروت 1997م، ص196؛ اليافعي اليمني، المكى، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، تحقيق خليل منصور، ج3، ط. بيروت 1997م، ص207؛ علية الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، ط. القاهرة 1986م، ص307-318.

Eugene III Announce a Crusade 1145, In Thatcher , A Source Book of Medieval History, New York 1905, Nerses Schnorhali, Eligie sur la prise d'Edessa, R.H.C.,

Doc.Arm,T.I,Paris1869,PP.227-268, Gregoire le Pretre, R.H.C.,Doc.Arm,T.I,Paris1869,P.157,Alptekin (C.), The reign of Zangi (521-541/1127-1146), Ataturk University, Erzurum1978,PP.64-65,Gibb(H.)," Zengi and the full of the Edessa" In Setton, A History of the Crusades, Vol.I, Pennsylvania1985,461.

(11) وليم الصوري، المصدر السابق، ج3، ص238؛ حسين مؤنس، المرجع السابق، ص173.

Mayer,Queen Melisenda,P.117

(12)William of Tyre, op.cit, Vol.II, P.142, Grousset (R.), Histoire des Croisades ,T.II, Paris 1943, P.128, Richard(J.), Le Royaume Latin de Jerusalem, Paris1953, P.46, La Monte,op.cit,P.194.

علية الجنزوري، المرجع السابق، ص311.

(13) وليم الصوري، المصدر السابق، ج3، ص331.

(14) Grousset (R.),op.cit,T.I,PP.174-175.

(15)William of Tyre,op.cit, Vol.II,PP.142-143,Grousset (R.), op.cit, T.II,P. 182, Cahen (C.), La Syrie du Nord, Paris 1940, P.370.

علية الجنزوري، المرجع السابق، ص311.

(16) صفاء عثمان محمد إبراهيم، عوامل فشل المشروع الصليبي في القرنين 12-13م/6-7هـ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس 2010م، ص95.

(17) سعيد عاشور، "ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام"، مجلة المستقبل العربي، العدد102، أغسطس 1987م، ص37.

(18) جون لامونت، "الحروب الصليبية والجهاد"، ضمن كتاب دراسات إسلامية، ت.نقولا زيادة، ط.القاهرة 1960م، ص115؛ عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة وأثرها في

- الحروب الصليبية، ط. القاهرة 1960م، ص 21.
- (19) وليم الصوري، المصدر السابق، ج 3، ص 307-308.
- Runciman, op.cit, Vol.II, PP.280-281, Mayer, Queen Melisenda, P.126.
- (20) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ط. القاهرة 1963م، ص 630.
- Berry(G.V.), "The Second Crusade", In Setton, A History of the Crusades , Vol.I, Pennsylvania 1985, P.505.
- (21) إرنست باركر، الحروب الصليبية، ت. السيد الباز العريبي، ط. القاهرة 1960م، ص 91؛ محمد مؤنس عوض، في الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ط. القاهرة 1998م، ص 147.
- Mayer, Queen Melisenda, PP.123-128.
- (22) يوشع براور، الإستييطان الصليبي في فلسطين، ت. عبد الحافظ البناء، ط. القاهرة 2001م، ص 42.
- La Monte, op.cit, P.17, Queen Melisenda, P.128.
- (23) صفاء عثمان، عوامل فشل المشروع الصليبي، ص 99.
- (24) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 630.
- (25) عن الحرب الأهلية أنظر:-
- وليم الصوري، المصدر السابق، ج 3، ص 232-336؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 646؛ حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 248.
- Runciman, op.cit, Vol.II, PP.334-336, La Monte, op.cit, P.18, Queen Melisenda, P.95.
- (26) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 248.
- Runciman, op.cit, Vol.II, P.334.
- (27) وليم الصوري، المصدر السابق، ج 3، ص 234، 331، 334.
- (28) منى سعد الشاعر، " خاتونات البيت الأيوبي ودورهن في الحياة السياسية والاجتماعية

- والعلمية في العصر الأيوبي"، مجلة المؤرخ المصري، ع24، كلية الآداب، جامعة القاهرة 2001م، ص172.
- (29) ابن العديم، المصدر السابق، ص487؛ ابن واصل، المصدر السابق، تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور، ج5، ط. القاهرة 1975م، ص116؛ منى سعد الشاعر، المرجع السابق، ص173.
- (30) ابن العديم، المصدر السابق، ص487.
- (31) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ط. القاهرة ب.ت، ص21، ابن العديم، المصدر السابق، ص487؛ بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، ج2، ط. دمشق 1988م، ص1953؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ج3، ص194؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد ضياء الرئيس، ج29، ط. القاهرة 1992م، ص217؛ ويذكر اليافعي "وهي كانت من الأتابك تسوس الأمور" أنظر: مرآة الجنان، ج4، ص68؛ المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط. بيروت 1997م، ص377؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، ج5، ط. بيروت 2000م، ص410-413؛ الطباخ الحلبي، أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء، تحقيق محمد كمال، ج2، ط. حلب 1923م، 1988م، ص208؛ يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج6، ط. بيروت 1900م، ص222؛ الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج3، ط. حلب 1942م، ص115، محمد كرد على، خطط الشام، ج2، ط. دمشق 1983م، ص91؛ سعيد عاشور، الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، ط. القاهرة 1996م، ص116؛ منى سعد الشاعر، المرجع السابق، ص174؛ فادي عبد الرحيم عودة، الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز (634-658 هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس 2010م، ص9.
- (32) خليل بدوي، موسوعة شهيرات النساء، ط. الأردن - عمان 1998م، ص162.
- (33) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري،

ج46، ط. بيروت 1998م، ص437؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج2، ص172؛ ابن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق وداد القاضي، ج16، ط. فرانزشتاين شتوتغارت 1991م، ص328؛ الحنبلي، شفاء القلوب، ص283؛ سبط بن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، تحقيق شوقي شعث وفالح باكور، ج1، ط. حلب 1996م، ص328؛ يوسف الدبس، المرجع السابق، ج6، ص229؛ عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج2، ط. دمشق 1959م، ص339؛ محمد كرد علي، المرجع السابق، ج2، ص98.

(34) ابن العميد، المصدر السابق، ص32؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، ج46، ص473؛ ابن أيبك الصفدي، المصدر السابق، ج16، ص328.

(35) منى سعد الشاعر، المرجع السابق، ص178.

(36) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، ج46، ص216؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر أرناؤوط - محمود أرناؤوط، ط. بيروت 1998م، ص294.

(37) ابن العديم، المصدر السابق، ص487؛ الطباخ الحلبي، المرجع السابق، ج2، ص215-216؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ط. القاهرة 1989م، ص146؛ محمد كرد علي، المرجع السابق، ج2، ص106.

(38) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ط. حيدر آباد الدكن 1951م، ص597؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ج5، ط. بيروت 2002م، ص171؛ ابن سباط، تاريخ بن سباط، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ج1، ط. طرابلس 1993م، ص264؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج3، ص212.

(39) أبو الفداء، المصدر السابق، ج3، ص351؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، ج46، ص437؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ص94؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، ج3، ط. بيروت 2002م، ص216؛ علي السيد علي، المرأة المصرية

- والشامية في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة 2002م، ص58.
- (40) خير الدين الأسدي، أحياء حلب وأسواقها، تحقيق عبد الفتاح رواسى القلعرجى، ط. بيروت 1990م، ص39.
- (41) " ومنها السفارة التي أرسلت فيها المؤرخ ابن العديم إلى الملك العادل الثانى الأيوبي فى القاهرة ليطلب من العادل أن يسير معه بنات الملك العادل الأول فأجابها إلى ذلك ثم حدث أن صار الملك الصالح سلطانا على مصر قبل رحيل ابن العديم من القاهرة فإستحضره الصالح وأكرمه وزوده برسالة إلى ضيفة خاتون جاء فيها أنه " يقبل الأرض بين يدى الستر العالى ويعرفها أنه مملوكها وأنه بمحل الكامل وأنه يعرض نفسه لخدمته وإمثال ما ترسم به " أنظر: زبدة الحلب، ص500؛ على السيد على، المرجع السابق، ص58.
- (42) النويرى، المصدر السابق، ج29، ص301.
- (43) أبو الفداء، المصدر السابق، ج3، ص207-208؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، ج46، 437؛ ابن الشحنة، روضة المناظر فى علم الأوائل والأواخر، تحقيق سيد محمد مهنى، ط. بيروت 1997م، ص252؛ الصفدى، المصدر السابق، ج16، ص328؛ الحنبلى، المصدر السابق، ص83؛ الطباخ الحلبى، المرجع السابق، ج2، ص212؛ عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ج2، ص339؛ خليل بدوى، المرجع السابق، ص162؛ الزركلى، المرجع السابق، ج3، ص216؛ خير الدين الأسدى، موسوعة حلب المقارنة، تحقيق الأديب محمد كمال، ط. حلب 2009م، ص224.
- (44) ابن العديم، المصدر السابق، ص450-451؛ ابن أيبك الدودارى، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب؛ تحقيق سعيد عاشور، ط. القاهرة 1972م، ص176-178؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ج3، ص207-208؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، ج46، ص473؛ الصفدى، المصدر السابق، ج16، ص328؛ ابن الفرات، تاريخ بن الفرات، تحقيق حسن الشماع، ج1، ط. القاهرة 1970م، ص119-126؛ المقرئى، المصدر السابق، ج1، ص293-295؛ الحنبلى، شفاء القلوب، ص283؛ سبط بن العجمى،

المصدر السابق، ج1، 327؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج3، ص212-214؛
النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ج1، ط. بيروت 1990م،
ص259؛ الطباخ الحلبي، المرجع السابق، ج2، 212؛ يوسف الدبس، المرجع السابق،
ج6، ص229.

(45) عن وفاة الملك الظاهر أنظر: -

ابن الأثير، الكامل، ج10، ط. بيروت 2004 م، ص369؛ أبو شامة، الذيل على
الروضتين، ج5، ص145؛ ابن العديم، المصدر السابق، ص454؛ ابن خلكان، وفيات
الأعيان، تحقيق إحسان عباس، ج4، ط. بيروت 1971م، ص6؛ ابن العبري، تاريخ مختصر
الدول، ط. بيروت 1983م، ص403؛ أبو الفداء، التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تحقيق
محمد زينهم محمد عرب، ط. القاهرة 1995م، ص73؛ ابن الكثير، البداية والنهاية، تحقيق
عبد الله بن التركي، ج17، ط. القاهرة 1998م، ص52؛ الذهبي، العبر فيمن غير، ج3،
ط. بيروت 1985م، ص16؛ ابن الفرات، المصدر السابق، ج1، ص201-204؛
المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص305؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج3، ص241؛
ابن سباط، المصدر السابق، ج1، صص256؛ يوسف الدبس، المرجع السابق، ج6،
ص203.

(46) عن الملك العزيز أنظر: -

سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ج8، ص703؛ ابن العميد، المصدر السابق، ص8،
ص21؛ ابن العديم، المصدر السابق، ص485؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج4،
ص9-10؛ ابن العبري، المصدر السابق، ص473؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ج3،
ص194؛ ابن القوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النفعية، ب. ط. ب. ت، ص41؛
النويري، المصدر السابق، ج29، ص217؛ ابن الكثير، المصدر السابق، ج17، ص229؛
الذهبي، دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروة ومحمود أرناؤوط، ج2، ط. بيروت
1999م، ص145؛ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، ج46، ص216؛ الياغعي اليمنى،

المصدر السابق، ج4، ص68؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج5، ص405؛ ابن دقماق، زهرة الأنعام في تاريخ الإسلام، تحقيق سمير طياره، ط. بيروت 1999م، ص85-86؛ المقرئ، المصدر السابق، ج1، ص377؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ج16، ط. بيروت 1992م، ص634؛ الحنبلى، شفاء القلوب، ص309؛ ابن سباط، المصدر لاسابق، ج1، ص309؛ يوسف الدبس، المرجع السابق، ج6، ص222؛ محمد كرد على، المرجع السابق، ج2، ص291.
(47) عن الملك الناصر أنظر :-

فادى عبد الرحيم عودة، الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز (634-658 هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس 2010م.

(48) عن وفاة ضيفة خاتون أنظر :-

ابن العميد، المصدر السابق، ص32؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ج3، ص207-208؛ الدودارى، الدر المطلوب، ص351؛ النويرى، المصدر السابق، ج29، ص301؛ الذهبى، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، ج46، ص473؛ ابن الوردى، المصدر السابق، ج2، ص172؛ الصفدى، المصدر السابق، ج16، ص328؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج5، ص413؛ ابن الشحنة، المصدر السابق، ص252؛ الحنبلى، شفاء القلوب، ص283؛ سبط بن العجمى، المصدر السابق، ج1، ص327؛ الطباخ الحلبي، المرجع السابق، ج2، ص212؛ يوسف الدبس، المرجع السابق، ج6، ص6؛ عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ج2، ص340؛ خليل بدوى، المرجع السابق، ص162؛ الزركلى، المرجع السابق، ج3، ص216؛ خير الدين الأسدى، موسوعة حلب المقارنة، ص224.

(49) سبط بن الجوزى، المصدر السابق، ج8، ص699-700؛ الدودارى، المصدر السابق، ص217-218؛ النويرى، المصدر السابق، ج29، ص116-117؛ الياغى اليمنى، المصدر السابق، ج4، ص69-70؛ المقرئ، المصدر السابق، ج1، ص377-

- 378؛ الحنبلى، شفاء القلوب، ص271-272؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص122، 121، 100، 77، 144؛ يوسف الدبس، المرجع السابق، ج6، ص222؛ عادل عبد الحافظ حمزة، نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (1250-1715م/623-648 هـ)، ج1، ط. القاهرة 2000م، ص53-54.
- (50) رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ت. السيد الباز العرينى، ج3، ط. بيروت 1997م، ص398.
- (51) ابن العديم، المصدر السابق، ص489؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص120-122؛ منى سعد الشاعر، المرجع السابق، ص174؛ فادى عبد الرحيم، المرجع السابق، ص11.
- (52) ابن العديم، المصدر السابق، ص489؛ ابن الواصل، المصدر السابق، ج5، ص128-130؛ منى سعد الشاعر، المرجع السابق، ص175؛ فادى عبد الرحيم، المرجع السابق، ص12.
- (53) ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص147؛ سعيد عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص1115-1116؛ منى سعد الشاعر، المرجع السابق، ص175.
- (54) ابن العديم، المصدر السابق، ص498؛ الغزى، المرجع السابق، ج3، ص116؛ منى سعد الشاعر، المرجع السابق، ص178-179؛ فادى عبد الرحيم، المرجع السابق، ص15.
- (55) منى سعد الشاعر، المرجع السابق، ص178.
- (56) ابن العديم، المصدر السابق، ص494؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ج3، ص198؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص183؛ الطباخ الحلبي، المرجع السابق، ج2، ص209؛ منى سعد الشاعر، المرجع السابق، ص178.
- (57) ابن العديم، المصدر السابق، ص496-497؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص186.

- (58) ابن العديم، المصدر السابق، ص500؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص268.
- (59) منى سعد الشاعر، المرجع السابق، ص180.
- (60) ابن العديم، المصدر السابق، ص500؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص268-269.
- (61) ابن العديم، المصدر السابق، ص490؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص130؛ فادى عبد الرحيم، المرجع السابق، ص12.
- (62) ابن العديم، المصدر السابق، ص490-491؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص132-133.
- (63) ابن العديم، المصدر السابق، ص500؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ج3، ص203؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص79؛ الطباخ الحلبي، المرجع السابق، ج2، ص209-210؛ الغزى، المرجع السابق، ج3، ص203؛ فادى عبد الرحيم، المرجع السابق، ص15.
- (64) ابن العديم، المصدر السابق، ص505؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص288.
- (65) ابن العديم، المصدر السابق، ص503؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص283-284؛ فادى عبد الرحيم، المرجع السابق، ص13.
- (66) ابن العديم، المصدر السابق، ص504-505؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص288؛ فادى عبد الرحيم، المرجع السابق، ص13؛ محمد مؤنس عوض، صلاح الدين بين التاريخ والأسطورة، ط. القاهرة 2008م، ص283.
- (67) ابن العديم، المصدر السابق، ص505.
- (68) ابن العميد، المصدر السابق، ص32؛ ابن العديم، المصدر السابق، ص511-512؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص311؛ فادى عبد الرحيم، المرجع السابق، ص13.
- (69) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، ج46، ص473؛ الصفدى، المصدر السابق، ج16، ص328؛ سبط بن العجمى، المصدر السابق، ج1، ص328؛ ابن

واصل، المصدر السابق، ج5، ص313.

(70) ابن شداد، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق زكريا عبادة، ج1، ط.دمشق 1991م، ص261؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ حلب، ط.دمشق 1984م، ص113؛ سبط بن العجمي، المصدر السابق، ج1، ص322؛ الطباخ الحلبي، المرجع السابق، ج2، ص213-217؛ الطباخ الحلبي، المرجع السابق، ج2، ص289-291؛ أبو فرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ط.دمشق 1960م، ص70؛ عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ج2، ص339؛ محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص106؛ عفيف بهنسي، الشام والحضارة دراسة تاريخية، ط.دمشق 1986م، ص158؛ خير الدين الأسدي، أحياء حلب وأسواقها، ص298-300؛ خير الدين الأسدي، موسوعة حلب المقارنة، ص224.

(71) خانقاه كلمة فارسية معناها بيت وجعلت في بادئ الأمر لإنقطاع الصوفية فيه للعبادة والذكر ويمكن القول بأن الخانقاه في عصر سلاطين المماليك أصبحت مسجد وبيت للصوفية وقد تكون مسجد ومدرسة ومساكن للطلبة كذلك أطلق لفظ خانقاه على المكان الذي يجتمع فيه الصوفية لممارسة وظيفه التصوف أنظر: محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، ط.القاهرة 1990م، ص39.

(72) ابن شداد، المصدر السابق، ج1، ص237؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص108؛ الطباخ الحلبي، المرجع السابق، ج2، ص212؛ الغزي، المرجع السابق، ج2، ص8؛ عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ج2، ص339؛ أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ط.القاهرة 1977م، ص152؛ محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص143؛ عفيف بهنسي، المرجع السابق، ص158؛ خير الدين الأسدي، أحياء حلب وأسواقها، ص94، 291، 292، 402.

(73) محمد مؤنس عوض، صلاح الدين بين التاريخ والأسطورة، ص283.

(74) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، ج46، ص473؛ الصفدي، المصدر السابق، ج16، ص328؛ سبط بن العجمي، المصدر السابق، ج1، ص328.

أثر المؤرخين المسلمين في تطور الكتابة
التاريخية في الشرق اللاتيني
وليم الصوري أنموذجاً

د/ فؤاد عبد الرحيم الدويكات
جامعة طيبة - المدينة المنورة

أثر المؤرخين المسلمين في تطور الكتابة التاريخية في الشرق اللاتيني وليم الصوري أنموذجاً

شغل تاريخ الحروب الصليبية حيزاً كبيراً من اهتمام الباحثين والمؤرخين، وقد كتب كثيرون عن أثر الفكر العربي الإسلامي في نهضة أوروبا في ميادين الفلسفة، والعلوم الرياضية، والطب، والفلك، والجغرافيا. لكن أحداً لم يتناول بالبحث والدراسة هذا الأثر في علم التاريخ وهنا تكمن الصعوبة الأولى.

أما الصعوبة الثانية فتتمثل في تناثر الإشارات في بطون المصادر، وهي وافرة العدد ما بين عربية وأوروبية، وإذا وضعنا في الحسبان صعوبة المجال الذي نخوض فيه لكوننا حددنا إطاراً ضيقاً لموضوع البحث مقصوراً على علم التاريخ دون غيره، أدركنا ضرورة الاعتماد على عدد كبير من المصادر لاستشارتها في هذا الموضوع.

في ضوء ما سبق تأتي هذه الدراسة لتعالج فكرة محددة وهي أثر المؤرخين المسلمين في تطور الكتابة التاريخية في الشرق اللاتيني، وستعنى هذه الدراسة بالمؤرخ الصليبي وليم الصوري بهدف إبراز مظهر تأثره بالثقافة العربية الإسلامية من زاوية موضوع التاريخ، باعتباره أنموذجاً للمؤرخين الأوروبيين المهجنين الذين ترعرعوا في البيئة الشامية، فأتقن اللغة العربية مما مكّنه من وضع كتابه (تاريخ أمراء الشرق) اعتماداً على كتاب المؤرخ العربي سعيد بن البطريق، وحين وضع كتابه (تاريخ) الأعمال المنجزة فيما وراء البحار اعتمد أيضاً على العديد من المصادر الإسلامية، وعليه فإننا نلمس أثر الثقافة الإسلامية في تكوين هذا الرجل وفي كتابه، فقد استفاد وليم الصوري من الأسلوب والمنهجية الإسلامية في تدوين تاريخه.

البيئة الفكرية في بلاد الشام قبيل الحروب الصليبية:

حققت الحضارة العربية الإسلامية إنجازاً معرفياً هائلاً سواء من حيث التراكم المعرفي الذي

كان بمثابة طفرة معرفية في تاريخ العلم، أو من حيث نقل العلم من المرحلة الوصفية التي وقف عندها اليونان إلى المرحلة التجريبية والتطبيقية. وكان طبيعياً أن تمتد تأثيرات هذا كله إلى الحضارة الأوروبية التي كانت تحاول أن تنفض عن نفسها غبار التخلف في العصور الوسطى (1).

وليس بمقدور احد أن ينكر أن علم التاريخ من ميادين المعرفة التي اهتم بها العرب إذ انه لم يكن دخيلاً على الفكر الإسلامي، ولم يقتبسه المسلمون من غيرهم، بل إن مناهج البحث التاريخي التي عرفتها أوروبا إنما اعتمدت بالدرجة الأولى على جهود علماء المسلمين في هذا المجال. فالمسلمون أول من منهج التاريخ كعلم، ووجهه نحو الشمول (2).

تأسس على ما سبق، شهد العالم الإسلامي نهضة علمية كبيرة في القرن التاسع الميلادي وبرزت مراكز ثقافية عديدة متنافسة على امتداد الساحة الإسلامية، وازدهر النشاط العلمي والفكري في بلاد الشام، وكان علم التاريخ واحداً من ميادين المنافسة، وكانت حصيلة ذلك ظهور التواريخ المحلية، التي تتحدث عن تواريخ البلدان، ثم ظهرت تواريخ المدن التي ذاعت وانتشرت على الساحة العربية الإسلامية، وترجع الأصول الأولى للمدرسة التاريخية الشامية إلى العصر الأموي، وإذا كان العصر العباسي وانتقال مركز الدولة من الشام إلى العراق قد سلب هذه المدرسة الكثير من الديناميكية إلا أن هذا لم يلغ هذه المدرسة (3) فمنذ أواخر القرن الثامن الميلادي وخلال القرن التاسع الميلادي اتجهت مدرسة الشام اتجاهين :

الأول: رواية التاريخ الأموي ومناقب الأمويين.

والثاني: رواية المغازي، ثم ظهرت مدرسة الشام الإقليمية على أيدي مؤرخين اهتموا بأخبار العلماء المحليين ومحدثي المدن الشامية وبإخبار هذه المدن (4)

وفي الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي وعلى امتداد القرن السادس الهجري، وعلى كثرة ما شهدته هذه الحقبة من فتن داخلية وحروب مع الصليبيين، إلا انه قد ظهر في بلاد الشام علماء أجلاء خدموا العلم في فنون مختلفة، وبرزت في هذه المرحلة مراكز ثقافية

عديدة متنافسة في المدن الكبرى كدمشق وحلب(5)، ونشطت حركة التأليف في معظم جوانب الحياة الثقافية، ولعل من أبرز المؤرخين وكتاب التراجم والسير في هذه الحقبة، وعلى سبيل المثال لا الحصر محمد بن طاهر المقدسي صاحب كتاب البدء والتاريخ، والحافظ ابن عساكر محدث الشام ومؤرخها، وابن القلانسي وغيرهم الكثير .

ويقيناً فإن الغزو الصليبي لبلاد الشام أواخر القرن الحادي عشر الميلادي نجم عنه اضطراب الحركة العلمية وتراجعها ألا أنه لم يستطع أن يطفئ جذوتها(6). ولم تلبث الأمور أن تغيرت إذ نتج عن احتلال أجزاء واسعة من بلاد الشام أن صارت تلك المنطقة محط اهتمام الرأي العام الإسلامي، ثم ما لبثت أن قامت بها الدولة الزنكية التي جابحت الغزو الصليبي، وهنا يسجل لنور الدين زنكي (1146-1174م) عنايته واهتمامه بالحياة العلمية والعلماء، واستقدامهم من أقصى البلاد، وإسكانهم بالشام، فوفد عليه العلماء يدرسون ويجاهدون، فأحدث ذلك نهضة كبيرة في مختلف فروع العلم والمعرفة وافرز ذلك كثيراً من العلماء والمؤرخين في ظل هذه البيئة الفكرية، وحدث الاحتكاك بين الشرق والغرب من خلال الحروب الصليبية وانبثقت جملة من المؤلفات عن هذه الحروب، إذ اهتم المراقبون للحملة من رجال الدين بتدوين كل ما شاهدوه، ولعبت الحروب الصليبية دوراً مؤثراً في تطور الكتابة التاريخية في أوروبا العصور الوسطى، وانقسم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى قسمين :

أولهما وضم ثلاثة مؤرخين كانوا شهود عيان وهم: ريموند أجيل(7) والمؤرخ المجهول(8) ثم فوشيه الشارترى(9)

وثانيهما ممن لم يشاهدوا وقائع الحملة الأولى، وإنما استقوا معلوماتهم من مصادر أصلية معاصرة مثل: جبرت دي نوجنت Gebert de Nogent (10) وبالدرينك أوف دول (11) Baldric of Dol وألبرت دكس Albert d Aix. (12).

ورغم تعدد أنماط الكتابة التاريخية الأوروبية عن الحملة الأولى، إلا أن هناك العديد

من الخصائص المشتركة بين تلك المصادر، إذ اتسمت هذه المصادر، وبدرجات متفاوتة، بالتعصب الديني، والجهل بكل ما يتعلق بالمسلمين والدين الإسلامي، وسيطرة الطابع الأسطوري على الكثير من الروايات، أما من حيث السمات التي ميزت الكتابة عن تاريخ الحروب الصليبية فنذكر منها: المبالغة في ذكر أعداد القتلى من الجانبين، والإيمان بالخوارق الطبيعية، وتضخيم انتصارات الفرنجة خلال تاريخ تلك الحقبة (13).

على أن الأمور ما لبثت أن تغيرت فقد كان لاتصال الأوروبيين بالمسلمين في بلاد الشام أثره البالغ في تطوير الفكر الأوروبي، وأخذ الأوروبيون يهتمون بالثقافة العربية الإسلامية منذ وطأت أقدامهم بلاد الشام، فتأثرت تبعاً لذلك جوانب حياتهم المختلفة بتأثيرات عربية إسلامية، ومن الطبيعي أن نأخذ بشهادة مؤرخهم فوشيه الشارترى التي سجلها بعد عشرين عاماً من الاستقرار بين المسلمين في الشام بقوله: "نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين ... ونسينا بالفعل أماكن ولادتنا" (14) وهذه الفقرة التي أوردها فوشيه الشارترى في كتابه تدل على مدى تأثير الحضارة والفكر الإسلامي على الصليبيين الذين استقروا في بلاد الشام، ولن يكون من السهل تلمس طبيعة ومدى هذا التأثير إلا من خلال المزيد من الدراسات المتأنية والمتعمقة بهدف إبراز تأثير الأوروبيين بالثقافة العربية الإسلامية في مجال التاريخ، صفوة القول حدث تبادل ثقافي بين العرب والأوروبيين على أرض الشام أثناء الحروب الصليبية، وكان من أبرز عوامل التفاعل الثقافي بين الجانبين إقبال الصليبيين على تعلم اللغة العربية ودراستها وإطلاع مفكريهم على تاريخ المسلمين، مما نجم عنه نمو المعلومات والمعارف التاريخية لديهم، وانفرد المؤرخ المسلم ابن شداد بتسجيل رواية فريدة تكشف عن دور المعلمين المسلمين في تعليم الصليبيين اللغة العربية والتاريخ، ففي معرض حديثه عن رينو سيد صيدا Reynaud Garnier ذكر بأنه "كان من كبار الفرنجة وعقلائها، وكان يعرف العربية وعنده إطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث، وبلغني انه كان عنده مسلمٌ يقرأ له ويفهمه وكان عنده تأنٌ ... وكان يناظرنا في دينه وناظره في بطلانه، وكان حسن المحاوره متأدباً في كلامه" (15).

هذه الرواية تكشف عن حقيقة في غاية الأهمية وهي أن المعارف التاريخية الإسلامية أخذت تتسرب إلى الصليبيين ونحن هنا أمام معلمين في التاريخ مجهولين قاموا بدور خاص في تعليم هؤلاء هذه المعارف.

وكان ممن أتقن اللغة العربية همفري سيد تورون، وبلدوين دي ابلين، فقد كان همفري ترجمان ريتشارد قلب الأسد إلى العادل شقيق صلاح الدين في المفاوضات التي دارت بينهما عام 1192م (16) كما أتقن رينو دي شاتيون اللغة العربية والتركية كتابة ومحادثة (17)، أما المؤرخ وليم الصوري فقد كان على درجة من الدارية باللغة العربية مكنته من وضع كتابة "تاريخ أمراء الشرق" *Historia Orientalium principum* اعتماداً على كتاب المؤرخ العربي سعيد بن البطريق (18) وحين تحدث عن الدولة الفاطمية نراه يميلنا إلى بعض المصادر الإسلامية التي اعتمد عليها في وضع هذا الكتاب (19) كذلك فان الاطلاع على كتاب المؤرخ وليم الطرابلسي "أحوال المسلمين *Tractatus de Statu*

Saracenorum تشير إلى انه كان يتقن اللغة العربية (20) أن تعلم الكثيرين من الفرنج اللغة العربية ويبرز مدى تأثيرهم بالثقافة العربية الإسلامية، وتأثير ذلك في نقل جوانب من الحضارة الإسلامية إلى غرب أوروبا (21) فقد كانت بلاد الشام خلال العصر الصليبي من المعابر التي مرت منها تيارات الفكر العربي الإسلامي إلى أوروبا، فعن طريقها اتخذ هذا الفكر طريقه إلى الغرب المسيحي، وكان من نتائج ذلك أن تطعم الفكر الأوروبي بلقاحات خصبة أسهمت في تطويره، وتعميق الاهتمام لديه بالعلم والثقافة. والمرجح أن استقرار الكثير من الأوروبيين في الإمارات الصليبية في الشام لفترة طويلة من الوقت مكنتهم من الاطلاع على العلوم والمعارف الإسلامية عن قرب، كما مكنتهم من اقتباس هذه المعارف والاطلاع على المناهج التي صيغت بها هذه المعارف والتي وجدوا أنها أكثر تقدماً مما ألفوه في أوطانهم الأوروبية، وقد تعلموها بحكم إقامتهم وسط البيئة العربية الإسلامية.

المؤرخ وليم الصوري وتأثره بالثقافة الإسلامية:

يمكن أن نلمس أثر الثقافة العربية الإسلامية في أعمال المؤرخ الصليبي وليم

الصوري(22). والمؤرخ وليم الصوري هو المؤرخ الوحيد الذي ولد في فلسطين عام 1130م، بعد أن صارت مملكة صليبية فهو من أبناء المستوطنين الأوروبيين بعد الغزو الصليبي، ولم نظفر بأية معلومات عن حياته المبكرة في فلسطين إلا من بعض الشواهد الدالة على أنه نشأ وترعرع في فلسطين، والمرجح انه استقر في مدينة بيت المقدس(23). وأتيحت له الفرصة لتلقي تعليمه في تلك المدينة التي ضمت العديد استقر في مدينة بيت المقدس(24). وأتيحت له الفرصة لتلقي تعليمه في تلك المدينة التي ضمت العديد من الكنائس والأديرة، ولما كانت اللغات المستخدمة في المملكة متنوعة تنوعاً يعكس تنوع العناصر التي شاركت في الغزو الصليبي، فقد أتاحت هذه البيئة الفرصة لوليم الصوري لكي يتقن عدداً من اللغات: فأتقن الفرنسية لغة البلاط الصليبي(25) واللغة اللاتينية التي دون بها تاريخه(26) كما أتقن العربية رغم تعمده عدم أظهار ذلك(27) ويظهر من ثنايا كتابه انه ألم باللغة اليونانية بحكم صلاته بالإمبراطورية البيزنطية(28) كما ألم بلغات أخرى منها الفارسية(29).

وفي الفترة ما بين 1145 - 1165م سافر وليم الصوري إلى أوروبا لمتابعة دراسته في مجال الآداب والقانون(30). وبعد عودته إلى المملكة اخذ بممارسة مهامه كرجل كنيسة. بدأ وليم الصوري مرحلة جديدة أخذت أسهمه فيها بالارتفاع إثر ارتباطه بخدمة عموري الأول (1163-1147م) ملك بيت المقدس ففي عام 1168م كان وليم الصوري ممن زاروا القسطنطينية للتصديق على المعاهدة الدفاعية التي تم إبرامها بين المملكة الصليبية والإمبراطورية البيزنطية ضد مصر، وهي المعاهدة التي ذكر بأنها كانت باقتراح ورغبه منه(31)

وللنجاح الذي أحرزه وليم الصوري في المهام الموكلة إليه ازدادت ثقة عموري الأول به فكلفه عام 1170م بتربية وتعليم ابنه وولي عهده بلدوين الرابع الذي كان في التاسعة من عمره(7)، وفي 11 تموز 1174م توفي عموري الأول ملك بيت المقدس(32)، وخلفه على عرش المملكة ولده بلدوين الرابع، تلميذ وليم الصوري، والذي قام بتعيين أستاذه مستشاراً للمملكة(33) وتبع ذلك تنصيبه رئيساً لأساقفة صور في 8 حزيران 1175م/ (34).

وأثر وفاة عموري بطريك بيت المقدس في السادس من تشرين الأول 1180م انتخب هرقل رئيس أساقفة قيسارية ليحل محله (35) فأصيب وليم الصوري بخيبة أمل للحصول على منصب البطريك، وفي أخريات حياته شاهد وليم الصوري نتائج جهود صلاح الدين في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية ولا يُعرف على وجه التحديد ظروف وفاة المؤرخ وليم الصوري أو تاريخها بدقة، إذ توقف عن الكتابة أوائل عام 1184م، وأخر ما يشار إليه سفره إلى روما عام 1183م، وأثناء إقامته هناك توفي وأتهم المؤرخ المجهول البطريك هرقل بأنه أرسل من دس له السم وقتله (36).

ويرجع الفضل في إرساء أسس وقواعد الكتابة التاريخية عن الحروب الصليبية في الشرق اللاتيني إلى الملك عموري الأول ملك بيت المقدس فقد أورد وليم الصوري في كتابه ما نصه: "إذا أراد احد أن يعرف المزيد عن هذه الأمور فليقرأ التاريخ الذي راعينا الدقة الكبيرة في كتابته وجمعنا مادته من المصادر العربية بإشارة من الملك عموري الأول وبأمر منه" (37).

وأهمية هذا الخبر ليس في اهتمام عموري بكتابة التاريخ السياسي للاستيطان الصليبي في المنطقة فقط، ولكن في تقرير حقيقة أهم من ذلك هي وجود مصادر عربية متنوعة في حوزتهم، كما أننا أمام دور خاص لعموري الأول كان فيه الراعي والعامل على أول تدوين أوروبي لتاريخ الاستيطان الصليبي في بلاد الشام يكون الاعتماد فيه على المصادر العربية.

صفوة القول أن كتاب وليم الصوري "الأعمال المنجزة فيما وراء البحار" صنف بأمر من عموري الأول ملك بيت المقدس ويعد هذا الكتاب أول عمل شامل ومنظم لتاريخ الاستيطان الصليبي في الشرق الإسلامي، ومر تدوينه بعدة مراحل: استسهلها وليم الصوري بتدوين تاريخ سماه "أعمال الملك عموري" (*Gesta Amalrici Regis*) وذلك في عام 1167م، ثم بدا لعموري انه من الضروري وضع كتاب آخر عن تاريخ المملكة في عهدها السابق بدءاً من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، فقام وليم الصوري بتصنيف كتاب آخر سماه "تاريخ أعمال مملكة بيت المقدس" (38) *Gesta*

Hiersolymitanorum regum جاعلاً نقطة الابتداء رحلة بطرس الناسك لزيارة الأماكن المسيحية في فلسطين ثم عودته إلى أوروبا حائماً أمراءها وشعوبها والبابا على إرسال الحملات إلى فلسطين(39). وفي عام 1182م كان كتابه "أعمال مملكة بيت المقدس" قد أوشك على الانتهاء ليكون بداية الكتاب "أعمال الملك عموري" وحينئذ قرر وليم الصوري دمج الكتابين ليكونا واحداً في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية، وشرع في تنفيذ ذلك فكان هذا الكتاب الجديد الذي عرف فيما بعد باسم "تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار"، وإذ أدرك ضرورة إضافة بعض المعلومات إليه فقد تخير له بعض الأجزاء من كتابه "أعمال أمراء المشرق" ثم أضاف مقدمة لهذا الكتاب والمرجح أنها أحر ما أضافه وليم الصوري إلى كتابه(40).

قسم وليم الصوري كتابه هذا إلى ثلاثة وعشرين كتاباً، تكاد تكون متساوية في الطول إلا الأخير منها، كما يظهر انه خص كل ملك بكتابين ولم يستثن من ذلك سوى غودفري البويوني الذي أورد له كتاباً واحداً لقصر فترة حكمه التي لم تتجاوز سنة واحدة، كما خص بلدوين الرابع بثلاثة كتب.

وكتاب وليم الصوري يختلف عن بقية كتب مؤرخي الحملة الصليبية الأولى بحكم إقامته وسط البيئة العربية الإسلامية، فقد استفاد بحكم البيئة التي نشأ بها من التجربة الحضارية الإسلامية في وضع كتابه، ويمكن من خلال دراسة كتابه وتحليل محتواه الوقوف على شواهد كثيرة تشير لتأثره بالثقافة الإسلامية وبالمصادر الإسلامية سواء في المنهج أو الأسلوب مصادر تاريخ وليم الصوري:

فيما يتصل بالمصادر، اعتمد وليم الصوري على المصادر المختلفة التي تتنوع وتختلف بحسب الفترات التاريخية التي أرخها في تصنيفه، وبمقارنة كتاب وليم الصوري بالمصادر الأوروبية السابقة التي أرخت للحملة الصليبية الأولى نرى أن وليم الصوري قد خرج عن نمط ومنهج غالبية مؤرخي العصور الوسطى في طريقة الاعتماد على المصادر، ومرد ذلك المصادر العربية الإسلامية التي إطلع عليها وسار على منوالها، فهو لم يكتف بالاعتماد

على مصدر واحد، بل كان يرجع عادة في معالجة الحدث الواحد إلى عدة مصادر، فنراه يعتمد على الروايات الشفوية كقوله: "يجمع الذين لا زالوا يعون في ذاكرتهم هذا الحادث (41)، كما استخدم وثائق المملكة وأورد في تاريخه العديد منها (42) كما استعان في تدوين تاريخه بشهود العيان" عرفت هذه التفاصيل من شيوخ معينين أكدوا أنهم كانوا شهود عيان لهذه الأحداث (43) ناهيك عن المصادر المختلفة ومنها المصادر العربية الإسلامية التي اعتمد عليها في كتابة تاريخه، ورغم تعمده عدم الكشف عن ذلك إلا انه لم يستطع أن ينكر قيام الملك عموري بتزويده بالعديد من تلك المصادر، ومما يؤكد استخدامه للمصادر العربية الإسلامية استخدامه للتقويم الهجري في العديد من الروايات التاريخية التي جاء على ذكرها (44) وعليه فقد أفاد وليم الصوري من المدرسة الإسلامية في تدوين تاريخه والتي تقوم على اعتماد العديد من المصادر لتدوين الحدث التاريخي.

الجوانب الفنية في كتاب وليم الصوري:

الأسلوب:

أما بخصوص الجانب الفني من الكتابة التاريخية، فأسلوب وليم الصوري كان سلساً ويعتمد إلى الاسترسال والقص، وسرد الحوادث ووصف الوقائع، وتدوين أخبار الحروب في عبارات بسيطة، وقدرة على التعبير في غير عسر، وجاءت لغته صافية على نحو كبير، كما أن حجم مفرداته واسع (45) وتميز أسلوبه بالدقة في مراعاة النحو (46) ولجأ وليم الصوري إلى عرض أخباره بأسلوب أدبي رفيع عكس من خلاله صورة حية للأحداث وقد صرح في مقدمة كتابه بأهمية الأسلوب في تقديم الحقائق التاريخية (47).

وهو في هذا الجانب الفني من الكتابة متأثراً بالمصادر الإسلامية، إذ بمقارنته بما سار عليه ابن القلانسي في كتابه " ذيل تاريخ دمشق " نلاحظ تأثره به فقد استخدم ابن القلانسي الأسلوب المسترسل الفصيح، (48) كذلك امتاز بالقدرة على التلخيص والبعد عن الإطناب في المواضيع التي لم ير فيها كبير شأن، وكان يلجأ إلى اختيار الأسلوب النثري السهل والمرسل. (49) وهنا يبدو التشابه في هذا المجال بين المؤرخ وليم الصوري وبين

المصادر الإسلامية التي استفاد منها في تدوين تاريخه.

كذلك فإن وليم الصوري لم يكتف بسرد الحوادث ووصف الوقائع بل حاول أن يكتشف مقدماتها ويبرز نتائجها (50) وهي ذات المنهجية التي سارت عليها المصادر الإسلامية والتي نجدها واضحة عند ابن القلانسي وغيره والتي لم تكتف بسرد الوقائع بل حاولت أن تكتشف مقدماتها وتبرز نتائجها (51).

أما من حيث منهجه في الكتابة التاريخية فإننا نسجل الملاحظات الآتية:

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة بين فيها دوافعه لتأليف كتابه، فأوضح وليم الصوري في مقدمته أن حبه الشديد لوطنه والاستجابة لرغبة مليكه كان سبب إقدامه على تصنيف كتابه وبمقارنه هذه المقدمة بمقدمات المصادر الإسلامية نلاحظ تشابه وتوافق كبير بينهما من حيث إبرازها للمنهج الذي سيسير عليه الكاتب، مما يشير إلى تأثره بالمنهجية الإسلامية في تخطيط كتابه، واستفادته من المصادر العربية التي اطلع عليها في وضع مقدمته، أما من حيث الدافع الوطني في التأليف فإن أول ذكر صريح لحب الوطن كدافع لكتابة التاريخ المحلي ورد في كتاب "محاسن اصبهان" للمافرخي في القرن الحادي عشر الميلادي في إيران، ثم أصبح منذ ذلك الحين دافعاً مستمراً للتواريخ المحلية (52).

واعتمد وليم الصوري في كتابه على مصادر متنوعة، وظهر موقفاً نقدياً تجاه مصادره ويشرح في عباراته التي يوردها في ثنايا كتابه المنهج الذي اتبعه في جمع معلوماته، "لا يظن أحد بنا الغفلة أو الجهل التام حين ندقق أكثر من أي شخص آخر للوقوف على حقيقة هذه الأمور فما غرضنا إلا تسجيل واقع هذا الخبر (53) .

وفي هذا المجال نجد استفادة وليم الصوري من المؤرخ ابن القلانسي الذي اظهر موقفاً نقدياً تجاه مصادره (54) وشرح في عباراته التي أوردها في ثنايا كتابه منهجه في جمع الروايات وتدوينها "انتهيت في شرح ما شرحته من هذا التاريخ ورتبته وتحفظت من الخطل والزلل فيما علقته من أفواه الثقات" (55) "أكدت الحال فيه بالاستقصاء إلى أن صححته (56) وعليه فقد تأثر وليم الصوري بالمنهجية الإسلامية من حيث تنوع المصادر

وإظهار الموقف النقدي تجاه تلك المصادر والحرص على البحث والاستقصاء في جمع الروايات وتدوينها، وهو ما لم نجد له مثيلاً في المصادر الأوروبية السابقة على وليم الصوري. بدت شخصية ابن القلانسي في الكتابة التاريخية واضحة، فهو يبدى رأيه في الحدث بصراحة في بعض الأحيان، وهنا يبدو تأثير وليم الصوري بهذه المنهجية واضحة على مدى صفحات كتابه (57) كذلك نجد النزعة العلمية واضحة في كتابات وليم الصوري فهو يمهّد للأحداث التاريخية التي ينوي عرضها بدراسة جغرافية (58) وهذه النزعة العلمية، موجودة لدى معظم المؤرخين المسلمين، وكان المسعودي أول مؤرخ مسلم استخدم هذه المنهجية للأحداث التاريخية التي ينوي عرضها بدراسات جغرافية (59) ورغم إتباع وليم الصوري المنهج النقدي في كتابه وفي تعامله مع مصادره إلا أن الروايات الأسطورية والخرافات والأعاجيب وقصص المعجزات تجد طريقها إليه مثل سائر معاصريه من المؤرخين الأوروبيين. لقد بذل وليم الصوري جهده ليضفي جانباً من المصدقية في كتابه، إلا أن الانحياز والتعصب كان واضحاً في كتابه، فقد كان المؤرخ الوحيد من بين مؤرخي الحملة الأولى الذي برر مذبح القدس باعتبار أن أهلها نالوا عقوبة إلهية عادلة على تلوّثهم للأماكن المسيحية المقدسة بمعتقداتهم وطقوسهم الوثنية فكان لا بد أن تسيل دماؤهم لكي تتطهر مقدسات المسيحيين (60) كما اظهر موقفاً متعصباً ضد الإسلام والمسلمين فالإسلام من وجهة نظره دين مزيف فضلاً عن الأوصاف التي تنم عن شدة كراهيته لني الإسلام عليه السلام (61)، كما يظهر عدم تحريه الصدق من قيامه باستعارة حوادث من التاريخ الإسلامي ولصقها دي بويون الذي حرص على أحاطته بحالة من القداسة وتصويره على انه فوق مستوى البشر (62). هذا بخصوص تشابه أسلوب ومنهج وليم الصوري بمنهجية وأسلوب المصادر الإسلامية.

أما من حيث التوافق والتشابه بين روايات وليم الصوري والروايات التاريخية التي وردت في المصادر الإسلامية فإننا نلاحظ التوافق الكبير بين رواياته وروايات ابن القلانسي، وسوف نشير إلى نماذج من تلك الروايات.

بداية فإنه يسترعي الانتباه التشابه الكبير بين المؤرخ الصليبي وليم الصوري والمؤرخ المسلم ابن القلانسي في أن كلاهما يستعمل عبارات تكاد أن تكون متماثلة في تكوينها وفي صياغتها إزاء موت الإنسان (63) مما يشير إلى مدى تأثير وليم الصوري بابن القلانسي، فنرى ابن القلانسي يردد عبارات "عاجله القضاء الذي لا يدافع والمحتوم الذي لا يمانع" قضى نجه إلى رحمة ربه، مضى لسبيله شهيداً إلى رحمة الله وذلك للقضاء النازل الذي لا يدافع والقدر الذي لا يمانع (64) ويردد وليم الصوري عبارات مماثلة تتردد في ثنايا كتابه، كان من بين الذين ساروا إذ ذاك إلى الطريق الذي لا بد لكل مخلوق أن يسير فيه، مشى في الطريق الذي يمشي فيه كل الخلائق قاطبةً، مضى في الطريق الذي لا بد أن يمضى فيه كل ابن أنثى (65).

وفي تاريخه للحملة الصليبية الأولى وفي معرض حديثه عن حصار الفرنجة لمدينة أنطاكية يورد وليم الصوري معلومات تكاد تكون مشابه لما يورده ابن القلانسي في تاريخه، فعلى سبيل المثال. فان روايته عن موقف ياغي سيان حاكم أنطاكية تجاه الحصار الصليبي لمدينته يتطابق مع رواية ابن القلانسي حول الحدث نفسه، كما تتطابق روايته مع رواية ابن القلانسي حول مؤامرة تسليم أنطاكية إذ ينسب تسليم المدينة إلى زراد ارمني (66) كما تتطابق روايته مع ابن القلانسي حول السبب الذي دفع فيروز لفعلة وهي الإساءة التي تقدمت منه في حقهم ومصادرتهم وفسر وليم تلك الإساءة بأنها كانت مشاهدة ابن فيروز لوالدته وهي في أحضان رجل تركي مما أسخطه فخطط فيروز هذه الفعلة (67) وتختلف رواية وليم الصوري عن ابن القلانسي في الخاتمة التي لقيها ياغي سيان، ففي الوقت الذي يذكر فيه ابن القلانسي أن ياغي سيان انهزم وخرج في خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص ولما حصل بالقرب من ارمناز سقط عن فرسه على الأرض فحمله بعض أصحابه واركبه فلم يثبت على ظهر حصانه وعاد وسقط فمات رحمه الله (68) يذكر وليم الصوري أن ياغي سيان هرب من بوابة خلفية وحده من غير رفيق، وانه كان يهيم على وجهه وإذ بطائفة من الأرمن يصادفونه فعرفوه في لحظتهم واقتربوا منه، ... فلما عرفوا أنه هارب وأدركوا أن المدينة

سقطت وثبوا عليه وطرحوه أرضاً في غلطة، وأخذوا سيفه وقطعوا به رأسه وحملوها إلى المدينة وقدموها هدية إلى القادة على مرأى من الناس جميعاً (69).

وفي أطار الحديث عن حصار الفرنجة لمدينة بيت المقدس، يورد وليم الصوري معلومات مشاهجة لما أورده ابن القلانسي حول الدور الذي لعبه أهل المدينة في الدفاع عن مدينتهم ضد الغزاة، فيذكر ابن القلانسي أن الغزاة نزلوا أولاً على الرملة فملوكها عند إدراك الغلة وانتقلوا إلى بيت المقدس فقاتلوا أهله وضيّقوا عليهم، أما وليم الصوري فأشار إلى بسالة الأهالي في الدفاع عن مدينتهم وتحصينها وأنهم صمموا على صد عدوهم حتى أحررهم منهم (70).

كذلك تتشابه رواية وليم الصوري مع رواية ابن القلانسي حول رحلة بلدوين الأول من الرها إلى القدس، وإن اختلفت من حيث النتيجة فابن القلانسي يشير إلى ظفرهم به وقتلهم بعض أصحابه، فيما يذكر وليم الصوري أنهم تمكنوا من الانتصار عليهم (71).

كذلك تتفق رواية وليم الصوري مع رواية ابن القلانسي بخصوص الاستيلاء على مدينة عكا في 1103م، وتختلف رواية وليم عن ابن القلانسي أن وليم جعل تاريخ الاستيلاء عليها في أيار 1104م وإنما استسلمت للملك وفق شروط التسليم التي نصت على السماح لمن يريد من الأهالي ترك المدينة بالخروج، ومن أراد البقاء سمح له بالبقاء لقاء مبلغاً معيناً يدفعه الملك كل سنة (72).

وتتطابق رواية وليم الصوري مع رواية ابن القلانسي حول معركة ساحة الدم التي حدثت عام 1119م بين الأمير نجم الدين ايلغازي وطغتكين من جهة وبين روجر أمير أنطاكية من جهة أخرى وهزيمة الفرنج هزيمة نكراء ومصراع روجر (73) كذلك تطابقت رواية وليم الصوري مع رواية ابن القلانسي بشأن استيلاء الصليبيين على مدينة صور عام 1124م فقد تم محاصرة المدينة ومضايقتها بالقتال والحصار إلى أن لاقت من وطأة المجاعة الطاحنة ما لا طاقة لأحد به، مما حمل أهلها على التفكير في تسليم المدينة للعدو، وفي النهاية تم الاتفاق على تسليم المدينة وفق شروط سمحت لمن يشاء من أهلها بالمغادرة دون

إكراه، وان يكونوا سالمين في أنفسهم ونسائهم وأبنائهم، ومن آثر البقاء فله ذلك وتعود إليهم دورهم وممتلكاتهم(74).

كذلك اتفقت رواية وليم الصوري وابن القلانسي حول قيام بلدوين الثالث عام 1156م بمهاجمة ناحية الشعراء المجاورة لبانياس، "غدر الكفرة الإفرنج ونقضوا ما كان استقر من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدة وافرة من الإفرنج في البحر وقوة شوكتهم بهم إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس..." وقد اجتمع فيها من فلاحي الضياع والعرب الفلاحين الشيء الكثير للحاجة إلى الرعي بها والسكون إلى الهدنة المستقرة فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهله مع ما أسروه..." ولقي هذا العمل المشين شجب واستنكار ابن القلانسي ووليم الصوري، "عادوا ظافرين غانمين أئمن بالله تعالى في حكمه يتولى المكافأة لهم والإدالة منهم وما ذلك عليه بعزيز، وحين أوقع نور الدين بالملك بلدوين الثالث وانتصر عليه نصراً مؤزرراً رأى كلا من وليم الصوري وابن القلانسي أن ذلك كان جزاء نقضه لعهده" كان ذلك من الله مكافأة على ما كان من بغى المشركين وإقدامهم على نكت أيمان المهادنة مع نور الدين ونقض عهود الموادعة. وإغارتهم على ناحية الشعراء لسكونهم إلى الأمن والمهادنة والاعتزاز بتأكيد الموادعة. وعلق وليم بقوله: "لقد جازانا الرب على أفعالنا الشريفة، فقد سخرنا بسنن الإنسانية وضللنا السبيل السوي فظلمنا البريء ومن وثقوا في صدق أيماننا فضوعف لنا الجزاء وكان جزاء خطايانا أن عاقب الرب زعماءنا وجعلنا سخرية للعدو(75).

كذلك تطابقت رواية وليم الصوري وابن القلانسي حول مرض نور الدين زنكي عام 1157م فذكر ابن القلانسي أنه تواصلت عقيب هذه الحال الأراجيف بالملك نور الدين فقلقت النفوس وانزعجت القلوب فتنفرت جموع المسلمين واضطربت الأعمال وطمع الإفرنج فقصدوا مدينة شيزر. أما وليم الصوري فذكر أنه مرض مرضاً لا يرجى له شفاء، وان معسكر نور الدين اضطرب اضطراباً كبيراً وكان من الواضح أن عبيده بل واقرب الناس إليه قد تخلوا عنه، وأن كل أمتعته قد أصبحت نهباً مشاعاً وان عسكره قد تفرقوا وان الفوضى ضارية بأجرائها عليهم، وأشار لاستغلال الصليبيين لهذه الحادثة ومحاصرة شيزر(76).

هذه بعض من الروايات التي تشير للتوافق والتشابه بين روايات وليم الصوري وابن القلانسي، وهي تفصح عن المؤثرات العربية الإسلامية التي تأثرت بها الكتابة التاريخية الأوروبية في المجتمع الصليبي في بلاد الشام.

الخلاصة:

إلتقت على أرض الشام حضارتين مختلفتين حضارة تحاول أن تنفض عن نفسها غبار التخلف، بحضارة بلغت الأوج في تقدمها وازدهارها، فكان أن تأثرت جوانب حياتها المختلفة بالمؤثرات العربية الإسلامية، وأسهمت الحروب الصليبية في نقل المعطيات الحضارية العربية إلى أوروبا إذ كان لاستقرارهم في بلاد الشام وإطلاعهم على معارفها وعلومها ما مكنهم من اقتباس هذه المعارف والعلوم ونقلها إلى أوطانهم الأوروبية، فقد كان الشرق الإسلامي بمثابة مدرسة للأوروبيين الصليبيين نهلوا منها الكثير من المعارف والفنون. وأمكن في ضوء الدراسة تلمس أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الشخصية العلمية للمؤرخ وليم الصوري، فكان من مظاهر تأثره بالثقافة الإسلامية التالي :

* اعتماده على المصادر الإسلامية في كتابة تاريخه.

* تأثر أسلوبه بالأدب العربي بحكم مولده وترعرعه في البيئة الإسلامية وإتقانه للغة العربية مما أعانه على الإطلاع على هذه الثقافة.

* استفادته من أسلوب ومنهجية المصادر الإسلامية التي اعتمد عليها في تدوين كتابه. كما أتضح مدى التشابه والتوافق بين الروايات التاريخية التي أوردتها في كتابه وبين روايات ابن القلانسي مما يشير إلى استفادته من كتاب ابن القلانسي وغيره من المصادر الإسلامية، مما يجعلنا نستنتج بان هذا المؤرخ قد استفاد من معطيات الحضارة الإسلامية في وضع كتابه.

الهوامش

- (1) قاسم عبده قاسم: عندما أثار العرب في أوروبا، ضمن كتاب إعادة قراءة التاريخ، سلسلة كتاب العربي عدد 78، الكويت، 2009، ص 134.
- (2) عبد العليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، 1993، ص 69.
- (3) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج1، ص 134.
- (4) لمزيد من التفاصيل عن الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي انظر: رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها "قانون التأويل" ضمن كتاب فصول حول الحياة الثقافية والعمرائية في فلسطين. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993 ص 48-49 حيث لفت نظره البيئة العلمية التي وجدها في فلسطين حيث كانت البلاد تعج بالعلماء من أهلها ومن الوافدين.
- (5) أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر الشام، دار نهضة مصر، القاهرة 1972، ص 5. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1957، ص 194.
- (6) جمال فوزي عمر: التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، دار القاهرة، القاهرة 2001، ص 17.

(7) Raimundi de Aguiliers , Canonici Podiensis Historia Francorum qui Ceperunt Iherusalem وقد ترجم إلى الإنجليزية تحت

عنوان

Raymond d'Agiles, History of the Franks Conquerors of Jerusalem, U.S. A 1968. وظهرت ترجمة عربية لهذا المصدر تحت عنوان

ريموند أجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ت حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، وقد ترجم هذا المصدر إلى العربية تحت عنوان مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج

- بيت المقدس، ت حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1989.1958.
- (8) يعرف هذا الكتاب باسم *Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum*.
- (9) Fulcher of Chartes, *A History of the expedition to Jerusalem*, U.S.A, 1969
- وقد ترجم إلى العربية للمرة الأولى تحت عنوان فوشيه الشاتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ت زياد العسلي، دار الشروق، عمان، 1990 ثم ترجم ثانية تحت عنوان: الوجود الصليبي في الشرق العربي الاستيطان الصليبي في فلسطين، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ذات السلاسل، الكويت، 1993.
- (10) Gebert de Nogent *Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos edita avenerabili domno Guiberto abbati monasterii sanctae mariae novigenti*.
- (11) Baldric of Dol, *Baldrici episcopi Dolensis Historia Iherosolimitana*.
- (12) Albert d'Aix, *Historia Hierosolymitana* وقد ترجم إلى العربية تحت عنوان ألبرت فون أحن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ت سهيل زكار، دمشق، 2007.
- (13) منى جمعه حماد: تطور الكتابة التاريخية عن الحروب الصليبية، أبحاث مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي، جامعة اليرموك، أربد، 2000، ص 72-73.
- (14) فوشيه الشاتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ت زياد العسلي، دار الشروق، عمان، 1990، ص 218
- (15) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة صلاح الدين، تح احمد أيش، دار الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، 2003، ص 182.
- (16) زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية، ص 197-198.
- (17) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين: مملكة بيت المقدس اللاتينية، ت عبد

- الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001، ص96.
- (18) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ت حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991 - 1995، ج1، ص53.
- (19) المصدر السابق، ج4، ص53.
- (20) حسين عطية: المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام، أبحاث مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي - الفرنجي، جامعة اليرموك، اربد 200، ج1، ص407.
- (21) حسين عطية: المسلمون في الإمارات الصليبية، ص407.
- (22) صدرت العديد من الدراسات العربية التي تناولت بالبحث والتحليل شخصية المؤرخ وليم الصوري منها: عمر كمال توفيق: المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب، عدد 21، جامعة الإسكندرية، 1967. محمد مؤنس عوض: وليم الصوري مؤرخا للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس، ضمن كتاب الحروب الصليبية دراسات تاريخية نقدية، دار الشروق، عمان، 1999، منى حماد: وليم الصوري والصراع الفرنجي الإسلامي ضمن كتابه أبحاث ودارسات في التاريخ العربي، تحرير صالح حمارنه، عمان، 2001، جمال الزنكي: موضوعية المؤرخ وليم الصوري في ميزان النقد التاريخي المجلة العربية للعلوم الإنسانية، عدد 85، الكويت، 2004.
- (23) عمر كمال توفيق: المؤرخ وليم الصوري، ص182
- (24) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1978، ج1، ص482، برج: تاريخ الحروب الصليبية، ت احمد غسان، دار قتيبة، دمشق، 1985، ص119.
- (25) ثيودريش: وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ت سعيد البيشاوي رياض شاهين، دار الشروق، عمان، 2003، ص66 حيث أشار لكون هذه اللغة مستخدمه في الكنائس والأديرة وفي كتابة المؤلفات التاريخية.
- (26) حسين عطية: المسلمون في الإمارات الصليبية، ص407.

- (27) كلف المؤرخ وليم الصوري بالعديد من المهام الخاصة في القسطنطينية، منها التصديق على المعاهدة التي أبرمها عموري الأول ملك بيت المقدس مع مانويل كومنين إمبراطور بيزنطة. انظر وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص116، 257-260.
- (28) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج1، ص200.
- (29) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص23.
- (30) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص116.
- (31) جاء في تاريخه ما نصه: "عهد إلي عموري برعاية ولده بلدوين وكلفني القيام بتعليمه الفنون والآداب وان أكون مؤدبا له فقبلت هذه المهمة واستجبت لإلحاح عموري. انظر وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص174.
- (32) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص161.
- (33) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص183.
- (34) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص192.
- (35) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص260.
- (36) مجهول: ذيل وليم الصوري، ت حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002، ص83.
- (37) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص53.
- (38) وليم الصوري: الحروب الصليبية، مقدمة الترجمة العربية، ج1، ص23.
- (39) عمر توفيق كمال: المؤرخ وليم الصوري، ص188.
- (40) وليم الصوري: الحروب الصليبية، مقدمة الترجمة العربية، ج1، ص30.
- (41) عمر توفيق كمال: المؤرخ وليام الصوري، ص191.
- (42) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص258، 433.
- (43) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص197، 378.
- (44) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص377، ج3، ص229-230، ج4،

ص62.

(45) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص43.

(46) وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية. الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ت سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1999، مقدمة الترجمة العربية، ج1، ص102.

(47) وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ت سهيل زكار، مقدمة الترجمة، ج1، ص96.

(48) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج1، ص51.

(49) جمال عمار: التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام، ص219.

(50) عبد العليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، ص201-202.

(51) انظر بهذا الشأن حديثه عن النتائج التي ترتب على فشل الحملة الصليبية الثانية على دمشق بالنسبة لمملكة بيت المقدس. وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2،

ص317-322.

(52) عبد العليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، ص192.

(53) فرانز روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، ت صالح أحمد العلي، مكتبة المثني، بغداد، 1963، ص207.

(54) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص174.

(55) أين القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، تح أمدروز، مكتبة المتني، القاهرة، ص203.

(56) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص283.

(57) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص283.

(58) عبد العليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، ص201.

(59) انظر علي سبيل المثال حديثه عن جغرافية بيت المقدس وذلك عندما تعرض للاستيلاء عليها كذلك حديثه عن جغرافية صور وعسقلان وغيرها من المدن الشامية.

(60) عبد العليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، ص196 هرنشو: علم التاريخ، ت عبد الحميد العبادي، دار الحداثة بيروت، 1982، ص19.

- (61) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص127.
- (62) انظر أوصافه للنبي عليه السلام في مقدمة كتابه.
- (63) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص182.
- (64) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص151 هامش 11.
- (65) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص121، 200، 210.
- (66) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص19، 342، ج3، ص67.
- (67) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص135 - 136، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج1، ص334-335.
- (68) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص135، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج1، ص345.
- (69) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص135.
- (70) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج1، ص360.
- (71) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص136، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص113.
- (72) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص138 - 139، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص202-206.
- (73) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص144، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص245-247.
- (74) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص200 - 201، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص348-350.
- (75) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص210 - 211، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص39-40.
- (76) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص337 - 339، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص411.
- (77) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص394، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص417-420.

البطريك هرقل
ودوره في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية
(1180-1190م)

إعداد

د/ عز العرب أحمد سليمان

البطريك هرقل ودوره في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية (1180-1190م)

يتناول هذا البحث بالدراسة، الدور الذي قام به البطريك هرقل في تاريخ مملكة بيت المقدس في تلك الحقبة الممتدة من 1180 حتى 1190م، ومدى تأثير هذه السياسة علي مستقبل مملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقتها بالممالك والإمارات الصليبية ببلاد الشام.

وتتمثل أهمية الموضوع في ثراء الفترة التي تولى فيها هرقل بطريركية بيت المقدس من أحداث سياسية كبيرة كان لها دورها المؤثر في مستقبل المملكة التي كانت تعاني من الضعف والانحلال في تلك الفترة، وهي التي جعلت له ميزة عن غيره من البطاركة الذين تولوا بطريركية بيت المقدس من قبل.

وكانت هناك عدة صعوبات واجهت الباحث عند تصديه لمثل هذا الموضوع منها، ثراء تلك الفترة وتداخلها في العديد من الجوانب وخاصة الجانب السياسي والذي يتضمن علاقة المملكة بالجانب الإسلامي ومعارك الفر والكر بينهما، وكذلك المعاهدات السلمية بين الطرفين، إلى أن وقعت معركة حطين الشهيرة وما تطلب بعدها من الاتصال بالغرب الأوربي طلباً للمساعدة، كل هذه الجوانب كان لا بد من دراستها بتعمق وتحليل لكي نصل إلى الدور الحقيقي الذي أسهمت به البطريركية في عهد هرقل.

ويتعرض البحث لعدة عناصر أساسية منها: أحوال المملكة الصليبية قبيل تولية هرقل البطريركية، ثم دراسة نشأة هرقل وحياته وتعليمه، وأهم الأدوار التي قام بها قبل توليته ذلك المنصب، مروراً بتوليته البطريركية وموقف البابوية من طريقة اختياره، ورؤية المؤرخين المعاصرين له، إضافة إلى عن تحليلنا لموقف وليم الصوري منه، والأدوار التي قام بها ونشاطه داخل المملكة وخارجها، ومحاولاته إنقاذ المملكة الصليبية من الانهيار والسقوط، وجهوده

الخاصة للحيلولة دون سقوط المدينة المقدسة في يد صلاح الدين، وأُهميت حديثي بالإشارة إلى دوره بعد سقوط المملكة حتى وفاته 1190م. وقد اختتمت الدراسة بأبرز ما توصلت إليه من نتائج.

والواقع أنه من الضروري بمكان أن نتناول حظ البطريرك هرقل من الدراسات السابقة، وفي هذا المجال أود أن أنوه إلى أنه لا توجد دراسة متخصصة عنه، سوي تلك التي أعدها المؤرخ بنجامين كيدار Benjamin Z. Kedar الأستاذ بالجامعة العبرية القدس العبرية بعنوان "The Patriarch Eraclius"، والمنشورة ضمن كتاب "Outremer" وهو كتاب تذكاري أعد لتكريم المؤرخ يوشع براور Joshua Praver سنة 1982م، وهي الدراسة التي أفادت الباحث كثيراً.

أحوال مملكة بيت المقدس قبيل تولية هرقل البطريركية:

توفي ملك بيت المقدس الصليبي عموري الأول (1) (1163-1174م)، وكان ابنه بلدوين الرابع (2) (1174-1183م) غلاماً صغيراً ومصاباً بالجذام (3) قد توج ملكاً للقدس وبسبب صغر سنه (4) - حيث كان يبلغ الثالثة عشر عاماً - عهد إلى أحد أقاربه (ميلون دي بلانسي Milon de Plancy بمسئولية إدارة المملكة والوصاية عليه، وقد أثبت جدارة في القيام بأعباء الحكومة نيابة عن الملك القاصر بلدوين الرابع (5)، وبالرغم من ذلك فقد شهدت فترة وصايته نزاعات بينه وبين كبار نبلاء المملكة من جهة، ومقدمي الاستنارية والداوية (6) من جهة أخرى، وكانت هذه المتاعب الداخلية سبباً في عجز الملك بلدوين الرابع عن متابعة نشاطه الحربي، وعدم استغلاله هجوم الأسطول النورماني علي الإسكندرية في يوليو 1174م، تنفيذاً لاتفاق مع مملكة بيت المقدس للقيام بحملة مشتركة علي مصر (7). لذلك استغل ريموند الثالث صاحب طرابلس (8) (1146-1187م) ذلك وطلب الوصاية علي بلدوين الرابع بدلاً عن ميلون دي بلانسي؛ لقربته ولمركزه وغناه، فتمت الموافقة بواسطة نبلاء المملكة ورجال الكنيسة على تعيين ريموند الثالث وصياً على المملكة (9)، بعد اغتيال ميلون في مدينة عكا (10)

وفي فترة وصاية ريموند الثالث التي امتدت بين عامي (1174-1176م) بدأت تواجه مملكة بيت المقدس الصليبية مشكلة أخرى، وهي مشكلة زيادة سلطة الأحزاب السياسية فيها، الأمر الذي أدى إلى الصراع على السلطة والوصاية على العرش، قام علي إثر ذلك صراع بين حزبين من نبلاء المملكة: الأول وهو حزب البارونات الوطنيين (11) Native Barons، أما ثاني الأحزاب التي دخلت حلبة الصراع في المملكة فهو حزب القادمين الجدد من الغرب (12) New Comers، وقد حظي كل حزب بدعم بعض الأعيان والهيئات سواء الحكومية أو الدينية (13)، لقد كان وجود هذين الحزبين المتصارعين زمن بلدوين الرابع مثار قلق وخوف داخل المملكة الصليبية لاسيما وأن كل حزب كانت له سياسته الخاصة التي تخدم مصالحه الخاصة دون النظر إلى صالح المملكة الصليبية (14) وإزاء هذه الأحداث عجز ريموند علي فرض سيطرته ونفوذه علي بقية أقرانه (15). ومما زاد من سوء أحوال المملكة الداخلية بخلاف الانقسامات السياسية، ظهور النزعات بين الأسرة الواحدة؛ الأمر الذي جعل الملك يزداد اقتراباً من بيت كورتناي، فقام بتعيين خاله جوسلين الثالث صنحياً للمملكة، وعادت أمه الكونتيسة آجنيس (16) Countess Agnes إلي البلاط، فكان نفوذها بالغ الخطورة، وجالباً للكوارث؛ فقد أخذت تتدخل في توجيه سياسة المملكة، وكذلك في شئون بلدوين الرابع وأخته سيبيللا، فاستمع لها بلدوين، أما سيبيللا فوَقَعَتْ أيضاً. تحت سيطرتها (17). وعندما بلغ بلدوين سن الرشد في عام 1176م، وانفرد بالحكم دون وصاية، وتمكن حتى عام 1182م من إدارة شئون المملكة بنفسه بنجاح حتى عُدت تلك السنوات أزهى فترات حكمه (18). فعلي الرغم من شدة مرضه، فإنه ظل يقاوم بثبات، وعلي الجانب الحربي تمكن من تحقيق نصر علي صلاح الدين الأيوبي عند مونت جيسارد Mont Gisart (تل الصافية) (19) أواخر نوفمبر 1177م (20).

ومن مسائل التصدع الداخلي للمملكة الصليبية في بيت المقدس؛ مسألة زواج الأميرة سيبيللا. أخت الملك بلدوين. من جاي لوزجنيان (21) الذي وصل مؤخراً من الغرب الأوربي برفقة أخيه أمريك، الذي حظي بعطف الكونتيسة آجنيس (أم الملك) (2)، وقد تم

هذا الزواج في ربيع 1180م، (23) علي الرغم من أن الملك الصليبي لم يكن راضياً عن هذه الزيجة لأخته؛ لأن جاي لم يكن من طراز الرجال الذين يمكن للمملكة الصليبية الاعتماد عليهم في تلك الظروف الصعبة التي تمر بها. لكن الكونتيسة آجنيس تمكنت من إقناع ابنها الملك بمباركة الزواج (24). وبزواج جاي لوزجنيان من سيبيلا أتمت حزب القادمين الجدد، والذي ضم الكونتيسة آجنيس وأخيها جوسلين الثالث، وأمليك شقيق جاي، وقد استطاع هذا الحزب احتواء الملك بلدوين الرابع (25) كما استغل أعضاؤه تردي حالته الصحية، ونجحوا في إقناعه بالوصاية للعرش إلى جاي لوزجنان، وقبل البارونات ذلك علي كره منهم (26)

ارتبكت الأمور في المملكة بعد زواج جاي من أخت الملك ووصايته؛ فقد انسحب بلدوين ابلين من مملكة بيت المقدس، وانضم إلى المسلمين؛ الأمر الذي تسبب في الكثير من الأضرار للصليبيين (27)، كما أزعج هذا الزواج كونت طرابلس وأمير أنطاكية، كما أن العديد من نبلاء المملكة قد عارضوا تلك الوصاية، وهذا الأمر أضاف للمملكة انشقاقاً جديداً، وليس أدل علي ذلك تعليق وليم الصوري عن وضع المملكة آنذاك بقوله (28): "لقد تدهور حال البلد إلي درك مهين". وتشير هذه المقولة التي ذكرها وليم الصوري إلي أحوال مملكة بيت المقدس قبيل اعتلاء البطريك هرقل سدة الكرسي البطريركي في القدس. البطريك هرقل نشأته وحياته:

ولد هرقل Heraclius حوالي عام 1128م في مدينة جيفادين (29) Gevadan بفرنسا، وتعني التسمية الشخص ذا الأصول الرفيعة النبيلة، وقد كانت هذه التسمية غير شائعة في ذلك الوقت. وعلى الرغم من ذلك فقد نشأ وعاش هرقل في أسرة متواضعة، وتلقى تعليمه الديني مثل الكثير من أقرانه في ذلك الوقت في إحدى الكاتدرائيات الصغيرة في مقاطعة جيفادين (30). ويُذكر أنه تعلق في بداية حياته بحبه الشديد للشعر وخاصة الساخر منه؛ ففي أثناء دراسته في جامعة بولونيا، وفي قاعات المحاضرات بها التقى هرقل والكثير من الأصدقاء (31) الذين جمعتهم غريزة حب الشعر، فقد شارك صديقه إتيان

تورناى (32) والذي أصبح فيما بعد أسقفاً لتورناى سنة 1170م في إعداد وتنظيم بعض المسرحيات الهزلية علي نحو ما تصوره بعض الأساطير القديمة في أسلوب عرضها والتي تشير إلى القرابين المقدمة من الآلهة لمولود كوكب المشتري وزوجته إلهة الباتيون، وهو ما يدل علي سعة آفاقه منذ مراحل تعليمه المتقدم، ثم تنوعت كتاباته بعد تلك المرحلة؛ ليكتب مفصلاً عن موقع صلب السيد المسيح، كما عمل في مجال الدعوة الدينية مع رفاقه في مقاطعة بولونيا مقر الدراسة، حتى أن صديقه إتيان رأى أن هرقل سوف تكون وجهته الأراضي المقدسة من شدة تعلقه بها، فيقول: "فليكن حجك مباركاً، يكفر عن خطاياك، ويرتقى بك إلى الأعالي"، وهذا تلميح منه برحيل هرقل إلى الأراضي المقدسة بفلسطين بعد إتمام دراسته، وتنبؤه بارتقاء المناصب الدينية هناك (33).

على أية حال، فقد استمر هرقل في الدراسة بجامعة بولونيا في الفترة من 1145م، وحتى سنة 1150م، وربما يكون قد استمر فيها حتى سنة 1160م، حصل خلالها على درجة علمية عالية في علوم اللاهوت (34)، وبدأ العمل في المجال الديني في مقاطعة أفرين ومنها توجهه إلى الأراضي المقدسة مثل الكثير من أقرانه للبحث عن فرصة للعمل هناك، حتى أصبح قسيساً ثم واصل ارتقاء المناصب الدينية فتولى منصب رئيس شمامسة بيت المقدس في الفترة 1169 حتى 1175م، ثم رئيس أساقفة قيسارية (35)، في الفترة من 1175 حتى 1180م. وفي عام 1180م تم انتخابه بطريكاً لبيت المقدس (36).

أهم الأدوار التي قام بها هرقل قبيل توليه البطريركية:

كان الظهور الأول لهرقل على مسرح الأحداث في عام 1168م في القدس، حيث بدأ منذ هذا التاريخ بروز أعماله علي مسرح الأحداث، ويبدو ذلك بصفة أوضح عام 1169م عندما تم تعيينه رئيساً لشمامسة بيت المقدس، وقد تمكن بهذه الصفة الوظيفية الجديدة المشاركة في حل بعض النزعات الدينية، فيذكر أنه توسط للوصول إلى اتفاق مُرضٍ بين اثنين من رجال الدين، وهما برنارد أسقف ليديا Bernard Of Lydia، والقديس بطرس الرئيس الأسبق للقبر المقدس، حول بعض الأمور الكنسية (37).

وقد تم تكليف البطريرك هرقل عام 1172م بمهمة رسمية من قبل الملك الصليبي عمورى الأول وبطريرك بيت المقدس أمليريك من نيسلي (38) إلى روما حيث مقر البابا إسكندر الثالث (39) (1159-1181م) Alexander III (وقد تمحورت هذه المهمة الرسمية في محاولة إقناع البابا في العدول عن قراره في عودة جلبرت دى أسالي Gilbert de Assailly إلى منصبه كمقدم لهيئة الفرسان الاستبارية بالقدس، ولكن مهمة هرقل هذه لم تكمل بالنجاح علي الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها في الدفاع عن هذه القضية (40). وفي عام 1175م أصبح هرقل رئيساً لأساقفة قيسارية، والتي تعد واحدة من أبراشيات الأربع الكبرى في مملكة بيت المقدس الصليبية؛ ففي أكتوبر من عام 1178م توجهت بعثة من كبار رجال الدين اللاتين إلى روما لحضور مجمع اللاتيران الثالث (41)، وقد تألف الوفد الكنسي اللاتيني من وليم الصوري (42) رئيس أساقفة صور، وهرقل رئيس أساقفة قيسارية، وألبرت Albert أسقف بيت لحم، وراف Ralph أسقف سبسطية، وجيوشيوس Gucheus أسقف عكا، ورومانوس أسقف طرابلس، وبطرس رئيس المرتلين بالقبر المقدس، ورينالد Renaldus رئيس دير جبل صهيون. وقد تخلف عن الحضور البطريرك أمليريك بطريرك القدس، وكُلف بالحضور نيابة عنه رئيس المرتلين بالقبر المقدس، وبذلك أصبح وليم الصوري هو رئيس الوفد المعترف به، وقام بدور بارز في مداورات المجلس، وعلى الرغم من أن البابا ألكسندر الثالث طلب منه تنفيذ مهمة خاصة له لدى البلاط البيزنطي، حيث مكث هناك مدة سبعة أشهر بناءً على أوامر الإمبراطور البيزنطي، والذي لم يسمح له بالرحيل إلا بعد تنفيذ مهمة أخرى شديدة الأهمية في أنطاكية (43). لذلك فقد تملك وليم الصوري شعوراً أقرب ما يكون لليقين أن خبرته ومعرفته بالشئون الدولية، وعلاقات الصداقة التي أقامها في أوروبا سوف تكون موضع تقدير من قبل الكنيسة اللاتينية والمملكة الصليبية، وتكون دافعة له ليصبح البطريرك القادم لبيت المقدس (44).

هذا على المستوى الشخصي لرئيس البعثة، أما على المستوى العام للبعثة فلم يكن

أدأهم في الجمع مؤثراً، بالرغم من علمهم بمدى الظروف السيئة التي تمر بها المملكة الصليبية من أخطار، وحاجتها الضرورية لمساندة الغرب الأوربي لها في تلك المرحلة. لكن المؤتمرين كرسوا اهتمامهم في أمور أخرى غير تلبية مطالب المملكة الصليبية في مواجهة الأخطار المحدقة بها(45) .

وعلى أية حال، فقد عادت البعثة إلى القدس، وتخلف عنها وليم الصوري الذي عاد في يوليو 1180م بعد غياب نحو العامين، حيث وجد الأوضاع قد اختلفت تماماً عن ذي قبل، فالملك بلدوين الرابع في حالة عجز كلى نتيجة مرضه، واشتعلت مسألة الخلافة والوصاية مقرونة بالكثير من الفتن والهجمات الحادة، وقد أدت هذه الحالة إلى تكوين حزبين متعارضين لإيجاد الحلول لهذا الموقف؛ الحزب الأول وهو حزب النبلاء الوطنيين ذوى المناصب المتوارثة، والذين وجدوا في الكونت ريموند أمير طرابلس(46) المرشح الأفضل في أن يكون وصياً على العرش(47). أما الحزب الثاني وهو حزب الوافدين الجدد إلى المملكة، وكانوا يتصفون بروح المغامرة، واتجهوا إلى اختيار جاي لوزجنيان(48) زوج شقيقة بلدوين. وكان من أهم المشجعين لهذا الحزب الملكة الأم آجنيس، كما سيطر هذا الحزب . أيضاً . على المحكمة الملكية بعد موت البطريك أمالريك في السادس من أكتوبر 1180م، ولذلك لجأ هذا الحزب إلى السرعة في اختيار خليفة له، حيث تم اختيار البطريك الجديد خلال عشرة أيام فقط من وفاة أمالريك(49)

هرقل بطريكاً لمملكة بيت المقدس 1180م:

ارتفع قدر هرقل داخل مملكة بيت المقدس في الوقت الذي توفي فيه البطريك أمالريك، وقد ترشح للفوز بهذا المنصب كل من وليم الصوري رئيس أساقفة صور، وهرقل رئيس أساقفة قيسارية. والمعروف أن منصب البطريك هو حق من حقوق ملك بيت المقدس الشرعية لا يشاركه فيها أحد، حيث يقوم رجال الدين بكنيسة القيامة بتقديم مرشح أو اثنين لهذا المنصب، ثم يتم عرضهم على ملك بيت المقدس، فيما يقر التعيين باختيار أحد المرشحين أو يرفضه والبحث عن مرشحين آخرين " (50).

وقد سعى وليم الصوري بخطى حثيثة للوصول لمنصب البطريركية (51)، محاولاً بكل ما يملك من مقدرة علي الإقناع أن يمنع وضع اسم هرقل ضمن أسماء المرشحين، وذلك بالحضور بنفسه من أسقفيته بصور إلى القدس، فيذكر صاحب كتاب ذيل وليم الصوري أن وليم جاء إلى القائمين على القبر المقدس وتحدث إليهم، ونجح في إقناع بعضهم فانضموا إليه، بعد أن وعظ فيهم مخاطباً: "أيها السادة: ها أنتم على وشك إجراء انتخاب بطريك جديد يحل محل أبانا البطريرك (آمورى) وإني لأنصحكم في إيمان صادق ألا تختاروا أي أسقف من أساقفة هذه الناحية، وحذارى أن تنتخبوا رجلاً تندمون على اختياره، وتآذى به المملكة (52).

ويتضح من خلال ما ذكره المؤرخ المجهول أن وليم الصوري كان يدرك أن الأمر سوف يستقر في النهاية علي المفاضلة بينه وبين رئيس أساقفة قيسارية، فيذكر مخاطباً القائمين علي هيئة الاختيار قائلاً: "لأن الأمر سيكون بيني وبين رئيس أساقفة قيسارية؛ إذ إنكم بعد انتخابكم إياه، تقدمونه إلى الملك فيقبله...". ثم يزيد من تحذيره إلى القائمين على القبر المقدس "اعلموا أن ما يدفعني للكلام معكم الآن، والنصح لكم هو إنني وجدت في أحد الأسفار أن رجلاً اسمه هرقل (53) أعاد الصليب من بلاد فارس إلى القدس، وأن آخر اسمه هرقل سوف يأخذه من القدس في يوم يكون هو فيه حاكماً، ويوم ذاك يضع الصليب، ومن أجل هذا أريدكم العمل بما أنصحكم به، وأن تأخذوا به" (54). وهذه الرواية لم ترد في كتاب وليم الصوري نفسه، وهو أمر يدعو للتساؤل؟ وربما تكون الرواية نفسها دخيلة.

وعلي الرغم من حديث وليم الصوري لهيئة الاختيار، فقد تم الاختيار بينه وبين رئيس أساقفة قيسارية هرقل. وكان كلا المرشحين له هيكل وظيفي متشابه إلى أقرب الحدود، فكلاهما تلقى تعليمه الديني في مدارس الغرب الأوربي، وكلاهما أصبح رئيس أساقفة في عهد الملك عمورى الأول، وإن تميز وليم الصوري عن منافسه هرقل حيث عمل مستشاراً للمملكة (55)، فقد تساوت الكفتان عندما وجد هرقل الخطوة لدى الأسرة المالكة (56)؛ إذ كان موضع اهتمام أم الملك بلدوين الرابع "الكونتيسة آجنيس" التي عُرف

عنها حبها لتوطيد علاقاتها بأقاربها وأصدقائها، وكان هرقل من هؤلاء خاصة أنه سوف يعزز حزبها (57).

تدخلت الكونتيسة آجنيس بكل ما لديها من تأثير، وطالبت رجال الدين انتخاب هرقل لمنصب البطيركية، لذلك فعندما توجه هؤلاء الرجال إلى اجتماعهم الذي عقد في كنيسة القبر المقدس بالقدس، ضربوا عرض الحائط بكل النصائح والتحذيرات التي أطلقها وليم الصوري، وصدر قرارهم بانتخاب هرقل بطيركاً ووليم الصوري رئيساً لأساقفة صور، وتم تقديم الترشيح للملك بلدوين الرابع للمصادقة عليه، وقد سبقت الملكة الأم قرار اللجنة وتوجهت إلى ابنها الملك، وراحت تتوسل إليه أن يصدق على اختيار هرقل بطيركاً لبيت المقدس، فوافق الملك نزولاً على رغبة أمه ورجائها (58)؛ الأمر الذي جعل وليم يفيض حزناً إلى حد جعله لا يتجاوز في كتاباته الأربعة أسطر عن هذا الانتخاب، خص ثلاثة منها للحديث عن وفاة البطيرك أمليك، وبعض من صفاته، في حين لم يتحدث عن هرقل سوى في سطر واحد، يقول فيه: " .. وبعد مضي عشرة أيام من وفاة البطرک أمليك تم انتخاب هرقل رئيس أساقفة قيسارية بدلاً منه (59).

وعلى الرغم من حديث وليم الصوري المقتضب هذا، نستطيع أن نلاحظ عليه عدة دلالات:

أولها: أن وليم الصوري لم يذكر صراحة الأشخاص المرشحين لذلك المنصب، ومن هي الهيئة التي اختارت البطيرك هرقل؟ ومن ثم لم يفصح وليم عن هوية هؤلاء الذين ارتضوا هرقل بطيركاً. والراجح أن الذين فعلوا ذلك هم حزب القادمين حديثاً من الغرب الأوربي بزعامة أم الملك بلدوين الكونتيسة آجنيس وأخيها جوسلين، اللذين كانا من مصلحتهما أن يصل هرقل إلى البطيركية، بالرغم من أنه لم يكن جديراً به عن منافسه وليم الصوري؛ وذلك رغبة في أن يحتفظ هذا الحزب بالمركز والسيطرة على مقاليد الحكم في المملكة.

وثاني هذه الدلالات: لم يصرح وليم الصوري بأن أم الملك الكونتيسة آجنيس كانت وراء

اختيار هرقل للبطيركية على غير عادته، فقد ذكر من قبل تدخل الملكة مليسند لاختيار البطيريك وليم في فترة وصايتها على بلدوين الثالث. وتحدث أيضاً عن تدخل أخت الملكة مليسند والكونتيسة سيببلا أخت الملك وزوجة كونت فلاندرز في تعيين البطيريك أمريك (60).

وثالث هذه الدلالات تظهر في عدم قيام وليم الصوري بذكر أية تفاصيل عن حياة هرقل وصفاته، وهو بخلاف ما كان يذكره عند الحديث عن تعيين بطيريك جديد للمملكة. أما الدلالة الرابعة فتظهر في مرور عشرة أيام على وفاة البطيريك أمالريك دون أن يُنتخب خلفاً له؛ مما يدعونا إلى أن نستنتج بأنه جرت مشاورات واختلافات كثيرة للاختيار بين المرشحين استغرقت عشرة أيام كاملة. لذلك لا مانع من أن تكون هناك أصوات عارضت في البداية اختيار هرقل للبطيركية، ولا مانع أيضاً من أن تكون بعض آراء كبار نبلاء المملكة وعلى رأسهم الملك بلدوين نفسه، قد توجهت إلى إمكانية انتخاب وليم الصوري بدلاً من هرقل، ومن المرجح أن هؤلاء النبلاء تناقشوا حول عملية الاختيار طوال مدة العشرة أيام، لكن المحصلة كانت نجاح الكونتيسة آجنيس في التأثير على ابنها الملك بلدوين لحسم موقفه، واختيار هرقل بطيريكاً لبيت المقدس جرياً على رأي أغلب المصادر والمراجع. وهناك ملاحظة أخرى أن وليم الصوري لاذ الصمت فلم يتحدث عن الذين عارضوا في البداية اختيار هرقل، بخلاف حديثه المفصل سنة 1157م عن المعارضين لاختيار البطيريك أمالريك (61).

علي أية حال، فقد أجمعت عدة مصادر مثل أرنول وتاريخ هرقل وذيل وليم الصوري وبعض المراجع الحديثة التي انتهجت نهج المصادر السالفة الذكر علي أن السبب الذي جعل الملكة الأم تفعل ذلك هي العلاقة غير الشرعية مع البطيريك؛ "إذ كانت تعشقه لجماله ووسامته" (62). وعلى الرغم من تأييد المؤرخ المجهول لهذا الكلام، فإنه أردف قوله واصفاً هرقل بأنه "كان رجلاً ضخماً الجثة، منحل الأخلاق" (63). وهذا الوصف يتعارض تماماً مع قولهم السابق هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كيف يتقبل الملك هذه الشائعات

دون أن يكون كارهاً أو رافضاً لطلب أمه مهما بلغ تأثيرها عليه؟!، ويرى أحد الباحثين أن تلك الشائعة ربما كان مصدرها وليم الصوري، وعنه نقلت بقية المصادر المعاصرة في تلك الفترة سواء كتاب أرنول أو حولية تاريخ هرقل أو حتى المؤرخ المجهول صاحب كتاب ذيل وليم الصوري، بوصف أن أم الملك كانت سبياً في إبعاد وليم الصوري عن منصب كان تواقاً للوصول إليه، وهو منصب البطريكية (64).

في الواقع فإن المصادر جميعها لم تنقل عن وليم الصوري تلك الشائعة؛ فلم يرد في تاريخ وليم الصوري أي اتهام غير أخلاقي للكونتيسة آجنيس، ربما حرصاً على مشاعر ابنها الملك بلدوين الرابع الذي كان وليم لا يزال يعمل مستشاراً له، وإنما مصدر هذه الشائعة هو المؤرخ إرنول والذي ربما نقل عنه . أيضاً . كل من ذيل وليم الصوري وتاريخ هرقل، وهناك سبب مهم جعل أرنول كارها للملكة آجنيس، وهو أن أرنول كان ربيب بيت ايبيلين ، ولما تقدم أحد سادة بيت ايبيلين وهو "بلدوين أبلين Baldwin Ibellin" لخطبة سيبلا أخت بلدوين الرابع عارضت الأم الكونتيسة آجنيس هذه الخطبة؛ إذ عُرف عنها كرهها الشديد لأقارب أزواجها (65) ، ومن ثم كرهت ارتباط ابنتها من بلدوين الذي ينتمي إلى بيت ايبيلين. لذلك كان أرنول منحازاً لعائلة ايبيلين ضد الملكة آجنيس. هذه نقطة، والنقطة الثانية فان وليم الصوري كان أذكى من أن يشتهر بالملكة آجنيس، ويتهمها بهذه التهمة غير الأخلاقية، وهو يعمل مستشاراً لابنها بلدوين الرابع. حقاً أن وليم الصوري كان حانقاً على آجنيس لكن لم يرد في تاريخه أي اتهام أخلاقي لها. ومما يدعو للانتباه . أيضاً . أن حديثه عن انتخاب هرقل بطريكاً كان مقتضياً جداً، ولم ينقل لنا أي تفاصيل موسعة عنه، وهذا أمر يدعو للتساؤل أيضاً، لكن أمر تدخلها لصالح هرقل أثار غضب وحفيظة وليم الصوري ضد هذه السيدة وأصدقائها ومقربيها (66)، فقد ذكر هاملتون أن أمر اتهام آجنيس بهذه التهمة الأخلاقية قد يكون مجرد ثرثرة خبيثة وجهت إلى الملكة الأم (67) .

ومما يجدر ذكره أن بُعد النظر السياسي لدى الملكة الأم كان هو السبب الحقيقي وراء الإلحاح في اختيار هرقل بطريكاً لبيت المقدس، فقد وجدت في البطريك الجديد ضالتها

لتقوية ما عُرف بحزب البلاط Court Party والذي كان يتألف من الأقارب والموالين للمملكة آجنيس، وكان هذا الحزب يضم إلى جانب البطريك، هرقل وبلدوين وجاى لوزجنيان، وجوسلين الثالث كورتناى (68)، والذين سعوا لفرض سيطرتهم على بلدوين الرابع المريض، والعمل على استمرار حكمه ضد الحزب المنافس الذي يتألف من الصليبيين الأوائل، وعلى رأسهم ريموند الثالث وبالبيان الأبلينى ووليم الصوري وغيرهم (69).

ويلاحظ أن موضوعات الشذوذ الجنسي للكهننة، ورجال الدين والعلاقات غير الشرعية مع المحظيات والزواج منهم، كانت من الموضوعات التي أولتها البابوية اهتماما مستمرا علي مدار القرن، فقد اضطر البطريك السابق لبيت المقدس أرنولف (70) Arnulf de Chocques، للمثول أمام المحكمة البابوية عام 1116م للدفاع عن نفسه ضد الاتهام الموجه إليه بإقامة علاقة غير شرعية مع زوجة أحد حراسه، وأيضا مع امرأة بدوية يقال إنها أنجبت له ولداً (71). ومع وجود تلك السوابق التي طالت أعلي المناصب الدينية من قبل، لم يُستثن البطريك الجديد من التشهير بشخصه في صور شتي من الحرب الكلامية بين حزبين سعي فيها حزب وليم الصوري للنيل من شخص رجل الدين في الحزب الموالي للأسرة المالكة، وذلك بهدف التقليل من قدر الحزب بأكمله، والحط من مكانة الأسرة الملكية، وبذلك يتم لهم تقويض هذا الحزب نهائياً.

رؤية المؤرخين المعاصرين وغيرهم لهرقل:

اتهمت التهم على شخص البطريك هرقل وطالته في أخلاقه وسلوكه، وحتى في تعليمه الديني، وسواء أكانت هذه التهم حقيقية أم باطلة، فلا بد وأن نتوخى الحذر في الأخذ بها أو تركها، وخاصة أنها أُطلقت أثناء معركة سياسية في الأصل بين حزبين كليهما يسعى لإزاحة الآخر من سدة الحكم، وسوف نورد ما ذكره بعض المؤرخين عن شخص البطريك هرقل حيث ذكر المؤرخ المجهول: " أنه كان رجلاً عديم الحياء، وليس له من العلم إلا النذر القليل، كما أنه كان عبداً لشهواته (72). "

أما المؤرخ أرنول فذكر أن هرقل في نظره ليس سوى: " رجل دين فقير لا يعرف

القراءة والكتابة إلا القليل" (73). وعلى دربه سار أيضاً صاحب حولية تاريخ هرقل، فذكر رواية تتفق مع الروايتين السابقتين (74). وعند مطالعتنا للمراجع الحديثة التي تناولت هذا الموضوع نرى المؤرخ ستيفن رانسيماي ذكر عنه أنه كان قسيساً لا يكاد يعرف القراءة والكتابة (75). ونرى فيما سبق افتراء علي الواقع، والحقيقة أن هذا الافتراء يمكن تفنيده من خلال الدراسة؛ وذلك أن هرقل درس بجامعة بولونيا وحصل منها علي درجة علمية متقدمة في الدراسات الدينية، أما المؤرخ كيدار فقد ألصق عدة صفات سيئة بهذا البطريك على لسان عدد آخر من المؤرخين منها الفاسد البائس، صاحب السمعة الشائنة، ومدنس للمقدسات (76). أما رينيه جروسيه فقد وصف هرقل بأنه كاهن حقير غير مستحق للبطريكية، فهو متحجر القلب عديم النشاط (77). في حين ذكر بلدوين عنه أنه لا قيمة له على الإطلاق (78). والراجح أن الكثير من المؤرخين المحدثين أمثال رانسيماي وجروسيه وبلدوين ربما نقلوا عن المصادر المعاصرة دون تمحيص، كذلك فإن الأعمال التي قام بها هرقل في إدارة الكثير من الأزمات وفي مهامه الرسمية في الغرب الأوربي والتي أبدى فيها قدراً من الكياسة والمهارة والحكمة السياسية تناقض تماماً ما ذكرته بعض المصادر بأنه قليل العلم عديم النشاط.

وكان في تعارض بعض الآراء مع هذه الآراء المتشددة مجالاً لتناول هرقل عند المؤرخين قديماً وحديثاً (79). وإضافة إلى ما سبق ذكره فقد ذكرت روايات أخري أكثر حدة عن أعمال سيئة لهذا البطريك؛ نذكر منها ما روته بعض المصادر من أن هرقل اتخذ لنفسه عشيقه تُدعى باسك دي ريفري *Pasque de Riveri*، وهي زوجة تاجر أقمشة وثياب في مدينة نابلس (80). وقد ذكرت المصادر أن البطريك اعتاد أن يأتي بها إلى القدس لتقييم معه لفترة من الزمن، وكان يغدق عليها وعلى زوجها الأموال، حتى صارا من الأثرياء، ومن أجل ذلك فقد اعتاد زوجها أن يغمض عينيه عما يفعله البطريك، وعندما مات زوجها حمل البطريك أرملة وجعلها تعيش معه على الدوام، ثم اشترى لها داراً، وأغدق عليها الأموال والهدايا حتى صارت أغنى امرأة شاهدها أهل القدس، وكان الأهالي يقولون عنها إذا رأوها:

"انظروا ها هي البطريكة (81).".

وتواصل المصادر ذكر رواية أخرى تُعد مدعاة للسخرية، والتي تذكر أن الملك بلدوين الرابع وباروناته كانوا في جلسة بقصر البطريك هرقل يناقشون فيها بعض الأمور المهمة، ثم دخل أحد الخدم وهم مجتمعون، وصاح بالبطريك: "سيدي البطرك لقد جئتك نبأ طيب فإن كافتني مكافأة سخية أفضيت به إليك، وظن البطريك والملك واجتمعون أنه سوف يذكر خبراً فيه نصر للمسيحية، وقال له البطريك: هات ما عندك أيها القسيس. فقال له الخادم: لقد وضعت السيدة باسك دي ريفرى الساعة ابنة لك" فرد عليه البطريك قائلاً: "أحرص أيها الأحمق ولا تزدد" (82). ولو صحت هذه الرواية فإنها توضح لنا صورة من صور انحلال المجتمع الصليبي، ولكن هناك الكثير من الثغرات التي تجعلنا نحذر ونحن نتعاطي مع هذه الرواية التي تبدو استمراراً لمسلسل الخط من قدر وهيبة رأس الكنيسة اللاتينية بمملكة بيت المقدس، نذكر من هذه الثغرات ما ذكره المصدر (83) من انتقال الملك وكبار رجال الدولة لعقد اجتماع في قصر البطريك لمناقشة أمور تخص الدولة، علماً بأن ملك بيت المقدس مريض ويعانى من مرض الجذام. أما الأمر الثاني طريقة دخول أحد الخدم في حضرة الملك وكبار رجال الدولة بهذه الطريقة التي تناولها المؤرخ فهي أبعد ما تكون عن الحقيقة. ولذلك يمكن القول إن هذه الشائعة لا يمكن الفصل فيها بسهولة. وخاصة أن بعض البطارقة في القرن الثاني عشر اهتموا بفضائح جنسية نذكر منهم البطريك أرنولف في بداية تأسيس المملكة اللاتينية، ومع ذلك لا يوجد الدليل الذي يؤيد الرواية التي ذُكرت على البطريك هرقل (84).

موقف البابوية من طريقة اختيار هرقل بطريكاً للقدس:

إن المتأمل للعلاقة بين السلطة الدينية والسلطة العلمانية في مملكة بيت المقدس يلاحظ إخفاق كل المحاولات التي بذلتها الكنيسة في تحويل هذه المملكة إلى دولة كنسية، وحتى دعاوى ومطالب البطارقة من أجل فرض سلطة دينية في مدينة القدس، لم تسفر إلا عن تأسيس حي للبطريك في مدينة القدس، ويقع حول كنيسة القبر المقدس فقط. وقد

وضع سلطان الملك على الكنيسة جلياً عندما كان يخلو منصب البطريركية، فكان من حق الملك الموافقة على اختيار البطريرك الجديد أو رفضه (85). لكن من الواضح أن الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس لم تتمكن من لعب أو تحقيق أية سلطة سياسية واضحة في المملكة، فعلي الرغم من أن الصراع حول التقليد العلماني (86)، والذي أرق مضاجع ملوك وأباطرة وأمراء الغرب الأوروبي من ناحية، وباباوات روما من ناحية أخرى، لم تعرفه المملكة اللاتينية في فلسطين (87).

وقد عد المؤرخ رينيه جروسيه أن طريقة اختيار هرقل بطريكاً كانت لاعتبارات سياسية من قبل السلطات المحلية بالقدس؛ مما يفسر استبعاد البابوية وسلطانها من هذا الاختيار، الأمر الذي أدى في النهاية إلى جعل رئاسة الأماكن المقدسة تذهب إلى رجال دين لم يكن لهم من السمة الكهنوتية سوى الملبس فقط (88).

الواقع أن الملك بلدوين الرابع لم يمارس حقه الشرعي في اختيار البطريرك هرقل، بعد أن تدخلت أمه آجنيس في شؤون الحكم والإدارة، ومارست تأثيرها الفاسد على الملك (89). في حين يرى آخرون أن تقليد الترشيح المزدوج، والذي سجل لأول مرة في مسألة اختيار هرقل قد تم إدانته بشدة من قبل البابا سلسنتين الثالث عام 1191م، وهذه العادة التي شهدت على السيطرة المتزايدة التي كانت تمارس من قبل القصر الملكي على الكنيسة، والتي ظهرت بوضوح عام 1180م، وهي العادة التي تم تطبيقها على كل انتخابات البطاركة والأساقفة بعد هذا التاريخ، وقد سادت جميع أنحاء الشرق اللاتيني، ولا تعكس هذه العادة سيطرة السلطة الزمنية فقط على الكنيسة، ولكن تعني أيضاً تقليص سلطة البطريرك في حرية رئاسة المجالس الكنسية المحلية (90).

موقف وليم الصوري من تولية هرقل البطريركية:

ولا ريب في أن اختيار هرقل بطريكاً للقدس أضع كل طموحات وليم الصوري في تحقيق آماله، بأن يصبح بطريكاً بعد أن كان هو الأقدار والأجدر لهذا المنصب، ولذلك حمل وليم الصوري أم الملك بلدوين السبب في إبعاده عن منصب البطريركية (91)، وما زاد الأمر

سوءًا تَميِشه في الجهاز الإداري، فأصبح لا يستعان بخدماته وعلاقاته بكبار الشخصيات في الدول الأوروبية (مثل ذي قبل) إلا في المناسبات الرسمية فقط، ومن ثم روض نفسه على حياة العزلة والابتعاد عن الناس، وكرس معظم وقته لعمله في أسقفية صور والكتابة(92).

والمدقق في هذه الظروف سوف يفهم الموقف العدائي الذي إتخذه وليم الصوري من هرقل. لم يستسلم وليم الصوري بعد إبعاده عن منصب البطريركية، فقد كانت لديه قناعة بأن اختيار هرقل تم بطريقة غير قانونية، ولذلك صمم على التقدم بشكوى إلى المحكمة البابوية في روما، كما فعلها من قبل رئيس أساقفة قيصرية وأسقف بيت لحم برفع دعواهما سنة 1158م إلى المحكمة البابوية ضد انتخاب البطريرك أمليرك، وهو السابق لهرقل والذي تم اختياره عن طريق مليسندا الملكة الأم في ذلك الوقت. وعلى الرغم من أن المحكمة البابوية رفضت هذه الدعوة، فإن وليم الصوري عزم على تقديم دعواه إلى المحكمة البابوية(93).

لم يكف هرقل من جانبه عندما علم بذلك عن التضييق على وليم الصوري بوصفه خطراً على الحزب الذي ينتمي إليه (94)، وراح يحيك المؤامرات ضد وليم، ونجح بعد عام واحد من اعتقاله سدة الكرسي البطريركي. ففي الثاني من أبريل سنة 1181م، وفي احتفالية ما يُعرف بخميس العهد (95) كان البطريرك هرقل واقفاً على جبل صهيون يقوم بالمسح بالزيت المقدس (من الطقوس الدينية المسيحية)، وإذا به يعلن فجأة قرار الحرمان (96) ضد رئيس أساقفة صور (وليم الصوري) دون أي محاكمة أو اتهام، ودون أي حق؛ مما يخالف سنن العدالة(97).

وبعد محاولات عقيمة لرأب الصراع بينهما، رحل وليم الصوري سنة 1182م إلى روما للدفاع عن قضيته لدى البلاط البابوي، ومكث هناك حتى مات (98). وقد نسب بعض المؤرخين إلي هرقل بأنه كان سبباً في وفاة وليم الصوري، وذلك بأن أرسل معه من دس له السم في روما(99) ولكن ليس ثمة دليل يؤكد ذلك.

بطريركية بيت المقدس في عهد هرقل:

أظهر هرقل مرونة سياسية خلال فترة إدارته لشئون البطريركية، كما نجح في إدارة

عدة أزمات تعرضت لها مملكة بيت المقدس في تلك الفترة. ويأتي في مقدمة هذه المسائل ترأسه لبعثة ملكية إلى مدينة أنطاكية سنة 1181م، بهدف التوسط بين أمير أنطاكية بوهيموند الثالث وبطريكها إيميرى من ليموج *Aimery of Limoges*، وذلك بسبب زواج بوهيموند المخالف لقواعد الكنيسة (100).

ويعود هذا النزاع إلى عام 1180م، وبعد موت الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين (1143-1180م)، حيث قام بوهيموند بتطليق زوجته ثيودورا (ابنة يوحنا أخو الإمبراطور مانويل) وأخت مارية أرملة الملك الصليبي عمورى الأول، واتخذ لنفسه امرأة ساقطة تُدعى سيبيل *Sibylle* صديقة له. وكان نبلاء أنطاكية يكرهونها؛ لأنها كانت جاسوسة تتلقى الأموال من صلاح الدين الأيوبي لقاء معلومات تتصل بالجيش الصليبي وتحركاته، ربما لم يكن هذا هو السبب الحقيقي وإنما وجد رجال الدين في ذلك مخالفة لشريعة الكنيسة، ولذلك ساند النبلاء البطريرك إيميرى في محاولة إقناع بوهيموند بترك حياة الفسق التي يجيهاها، ولما عجز عن ذلك أصدر البطريرك قرار الحرمان ضد بوهيموند، كما أصدر قرار حرمان جماعي ضد الإمارة كلها، لكن بوهيموند لم يمثل للقرار، واستمر في خطيئته، وعامل رجال الدين معاملة سيئة، وحاصر البطريرك وبقية رجال الدين في قلعة تابعة لبطريركية أنطاكية (101).

وإزاء هذه المشكلة عقد الملك الصليبي بلدوين الرابع مجلساً ملكياً حضره بطريرك القدس هرقل، وعدد من كبار النبلاء ورجال الدين، وتقرر فيه إرسال وفد من المملكة للأمير الأنطاكي لإنهاء هذا النزاع (102). وقد ضم الوفد الذي رافق هرقل كل من رينو دى شاتيون (أرناط) (103)، إضافة إلى مقدمي الاستبائية والداوية، فضلاً عن بعض رجال الدين بالمملكة ومنهم ريموند الثالث أمير طرابلس، والذي كان من أقرب أصدقاء بوهيموند الثالث. ولقد كانت مهمة ناجحة للوفد الملكي وللبطريرك هرقل. وهذا يعطى دليلاً على المهارة الدبلوماسية للبطريرك، فيذكر أنه بعد اجتماع تمهيدي عُقد مع بوهيموند وبطريرك أنطاكية تم عقد عدد من الجلسات المستقلة في مقر الأمير تارة وفي البطريركية تارة أخرى، تم

إقناع الطرفين لحضور اجتماع مشترك يجمع بينهما في كنيسة أنطاكية، وتم إقناع بوهيموند بإعادة ما صادره من أملاك الكنيسة، وفي المقابل رفع البطريك قرار الحرمان عن الأمير، كما وافق بوهيموند على الانفصال عن صديقه سييلا وإعادة زوجته ثيودورا المعصومة، وتم توقيع اتفاق المصالحة أمام البطريك ورفاقه، ويُعد هذا انتصاراً لدبلوماسية الناجحة (104).

ومن الجوانب المهمة - أيضاً - والتي أولاهها البطريك هرقل، محاولته من أجل استعادة جزء من الصليب المقدس، والذي كان قد سبق أن أرسل إلى أوروبا في عهد البطريك فولشر Fulcher 105 (المتوفى سنة 1157م)؛ ليكون بمنزلة مزار بديل للمسيحيين غير القادرين على نفقات الحج إلى القبر المقدس بفلسطين. ويبدو أنه تم الاستيلاء عليه بالتواطؤ من الدوق كونراد الثاني أف داقو (106) Duke Conrad II of Dachqu، ولم تتمكن قوانين الكنيسة من استعادته، ولذلك فقد قدم كونراد الثاني لمقابلة البطريك هرقل أثناء قدومه للحج في الأراضي المقدسة، وتوسل إليه في السماح له بامتلاك الأثر المقدس، ولقد قبل البطريك فراضاً على الدوق مقابل ذلك ضرورة استعادة بعض الممتلكات الأخرى المستولى عليها من كنيسة القبر المقدس، وقد تم له ذلك، وبذلك تمكن من استعادة الكثير من الممتلكات التي فقدتها كنيسة القبر المقدس في العهود الماضية (107).

والواضح أن هرقل اكتسب صداقة البابا لوكيوس الثالث (108) Lucius III 1185 - 1181م؛ لذلك فقد طلب منه التدخل في حسم خلاف وقع بين ديرين من أكبر الأديرة بالأراضي المقدسة، وهما دير معبد السيد ودير معبد القديسة مريم في وادي جوسفات (109)، وقد نشب الخلاف بينهما؛ بسبب عدة أمور منها ضرائب العشر التي كان يجبيها الدير الأول من قرية صافي (110) الواقعة على حدود إقطاعية نابلس، ومن بعض الأراضي المحيطة بها. وكذلك ضرائب العشر الخاصة بنصف قرية ميتلون (111) Metalun شمال نابلس)، وعلى الرغم من اتفاق رجال الدين على حل هذه المشكلات، لكنه تكرر في سنة 1186م؛ الأمر الذي جعل البابا لوسيوس يطلب من البطريك هرقل التدخل لفض هذا النزاع، ونجح هرقل في جمع مقدمي الديرين، وتم عقد اتفاق بينهما بحضور

حشد كبير من رجال الدين اللاتين الذين شهدوا على الوثيقة التي تضمنت شروط الاتفاق التي تم تأكيدها أيام البطريك هرقل(112).

ومن أنشطة هرقل الأخرى محاولته التدخل لإخضاع كنيسة أنطاكية يعقوبية(113)، مستغلاً حدوث نزاع داخلي على منصب البطريكية بين بطريك أنطاكية إيميرى وأحد رجال الدين، ويُدعى ثيودور وابن Theodore Wahbun الذي طلب من هرقل بطريك بيت المقدس مساعدته لإخضاع كنيسة أنطاكية يعقوبية للبابوية، وذلك مقابل أن يصبح ثيودور بطريكاً لها. ويذكر ميخائيل السرياني أن هرقل وافق على هذا الاقتراح وخاصة أن ثيودور أرفق ضمن اتفاقه عرض بتقديم ألف دينار هبة منه إلى دير مريم المجدلية في القدس. وتم الاتفاق على أنه سوف يتسلم المنصب بعد عودته من رحلة هرقل إلى الغرب(114). ولم يُكتب النجاح لتلك المحاولة، وظل دير مريم المجدلية تحت سيطرة رجال ميخائيل السرياني، وهو الدير الذي سيلعب دوراً إبان تنويع سيبيل ملكة لبيت المقدس سنة 1186م(115).

كما أبدى هرقل براعة. أيضاً في الأمور المالية وتدبير أمور البطريكية، فيذكر أنه سبق تعيينه هو ووليم الصوري عام 1183م كأوصياء على الحصيلة المرتقبة للضرائب العامة التي فرضت على المملكة اللاتينية، وكذلك الإشراف الكامل على كافة الهبات التي تقدم لكل من المدينة المقدسة وعكا، وقد اختص هرقل بأمور بيت المقدس، أما وليم الصوري فقد وكل بمدينة عكا. وقد لاحظ المراقبون دقة النظام الإداري الذي عمل به البطريك هرقل، وقد ربطوا بين الضريبة التي فرضت في القدس والضريبة التي كانت مفروضة في كل من إنجلترا وفرنسا التي صدرت عام 1166م، وبين وجود هرقل في هذا التاريخ في أوروبا وفكرة فرض الضريبة في القدس بالشكل المتبع في تحصيلها في كل من إنجلترا وفرنسا(116).

لم يتوقف الأمر عند ذلك فالآراء تميل. أيضاً. إلى أن ظهور العملة فئة المائة في القدس عام 1185م يكمن في وجود البطريك هرقل في أوروبا، وبتأثير مقابلاته التي عقدت مع عواهل أوروبا سواء في فرنسا وإنجلترا، وهي نفس الفترة التي أُقرت خلالها الوحدة المالية فئة

المائة (117). وهذه شهادة من المراقبين الذين قاموا بدراسة تلك الضرائب التي أشرف علي تحصيلها البطريك هرقل، والتي تدل على حدة ذكائه ومحاولاته في تطوير الأنظمة المالية في بطريكية القدس، وجعلها تتماشى مع النظم الأوربية التي شاهدها أثناء رحلته إلى أوروبا.

أما عن نشاط هرقل الحربي ومشاركته في الأعمال العسكرية في تلك الفترة التي تولى فيها بطريكية بيت المقدس، فمن المعروف أن دور البطريك يتمثل في رفع الروح المعنوية لدى المحاربين وهو يرفع الصليب المقدس كي تحل البركات على المحاربين الصليبيين، ولذلك نذكر عنه أنه شارك الملك بلدوين الرابع في صد هجوم صلاح الدين عندما التقى الجيشان أسفل قلعة فرسان الاسبتارية والمعروفة بكوكب الهواء (118)، وقد صمد الصليبيون لهجمات صلاح الدين، دون أن تنجح هجماتهم المضادة في كسر صفوف المسلمين، وفي آخر النهار انسحب كل جانب زاعماً إحراز النصر على الآخر.

وقد رافق البطريك هرقل الملك الصليبي في حملته العسكرية في وادي يزرعيل (119) في حملة فاشلة أوائل عام 1183م.

كذلك اختلف بلدوين مع جاي لوزجنيان زوج أخته سيبيلا (120) وطلب من أخته إبطال زواجها من جاي لوزجنيان (121)، وأصدر أوامره إلى البطريك هرقل لكي يتخذ كافة الإجراءات لإحضار جاي وزوجته إلى حضرته، ليبين لهما أمامه عدم شرعية زواجها ويعلن بطلانه. غير أن البطريك أخذ يماطل في تنفيذ رغبة الملك، بل قام بلفت نظر جاي إلى ضرورة الابتعاد وزوجته عن القدس حيث وجود الملك (122).

على أية حال، وصل بلدوين الرابع إلى مدينة عكا (123) حيث دعا إلى عقد مجلس مشورة ضم جميع بارونات المملكة والأساقفة، وكان ضمن بنود هذا المجلس الاتفاق على إرسال بعثة إلى أوروبا لطلب المعونة المادية والبشرية للمملكة. غير أن قدوم البطريك هرقل وبصحبته عدد من فرسان الاسبتارية والداوية ومقدميهم لفتوا انتباه الحاضرين إلى موضوع آخر غير البعثة التي ستتوجه إلى أوروبا، فقد طلبوا رضا الملك عن الكونت جاي

لوزجنيان(124). واستناداً إلى حولية تاريخ هرقل فإن البطريك جثا على ركبتيه متضرعاً إلى الملك أن يعدل عن عزل جاي من الوصايا قائلاً: "قد تطيح بالجميع وتفطر عقدهم أمام مخاطر خارجية متربصة". لكن الملك لم يستمع لهم، ولم يستجب إلى ما طلبوه، فضاقت صدورهم من الملك، وتركوا الجلسة، ورحلوا عن عكا عازمين على أن يعثوا برسائل إلى ملك فرنسا لويس السابع يرجوه أن يأتي لإنقاذ المملكة الصليبية من حرب أهلية وشيكة قد تدمرها(125). في حين يذكر رانسيما أن الملك بلدوين كان غاضباً من البطريك هرقل ومقدمي الإسبتارية والداوية لما أظهره من إبطاء في السفر إلى الغرب الأوربي لطلب مساعدات للمملكة(126).

ونظراً للظروف السيئة التي كانت تمر بها المملكة من انقسام وسوء حالة الملك الصحية، في أوائل عام 1184م . أرسل الملك بلدوين الرابع إلى ابن خالته ريموند أمير طرابلس لمباشرة إدارة الحكومة. وفي نفس الوقت تم إرسال بعثة ملكية لطلب العون من الغرب الأوربي، وقد تألفت هذه البعثة من البطريك هرقل ومقدمي الاسبتارية والداوية، وأبحرت إلى إيطاليا في ربيع عام 1184م(127).

وتُعد هذه البعثة هي الثالثة للبطريك هرقل يتوجه فيها إلى الغرب الأوربي كبعوث رسمي وهذا على مدار اثني عشر عاماً، لكن هذه المرة اختلفت عن سابقتها في عام 1178م، وعن البعثة الأولى سنة 1172م. لأنها جعلت من هرقل محط الأنظار لشهور عديدة من خلال منصبه كرئيس ومتحدث رسمي باسم البعثة، حيث دافع عن قضية تعرض المملكة اللاتينية للخطر في حضرة البابا لوكيوس الثالث في روما. ثم أمام الإمبراطور فردريك الأول برباروسا Fredrik I Barbarosa 1152 - 1190 (128) في فيرونا بألمانيا في نوفمبر عام 1184م. وفي يناير 1185م توجه هرقل مع الوفد الملكي إلى باريس حيث تقابل مع الملك فيليب الثاني أغسطس (129) Augustus Philip II (1180 - 1230م) وطلب منه المساعدة في إنقاذ المملكة من الأخطار المحدقة بها. وأخيراً وفي أبريل من نفس العام حطت أقدام البعثة إنجلترا، ووقف هرقل متحدثاً في حضرة الملك هنري الثاني

Henry II م (1154-1189م) (130). لقد كان هذا المشهد لأحد بطاركة بيت المقدس متنقلاً بين بلدان أوروبا الغربية طالباً المساعدة لإنقاذ مملكة اللاتين بالقدس، ومقديماً لمفاتيح كنيسة القيامة لملوك أوروبا، ومبشراً بالصليب المقدس، كل هذا كان له بالغ الأثر في نفوس ملوك أوروبا(131).

ومهما يكن من أمر، فقد قوبلت البعثة بأسمى آيات الترحيب من قبل ملوك الغرب، وتناقشوا معها في الخطط وترتيبات إرسال حملة صليبية جديدة، ولكنهم كانوا يسوقون الذرائع التي تحول بينهم وبين قيادة تلك الحملة المرتقبة(132). وعلى الرغم من الإشادة الكبيرة بجهد هرقل ودوره المحوري في هذه البعثة، حتى ذكر أحد المؤرخين قائلاً: "إن جهد هرقل الفردي هو الذي جعل من بعثته واحدة من أفضل الأحداث المسجلة في التاريخ الصليبي(133). فإن تحيز المؤرخ أرنول قد بدا واضحاً إذ نراه يبالغ كثيراً في ذكر نقائص هرقل سواء كانت حقيقية أم ملفقة، فقد تجاهل أمر البعثة تماماً في كتابه ولم يتطرق لها من قريب أو بعيد، وهذا دليل على تحيزه وكرهيته للبطريك. هذه الأعمال الجيدة التي قام بها هرقل ربما ترد على بعض المصادر التي حاولت النيل من حنكته وقدرته ونشاطه السياسي المؤثر.

هرقل ومسألة فرض السيادة الأوربية على القدس:

هدف البطريك من خلال مقابلاته مع ملوك أوروبا إقناع أحدهم بضرورة فرض سيادته على المملكة الصليبية المتصدعة داخلياً، والمحاطة بالأخطار خارجياً. وقد دار الكثير من التساؤلات فيما إذا كان البطريك هرقل مفوضاً أو مكلفاً بتحقيق هذا الهدف، لكن الواضح أنه على الرغم من تواصل هرقل مع الملك الصليبي فإنه لم يتحدث باسم الملك، بل قام هو بذلك من تلقاء نفسه، فقد قام الملك الصليبي بلدوين الرابع قبل عامين مطالباً حكام أوروبا بحماية بلاده على الرغم من أن الملك كان متماسكاً صحياً، أما الآن وبمرور عامين فظروف المملكة تغيرت تماماً؛ نظراً لمرض الملك وعدم قدرته على قيادة المملكة، إضافة إلى الصراعات المقبلة عليها المملكة الصليبية.

على أية حال، قام البابا لوكيوس الثالث بإعداد رسالة إلى الملك هنري الثاني

حملها هرقل نفسه أثناء توجه البعثة لمقابلته، وقد شرح فيها البابا ملخصاً لما دار في مجمع فيرونا الديني من مناقشات. وقد أكد البابا في مضمون رسالته أن الأراضي المقدسة ينقصها حماية الملك هنري، وأن أهلها من الصليبيين يضعون أملهم الوحيد على تأييده لهم (134). وقد ذُكر على لسان ما كتبه أسقف ويلز جيلارد أن البطريرك هرقل قدّم هذا العرض (حماية الأراضي المقدسة) نيابة عن الملك الصليبي، ومقدمي الداوية والاسبتارية والداوية، وبموجب استحسان رجال الدين، وتأييد الشعب الصليبي داخل فلسطين، وتأييد هرقل نفسه عندما فقد الأمل في الملك بلدوين المريض وكل المحيطين به (135).

ومن خلال هذه البعثة وأحداثها في الكثير من البلدان الأوربية برزت شخصية البطريرك هرقل بصورة أوضح من ذي قبل، حيث ظهرت أحاسيس هرقل الداخلية، ففي بداية تحرك البعثة جثا هرقل على ركبته أمام الملك بلدوين الرابع (136)، وقد تكرر نفس المشهد أمام الملك الإنجليزي هنري الثاني متوسلاً بالدموع، طالباً منه القدوم بنفسه لإنقاذها. وقد سجلت كتابات المؤرخين حديثه وصلابته وشجاعته وهو في البلاط الملكي الإنجليزي محاوراً الملك هنري بكل لباقة وشجاعة، وذلك عندما قدّم له الملك المال، فرد عليه قائلاً: "نحن نطلب رجلاً يحل محل الاحتياج المادي، وليس مالا في حاجة إلى رجل". (أي أن المملكة اللاتينية في حاجة إلى قيادة قوية أكثر من حاجتها للأموال) وفي هذا المجال برزت مقدرة هرقل الفائقة في البلاغة بالشكل الذي جعل حديثه مؤثراً في مستمعيه (137).

وعلى الرغم من كل ذلك فقد أنهت البعثة أعمالها في أوروبا، وعادت خالية الوفاض عقب الوعود البراقة التي وُعدوا بها، فكان كل ما تحصلوا عليه عند عودتهم عددٌ قليل من الفرسان الذين حملوا الصليب وتوجهوا إلى الشرق (138)؛ الأمر الذي أثار علامات الاستياء الشديدة في وجه البطريرك هرقل عندما عاد إلى الشرق (139).

على أية حال، فقد عادت البعثة إلى القدس في أول أغسطس 1185م، في وقت كان فيه الملك الصليبي طريح الفراش لا يستطيع الحركة، وكان قد أعلن وصيته في وقت مبكر من هذا العام، فأوصى بأن يخلفه على العرش ابن أخته بلدوين الخامس تحت وصاية

ريموند الثالث كونت طرابلس، وقد أقسم البارونات على إنفاذ رغبة الملك، وكان من بينهم البطريك هرقل العائد توأماً من رحلته إلى أوربا، وقام بتتويج الطفل بلدوين الخامس في كنيسة الضريح المقدس (140).

توفي الملك الصليبي بلدوين الرابع في أواخر عام 1185م، وانتقل الحكم إلى بلدوين الخامس تحت وصاية ريموند الثالث، ولم يكن نشاط البطريك هرقل فعالاً في تلك الفترة بالقدر الكافي، وكل ما ذُكر عنه من نشاط في تلك الفترة أنه ساند قضية امتيازات التجار الجنوبيين في المملكة وخاصة أن البابا أوربان الثالث (1185 - 1187م) أرسل إليه في مارس 1186م طالباً منه إقناع حكومة المملكة بأن تُعيد الأملاك التي تم مصادرتها من الجنوبيين في المملكة، وإرجاع كافة الحقوق التي كانوا يتمتعون بها من قبل (141). وفيما يبدو أن البطريك هرقل نجح في تحقيق مطالب البابا أوربان الثالث واستعادة حقوق الجنوية في المملكة (142).

توفي الملك بلدوين الخامس في عكا في نهاية أغسطس 1186م، ولم يتجاوز التاسعة من عمره (143)، وبعد وفاته عاد نشاط البطريك هرقل إلى الظهور مرة أخرى، خاصة في الدور الذي لعبه في تتويج جاي لوزجنيان وزوجته سيبيل على عرش مملكة بيت المقدس. فتذكر المصادر أن ريموند الوصي كان حاضراً وفاة بلدوين الخامس ومعه جوسلين، وطلب الأخير من ريموند التوجه إلى طبرية (144) لدعوة بارونات المملكة للاجتماع به هناك؛ حيث المأمّن من مؤامرات البطريك هرقل، ولكي تُنفذ وصية الملك بلدوين الرابع (145).

سارع حزب البطريك هرقل والذي ضم إلى جانبه جوسلين وأرنات إلى التخلص من ريموند وذلك بإعلان سيبيل ملكة، وأرسل إليها للحضور هي وزوجها جاي لوزجنيان، وقد أكد لها البطريك هرقل مساندة المؤسسة الكنسية، وكذلك مقدم الداوية، كما كان جمهور القدس يحمل تعاطفاً مع سيبيل بوصفها صاحبة الحق الوراثي في العرش؛ فأخوها بلدوين الرابع وابنها بلدوين الخامس، وكانت نقطة الضعف تتركز في كراهية النبلاء لزوجها جاي

لوزجنيان(146).

وقد أمر البطريك هرقل بإغلاق بوابات مدينة القدس بمساعدة فرسان الداوية، لمنع أي هجوم محتمل يقوم به البارونات المجتمعون في نابلس بقيادة ريموند الثالث، وأعد البطريك العدة لتتويج سييلا، وقد دعاها هرقل مخاطباً: "يا سيدة الشهرة والممالك والمصالح الشخصية التي تخدم المملكة"(147). ويذكر أن البطريك طلب من سييلا قبل تتويجها الطلاق من جاي والزواج من رجل نبيل آخر (148). وربما يكون قد أخذ منها وعداً بذلك، وقام البطريك بتتويج سييلا، ولكنه وضع تاجاً ثانياً إلى جانبها. ويذكر رانسيمان أنه بعد أن وضع التاج فوق رأسها دعاها لاستخدام التاج الثاني لتتويج الرجل الذي تظنه جديراً بحكم المملكة(149).

استغلت سييلا الفرصة وأجابت بدهاء بأنها لا تستطيع أن تنعم بالتاج إلا على رأس زوجها جاي لوزجنيان، وعلى هذا فقد تُوج جاي كملك بناءً على أمنية وقرار من زوجته سييلا. وقد أثارت مسألة سماح البطريك للملكة سييلا بوضع تاج على رأس زوجها، وقيامه بمسحه بالزيت شكوكاً كبيرة، فقد أظهر ذلك هرقل متخطياً للعادات والأعراف في تتويج الملوك بدون ذكر سبب مقنع، ولقد فسر البعض هذا الحدث بأن هرقل كان غير راضٍ أن يضع التاج على رأس جاي المكروه لدى شعب القدس الصليبي(150).

ومن الواضح أنه كان هناك تواطؤ من البطريك في عملية التتويج؛ لأن هرقل كان غير متقبل لاستمرار ريموند كونت طرابلس في عملية الوصاية على المملكة، وخاصة بعد فشله في إقناع ملوك أوروبا للقدم، وجعل القدس تعتمد مباشرة على قوة أوربية. ومن هنا قرر هرقل تدعيم جاي لوزجنيان؛ لكونه الأفضل من بين المرشحين المحليين، واستخدام مكيدة الطلاق الذي طلبه من الملكة، مجرد وسيلة لهزيمة خصوم جاي لوزجنيان الذين كانوا يتربصون اللحظة الحاسمة لتتويج سييلا بمفردها(151).

لا شك أنه كان من مصلحة هرقل وجود سييلا وزوجها على رأس المملكة، فهذا معناه استمراره في منصب البطريكية؛ لذلك لا غرابه في إصراره لتتويج سييلا ملكة على

القدس؛ ليقطع الطريق عن رجلٍ قويٍ مثل ريموند الثالث أو غيره من الأمراء الأقوياء الطامعين في العرش. ولاشك أن هذا التتويج كان سبباً من أسباب اضمحلال وسقوط مملكة بيت المقدس في حطين على يد صلاح الدين. وعلى أية حال، فقد أدى الجميع فروض الولاء للملكهم وملكتهم الجديدين، وإزاء هذا التتويج رضخ ريموند وحزبه للأمر الواقع. وقد قام الملك جاي والبطريك هرقل بإرسال مبعوثين في أبريل 1187م إلى طبرية لمصالحة ريموند وتلطيف الأجواء (152).

وبينما كانت المملكة تعصف بها المشاكل الداخلية، كانت الهدنة مع المسلمين (153) تزداد تماسكاً، وكان باستطاعة الملك جاي تصحيح الأوضاع بالمملكة؛ لأن هذه الهدنة عادت بالخير الوفير لكلا المملكتين. فقد ارتحلت قافلة ضخمة من القاهرة في طريقها إلى دمشق في نهاية عام 1186م، حيث انقض عليها ريجينالد دي شاتيون (أرناط) فقتل عدد من الجنود المرافقين لها، وأخذ التجار وممتلكاتهم إلى قلعة الكرك، ولما علم صلاح الدين بذلك أرسل إلى أرناط يطلب منه إطلاق سراح السجناء، وتعويضهم عن خسائرهم، ورفض أرناط طلب صلاح الدين، كما رفض طلب الملك الصليبي بالإفراج عن هؤلاء السجناء، وأصبحت الحرب وقطع الهدنة أمراً متوقعاً (154).

وأصبحت المملكة منقسمة على أمرها في مواجهة نذر الحرب القادمة، التي بدأ الطرفان الاستعداد لها، وقد طلب الملك الصليبي من البطريك هرقل القدوم إلى عكا، ومعه الصليب المقدس، لكن هرقل رفض القدوم متعللاً بوعكة صحية (155)، وعهد بالصليب المقدس إلى رئيس دير رهبان القبر المقدس ليسلمه لأسقف عكا (156). وعلى الرغم من اتهام البطريك بالتقاعس عن المشاركة في المعركة، لكنه قام بإرسال خمسمائة جندي للانضمام للجيش الملكي، وهي العادة التي كانت تقدمها بطريكية بيت المقدس أثناء المعارك (157).

محاولات هرقل إنقاذ القدس من السقوط في يد صلاح الدين:

مهما يكن من أمر الجيش الصليبي، الذي لقي هزيمة ساحقة في حطين في الرابع من يوليو 1187م، فقد نجحت من القتل أعداد قليلة وقعت في الأسر، وعلي رأسهم الملك

الصليبي نفسه، وعدد كبير من نبلاء وأمراء المملكة، الذين اقتيدوا إلى خيمة صلاح الدين التي نصبت في ساحة المعركة (158). وبعد هذا الانتصار المدوي وما تبعه من تهاوي الكثير من المدن والقلاع الصليبية، وسقوطها في يد قوات صلاح الدين، توجه صلاح الدين إلى بيت المقدس في سبتمبر 1187م، حيث تم إحكام حصار المدينة المقدسة، وهناك استقبل صلاح الدين وفداً سرياً من أهل القدس لمناقشة شروط رفع الحصار، لكن الوفد رفض التسليم، "وأقسم صلاح الدين بأنه سوف يأخذها (القدس) بالسيف" (159).

سأدت أحوال المدينة المقدسة مع تشديد الحصار عليها من جهة وقلة المدافعين عنها من جهة أخرى، وجاءت النجدة لأهل القدس في شخص باليان الأبليني، وكان من القلائل الذين نجوا من معركة حطين وهربوا إلى مدينة صور (160)، فقد قدم إلى القدس وطلب الإذن من صلاح الدين لدخول المدينة لإحضار زوجته وأولاده للعودة بهم إلى صور، ولي صلاح الدين طلبه شريطة أن يمضي في القدس ليلة واحدة ولا يحمل سلاحاً (161). وعندما دخل باليان المدينة وجد البطريك هرقل ومقدمي الاسبتارية والداوية يهيئون المدينة للدفاع والمقاومة، ولكن كان ينقص المدينة القائد الذي يمكن أن يقود المقاومة، وعندما وجدوا باليان طلبوا منه البقاء معهم للدفاع عن المدينة المقدسة (162).

قرر البطريك ورفاقه من المقاومين عدم التسليم، لذلك انضمت إليه جموع المدينة في مطالبة باليان البقاء، وتولي زمام القيادة وتحمل مسؤولية الدفاع عن المدينة المقدسة، وقد انضم القساوسة ورجال الدين في حمل السلاح إلى جانب المدافعين (163)، وعلي الفور قام هرقل بتبرئة باليان من اليمين الذي أقسمه أمام صلاح الدين بعدم البقاء في المدينة، وهذه سابقة من نوعها (164)، إضافة إلى ذلك فلقد وافق هرقل علي مطلب باليان بأن يتم الاعتراف به ملكاً علي القدس، وأن يتلقي الإجلال والولاء، علي الرغم أن الملكة سيبيللا كانت لا تزال بالمدينة (165). فلقد كان هرقل يريد إنقاذ المدينة المقدسة، فلجأ إلى الموافقة علي الحل السياسي الأكثر جوهرية، لذلك قدم إلي باليان كامل تأييده، فقام هرقل بتفكيك أغطية القبر المقدس الفضية، وذلك لاستخدامها في سك العملات المعدنية التي سوف تدفع

تغطية لمطالب المدافعين عن المدينة المقدسة يوماً (166)

ولم تتوقف جهود البطريرك هرقل عند هذا الحد، فذكر عنه أنه أرسل إلى البابا أوربان الثالث Urban III (1185-1187م) عقب هزيمة حطين، وقبيل حصار بيت المقدس من قبل قوات صلاح الدين، يطلب منه المساعدة المالية والبشرية الفورية التي تساعدهم في صد هجوم القوات الإسلامية عليها، وحذر البابا بأنه لا يمكن للمدينة المقدسة ولا مدينة صور الصمود لأكثر من ستة أشهر فقط علي أقصى تقدير، مشيراً للحاجة الماسة لأهل القدس الذين قيدت حركتهم، وأصبحت قاصرة علي داخل الأسوار؛ لتوقعهم وصول قوات صلاح الدين في أي لحظة، وفي نهاية رسالته أوضح هرقل للبابا أن هزيمة الصليبيين في حطين وضياع الصليب المقدس كان نتيجة غضب إلهي غير مفسر، وليس كعقاب لخطايا المسيحيين (167). وهو ما يؤيده المؤرخ المجهول عندما ذكر أن صلاح الدين لم يدع وسيلة من وسائل تحقيق رغبته في دخول القدس إلا واتبعها؛ مما ضيق الأمر بالصليبيين داخلها (168).

استمر البطريرك هرقل في تعزيز المقاومة داخل أسوار القدس بمشاركة باليان الإبليني، وذلك خلال ثلاثة عشر يوماً من بداية الحصار، وبعد تمكن المسلمين من إحداث ثقب داخل أحد الأسوار (169)، فقد ذكر أحد المدافعين عن المدينة أنه سمع أن البطريرك هرقل وعدداً من أغنياء المدينة وعدوا بدفع خمسة آلاف بيزنت Bezants (170) وأسلحة سوف توزع على نحو خمسين رقيباً لحراسة الحائط المثقوب في الليلة الواحدة. ويتعجب أحد المؤرخين قائلاً: "حتى بعد هذا العرض السخي لم يستطع هرقل أن يجد خمسين مدافعاً" (171). وهو ما يدل على يأس المدافعين عن المدينة أمام شدة الحصار المفروض عليها.

تساور المدافعون عن المدينة فيما بينهم فيما يجب عليهم عمله، ثم تشاوروا مع البطريرك هرقل وباليان الإبليني، وأخبروهما برغبتهم في الخروج تحت جنح الظلام لمهاجمة الجيش الإسلامي المحاصر للمدينة؛ وذلك لأن الموت في ساحة القتال أشرف عندهم من الوقوع في الأسر ملطحين بالعار، "وأن الأشرف لهم أن يلقوا منيتهم في البقعة التي لقي فيها

السيد المسيح من أجلهم، وهذا أشرف لهم من تسليم مدينتهم للمسلمين" (172).
في تلك اللحظات الحاسمة استخدم البطريرك هرقل خبرته وبلاغته في المرافعة لإقضاء أهل القدس عن القيام بهذه الخطوة اليائسة، مستخدماً حكمته في الإشادة في البداية بخطتهم مؤكداً على الواجب المسيحي لمستعميه تجاه نساءهم وأطفالهم وعجائزهم، متحاشياً بذلك أية إشارة إلى حفاظهم على أرواحهم (173). ويؤكد المؤرخ المجهول أن البطريرك ذكر مستمعيه قائلاً: "أيها السادة ما أحسب هذا الرأي إلا رأياً خطيراً؛ لأن هناك اعتباراً آخر، فلو كان خلاصنا بتعرض أنفسنا للخطر، فليس هذا بالعمل الصحيح، فإنه يوجد إزاء كل واحد في المدينة خمسون امرأة وطفلاً، فلو متنا أخذ المسلمون النساء والصغار، وربما لم يقتلوهم لكن يردونهم عن ملتهم وإيمانهم بعمسى المسيح، فيخسرهم الرب عن بكرة أبيهم" (174)، ولذلك رأى التفاوض من أجل الخروج الآمن للجميع والذهاب إلى البلاد التي في يد الصليبيين، فهذا أجدى من الحرب الخاسرة (175).

وقد انتقد المؤرخ رينيه جروسيه هذا العرض من قبل البطريرك هرقل بشدة، وعدّه عرضاً انهزامياً، وقام بعرض وتذكير القراء بالبطاركة الذين دافعوا عن المدينة المقدسة في السابق، وذكرهم بالكثير من الأسى (176).

على أية حال، فقد كان لكلمات البطريرك وقع الهدوء والسكينة على جميع الثائرين، فاستجابوا لحديث هرقل واستمعوا لصوت العقل، وألتمسوا من باليان الإبليني أن يمضى إلى صلاح الدين للتوصل معه إلى اتفاق، ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب ذيل وليم الصوري: "بأن الرعاع الذين استولي عليهم الجبن واستبد بهم الخوف هرعوا إلى البطريرك هرقل والملكة سيببلا يسألونهما أن يعجلا بالاتفاق مع السلطان صلاح الدين وتسليم المدينة" (177).
ومهما يكن من الأمر، فقد نجحت القوات الإسلامية في رفع راياتها فوق أسوار المدينة المقدسة، وقد دارت بينهما حوارات كلامية حفظتها لنا المصادر الإسلامية والصليبية (178) و بالتالي حقق المسلمون حلماً طالما روادهم لأجيال وأجيال !!
واصل البطريرك هرقل وباليان المحادثات والمساومات على الأموال المطلوبة مقابل

السماح لأهل القدس بالرحيل عن المدينة، وعمل هرقل على استدعاء كبار رجال المدينة للتباحث في كيفية توفير الأموال المطلوبة؛ لدفعها كفدية مقابل الخروج الآمن لهم من القدس (179). ومن أجل نفس الغاية تمكن هرقل وبالبيان من إقناع الاستبارية في المدينة أن يضعوا الأموال التي أرسلها الملك الإنجليزي هنري الثاني (180)، والتي تقدر بثلاثين ألف بيزنط؛ لدفعها كفدية لحوالي سبعة آلاف من فقراء المدينة المقدسة ومعدميها (181)

ومن أجل الحصول على أكبر قدر من المال من القادرين الذين ييخلون عن تقديم الأموال لجأ البطريك هرقل وبالبيان إلى تعيين رجلين في كل شارع من شوارع المدينة؛ لجعل كل مواطن يقسم عما يمتلكه من ثروة، وذلك لكي يتمكنوا من تحديد العدد الفعلي للمواطنين المحتاجين للمساعدة. ومن خلال هذه الخطة البارعة تم استخدام الفئاض الذي أخذ من القادرين الذين كان سيتم إعتاقهم بمساعدة الأموال الإنجليزية، وتم استخدامها في شراء الحرية لآخرين لم يكن في استطاعتهم دفع الفدية المقررة عليهم (182).

وعلى الجانب الآخر، فقد وافق السلطان صلاح الدين على تخفيض الفدية حتى يفيد منها أكبر قدر من المحتاجين غير القادرين، حتى تم الاتفاق على أن يدفع كل قادر من الرجال عشر بيزنطات، والمرأة خمسة والطفل بيزنتاً واحداً، وأن يحملوا معهم كل ما لهم، وما يبيعه وما يرهونه ثم يخرجوا آمنين من غير ضرر يلحقهم أو أذى يصيبهم (183). وتأكيذاً للاتفاق فقد قام صلاح الدين بوضع رقابة صارمة لحراسة شوارع القدس ليلاً ونهاراً، حتى أنه لم تسجل أية حادثة أصابت أحداً من الصليبيين الذين تتابع خروجهم من المدينة (184).

وعلى الرغم من تسامح صلاح الدين، فقد كان البطريك هرقل وبالبيان الابليسي يحدوهما الأمل في عطف صلاح الدين للسماح للمزيد من الفقراء الباقين في المدينة والذين قدر عددهم بأحد عشر ألفاً، فقد سمح بإطلاق سراح ألفين نظير توسلاتهما، حتى وصل الأمر بأن عرض البطريك وبالبيان أنفسهما كرهائن لدى صلاح الدين، فرفض صلاح الدين قائلاً: "لا أستطيع القبض على رجلين مقابل أحد عشر ألفاً، وأنه لن يبحث هذا الأمر بعد

ذلك" (185). وعلي الرغم من ذلك كله فقد ظل أربعة عشر ألف شخص لم يجدوا الغذاء فأقاموا في رق العبودية (186).

بدأت أفواج الصليبيين الذين تم افتدائهم الخروج من المدينة المقدسة في ثلاث مجموعات، اختار البطريك وباليان أن يقودا المجموعة الأخيرة منها؛ وذلك ليكتسبوا فرصة أكبر في محاولة إقناع صلاح الدين وإدراة عاطفته لإطلاق سراح المتبقين من الأسرى، ولكن ضاعت جهودهما هباءً، فقد رفض صلاح الدين مطلبهما تماماً وتمسك بالرفض (187). وعلي الرغم من الدور الكبير الذي لعبه هرقل سواء في الدفاع عن المدينة المقدسة، أو في عملية التفاوض مع صلاح الدين من أجل رحيل عدم القادرين عن المدينة المقدسة، فإن هناك رواية تشكك فيما قام به، فقد ذكر المؤرخ ستانلي لينبول (188) أن هرقل حمل معه كنوز الكنائس والأقداح الذهبية والبلور المطعم بالذهب حتى الصحن الذهبي الخاص بالقبر المقدس، زيادة علي كمية كبيرة من حاجاته التي كان من الأفضل استعمالها في سداد قيمة الفدية عن فقراء المدينة، وقد سبق البطريك الآخريين بدفعه العشرة قطع الذهبية وأخذ منهوباته وترك المدينة. وهذا القول مغاير للواقع الذي ذكر أن البطريك لم ييخل لا بما امتلكه في كنيسة القبر المقدس من أموال وذهب وفضه، سواء في الدفاع عن المدينة أو في فداء الفقراء، كما لم ييخل بجهد في هذا الشأن، وكان ضمن آخر دفعة خرجت من القدس. وقد تحدثت الروايات التي ذكرها المؤرخ أرنول وهو صديق باليان الألباني عن أحداث سنة 1187م مدافعاً عن صديقه ضد الاتهامات التي وجهت إليه بأنه ترك الآلاف من الصليبيين للعبودية الإسلامية، فمن الواضح أن إشارات المتكررة لكل من البطريك هرقل وباليان تدل ضمناً بأن باليان كان يعمل وفقاً لسلطة البطريك هرقل الأخلاقية، وهذا يعني أن أرنول تحلي عن تصويره القاسي لشخص هرقل وأخلاقه التي ظهرت في فصول كتابه الأولى منذ انتخابه عام 1180م (189).

وبعد تلك الجهود التي قام بها البطريك هرقل وباليان يمكن القول إن الممتلكات الكنسية في الأراضي المقدسة فقدت جميع ما حازته من أراضٍ وعقارات (190)، وذلك من

أجل تقليص أعداد الأسرى الذين سيقون في مدينة القدس، وعلي الرغم من ذلك وجهت انتقادات للبطريك هرقل بأنه ترك بعض الأغراض المقدسة في كنيسة القيامة، دون استخدامها في إعتاق المزيد من الأسرى، خاصة وأنه يعلم أنه سيخلي الكنيسة للمسلمين، لكن رأي البعض أن هرقل لم يكن ميالاً للرحيل بتلك الأثاثات أو بيعها أو حتى تحطيمها بيده؛ لأن تدينه والوقار الديني لتلك الأغراض المقدسة هو الذي دفعه إلى ذلك (191).

نشاط هرقل بعد خروجه من القدس حتى وفاته:

رحل الصليبيون المقيمون في بيت المقدس يوم الجمعة الثاني من أكتوبر 1187م، وامتألت المدينة المقدسة بالمسلمين الذين جاءوا لزيارتها " من كل فج عميق وسلكوا إليه في كل طريق" (192). وتحول قصر البطريك هرقل إلى مدرسة للصوفية، كما أقام العلماء والفقهاء المسلمون في منازل القساوسة ورجال الدين (193). واتجه البطريك هرقل إلى الساحل الشامي حيث الممتلكات التي كانت لا تزال بأيدي الصليبيين هناك في صور وأنطاكية أو إلى أوريا عن طريق تلك الموانئ (194)، وعلي الرغم من قلة المعلومات التي تناولت نشاط هرقل في بلاد الشام، فإنه ربما يكون قد شارك في صيف 1188م، في الاجتماع الذي عقده كهنة مملكة بيت المقدس؛ وذلك بهدف إعفاء الملك الصليبي السابق لبيت المقدس جاي لوزجنيان، من القسم الذي أعطاه لصالح الدين عقب وقوعه في الأسر في معركة حطين الشهيرة. وقرر البطريك مساندة جاي لوزجنيان الذي مُنع من دخول مدينة صور بواسطة كونراد دي منتفرا (195)، ولذلك حث هرقل جاي علي ضرورة التوجه فوراً لحصار عكا واقتحامها، وذلك بعد فشل حملة الإمبراطور فردريك الأول وغرقه في أحد أنهار قليقية بآسيا الصغرى عام 1189م (196)، ووقف البطريك إلى جانب المحاصرين لعكا وتحت أسوارها كانت خطبه الرنانة تحفز الجند علي التماسك وضرورة تصحيح الأوضاع، وذكر أنه عرض نفسه للأخطار أكثر من مرة خارج أسوار عكا (197)

مهما يكن من أمر، فقد أحكمت القوات الصليبية حصار عكا من جميع الجهات، وتحرك لوزجنيان إلى شمال المدينة مع بعض قواته لقيادة العمليات الحربية

هناك (198)، بينما بقي البطريك هرقل مع أساقفة عكا وبيت لحم والعديد من النبلاء في جنوب المدينة ينظمون حركة الجند، ويذكر أن هرقل اعتاد مباركة الجند المشاركين في حصار المدينة، لكنه اضطر إلى الاعتدال في تحفيز الجنود، بعدما اكتشف أن الإفراط في التحفيز ربما يؤدي إلى كارثة، وهو ما حدث بالفعل عندما هدد باستخدام قرار الحرمان الكنسي ضد المتقاعسين في بعض الهجمات علي أسوار مدينة عكا في سنة 1190م؛ الأمر الذي جعل الكثير من الجنود ينطلقون بشكل غير مدروس، وكاد الأمر أن ينتهي بكارثة محققة، ويعد هذا التهديد باستخدام قرار الحرمان الكنسي هو آخر قرار عملي قام به البطريك هرقل (199).

علي أية حال، ففي خريف سنة 1190م مرض البطريك مرضاً شديداً، وبدأت صحته تتدهور يوماً بعد يوم، ومع انزوائه أخذت مكانته تتراجع وتلاشى، وتمكن من جسده، وفي أواخر سنة 1190م اشتد عليه المرض ولفظ أنفاسه الأخيرة في عكا، وله من العمر ستون عاماً، وانطوت بذلك صفحة آخر بطاركة بيت المقدس من اللاتين (200).

خاتمة:

خلصت الدراسة بصفة عامة إلى عدة نتائج يمكن إجمالها علي النحو التالي:
أولاً: جاءت تولية هرقل بطريكية بيت المقدس، في وقت كانت المملكة الصليبية تمر بمرحلة من التدهور والانحلال الداخلي والاقتراس والتحزب، الذي عجل بإنهارها والذي تمثل في زيادة سلطة الأحزاب المتصارعة علي السلطة في المملكة، ويأتي علي رأسها حزب البارونات الوطنيين، وحزب القادمين الجدد من الغرب الأوربي، وقد حظي كل حزب بدعم بعض الأعيان والهيئات، والواقع أن البطريك هرقل دخل طرفاً في هذا الصراع، حيث إنضم إلي حزب القادمين الجدد، والذي كان يتزعمه الكونتيسة آجنيس وأخوها جوسلين الثالث ورينو دي شاتيون (أرناط)، بالإضافة إلي هيئة فرسان الداوية.
ثانياً: أن التهم الأخلاقية لرجال الدين لم تكن حديثة العهد في عهد البطريك هرقل لكنها تبدو من خلال الدراسة أنها كانت منتشرة بشكل أقلق البابوية نفسها في تلك الفترة.

فقد وجهت عدة تهم مماثلة إلى عدة بطاركة سابقين لعهد هرقل نذكر منهم علي سبيل المثال، البطريك أنولف مالكورن، لكن التهم التي وجهت للبطريك هرقل بأنه علي علاقة غير أخلاقية بالكونتيسة آجنيس لا يمكن قبولها، حيث وردت هذه التهم علي لسان المؤرخين الكارهين للكونتيسة من جهة والحاقدين علي هرقل من جهة أخرى. ويكفي أن نشير أن مؤرخ المملكة الصليبية وليم الصوري لم يشر من قريب ولا من بعيد إلي تلك العلاقة، وربما تكون هذه التهمة مجرد ثرثرة خبيثة وجهت للكونتيسة آجنيس، كذلك رواية مؤرخ ذيل وليم الصوري عن وجود عشيقة للبطريك رواية يمكن التشكيك فيها أيضاً.

ثالثاً: المبالغة الشديدة في اتهام البطريك هرقل بالجهل وسوء الأخلاق والبلادة وتحجر القلب وانعدام النشاط وغيرها من التهم كان مبالغاً فيها، بل ووضح من خلال الدراسة أنه عكس ذلك تماماً، لكن جاءت هذه التهم من منطلق سياسي حزبي صرف من أجل الحط من قدر قمة الهرم الديني في المملكة، وكان هذا بالطبع له مردود سيء لدي العامة والخاصة لكراهية حزب الأسرة الحاكمة التي اختارت هرقل بطريكاً وأحد أركان حزبها.

رابعاً: أظهرت الدراسة أن هرقل كان علي عكس كل الصفات التي نعت بها، فقد تمكن من إدارة شؤون البطريكية بإقتدار، وتمكن من جعل كنيسة بيت المقدس هي التي ترعى جميع الكنائس اللاتينية بالشرق الصليبي، نذكر منها: نجاحه في إدارة عدة أزمات تعرضت لها مملكة بيت المقدس في تلك الفترة، ويأتي في مقدمة هذه المسائل ترأسه للبعثة الملكية إلى مدينة أنطاكية سنة 1181م؛ بهدف التوسط بين أمير أنطاكية بوهيموند الثالث وبطريكها إيميرى من ليموج، وذلك بسبب زواج بوهيموند المخالف لقواعد الكنيسة، ونجح هرقل في تسوية المسألة بينهما.

ومن الجوانب المهمة أيضاً، والتي أثبت فيها جدارته وحرصه علي أملاك الكنيسة اللاتينية عندما نجح في استعادة الكثير من الآثار الدينية المقدسة التي فقدتها كنيسة الضريح

المقدس في العهود الماضية؛ وذلك مقابل جزء من الصليب المقدس كان قد أرسل للغرب الأوربي في وقت سابق لتولي هرقل البطيركية؛ ليكون مزاراً بديلاً للمسيحيين الفقراء غير القادرين للحج للأراضي المقدسة.

ومن الأمور المهمة أيضاً، والتي حقق فيها نجاحاً ملموساً توطيده لعلاقات الصداقة مع البابوية التي جعلته مبعوثاً لها لحل بعض المشاكل الكنسية في الشرق اللاتيني .
خامساً: تميز نشاط هرقل الخارجي في مشاركته ورياسته لبعثات المملكة للغرب الأوربي بالنشاط، والتأثير في مستمعيه، وذلك لما امتلكه من بلاغة وخطابة ورباطة جأش، وهنا نذكر رئاسته لبعثة 1184م، عندما تقابل مع عواهل أوربا، وشرح لهم مدى ما تعانیه المملكة اللاتينية من أخطار، وأنها بحاجة إلي شخص قبل الأموال، وهذا دليل علي رغبته في بث روح الحياة في المملكة من جديد عندما ترتبط بأحد ملوك أوربا الأقوياء بدلاً من الملك بلدوين الرابع المريض.

سادساً: لعب البطيرك هرقل دوراً كبيراً في عملية الدفاع عن القدس أثناء حصار صلاح الدين لها، فقد بذل جهده من أجل هذا الهدف، ولكنه عندما أيقن عدم جدوى المقاومة؛ لقلّة الإمكانيات وندرة المساعدات وشدة بأس العدو، رأي في المفاوضات . من أجل تسليم المدينة . الرأي الأصوب؛ لحماية الأرواح، وصيانة النساء والأطفال .

سابعاً: إن عملية المفاوضات أكدت كثيراً من المصادر، والتي دلت علي أن شخصية هرقل كانت حريصة علي أرواح الصليبيين، فلقد أدار الأزمة بشكل جيد، ولم يمنعه واجبه الديني من التوسل لصلاح الدين مرة تلو المرة من أجل عدم بقاء أحد من غير القادرين علي دفع الفدية، حتى أنه ضحّى بنفسه بالبقاء في يد صلاح الدين هو وباليان الابليني مقابل الإفراج عن جميع من بالمدينة من الصليبيين.

ذلك عرض عن البطيرك هرقل بطيرك بيت المقدس تجدر الإشارة إلي ان محاولتنا انصاف ذلك البطيرك، لا تجعلنا نتجاهل حقيقة مؤكدة في صورة أنه كان جزءاً من حركة الاستعمار الأوربي في العصور الوسطى خاصة خلال القرن 12م التي تمثلت في الحروب

الحروب الصليبية – حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

الصليبية واطماعها في ثروات الشرق .

الهوامش

- *ينعي محرر الكتاب إلى القراء أخيه الراحل د. عز العرب سليمان مخيمر الذي توفي عام 2013م، وكان مثالاً للباحث المتميز علمياً وإنسانياً وأنا لله وأنا إليه راجعون (المحرر)
- (1) عموري الأول: حكم مملكة بيت المقدس بعد وفاة أخيه بلدوين الثالث سنة 1163م، وقد شغل منصب كونت "يافا"، كما منحه أخوه بلدوين الثالث عسقلان، وتزوج من ابنة كونت الرها جوسلين الثاني، والتي تدعي آجنيس كورتينايا Agnes de Courtney، ثم طلقها بسبب معارضة بطريرك القدس؛ لوجود قرابة بين الملك وزوجته من الدرجة الرابعة تحرم زواجهما. أنجب من زوجته الأولى ابنة اسمها سيبيلا Sibylle، وولد هو بلدوين الرابع. للمزيد انظر وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (2000م)، ج4، ص23-24، مؤرخ مجهول: ذيل وليم الصوري، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 2002م)، ص21-22، وأنظر "The Titular Nobility of the Latin East: The Case of Agnes of Courtenay" In Crusaders, Cathars and the Holy Places(Ed.) by Bernard Hamilton, (London, 2000) PP.197- 201.
- (2) بلدوين الرابع: وصفته بعض المصادر بأنه كان بهي الطلعة، حاد الذكاء، قوي الذاكرة، وحافظاً للحميل، وكان شديد الشبه بأبيه في سماته وصفاته سواء في طريقة سيره أو نبرات الصوت، وإن تلجلج لسانه في بعض الأحيان، ولكنه كان تقياً ورعاً صاحب قدرة كبيرة علي التحمل وشجاعة وحكمة بالغة. للمزيد انظر. وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص175؛ روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، كتاب المجموعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، (دمشق، 2000م)، ج39، ص310؛
- Ernoul: Le Chronique d'Ernoul et de Bernard le Tresorier (ed.) Mas Latrie(Paris, 1871), P.32;
- (3) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ط. القاهرة (1995م)، ص174-175؛

Archer & Kingsford: The Crusades The story of the Latin Kingdom of Jerusalem (London,1902), P.250.

الجدام في الطب: مرض مزمن يؤثر على الجهاز العصبي الطرفي, كما يؤثر على الجلد, والأغشية المخاطية, والجزء العلوي من الجهاز التنفسي والحبل الشوكي, كما يؤثر على الأعضاء التناسلية مسبباً العقم, وهذا المرض غير معدٍ إلا في حالات نادرة جداً, وقد قسم الأطباء هذا المرض إلى أربع درجات حسب درجة المناعة. انظر:

Zenab El Gothamy and Abdalla M. Atti: "Leprosy", in Fundamentals of Dermatology, Andrology, Sexology and Sexually Transmitted Diseases, Cairo, 2004, pp. 28-34.

(4) لقد حددت قوانين المملكة الصليبية سن تولي السلطة الملكية بخمس عشرة سنة. انظر :

Jean d'Ibelin: Livre des Assiess, Ed. A. Beugnot, In R.H.C., Occ., Lois I, P. 260.

(5) ميلون دي بلانسي: من إقليم شمبانيا بفرنسا, كانت تربطه صلة قرابة بالملك عموري الأول؛ حيث كان ابن العم الثالث له, فضلاً عن علاقة الصداقة الحميمة به, تزوج من استيفاني دي ميللي Stephanie de Milly أرملة همفري

صاحب تورون, وصار بفضل هذه الزيجة المتصرف في كل الأراضي الواقعة وراء الأردن(مونتريال أو الشوبك) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج4, ص 108-109؛

Grousset R., Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem, (Paris 1934-6),II, P.611; "Miles of Plancy and the Fief of Beirut "In Crusaders, Cathars and the Holy Places, (Ed.) by Bernard Hamilton, PP.136-137.

(6)Hamilton(B.): The Leper King and His Heirs, Baldwin IV and the Crusader Kingdom of Jerusalem, (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), p.85.

(7)هيئة الفرسان الاستبارية Hospitallers, تأسست سنة 1050م, وقد اهتم هؤلاء

الفرسان في بادئ الأمر بأمر الفقراء من الحجاج إلى الأراضي المقدسة ثم تحولوا من الجماعات العسكرية والتي من أهم قوانينها أن القتال في سبيل الرب يُعد نشاطاً مكماً للمهمة الأخوية، وقد استحوذوا على الكثير من الثروات في العديد من البلدان.

Hume: Medical Work Of The Knights Hospitallers Of sant John Of Jerusalem, Insitute Of The History Of Medicine Of The John Hopkins University (1940) PP.14, 20

جوناثان ريلي سميث: الإسطبارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص (1050-1310م) ت صبحي الجابي، دمشق (1984م)، ص 58-62

(8) Wiruszowski: "The Norman Kingdom Of Sicily and the Crusades", In Setton: The History of the Crusades, Vol,II, P.32.

(9) ريموند الثالث: هو ابن ريموند الثاني كونت طرابلس، وابن هيدرينا Hederna ابنة بلدوين الثاني ثاني ملوك بيت المقدس، وبالتالي يكون ريموند الثالث ابن خالة الملك بلدوين الرابع. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 181-182؛

Conder: The Latine Kingdom of Jerusalem, P.135.

(10) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 177-178،

Baldwin: Raymond III of Tripolis and The fall of Jerusalem, Amsterdam (1969), PP. 25-26.

(11) وليم الصوري: المصدر السابق، ج4، ص 129 Miles of Plancy and the Fief of Beirut, PP. 140 -143

(12) حزب الوطنيين: يتألف من قدامي الصليبيين، وكان يضم ريموند الثالث كونت طرابلس، وكونستابل المملكة همفري الثاني من تورون، وباليان الابليني سيد الرملة، وأخوه بلدوين ورينالد سيد صيدا، وكذلك الملكة ماريا كومنين أرملة الملك عموري الثاني، وهيئة

الاستبارة. أنظر رانسيما: تاريخ الحملات الصليبية، ت نور الدين خليل، مكتبة الشروق (1996م) ج2، ص463 .

(13) حزب القادمين الجدد للمملكة: تألف من الأمراء الصليبيين الذين قدموا من الغرب، وعلي رأسهم المغامر رينو دي شاتيون، وجوسلين الثالث كورتناي كونت الرها، وأخته الكونتيسة آجنيس أرملة عموري الأول، وهيئة فرسان الداوية. رانسيما: تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص463؛ Baldwin: "The Decline and Fall of the Jerusalem" In Setton: A History of the Crusades, (London, 1969), Vol, I,P.592.

(14) عبد الحفيظ محمد علي: مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس، وأثرها علي تاريخ الحركة الصليبية (1131-1187م) دار النهضة العربية(القاهرة،1984م) ص100.

(15) قرر حزب البارونات الوطنيين تبني سياسة الدفاع عن المملكة والإبقاء علي سياسة التفاهم مع المسلمين، وخاصة في تلك الفترة المضطربة من حياة الصليبيين، وكانت لهذا الحزب مبرراته التي حملته علي هذه السياسة، وخاصة أن أعضاء هذا الحزب كانوا من النبلاء الإقطاعيين الذين حازوا إقطاعات كبيرة وثروات متعددة، وصاروا أفضل من أوضاع أقرانهم في الحزب الآخر؛ لذلك ركنوا إلي حياة الدعة والترف، وعلي النقيض من هذا كان حزب القادمين الجدد الذين اتبعوا سياسة الهجوم وإظهار الرغبة في العمل العدائي ضد المسلمين، ودوافعهم في ذلك هو امتلاك الأراضي والضياع. أنظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص186، رانسيما: تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص463-64؛

Baldwin: The Decline and Fall of the Jerusalem, Vol.I, PP. 602-603

(16) Stevenson (W.B.): The Crusaders in the East (Cambridge, 1907), P.213.

(17) آجنيس: تزوجت من رينالد سيد مرعش قبل زواجها من عموري والد الملك بلدوين الرابع، ثم توجهت إلي إمارة أنطاكية برفقة والدتها وأخيها جوسلين الثالث، وظلت هناك حتى

سنة 1157م عندما تزوجت من عموري الأول، وقد رفض أمريك بطريك بيت المقدس تنويج عموري الأول ملكا علي بيت المقدس، بحجة أن زواجه من آجنيس يعد تحدياً لقوانين الكنيسة، وكان الحل في انفصال عموري عن آجنيس، ووافق عموري علي الانفصال عن

آجنيس وتم تنويجه ملكا علي بيت المقدس. انظر،

Ernou: Le Chronique, P.17; L'Estoire de Eracles, In R.H.C., Occ. Vol, II, PP.5-7; Mayer: The Beginning of King Amalaric of Jerusalem, in The Horns of Hattin (Yad Izhak Ben Zvi and Variorum 1992), PP. 121- 125. ،
وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص23-25؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ص 22-21.

(18) Mayer: Op.Cit., P.123. Barker D.: "Women in the Crusader States: The Queens of Jerusalem 1100-1190)", In: Crusaders, Cathars and the Holy Places, ed. By Hamilton, Ashgate Publishing 2000, p. 164 المرجع ،
رانسيومان: المرجع 164 ،
السابق، ج2، ص655-656.

(19) La Monte, J.L, Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, Cambridge, The Mediaeval Academy of America, (1932, reprint: New York, Kraus 1970). PP.28- 29.

(20) تل الصافية: حصن من أعمال فلسطين يقع جنوب شرق الرملة، والي الشمال الغربي من الخليل علي الطريق بين غزة وفلسطين، كما تبعد عن عسقلان سبعة أميال، وترتفع مائتين واثنى عشر قدماً عن سطح البحر، وتطلق عليها

المراجع الأجنبية Blanch garde أي الحصن الأبيض. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار الفكر، بيروت ، ب-ت، ج2، ص42، مصطفى مراد الدباغ: بلادنا

فلسطين، ط. بيروت 1965-1976م، ج5، ق2، ص307؛

Smail (R.C.): "Crusaders Castles of the twelfth century"
In C.H.J., Vol.10, No2(1951)P.140

(21) عن أحداث المعركة انظر. البنداري: سنا البرق الشامي، ت. فتحة النبراي، مكتبة الخانجي، ط. القاهرة (1979م)، ص130-131، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص219،

Ernoul: Le Chronique, PP. 42-45; King (E.J): The Knights Hospitallers in the Holy Land, (London, Methuen 1931), P. 107

سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر (القاهرة،

1965) ص 129-130.

(22) جاي لوزنيان: بن هيو "دوق أبراشية" بوتيه" في "فرنسا. من أسرة عريقة، قدم إلى القدس مع أخيه أمليك، وقد وصفت المصادر جي بأنه كان ذا وجهه ووسامة لكنه كان جباناً أحمق، ويعد واحداً من المسئولين عن سقوط بيت المقدس. انظر

Smail: "The Predicaments of Guy of Lusignan, 1183-1187, In Outremer, PP.159-172; Sidney Painter: "The Houses of Lusignan and Chatellerault 1150-1250", Spec., Vol.30, No.3 (1955), PP 374-384. Lamb (H.): The Crusades. P.51.

(23) ذكر أرنول أنها كانت علي علاقة غير شرعية معه، ولكن الملاحظ أن المؤرخ أرنول تارة يتهمها بأنها علي علاقة بالبطريك هرقل، وتارة أخرى يصفها بأنها متعطشة للرجال، انظر Ernoul: Op.Cit., PP.60-61، وهنا يدعي بأن لها علاقة بأمليك أخي جاي. ويرجح أحد الباحثين أن سبب هذه العداوة التي يكنها أرنول لآجنيس تعود للموقف المعارض الذي أخذته آجنيس من الكونت بلدوين ابلين، ورفضها تزويجه من ابنتها سيبلا؛ الأمر الذي أغضب أرنول لأنه ربيب بيت ابلين. انظر أسامة زيد زكي: ملكات بيت المقدس

في القرن الثاني عشر الميلادي) السادس المهجري), مجلة كلية الآداب-جامعة طنطا, العدد الثامن, يناير 1995م, ص52.

(24) Grousset: Histoire des Crusades, Tom.II, PP.688-689; Cahen: La Syrie de Nord, (Paris, 1940), P.426; Baldwin: "The Decline and the fall of the Jerusalem", PP.596-597; Edbury: The Conquest of Jerusalem and the third Crusade' Sources in Translation'(1998), P.150.

(25) Ernoul: Op.Cit.,PP.60-61, Painter:" The Houses of Lusignan and Chatellerault ,P.377;

(26) Anonymi Rhenani: Historia et Gesta Ducius Gotfridi,In R.H.C., Occ., T.V.Secunde Partie, P.518; Aube: Baudouin IV de Jerusalem, P.336.

وانظر: رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص705؛ عبد الحفيظ عبد الحفيظ محمد علي: مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية "1131-1187م", دار النهضة العربية, ط.القاهرة 1984م، ص125 .

(27) Anonymi Rhenani: Op.Cit., T.V. Secunde Partie, P.518; Lamb: The Crusade the Flame of Islam, (New York 1931), P.53.

(28) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص330.

Ernoul: Le Chronique, P.60.

(29) وليم الصوري: الحروب الصليبية, ج4، ص330.

(30) جيفادين: تقع في الجزء الجنوبي من مقاطعة أوفران الفرنسية، وهي منطقة ذات موقع متميز، وتشمل على الكثير من التلال والجبال والوديان والغابات والأنهار. وتُعد مدينة كليرمونت فيران التاريخية عاصمة الإقليم، كما تحوى المدينة العديد من القلاع والكنائس التاريخية أيضاً، وأشهر مدنها لى بوى. Le Pay للمزيد انظر

Moore (W.G): The Penguin Encyclopedia of Places, (London 1978), pp.65-66.

(31) Kedar (z.): "Patriarch Eraclius" in *Outremer, Studies in the History of the Crusading kingdom of Jerusalem* (Jerusalem), 1982, p.184.

(32) كان من مجموعة أصدقاء الدراسة بجامعة بولونيا إيتان تورناى الذي أصبح أسقف تورناى والكاردينال جريش وايلي ريتشارد بيرى رئيس شمامسة ليزيو وبيور كارفيلي الذي أصبح فيما بعد البابا أوربان الثالث. للمزيد انظر Kedar: Ibid, p.184.

(33) إيتان تورناى: ولد في الثامن من فبراير سنة 1128، درس مع هرقل في جامعة بولونيا في ستينيات القرن الثاني عشر، اشتهر في صباه بكتابة الشعر وإقامة المسرحيات الهزلية، وقام بتأليف الرباعية الشعرية، ثم تعمق في دراسة اللاهوت إلى أن تولى أسقفية تورناى ثم أصبح رئيس دير يوفيرت في أورلينز عام 1167م ثم رئيساً لدير القديسة جنيفاف في باريس عام 1176م، وأصبح من كبار علماء اللاهوت. انظر

Kedar: Op. Cit, PP. 185-186

(34) Ibid, P.185.

(35) جامعة بولونيا كانت ناشئة حديثاً في تلك الفترة، والمعروف أن الدراسة بالجامعة في القرن الثاني عشر، لم تكن علي مستوى فكري متميز. انظر:

Kedar: Op.Cit, PP180-181

(36) أسقفية قيسارية: هي واحدة من أربعة أبرشيات رئيسية موجودة في مملكة بيت المقدس اللاتينية .

انظر Kedar: Op.Cit., P.186.

(37) Ernoul: Op.Cit., P.82.; L'Estoire d'Eracles p.60.

وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص260.

(38) Kedar: Op.Cit., P.186.

(39) البطريرك أمليريك (عمورى) من نيسلى: تولى البطريركية خلفاً للبطريرك فولشر في نوفمبر 1157م، وذلك باختيار من الملكة مليسندا؛ لمعرفتها القوية به وصدقتها الراضخة،

وقد أرسله عمورى الأول على رأس عدة سفارات إلى الإمبراطور فردريك والملك لويس السابع، وهنري الثاني، وكونت الفلاندر وذلك في سنة 1169م. كما صاحب أمليريك الملك عمورى في الزحف على الداروم. وظل أمليريك بطريكاً نحو عشرين عاماً حتى وفاته في أكتوبر 1180م. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 81 حاشية رقم (1).

(40) البابا إسكندر الثالث: ولد البابا إسكندر سنة 1100م، ثم تم تعيينه ثماسا سنة 1150م، ثم كاردينالاً سنة 1152م، ثم مستشاراً سنة 1153م، حتى تم اختياره لكرسي

البابوية في روما في السابع من شهر سبتمبر 1159م. انظر Kelly: Oxford

Dictionary of Popes, (New York 1996), PP. 176, 177.

(41) Kedar: Op.Cit., P.186.

(42) مجمع اللاتيران عقد بروما في التاسع والعشرين من مارس 1179م، حضره نحو

ثلاثمائة وعشر أسقف من إيطاليا وفرنسا وإنجلترا والدانمرك وأيرلندا وأسكتلندا وألمانيا وأسبانيا والممالك الصليبية في الشرق، وقد أقر هذا المجمع سبعة وعشرين تشريعاً كنسياً يتعلق معظمها بانتخاب البابا وأنشطة اليهود والمهرطقة وتحريم الإتجار مع المسلمين، ومعاينة رجال الدين

الذين احتفظوا بمحظيات لهم في منازلهم. للمزيد انظر: Third Lateran

Council (1179) In Catholic Encyclopedia In Medieval Sources book. Com روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، ضمن كتاب سهيل

زكار: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق (2000م) ج39، 297 وما

بعدها. Kedar: Op.Cit. P. 183.

(43) وليم الصوري: ولد وعاش بالمملكة اللاتينية، وتلقى تعليمه الأول فيها، ثم ارتحل إلى

أوربا حيث قضى نحو عشرين عاماً، أكمل تعليمه في كل من فرنسا وإيطاليا، وبعد عودته

للمملكة عمل في خدمة الملك عمورى الأول رئيساً لشمامسة كنيسة صور، ثم عينه عمورى

مربياً لابنه بلدوين الرابع، ثم أصبح مستشاراً للمملكة منذ عام 1174م، ورئيساً لأساقفة

صور عام 1175م. وللمزيد انظر: ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ت

بشير السباعي، ج1، عين للدراسات (2003م) ص 180-181؛ السيد الباز العريني:

مؤرخو الحروب الصليبية، ط1، القاهرة (1962م)، ص101-103؛ عمر كمال توفيق: المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، العدد 21، سنة 1967، ص181-190؛ بيرل سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، ت قاسم عبده قاسم، القاهرة (1984م)، ص142-143.

(44) أنطاكية: هي ثاني الإمارات الصليبية التي أسسها الصليبيون في بلاد الشام، وقد تم تأسيسها على يد الأمير يوهيموند النورماني في يونيو 1098م. وقيل إنها سميت أنطاكية نسبة إلى أنطيوخس أحد أمراء الإسكندر الأكبر المقدوني. عن تفاصيل تأسيس هذه الإمارة انظر: المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص64. 70؛ فوشيه الشارترى: المصدر السابق، ص120. 128؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق نشره ووضع فهارسه وقدم له هـ. ف. آمدروز، ليدن، 1908م، ص134. 136.

Cahen C., La Syrie du Nord a Lépoque des Croisades et La Principaute Franque d'Antioche, Institut Francais de Damas, (Paris 1940), PP.256- 260.

(44) انظر وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص226.

Krey A.C.: "William of Tyre, The making of an Historian in the Middle age" Vol.XV1 No2 (April 1941) P.157.

(45) كان هناك تسع وعشرون قراراً بالمؤتمر معظمها عن انتخاب البابا واليهود والمهرطقة ومنع الإبحار مع المسلمين. للمزيد انظر: ورود التاريخ، ضمن كتاب الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، ط.دمشق ريموند الثالث كونت طرابلس: ابن ريموند الثاني وهيديرنا Hederna ابنة بلدوين الثاني ثاني ملوك بيت المقدس الصليبية، وريموند الثالث ابن خالة الملك عمورى والد بلدوين الرابع. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص181، 182.

Baldwin: Raymond III of Tripolis, PP.7-8.

Conder: The Latin Kingdom of Jerusalem 1099 - 1291,

London, 1897, P.135.

(46) يُعد منصب الوصي على العرش من أهم المناصب في مملكة بيت المقدس، ونظراً لأهميته فقد كان يقسم الوصي على الأناجيل المقدسة بأن يبذل قصارى جهوده للدفاع عن المملكة وعن الوريث الشرعي، وأن يحافظ على الهبات والامتيازات التي منحها الملوك السابقون لمؤسسات المملكة، وأن يدعم العدالة في المملكة، ويفصل في المنازعات، ويحافظ على عادات وتقاليد النظام في حكم المملكة. انظر:

Begount: Le Livre Au Rois, In R.H.c.occ., Lois, P.313.

(47) جاي لوزجنيان: هو شاب من أسرة فرنسية نبيلة من مقاطعة بواتيه بفرنسا، قدم مع أخيه أمريك، وكان جاي لا يمتلك من الشجاعة إلا القليل، ويُعد أحد أهم المسؤولين عن انهيار المملكة داخلياً وخارجياً حتى سقوطها في يد

Smail: The Predicaments of Guy of Lusignan, 1183- 1187" In Outremer The History of The Crusading", PP.159- 172.

(48) Krey: Op.Cit., P.157.

(49)Ernoult: Le Chronique, PP. 83- 84; L'Estoire d'Eracles, In R.H.C., Occ.,.II, PP.58- 59.

المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص 2000.79م) 39، ص 297 وما بعدها. انظر وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 226، 227.

(50) محمد مؤنس عوض: النقد الاجتماعي للصليبيين والمسلمين من خلال كتابات وليم الصوري (ت 1186م) وأبي شامة المقدسي (ت 1268م) دراسة مقارنة بحث مقدم لمؤتمر اتحاد المؤرخين العرب (القاهرة 2007م).

(51) ذيل وليم الصوري، ص 79.

(52) هرقل Heraclius المقصود به هنا هو الإمبراطور البيزنطي هرقل (610- 641م)

الذي قام سنة 627م بهجوم كبير علي قلب بلاد فارس، حيث وصل إلى نينوى قرب الموصل، إذ نشبت معركة حاسمة بينه وبين القوات الفارسية أحرز فيها هرقل انتصاراً حاسماً، وفتحت الطرق أمامه لاسترداد ممتلكات بيزنطة في الشرق وأرمينيا وسوريا ومصر، وأطلق سراح الأسرى وأعاد الصليب المقدس. للمزيد انظر Kaegi (W.): Heraclus Emperor of Byzantium, (Cambridge 2002) PP. 156- 166. (53) انظر: المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص79.

Ernoul: Le Chronique, P.82. L'Estoire d'Eracles, Tom II, PP.57- 59

(54) Hamilton: The Leper King ,P.162.

(55) رانسيان: تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص482.

(56) Baldwin, (M.W.): "The Decline and Fall of Jerusalem, 1174- 1189" In Setton: A history of The Crusades, Vol. I, PP.590- 621.

(57) Ernoul: Op.Cit.,P.84.

المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص79؛

Grousset: Histoire des Crosades, Tom II, PP.745-746; Krey: "William of Tyre" In Speculum, Vol. 16, No 2, and P.158.

(58) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص260.

(59) وليم الصوري: نفس المصدر، ج3 ص424.

(60) وليم الصوري، المصدر السابق، ج3 ص424.

(61) Ernoul: Le Chronique, PP. 82 - 83; L'Estoire d'Eracles, In R.H.C., occ, II, PP. 57- 59;

المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص79.

(62) انظر: ذيل وليم الصوري، ص79.

(63) أسامة زكي زيد: ملكات بيت المقدس، ص53.

- (64) المعروف أن آجنيس كانت زوجة ل هيو ابلين, الأخ الأكبر لبلدوين ابلين. انظر: Edbury: "John of Ibelin and the Kingdom of Jerusalem", in: J. R. A. S., Third Series, vol., 9, Part 1, April 1999, Cambridge University Press 1999, p. 141; "The Queens of Jerusalem 1100-1190", p. 166.
- (65) Baldwin: "The Decline and The fall of Jerusalem", P.597.
- (66) Hamilton ,The Leper King, P.163 .
- (67) جوسلين الثالث: هو ابن جوسلين الثاني ملك بيت المقدس، وقد تم تعيينه سنكالا للمملكة بأمر من ابن أخته بلدوين الرابع سنة 1177م. انظر: رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ص 464، 465.
- (68) باليان الأبليني: هو أخو بلدوين أبلين صاحب الرملة وزوج الملكة ماريه كومنين أرملة عمورى الأول، وسيد مدينة نابلس التي حازتها الملكة ماريه كمعاش لها. انظر: Ernoul: Le Chronique, PP.44- 48. وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 211.
- (69) أرنولف دي شوك: جاء إلي بيت المقدس رفقة الأمير روبرت النورماندي، وكان قسيساً ومعلماً لسييليا Cecilia ابنة وليم الأول الفاتح ملك إنجلترا، وقد كان أرنولف شخصية مثيرة للجدل؛ ففي الوقت الذي أجمع فيه كل من ريموند أجيل ووليم الصوري أنه صاحب سمعة سيئة، رأي فيه آخرون أنه شخصية عاقلة شريفة، وهنا نري تناقضا بين المؤرخين حول شخصيته، وقد تم انتخابه بطريكاً لبيت المقدس سنة 1099م، واستمر لفترة خمسة أشهر فقط. للمزيد انظر: المؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي(القاهرة، 1958م) ص120، ريموند أجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، ط إسكندرية(1989م) ص 258- 259؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص144-145؛ جوناثان ريلي سميث: الحملة الصليبية

الأولي وفكرة الحروب الصليبية، ت محمد فتحى الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة(1999م) ص151؛

Bernard Hamilton: The Latin Church in the Crusaders States, (London, 1980), P.12.

(70)Kedar: Op. Cit., PP.182-183.

(71) انظر: ذيل وليم الصوري، ص81.

(72) Le Chronique, PP. 82- 83.

(73) L'Estoire d'Eracles, PP.57-60

(74) تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص482.

(75) انظر. Kedar: The Patriarch Eraclius, P.177.

(76) Grousset ,Histoire des Croisades , Tom,II,P.745.

(77)Baldwin(M.): "The Decline and The fall of Jerusalem, Vol., I, P.597 .

(78) Kedar: Op.Cit., P.178.

(79) نابلس: هي بلدة فلسطينية اسمها قديماً شكيم، وتقع بين جبلين هما جاروزم (جبل

الطور) وعيبال ويُسمى اليوم ستي سلاميه، استولى عليها الصليبيون بقيادة تانكريد قبل أيام

من سقوط القدس في أيديهم سنة 1099م. انظر: بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين التطيلي،

ت عزار حداد، ط1، أبو ظبي (2002م)، ص244 حاشية(1).؛ سعيد البيشاوى:

نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية عصر الحروب الصليبية، ط

عمان (1991م)

(80) المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص81 - 82؛

Ernoul: Op.Cit. P.83- 84.

(81) انظر: ذيل وليم الصوري، ص82.

(82) نفس المصدر والصفحة.

(83) Hamilton: The Leper King, P.163.

(84) جمعة مصطفى الجندي: الاستيطان الصليبي في فلسطين (492-690هـ/1099-1291م) , مكتبة الأنجلو المصرية ط. القاهرة (2006م)، ص 93 .

(85) التقليد العلماني: شهدت أوروبا في العصور الوسطى، نزاعاً بين البابوية والعلمانيين حول السلطة الدنيوية، فيما عُرف بالتقليد العلماني، حيث أصر بابا روما أنه مصدر السلطة الشرعية على الأرض نيابة عن القديس بطرس، وأن له الحق في منح السلطة للملوك والأباطرة المتعاقبين، وأن على الأباطرة الخضوع التام للبابا مانح السلطة ومصدر التشريع، كذلك يحق للبابا عزل وتعيين رجال الدين، وقد لقي ذلك معارضة الأباطرة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعدوه خطراً على سلطتهم، لأنه يجعل من رجال الدين دولة داخل الدولة، وقد اندلع هذا النزاع في عهد البابا جريجورى السابع والإمبراطور هنري الرابع، واشتد في عهد الإمبراطور فردريك الثاني والبابا جريجورى التاسع. انظر: نورمان كانتور: قصة حضارة بداية ونهاية، ج2، ت. قاسم عبده قاسم، القاهرة، 1982م، ص361-373؛ سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، ط. القاهرة، 1994م ص354 وما بعدها؛ رأفت عبد الحميد: "السمو البابوي بين النظرية والتطبيق"، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثالث، دار المعارف، ط القاهرة، 1985م، ص159 وما بعدها.

(86) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، ت عبد الحافظ البناء، ط.(القاهرة 2001م)، ص133 .

(87) Grousset, Histoire des Croisades, Tom II, P.746.

(88) أسامة زكى زيد: ملكات بيت المقدس، ص51-52 .

(89) Kedar: Op.Cit., P.188.

(90) أسامة زكى زيد: ملكات بيت المقدس، ص53.

(91) Krey: "William of Tyre" In Spec. Vol.16, No 2, P.157.

(92) Kedar: "The Patriarch Eraclius", P.188.

- (93) رانسيومان: تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص483.
- (94) خميس العهد: أو الخميس الكبير من الأعياد الصغرى لدى الأقباط، وهو يحمل ذكريات الأربعاء وعشرين ساعة الأخيرة من حياة السيد المسيح على الأرض؛ إذ بحلول هذا اليوم اقتربت الساعات من الصليب كما يعتقد المسيحيون. انظر: القمص مكسيموس وصفى: "خميس العهد روحياً عقيدياً طقسياً" اليوم الخامس من الشعانيين .
- (95) الحرمان الكنسي: يعنى الطرد من مجتمع الكنيسة كلية، ومن ثم يجرم صاحبه من إيمان الطاعة والتبعية، وقد تم تقسيم الحرمان إلى ثلاث درجات: الحرمان الصغير ويوقع على مرتكبي المخالفات البسيطة، والحرمان الكبير ويوقع على مرتكبي الجرائم الكبيرة، وأخيراً اللعنة، وهى أقوى من الدرجتين السابقتين، والتي كانت عقوبتها القتل. انظر: عادل عبد الحافظ حمزة: "الحرمان الكنسي في العصور الوسطى حتى نهاية النصف الأول من القرن13م"، مجلة جامعة حلوان، كلية الآداب، العدد الخامس، يناير 1999م، ص425- 428 .
- (96) رانسيومان: تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص483.
- (97) رانسيومان: المرجع السابق، ج2، ص483.
- (98) Ernoul: Op.Cit., PP.84- 86.; L'Estoire d'Eracles, Tom II, PP.57- 59.
- المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص83.
- كما أن رحيل وليم الصوري وموته مجهولان، وتاريخه يتوقف في سنة 1183م. انظر: رانسيومان: تاريخ الحملات الصليبية، ج2، 483؛ محمد مؤنس عوض: "دراسة مقارنة بين وليم الصوري وأبو شامة المقدسي"، ص18.
- (99) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص263- 268.؛ Kedar: Op.Cit. P.189.
- (100) رانسيومان: تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص486- 487.
- (101) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص268- 283؛

رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص487؛

Hamilton: The Leper King and his Heirs Baldwin IV, P.165.

(102) رينو دي شاتيون: هو مغامر صليبي قدم من مقاطعة شاتيون Chatillon الواقعة شرق فرنسا بدافع الطمع والمغامرة، ظهر اسمه بعد أحداث الحملة الصليبية الثانية سنة 1153م، وتزوج من الأميرة كونستانس Constance ، وقد جعل منه هذا الزواج أميراً على أنطاكية، ثم دفعه طموحه؛ لأن يتحرك عسكرياً لتوسيع نفوذه خارج إنطاكية على حساب الممتلكات الإسلامية؛ مما جعله يقع أسيراً في حلب سنة 1160م، ويستمر لأكثر من ستة عشر عاماً، وقد أطلقت عليه المصادر الإسلامية اسم أرناط. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مراجعة الدكتور محمد يوسف الدقاق، المجلد العاشر، ط4، دار الكتب العلمية بيروت (2003م)، ص132؛

Schlumberger (G.): Renaud de Chatillon Prince d Antioche, Seigneur de Laterre d outré - Jourdain, Librairie Plon (Paris, 1923), T. I, PP.115- 134 .

(104) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص265-268؛ رانسيمان: تاريخ

الحمالات الصليبية، ج2، ص487؛ Baldwin: The Leper King- P.166 (105) البطريك فولشر (1146-1157م): تم اختياره بطريكاً لبيت المقدس في الخامس والعشرين من يناير سنة 1146م، وكان فولشر في ذلك الوقت يشغل منصب رئيس أساقفة صور، وقد ظل بطريكاً لبيت المقدس حتى وفاته في العشرين من نوفمبر سنة 1157م، وخلفه في البطريكية أمالريك من نيسلى.

انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص265، 421، 424.

(106) كونراد الثالث (1172-1182م): هو الابن الوحيد لكونراد الأول دوق ميرينيا

Merania أو دلماتيا Dalmatia ، وماتيلدا من فالكنشتاين Matilda of

Falkenstein وكان كونراد طفلاً حينما توفي أبوه سنة 1159م، وخلفه في دوقية ميرينيا، وعندما كبر ورث عن عمه أرنولد دوقية داخاو Dachau or Dachawe وفي سنة 1172م تم ترسيمه دوقاً لداخاو تحت اسم كونراد الثالث، وظل دوقاً لها حتى وفاته في الثامن من أكتوبر سنة 1182م، ولم يكن له وريث. انظر

[http:// in.wikipedia.org/wiki/Conrad-III-of-dachau](http://in.wikipedia.org/wiki/Conrad-III-of-dachau)
(107) Kedar: The Patriarch Eraclius, P.189.

(108) البابا لوكيوس الثالث: هو Ubaldo Allu Cingoli، ولد سنة 1110م في Lucca. أصبح شماساً ثم رئيس كرادلة أوستيا في 1159م، وظل يترقى في المناصب الكنسية حتى تم تعيينه باباً لروما خلفاً للبابا إسكندر الثالث، وذلك في الأول من سبتمبر سنة 1181م، وظل في منصب البابوية حتى وفاته في الخامس والعشرين من نوفمبر سنة 1185م. عنه بالتفصيل انظر

Kelly: Oxford Dictionary of Popes, PP.180-181 .

(109) وادي جوسفات: يمتد شرقي بيت المقدس بين جبل الزيتون شرقاً وجبل موريا غرباً، وقد أطلق عليه المؤرخون في العصور الوسطى لقب وادي جهنم، ويعتبر جزءاً من وادي قدرون، ويعرف بعدة أسماء منها وادي مريم وادي النار ووادي سلوان. انظر. سعيد البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، ص132، حاشية رقم(4).

(110) قرية صافي: تعرف بخربة صافي ويطلق عليها اسم قرية صافيت، وتقع غربي مدينة نابلس، يحدها شمالاً قرية بيت وليد وقرية سفارين ومن الشرق قرية كفر قدوم والجنوب الشرقي قرية الفندق. انظر: سعيد البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، ص201 حاشية رقم (2) .

(111) قرية ميثلون: يقال إن هذه القرية كانت خربة، وقد ذكرتها بعض الوثائق باسم خربة نابلس. أما الآن فهي قرية عامرة بالسكان وأراضيها خصبة ومحاطة بالكثير من القرى وخاصة قرية صانور الواقعة جهة الشمال الغربي منها وقرية سريس الواقعة إلى الجنوب الشرقي منها. سعيد البيشاوي: المرجع نفسه، ص279 حاشية رقم (3).

- (112) سعيد البيشاوى: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، ص 279-280.
Kedar: Op.Cit. P.189.
- (113) كنيسة اليعاقبة: تبنى مجمع خلقدونية سنة 541م وجهة نظر كنيسة أنطاكية بدعم من البابا لأون الكبير (440-461م) والإمبراطور مارقيان (450-457م) وأطلق على أتباع المجمع الخلقدونى لقب مكللين في حين أطلق أنصار المجمع على المعارضة لقب يعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعى، وهو تلميذ البطريرك ديسقورس، وأطلق يعاقبة مصر على أنفسهم لقب أقباط مصريين وتلاشى اسم يعاقبة اليوم ولا يعرفه إلا الباحثون في التاريخ. انظر: وسام كبكت: "كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك" ضمن مجلد تاريخ الكنيسة، م2، ط1، دار المشرق، بيروت 1997م ص 47-48.
- (114) Chronique de Michel Le Syrian, Patriarche Jacobite Antioche (1166- 1199) ed, and Trans, by Chabot (J.B.) Tom III, (Paris 1905), PP.386- 387.
- (115) Eracles: Op.Cit., PP27- 28; Prawer: Latin Kingdom, P.228.
- (116) Cazel: "The Tax of 1185 in Aid of the Holy land" in Speculum, Vol 30, PP.391- 392.
- (117) Ibid,P.392 .
- (118) كوكب الهواء: يقع إلى الشمال من بيسان، ويبعد عنها نحو احد عشر كيلومتراً، وترتفع نحو ثلاثمائة متر عن سطح البحر، وتقوم فوق مدينة يرموت الكنعانية وتعني الارتفاع، وتحيط بها أراضي البيرة ووادي البيرة وكفرا وجبول، وأقام عليها الصليبيون حصن الهوي وفتحه المسلمون علي يد صلاح الدين. انظر،مولر ولفونج وينر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد الجلاد، ط دمشق (1984م)، ص31-32.
- (119) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص162؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق وتعليق: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، ط.بيروت 1997م، ج2، ص85؛ رانسيمان: الحملات الصليبية، ج2، ص489.

(120) يزريعيل (زرعين) وتدعي أيضا زعاريم وأطلق عليها وليم الصوري اسم جرين وتقع علي بعد ستة أميال من مدينة الناصرة بفلسطين. انظر يوحنا فورزبورج: وصف الأراضي المقدسة، ص34-35 حاشية(7)؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص320.

(121) شعر الملك بلدوين أن هواء صور يناسبه أفضل من مرتفعات القدس ذات الرياح، فسأل جاي أن يتبادلا المدينتين، فرفض جاي وتملكته نوبة من الغضب، واستدعى أهم رجاله وأخذ نصيحتهم بخلع جاي من الوصاية وبدلا من ذلك تم إعلان بلدوين الخامس ابن أخته سيبيلا من زوجها الأول وصياً على المملكة، وكان طفلاً في السادسة من عمره. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص330؛ رانسيمان: المرجع السابق، ج2،

Riley Smith: The Feudal Nobility, PP.106- 498؛
107.

(122) in R.H.C., Occ., Tom II, P.1. L'Estoire d'Eracles

(123) Kedar: The Patriarch., P.191.

(124) عكا: هي إحدى المدن الفلسطينية الشهيرة، وهي مدينة ساحلية تبعد عن حيفا خمسة عشر فرسخاً، وهي مدينة كبيرة قوية التحصين، تمتلك ميناء جيداً للملاحة. وكانت تطل من جهة البر علي سهل فسيح غني بمنتجاته الزراعية يحميه عدد من التلال المرتفعة من الشمال والشرق والجنوب، ومدخل الميناء محمي بسلسلة تغلق وتفتح، والمدينة محاطة بسور ضخم من جهة الشمال والشرق، وكان له عدة أبواب كل منها محاط برجين. للمزيد انظر: دانيال الروسي: وصف الأرض المقدسة في فلسطين (1106-1107م)، ت. وتعليق:

سعيد البيشاوي، دار الشروق، ط. عمان 2003، ص88؛ يوحنا فورز بورج: وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ت سعيد البيشاوي، عمان (1997م) ص24 حاشية رقم (1) ناصر خسرو: سفر نامه، ت يحيى الخشاب، (القاهرة، 1993م) ص61، ابن جبير:

رحلة ابن جبير (بيروت، 1980م) ص276.

(125) المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص18-19؛

Smith: The Feudal Nobility, PP.106- 107.

(126) TomII, PP.2-3; Ernoul: Op.Cit. PP.98- 99.
L'Estoire d'Eracles

(127) تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص499.

(128) Kedar: Op.Cit., P.191.

(129) فريديريك براروسا: إمبراطور ألمانيا وُلد عام 1123م. دخل في نزاع كبير مع البابوية في مسألة التقليد العلماني، وشارك في الحملة الصليبية الثالثة على رأس الشق الألماني منها رغم تقدم سنه، وغرق أثناء استحمامه في أحد أنهار آسيا الصغرى في يونيو 1190م. للمزيد انظر: أتو أسقف فريزنج: ما ورد عنه في الحروب الصليبية، ت سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، ج28، (دمشق 1997م) ص 345-361؛ المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص163، 174؛ سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج1، ص375-387.

(130) فيليب الثاني: هو ابن لويس السابع، ولد سنة 1165م وولى الحكم بعد وفاة والده سنة 1180م. شارك في الحملة الصليبية الثالثة مع ريتشارد قلب الأسد، ثم توفي سنة 1223م .

للمزيد عنه انظر Hutton: Philip Augustus, (London 1896)

PP.15- 23.

(131) هنري الثاني: هو هنري بلانتو جنت ابن ماتيلدا ابنة هنري الأول. تولى حكم إنجلترا تحت اسم هنري الثاني بتأييد ومساندة البابوية في سنة 1154م بعد وفاة الملك ستيفن 1153م. واستمر حكمه حتى توفي سنة 1189م. للمزيد انظر: روجر أف ويندوفر: ورود التاريخ ضمن الموسوعة الشامية، ج39، ص193-194؛ زينب عبد المجيد عبد القوي: الإنجليز والحروب الصليبية 1189-1291م، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1996م، ص36- 55 Tyerman: England and the Crusades,

38

(133) Kedar: Op.Cit., P.191.

- (134) Radulph of Diceta: Heraclius, Vol.II, PP.32- 33.
(135)Kedar: OP.Cit., P.192.
(136) Ibid.P.192.
(137) Ibid., PP.192-193.
(138)In R.H.C., CC, Tom II, PP.2-3. L'Estoire d'Eracles,
(139)Kedar: Op.Cit., P.193.
(140) كان الملك هنري الثاني مشغولاً بعدة مشاكل، وربما كانت السبب في عدم خروجه على رأس حملة صليبية، ومن بينها انشغاله بمقاومة هجمات المسلمين في الأندلس، ولعل حملته التي وجهها إلى الأندلس كانت السبب الأساسي في تأجيل حملاته لمساندة مملكة بيت المقدس. إضافة إلى انشغاله بنزاعه مع أبنائه و ضد لويس السابع ملك فرنسا. انظر :
Hayer: Henry II,PP.721- 723.
(142) Radulph of Diceta,PP.32-33.
(143) Ernoul: Op.Cit., PP.114- 115; L'Estoire d'Eracles, Tom II, PP. 7- 8.
(144) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت أحمد محمد رضا، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1985م)، ص315.
(145) Kedar: Op.Cit., P.195.
(146)Ernoul: Op.Cit., P129
(147) طبرية: تقع على بحر الجليل، وكان قديماً يسمى البحر باسمها، وسميت طبرية على شرف الإمبراطور الروماني طيبريوس، وتمتاز بآثارها وحصوبة وتنوع محاصيلها.انظر: بورشارد: وصف الأراضي المقدسة، ت سعيد البيشاوي، ط1 (عمان، 1995م)، ص90- 91 .
(148) رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص506.
(149) رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص506.
(150) Ernoul: Op.Cit., P.134; Estoire de Eracles, P.23.

(151) وجدت هذه الرواية القبول، لأن البطريرك أملريك السابق لهرقل رفض تنويع عمورى الأول والد سبيلا إلا بعد انفصاله عن زوجته (والدة سبيلا). انظر : Kedar: Op.Cit., P.197.

(152) تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص507.

(153)Kedar: Op.Cit., PP.196- 197.

(154)Ibid.P.198.

(155)Ernoul: Op.Cit., PP.129- 136; L'Estoire d'Eracles, Tom II, PP.25- 31.

(156) قرر الملك بلدوين الرابع وهو على فراش الموت عقد هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات، وقد تم توقيعها في مارس 1185م، وقد وقعها ريموند الثالث نيابة عن الملك الصليبي. انظر (H.): "The Rise of Saladin" in Setton: The History Of The Crusades, Vol.I, PP. 580- 582.

(157) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص142؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص85؛ Estoire d Eracles, Tom II, P.34

(158) يذكر رانسيما أن هرقل فضّل كما قال عنه أعداؤه البقاء مع محبوبته باشيا عن المشاركة في الدفاع عن المملكة. انظر: تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص513.

(159) رانسيما: المرجع السابق، ج2، ص513؛ Kedar: Op.Cit., P198.

(160) سعيد البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، ص351.

(161) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص146-148؛ أبو شامة:

الروضتين، ج2، ص89-90؛ رانسيما: تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص515-517.

(162) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص145.

(163) صور: هي مدينة تقع علي ساحل البحر المتوسط، أعيد بناؤها علي يد الفينيقيين، والمدينة ذات شكل دائري، تنتصب فوق البحر فوق صخرة قوية مسورة من جميع الجهات

القريبة من البحر باستثناء الجهة الشرقية، وكان للمدينة أهمية دينية؛ لأنها مقر إقامة رئيس الأساقفة. للمزيد انظر: ثيودريش: وصف الأماكن المقدسة، ص147، بورشارد: وصف الأراضي المقدسة، ترجمة: سعيد البيشاوي، ط. عمان 1995م، 43-44؛ ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص277-278، محمد مؤنس عوض: الرحالة الأوروبيون في العصور الوسطى، ط. القاهرة 1992م، ص39.

(164) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص155.

(165) Arnoul: Op.Cit., PP. 174-175; L'Estoire d'Eracles, Tom, II, PP. 81-84.

(166) المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد) ت حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب(2000م)، ج1، ص42.

(167)Kedar: Op. Cit, P. 203.

(168)P. 23; L'Estoire d'Eracles

(169)Ernoul: Op. Cit, PP. 185- 186

(170) Kedar: Op. Cit, P. 199.

(171) ذيل وليم الصوري، ص 110.

(172) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج2، طبعة وادي النيل (1288) ص92-95.

(173) البيزنطية: هي واحدة من العملات الذهبية الشائعة في العصور الوسطى، وسميت نسبة إلى بيزنطة، والبيزنطية يعادل نحو ثلاثة جرامات ونصف من الذهب. انظر: يعقوب الفتري: تاريخ بيت المقدس، ص110 حاشية رقم (2)؛ ستيفن رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ت عبد العزيز توفيق جاويد (القاهرة 1961م)، ص211؛ سعيد البيشاوي: الممتلكات الكنسية، ص118-119 حاشية رقم (4).

(174) Kedar: Patriarch Eraclius, P.200.

(175) المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص110-111.

(176)Kedar: Op.Cit., P.200.

(177) ذيل وليم الصوري، ص111.

(178) L'Estoire d'Eracles, Tom II, PP.23, 56; Ernoul: Op.Cit. PP. 214- 215.

(179) Grousset , Histoire de Crousades, TomII, P.811.

(180) المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة، ج1، ص43.

(181) عن هذه المحادثات انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص157؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص92.96؛ المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص111- 113.

(182) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص156؛ المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص115.

(183) كانت هذه الأموال موقوفة للصرف علي الحملات الصليبية؛ وذلك تكفيراً عما ارتكبه الملك الإنجليزي من جرم

في قضية اغتيال رئيس أساقفة كانتبريري توماس بيكيت. انظر

Mayer: Henry II of England and the Holy Land, P.48.

(184) المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص115؛

Kedar: Op.Cit., PP.200- 201.

(185) المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص115؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص157- 158؛ Keder: op .cit.201.

(186) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص157- 158؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص95- 96؛ المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص117.

(187) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص158؛ ذيل وليم الصوري، ص121. ستانلي لين بول: صلاح الدين وسقوط مملكة

بيت المقدس، ت فاروق سعد أبو جابر، ط1(القاهرة، 1995م)، ص 196.

- (188) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص185؛ المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص123.
- (189) المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة، ص43.
- (190) 'Estoire d'Eracles, PP.59- 64; Ernoul: Op.Cit. P.231.
- (191) صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس، ص195.
- (192) Kedar: Op.Cit., P.201.
- (192) سعيد البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، ص326.
- (193) Kedar: Op.Cit., P.202.
- (194) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ت. وشرح محمد محمود صبيح، تقديم: حامد زيان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط. القاهرة، 2003م، ص134؛ لين بول: المرجع السابق، ص196.
- (195) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص96.
- (196) المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة، ج1، ص23.
- (197) كونراد دي مونتفرات: هو ابن وليم الثالث دي منتفرات الذي وقع أسيراً في يد صلاح الدين، وكان كونراد قد وصل إلى عكا صيف 1187م قادماً من الغرب عبر القسطنطينية، ثم توجه إلى صور حيث بث وصوله في الصليبيين روحاً جديدة دفعتهم للمقاومة والثبات، وقاد كونراد حركة المقاومة هناك. للمزيد انظر، L'Estoire d'Eracles: Tom, II, PP. 75- 76; المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة، ج1، ص80- 81؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ط. القاهرة 1982م، ص659- 668
- (197) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص150؛ المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ج1، ص80- 81.
- (198) Kedar: Patriarch Eraclius, P.203.
- (199) المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة، ج1، ص105- 108.
- (200) Kedar: Op. Cit., P. 203.

مصادر تمويل الحملة الصليبية الأولى
1095 – 1099م

أ.د/ حسن البطاوي
جامعة أسيوط

مصادر تموين الحملة الصليبية الأولى

1095-1099م

اهتم المؤرخون اهتمام كبيراً بدراسة الحملة الصليبية الأولى، فتناولوها بالدراسة والتحليل من جوانب عديدة، ولا زالت حوادث هذه الحملة ومدلولاتها تغرى العديد من الباحثين المختصين الذين يسعون لتقديم الجديد في هذا الموضوع، من خلال ما يتم اكتشافه من وثائق جديدة، أو بقراءات متعمقة للنصوص الأصلية وربطها بما يجرى على الساحة العالمية الآن .

وهذه الدراسة تتناول قضية حيوية في تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ألا وهى مصادر تموينها. وهذا الموضوع ذو أهمية بالغة، إذ توقف مصير هذه الحملة على أمر المؤن، ما بين الفشل والنجاح، واستمرار زحفها وإعاقته كما لعبت قضية الطعام دوراً حيوياً في علاقة الصليبيين بالبلاد التي عبروا أرضها، شعوباً وحكاماً، هذا إضافة إلى أهمية الطعام ذاته لجيش يسير مسافات طويلة، ويصارع جيوشاً وشعوباً في بلادها، ويجهلون عن هذه البلاد أكثر مما يعرفون .

وقضية المؤن تطرح عدة تساؤلات، أولها؛ هل شارك البابا أوربان الثاني (1088م) - و1099م) أو كان له دور في إعداد مؤن الجيوش المتجهة إلى الشرق؟ وكيف استقر الصليبيون لتدبير الطعام لهذه المرحلة؟ وما مدى درايتهم بالمسافة التي سوف يقطعونها؟ وهل وضعوا في اعتبارهم وقتاً محدداً لقطع هذه المسافة؟ وما دور بيزنطة كشريك أساسى في توفير الطعام لهذه الأعداد الضخمة؟ ثم ما هى المصادر الأساسية التي اعتمد عليها الصليبيون كمصدر لطعامهم؟ وسوف نقدم إجابة عن هذه التساؤلات من خلال هذا البحث.

وفى البداية لابد من الإشارة إلى دور البابا أوربان الثاني فى الإعداد للحملة، وإلى أى مدى أسهم فى قضية مؤن الجيوش الزاحفة إلى الشرق. وعلى الرغم من أن فكرة الحرب الصليبية ضد المسلمين كانت قد شغلت بابوات سابقين، فإنها أخذت شكلاً عملياً بصورتها الضخمة المعرفة على يد البابا أوربان. وكانت فكرة الدعوة إلى الحرب الصليبية قد بدأت

تتبلور في ذهنه أواخر صيف 1095م، إذ تنقل في بلاد عديدة في غرب أوروبا، وعزز رحلاته بإرسال خطابات إلى رجال الدين في فرنسا وما حولها، يدعوهم إلى حضور المجمع المزمع عقده في كليرمونت ففضى أشهر أغسطس وسبتمبر وأكتوبر ونوفمبر في دأب ونشاط. ومن المرجح أنه في هذه الفترة قد رتب أفكار خطابه الذي سيلقيه على الحضور في المجمع (1) .

وعقد المجمع في الفترة من 18 حتى 28 نوفمبر 1095 م، وألقى البابا خطابه المشهور. ومن المفترض أن يكون البابا لديه خطة معينة عن الحرب الصليبية التي دعا لخروجها من الغرب الأوروبي. ولكن ليس بالضرورة أن يقوم بطرح هذه الخطة في مثل هذا المحفل الذي يضم عدداً كبيراً من رجال الدين، ليس بينهم من العلمانيين المعول عليهم القيام بالحرب الصليبية سوى عدد قليل ولكن من الطبيعي أن يعطى البابا خطوطاً عريضة عن مشروعه، يقنع به الحضور بجديته وجدواه (2) .

وقد وصلنا خطاب البابا أوربان بأقلام مؤرخين معاصرين للحدث، وآخرين متأخرين عنهم (3) وعلى الرغم من أنهم لم يتفقوا على صيغة موحدة للخطاب، ولا مضمون موحد، فإنهم اتفقوا على نقاط عديدة، وإذا كان من الممكن قبول ما اتفقوا عليه على أنها موضوعات تحدث فيها أوربان، فإنها أيضاً تعكس وجهة النظر الشخصية لهؤلاء المؤرخين (4).

وأما أهم النقاط التي اتفق عليها أغلب المؤرخين فهي أن البابا حث الحاضرين على مساعدة إخوانهم في الشرق، وتقديم المساعدة لهم عن طريق الانتصار على الأتراك، وتخليص القبر المقدس من أيدي المسلمين، وأن هذه الحرب من عمل الرب، كما دعا الأغنياء والفقراء على السواء للمشاركة، ووعد المشاركين بغفران الذنوب (5) .

ولما كان من غير المتوقع أن يتحدث البابا أوربان في هذا المجمع عن استعدادات معينة للحملة، أو عن خطط قتالية، فإنه لم يذكر صراحة خطة معينة، أو ترتيبات بعينها عن مؤن المشاركين في الحملة واكتفى بإشارة عامة عن هذا الأمر، عندما أخذ يشجع الحاضرين على

المشاركة، ويحثهم على سرعة المبادرة وعدم التردد، قائلاً لهم إن قلة المال لن تمنعهم من المشاركة طالما كانت العناية الإلهية ترعاهم (6).

وبقدر ما تحمل هذه العبارة من براعة البابا في استخدام الوازع الديني لدى جماهيره، فإنها تشير إلى أن الرجل لم يغفل أمراً مهماً يتوقف عليه نجاح مشروعه، ألا وهو مصادر تمويل هذه الحملة .

وقد لقيت دعوة البابا حماساً منقطع النظير، فاق ما كان يتوقعه من استجابة. ولما كان البابا هو المسعول الأول عن هذه الحرب، فقد واصل جهوده في سبيل إتمام مخطط الحملة، فاجتمع بأساقفته، وأصدر عدة قرارات، كالعفو عن أصحاب العقوبات الدنيوية المشاركين بإخلاص في الحرب، وتولي الكنيسة حماية ممتلكات المشاركين أثناء تغييبهم في الحملة، وإمعاناً من البابا في صبغ مشروعه بالصبغة الدينية، والقيادة البابوية، فقد عين مندوباً عنه من رجال الدين قائداً للحملة، وهو أدهيمار أسقف لى بوى (7) .

وعلى كل حال، فإن قضية تمويل هذه الحملة قد شغلت بال البابا أوربان، والحقيقة أنه دعا الجماهير للمشاركة في حربه المقدسة، الأغنياء والفقراء جميعاً، ولما كانت دعوته قد ذهبت إلى آفاق بعيدة في الغرب الأوروبي، وتحمس لها الأوروبيون على اختلاف مستوياتهم، فيبدو أن البابا بدأ يتدرك هذا الأمر، واضعاً في الاعتبار أن جماهير غير المحاربين الذين نضوا للمشاركة في الحملة ليسوا إلا عقبة وحملاً ثقيلاً على الأداء القتالي للفرسان، وأن حماية وإطعام هذه الإعداد سوف يكون على حساب الفرسان المقاتلين. ولذا فقد جاء نشاط البابا الحيوي في سبيل التخطيط للحملة عقب مجمع كلير مونت، وخاصة من خلال خطاباته التي أرسلها إلى مدن وأمراء من الغرب الأوروبي (8) .

وقد تحدث البابا صراحة في خطاباته عن مشاركة الفرسان في الحملة، دون غيرهم من غير المحاربين، ووضع قيوداً أمام مشاركة الرهبان ورجال الدين وكبار السن والنساء والمتزوجين حديثاً (9) .

وكانت قضية تمويل الحملة إحدى القضايا التي اهتم بها البابا أوربان، فقد أشار

إليها من قبل في مجمع كليير مونت، عندما نصح المشاركين بالاستعداد للرحلة، وتأجيل الرحيل لما بعد موسم الحصاد، وحدد يوم 15 أغسطس 1096م بداية انطلاق الحملة. ثم خرج جوالاً في مدن وأقاليم وأديرة عديدة في الغرب الأوروبي، والتقى خلالها شخصيات عديدة من الذين أعلنوا مشاركتهم. ومن أهم الشخصيات التي التقاها البابا هو ريموند سان جيل (السنجيلي) (10) ومن المتوقع ان يكون البابا ناقش معه خطط الحملة وربما يكون منها قضية التمويل، إضافة إلى خط سير الجيوش المشاركة، وقيادة هذه الجيوش، والموقف من المسيحيين الشرقيين، وغيرها من القضايا الحيوية .

وإذا كان البابا أوربان قد ظهر عليه القلق لمشاركة العديد من غير المحاربين، فإنه قد وضع القوانين اللازمة التي رأى أنها ستعالج هذا الأمر. ولكن إذا كانت مؤن الحملة لا زالت تشغل باله، فإنه قد وصل إلى قناعة، وربما كانت هذه القناعة قد استقرت في ذهنه من خلال مناقشاته مع بعض الأمراء المشاركين، خاصة ريموند الصنجيلي، فرأى انه لا مناص من الاستعانة بقوى أخرى تمد هذه الأعداد الضخمة بالطعام اللازم خلال رحلتهم الطويلة. ومن هنا جاء طرح المدن الإيطالية في القضية الصليبية، علاوة على بيزنطة التي سيقطع الصليبيون مسافات طويلة من أراضيها حتى يصلوا إلى أراضي المسلمين والأماكن المقدسة .

وقد راسل البابا مدينة جنوه، وطلب من الجنويه التعاون مع الصليبيين (11). والواقع أن سفنهم لم تظهر إلا أثناء حصار أنطاكية، كما سنذكر بعد ذلك. ولكن السؤال الذى يطرح نفسه، هل طلب البابا من الجنوية التعاون البحرى وهو يعلم أن خط سير الحملة سيكون برياً؟ ام انه حدد في مفاوضاته ان يقدم الجنوية مساعداتهم عندما يقترب الصليبيون من ساحل البحر المتوسط؟ والراجح انه استبعد مساعداتهم في المرحلة المتقدمة من المرحلة، والتي سيقطعها الصليبيون في الأرضي البيزنطية، ثم لو قدر لهم النجاح، فانهم سيواصلون طريقهم عبر آسيا الصغرى، وانه جرى التفاوض معهم على ان يقدموا المؤن والمعدات للصليبين عند نجاحهم في الوصول إلى ساحل بلاد الشام .

والذى يؤيد هذا الفرض ان البابا كان على قناعة تامة ان بيزنطة ستقدم المؤن اللازمة

طالما كان الصليبيون في أراضيها، ثم انما سوف تستمر في تقديم المساعدة حتى هذه النقطة من المرحلة. هذا وأن كان رنسيमान قد افترض أن الجنوبية أرجأوا تعاونهم حتى يتأكدوا لهم نجاح الصليبيين (12) .

وعلى الجانب الآخر، فان البابا أوربان ومن معه من الأمراء لم يغفلوا دور بيزنطة الفعال المنتظر تقديمه. وقد ظهر خطابان أحدهما منسوب للبابا وبعض الأمراء الصليبيين يخبرون فيه الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين (1081 / 1118م) بتكوين الحملة وموعد رحيلها والثانى رد من الإمبراطور يعدهم فيه بتقديم المساعدة. وعلى الرغم من الطعن فى صحة الخطابين (13)، فان الحوادث سوف تأخذ اتجاهها يؤكد ان الإمبراطور البيزنطى كان على علم بما يجرى فى الغرب الاوربى، وأن جيوشا غريبه سوف تعبر أراضيها فى أواخر الصيف، وأنه، كيفما كان الأمر، سيقدم الطعام اللازم لهؤلاء القادمين إلى بلاده .

وأما عن غرب أوروبا، فإن حالة من الاستنفار قد سرت بين الناس، وضجت القرى والمدن بصخب الرحيل إلى الشرق. والتقى البسطاء يتحدثون عن مشروع البابا، ويمنون أنفسهم بأمانى ملؤها الرغبة فى حياة أفضل وتراسل الأمراء هنا وهناك، للترتيب والتنسيق وحث بعضهم بعضا على الاستعداد بمهمة ونشاط، وأخذ بعضهم يذكر بعضا بموعد الرحيل المقرر مسبقا من قبل البابا(14).

كانت قضية توفير الطعام هى الشغل الشاغل لجميع المشاركين فى الحملة، سواء كانوا أغنياء أم فقراء، محاربين أم غير محاربين، وسعى الصليبيون لتدبير الأموال اللازمة لرحلتهم، لشراء ما يلزمهم من طعام يستطيعون حمله لأطول مسافة ممكنة، وتجهيز أسلحتهم وأدوات رحلتهم، والاحتفاظ بجزء من هذه الأموال لسد النفقات الضرورية أثناء الرحلة .

ولا شك أن وسائل تدبير المال، والاستعداد للحملة من قبل الفرسان اختلف كثيراً عما اتبعه العوام ثم أن الفرسان انفسهم اختلفت وسائل تدبيرهم للأموال من فارس إلى آخر، كل منهم حسب قدرته الاقتصادية، وما توافر لديه من إعداد الجنود المشاركين تحت قيادته. وعلى كل حال، فإنه لم يكن هناك من إدارة خاصة، سواء مكلفه من البابا، أو جرى

تكوينها من جماعة الأمراء، لتتولى أمر تدبير وإدارة تمويل هذه الحملة (15) . وكانت النقود المتداولة في الغرب الأوربي أثناء الاستعداد للحملة قليلة القيمة إذا قارناها بعملات الدولة البيزنطية، أو العملات المستخدمة في العالم الإسلامي . وكان ذلك راجعاً إلى كثرة العملات التي ضربها أمراء الإقطاع، وتلاعبهم في درجة نقاء العملات الذهبية(16). وقد تأثرت أسعار النقد تأثراً كبيراً من جراء دعوة البابا أوربان للحرب الصليبية. ونهض الفقراء قبل الأغنياء، لتدبير الأموال بشتى الطرق، وقام بعض العوام بإجبار اليهود في ألمانيا على دفع الأموال، وكان على رأسهم بطرس الناسك، كما قام جود فرى البويوني بابتزازهم أيضاً. وأتجه البعض إلى بيع ممتلكاتهم، وقام آخرون برهنها (17) . ونتيجة لكثرة المعروض للبيع من الممتلكات، وقلة المقبلين على الشراء، سواء من الأفراد أو من المؤسسات الدينية، فإن قيمة هذه الممتلكات انخفضت كثيراً، واضطر الراغبون في البيع إلى التفريط في ممتلكاتهم وحاجياتهم بأبخس الأثمان. وفي مقابل ذلك ارتفعت أسعار السلع الضرورية للصليبيين ارتفاعاً باهظاً، نتيجة للإقبال الكبير على شرائها(18) . ولما خرجت حملات العامة قبل الموعد المحدد للرحيل لم يفيدوا من موسم الحصاد، مثلما أفادت جيوش الأمراء الذين انتظروا نزوح المحاصيل. حتى اذا جاء موعد الرحيل لم يكن هناك نقص في الطعام في غرب أوروبا (19) . وإذا نظرنا إلى ما سبق طرحه، سنجد أن قضية تمويل الحملة كانت بالغة الأهمية، فقد كانت السبب الرئيسى وراء تحديد موعد خروج الحملة، وإذا لم تحفل جموع العوام بهذا الموعد، فان الأمراء خرجوا في هذا الموعد أو قريباً منه . وإضافة إلى ذلك كان أمر توفير الطعام وراء اختيار الأمراء للطرق التي سوف يسلكونها، فقد تم الاتفاق فيما بينهم من خلال المراسلات على أن يسلكوا أيسر الطرق، واتفقوا على ألا يكون طريقهم واحداً، بل عليهم أن يسلكوا طرقاً عدة، لأنهم أدركوا صعوبة وفاء أى إقليم يبرون به ببذل الطعام لهذه الأعداد الكبيرة ولذلك سلك كل أمير منهم طريقاً غير الذى سلكه رفاقه (20) .

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

ومن هنا كانت قضية توفير الطعام أحد أهم القضايا التي شغلت الصليبيين قبل خروج الحملة. ولكن هل كان لدى الصليبيين المعلومات الكافية عن الرحلة إلى الشرق؟ أى هل كانوا على علم بالمسافة التي يجب أن يقطعوها برأ حتى يصلوا إلى هدفهم، والراجح توافر مثل هذه المعلومات لديهم، وأن كان احتمال نسبة دقتها قليلة. فقد خرجت رحلات حج أوروبية إلى الأماكن المقدسة في الشرق، كما ذكر أن بطرس الناسك قام برحلة إلى هناك قبيل الحملة الصليبية، وواجهته عقبات كثيرة، وربما فشل في الوصول إلى فلسطين (21). وإذا كان بطرس الناسك قد قام بالفعل بهذه الرحلة، فإنه عاد ومن معه ولديهم معلومات عن الطريق، توافرت من دون شك للمشاركين في الحملة الصليبية .

وقد خرج الصليبيون في قسمين مختلفين، القسم الأول تشكل من العوام، وقد خرجوا بدون تبصرة كافية بأمر الطعام، فما حملوه معهم من طعام لم يكن إلا لمسافة قصيرة. واعتقدوا أن ما جمعوه من أموال قليلة تكفى لتغطية نفقات الرحلة. والقسم الثانى تمثل فى الأمراء، وكانوا أكثر مسؤولية بإدارة شئون جيوشهم، ورعاية مصالحهم.

وقد بدأ خروج أولى الجماعات الصليبية فى إبريل 1096م وتوالى خروجهم بعد ذلك، حتى خرج جيش آخر فى أكتوبر من نفس العام، وكان استيلاؤهم على بيت المقدس فى 15 يوليو 1099م. وهذا يعنى أن الحملة قضت فى طريقها حوالى ثلاث سنوات وثلاثة أشهر. عبروا خلالها بلدانا عديدة، تباينت علاقاتهم مع حكام وشعوب هذه البلاد، بين الصداقة والود، والعداء والقتال. هذا إضافة إلى أنهم عبروا أقاليم مختلفة، فمروا داخل غابات، وتسلقوا جبال، وزحفوا على صحارى وهضاب .

و خلال هذه الرحلة كان عليهم تديرأمر طعامهم وأعلاف حيولهم، فمن البديهى أن ينفذ الطعام الذى حملوه معهم من الغرب الأوروبى، وأنه لم يكفهم سوى أيام قليلة. وأصبح اعتمادهم فى توفير الطعام رهن ظروف الطريق. والحقيقة أنهم أثناء سيرهم اعتمدوا على عدة مصادر لتوفير الطعام. وللحديث عن هذه المصادر نقوم بتقسيم خط سير الحملة إلى أربع مراحل، تميزت كل مرحلة عن الأخرى بظروف ومصادر تموينية مختلفة (22) .

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

والمرحلة الأولى هي المرحلة المجرية، والتي عبرت فيها بعض جيوش الحملة أراضى المجر. والمرحلة الثانية هي المرحلة البيزنطية، وتبدأ من دخول الحملة الأراضي البيزنطية حتى وصولهم أنطاكية. وأما المرحلة الثالثة فهي مرحلة أنطاكية. وتأتي المرحلة الرابعة والأخيرة ما بعد أنطاكية وحتى بلوغهم بيت المقدس .

ومن الملاحظ أن الصليبيين اعتمدوا في كل مرحلة من هذه المراحل على مصادر تموين أساسية اختلفت عن المراحل الأخرى. وهذا إضافة إلى أنهم سلكوا مسلكا واحدا هو السلب والنهب في أكثر من مرحلة، وذلك عندما كانت تدفعهم الحاجة إلى ذلك .

وسوف نلاحظ أيضا أن وصول الجيش الصليبي إلى مدينة ما كان يؤدي إلى كثرة الطلب على الطعام، وبالتالي ترتفع أثمانه بصورة كبيرة. وقد أضرت هذه التطورات بالفقراء المشاركين في الحملة، ولم تكن لديهم القدرة المالية على تدبير الطعام خلال مراحل الرحلة كلها (23)، وبالتالي سنجدهم أكثر الخارجين على نظام الجيش، والناكثين لتعهداتهم التي قطعوها على أنفسهم لأصحاب البلدان التي عبروا أراضيها .

وأما عن الطرق، فكان من المقرر أن يسلك الصليبيون الطرق البرية المؤدية إلى الأراضي المقدسة. وقد جرى الاتفاق بين الأفراد من قبل على ان يسلك كل منهم طريقا مختلفا عن الآخرين، حتى يسهل عليهم تدبير الطعام. وقد خرجت الجيوش من أقاليم متعددة، فسلك كل أمير طريقا مختلفاً عن رفاقه، حتى وصلوا إلى الحدود المجرية والبيزنطية. وكان أمامهم طريقان يؤديان إلى القسطنطينية، الطريق الأول في الشمال، ويخترق الأراضي البحرية مارا بسملين، ويمر على بلجراد بعد عبور نهر سالف على الحدود البحرية البيزنطية، ثم يمتد في بلغاريا التابعة للسيارة البيزنطية، ماراً بمدينة ينش وصوفيا ويلييو بوليس وأدرنه ثم القسطنطينية. وأما الطريق الثاني، فهو الطريق البيزنطي المعروف بـ **Via Egnatia** ويبدأ من دوارزو على البحر الادرياتي ثم اوكريدا إلى فودينا ثم سالونيك، ثم موسينو بوليس ثم سيليمبريا ثم القسطنطينية (24) .

ذهبت تحذيراته أدرج الرياح، وكانت جموع العوام أول الزاحفين إلى الشرق (25)، والتفتت جموع عديدة من العوام في كولونيا، وعلى الرغم من أن فرص الحصول على الطعام لم تكن مناسبة بالقدر الكافي، فان والتر المفلس (26)، قرر الانفصال عن بطرس الناسك ومن معه في كولونيا، وغادروها في 8 مارس 1096م واتخذ طريق الراين جنوباً حتى وصول إلى نهر الدانوب، فالتزمه حتى وصول حدود مملكة المجر في 8 مايو، وأرسل إلى كولومان ملك المجر (1116/1095م) يطلب منه عبور أراضيه، وتقديم المواد التموينية لجيشه أثناء عبورهم ووافق ملك المجر لوالتر على كما طلبه. وطوال هذه الفترة إلى قضاها والتر وجيشه في أراضى المجر كانت الأسواق المجرية تقدم المواد التموينية والأعلاف اللازمة. وعبرت هذه الجماعة بدون مشاكل خاصة بالتموين، إلا من حادث فردي وقع عند سملين في أحر الأرضي المجرية (27).

و كان على المجرين أن يأخذوا حذرهم بعد حادث سملين، فقد تواردت الأخبار إليهم بقدم جماعة أخرى. وكان بطرس الناسك قد تحرك من كولونيا في 20 أبريل، وعندما وصل إلى الحدود المجرية استقبله ملكها استقبالاً حسناً. واعتمد بطرس وجيشه في توفير الطعام على الأسواق المجرية، التي ازدادت وفرة بالسلع الضرورية مع أسعارها المعقولة. وعلى الرغم من ذلك فقد وقعت حوادث شغب واحتكاكات بين الصليبيين والمجرين في سملين، وكان السبب وراء هذه الفتنة فظاظة رجال بطرس وعدم انضباطهم، وارتكب الصليبيون مذبحاً راح ضحيتها حوالي أربعة آلاف مجرى (28).

و على الرغم مما جرى فان ملك المجر وافق على عبور جماعة صليبية أخرى من العوام. وكان على بلاده أن توفير الطعام لهذه الجماعة، وفتحت الأسواق أبوابها، وقدم المجرىون الطعام بوفرة. ولكن الصليبيين لم يحمدا هذه النعمة، وامتدت أيديهم إلى البضائع المعروضة بالنهب، وعاثوا فساداً فيما طالته أيديهم. ولم يكن أمام المجرين إلا مواجهة هؤلاء الفاسدين، ومنعهم من مواصلة عبور أراضيه (29) لقد افسدوا العوام صورة الصليبي في مخيلة المجرين، فمنع المجرىون جماعات أخرى من العوام من عبور أراضيه (30).

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

وأما الوافد على بلاد المجر هذه المرة فكان جود فرى البوبوني وجيشه. وكان قد قر أن يتخذ هذا الطريق الذى سيجنبه لقاء البابا إذا سلك الطريق الجنوبي، وهو الأمر الذى كان يتحرج منه، لأنه من أنصار الإمبراطور هنرى الرابع (31) .

خرج جود فرى فى نهاية أغسطس 1096م ووصل إلى حدود المجر فى 20 سبتمبر، وأرسل بطلب من كولوفان الإذن بعبور أراضيه ، وكان ما جرى من جماعات العوام ماثلا فى ذهن ملك المجر، ولكنه قرر هذه المرة أمام مالدي جيش جود فرى من قوة ونظام، ولم يجد مانعا من السماح لهم بعبور أراضيه بعد مفاوضات استمرت فترة من الزمن، ثم أخذ التعهدات اللازمة من جود فرى بحسن السير والسلوك داخل أراضيه، وأخذ أحياه بلدوين(32) رهينة لضمان تنفيذ ما تم الاتفاق عليه. وكان فيما اتفق عليه تقديم المجرىون الطعام اللازم للجيش طوال رحلتهم فى الأرضى المجرية، ولقاء أثمان معقولة. وأقبل المجرىون بيضائهم يحملونها إلى الصليبيين، وكلما انتقلوا من إقليم إلى آخر وجدوا الأسواق مكتظة بكل ما يلزم الجيش من مواد تموينية، ومع وجود رقابة على حركة البيع والشراء، ولكى لا يحدث تطفيف فى كيل أو ميزان، ربما يؤدى إلى شغب بين الصليبيين والمجرىين. ووصل جود فرى فى نهاية نوفمبر إلى سلمين آخر نقطة فى الأرضى المجرية، وعبر نهر سالف إلى بلجراد(33)

وتبدأ المرحلة الثانية بدخول الصليبيين الأرضى البيزنطية. وقد لعبت بيزنطة فى هذه المرحلة الدور الاساسى فى توفير المواد التموينية لجيوش الحملة. ويمكن ان نقسم هذه المرحلة إلى قسمين: فالقسم الأول يمتد من الحدود البيزنطية فى الغرب حتى تجمع الجيوش الصليبية فى القسطنطينية، واعتمد الصليبيون فيه على ما قدمه البيزنطيون من طعام، او ما أسميناه من قبل سياسة السوق المفتوح، هذا فضلا عما قام به الصليبيون من سلب ونهب لبعض المناطق التى مروا عليها. وأما القسم الثانى فيتمثل فى المسافة من نيقية حتى أنطاكية .

وإذا كانت صحة المراسلات بين البابا أوربان الثانى والإمبراطور البيزنطى غير مؤكدة، فإن الذى لا شك فيه أن الأخير كان يعلم بقدوم الصليبيين، ويعلم على وجه التقريب الموعد

الذى سيصلون فيه أراضيه باستثناء من وصلوا قبل الموعد المحدد. ولذلك دبت حالة استنفار في أرجاء الإمبراطورية، وصدرت التعليمات إلى قادة الأقاليم التي سيعبرها الصليبيون بتوفير الطعام لهم، ومراقبتهم (34). كما حرص الإمبراطور على أن يكون استقباله حسناً لقادة الصليبيين، حتى يأمن جانبهم، ويرفع عن نفسه لائحة اللائمين، فخرجت رسله إلى موظفي أقاليم الحدود تأمرهم بالاستعداد للقاء الصليبيين (35).

و كانت جماعة والتر المفلس أولى الجماعات وصولاً إلى الأراضي البيزنطية. وكان والتر يتوقع فتح الأسواق البيزنطية أمامه، ولكن حاكم بلجراد البيزنطى لم يفعل ما فعله كولومان ملك المجر، وانتظر حتى يأخذ إذن قائده الأعلى في نيش، فأرسل الأخير بدوره إلى الإمبراطور في القسطنطينية. واذاء هذه الإجراءات لم يمهل الجوع بطون رجال والتر، فعرضهم بأنيا به، وخرجوا يبحثون عن الطعام، فنهبوا الحقول والمزارع، واستولوا على قطعان من الماشية والأغنام من أيدي أصحابها. فخرج السكان يحملون أسلحتهم، وفتكوا بكثير من الصليبيين واضطر والتر إلى متابعة سيره حتى وصل نيش، ثم واصل سيره إلى القسطنطينية فبلغها في 20 يوليو (36).

ويبرر رنسيما ن ما جرى في بلجراد، معتذراً عن الكيوس، بذكره سببين، الأول أن والتر تحرك بجيشه مبكراً، فوصل الأراضي البيزنطية في موعد مبكر عما كان يتوقعه الإمبراطور، والثاني أن والتر سلك الطريق الشمالى الذى لم يتوقعه الإمبراطور، ولذا لم تكن الإمبراطورية مستعدة لاستقباله (37).

وأعتقد أن ما جرى من إجراءات بيزنطية بعد ذلك يؤكد ما ذهب إليه رنسيما ن، فقد قدمت المؤن لجيش والتر في نيش وحتى وصولهم إلى القسطنطينية، وهناك تمتعوا بحرية البيع والشراء مدة انتظارهم حتى قدوم رفاقهم (38).

و كان لقاء البيزنطيين لبطرس الناسك وجيشه غير حميد، فبعد دخوله الأراضي البيزنطية في 26 يونيو 1096م وصل بلجراد فوجد سكانها قد حجروها خوفاً من فظاظة جيشه. وبلغ بطرس نيش في 3 يوليو. وهنا سجد أن الطعام هو المحرك للمصادمات التي

جرت بين جيش بطرس وأهل نيش. فقد طلب بطرس توفير المؤن لجيشه، على أن تكون بأسعار معقولة، وبالفعل قدم أهل نيش المواد التموينية، بعد تقديم الصليبيين رهائن منهم لإجبارهم على التزام النظام. ثم جرت حوادث شغب من بعض الصليبيين، وفشل بطرس في السيطرة على رجاله، في الوقت الذي انتقم فيه أهل نيش لأنفسهم، وبددوا شمل جيش بطرس، وضاعت أمواله أثناء المطاردات (39).

وأصبح بطرس وجيشه يعوزهم الأمن والطعام وهو في قلب الأراضي البيزنطية، ولم يكن أمامه هو ومن تجمع معه ثانية من جيشه سوى سلب الطعام من المناطق التي مروا عليها، إلى أن وصلوا صوفيا في 12 يوليو. وهنا كانت الإدارة البيزنطية العليا في العاصمة قد تداركت الموقف، ووصل رسل الإمبراطور يطمئنون بطرس على أنهم ملتزمون بتقديم المؤن اللازمة لجيشه، وعليهم ألا يقيموا في أي مدينة أكثر من ثلاثة أيام (40).

وصار جيش بطرس معتمداً في طعامه على ما تقدمه الأسواق البيزنطية بأسعار مناسبة حتى وصلوا إلى القسطنطينية في أول أغسطس. وأقاموا بجوار العاصمة مع والتر وجيشه، بدون انقطاع للطعام الذي توفره لهم العاصمة. ويبدو أن هؤلاء الغزاة قد انههروا بهذه المدينة العظيمة التي حرمهم الإمبراطور من دخولها إلا في جماعات صغيرة، فامتدت أيديهم بالسوء إلى بعض القصور، وأضرمو فيها النيران، وخلعوا الرصاص من أسقف بعض الكنائس، فاضطر الإمبراطور في 6 أغسطس إلى إصدار الأمر بنقلهم عبر مضيق البسفور إلى آسيا الصغرى (41).

واستمرت إقامة جموع العوام قرابة شهرين في المعسكر الذي أعده الكسيوس بالقرب من نيقية (42) واعتمدوا في طعامهم على ما يقدمه لهم التجار الإغريق، الذين جلبوا لهم كميات ضخمة من المواد التموينية. وكان من الصعب أن تستمر إقامة هذه الجموع بدون إثارة مشاكل، فقد خرجت جماعات منهم يريدون سلب ونهب المناطق المجاورة الخاضعة للسلطان السلجوقي قلعج ارسلان (43) وعادوا ببعض الأسلاب، وإزاء ذلك فقد خرجت جماعات أخرى طمعا في الأسلاب مثلما فعل رفاقهم، وانتهت اغاراتهم بمواجهة قوية مع

جيش سلجوقى قضى على الغالبية العظمى من جموع العوام، ولم ينج منهم الا عدد قليل، كان بطرس الناسك واحدا منهم (44) .

ويذكر أحد المؤرخين أن معسكر العوام بالقرب من نيقية لم يعان أية مشاكل في الطعام مع استمرار التجار الإغريق في تقديمه إليهم (45) . على أن هذا الرأى تنقصه الدقة، لأننا لو أمعنا النظر فيما جرى من حوادث رحلة هؤلاء العوام سنجد أنهم كانوا يفتقرون إلى الأموال، إضافة إلى ضياع خزائن الأموال التي كان يحملها بطرس الناسك معه عند نيش، وما حمله البعض من أموال نهد، أو كاد ينفد في شرائهم لضروريات الحياة، ثم أن ما قدمه الإمبراطور من أموال قد خص به بطرس دون غيره، ولم يكن ليغضى نفقات هؤلاء الفقراء. هذا فضلا عن أن عدداً كبيراً من العوام خرجوا من ديارهم اعتماداً على ما قدمه الأغنياء من إحسان، وما تصدق به الأتقياء الذين مروا على ديارهم أثناء الرحلة. ومن ثم فإنهم عاشوا طوال مدة إقامتهم في هذا المعسكر تحت رحمة تجار الإغريق، ولم يكن أمامهم سوى الاعتماد على سواعدهم لتوفير الطعام .

وأما عن طعام جيوش الأمراء، فلا بد أن الإمبراطور البيزنطى قد استبد به القلق بعد ما رآه من مسلك العوام، وأن عليه أن يكون حذراً وحازماً في مواجهة الأمراء أكثر من ذى قبل. وإذا كان عليه أن يضع سياسة تخدم مصالح إمبراطوريته تجاه جيوش الأمراء، فعلى رأس هذه الأولويات التي يجب اتباعها هى أن يوفر للصليبيين المؤن اللازمة، حتى لا يحدث من الشغب والخروج على النظام ما لا يحمد عقباه .

وهذا يعنى بطبيعة الحال أن أمر توفير المؤن لجيوش الأمراء كان في حسابان الإمبراطور، كما كان الأمراء يعولون كثيراً على معونة بيزنطية. فالإمبراطور لا يريد، أو لا يستطيع أن يرد هذه الجيوش، وأصبح من واجبه أن يقدم لهم المعونة، فيما لا يتعارض كل هذا مع أمن وسلامة الإمبراطور. وإذا كان الأمراء قد عبروا الأرضي البيزنطية كما سنرى بأقل الخسائر التي يمكن أن تضحي بها بيزنطة، فالإمبراطور لن يفوت فرصه استخدامه لسلاح التموين كورقة ضغط على الصليبيين للإفادة منهم في الخطوة التالية .

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

و كان أول الأمراء وصولاً إلى الأراضي البيزنطية هو هيوكونت فومانندو(46)، فقد ارتحل أواخر أغسطس 1096م واتجه إلى إيطاليا، وفي أوائل أكتوبر وصل بارس في الجنوب، وأثناء عبوره الادرياتي هبت عاصفة حطمت معظم السفن التي تقل جيشه، ونجا ومعه عدد قليل من رجاله، فاستقبله حاكم دورازو البيزنطى استقبلاً حسناً. ولم يكن هناك مشكلة في إطعام هيو ومن معه حتى وصلوا القسطنطينية على الطريق البيزنطى الرئيسى فيا اجناتيا. وقد وضع حذر الكسيوس في تكليفه فرقا من جيشه لمرافقة جيوش الأمراء ومراقبتهم، وإلزامهم كف الأذى عن السكان والممتلكات(47).

وأما الطريق البيزنطى الشمالى، اتجه نحوه جودفرى كما سبق أن ذكرنا، ووصل بلجراد أول أكتوبر 1096م ووصل القسطنطينية في 23 ديسمبر م وقد تزود جيشه بالمؤن بفضل الجهود التي بذلتها الإدارة البيزنطية، ولم يحدث اختلال في النظام إلا عند سيليمبريا، فخرج الجيش للنهب، واستمروا لمدة ثمانية أيام حتى دمروا المنطقة تماما، ثم عاد الجيش إلى الهدوء (48).

وعند القسطنطينية برزت قضية الطعام كورقة ضغط، استخدمها الكسيوس لإجبار الصليبيين على قبول سياسته (49) وطوال مدة المفاوضات بين الكسيوس وجودفرى حول مستقبل الحملة والجيش يعتمد على الطعام المقدم من البيزنطيين. وقد سمح الصليبيون لأنفسهم بالخروج للحصول على الطعام في إغارات واسعة حول القسطنطينية بعد منع الكسيوس تزويدهم به، نتيجة لتعثر المفاوضات مع جود فرى واضطر الكسيوس إلى التراجع عن قراره الخطير. واستقرت الأوضاع داخل معسكر جود فرى، ولكن مع نهاية شهر مارس 1097م كان جيشا صليبيا آخر قد أوشك على الوصول إلى القسطنطينية، ما يعنى قوة شوكة جود فرى عندئذ، وتغير إتجاه المفاوضات لصالحه. لذلك اتخذ الإمبراطور قراره بمنع الطعام عن جيش جود فرى. ولم يكن هناك سبيل أمام الأخير للحصول على الطعام سوى الإغارة على ضواحي القسطنطينية، ثم على العاصمة ذاتها. فانتشر فرسانه ينهبون الحقول في دائرة محيطها بلغ ستون ميلاً، وعادوا بكميات وفيرة من المواد الغذائية. وكان على

الإمبراطور أن يحسم هذه القضية بالقوة العسكرية، ولم يكن أمام جود فرى بعد هزيمته سوى الذهاب إلى الإمبراطور لقسم يمين الولاء، وتم نقل جيشه إلى آسيا الصغرى (50).

و كان بوهمند النورمانى (51) قد اعد جيشه وخرج من بارى فى أكتوبر 1096م وعبر الادريانى ورست قواته عند دورازو وبالقرب منها. واتخذ طريقة جنوب فى اجناتيا، فمر على كاستوريا، ونزل فى اجناتيا عند فودينا (اديسا)، ومر على سيرا فى نهاية فبراير 1097م، وفى أول أبريل بلغ روسا (كوشان الحالية)، وترك جيشه بها وذهب للقاء الإمبراطور، مصحوباً برسله، فوصل القسطنطينية فى أبريل. وهنا نرى أعداء الأمس أصدقاء اليوم. أو بمعنى آخر كان بوهمند والكسيوس أكثر تفهما للأوضاع السياسية. فقد وفر الإمبراطور الطعام اللازم لجيش بوهمند منذ وصوله الأراضى البيزنطية. فكانت تصدر الأوامر إلى سكان المناطق التى مروا عليها بحمل المؤن إلى جيش بوهمند، ولم يشذ عن ذلك إلا سكان كاستوريا، ولذلك خرج الصليبيون عندها على النظام، وسلبوا السكان مواشيهم وحيولهم وهميرهم وكل ما صادفهم. ولم يؤثر هذا الحدث على العلاقة بين الطرفين، إذ ان بوهمند ألزم جنوده الانضباط بعدها، ومنعهم من التعدى على السكان أو الممتلكات، وحاول أن يثبت للإمبراطور أنه خادمه المطيع. وبعد مفاوضات القسطنطينية تم نقل جيش بوهمند إلى آسيا الصغرى فى 26 ابريل (52).

و أما ريموند الصنجيلى فقد اخترق جبال الالب، ثم سار موازيا للادريانى عبر استريا وكرواتيا ودلماشيا حتى وصل إلى دورازو فى أوائل فبراير 1096م ورافقته فرقة من الجيش البيزنطى عبر طريق فى اجناتيا، فوصلوا بيلاجونيا منتصف الشهر، ثم بلفواروسا فى 12 ابريل، ثم رودستو فى 20 أبريل، وعسكر الجيش هناك، وذهب ريموند إلى القسطنطينية للقاء الإمبراطور(53).

وقد عانى ريموند من أجل توفير الطعام خلال عبوره كرواتيا ودلماشيا، ولمدة أربعين يوماً امتنعت الجبال الوعرة، وسكان دلماشيا ان يرفقوا بريموند وجيشه، ولم تقدم مفاوضات ريموند مع الأمير العربى بودين ما كان يأمله من سلام وطعام. فقد عاودوا هجماتهم على الجيش

الصليبي حتى وصلوا إلى دورازو. ولم تكن رحلة ريموند في الأراضي البيزنطية مرضيه تمام الرضى، اذ قدمت لهم المواد التموينية، ولكن كثرت الاحتكاكات بين الجانبين، وما من إشارة توضح أسباب ذلك ومن المحتمل أن تكون ندرة الطعام وراء تهور ريموند، إضافة إلى أن ريموند لم يكن حازماً في ضبط جنوده. وقد وقع اشتباك عند بيلاجونيا، وأخذ المندوب البابوي ادھميار أسير ثم انقذ. وجرت حوادث عنف في روسا، ونجح الصليبيون في اقتحام المدينة، وخرجوا منها بغنائم وفيرة. وعلى الرغم من ذلك فان بيزنطة تحملت عبء توفير الطعام لجيش ريموند حتى تم نقله إلى آسيا الصغرى (54).

و خرجت جماعات أخرى من غرب أوروبا، وألتقى بعضهم بعضا وساروا حتى وصلوا إيطاليا، وكان على رأسهم روبرت دوق نورماندى وستيفن كونت بلوا وروبرت كونت فلاندرز وآخرون (55). ذو اتجهوا إلى روما، فالتقوا البابا أوربان، وأكملوا رحلتهم إلى الجنوب. وهناك فضل كونت نورماندى وكونت بلوا قضاء الشتاء في كلا برى، وعبر كونت فلاندرز الادرياتي، ووصل الأراضي في البيزنطية في أوائل ديسمبر 1096 م، وتابع رحلته إلى القسطنطينية بدون مشاكل في التموين. وفي 5 أبريل 1097 ركب كل من كونت نورماندى وكونت بلوا السفن من برنديزى. وأثناء عبور الادرياتي غرقت إحدى السفن وعلى متنها أربعمائة فرد، إضافة إلى الخيول والبغال وخزائن الأموال. واستقبلتهم السلطات البيزنطية في دورازوا استقبالا حسناً، وساروا في طريق فيا اجناتيا حتى وصلوا القسطنطينية في مايو وقد توافرت لهم المؤن طوال رحلتهم، وأقاموا أمام القسطنطينية أربعة عشر يوماً، وكانوا يشتركون ما يلزمهم من طعام من سكان المدينة، الذين دأبوا على الحضور إلى معسكرهم بناء على أوامر الإمبراطور. ثم انتقل هذا الجيش ليلحق بالجيش السابقة التي كانت تحاصر مدينة نيقية(56).

ومن هنا نجد أن الصليبيين اعتمدوا على ما قدمته الإمبراطورية البيزنطية من مواد تموينية منذ وصولهم إلى أراضيها , وما جرى من قله المؤن في بعض مراحل الطريق كانت حالات نادرة، ولم يتورع الصليبيون فيها عن السلب والنهب لما طالت أيديهم من محاصيل

وحيوانات. وكان التزام بيزنطة بتوفير الطعام في هذه المرحلة التزاماً له شقان، الأول أخلاقى، فلم يكن الكسيوس ليقف في وجه هذه الجيوش التي رفعت الصليب شعاراً، وإذا فعل فإنه سيلقى من اللوم من جانب المسيحيين الشرقيين أنفسهم مثلما سيلومه اللاتين. والثاني سياسى، فقد رأى ألا يفتح على الإمبراطورية جبهة جديدة من الأعداء، ففضل لبلاده أن تعبر هذه الجيوش بسلام، طالما توافر لها الطريق الآمن والطعام الميسور، على ألا يعثوا بالأقاليم التي يبرون عليها بحثاً عن الطعام .

ولم تنته المرحلة البيزنطية عند وصول الصليبيين القسطنطينية، وإنما استمر الاعتماد الاساسى لتموين هذه الجيوش على ما تقدمه بيزنطة. وما جرى في القسطنطينية من اتفاق بين الإمبراطور وأمراء الحملة لعبت فيه مسألة التموين دوراً محورياً في الوصول إلى تفاهم مشترك. فلم يكن أمام الأمراء سوى قبول ما يمليه عليهم الإمبراطور، إذا استخدم التموين ورقة ضغط عليهم. وعلى الرغم من ان هذه الحملة كانت مشروعاً بابوياً، إلا أن الأمراء لم يقدموا طرحاً بابوياً معيناً خلال وجودهم في القسطنطينية، ولم يذكر أن ادھيمار مندوب البابا شارك في هذه المفاوضات (57).

وقد أقسم الأمراء يمين الولاء للإمبراطور، وأن اختلفت الصيغة التي أقسم عليها ريموند الصنجيلى، والتزموا برد الأراضي التي يستولون عليها من المسلمين وكانت خاضعة لبيزنطة من قبل. وكان الاتفاق واضحاً وصريحاً على ان يقدم الإمبراطور المساعدة للحملة في البر والبحر، وخاصة فيما يحتاجونه من مواد تموينية وأعلاف، ومساعدة الفقراء (58).

ودخلت مسألة التموين مرحلة جديدة بعد اتفاقية القسطنطينية، إذ أصبح لزاماً على الإمبراطور أن يوفر الطعام لهذه الجيوش. والحقيقة أنه أغدق الأمراء بمداياهم، وأعطاهم أموالاً أغنت الفقراء منهم، ووزع إحساناً على الفقراء. وطوال فترة إقامة الجيش في معسكره بالقرب من نيقية وكان الطعام يأتيهم من القسطنطينية بكميات كبيرة (59) .

وإذا كان الإمبراطور البيزنطى قد التزم بتوفير الطعام لجيش الحملة فيما تبقى لهم من رحلتهم، فإنه لا بد أن نضع في اعتبارنا ان الفرقة السابقة كان الصليبيون يعبرون الأراضي

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

البيزنطية، وأما فيما بعد القسطنطينية فيأهم سوف يسرون في أراضى أعداء لهم وللبيزنطيين، ونعنى بذلك أننا نقيم دور بيزنطة من خلال هذا المنظور، فلما كان متاحاً لهم أن يقدموه للصليبيين لم يعد كذلك في الأراضي الخاضعة لحكم المسلمين. وعلى هذا الأساس سوف نرى أن مصادر تموينهم لم تكن كلها من بيزنطة، فاعتمدت على السلب، كما وفرت لهم غنائم المعارك التي انتظروا فيها جزءاً من طعام رحلتهم، هذا فضلاً عما قدمه الأرمن من هدايا، كما سنبين ذلك في حينه .

وقد بدأ الصليبيون رحلتهم في آسيا الصغرى بحصار نيقية في 6 مايو 1097م، واستمر حتى سقطت في 19 يونيو وطوال مدة الحصار والمواد التموينية الضرورية تأتي إلى الصليبيين من القسطنطينية . ولما استسلمت الحامية السلجوقية للقوات البيزنطية، اعتبر الصليبيون ذلك خسارة كبيرة ضيقت عليهم كنوز ومخازن هذه المدينة. إلا أن الإمبراطور لم يخل عليهم بالهدايا، إضافة إلى الطعام الذى أمدهم به طوال مدة إقامتهم في نيقية (60). وفي 26 يونيو بدأت القوات الصليبية في التحرك من نيقية، وصحبتهم فرقة بيزنطية على رأسها قائد يدعى تاتيكيوس. وعند هذه النقطة يتهم ريموند اجيل الإمبراطور البيزنطى بالجحود، أى تجاهله توفير المؤن للصليبيين(61). والراجح أن الإمبراطور لم يكن على سخائه المعهود، وأن ما وصل إلى الصليبيين من مواد تموينية لم يكن يكفيهم. وتأتى الحوادث بعد ذلك دليلاً على ما ذهب إليه ريموند اجيل .

فبعد ثلاثة أيام من خروج الصليبيين من نيقية عقد القادة اجتماعاً لمناقشة قضية التموين، وهذا يعنى أن قلة الطعام أصبحت مشكلة خطيرة، وأنه لا يوجد مصدر للتموين يستطيعون الاعتماد عليه، فأما أن الإمبراطور يرسل كميات لا تكفى هذه الأعداد الكبيرة، أو أنه لم يعد يرسل شيئاً. ولما كان من أمراً شاقاً توفير المؤن اللازمة لجيش الحملة مجتمعاً، فقد قرر القادة فى اجتماعهم تقسيم الجيش إلى مجموعتين، تسبق إحداها الأخرى بمسيرة يوم. وتقدمت المجموعة الأولى وعلى رأسهم بوهمند، ثم المجموعة الثانية ويقودهم ريموند الصنجلى . وفى أول يوليو اصطدمت المجموعة الأولى بجيش سلجوقى عند دوريليوم كاد أن

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

يهلكهم، لولا وصول المجموعة الثانية التي حسمت المعركة لصالح الصليبيين (62). وما جرى حصده من غنائم بعد انتصارهم في هذه المعركة عوضهم عن قلة الإمدادات البيزنطية. فقد عثروا على كميات كبيرة من الذهب والفضة، واستولوا على كثير من الخيول والحمير والبغال والأغنام والماشية، وأنواع شتى من الخيم والفساطيط وأقاموا ثلاثة أيام ينعمون بما حصلوا عليه من طعام وسط مراعى خضراء واسعة (63).

وقد وعى القادة الدرس، وعاد الجيش يتحرك في كتله واحدة وبلغوا قونيه في منتصف أغسطس 1097م أى فيما يقرب من أربعين يوماً. ومن الراجح أن إمدادات التموين البيزنطية توقفت تماماً بعد تحرك الصليبيين من دوريليوم. وكان عليهم أن يواجهوا الظمأ في صحارى آسيا الصغرى الحارة، وندرة الطعام والأعلاف التى سعى الأتراك لإتلافها أمامهم فى الأقاليم التى سيعبرونها، فأهلك العطش والجوع خلقاً كثيراً منهم.

وحيث لم يكن أمامهم مصدر لطعامهم ولأعلاف خيولهم سوى الاعتماد على ما نجا من نباتات بدون إتلاف، فكانوا يجمعونها، حتى الشوكية منها، ويسحقونها ويتغذون عليها. ولم يكن البشر وحدهم ضحايا هذه المرحلة، بل نفقت معظم الخيول، واضطروا إلى استخدام ما تبقى لديهم من الثيران والماعز والأغنام والكلاب لحمل الأمتعة. ثم وصلوا إقليم بالقرب من قونيه، لم تطله أيدي الأتراك، فوجدوا فيه من المحاصيل والنباتات ما أطعمهم من جوع، وعوضهم عن جذب الأيام الماضية، وساعدهم على مواصلة الرحلة (64).

و كان سكان قونية قد هجروها خوفاً من الصليبيين، فأقاموا فيها بعض الوقت ثم ذهبوا إلى هرقله (65) هاش، وعندها انتصروا على جيش تركى. وفى 10 سبتمبر انفصل تانكرد ابن أخت بوهند وبلدوين البولونى عن الجيش واتجها إلى قيليقيه، وأما الجيش الرئيسى فقد تحرك نحو قيصرية (66) هاش، وانتصر فى طريقه على جيش تركى آخر، ثم وصلها فى نهاية سبتمبر، وتابعوا مسيرهم ولم يحدث فى هذه المسافة أزمة فى الطعام، لأنهم نجحوا فى مطاردة الأتراك من أمامهم، فاحتفظت البلاد بمحاصيلها، وإضافة إلى ذلك، فقد وفرت غنائم المعركتين السابقتين بعض ما يقتاتون به حيناً من الزمن. والأهم من كل ذلك أن غالبية

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

سكان هذه المنطقة كانوا من الأرمن، الذين رحبوا بالصليبيين، وقدموا لهم المساعدات اللازمة، وأقاموا أياماً بينهم ينعمون بالطعام والشراب، وجهزوا أنفسهم بما يلزم رحلتهم(67).

وواصلوا سيرهم فوصلوا مرعش (68) في 13 أكتوبر وانضم إليهم بلدوين قادماً من قيليقية، ثم غادروهم متجهاً نحو الرها (69)، وأما تانكرد فقد لحق بهم أمام أنطاكية، ووصلوا على مشارف أنطاكية في 21 أكتوبر وخلال هذه الفترة كان مصدر تموينهم الأساسي هم الأرمن، الذين استقبلوهم في مرعش، وقدموا لهم الطعام الوفير، وأحسنوا ضيافتهم خلال فترة إقامتهم (70).

واستمر الأرمن في تقديم المساعدات الضرورية للصليبيين خلال زحفهم حتى بلغوا أنطاكية. كما أفادوهم أثناء إغاراتهم التي شنوها على المناطق القريبة من أنطاكية، فوفروا الطعام لروبرت كونت فلاندرز أثناء حصاره مدينة ارتاح (71).

ومع وصول الصليبيين أنطاكية تنتهي المرحلة الثانية في رحلة الحملة حسب مصادر التموين، والتي تعمدوا فيها بصورة أساسية على مساعدات بيزنطة ثم ندرت هذه المساعدات بعد نيقية، ثم انعدمت بعد ذلك، ومع ذلك فقد ظل المندوب البيزنطي موجوداً في المعسكر الصليبي وعلى الرغم من أن دور بيزنطة يكاد يكون قد انتهى، فإن رسولا من عند الإمبراطور وصل إلى المعسكر الصليبي في أوائل عام 1099م يشكو إمتلاكهم أنطاكية، وأنهم بذلك خالفوا إتفاقية القسطنطينية. وردوا على الكسيوس بأنه نقض المعاهدة بعدم التزامه بتوفير الطعام، ولم يرسل السفن التي وعدهم أنها ستحمل المؤن وتتبعهم طوال رحلتهم (72).

وتبدأ المرحلة الثالثة وهي الأنطاكية من وصول الصليبيين أسوار المدينة في 21 أكتوبر 1097م وحتى الاستيلاء عليها في 3 يونيو 1098م، وتستمر طوال بقاء الصليبيين في أنطاكية وما حولها، حتى خروجهم إلى بيت المقدس (73).

وكانت الدلائل تبشر بيسر الحصول على الطعام في بداية حصارهم لأنطاكية، فقد وجدوا وفرة من الأعناب ومخازن مليئة بالقمح وأشجار فاكهة مثمرة، إضافة إلى أطعمه

متنوعة صالحة للتناول. حتى قال ريموند اجيل أنهم لم يأكلوا إلا أحسن قطع اللحم، كالفخذ والأكتاف، ويأنفون لحم الصدر، وأما القمح والنبيد فلا يفكرون فيه. وفي هذه الفترة كانت تخرج فرق صغيرة من الصليبيين مهمتها البحث عن طعام الرجال وأعلاف الدواب، ويعودون وقد فاضت أيديهم بشتى صنوف الأطعمة (74).

وبدأ الدعم الجنوى للصليبيين مع وصول أسطولهم إلى ميناء السويدية في منتصف نوفمبر 1097م، وكانوا يحملون المواد التموينية، فضلا عن الأسلحة وآلات الحصار (75). ومنذ هذا التاريخ والصليبيون يعتمدون في جانب من طعامهم على ما تأتي به السفن الجنوية. ولعل هذا الدور الحيوى الذى لعبه الجنوية في تموين الحملة، جعل أحد المؤرخين يعتبر هذه المساعدة هى السبب الرئيسى وراء نجاح الحملة الصليبية الأولى (76).

و كانت الفرق الصليبية لازالت تخرج لجلب الطعام، فى الوقت الذى أنتبه فيه المسلمون لهذا الأمر، وبدأوا ينصبون الكمائن لإعاقة حركة الصليبيين فى جمع الطعام. وفى إحدى المرات نجحت جماعة صليبية فى الانتصار على فرقة من المسلمين، وعادوا إلى المعسكر يسوقون الخيول والجمال والحمير، إضافة إلى الحبوب التى حملوها على ظهور هذه الدواب (77).

ومع استمرار الحصار، فقد نفذت كميات الطعام التى حصدها الصليبيون، ولم يعد الخروج للبحث عن الطعام فى صورة فرق صغيرة يفى بالغرض، لأن المقاومة الإسلامية خارج أنطاكية نشطت إلى حد كبير لضرب فرق جمع الطعام. إضافة إلى أن الإقليم لم يعد فى استطاعته أن يقدم مزيداً من الطعام بعد ما جرده الصليبيون منه تماماً. وكان على الباحثين عن الطعام أن يذهبوا بعيدا للعثور على ما لم تصل إليه أيديهم من قبل. وفى سبيل ذلك تعرضوا لمزيد من الأخطار ليس فقط من حامية أنطاكية، بل أيضا من أصحاب البلدان المجاورة، والتى أمتدت أيديهم إليها، فأصبحوا يتربصون بالصليبيين فى كل مكان.

وكان الصليبيون يكابدون الم الجوع مع مشقة القتال، لذا فقد عقد القادة اجتماعا فى 23 ديسمبر 1097م لبحث مشكلة توفير الطعام. وتقرر تقسيم المؤن الموجودة

بالمعسكر، ومن المحتمل أنهم اسندوا هذا الأمر إلى إدارة معينة. كما كلفوا بوهمند وكونت فلاندرز بالخروج على رأس جيشين لجمع الطعام، فخرجوا في 28 ديسمبر، وصادفوا جيشاً إسلامياً يقوده دقاق حاكم دمشق، وجرت بينهم معركة بالقرب من البارة في 31 ديسمبر، وعلى الرغم من انتصار الصليبيين إلا أنهم لم يظفروا إلا باليسير من الغنائم (78).

وأصبح من المؤكد أن ما احتفظ به الصليبيون من طعام قد نفذ، أو تعرض للتلف والفساد. ولذا فقد خرج بوهمند ثانية على رأس مجموعة لتدبير الطعام، ووزع رجاله في عدة اتجاهات، ولكن أحدا منهم لم يقيم بعمل يرضى زعيمهم. وكانت عودتهم خائبين بمثابة إعلان لاشتعال الأسعار داخل المعسكر، ولم يعد في وسع المعدمين والفقراء توفير قوت يومهم، وتساقط الجوعى جثثاً هامدة، ونفقت الخيول بأعداد كبيرة جداً. واضطروا إلى أكل الأعشاب والأشواك، ثم امتدت أيديهم إلى الخيول والبغال والحمير والكلاب والفئران (79).

و خلال هذه الأزمة التي أملت بالمعسكر الصليبي، برز دور ادهيمار المندوب البابوي، فقد دعا الصليبيين إلى التطهر من الذنوب بالصيام، وحث الأغنياء على مساعدة الفقراء، وقد استجاب كثيرون لنداء التكافل الاجتماعي. واقترح ادهيمار ومعه ريموند الصنجيلي تكوين صندوق لمساعدة الفقراء. وقد أفادت هذا الإجراءات الصليبيين فوائد كبيرة أهمها، رفع الروح المعنوية التي بثها فيهم ادهيمار، فأصبحوا أكثر استعداداً لمعاودة الخروج لجمع الطعام، مهما كلفتهم المغامرة من تضحيات (80).

وإذا أمعنا النظر للبحث عن أسباب المجاعة الطاحنة التي أملت بالجيش الصليبي أمام أنطاكية، نجد أن السبب الرئيسي هو طول مدة الحصار. وهذا يعني بقاؤهم في منطقة واحدة محل هذه المدة، وبأعدادهم الكبيرة هذه، واعتمادهم على السلب من الأقاليم التي تحيط بهم. ولما نجح المسلمون في إعاقة الفرق الصليبية الباحثة عن الطعام، فقد جرى على المعسكر ما جرى من مجاعة، أودت بحياة الكثير منهم، وخرج الجوعى والضعفاء يلتمسون النجاة أينما وجدت، فأتعدى بعضهم على قبور المسلمين ونبشوها، وفر منهم من لم يجد سوى الفرار بديلاً، ومن أشهر من لاذوا بالفرار بطرس الناسك وستيفن كونت بلوا (81).

ولم يقف القادة مكتوفى الأيدى حيال خطر المجاعة، بل وضعوا حلولاً للخروج من هذه الأزمة. وبدأوا بإرسال الرسل إلى الأرمن في جبال طروس، وجاءتهم المعونة من رهبان الأرمن، وجمع عوام الأرمن والسريان واليونانيين حبوباً وسلع غذائية أخرى، وذهبوا لاتباعها في المعسكر الصليبي، وكانوا يجنون أرباحاً طائلة من الاتجار مع الصليبيين، حتى شكوا الصليبيون من مغاللتهم في الأسعار. ومن المرجح أنهم ابتاعوا موادهم التموينية مع المحاصرين داخل أنطاكية، طالما كان يحصلون على العائد المادى والمجزى. ففى 5 أبريل 1098م استولى تانكرد على قافلة تجارية للأرمن والسريان محمله بالقمح والنبيد والشعير والزيت وغيرها من المواد الغذائية، كانت متجهة إلى داخل أنطاكية (82).

وفى هذا الوقت راسل الصليبيون الغرب، ولم يكن فى وسع الأوروبيين أن يقدموا المساعدة بالسرعة المطلوبة. وأما عن مساعدة الإمبراطور البيزنطى، فان الأمل فى قدومه تلاشى أو كاد، بعد رحيل مندوبه من المعسكر الصليبي فى أوائل فبراير 1098م قائلاً إنه سوف يحث الإمبراطور على حمل الطعام على وجه السرعة. وفى 8 فبراير انتصر الصليبيون على جيش إسلامي على رأسه رضوان صاحب حلب، فتوافر لديهم بعض الغنائم(83).

و أثمرت مراسلاتهم عن وصول إمدادات بحرية إلى ميناء السويدية فى أوائل مارس جاءت تحمل المعونة من القرب وبيزنطة وقبرص وخرج بوهمند وريموند الصنجيلى لحمل المؤن إلى المعسكر، فاعتزتهم فرقة إسلامية، ودارت معركة فى 6 مارس، وانتصر المسلمون وفازوا بالغنائم، وفى هذه الأثناء خرجت قوات إسلامية من أنطاكية لضرب المعسكر الصليبي، فشئتوا شملهم، ولكن لم تنته المعركة حتى وصل بوهمند ومن معه ورجحوا كفة رجالهم، وعادوا فاستردوا مؤنهم من القوات الإسلامية الأخرى، الذين لم يحالفهم النجاح فى العودة سالمين داخل أنطاكية هذا فضلاً عن ان بعض المساعدات كانت تأتيمهم من بلدوين حاكم الرها(84).

إضافة إلى ذلك فقد شيد الصليبيون قلعتين بالقرب من أنطاكية، لتأمين حركة الباحثين عن الطعام، وتم بناء القلعة الأولى فى 20 مارس، وسميت قلوة المنبر La

Mahomerie، وعرفت أيضا بقلعة ريموند، لأن الصنجيلي هو الذى تولى حراستها. وتم بناء القلعة الثانية فى أبريل وتولى تانكرد حراستها (85) وإذا كانت القلعتان قد لعبتا دوراً مهماً فى إحكام الحصار على أنطاكية، فأنتهما أعطتا الفرصة للفرق الصليبية حتى تتحرك فى أمان لجمع الطعام، فلم يعودوا كسابق عهدهم خائفين من كمائن المسلمين. وما وضحه الصليبيون من حلول لمواجهة نقص الطعام، ثم إنقضاء الشتاء وحلول الربيع، خفف من حدة المجاعة .

ولما نجح الصليبيون فى الاستيلاء على أنطاكية يوم 3 يونيو 1098م تصوروا أن معاناتهم مع الطعام قد انتهت، فقد استولوا على ما فى المدينة من مؤن، وتخلصوا من المسلمين فيها، بما فيهم حاكم المدينة ياغى سيان (86) ولم ينج من القتل إلا من احتموا فى قلعتها. ثم فى يوم 5 يونيو وصل كربوغا على رأس جيشه (87)، وحاصر المدينة فى يوم 7 يونيو. وبدأت معاناة جديدة داخل أنطاكية، فقد نفذت كميات الطعام، ولم يعد منها إلا اليسير فى حوزة الأثرياء الذين اقتصدوا فى استخدامه. وتسلسل اناس منهم للنجاة بأنفسهم من المجاعة أو القتل، وخرج آخرون فى مهام انتحارية للحصول على الطعام من مناطق شتى. وقد ذكر ريموند أجيل أن أحد العوام ذهب إلى قرب الرها بحثاً عن الطعام، وربما فى أثناء هذه المهمة أو فى مهمة أخرى، خرج إلى المصيصة (88) لنفس الغرض، وأبحر منها إلى قبرص، ثم عاد إلى أنطاكية. وقدرت المسافة التى قطعها من أجل البحث عن الطعام بحوالى 340 ميلاً. ولكن هذه المحاولات كانت محدودة، ولم تكن حاجة الجيش من الطعام (89).

ومع استمرار أزمة الطعام داخل أنطاكية، ارتفعت أسعار السلع الغذائية، واضطر الصليبيون إلى ذبح الخيول والحمير وأكلوها. ثم لجأوا إلى أكل أوراق الأشجار، وعالج بعضهم جلود الحيوانات الجافة منذ خمس وست سنوات وقاموا بطهيها وأكلها، بل أنهم أكلوا الميتة (90) .

وجاء انتصار الصليبيين على كربوغا فى 28 يونيو 1098م ليمنحهم فرصة للراحة والأمان. فقد توافر لديهم من غنائم المعركة ما عوضهم عن شهور الجوع الطويلة، إذ فر

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

كربوغا وجيشه مخلفا معسكره بما يحوى من خيام وأمتعة شرقية وحرير وملابس وأواني فخمة، بالإضافة إلى ذهب وفضة وجواهر كثيرة. ووجد الصليبيون كميات وفيرة من الأطعمة والحبوب والنبيد والطحين، واستولوا على أعداد ضخمة من الخيول والبغال والحمير والماشية والماعز والأغنام. وعادوا أغنياء بعد فقرهم، وشبعوا من بعد شهور الجوع (91).

وعقد القادة اجتماعاً في 3 يوليو لتقرير مصير الحملة. وقد لعبت قضية تموين الحملة دور الحسم في تحديد موعد الرحيل إلى بيت المقدس. إذ رأى اغلب القادة أن التحرك في هذا الوقت من الصيف غير مناسب، فلا زال الجيش متعباً، ولم يأخذ أفراد قسماً مناسباً من الراحة والغذاء، ولا زالت الخيول هزيلة من قلة الأعلاف والمجاعة التي أضرت بالجميع، وإذا رحلوا في الصيف فسمته الجفاف، وندرة الطعام. وإلى جانب ذلك فإن المناورات السياسية بين القادة حول ملكية أنطاكية، وموقف بيزنطة منها، كانت أيضاً وراء قرار تأجيل الرحيل إلى بيت المقدس، والذي تحدد في أول نوفمبر. وتفرق القادة كل إلى ما حازه من ممتلكات لإدارتها حتى يحين موعد الرحيل (92).

وقد انشغل القادة خلال هذه الفترة بالسعى وراء تحقيق مكاسب على حساب الأراضي الإسلامية المجاورة فخرجت فرق متعددة من الصليبيين واستولوا على بعض القرى، والحصون القريبة من أنطاكية، وكان أشهرها البارة. كما شارك بعض الأمراء في الصراع المحلي بين الأمراء المسلمين. وقد توافرت لديهم غنائم كثيرة من البلاد التي دخلوها، وحصدوا مؤناً وفيرة من أراضي المسلمين المجاورة، خلال عمليات السلب والنهب التي قاموا بها (93).

وبحلول نوفمبر ساور القلق عامه الصليبيين لعدم جدية القادة في الرحيل إلى بيت المقدس. وعقد اجتماع في 5 نوفمبر 1098 م وفي ضوء قراراته أصبح من المؤكد امتلاك بوهند لأنطاكية على أن يصاحب الحملة إلى بيت المقدس، وأما موعد الرحيل فتقرر تأجيله. وهذه التطورات دفعت ريموند الصنجيلي للبحث مجدداً عن الزعامة والمجد، فرأى أن يستغل حماس العامة، وقادهم إلى معرة النعمان (94). وحاصرها في 28 نوفمبر، ثم تتابع وصول رفاقه لمشاركته الحصار ومع استمرار الحصار نفذت مؤن الجيش، ولم يكن ثمة مصدر للطعام

سوى سلب الأراضي المجاورة للمعسكر، فتناثر الصليبيون فيما يزيد على عشرة آلاف رجل، يبحثون عما يقتاتون به من حبوب أو غيرها، ومنهم من حفروا الأرض واستخرجوا منها جذور النباتات فأكلوها. ولم يبالوا بخطورة الدوريات الإسلامية التي كانت تطوف المنطقة، ومع وطأة الجوع اضطر بعضهم إلى مغادرة المعسكر (95).

وعلى الرغم من نقص الطعام داخل المعسكر الصليبي، فقد نجحوا في 11 ديسمبر 1098م من اقتحام أسوار المعرة، وارتكبوا مذبحاً في سكاكها، وانتشروا في المدينة يحصدون غنيمة انتصارهم، فنهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم من أموال وأطعمة، وعذبوا من وقع في أيديهم من السكان للاعتراف بأية ثروات مخبأة. بل أن فريقاً منهم اندفعوا نحو بقر بطون الضحايا لاستخراج ما ابتلعوه من نقود (96).

ومن الراجح أن ثروة المعرة ومخازن أطعمتها لم تكف الصليبيين، فما لبثت المجاعة أن ضربتهم مجدداً، حتى أكلوا جثث الموتى. وخرج ريموند الصنجيلي بحملة لجمع الطعام، وأثمرت حملته عن أسلاب وفيرة من الماشية ودواب أخرى وكميات ضخمة من الطعام، إضافة إلى أسرى من الرجال والنساء (97).

وفي 13 يناير 1099م تحرك ريموند الصنجيلي من معرة النعمان قاصداً بيت المقدس، وتتابع القادة الآخرون في الخروج من أنطاكية، حتى لحقوا بريموند عند عرقة (98) ومع هذا التحرك تكون قد انتهت المرحلة الأنطاكية العصبية، وقد اعتمد الصليبيون فيها على عدة مصادر للتموين، كان أهمها السلب من الأراضي والحقول المحيطة بهم، ثم المساعدات التي تلقوها سواء من بعض المسيحيين، أو من بلدوين البولوني، كما قدم الجنوية جانباً من المساعدة الغذائية، هذا إضافة إلى الغنائم التي حصدها بعد انتصارهم في المعارك التي دارت حول أنطاكية.

وهنا أيضاً تبدأ المرحلة الأخيرة، والتي تحمل من التناقض ما يثير العجب فقد سار الصليبيون في أراضي إسلامية، ومن الطبيعي أن يتصدى المسلمون لهم، ولكن ما جرى فعلاً أن حكام أغلب المدن مروا عليها تجنبوا قتالهم واتخذوا جانب المسالمة. ثم أنه كان من المتوقع

أن تحترق الأرض من محاصيلها، وتتجرد الأشجار من أغصانها، فيعجزون عن تحصيل الطعام، وهذا أيضا لم يحدث، بل تطوع بعض حكام المسلمين بتقديم المؤن لإلهاء الصليبيين عن التعرض لممتلكاتهم .

فقد راسل ابن منقذ صاحب شيزر (99) ريموند الصنجيلي عندما اقترب من بلاده، وعرض عليه أموالاً، ووعد به ألا يتعرض للصليبيين بأذى، وعرض عليه أن يمدهم بما يحتاجونه من مؤن وخيل. ويبدو أن الكونت قبل ما عرضه صاحب شيزر، ولكنه أثناء مروره اقترب من شيزر، فتخوف ابن منقذ من عذره، وأرسل إليه يهدده بقطع إمداده بالمؤن إذا لم يبتعد عن المدينة. وبعث إليه رجلين يرشدانه إلى وادي نهر العاصى وثرواته الطبيعية. وهناك وجد الصليبيون فرصتهم في السلب، فاستولوا على أكثر من خمسة آلاف رأس من الغنم، إضافة إلى حبوب وسلع غذائية أخرى. وحقق بعضهم ثروات استخدمها في شراء خيول من شيزر وحمص (100). وصادف الصليبيون قلعة تحمى هذه المنطقة، فوادعهم صاحبها، وقدم لهم الجياد والمؤن، ثم وصلوا إلى قلعة مصايف، وعقد صاحبها اتفاقاً مماثلاً لاتفاق صاحب القلعة السابقة (101) .

ووصل الصليبيون ريفية (102)، فوجدوا سكانها قد هجروها، وكانت بساتينها عامرة بالمحاصيل، وبيوتها مكتظة بالأقوات، وأقاموا بها ثلاثة أيام، ثم رحلوا عنها في 25 يناير 1099م وكان طريقهم حتى حصن الأكراد (103) عامراً بالمؤن من الحبوب والماشية. وقد أغراهم ثراء هذا الإقليم للاستيلاء على هذا الحصن، وحاصروه في 28 يناير، وفي مفاجأة غير متوقعة للصليبيين، فتح أصحاب الحصن أبوابه فاندفعت قطعان من الماشية والخيول والأغنام، فترك الصليبيون ساحة القتال، وانصرفوا يسوقون هذه الغنائم. وفي اليوم التالى وجدوا الحصن خالياً من سكانه، والراجح أن هؤلاء السكان لجأوا إلى هذه الحيلة للنجاة بأنفسهم، فوجد الصليبيون وفرة من الحبوب والنبيد والدقيق والزيت والدجاج وغيرها من المواد الغذائية، واستمرت إقامتهم بهذا الحصن ثلاثة أسابيع (104) .

وفي هذه الفترة استقبل ريموند رسل ابن ملاعب صاحب حمص، وقبل هداياهم من

الذهب والخيول، وطلبوا موادة الصليبيين على أن يغمروهم بالكرم. وكما أرسل فخر الملك أبو الحسن على بن عمار صاحب طرابلس مبعوثيه، ومعهم هدايا من الجياد والبغال والأموال، وطلبوا عقد اتفاق سلام مع الصليبيين. وأبدى فيه ابن عمار استعدادة لتقديم المساعدات اللازمة لهم عند مرورهم على بلاده. وذهب وفد من الصليبيين إلى طرابلس لإتمام الاتفاق، والمؤكد أن ثراء طرابلس أسال لعاب الرسل، فاقنعوا ريموند بالضغط على صاحب طرابلس للحصول على أكبر فائدة من بلاده. وكانت الخطة هى حصار عرقة التابعة لصاحب طرابلس (105).

وبدا حصار عرقة في 14 فبراير وكان ريموند يعلم انه سوف يعتمد على السلب لتوفير الطعام لجنده، فأرسل فرقة استكشافية للمنطقة، وصادفوا بعض المسلمين، وقتلوا منهم ستة أنفس، واستولوا على ستة جياد. وخرجت فرقة أخرى قاصدة طرطوس (106)، وفر سكانها تاركين المدينة بما فيها من مؤن وأمتعة، إضافة إلى قيمتها كميناء بحرى. وتابعت الفرقة الصليبية زحفها إلى الشمال، ولما وصلوا مرقية (107)، أعترف لهم أميرها بسيادتهم على مدينته. وفي نهاية فبراير كان قد تحرك باقى الجيش الصليبي من أنطاكية وعلى رأسهم جود فرى وكونت فلاندرز وأما بوهمند فقد تخلف عنهم وعاد من اللاذقية إلى أنطاكية. ووصلوا جبلة (108) أول مارس آخر فحاصروها، ووصلتهم رسالة من ريموند تستعجلهم المسير لمشاركته حصار عرقة، فى الوقت الذى تلقوا فيه عرضا مغريا من صاحب جبلة، الذى عرض عليهم الأموال والجياد مقابل انسحابهم، فرفعوا الحصار عنها ورحلوا فى 12 مارس، ووصلوا عرقة ليشاركوا ريموند فى حصارها (109).

وأثناء حصار عرقة لم تتوقف حملات البحث عن الطعام فى الأودية والحقول المجاورة للمعسكر. وفى إحدى الحملات استولت فرقة صليبية على قطعان كثيرة من الماشية والحمير والأغنام وانعام أخرى كثيرة. وقد شجعهم نجاحهم هذا على متابعة البحث، فعثروا على ثلاثة آلاف بعير، وعادوا بأسلابهم إلى المعسكر (110).

وقد نجح الصليبيون إلى حد كبير فى التخطيط لخط سير حملتهم، وذلك عندما قرروا

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

من قبل أن يكونوا بالقرب من ساحل البحر المتوسط، ليكونوا على اتصال بالسفن الأوربية والبيزنطية التي تمدهم بالمؤن، ثم نجحوا في ضم طرطوس ومرقبه، كما ذكرنا انفا، إضافة إلى اللاذقية والسويدية. وظهرت أهمية ذلك أثناء حصار عرقة وما بعده، فقد أتيحت الفرصة للسفن البيزنطية والجنوية والبندقية والانجليزية للرسو على هذه الموانئ، وتقديم المؤن للصليبيين من حبوب ونبيد ولحوم وزيت وشعير وجبن، كما فتحت أمامهم أبواب الالتقاء مع الغرب(111).

وطوال مدة حصار عرقة كانت عمليات السلب مستمرة، حتى أن بعض الفرق الصليبية وصلت إلى طرابلس، وجلبت الطعام. ونتيجة لهذه التهديدات المستمرة، فان قادة المدن الواقعة تحت طائلة التهديد راسلوا الصليبيين لشراء مسالمتهم. فأرسل صاحب جبله الأموال والخيول والبغال، مع كميات كبيرة من النبيذ لاستمرار المودعة معه. وأرسل صاحب طرابلس هداياه وعرض على الصليبيين عرضاً سخياً مقابل الرحيل عن عرقة، فعرض تقديم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية، وخيول وبغال وملابس ومؤن، علاوة على سوق عامة مفتوحة، ورد الأسرى الصليبيين المحتجزين عنده (112).

و عقد القادة اجتماعاً للنظر في الأمر، وهنا نجد أن قضية تموين الحملة لعبت دور الحسم في قرار القادة، فإن الربيع هو موسم جنى المحاصيل، ولا يجب ان يتركوا هذه الفرصة، فالرحيل في هذا الوقت سوف يوفر لهم الطعام أثناء رحلتهم. وعلى هذا الأساس أتخذ الأمراء قرارهم بالرحيل عن عرقة، واضعين في الاعتبار عرض صاحب طرابلس السخى، وعدم جدوى الانتظار أكثر من اللازم أمام مدينة صغيرة كعرقة (113).

واتجهت الحملة نحو الطريق الساحلى، فبلغوا طرابلس في 13 مايو 1099م آخر وتم تنفيذ ما اتفقوا عليه مع صاحبها، فأطلق سراح ثلاثمائة أسير، وأعطاهم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية، وخمسة عشر حصاناً، وكميات كبيرة من المؤن، وعدداً من الحمير. وغادروا طرابلس في 16 مايو، وتركوا جبيل التابعة لطرابلس ثم قدم لهم ابن عمار قطعانا من الماشية والأغنام، وكميات كبيرة من الطعام، حتى لا يحملهم الجوع على نصب مزارع فلاحيه (114).

وتجدر الإشارة هنا إلى ما تبقى للصليبيين في رحلتهم حتى بيت المقدس لم يكن ثمة مشكلة فيما يخص الطعام. فقد لعبت الأساطيل الغربية دوراً مهماً في تقديم المساعدة كلما تيسر لهم تقديمها. وأما المدن الإسلامية التي مروا عليها فقد نهج أصحابها نهج صاحب طرابلس، فاشترتوا مسالمة الصليبيين بما قدموه من أطعمة وأموال وهدايا أخرى. فحصل الصليبيون على كميات كبيرة من الطعام من بيروت وقدم لهم أهل عكا هدايا قيمة، وعقدوا لهم سوقاً، وزادوا في إكرامهم. ثم أنهم اعتمدوا على السلب والنهب عندما كانت تمتنع إحدى المدن عن تقديم الطعام إليهم، فنهبوا مزارع صيدا، واستولوا على أغنام وماشية كثيرة، كما نهبوا بساتين صور (115).

ولما وصلوا الرملة (116) في 3 يونيو وجدوها خالية من السكان، وبها وفرة من الغلال، وحقولها عامرة فحصدوا الحقول، وحملوا الغلال معهم إلى بيت المقدس. واستولوا في طريقهم على قطعان من الماشية والأغنام (117)

و أخيراً وصل الصليبيون إلى بيت المقدس يوم الثلاثاء 7 يونيو 1099م وحاصروها. وكان من المتوقع أن يعانون من الجوع والعطش لو طال الحصار فقد نفذ ما حملوه معهم من طعام، ولم يبق إلا القليل من الشعير، وطوال عشرة الأيام الأولى من الحصار وهم يعتمدون على السلب من المناطق المجاورة. ولكن كمائن المسلمين كانت نشيطة في التربص بالشاردين من المعسكر الصليبي، ونجحوا في إخفاء انعامهم بعيداً عن أيدي الصليبيين، علاوة على نجاحهم في إفساد مصادر المياه القريبة من المدينة، حتى أن الصليبيين كانوا يسيرون ما يقرب من ستة أميال للحصول على المياه، ويحملونها في أوعية مصنوعة. من جلود الحيوانات. ومع شدة حرارة الصيف، والرياح المتربة زادت حاجتهم إلى المياه فارتفعت أثمانها، ولم يبالوا بنظافتها (118)

وهكذا كانت حالتهم، قلة في الخبز، وندرة في المياه. ثم في يوم 17 يونيو وصل أسطول جنوى مكون من ست سفن، وأرسلوا إلى الصليبيين يطلبون منهم قوة لحمايتهم، وحمل ما معهم من مؤن وأسلحة. وخرجت فرقة صليبية نحو يافا، واعترضتهم فرقة إسلامية،

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

فانتصروا عليها، ثم انتصروا على فرقة إسلامية أخرى، ولكنهم خسروا خمس سفن من الأسطول بعد أن تمكنوا من إفراغ المؤن والأسلحة منها، وعادوا بها إلى المعسكر أمام بيت المقدس. وقد جاءتهم هذه المؤن في وقت بالغ الأهمية، لذا فقد لقي البحارة حفاوة كبيرة. وما جاءهم عن طريق البحر من مؤن وأسلحة، شجعهم على مواصلة الحصار بقوة حتى سقطت المدينة في 15 يوليو 1099م (119).

ومن هنا نجد أن المصدر الاساسى لطعام الصليبيين في هذه المرحلة هو هدايا الحكام المسلمين الذين اختاروا مسالمة الحملة. والمصدر الثانى تمثل في سلب ونهب الأراضي التى عبروها ولم يوادعهم حكامها. وأخيراً فقد أمدتهم السفن الجنوبية والبندقية والإنجليزية والبيزنطية بالمؤن الضرورية .

و تخلص من هذه الدراسة بعدة نتائج، أن تموين الحملة شغل بال الصليبيين وأعدوا له عدة، ومع أن البابا أوربان الثانى قدم مشروعاً بابوياً، إلا أنه ناقش مسألة توفير الطعام للحملة مع بعض الأمراء. وقد ثبتت صحة الغرض الذى طرح فى البداية، وهو أن الصليبيين اعتمدوا على بيزنطة اعتماداً كبيراً فى تقديم المؤن وإذا كان من المتوقع أن يتوقف دور بيزنطة عند نقطة معينة، ربما تكون عند مشارف بلاد الشام، فإن الجنوبية كقوة بحرية طرحت كبديل عن الدور البيزنطى فيما تبقى من مسافة إلى بيت المقدس .

و كانت قضية توفير المؤن وراء القرار الذى اتخذه الأمراء بالتحرك فى طرق مختلفة. لأنهم أدركوا صعوبة توفير الطعام إذا هم تحركوا فى جماعة واحدة، أو إذا سار بعضهم فى أثر بعض على طريق واحد. فساقتها لن تستطيع البلدان التى سيمرون عليها أن تلبى حاجة هذه الجيوش من الطعام .

واعتمد الصليبيون على الشراء من الأسواق المفتوحة فى بلاد المجر وأقاليم الدولة البيزنطية فى البلقان. وحسب اتفاقية القسطنطينية التى جرت بين الإمبراطور البيزنطى والأمراء، كان على بيزنطة ان توفر الطعام للصليبيين، سواء فى البر أو البحر، واستمر الإمبراطور على دعمه للصليبيين حتى بعد نيقية بمسيرة ثلاثة أيام .

وكان طعام الصليبيين فيما تبقى من الرحلة رهن ظروف الطريق، فاعتمدوا على السلب والنهب كمصدر اساسى حتى وصلوا. أنطاكية وفيما بعدها. والواقع انهم لم يكفوا عن السلب منذ خروجهم من غرب أوروبا، ولكن ما جرى من سلب في الأراضي المجرية والبيزنطية كان أغلبه من فعل العوام، وفي أوقات انفلات النظام تحت ضغط الجوع أو كراهية البيزنطيين. وأما عمليات السلب بعد ذلك، وخاصة أثناء حصار أنطاكية وفيما بعدها، فكانت منظمة، تخرج فيها فرق مسلحة، وفي مناطق متعددة، وأحيانا تخرج جيوش كبيرة لسلب الطعام من المناطق المحيطة بالمعسكر الصليبي، بل وتذهب إلى أبعد من ذلك. وعليه فإن السلب كان مصدراً للطعام في كل مراحل الحملة، وقد خلف هذا السلوك عداة الشعوب التي مروا عليها .

وكانت الهدايا أيضاً مصدراً من مصادر طعام الحملة، قدمها لهم بعض المسيحيين الشرقيين قبيل وصولهم أنطاكية، وأثناء حصارها، وخاصة من الأرمن والسريان والإغريق، علاوة على هدايا بعض حكام المسلمين الذين فزعوا من جرائم الصليبيين .

وأما المساعدة البحرية، فقد أصبحت مصدراً لتموين الحملة بعد وصول الجنوية ميناء السويدية أثناء حصار أنطاكية وشاركت أساطيل أخرى بندقية وبيزنطية وإنجليزية في تقديم المؤن، وقد ساعدتهم على أداء مهامهم بنجاح الصليبيين في الاستيلاء على بعض المراكز البحرية مثل اللاذقية وطرطوس، علاوة على اتخاذهم الطريق الموازي لساحل البحر المتوسط بداية من طرابلس وحتى الرملة في فلسطين .

وأخيراً، فإن قضية التموين كانت وراء اتخاذ قرارات مصيرية بالنسبة للحملة، كقرار تقسيم الجيش إلى فريقين قبل معركة دوريليوم، وقرار الخروج من أنطاكية لقتال كربوغا، وقرار تأجيل مغادرة أنطاكية حتى انتهاء الصيف وحلول موسم الحصاد، وغيرها.

الهوامش

1- Chalandon, Histoire de la Premiere Croisade, Paris, 1907,I ,pp.19-21 .

2- Duncalf, F., The Pope's Plan For The First Crusade, in The Crusades and Other Historical essays, ed.L.J PaeTow, New York,1928, p.44.

3- Baldric of Dol, Historia Jerosolimitana, in Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux (R.H. C.occ.),Paris 1844-1895,t. IV pp.12-15.

-Robert The Monk, Historia Iherosolym-itana, in R.H.C.Occ.,t. III, pp.727-730

-Guibert of Nogent, Gesta Dei per Francos, in R.H.C.O cc,t. IV, pp137-140 .

- فولشر الشارترى، تاريخ الحملة الى بيت المقدس، ترجمة قاسم عبده قاسم، الكويت 1993 م، ص 89-94.

-المؤرخ المجهول، اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشى، القاهرة، 1958 م، ص 17-18.

- تود يبود، تاريخ الرحلة الى بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطيه، الاسكندرية، 1998 م، ص 61 .

- وليم الصورى، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشى، القاهرة، 1991 م، ح 1، ص 105-99 .

4- إسحق عبيد، روما وبيزنطه، القاهرة، 1970 م، ص 83 .

5- Dana C. Munro, Thspeach Of pope Urban II at Clermont, 1095, in American Historica Review, (A.H.R), vol. 11, New York, 1906 pp. 236,237,238.

6- المؤرخ المجهول، المصر السابق، ص 17.

- فولشر، المصدر السابق، ص 94.
- تود يبود، المصدر السابق، ص 61.
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 1، ص 108 .
- 7- رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ت. السيد الباز العريني، ط 3، بيروت، 1993 م، ح 1، ص 173-174 .
- وللمزيد عن ادھيمار أنظر :
- Brundage, J.A, Adhemar of puy :The Bishop and His Critics, in Speculum , vol .34, No 2, Apr .1959, p. 201-212.
- 8 - Munro, Op.Cit, p 237 .
- 9- عن هذه الخطابات انظر قاسم عبده قاسم، الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية، دار عين بالقاهرة، 1999، ص 189-191.
- 10 - Krey ,A.C., Urban's Crusade – Success Or Failure, in A.H.R, vil, 1948 p.237 .
- وريموند سان جيل او الصجيلي كما لقبه المؤرخون العرب، هو ريموند الرابع كونت تولوز وبروفاش (1088م-1105م) شارك في حرب المسلمين في إسبانيا، ثم اعلن مشاركته في الحملة الصليبية على الشرق، رنسيان المرجع السابق، ح 1، ص 243-244 .
- 11- Caffaro de Caschifelone, De liberatione Civitatum Orientis Liber in B.H.C.Occ, vol V, Paris, 1895, p.48.
- 12- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 44، حائية 62 .
- 13- رنسيان، المرجع السابق، ح 1، ص 177.
- 14- فولشر، المصدر السابق، ص 99.
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 1، ص 110-111.
- 15- Runciman, The First Crusaders' Journey, Across The Ballcan Openinsula, in Byzantion, Bruxelles, 19, 1949,

p.220 .

16- Krey, A.C, The First Crusade ,The Accounts Of Eye – Witnesses and Participants, London, 1921, pp.18-19.

17- ريلى سميث، الحملة الصليبية الاولى وفكرة الحروب الصليبية، ت. محمد فتحى الشاعر، القاهرة، 1993، ص 43، 50-53، 59.

- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 149-150.

- وبطرس الناسك راهب ولد فى اميان شمالى فرنسا، وكان انشط دعاة الحرب الصليبية بين العوام. رنسيما، المرجع السابق، ح1، ص179.

- جود فرى البوبونى، ولد حوالى سنة 1060 كيوستاس الثانى كونت بولونيا، وتولى دوقبة اللورين السفلى سنة 1082، وشارك فى الحملة الصليبية بعد ذلك رنسيما، المرجع السابق، ح1، ص 224

18- Guibert Of Nogent , op. cit , p.

19- فولشر، المصدر السابق، ص 100 .

20- وليم الصورى، المصدر السابق، ح1، ص 110-111 .

21 - Guibert Of Nogent ,Op. cit< p142.

- انا كومنينيا، اناسياد، ت. حسن حبشى، القاهرة، 2004، ص 3

22- اقترح ريلى سميث تقسيم الطريق إلى ثلاث مراحل، المرجع السابق، ص 70-75 .

23- Krey, The First Crusade,p.19. - Dancalf, F, The Peasants' Crusade, in A.H.R. Vol 26, No3 (Apr.1921), pp.441-2.

24 - Runciman, The First Crusaders ' Journey, p.209.

25-Duncalf, The Peasants ' Crusade, P. 442.

- Porges, W,The Clergy The Poor and The non – Combtants On The First Crusade, in Speculum, vol. 21, jan. 1946, p.3 .

26- أحد دعاة الحرب الصليبية، وصفه وليم الصورى بانه شريف المولد ومحارب، وقاد

- جماعة من العوام إلى القبر المقدس . ح 1، ص 112-113 .
- 27- Albert of Aix, *Historia Hierosolymitana*, in R.H.C.O cc, IV, p.274.
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 1 ص 112-113.
- 28 - Albert of Aix, OP.cit, p. 276
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 1، ص 115، 116.
- والتر أحد دعاة الحرب الصليبية، وصفه وليم الصوري بأنه شريف المولد ومحارب.
- 29 - Albert of Aix, OP.cit, p. 291.
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 1، ص 131، 132 وما بعدها .
- 30- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 1، ص 134، 138.
- Duncalf, *The First Crusade: Clermont To Constantinople*, in Setton, *A History of The Crusades*, Wisconsin, 1969, I, pp .261-2.
- 31- رنسيمان، المرجع السابق، ح 1، ص 227.
- و كان هنرى الرابع إمبراطور المانيا (1056م/1105) فى صراع شديد على البابوية فيما سُمى بالصراع بين الإمبراطورية والبابوية، انظر سعيد عاشور، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، ط 7، القاهرة 1978 م، ح 1، ص 338 وما بعدها
- 32- بلدوين هذا الذى اسس امارة الرها الصليبية 1097 م، ثم أصبح ملكا لبيت المقدس 1100-1118. فولشر، المصدر السابق، ص 117، 173.
- 33- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 1، ص 145، 146، 150 رنسيمان، المرجع السابق، ح 1، ص 227-228 وحدد Hagenmeyer خروج جودفرى 15 أغسطس، ووصله إلى المجر 20 سبتمبر .
- Hagenmeyer, H., *Chronologie de la Premiere Croisade*, in *Revue de L'orient Latin* , Paris , 1898, VI, pp. 248, 250

- 34- رنسيما، المرجع السابق، ح1، ص 184-185 ريلى سميث، المرجع السابق، ص 58-59
- 35- اناكومينا، المصدر السابق، ص 393، 403، 404.
- 36- Albert of Aix, OP.cit, pp. 276-276
-وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 113-115.
- Hagenmeyer ,Op.cit,p.244
- حدد رنسيما (ح1، ص192) تاريخ وصول والتر القسطنطينية في منتصف يوليو.
- 37- رنسيما، المرجع السابق، ح1، ص 185 .
- 38- Duncalf, The Peasants' Crusade,p.444.
- 39- Albert of Aix, OP.cit , p.278.
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 117، 119، 120 وحدد
Hagenmeyer (Op.cit,p.241) تاريخ مغادرة المجر والوصول إلى نيش في 27
يوليو حتى 2 يوليو
- 40- Albert Of Aix, op .cit , p.283
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 123
- Hagenmeyer ,Op.cit,p.243.
- 41- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 19
-تود بيود، المصدر السابق، ص 62
- Albert of Aix, OP.cit , p.283.
- Hagenmeyer,Op.cit,pp.245, 246.
- 42- نيقية قاعدة سلاجقة الروم، وتقع على طريق آسيا الصغرى الغربى، قريبة من مضيق
البنفور الذى يفصلها عن القسطنطينية
ياقوت الحموى، معجم البلدان، بيروت، 1977، ح 5، ص 333.
- 43- قلع ارسلان بن سليمان بن قتلش، سلطان سلاجقة الروم، وتوفى عام 55هـ /

- 1107م - ابن الاثير الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، دت، ح 8، ص 186، 241
- 44- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 19-20
- تود ييود، المصدر السابق، ص 62-63 .
- Albert of Aix , OP.cit , p.284
- انا كومنينيا، المصدر السابق، ص 392-393 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 1، ص 125-126 .
- 45- Duncalf, The Peasants' Crusade, p.451.
- 46- هيوكونت فرماندو (1060-1108م) هو الابن الأصغر لهنرى الاول ملك فرنسا، شارك في هذه الحملة وهو في سن الاربعين. رنسيمان، المرجع السابق، ح 1، ص 219 .
- 47- انا كومنينيا، المصدر السابق، ص 394 .
-المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 23 .
-تود ييود، المصدر السابق، ص
-فولشر، المصدر السابق، ص 100 .
-وليم الصوري، المصدر السابق ت، ح 1، ص.154
- 48- Albert of Aix , OP .cit , pp.303-305.
9 4- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 1، ص 154-155 .
- Hagenmeyer ,Op.cit,pp. 264.
-Runciman, The First Crusader: Constantinople To Antioch ,in Setton ,I,p.285 .
- 50- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 24-25 .
-تود ييود، المصدر السابق، ص 75-76 .
- Albert of Aix , OP.cit , pp.305-311.

- 51- بوهمند بن روبرت جويسكارد، نورمان صقلية، وأصبح أميراً لأنطاكية الصليبية، وتوفي عام 1111م /505هـ. رنسيما، المرجع السابق ح1، ص 236 .
- 52- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 26، 28، 29 .
- توديبود، المصدر السابق، ص 77، 78 .
- انا كومنينيا، المصدر السابق، ص 406-409 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 170، 171، 172، 173 >
- 53- Hagenmeyer ,Op.cit, pp. 273, 274, 277, 281.
- وحدها فيمير وصول بوهمند إلى القسطنطينية في 10 أبريل.
- 54- ريموند اجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين عطيه، الإسكندرية، 1989، ص 59، 60، 69.
- تود ييورد، المصدر السابق، ص 79، 80
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 1، ص 177، 178، 179، 180، 181
- رنسيما، المرجع السابق، ح1، ص 245
- 55- روبرت كونت نورماندى، المعروف بروبرت كورثوس، هو الابن الأكبر لوليم الفاتح ملك إنجلترا. رنسيما، المرجع السابق، ح1، ص 250.
- وستيفن هذا كونت بلوا وشارتر، وشارك في الحملة، وعادوا إلى الغرب أثناء حصار أنطاكية، ثم شارك في حملة 1101 م، وقتل في معركة الرملة عام 1102م. جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، والإسكندرية، ص 215، ح 1 .
- وروبرت كونت فلاندرز هو ابن روبرت الأول كونت فلاندرز، وكان أميراً للاراضى الواطئه.
- شارك في الحملة الصليبية وعاد بعد دخول بيت المقدس عام 1099 م. جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 215، أميراً .
- 56- فولشر، المصدر السابق، ص 104، 106
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1 ن ص 175، 176، 189، 190، 191

- Hagenmeyer ,Op.cit,pp. 262, 263, 276, 283, 284,288.
57- Krey, Urban's Crusade- Success or Failure, pp.237
- Duncalf, The Pope's Plan,p.47.
- Archer, T.A and Kingsford, ch.L., The Crusades, London, 1902, p.53
-باركر، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ط 4، بيروت ن 1967، ص 29-30.
-جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 132 .
58- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 31 .
تودبيود، المصدر السابق، ص 76 .
وأشار المؤرخ السرياني المجهول إلى هذه الاتفاقية.
- Anonymous Syriac Chronicle, Trans. To English by A.S Tritton ,in Journal of The Royal Asiatic Society, London, 1933, I,p.69 .
وأشار ابن الأثير إلى ما وقع بين الإمبراطور والأمراء من خلاف في القسطنطينية، المصدر السابق ح 8، ص 186.
59- Letter of Stephen of Blois To his Wife Adele (March 29-1098). in Krey, The first C rusade, p.109 .
-المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 33.
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 1، ص 175.
60- ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 79 .
-وأشار المؤرخ المجهول (ص379 وتودبيور (ص 111) إلى موت كثير من الصليبيين جوعاً أثناء الحصار.
-فولشر، المصدر السابق، ص 109، 110، 111 .
-انا كومينا، المصدر السابق، ص 422 .

- Albert of Aix , OP.cit , p.321.
-وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 205، 219، 220.
61- ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 79.
62- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 40-41 .
-توديبور، المصدر السابق، ص 112-114.
- Albert of Aix , OP.cit , pp.328-329.
-اناكومينا، المصدر السابق، ص 424
-وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص222، 226، 227
- ودويرنيوم تقع بالقرب من اسكى شهر الحاليه فى تركيا. توديبود، المصدر السابق، ص 123 ح 10 .
63- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 41 .
-توديبود، المصدر السابق، ص 114 .
-فولشر، المصدر السابق، 114 .
- Albert of Aix , OP.cit , pp.329-332.
وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 227، 228.
64- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 43-44.
-توديبود، المصدر السابق، ص 115، 116 .
-فولشر، المصدر السابق، ص 115، 116 .
-وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 229، 230، 231، 234 .
65- قونية من أعظم مدن الإسلام بالروم، ياقوت، المصدر السابق، ح4، ص 415
- هرقله مدينة ببلاد الروم. ياقوت، المصدر السابق، ح5، ص398 .
66- قيصرية ذكرها ياقوت قيسارية، وقال هى مدينة كبيرة عظيمة فى بلاد الروم، وهى كرسى ملك بنى سلجوق. المصدر السابق، ح4، ص 421.
67- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 48 .

- توديبود، المصدر السابق، ص 119.
- Baldric of Dol , op. cit, pp. 38, 39
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 265..
- 68- مرعش مدينة في الثغور، بين الشام وبلاد الروم، ياقوت، المصدر السابق، ح5، ص 107.
- 69- الرها مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. ياقوت، المصدر السابق ح 3، ص106.
- 70- Matthieu d'Edesse, Op. cit , p. 33
- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 48 .
- توديبود، المصدر السابق، ص 119.
- Baldric of Dol , op. cit, pp. 38, 39
- 71- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 266.
- Knappen, M.M, Robert II of Flanders in The first Crusade, in The Crusades and Other Historical Essays, p.88
- ارتاح حصن منبع من أعمال حلب . ياقوت، المصدر السابق، ح1 ص 140-141 .
- 72- توديبود، المصدر السابق، ح1، ص 140 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص58..
- 73- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 70 .
- Hagenmeyer, op. cit, p.514.
- 74- ريموند أجل، المصدر السابق، ص 86 .
- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 50 .
- توديبود، المصدر السابق، ص 135 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 284 .
- 75 - Caffaro , op.cit , p.50.

- ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 87 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 316.
- والسويدية أوسان سيمون مدينة ساحلية عند مصب نهر العاصي . ريموند اجيل، نفسه، ص 94، ح 7.
- 76- ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500-110م)، ت. أحمد محمد عيسى، القاهرة بدون تاريخ، ص 382 .
- هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة احمد محمود رضا، القاهرة، 1985، ح1، ص 147 .
- 77- Letter of Anselm of Ribemont to Manasses II, Archbishop of Reims, (feb. 10, 1098), in dana C. Munro, Letters of the Crusades, Philadelphia, 1896, pp. 3-4
- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 49 .
- توديبود، المصدر السابق، ص 135 .
- فولشر، المصدر السابق، ص 123 .
- 78 - Letter of Anselm of Ribemont to Manasses II, (july, 1098), in Krey The first. Crusades, p.158.
- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 51-52.
- توديبود، المصدر السابق، ص 136-137.
- ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 88-90.
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 291-292، 294-296 .
- ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، نشرة خليل المنصور، بيروت، 1996، ص 237-238 .
- ودقاق بن تتش بن ألب ارسلان السلجوقي، تولى حكم دمشق بعد مقتل أبيه ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، دمشق، 1995، ج 17، ص 304.

- وأما البارة، فهي بلدة من نواحي حلب، ياقوت، المصدر السابق، ح1، ص 320 .
- 79 - Letter of Anselm , (july ,1098) , in Krey op. cit, p.158.
- 80- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 54 .
- توديبود، المصدر السابق، ص 138 .
- _رييموند اجيل، المصدر السابق، ص 90 .
- فولشر، المصدر السابق، ص 224-225 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 293-292، 297، 299-300 .
- 81-رييموند أجيل، المصدر السابق، ح1 ص، 91.
- Brundage, op.cit, p.201.
- 82- ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 107، 108 .
- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 55، 56-57 .
- توديبود، المصدر السابق، ص 139، 140-141 .
- فولشر، المصدر السابق، ص 126.
- 83- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 54-55، 65 .
- توديبود، المصدر السابق، ص 138-139، 170 .
- Matthieu d'Edesse, Op. cit , pp. 33-34.
- 84- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 56 .
- توديبود، المصدر السابق، ص 140 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 298، 299 .
- ابن العديم، المصدر السابق، ص 238 .
- Runciman, The first Crusade: Antioch To Ascalon In Setton, I, pp. 312-313
- سعيد عاشور، الحركة الصليبية، القاهرة، 2002، ح 1، ص 175-176 .

- ورضوان بن تتش من ألب ارسلان، حكم حلب بعد مقتل أبيه . ابن عساكر، المصدر السابق، ح 18، ص 153.
- 85- ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 105-107 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 316 - 324، 329-330.
- 86- ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 109، 116 حاشية 14 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 285 .
- رنسيمان، المرجع السابق / ح1، ص 342.
- 87- ياغى سيان حاكم أنطاكية من قبل السلطان السلجوقي بركيارون، قتله بعض الأرمن أثناء حروبه من أنطاكية، ابن الأثير، المصدر السابق، ح8 ص 186.
- 88- كربوغا اتابك الموصل، خرج بحملة لانقاذ أنطاكية، ولكنه وصل متأخرا ابن الأثير، المصدر السابق، ح8، ص 187.
- 89- المصيصة مدينة على شاطئ جيحان، من ثغور الشام، بين أنطاكية وبلاد الروم. ياقوت، المصدر السابق، ح5، ص 114-145 .
- 90- ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 120، 127، 129، 130 .
- توديود، المصدر السابق، ص 205 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 359، 360-361، 381-387 .
- ريلي سميث، المرجع السابق، ص 74 .
- 91- ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 141 .
- توديود، المصدر السابق، ص 224-225.
- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 80، 84، 85، 86 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 369 .
- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، نشرة مكتبية المتنبي بالقاهرة بدون تاريخ، ص 136 .
- Anonymous Syriac Chronicle, op.cit, p.72 .

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

- ميخائيل السرياني، تاريخ ميخائيل السرياني، عربي من السريانية غريغوريوس صليبييا شمعون، حلب، 1996، ح3، ص 153 .
- _ ابن الأثير، المصدر السابق، ح 8، ص 187.
- ابن العديم، ص 240، 241 .
- ابن العبري، تاريخ الزمان، ترجمة عن السريانية إسحق أرملة، بيروت، 1986، ص 124 .
- 92- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 94-95 - توديبود، المصدر السابق، ص 231 .
- ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 146-147 - فولشر المصدر السابق، ص 136-137، 142.
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح1، ص 416 .
- 93- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 98. أخطأ أحسن حبشي، إذ جعل موعد الرحيل الذي حدد القادة نهاية شهر نوفمبر
- توديبود، المصدر السابق، ص، 255 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، القاهرة، 1992، ح2، ص 20-21.
- 94- توديبود، المصدر السابق، ص 256 .
- ريموند داجيل، المصدر السابق، ص 155، 156، 163.
- ابن العديم، المصدر السابق، ص 243، 244.
- سعيد عاشور، المرجع السابق، ح1، ص 180.
- 95- معرة النعمان مدينة كبيرة وقديمة من أعمال حمص، تقع بين حلب وحماة. ياقوت، المصدر السابق، ح5، ص 156.
- 96- توديبود، المصدر السابق، ص 260.
- ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 166 .

- Radulph of Caen, Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana, in R.H.C.Occ, paris , 1868,III, p. 651 .
- 97- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 106 .
- توديبود، المصدر السابق، ص 262.
- ريموند أجيل، المصدر السابق، ص 169.
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 2، ص 36، 40.
- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 136 .
- ابن الاثير، المصدر السابق، ح 8، ص 187.
- ابن العديم، المصدر السابق، ص 244.
- 98- ريموند أجيل ن المصدر السابق، ص171، 172، 181 .
- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 106 .
- توديبود، المصدر السابق، ص 263 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 2، ص 41-42 .
- 99-عرقه بلد في شرق طرابلس، بينهما أربعة فراسخ. ياقوت، المصدر السابق، ح4، ص 109.
- 100- هو عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ، ولو، وتولى امرة شير بعد أخيه نصر، وكانت وفاته 1148م، ت ابن عساكر السابق، ح 21، ص 369.
- وأما شيزر فهي قلعة قريبة من المعرة وبينها وبين حماة يوم. ياقوت المصدر السابق، ح3، ص 383 .
- 101-- حمص مدينة كبيرة في نصف الطريق بين حلب ودمشق. ياقوت، المصدر السابق، ح2، ص 302.
- 102- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 107، 108 .
- توديبور، المصدر السابق، ص 289 .

- ريموند أجيل، المصدر السابق، ص 181، 182 .
- Radulf of Caen ,Op.cit, p.680 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح2، ص43.
- ابن الأثير، المصدر السابق، ح8، ص 188 .
- ولم يذكر احد المؤرخين اسم أو موقع القلعة الأولى. وأما مصياف فهو حصن قرب طرابلس. ياقوت المصدر السابق، ح5، ص 144.
103- ريفية كورة ومدينة من أعمال حمص، وقيل انها بلدة عند طرابلس من سواحل الشام، والأول اصح. ياقوت، المصدر السابق / ح3، ص 55 .
104- حصن الأكراد يقع على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب، وهو المتصل بجبل لبنان، وهو بين بعلبك وحمص. ياقوت، المصدر السابق، ح2، ص.264
105 -المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 108، 109.
106- توديبود، المصدر السابق، ص290.
-ريموند أجيل، المصدر السابق، ص 183، 184، 185.
- رنسيمان، المرجع السابق، ح1، ص402.
-وليم الصوري، المصدر السابق، ح2، 43 .
107توديبود، المصدر السابق، ص290.
ابن الأثير، المصدر السابق، ح8، 188.
- Grousset, Histoire des Croisades, paris , 1943 , I, p.133.
وصاحب حمص هو جناح الدولة حسين بن ملاعب، قتل سنة 496هـ. ابن العديم، المصدر السابق، ص 247 .
- وأما صاحب طرابلس فهو جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار، توفي عام 1099م، وخلفه أخوه أبو على فخر الملك. سعيد عاشور، المرجع السابق، ح1، ص 186.

- 108- طرطوس أو انطرطوس بلد على ساحل البحر من أعمال طرابلس، بينها وبين عرقة ثمانية فراسخ. ياقوت، المصدر السابق، ح1، ص 270.
- 109- مرقية قرية حصينة في سواحل حمص. ياقوت، المصدر السابق، ح5 ص 109.
- 110- جبلة قلعة على ساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. ياقوت، المصدر السابق، ح2، 105 - وصاحب جبلة في هذا الوقت هو عبيدالله بن منصور المعروف بابن صليحة. ابن الأثير، المصدر السابق، ح8 ص 199 .
- 111- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 110، 111 .
-توديبود، المصدر السابق، ص 291، 292 .
- Albert of Aix ,op. cit, p.456 .
- Radulf of Caen, op.cit, p.681 .
- وليم الصورى، المصدر السابق، ح2، ص 46، 48 .
112-توديبود، المصدر السابق، ص 292 .
- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص112..
- 113- ريموند أجيل، المصدر السابق، ص 186، 224 .
-المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 11 .
- توديبود، المصدر السابق، ص 292- 293 .
- وليم الصورى، المصدر السابق، ح2، ص43..
- 114-ريموند أجيل، المصدر السابق، ص189، 216 .
- Albert of Aix ,op. cit, p.457
- 115- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 112- 113 .
-توديبود، المصدر السابق، ص 293 .
- فولشر، المصدر السابق، ص .
- 116- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص113 .
-توديبود، المصدر السابق، ص 293 .
- 312-

- وليم الصوري، المصدر السابق، ح 2، ص.62
117- ريموند أجيل، المصدر السابق، ص 224.
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح2، ص 63، 64، 65 .
- Aadulf of Caen , op.cit, p.683-684.
- الرملة مدينة بفلسطين قرب بيت المقدس. ياقوت، المصدر السابق، ح3، ص 69.
- ريموند أجيل، المصدر السابق، ص 235 .
- توديبود، المصدر السابق، ص 313 .
- فولشر، المصدر السابق، ص 145.
- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 136 .
118 - ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 237، 238 .
- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 116، 117.
- توديبود، المصدر السابق، ص 314، 315 .
- فولشر، المصدر السابق، ص 151 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح2، ص 93، 99، 100، 101.
119- ريموند اجيل، المصدر السابق، ص 238، 239 .
- المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 115.
- توديبود، المصدر السابق، ص 314 .
- وليم الصوري، المصدر السابق، ح2، ص 104، 105، 106.
- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 137 .
- ابن الاثير، المصدر السابق، ح8، ص 189 .

بلدوين الأول (1100 – 1118م)
وعمورى الأول (1163 – 1174م)
ملكان من عصر الحروب الصليبية
دراسة مقارنة

هنادي محمود السيد
جامعة عين شمس

بلدوين الأول (1100-1118م)
وعمورى الأول (1163-1174م)
ملكان من عصر الحروب الصليبية
دراسة مقارنة

يهدف هذا البحث إلى عقد مقارنة بين ملكين صليبيين كبيرين وهما: الملك بلدوين الأول (Baldwin I) (1100-1118م) الذي يعد وبحق المؤسس الحقيقي والفعلي لمملكة بيت المقدس الصليبية في بلاد الشام والملك عمورى الأول (Emerlic I) (1163-1174م) آخر الملوك الصليبيين الأقوياء في القرن الثاني عشر الميلادي وسيتم تناول إنجازات كل منهما على حدة وبشكل موجز ثم عقد مقارنة بينهم لتوضيح أوجه التشابه والاختلاف لتعميق الرؤية التاريخية لاثنين من ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي.

الملك بلدوين الأول هو شقيق جودفري بويون حاكم مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1100م)، وقد تمكن من السيطرة على إمارة الرها Edessa في عام 1098م وعندما توفى أخوه جودفري دي بويون في 18 يوليو 1100م (1) تم إرسال أسقف الرملة ومعه إثنان من الفرسان لمقابلة بلدوين ولمطالبته بالحضور على وجه السرعة، لإستخلاص حقوقه وتولي السلطة بوصفه الوريث الشرعي لدولة الصليبيين في بيت المقدس.

ولم يشأ بلدوين أن يضيع الفرصة التي توافرت لديه بالفوز بحكم بيت المقدس الذي وافاه القدر بما، فغادر الرها نحو المدينة المقدسة في 2 أكتوبر عام 1100م بعد أن عهد بشئونها إلى قريبه بلدوين دي بوج (2) Baldwin de Bourg وترك له قوة كبيرة من الفرسان والمشاة للدفاع عن الإمارة، إذا هدها الخطر (3) واستطاع الملك بلدوين الوصول بسلام إلى بيت المقدس بعد مصاعب عدة، ومحاولات عديدة من جانب القوى

الإسلامية في بلاد الشام للإيقاع به في الطريق دون جدوى وتم تنويجه في يوم عيد الميلاد في ديسمبر عام 1100م في كنيسة العذراء ببيت لحم، ووضع أسقف بيت المقدس دابميرت التاج على رأس بلدوين ليكون أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية (4)

وقد تسلم ذلك القائد الفرنسي مقاليد الأمور في وقت بالغ الخطورة بالنسبة للصليبيين حيث كان الصليبيون أقلية وسط محيط إسلامي معاد لهم. ومثلوا أقلية غازية في وسط كثافة إسلامية من خلال سهول وديان النيل، والفرات، والعاصي، وغيرها، غير أن تلك الكثافة كانت تعاني من التصارع السياسي والخلاف المذهبي. (5)

بوجه عام، يتمثل أهم ما قام به من إنجازات متمثل في إخضاع العديد من مدن الساحل الشامي، فقد وضع بلدوين الأول خطة عند تنويجه ملكاً على بيت المقدس استهدفت محاولة ضم المدن الساحلية الشامية لكي تكون خط اتصال بين الغرب الأوروبي والمملكة الصليبية الوليدة، فالغرب مثل العمق الاستراتيجي لمملكة بيت المقدس عن طريق إمدادها بالحجاج والجنود وتنشيط التجارة وعلى هذا الأساس قام بلدوين الأول بالاستعانة بالقوة البحرية المتمثلة في المدن التجارية الإيطالية، لاسيما جنوة، والبندقية وبيزا (6) التي رأت في مطامع الصليبيين في الساحل الشامي فرصة سانحة بل ذهبية من أجل تحويل تجارة الشرق لتكون في قبضة الإيطاليين أكثر من أي وقت مضى، وهكذا اتجه الصليبيون بقيادته إلى الإستيلاء على أرسوف Arsuf وذلك في عام 1101م. (7)

ومن بعدها تمكنوا في نفس العام من السيطرة على قيسارية (الشام) (8)، وبعد سقوطها ارتكب الصليبيون بها مذبحاً بشعة بعد حصار دام خمسة عشر يوماً، فأعملوا القتل في أهلها من المسلمين (9) ولم يتركوا بها سوى عدد قليل من الرجال.

بعد الانتهاء من الاستيلاء على أرسوف وقيسارية توجه الملك الصليبي بلدوين الأول للاستيلاء على عكا Acre (10) درة الساحل الشامي وكانت متصلة بطريق تجاري مزدهر مع دمشق وهي قاعدة مهمة من القواعد الساحلية التابعة للدولة الفاطمية وكان وجودها في أيدي الفاطميين يشكل خطراً كبيراً على الوجود الصليبي في بلاد الشام إذا فكرت هذه

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

القاعدة في قطع الشريان الساحلي الذي يربط الصليبيين بالغرب الأوروبي بالإضافة إلى أنها ميناء صالح لرسو السفن طوال العام بها. فحاصرها الصليبيون في أبريل 1103م ولكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها وكرروا المحاولة في العام التالي 1104م بمساعدة الجنوية وسقطت المدينة (11) في أيدي الغزاة بعد حصارها براً وبحراً وأخفق حاكمها الفاطمي زهر الدولة الجيوش في استمرار المقاومة.

وبسقوط عكا حرم الأسطول الفاطمي من أهم قواعده بالساحل الشامي، وصارت للصليبيين السيادة على أغلب شواطئ فلسطين، ولاشك في أن حسارة المسلمين كانت فادحة بضياح عكا ويتضح ذلك فيما أظهره المؤرخون المسلمون من أسف عميق لعجز الفاطميين عن حماية موانئ الشام التي أخذت تتساقط واحدة تلو الأخرى حسب أهميتها الاستراتيجية في أيدي الصليبيين، وعن ذلك يقرر "أبو المحاسن" عن الخليفة الأمر الفاطمي: إنه كان يتقاعس عن الجهاد وكان فيه تهاون في الغزو والجهاد حتى استولى الصليبيون على غالب السواحل وحصونها في أيامه، ولم ينهض لقتال الصليبيين البتة، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكر فهو كل شيء (12).

ولا ريب، في أن إخضاع الصليبيين لعكا شكل أهمية كبرى لهم، إذ صارت عدة مدن ساحلية في قبضتهم، لأن ميناء عكا يمثل رأس الجسر الذي عبر من خلاله التجار الإيطاليون إلى أسواق مملكة بيت المقدس (13) فازداد نفوذ هؤلاء التجار، واتسع مجال نشاطهم، خاصة أن عكا لها شهرتها كمركز تجاري مهم، يضم السلع والبضائع القادمة من الشرق عبر دمشق ومنها تصدر إلى الغرب. أضف إلى ذلك اتساع مساحة المملكة الصليبية على الساحل، على الجانب الآخر أثر سقوط عكا على الفواطم فحرمهم من أهم قواعدهم البحرية هناك. (14)

وفي فبراير 1110م توجه الصليبيون صوب بيروت Berytu نظراً لأهميتها بالنسبة للصليبيين، حيث توجد الطرق الموصلة بين بيروت والعمق حتى دمشق، والسيطرة على هذه الطرق أمر مهم لحماية الظهر الشامي (15) وتمكنوا من إسقاطها بعد مقاومة أهلها.

وفي العام التالي 1111م تمكن الملك بلدوين الأول من الإستيلاء على صيدا Sidon وذلك بمساعدة الأسطول النرويجي بقيادة الملك سيجورد Sigrurd م ملك النرويج(16) (1103-1130م) وذلك بعد محاولتين فاشلتين للاستيلاء على المدينة في أعوام 1106م, 1108م(17) وبذلك تمكن الملك بلدوين الأول من الاستيلاء على معظم الساحل الشامي ما عدا مدينتي صور وعسقلان، فما استطاع الملك بلدوين الثاني من إسقاط الأولى في عام 1124م(18)، وكذلك تمكن الملك بلدوين الثالث من إسقاط الثانية في عام 1153م(19)، مما يؤكد أن التخطيط لإحكام السيطرة على الساحل الشامي كان يسير وفق خطة صليبية كبرى.

من جهة أخرى، تمكن ذلك الملك من مواجهة الفاطميين خلال معارك الرملة الثلاث في أعوام 1101م، 1102م، 1105م(20) وجميعها انتصر فيها الصليبيون على نحو عكس عجز الأخيرين عن مواجهة تلك القوة العسكرية والسياسية الجديدة الوافدة على المنطقة وغيرت موازين القوى Balance of Powers لصالحها على حساب الوجود السياسي الإسلامي شيعياً كان أم سنياً(21).

كذلك قاد بلدوين الأول الصليبيين نحو مواجهة الخطر السلجوقي في كل من عام 1111م، 1113م بقيادة أتابكية الموصل، ويلاحظ أن أحداث العام الأخير كانت هي الأخطر حيث حدثت معركة الأفحوانة أو الصنيرة(22)، وتم أسر بلدوين نفسه غير أن أسره لم يعرفه، وتمكن من الفرار بعد جهد جهيد، ولم يتمكن المسلمون بقيادة شرف الدين مودود أبابك الموصل، وظهير الدين طغتكيش أتابك دمشق من إستغلال الإنتصار لصالحهم. وفيما بعد اغتالت خناجر الحشاشين أتابك الموصل في عام 1113م في الجامع الأموي بدمشق(23).

قام الملك بلدوين الأول بمحاولة التودد والاقتراب من المسيحيين الشرقيين لمواجهة مشكلة نقص العنصر البشري، وهي المشكلة الملحة بالنسبة للكيان الصليبي فاتجه إلى تغيير جزئي لخريطة التوزيع الديموغرافي في المنطقة(24)، لمواجهة البعد الاستراتيجي للكثافات

السكانية الإسلامية في قلب المناطق الصليبية يجذب عناصر المسيحيين المحليين الموجودين شرقي الأردن، وفي حوران وكذلك عناصر الأرمن، والنساطرة في الرها والموازنة في طرابلس، وهم الذين دعموا المشروع الصليبي وقدم لهم الاغراءات الخاصة بالأمن والحماية والمال والاستقرار الدائم وقد صارت بيت المقدس عامرة بهم.

استطاع الملك بلدوين الأول تشييد القلاع التي تؤمن وجوده في المنطقة بتشبيده لمنظومة قلاعية في أماكن استراتيجية لتدعيم وجود الكيان الصليبي فعمل على تشييد قلعة الشوبك Crac de Montreal جنوبي البحر الميت Dead Sea عام 1115م (25)، كما أقام قلعة أيله عام 1116م (26)، كذلك أقام قلعة ثالثة في جزيرة فرعون Ile de Gray أمام أيلة على رأس خليج العقبة (27)، وبذلك يكون بلدوين الأول قد تحكّم في أمن البحر الأحمر من خلال هذه القلعة، كما سيطر تماماً على الطريق المعتاد للقوافل بين مصر والشام والحجاز (28)، كما أقام قلعة في جنوبي صور Tyre في صورة قلعة اسكندرونة (29) Scandalium من أجل العمل على إخضاع تلك المدينة اللبنانية (30)، وكانت تلك القلاع المقدمة الحقيقية لسلسلة من قلاع الصليبيين على مدى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب على نحو جعل مملكة بيت المقدس الصليبية توصف بأنها مملكة القلاع King of Citadels.

في عهد هذا الملك الصليبي ظهرت المستوطنات الصليبية على الأرض العربية مثل البيرة (31) Magna Mahumeria التي اكتملت عام 1115م، وكذلك القبيبة Al-Qubaibah التي عرفت باسم (32) Parve Mahumeria وقد اكتمل بناؤها في الفترة الواقعة بين عامي 1120-1129م، وهذه المستوطنات بنيت في مناطق استراتيجية بالغة الدقة، مما يؤكد فكرة المنظومة الصليبية الدفاعية المتكاملة.

استطاع بلدوين الأول في عام 1118م عن طريق حملة استكشافية الوصول إلى العريش، وليس معنى ذلك أنه كان يريد غزو مصر، فغزو مصر يحتاج إلى إمكانيات اقتصادية كبيرة لا تستطيع هذه المملكة الوليدة الصمود أمامها (33)، ولكن هذا الأمر لا يخلو من

دلالة، فالיום استكشاف وغداً الغزو الفعلي وظهر ذلك بوضوح مع حملات الملك عموري الأول (1163-1174م) على مصر.

أما فيما يتعلق بالملك عموري فهو الابن الثاني للملك فولك دانجو، ولد عام 1135م وأصبح كونتاً ليافا ثم ليافا وعسقلان معاً عام 1154م في أثناء ملكية أخيه الملك بلدوين الثالث Baldwin III، وقد تزوج عموري للمرة الأولى قبل أن يعتلي العرش من أنياس دو كورتناى ابنة جوسلين الثالث كونت الرها، وذلك برغم معارضة فولشر بطريك بيت المقدس، بسبب صلة القرابة التي تربط عموري بأنياس، كما كانت أنياس أرملة لرينالد صاحب مرعش قبل زواج عموري منها، بحيث كان عموري يصغرها بأعوام عديدة حينما تزوجها، وأثمر هذا الزواج عن إنجاب بلدوين الرابع الذي سيصبح ملكاً فيما بعد إضافة إلى ابنه أخرى تدعى سبيلا.

وينم وصف وليم الصوري للكونت عموري عن تمتعه "بالحصافة والرشد والخبرة بالشئون الدنيوية... وتفوقه على جميع أشرف المملكة في حدة الذكاء وحضور البديهة، فساس الأمور بحزم وفطنة أبان الأزمات الكثيرة التي وقعت في أثناء محاولاته القوية المستمرة لمد حدود مملكته..." وهو كثير الصمت بارد الأعصاب، لا يهتم لمن يسبه - وإن كان من أدنى الناس - شجاعاً وجريئاً في معاركه، بارداً وحاسماً في قيادته، وقد اكتسب من مداومته لقراءة التاريخ خبرة بمشاكل الشرق وسياساته، وبالرغم من طباعه العادية في الطعام والشراب فإنه كان مفرطاً في السمنة ومتوسطاً في الطول، ومغرمًا بالمطاردة والصيد والمطالعة، بيد أنه لم يكن في عذوبة معشر أخيه بلدوين الثالث أو دماثة خلقه (34).

وفيما يتعلق بدور عموري السياسي قبيل إعتلائه العرش فيشار إلى جانبين كان لهما فيما بعد أثر غير مباشر في سياسته الخارجية، إذ كان عموري كونتاً لمدينة يافا في سن صغير - ربما قبل الخامسة من عمره، حيث أقطعه إياها أخوه الملك بلدوين الثالث بعد أن نصبه فارساً عام 1151م (35)، وحينما قامت الحرب الأهلية بين بلدوين الثالث وأمه الملكة ميلسند (1149-1152م) فقد اتخذ عموري جانب الملكة ميلسندا؛ لأن يافا

كانت ضمن الأماكن الخاضعة لسيطرة المملكة.

ولا يذكر وليم الصوري شيئاً محدداً عن أي دور للكونت عموري خلال أحداث الإستيلاء على عسقلان عام 1153م، وإن حصل على نصيب الأسد فيما وزعه الملك بلدوين من الأراضي التابعة لعسقلان في الجنوب عقب الإستيلاء عليها عام 1153م، إذ منح بلدوين عسقلان لعموري أيضاً مضافة إلى يافا(36).

أما الدور المهم الآخر الذي ظهر به عموري على مسرح الأحداث قبيل تنويجه فتمثل في قيامه بزيارة الإمبراطور مانويل في قيلقية عام 1159م، ولا ريب أنها المرة الأولى التي رأى فيها الكونت عموري الإمبراطور البيزنطي الذي استقبله بما يليق به وعندما انتهت زيارته رده الإمبراطور محملاً بالهدايا(37) وهنا ربما لم يكن عموري يعرف ما تنطوي عليه الأيام وأنه سيصبح يوماً ما ملكاً على مملكة بيت المقدس، بيد أنه لمس الترف البيزنطي والدبلوماسية العتيدة التي تمتع بها عاهلها(38).

وعن اعتلاء عموري للعرش فإنه حينما مات الملك بلدوين الثالث في العاشر من فبراير 1163م دون أن يترك ابناً يعقبه في الملكية كان أخوه الكونت عموري المرشح الشرعي الوحيد لخلافته على العرش(39).

أما عن سياسة الملك عموري فقد كانت المملكة في عهده في إحتياج شديد إلى الموارد الإقتصادية والبشرية، وكانت الحروب التي خاضها الملك عموري كثيرة، ولم يكن لديه موارد ثابتة للإنفاق، في الوقت التي عانت فيه مصر من أمراض قرن أو يزيد من الفساد والإضطراب فوجد الملك عموري في حملاته على مصر مخرجاً للحصول علي أكبر قدر من الأموال بالإضافة إلى محاولة للسيطرة عليها ولكنه فشل في ذلك.

كانت أحوال مصر تتحول من سئ إلى أسوأ بسبب الصراع الداخلي بين رجال الدولة على منصب الوزارة، وهذا قدم فرصة ذهبية للملك عموري وكذلك لنور الدين للعب دور مهم في أحداث مصر آنذاك ومن هنا بدأت أولى حملات الملك عموري على مصر بعد قليل من إعتلائه العرش في سبتمبر 1163م.

فقد كان بلدوين الثالث ملك بيت المقدس قد هدد بغزو مصر عام 1160م منتهزاً فرصة الفوضى التي عقب مقتل الخليفة الفائز، ولكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تشنيه عن محاولته مقابل تعهدا بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستين ألف دينار وقد تحجج الملك عموري الأول بعدم وفاء الحكومة الفاطمية بوعدها ليغزو الدلتا في سبتمبر 1163م حتى وصل إلى بلبس وحاصرها (40)، وحينما عجز ضرغام عن التصدي للملك عموري فإنه استغل جهل الصليبين بالظروف الجغرافية والطبيعية لمصر وفجر الجسور التي تحجز مياه الفيضان خلفها فأغرقت الأراضي (41) وتسبب ذلك في تراجع الملك، ويوحى أحد خطابات عموري بأنه انسحب من مصر بعد هزيمته لضرغام، واضطر الأخير إلى قبول الهدنة وإقراره بدفع مبلغ سنوي للمملكة مما جعل عموري ينسحب من مصر (42).

ولكن إذا كان عموري الأول قد عاد إلى المملكة الصليبية فاشلاً، فإن تلك الحملة كانت لها فائدة كبرى بالنسبة للصليبين، فقد أطلعتهم على مدى ضعف مصر وعظم ثروتها وسهولة الإستيلاء عليها، مما جعل عموري الأول يستعد لغزوة ثانية تمكنه من وضع يده على مصر أرض النيل (43).

وفي تلك الأثناء كان شاور قد اتجه إلى نورالدين محمود في بلاد الشام وأخذ يستنجد به فقد كانت علاقته بنورالدين طيبة، إذ سبق وأرسل شاور إلى نورالدين الخلع والأموال عقب توليه الوزارة في 13 من أغسطس 1163م (44) فقد تعهد شاور لنورالدين إذا ساعده في العودة إلى الوزارة بمصر أن يدفع له ثلث دخل البلاد.

بيد أن ذلك لم يكن كافياً لإندفاع نورالدين مع شاور في مغامرة خطيرة مثل تلك، وقد قررت معظم المصادر الإسلامية أن نورالدين كان متردداً، ويقدم رجلاً ويؤخر أخرى في هذا الأمر، وأنه لم يصل إلى قرار حتى استخار الله في هذه المسألة (45)، وكان لقلق نورالدين العديد من الأسباب، إذ يبدو أن نورالدين كان يرى بلاد الشام بؤرة لصراعه مع المملكة الصليبية، ولم يكن في علمه كيف يخطط لسياسته المستقبلية في ظل تنويع ملك جديد للمملكة وهو الملك عموري، وحقاً كان الأخير كوتناً ليافا وعسقلان وصد الكثير من

الهجمات المصرية، بيد أن أسلوب سياسته لم يكن قد اتضح حتى قيامه بحملته الأولى على مصر، وهى أهم ما قام به الملك عموري عقب تنويجه على المستوى الخارجي، ولم يكن في ذهن نورالدين أن تكون مصر هى الوجهة الوحيدة للملك الجديد، وبخاصة أن نورالدين كان يفضل استيعاب فتوحاته في بلاد الشام أولاً (46)، ويؤيد ذلك أن نورالدين لم يحدث شيركوه في التوجه إلى مصر إلا بعد حله لمشكلة القوى التي سوف يرسلها معه إلى مصر، بمعنى أن نورالدين لم يكن يسعى إلى التورط في مصر قبل أن يوفر لذلك جنوداً يزيدون عن إحتياجه في بلاد الشام (47)، ولما كانت حملة عموري الأولى على مصر استهلالاً مبكراً على إتجاه سياسته فإن نورالدين كان مستعداً مبدئياً لمواجهة تلك السياسة (48).

ولم يكن نورالدين يحفل بأمر شاور كثيراً، وربما لم يكن يثق به، لذا فقد أودع قيادة الجيش إلى رجاله وعلى رأسهم شيركوه، على الرغم من كره شاور لذلك (49)، وكان لدى نورالدين دواع كثيرة للشك في نية شاور، لأنه لم يتقرب إليه إلا بدمه للفاطميين ولعنه لمذهبهم وهو إيجاء مشاكس لا يغيب عن عقلية فطنة مثل عقلية نورالدين (50)، من جهة أخرى يوحى ماضي شاور السياسي بالقلق؛ لأنه يشمل مؤامرات وانقلابات للوصول للوزارة. ولم يكن الملك عموري بعيداً عن تلك الأحداث، إذ تشير الوثائق الرسمية إلى فزع المملكة الصليبية من الجيش الضخم الذي بعثه نورالدين إلى مصر (51)، ولم يكن في وسع الملك سوى أن يبعث برسله إلى ضرغام للمطالبة بمال الهدنة الذي اتفق معه عليه في العام السابق، ويحدد المقريري هذا المبلغ بثلاثة وثلاثين ألف دينار، ويبدو أن عموري بعث رسله إلى ضرغام في ذلك الوقت كإيماء ذكية منه، كإيماءة يتعاون مع ضرغام ضد نورالدين وشيركوه، بيد أنه انشغل عنهم بالتصدي لشاور وشيركوه (52).

والواقع أن ضرغام ارتكب أكثر من خطأ في تعامله مع حملة شيركوه، وكان ذلك في صالح شيركوه وشاور، إذ لم يبادر قادة ضرغام بمهاجمة جيش شيركوه في أثناء خروجه من صحراء المدخل الشمالي الشرقي لمصر عند صدر (53)، وهو في حالة رثة من جراء الرحلة الشاقة في الصحراء والمعاناة من نقص المياه، وهى فرصة ملائمة للإجهاز على ذلك الجيش، وبدلاً

من ذلك تباهى قادة ضرغام بقوتهم وظلوا في بلبس ينتظرون وصول جيش نورالدين، وهنا أبدى شاور تفهمه العسكري المصري، حينما وصف جنود ضرغام بأنها من الفلاحين، ممن يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا ولا يلبثون في ساحة الحرب إذا حمى الوطيس، (54) وهو قول مغلوط بطبيعة الحال .

أما الأمر الأخطر الذي وقع فيه ضرغام فهو تأخره في مراسلة الملك عموري للإستعانة به وقد جاءت الفكرة مؤخراً، حينما حاصره كل من شيركوه وشاور في القاهرة وبدأ ضرغام عاجزاً عن السيطرة على الوضع الذي خرج من يده بالفعل، وبينما يقر المقريري أن عموري رفض الأستجابة لرسل ضرغام إلا بأوامر صريحة من الخليفة العاضد بطلب المساعدة (55) فإن وليم الصوري يشير إلى سرعة استعداد الملك عموري لتلبية نداء ضرغام بيد أن الوقت قد فات حيث حوصر ضرغام وفقد جيشه كلياً، وعندها قتل في 22 من مايو 1164م، فلم يجد عموري فرصة للتدخل بسبب غلبة كفة شاور وشيركوه(56).

وبعد أيام قلائل صعد شاور إلى دار الوزارة في القاهرة وتسلم الوزارة في 26 من مايو 1164م، ويشير المقريري إلى توجه شيركوه إلى بلبس في اليوم الذي اعتلى فيه شاور الوزارة، وعقب ذلك حدث الخلاف بين شيركوه وشاور مما دفع شاور إلى استدعاء الملك عموري للتصدي لشيركوه (57)، ويشير وليم الصوري إلى إستعانة شاور بشيركوه لطرد ضرغام من مصر، وحينما تم لشاور ذلك عدل وليم الصوري عن باقي ما ذكرته المصادر الإسلامية قائلاً إن شيركوه سعى إلى الإستيلاء على مصر من شاور، وكانت أولى خطوات شيركوه لتحقيق ذلك استيلائه على بلبس وإدعائه أنها من حقه. (58)

وعلى العكس تكرر معظم المصادر الإسلامية التي تعرضت لهذه الحقبة التاريخية رواية تنكر شاور لشيركوه ولعوده لنورالدين، تلك الوجود التي تقضي بأن يكون دخل مصر مثالثة بين نورالدين وشاور والعاضد وأن يكون شاور في مصر طائعاً لأوامر نور الدين، على أن يبقى معه شيركوه في مصر نائباً عن نورالدين، وقد إدعى شاور أنه لم يستعن بجيش نورالدين وعلى رأسه شيركوه إلا المهمة طرد ضرغام من الوزارة وإعادة شاور إليها فإذا تم ذلك

فإن بقاء جيش شيركوه في مصر لم يعد له مبرراً، ثم أرسل شاور لشيركوه خمسين ألف دينار وطالبه بالرحيل من مصر (59)، ولكن شيركوه رد على موقف شاور بإحتلال بلبليس والشرقية، مما جعل شاور يفعل فعلة سلفه ضرغام فاستنجد بالصليبيين، وأرسل يستمدهم ويخوفهم من نورالدين إن ملك مصر (60) فتحرك عموري نحو مصر بناء على إستغاثة شاور به في الأول من يوليو 1164م، وقد وصل عموري إلى بلبليس في الأول من أغسطس 1164م، وهذا يعني أن شاور ظل يقاوم حصار شيركوه له في القاهرة لأكثر من شهر.

على أية حال تمكن شيركوه من إحكام حصاره على شاور في القاهرة، وأحرق بها عدة شوارع كما أحدث ثغرة في عدة أجزاء من أسوار القاهرة وكاد يستولي عليها، ولا ريب أن شيركوه أفاد من مرافقته لشاور في حرب ضرغام في التعرف على أسلوه القتالي وخططه كما جاس معه شوارع القاهرة والفسطاط طويلاً وعرضاً ولمس مواطن القوة والضعف فيها، وربما لأجل ذلك قرر شاور الإستعانة بالملك عموري بيد أنه كان واضحاً في مفاوضاته مع الملك عموري على عكس ما فعل ضرغام (61) .

ويبدو أن شاور أكمل مرحلة المفاوضات التي توقفت مع ضرغام من قبل، بحيث بذل له شاور وعوداً مغرية تفصح عن تفهم شاور لبعض موازين القوى في المملكة، فمن ناحية أثار لدى الملك عموري حفيظة الخوف من إمتلاك نورالدين لمصر بما لا يبق للفرنج مقام في بلاد الشام، نظراً للإرتباط الوثيق بين الإقليميين خلال ما عرف بالشامصر وهي الرابطة الجغرافية والتاريخية بين بلاد الشام ومصر ومن ناحية أخرى أوضح شاور للملك عموري أن وجود شيركوه في مصر لم يكن إلا عن مساعدة تجاوز شيركوه حدها، وفي الوقت ذاته بذل شاور للملك ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الطريق التي سوف يقطعها في قدومه إلى مصر، فكانت سبعة وعشرين مرحلة، أي أن يحصل عموري على سبع وعشرين ألف دينار من شاور عندما يقدم إلى مصر إضافة إلى وعد شاور لعموري بإطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين في مصر، والأمر الآخر الذي ينم عن فطنة شاور أنه بذل بعض الأموال الاستبارية إذا ما شاركوا في حملة الملك لمساعدة شاور في مصر، إضافة إلى

الأمر الأخرى الفرعية مثل المبالغ المقررة سنوياً وعلف الدواب وغيرها, وذلك في مقابل حصول شاور على دعم عموري(62)

ولم يلبث أن عاد عموري الأول على رأس جيش كبير إلى مصر مرة أخرى, وعندما وصل ملك بيت المقدس إلى فاقوس, لم يشأ شيركوه أن يتجه نحو القاهرة, وإنما اختار أن يقوى مركزه في بلبس حيث حصل على مساعدات من عرب كنانة, وكان ذلك في الوقت الذي حضر شاور من القاهرة على رأس جيش واشترك مع عموري في حصار شيركوه في بلبس(63) في أثناء ذلك وصلت أخبار هزيمة الصليبيين في حارم للملك عموري وقد حدثت موقعة حارم في 12 أغسطس 1164م, حتى تم الإتفاق أخيراً على أن يغادر شيركوه وعموري الأول مصر, وتم ذلك في أواخر عام 1164م.

وتقدم بعض المصادر تفسيراً للإتفاق بأن عموري كان يسعى من جهته, حينما جاءته أخبار حارم, إلى إدراك بانياس قبل إستيلاء نورالدين عليها وأنه أسف بشدة على فقدان حارم الحصن الأمامي لأنطاكية, مما جعله يبادر بالمفاوضات التي انتهت بعقد الصلح (64), بعد أن تعهد شاور بأن يدفع لشيركوه ثلاثين ألف دينار أخرى, وربما كان عموري الأول أكثر تلهفاً على تلك الإتفاقية, حيث أن هجمات نورالدين اشتدت على الصليبيين في غيابه مما تطلب عودته إلى بلاد الشام على وجه السرعة(65).

أما عن مكاسب عموري المادية فقد أفاد الملك كثيراً من هذه الحملة, خصوصاً أن خسائره المادية والبشرية كانت قليلة, لأن الأشتباكات ذاتها كانت قليلة, وقد حصل الملك على تأكيد من شاور بمبلغ سنوي ثابت, علاوة على حصول عموري على ألف دينار عن كل يوم قضاة في مصر(66), وقد قاربت مدة بقائه على ثلاثة أشهر بما يوحي أنه ربما حصل على ما يقارب تسعين ألف دينار, هذا إضافة إلى ما بذله له شاور من مبلغ يقدر بسبعة وعشرين ألف دينار مقدماً للملك, ولا يجب أن ينسى أن عموري لن يكون قلقاً على مئونة جيشه من الطعام والشراب -وربما السلاح فيما بعد- طالما يحارب دفاعاً عن مصر لا غازياً لها(67).

ولا ينبغي المبالغة في تقدير النفوذ السياسي والعسكري الذي حققه الملك عموري في مصر في هذه الحملة، لأنه يكاد يكون معدوماً، فبقدر إستدعاء شاور للملك الصليبي المذكور فإنه لم يكن يثق به ولا بمساعدته، بحيث خشى شاور إن انتصر عموري على شيركوه أن يقوم عموري بالإستيلاء على بلبيس (68)، ولكن يجب أن نوضح أن هذه الحملة زادت من طمع الصليبيين في مصر أكثر وأكثر وهذا ما سوف نوضحه في سياق أحداث حملة عموري الثالثة على مصر.

قضى الملك عموري عامي 1165-1166م في التصدي لهجمات نورالدين على الحصون الواقعة على منحدرات جبال لبنان، بينما كان شيركوه يغير على إقليم ما وراء نهر الأردن، ولكن سرعان ما أدت الظروف إلى تدخل كل من عموري ونورالدين في مصر مرة أخرى، ولم يكن عموري هو البادئ في التحرك إليها، وإنما كان شيركوه الذي قاد جيش نورالدين إلى مصر مما إضطر عموري إلى التدخل لمنع من الإستيلاء عليها، ومن ناحية أخرى لم تهدأ الأحداث التي أثارها نورالدين في بلاد الشام عقب معركة حارم.

أشارت بعض المصادر إلى أسباب مهاجمة شيركوه لمصر في هذه الحملة إلى خوف نورالدين وشيركوه من حدوث بعض الإتصالات السرية بين عموري وشاور، خوفاً من إمتلاك الصليبيين لمصر، ويشير آخرون إلى الرغبة الشديدة لدى شيركوه للإنتقام لنفسه وجيشه مما قام به شاور ضده في الحملة السابقة (69).

في الواقع أن الاستيلاء على مصر التي كانت فيما سبق مجرد فكرة مثالية، صارت اليوم واقعية بما ترتب على الحملة السابقة من التعرف على مصر من داخلها ورؤية خيراتها والوقوف على حالة الدفاع عنها، وغيرها مما يكشف بعض مواطن الضعف الذي تعاني منه، ولم يكن ذلك غائباً عن كلا المعسكرين الصليبي والنوري، وإذا كان الصليبيون لا يزالون يعانون من جراء هزائم حارم وبانياس والخروج خالين الوفاض من مصر منذ ثلاثة أعوام فإن هذه الأحوال السيئة ذاتها هي التي كانت تفترض الأ يفرط عموري في ضياع مصر منه، لقد استنفذت موارد بلاد الشام بينما تظل مصر -برغم ما تعانيه من ضعف في كافة النواحي-

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

دولة غنية بمواردها، وبناء على هذا الوضع قرر المجلس الذي عقده عموري في نابلس التوجه إلى مصر للتصدي لجيش شيركوه (70).

وتم الاتفاق بين شاوور وعموري على أن يقف الثاني إلى جانب الأول في التصدي لنورالدين محمود وقائده أسدالدين شيركوه، وكان الاتفاق ينص على حصول الملك على أربعمئة ألف دينار، يدفع شاوور نصفها مقدماً ويدفع النصف الآخر على أوقات محددة، وذلك في مقابل تعهد عموري "بخط يده ويصدق من غير غش ولا سوء نية على أنه لن يغادر أرض مصر حتى يتم القضاء على شيركوه بجميع عسكره أو يخرجوا من البلاد عن بكرة أبيهم (71). ويإبرام الاتفاق على هذا النحو تحرك الطرفان لمواجهة شيركوه، الذي استطاع في ذلك الوقت عبور نهر النيل إلى الجيزة، وبقي فيها في مقابل القاهرة، وفي الحال تحرك عموري وشاوور في محاولات عسكرية للقضاء عليه، وكان شيركوه متعمداً سحب عموري وشاوور إلى صعيد مصر لإبعادهما عن مراكز إمدادهما في القاهرة وبيت المقدس، ونجح كل من عموري وشاوور في تضيق الخناق على شيركوه في منطقة تعرف بالبايين هي التي حدثت بها المعركة المشهورة التي تحمل الأسم نفسه (72)

وعند التعرض لنتائج المعركة الواقعة فإن وقعها كان شديداً على الجيش الصليبي بصفة عامة، وذلك أن الملك عموري كاد أن يدرك ويتعرض للأسر خلال المعركة، وأسر من فرسانه حوالي سبعين فارساً وربما مائة على ما ذكر وليم الصوري تقريباً من البارونات كان من بينهم هيج صاحب قيسارية (73)، أما شاوور فقد قتل من رجاله الكثيرون، أما عن الجيش النوري فقد فقد الكثير من رجاله ومعداته.

لقد أدى تحرك شيركوه إلى الإسكندرية إلى تعقيد مهمة عموري وشاوور، وهي إخراج الأول من مصر وبخاصة بعد ما لقياه من جهد في أثناء مطاردته في صعيد مصر على مدار شهرين تقريباً، ولم يكن توجه شيركوه إلى الإسكندرية عشوائياً وإنما كان تصرفاً مدروساً، إذ قدم إلى شيركوه قبيل نشوب معركة البابين بعض نواب الإسكندرية وعرضوا المساعدة على شيركوه بالمال والرجال. (74).

وقد أحكم عموري إغلاقه للمنافذ البرية والنيلية المؤدية إلى مدينة الإسكندرية ومنع عنها كافة الإمدادات وفرض رقابة صارمة على الداخل والخارج إليها(75) وبدأ شيركوه يشعر في غضون شهر بقلّة الإمدادات التي تصله عن طريق النيل من الصعيد، وإزدیاد تضيق عموري على المدينة ذاتها، ولإجل ذلك قرر شيركوه ترك المدينة في قيادة صلاح الدين وخرج هو من الإسكندرية تحت جناح الظلام إلى الصعيد وذلك خوفاً من حصار جيشه بالكامل وفيه المريض والجريح(76)، ومن ناحية أخرى سيكون على عموري مطاردة جيشين والقتال على جبهتين في آن واحد، لعل أخطرها مطاردة شيركوه مرة أخرى في الريف المفتوح في صعيد مصر، أما الأسهل بالنسبة للملك عموري فكان حصار الإسكندرية(77).

وعاد عموري إلى الإسكندرية وفرض عليها الحصار، وساعده على ذلك أن المدينة كانت محاصرة من قبل ولم تصلها أية إمدادات بفضل إحكام سيطرته البرية والنيلية عليها، كما استخدم عموري آلات الحرب الثقيلة كأبراج الحصار الضخمة في مهاجمتهما، إضافة إلى وصول نجذات بحرية من المملكة، وصلت مسرعة على أمل مساعدة عموري في الإستيلاء على هذا الميناء المهم(78) وترتب على جهود الملك عموري الجادة في عملية الحصار أن ضيق الخناق على صلاح الدين، فراسل شيركوه بغرض إنجاده بالمال والرجال(80).

كان شيركوه آنذاك في الصعيد في مدينة قوص يجمع الأموال، وحينما وصلتته الأنباء السيئة عن حال صلاح الدين في الإسكندرية قرر الرحيل إلى الشمال في 27 من يوليو 1167م، ثم سلم شيركوه الإسكندرية للمصريين في 4 أغسطس/منتصف شوال، وهذا يعني أن المفاوضات لم تستغرق وقتاً، بل لم تأخذ أسبوعاً تقريباً لإنهاء حالة الحرب حول الإسكندرية.

كان كل طرف يعاني من طول العمليات القتالية وإن كان موقف عموري أضعف قليلاً لأن شيركوه كان مجرد قائد للأمير جليل من قواد لنور الدين محمود، وهناك قادة كثيرون، بينما كان عموري ملك المملكة، ولم يكن يصلح غيره للقيادة وتدبير شئون المملكة وبقية

الإمارات الصليبية، بيد أن ذلك لم يكن ليدفعه لتقدم تنازلات لشيركوه (81)، وعقد شاور مع شيركوه معاهدة تقضي بإنسحابهم من مصر، وفك الحصار عن الإسكندرية وإطلاق سراح جنوده منها، وتبادل الأسرى، وعدم معارضته في طريق عودته، وأن يحصل شيركوه على غرامة من شاور جزاء جميع ما أنفقه، ويؤكد قبول شاور لهذه الشروط بالذات أنه كان البادي في إستهلال المفاوضات، على أية حال حصل شيركوه على خمسين ألف دينار أما عموري فحصل على ثلاثين ألف دينار.

كان ذلك الاتفاق التقليدي بين عموري وشيركوه، وأما الواقع الجديد الذي فرضه عموري على شاور وربما دون علم شيركوه فهو عقده لإتفاق آخر مع شاور كان تنويجاً لإنتصاره الدبلوماسي في مصر، بل ربما كان حصيلة جهده في محاولاته للإستيلاء على مصر بدايةً ثم تحييدها بعدئذ، وأما شروطه فتتمثل في أن يصبح للصليبيين شحنة في القاهرة - أي حامية عسكرية يقيمون بها وتكون بأيديهم أبوابها وأسوارها، بحجة منع نورالدين من إرسال جنوده مرة أخرى إليها، كما قرر شاور للملك عموري مائة ألف دينار سنوياً من دخل مصر، بل تمادى الأمر إلى إبقاء بعض الصليبيين ممن أقام في دور القاهرة وبيوتها، بحيث عاد مع الملك من عاد وبقي من فضل البقاء، وكان لهؤلاء دور في تحريض الملك فيما بعد للإتيان إلى مصر وترغيبه في الإستيلاء عليها، وبعثوا إليه بتقارير خطيرة عن أعمالها وأقاليمها وموارد دخلها، وقد مثلت هذه المعاهدة قمة النفوذ الذي وصل إليه عموري في سياسته الخارجية في مصر، ويكفي عموري في هذه الحملة فرضه لنوع من الحماية على خلافة الفاطميين بالقاهرة(82).

أما عن الحملة الرابعة على مصر فقد كانت المساعدة البيزنطية ضرورة لاتمام غزو مصر عامي 1168-1169م، وعلى ذلك فقد تحرك وليم الصوري في سبتمبر 1168م على رأس السفارة التي خولها الملك عموري صفة إتمام الصيغة النهائية للمعاهدة مع الإمبراطور وقد لاقت السفارة نجاحاً كبيراً، وبينما كان وليم الصوري يستعد للعودة بمعاهدته مع مانويل كومنين في الأول من أكتوبر 1168م، كان عموري هو الآخر يعد عودته

للتحرك صوب مصر, والواضح أنه كان عليه الإسراع في الخروج بحملته إلى مصر قبل وصول وليم الصوري فيورطه في تنفيذ بنود الإتفاق الذي أبرمه وليم مع مانويل قاصداً تفويت الفرصة على الأخير في مشاركته في الاستيلاء على مصر وقبل أن يضع عموري نفسه في موقف لا يجسد عليه, ولذا فقد جمع خياله وفرسانه من كل نواحي المملكة وغادرها على جناح السرعة إلى مصر(83) .

وبينما توجه هو برأ, أمر بتحرك الأسطول بجرأ, بحيث يستفيد من قوته البحرية, كما تحركت معه بعض العناصر المصرية الساحطة على حكم شاور التي لجأت مؤخراً إلى عموري ولم تكن الرحلة طويلة, إذا وصل عموري إلى مصر بعد عشرة أيام من تحركه من عسقلان في 20 أكتوبر إلى بليس حيث استولى عليها في 3 نوفمبر 1168م, وقد أحدث بها مع رجاله مذبحه مهولة في السكان المسلمين وأسروا أعداداً كبيرة وحصل على غنائم وفيرة(84). و لا شك أن الحركة الصليبية كشفت عندئذ عن وجهها الدموي القبيح .

قام شاور بإحراق الفسطاط لإعاقة عموري من الإستيلاء عليها(85), ولكن عموري تمكن من الهجوم على القاهرة بينما هاجم إسطوله مدينة تينيس على ساحل البحر المتوسط واستولى عليها وأسر أهلها, ولكنه عجز من الدخول إلى فرع دمياط, بسبب إعاقة المصريين له بقواربهم, وفي تلك الاثناء كان شيركوه في طريقه إلى مصر.

وقد كان على عموري إعادة ترتيب أوراقه من جديد بناء على الواقع الجديد, ذلك لأنه ظن أن الاستيلاء على القاهرة سيكون سهلاً, لقد كانت حملة عموري الرابعة على مصر مغامرة خطيرة للغاية لم يدرك معها الملك قوة بأس المصريين, أو احتمال استدعاء نورالدين إليها, أو تصدي شاور له برغم تحالفه معه, بل إن الملك لم يعد لحملة بما ينبغي أن يعد لمشروع كهذا(86).

رحل الملك عموري عن مصر في 2 يناير 1169م, وهنا أفضى صراع عموري على مصر لأول مرة إلى نتيجة ملموسة, وهى خسارته لها خسارة حقيقية, لأنها بعكس المرات السابقة - وقعت في صف المعسكر المعادي, وخرجت لأول مرة عن عزلتها الحيادية - وقد

ارتبط هذا الحياذ بوجود شاور فيها الذي حل صلاح الدين محله, أما عموري فإنه تأكد الآن الخطورة الفعلية التي يمكن أن تعانها مملكته من وضع مصر الجديد(87).

اتجهت سياسة الملك عموري في الأعوام الممتدة من عام 1170م إلى 1174م إلى محاولة التصدي لهجمات نورالدين وصلاح الدين في شمالي المملكة وجنوبها, إذ وصلت الملك عموري في 1 من ديسمبر 1170م أخباراً تتعلق بقيام صلاح الدين - نائب نورالدين في مصر ووزير الخليفة الفاطمي العاضد - في جيش كبير قدره وليم الصوري فيما بعد بحوالي أربعين ألفاً من الفرسان- من الواضح طابع المبالغة في الرقم المذكور-, على حين لم يكن جيش الملك عموري الذي تحرك به لصد هذا الجيش يتعدى ألفاً ومائتين وخمسين من الفرسان, ولم تكن وجهة صلاح الدين محددة في البداية بيد أنه فرض حصاره بعدئذ على مدينة الداروم.

ولم تكن الداروم سوى القلعة التي بناها الملك عموري في بداية حكمه, وقد هدف من بنائها أن يتخذها مستعمرة صليبية تتيح مد حدود مملكته إلى الجنوب, كما ستمكنه من إحكام السيطرة على المنطقة المتحكمة في الطريق المؤدي من مصر إلى الشام والعكس, علاوة على جمع الضرائب السنوية من القرى المحيطة, وفرض الإتاوات على المسافرين المارين بذلك الطريق, ومن ثم فقد كانت القلعة شوكة في حلق صلاح الدين, لأنها تعوق حركته وحركة التجارة والمسافرين(88).

وحيثما تحرك عموري من عسقلان إلى الداروم في 18 من ديسمبر 1170م, كان صلاح الدين قد استولى على ظاهر قلعة الداروم وأشعل بها النيران, وفي الوقت ذاته توجهت جماعات نقب الأسوار وعمال المناجيق إلى أبراج القلعة لمحاولة إسقاطها التي سبق واحتسب بها الأهالي, وكادت أبراج القلعة تسقط في يدي صلاح الدين, وفي تلك الظروف وصل الأخير أنباء عن إقتراب الملك عموري منه, فاستعد لمواجهة والتصدي له, وحينما شعر الملك هو وباروناته بالخوف من حجم الجيش الذي يقوده صلاح الدين قرر عدم التصدي لصلاح الدين, وبدلاً من ذلك أخذت فصائله وكتائبه ينضم بعضها إلى بعض تدريجياً في

تجاذب منعها من الحركة.

من جهة أخرى لم يحاول عموري الرد على مناوشات صلاح الدين التي سعى من خلالها إلى جره إلى معركة فاصلة، وظل الملك على وضع جيشه السابق يتحرك في بطاء شديد حتى وصل إلى الداروم حيث دخل قلعتها التي استعصت على صلاح الدين، فأخذها عموري مأوى أمناً له وجيشه، بينما يشير وليم الصوري إلى توجه صلاح الدين نحو غزة مباشرة (89) بعدما امتلأ قلبه بالثقة.

وقد كانت قلعة غزة بأيدي فرسان الداوية منذ أن عمرها بلدوين الثالث ومنحهم إياها، وحينما توجه صلاح الدين إليها احتمى سكان غزة بالقلعة، فهاجم صلاح الدين المدينة من الإمام والخلف وأحدث ثغرة بها أدت إلى وقوع المحاصرين في يديه ويبدو أنه لم يتهاون مع الأسرى وبخاصة أن معظمهم كانوا من جماعة الداوية التي أتخذت - هي وبقيّة عناصر الرهبان الفرسان - موقفاً معادياً ومتعصباً ضد المسلمين، وبعدها كر صلاح الدين راجعاً إلى الداروم التي يعسكر عموري عندها (90) تجنب عموري ملاقاته صلاح الدين مرة أخرى في معركة ربما يخسر فيها كل شيء.

وعلى الرغم من عدم اتصال نورالدين بصلاح الدين لمهاجمة عموري في تلك المرحلة كان عموري في موقف لا يحسد عليه، حينما أتخذ الموقف الدفاعي مرتين، دون التفكير في التصدي لصلاح الدين أو رد مناوشاته، وقد تعزى تلك السلبية التي ابدتها عموري إلى حرصه على عدم المغامرة بجيشه الصغير إذا ما قورن بجيش صلاح الدين.

وبعد وقت قصير من عودة صلاح الدين إلى مصر من الحملة السابقة قرر الخروج مرة أخرى إلى بلاد الشام في حملة عسكرية أخرى، ويبدو أن تحركات صلاح الدين كانت مدروسة ومخطط لها بعناية فائقة، ذلك أنه علياً رغم من ضيق الوقت الذي عاد فيه صلاح الدين إلى الشام وهو ما يقدر بما لا يزيد عن شهر، ربما خلال ديسمبر 1170م، فإنه تحرك ومعه أجزاء المراكب مفككة على ظهور الجمال، ثم أمر بتركيبها وإنزالها في خليج العقبة وشن هجوماً عنيفاً على قلعة أيلة (91) التي كانت بأيدي الملك عموري، وكان هجومه المتواصل

من البر والبحر من العنف بمكان, بحيث لم يكن مقدراً تحمل القلعة لهجمات صلاح الدين طويلاً, في ظل إستجابة عموري لإنجادها فسقطت المدينة في يد صلاح الدين.

وكان مما دفع صلاح الدين إلى محاصرة أيلة أنها كانت تهدد خطوط الإتصال بين مصر من جهة وبلاد الشام والحجاز من جهة أخرى, وبخاصة رحلات الحجاج إلى مكة والمدينة, وقد قام صلاح الدين أيضاً بحصار حصن الشوبك عام 1171م وحصن الكرك عام 1173م, بالرغم من انتصاراته المتتالية وغاراته عليها بحيث لم يبد عموري أي رد فعل سوى خروجه بجيش المملكة وكأنه يشاهد من بعيد ومكتفياً بترصد حركة صلاح الدين(92). و يلاحظ هنا ان تحركات صلاح الدين هذه حدثت قبل إسقاط الدولة الفاطمية عام 1171م, وهي تدل علي أن رغبته في جهاد الصليبيين كانت مبكرة لديه ولم تكن متأخرة كما زعم بعض الباحثين الغربيين.

وقد بدت شدة وطأة نورالدين وصلاح الدين الأيوبي على المملكة من ملاحظة تغيير وضع الملك عموري من وضع المحجوم -بما قام به من حملات على مصر- إلى وضع الدفاع الكامل بحيث عجز عن التصدي لأي من نورالدين أو صلاح الدين الأيوبي, وبخاصة أن نورالدين كان مشغولاً خلال أعوام 1171-1174م بمحاولات توسعية جديدة في شمال الشام وقيلقية(93) .

أما فيما يتصل بالمقارنة بين الملك بلدوين الأول والملك عموري, فنلاحظ أنها تؤدي بنا إلى أوجه التشابه وأخرى للاختلاف, فبالنسبة للأولى نلاحظ أن هناك عدة جوانب نوردها كالاتي:

أولاً: أدرك الملك بلدوين الأول الرابط بين بلاد الشام ومصر, ولذلك نجده يقوم بحملة استطلاعية استكشافية على مصر عام 1118م(94) وصل فيها نحو 500 من رجاله إلى مصب فرع النيل في دمياط, وقد تأكد للصليبيين من بعدها أن جارهم الفاطمي ثري وضعيف في آن واحد, وكانت مقدمة لما حدث فيما بعد من حملات الملك الصليبي عموري (1163-1174م) عندما حاول الإستيلاء على مصر ولكن

دون جدوى وذلك في أعوام 1163م, 1164م, 1167م, 1168م. ثانياً: يتفق الملك بلدوين الأول مع الملك عموري في أنهما نتاج القرن الثاني عشر الميلادي وهما إمتداد لمشروع صليبي للسلب والنهب والاستيلاء على ثروات الشرق الإسلامي فالملك بلدوين الأول الذي يعد المؤسس الحقيقي والفعلي لمملكة بيت المقدس الصليبية يوصف بأنه أول الملوك الكبار من وجهة النظر الصليبية, ويأتي الملك عموري على رأس هذا الترتيب خامس هؤلاء الملوك بعد كل من الملك بلدوين الثاني -الملك فولك الأنجو- الملك بلدوين الثالث.

ثالثاً: يعد الملك بلدوين الأول صاحب الريادة في الوجهة الأفريقية فيمثل عام 1118م عاماً حاسماً في الإنطلاق من البعد الآسيوي - حيث مقر الكيان الصليبي إلى البعد الأفريقي الذي كان يعني بدايات التوسع الخارجي المستقبلي وتأمين وجود الغزاة في غربي آسيا بالأتجاه صوب الجنوب الغربي من خلال أراضي النيل.

فقد ارتبط التوجه الأفريقي في السياسة الصليبية التوسعية ارتبط بعدة إعتبارات, فهناك الاعتبار الخاص بوجود ملوك صليبيين أقوياء يتجهون صوب استكشاف إمكانيات التوسع الخارجي, ولا يكتفون بالحدود التي وصل إليها الملوك الأوائل خاصة مع تزايد الخبرة السياسية الإستعمارية (أي الاستخراية) للصليبيين وإدراكهم الأعماق لقوى الصراع المحلية في المنطقة ومدى فعاليتها وضعفها, ثم هناك ضعف مصر وهى الجار الجنوبي للكيان الغازي الدخيل وكذلك هناك الاعتبار الاقتصادية في صورة السيطرة على مصادر المياه, وكذلك طرق التجارة الدولية المارة بأفريقيا, خاصة التوابل والذهب والرقيق, ولذلك قام الملك عموري الأول بعدة حملات على مصر ذات ثقل عسكري وسياسي غير مسبوق في الصراع الصليبي - الإسلامي حتى ذلك الحين, ودخل في تنافس مع السلطان نورالدين محمود وإن أخفقت جهوده في تحقيق أهدافه, وحسم الأمر في ختام المطاف لمهندس حركة الجهاد الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي ونعني به نورالدين محمود ومن بعده تلميذه المجاهد الكبير صلاح الدين الإيوبي(95).

ولا ريب، في أن ما قام به الملك عموري الأول يعد أكبر حشد عسكري للتوجه الأفريقي في تاريخ الصليبيين في القرن الثاني عشر الميلادي، وجاء إخفاقه ليعكس أن آخر الملوك الصليبيين الكبار، عجز عن مد حدود السيادة الصليبية إلى ما وراء الحدود الفلسطينية المعروفة لمملكة بيت المقدس اللاتينية (96)، وبذلك نلاحظ أن الملكين قد نجحا في التوسع الآسيوي وفشلا أفريقيا .

ومع ذلك فهناك أوجه للاختلاف عديدة يمكن إجمالها كالآتي:

أولاً: فترة حكم الملك بلدوين الأول ثمانية عشر عاماً زاخرة بالإنجازات التي تتمثل في تأسيس مملكة صليبية على أرض بلاد الشام واضحة المعالم الجغرافية من نهر الأولى شمالاً إلى رأس خليج العقبة جنوباً، ومن مرتفعات الجولان وبحيرة طبرية ونهر الأردن شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، وتم في عهده إنشاء العديد من القلاع والحصون لتأمين هذا الوجود الذي عانى من مشكلة نقص العنصر البشري، بالإضافة إلى إسقاط معظم الساحل الشامي، وفي المقابل نجد أن الأعوام التي استغرقها الملك عموري إحدى عشر عاماً فقط أغلبها كانت محاولات للسيطرة على مصر ولكن جميعها كان بدون جدوى عسكرياً مع محاولاته للتصدي لنورالدين محمود وصلاح الدين الأيوبي.

ثانياً: في عهد الملك بلدوين الأول كان المؤرخون الصليبيون في مرحلة تمهيدية لهذا الكيان متمثلين في فوشيه الشارترى (97)، وألبرت دكس (98) وغيرهم من مؤرخي الحملة الصليبية الأولى، ولكن الملك عموري عاصره المؤرخ الكبير وليم الصوري (99) بما قدمه من كتاب جامع وشامل لتاريخ المملكة الصليبية وهو كتاب (تاريخ الأعمال

التي تمت وراء البحر *Historia Rerum in partibus transmarinis*

Gesterum الذي عهد الملك عموري إليه بتأليفه.

ثالثاً: كانت حركة الجهاد الإسلامي في عهد الملك بلدوين الأول في طور التكوين والنمو

وهى حركة الإفاقة الإسلامية والتي تمثلت في أتابك الموصل شرف الدين مودود (100) بحملاته أعوام 1111م, 1113م, وظهير الدين طغتكين صاحب دمشق, بينما في عهد الملك عموري الأول كانت حركة الجهاد على أشدها بفضل مهندس حركة الجهاد الإسلامي نورالدين محمود الذي ظهر كمنافس قوي في دمشق ضد الملك الصليبي وهذا ما أظهرته المصادر الإسلامية كقائد سياسي محنك له تأثير أعمق على مجريات الأحداث السياسية.

رابعاً: في عهد الملك عموري الأول نلاحظ أن الخبرة الإستعمارية قد زادت عما كانت في عهد الملك بلدوين الأول, فكل ملك يأتي يضيف إنجازات جديدة على إنجازات من سبقه من الملوك الصليبيين مما يؤكد فكرة أن المشروع الصليبي كان يعمل ضمن منظومة صليبية واحدة. منظورة ومتنامية نحو نهب الشرق وثرواته.

خامساً: لم ينجب الملك بلدوين الأول أولاداً ولذلك فقد تولى عرش المملكة من بعده قريبه بلدوين دي بور **Baldwin de Bourg** بلدوين الثاني), بينما أنجب الملك عموري الأول طفلين هما بلدوين الرابع والأميرة سبيل.

سادساً: في عهد الملك عموري نجد أن عناصر الفرسان من الاستبارية والداوية يعملون جانب إلى جانب مع الملك الصليبي في تأمين المملكة الصليبية بينما في عهد الملك بلدوين الأول لم نجد هيئات الفرسان الرهبان إلا في دور محدود وهو القيام بعمل خيرى علاجي في صورة فرسان المستشفى.

سابعاً: قام الملك بلدوين الأول بالاستيلاء على معظم الساحل الشامي, ماعدا مدينتي صور وعسقلان التي سقطت الأولى في عام 1124م وفي عهد الملك بلدوين الثاني وعسقلان في عام 1153م وفي عهد الملك بلدوين الثالث والتي كانت سبباً في توجه سياسة الملك عموري نحو مصر نتيجة لإغلاق الساحل الشامي, فكان ذلك

الحروب الصليبية – حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

مبرراً قوياً للإستيلاء على مصر جنوباً بما تملكه من مقومات استيراثية، وأدى ذلك إلى سرعة إسقاط الدولة الفاطمية (الشيعة) على يد القائد صلاح الدين الأيوبي فتحوّلت مصر إلى دولة سنية المذهب تابعة للخلافة العباسية. وهكذا؛ فقد اتفقا الملكان في بعض الجوانب، كما اختلفا في البعض الآخر، في عصر شهد الاختلاف والتصارع في العديد من الأصعدة والمستويات، غير أن الأمر المؤكد أنهما كانا من أبرز ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي. وذلك عرض عن الملك بلدوين الأول (1100-1118 م)، والملك عموري الأول (1163-1174 م) باعتبارهما ملكين صليبيين بارزين من عصر الحروب الصليبية من خلال رؤية مقارنة .

الهوامش

* أتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور م محمد مؤنس عوض الذي اقترح عليّ الموضوع وسمح لي بالمشاركة في تكريم أستاذنا العلامة ا.د. إسحق عبید

(1) اختلف المؤرخون في طريقة وفاة جودفري، فمنهم من يرى أنه مات بسهم أصابه في حصاره لعكا، ويرى البعض أنه مات مسموماً على أثر تناوله فاكهة قدمها له حاكم قيسارية المسلم، ويرى فريق ثالث أنه مات ميتة طبيعية. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز، ط. بيروت 1908م، ص138، علية الجنزوري، الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)، ط. القاهرة 1999م، ص278، حسن عبدالوهاب، تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، ط. الإسكندرية 1990م، ص88 هامش 57

Fink (H.), The Foundation of the Latin States 1099-1118, in Setton, A. History of Crusader, Vol. I, London 1969, P.379.

(2) الرهاوي، تاريخ الرهاوي المجهول، ترجمة الأب ألبير أبونا، ج2، بغداد 1986م، ص82.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ط6، القاهرة 1996م، ص224.

(4) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات في التاريخ المقارن، ط. القاهرة 2010م، ص79.

(5) هنادي السيد محمود، مملكة بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الأول، ط. القاهرة 2008م، ص40.

(6) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات في التاريخ المقارن، ص79.

(7) عن دور البندقية وجنوة وبيزا انظر شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ت: أحمد عزت عبدالكريم، ط. القاهرة 1948م، ص27-35، عفاف سيد صبره، العلاقات بين الشرق والغرب (علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من 1100-1400م)، ط. القاهرة

1983م, ص20, سامي سلطان سعد, أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية, رسالة ماجستير غير منشورة, كلية الآداب, جامعة القاهرة 1958م, أرشيبالد لويس, القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط, ت: أحمد محمد عيسى, ط. القاهرة 1960م.

(8) عن سقوط أرسوف انظر:

Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, Trans by Rita, Tennessee 1969, P.152; William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, Trans by Babcock and Krey, Vol. I, New York 1943, P.434;

ابن القلانسي, ذيل تاريخ دمشق, تحقيق أميدروز, ط. بيروت 1908م, ص139. أرسوف: مدينة تقع على ساحل فلسطين بين قيسارية Caesarea ويافا Joppa, وبعدت مسافة عشرة أميال إلى الشمال من يافا, وكانت المسافة بينها وبين قيسارية نحو ثمانية عشر ميلاً, ومن المحتمل أن أسم أرسوف Arsuf مشتق من اسم الإله السامي رسيف Reseph وسميت أرسوف في المصادر الجغرافية الأوروبية في القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري بعدة أشكال, فهي أحياناً: Atsuph, أو أزوتس Azotus, أو أرسور Arsur, أو تارسوف Tarsuf, للمزيد من التفاصيل انظر محمد مؤنس أحمد عوض, في الصراع الإسلامي - الصليبي (معركة أرسوف 1191م/587هـ), ط. القاهرة 1997م, ص7-8.

(9) Fulcher of Chartres, PP. 153-154; William of Tyre, Vol. I, PP.485-486.

(10) ابن القلانسي, ذيل تاريخ دمشق, ص139, اليافعي, مرأة الجنان وعبرة اليقطان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان, تحقيق خليل منصور, ج3, ط. بيروت 1997م, ص119, المقرئزي, اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء, تحقيق محمد حلمي محمد, ج3, ط. القاهرة 1996م, ص26, ابن كثير, البداية والنهاية, ج6, القاهرة

1991م، ص 655.

(11) William of Tyre, Vol. I, P. 453; Stevenson, The Crusaders in the East, Beirut 1968, P.46.

تقع عكا على خط عرض 55° 35 شمالاً، وعلى خط طول 35 04 شرقاً أقيمت على موقع يساعد على الدفاع عنها بسهولة وقوعها بين رأس النافورة وجبل الكرمل، وتلال الجليل ومستنقعات النعامين، كما كانت ميناء لخوران والجليل وغيرها من البلاد المجاورة مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج 5، ق 2، كفر قرع 1991م، ص 188.

(12) عن سقوط عكا انظر:

Fulcher of Charters, P.176; William of Tyre, Vol, I, PP.454-456.

(13) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين، ج 5، ط. بيروت 1992م، ص 168.

(14) حاتم الطحاوي، "القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية... قراءة في مجموعة قوانين بيت المقدس"، مجلة كلية الآداب، العدد 58، جامعة القاهرة 1998م، ص 484.

(15) هنادي السيد محمود، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد بلدوين الأول، ص 55.

(16) أسامة سيد على، الساحل الشامي في القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس 1992م، ص 86.

(17) جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ط 2 القاهرة 1999م، ص 240، سيجورد هو أحد ملوك النرويج خلال الثلث الأول من القرن الثاني

عشر الميلادي/السادس الهجري، وسيجورد الأول Nagnusson ويسمى The Crusades Sigurd Jerusalem Forer وهو ابن الملك النرويجي ماجنوس

الثالث Magous III (1103م/498هـ)، وقد ولد في عام 1090م/485هـ، وقد حكم النرويج خلال المرحلة من 1103-1130م/498-525هـ، انظر محمد مؤنس

عوض، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، ط. عمان 1992م، ص 9.

The Saga of Sigurd the Crusader (1107-1110), in Wright, Early Travels in Palestine, London 1848, PP.50-57; Knut Gierset, History of the Norwegian People, New York 1927, P.312.

(18) هنادي السيد محمود, مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول, ص59-61. نقلاً عن بحث محمد مؤنس عوض السالف الذكر .

(19) ابن الأثير, الكامل في التاريخ, تحقيق محمد يوسف الدقاق, ج9, ط3 بيروت 1998م, ص228-229, عفاف سيد صبره, دراسات في تاريخ الحروب الصليبية, ط. القاهرة 1985, ص337, صفاء عثمان, مملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثاني, ط. القاهرة 2008م, ص113.

(20) عبداللطيف عبدهادي السيد, الحركة الصليبية عصر بلدوين الثالث 1143-1163م, ط. القاهرة 2006م, ص127.

(21) Fulcher of Chartres, 163-164, 168-172;

أسامه زكي زيد, "حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين في عهد الوزير الفاطمي الأفضل", مجلة كلية الآداب, م9, جامعة الإسكندرية 1981-1982م, ص38-66.

(22) محمد مؤنس عوض, الحروب الصليبية دراسات في التاريخ المقاوم, ص81.

(23) العيني, عقدا لجمان, الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية, ج24, دمشق

1995م, ص50, عبد الحميد زايد, القدس الخالدة, ط. القاهرة 1974م, ص217,

محمود الحويري, بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين, ط. القاهرة

1992م, ص68, جمال محمد حسن زنكي, إمارة دمشق في المرحلة المبكرة للحروب

الصليبية, ص67-68؛

John L. Monte, Crusade and Jihad in the Arab Heritage, New Jersey 1944, P.169; Fink, Mawdud I of Mosul, Precursor of Saladin, The Muslim Word, Vol. XL III, 1953, P.23; Hadia Dajani Shakeel, Diplomatic Relations

Between Muslim and Frankish Rulers 1097-1153, A.D, in Crusades and Muslims in Twelfth Century Syria, New York 1993, P.204.

(24) ابن واصل الحموي, التاريخ الصالحى , الموسوعة الشامية, ج 21, دمشق 1995م, ص 456, العماد الحنبلي, شذرات الذهب في أخبار من ذهب, ج 3, القاهرة 1350م, ص 21, ابن الجوزي, المنتظم في تاريخ الأمم والملوك, تحقيق محمد عبدالقادر عطا, مصطفى عبدالقادر عطا, ج 17, ط. بيروت 1992م, ص 123, ميخائيل السرياني, تاريخ مار ميخائيل, ت: مارغريغوريوس صليبا شمعون, ط. دمشق 1996م, ص 186, عماد الدين خليل, المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي عصر ولاية السلاجقة في الموصل 489-521هـ/1095-1127م, ط. الرياض 1981م, ص 50, أمين توفيق الطيبي, دراسات في التاريخ الإسلامي, ط. طرابلس 1992م, ص 11, محمد عبدالله المقدم, الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية, ط. القاهرة 2009م, ص 97.

(25) محمد مؤنس عوض, العلاقات بين الشرق والغرب, ط. القاهرة 1999-2000م, ص 102.

(26) Savigna (M.R) Ou Airab. Paris 1903, 118;

وقد عرف حصن الشوبك أيضاً باسم الجبل المملوكي Montroyal

Fulcher of Charters, P.218;

زكي النقاش, العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنجة خلال الحروب الصليبية, ط. القاهرة 1958م, ص 270, فيليب حتى, تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين, ت: كمال اليازجي, ج 2, ط. بيروت 1959م, ص 23.

(27) حسن عبدالوهاب, مصر وأمن البحر الأحمر, ضمن كتاب مقالات وبحوث التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية, ط. الإسكندرية 1997م, ص 195؛

Atiya (A.S.), Crusade, Commerce and Culture, London 1962, P.65.

(28) أحمد رمضان, شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى, ط. القاهرة 1977م, ص65-66.

(29) حسن عبدالوهاب, مصر وأمن البحر الأحمر, ص195.

(30) William of Tyre, Vol. II, P.512.

(31) محمد مؤنس عوض, الحروب الصليبية دراسات في التاريخ المقارن, ص82.

(32) عن مستوطنة البيرة, انظر:

Pringle, Magna Mahumeria (al-Bira): "The Archaeology of a Frankish New Town in Palestine" in Crusade and Settlement, ed. Peter Edbury, Cardiff 1985, PP.147-168;

محمد مؤنس عوض, أضواء على مستوطنة البيرة الصليبية, ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات, ط. القاهرة 2005م, ص53-75.

(33) Hamilton (b.), The Latin Church in the Crusades States, London 1980, P.91.

(34) هنادي السيد محمود, مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول, ص215.

(35) William of Tyre, Vol. II. P.296-298.

(36) william of Tyre, Vol. II. P.295;

حجازي عبدالمنعم, السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول (1163-1174م), رسالة دكتوراه غير منشورة, كلية الآداب, جامعة المنوفية 2006م, ص69.

(37) Emoul, Le Chronique d' Ernoul et de Bernard Le Tresorier, (ed.) Mas Latrie, (Paris 1871). P.14;

حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص70.

(38) William of Tyre, Vol. II, P.279.

(39) حجازي عبدالمنعم, السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري

الأول, ص 71.

(40) William of Tyre, Vol. II, P. 295, Amatrici, Hiero Solymorum Regis, ad. Ludovicum, In RHGF, T. X VI, PP.36-37.

(41) سعيد عاشور, الحركة الصليبية, ج 1, ص 531.

(42) عن أغراق الدلتا أنظر: ياقوت الحموي, معجم البلدان, ج 5, بيروت, ص 335.

(43) Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF. T. XVI. PP.187-188;

حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص 81.

(44) سعيد عاشور, الحركة الصليبية, ج 1, ص 531.

(45) المقرئزي, اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء, تحقيق محمد حلمي أحمد, ج 3, القاهرة 1973م, ص 26.

(46) ابن شداد, النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية, تحقيق جمال الدين الشيال, القاهرة 1964م, ص 23, أبو شامة, الروضتين في أخبار الدولتين, تحقيق محمد حلمي أحمد, ج 1, ق 1, ط. القاهرة 1998م, ص 329-337, ابن العديم, زبدة الحلب في تاريخ حلب, تحقيق سامي الدهان, ج 2, ط. دمشق 1945م, ص 315-316.

(47) حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص 83.

(48) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين, ج 1, ق 2, ص 418-419, المقرئزي, اتعاظ الحنفا, ج 3, ص 265-267.

(49) حجازي عبدالمنعم, السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول, ص 83.

(50) ابن شداد, النوادر السلطانية, ص 23.

(51) المقرئزي: اتعاظ الحنفا, ج 3, ص 280.

(52) Aymerici, Patriarchae Antiocheni, ad. Ludovicum, in

RHGF, T. XVI, PP.61-62;

- حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص 85.
(53)المقريزي: اتعاظ الحنفا, ج 3, ص 264.
(54) كانت صدر قلعة مهجورة خربة بين القاهرة وأيلة, انظر هامش المقريزي: اتعاظ الحنفا, ج 3, ص 299.
(55)المقريزي: اتعاظ الحنفا, ج 3, ص 266-267, حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص 85.
(56)المقريزي: اتعاظ الحنفا, ج 3, ص 267-273, حجازي عبدالمنعم, السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد عموري الأول, ص 86.
(57)William of Tyre, Vol. II, P.305.
(58)المقريزي: اتعاظ الحنفا, ج 3, ص 273-278, أبو شامه: الروضتين, ج 1, ق 2, ص 420-421.
(59)William of Tyre, Vol. II, P.305.
(60)ابن شداد, النوادر السلطانية, ص 23, أبو شامه, الروضتين, ج 1, ق 2, ص 332-337.
(61)سعيد عبدالفتاح عاشور, الحركة الصليبية, ج 1, ص 531.
(62)حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص 87.
(63)William of Tyre, Vol. II, P.305-306; Amalrici, Regis Hierusalem, ad. Henricum, in RHGF, T. XVI, PP.187-188.
(64)سعيد عاشور, الحركة الصليبية, ج 1, ص 532.
(65)ابن تعزي بردي, النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة, ج 5, ط. القاهرة 1936م, ص 347-348, المقريزي: اتعاظ الحنفا, ج 3, ص 277-278, ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل, تحقيق عبدالقادر طليمات, ط. القاهرة 1963م, ص 122.

- (66) سعيد عاشور, الحركة الصليبية, ج 1, ص 532.
- (67) المقرئزي: اتعاظ الحنفا, ج 3, ص 277.
- (68) حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص 93.
- (69) نفسه, نفس الصفحة.
- (70) المقرئزي, اتعاظ الحنفا, ج 3, ص 82, أبو شامة, الروضتين, ج 1, ق 2, ص 363-364, ابن الأثير, الكامل في التاريخ, ج 9, ص 94-95,
- William of Tyre, Vol. II, P.313-314.
- (71) حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص 95.
- (72) William of Tyre, Vol. II, P.317-318.
- (73) William of Tyre, Vol. II, P.325-333.
- (74) William of Tyre, Vol. II, P.333-335.
- حجازي عبد المنعم, المرجع السابق؛ ص 100.
- (75) ابن تعزي بردي, النجوم الزاهرة, ج 5, ص 273, أبو شامة, الروضتين, ج 1, ق 2, ص 426-427.
- (76) حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص 102.
- (77) ابن الأثير, الكامل في التاريخ, ج 9, ص 95-96, المقرئزي, اتعاظ الحنفا, ج 3, ص 248؛
- William of Tyre, Vol. II, P. 335.
- (78) حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص 102.
- (79) William of Tyre, Vol. II, P.337.
- (80) البنداري, سنا البرق, ص 21,
- William of Tyre, Vol. II, P.334-337.
- (81) حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص 106.
- (82) حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص 107-108.
- (83) William of Tyre, Vol. II, P.349-350.

- (84)المقريري, اتعاظ الحنفا, ج3, ص191-192؛
William of Tyre, Vol. II, P.350-351.
- (85)ابن الأثير, الكامل في التاريخ, ج9, ص99.
(86)حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص138.
(87)نفسه, نفس الصفحة .
(88)عن تحركات صلاح الدين تجاه الداروم أنظر:
William of Tyre, Vol. II, P.370-374.
- (89)William of Tyre, Vol. II, P.373-376.
(90)أبو شامة, الروضتين, ج1, ق2, ص489-491.
(91)المقريري, الخطط, ج1, ص521-522, علي أحمد السيد, استرداد صلاح الدين الأيوبي أيلة من الصليبين عام 1170م/566هـ, ضمن كتاب بحوث في تاريخ العصور الوسطى, ط. الإسكندرية 2004م.
(92)حجازي عبدالمنعم, المرجع السابق, ص183.
(93)ابن العديم, زبدة الحلب, ج2, ص337.
(94)عن حملته على مصر انظر:
- Fulcher of Chartres, P.221; William of Tyre, Vol. I, P.515.
(95)محمد مؤنس عوض, عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات, ط. القاهرة 2005م, ص96.
(96)محمد مؤنس عوض, عالم الحروب الصليبية, ص96.
(97)ولد فوشيه بمدينة شارتر الفرنسية في الفترة الواقعة بين عامي 1058-1059م, واشترك في الحملة الفرنجية الأولى في شهر أكتوبر 1096م, وكان مرافقاً لبلدوين الأول, وأقام معه في الرها حيث كان يحكمها نحو عامين, ثم انتقل معه إلى بيت المقدس, وبقي

ملازماً له حتى عام 1118م ثم أن فوشيه مكث في بيت المقدس حتى عام 1127م.
Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, Trans by Frances Rita Ryan, with an Introduction by Harold, S. Fink, Konuville, U.S.A 1969;
السيد الباز العريني, مؤرخوا الحروب الصليبية, ط. القاهرة 1962م, ص 37-44, جوزيف نسيم يوسف, العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى, ط. الإسكندرية 1963م, ص 6-8.

(98) ينتمي ألبرت إلى مدينة أكس لاشبيل Aix La Chapelle أو آخن الألمانية Aachen - وكان هذا المؤلف كاهناً, أميناً لكنيسة أكس, ولم تمدنا المصادر الغربية المتوافرة أو المراجع الحديثة معلومات أخرى عن اسمه الكامل أو عن أسرته, كما أن المصادر لم تشر إلى تاريخ ولادته أو وفاته عن ذلك أنظر: السيد الباز العريني, مؤرخو الحروب الصليبية, ص 86-98, جوزيف نسيم, العرب واللاتين, ص 10-11.

(99) ولد وليم الصوري في بيت المقدس عام 1130م, وهو ينتمي لأسرة فرنسية شاركت في الحملة الصليبية الأولى, وقد عاش هذا المؤرخ فترة شبابه في الشرق الإسلامي, واتفق اللغة العربية واليونانية واللاتينية والفرنسية, وتنقل وهو في مقتبل العمر بين مدن باريس وشارتر لتلقي العلم. ثم توجه إلى إيطاليا وعاد إلى الأراضي المقدسة بعد عشرين عاماً, وعمل وليم الصوري في خدمة الملك عموري الأول, وعمل مريباً لأبنة بلدوين الرابع المجزوم في الوقت الذي أخذ فيه المناصب حتى أصبح مستشاراً للمملكة الصليبية ورئيساً لإساقفة صور عام 1174م, كما تم تكليفه بمهام رسمية وسفارات مهمة ومن المرجح أن وليم الصوري مات عام 1184م. أنظر:

Krey, William of Tyre the making of an Historian in the Middle Ages, in "S.", Vol XVI, 1947, PP.149-166; Crowford, "William of Tyre and Maronites," P.222-228,

عمر كمال توفيق, المؤرخ وليم الصوري, مجلة كلية الآداب, جامعة الإسكندرية, م (21), 1967م, ص 181-200.

(100) عن شرف الدين مودود أنظر:

جريمة القتل في المجتمع الصليبي
ببلاد الشام في القرنين 12-13م

دكتور / أحمد عبد الله أحمد
جامعة عين شمس

جريمة القتل في المجتمع الصليبي ببلاد الشام في القرنين 12-13م

يتناول هذا البحث بالدراسة جريمة القتل في المجتمع الصليبي ببلاد الشام، من حيث دوافع تلك الجريمة الخطيرة التي انتشرت بشكل واضح بين الصليبيين، وتنوع تلك الدوافع ما بين سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها من الدوافع الأخرى المختلفة، كما يناقش الفصل حالات القتل الفردي والجماعي بين الصليبيين، والأساليب المختلفة التي استخدمت في تنفيذ تلك الجريمة.

وفيما يتعلق بتعريف جريمة القتل ودوافعها، فقد عرف القتل اصطلاحاً: بأنه اعتداء إنسان على إنسان عمدًا بقتله، أو إزهاق روح إنسان عمدًا، أو بأنه اعتداء على حياة الغير تترتب عليه وفاته (1).

وقد اختلفت دوافع جريمة القتل، وذهب المفكرون الاجتماعيون وعلماء الإجرام في تفسيرهم لذلك السلوك الإجرامي مذاهب شتى، إلا أنهم عزوه في إجماله إلى مجموعتين بعينهما من العوامل الشخصية (الداخلية)، والعوامل البيئية (الخارجية). فالعوامل الشخصية: تتعلق أساسًا بشخصية الفرد وظروفه التكوينية من حيث الوراثة والبناء العضوي والعقلي والنفسي، ينتج عنها أن يكون هناك أناس لديهم استعداد - أكثر من غيرهم - للانحراف والإجرام.

وتندرج العوامل النفسية إلى قائمة العوامل الشخصية للقتل، فقد يكون الجاني مصابًا بجنون العظمة وحب التكبر، مما يجعل قلبه يمتلئ بالكراهية والحقد تجاه الآخرين، مما يؤدي إلى إصابته بالعتة والجنون، فيصيب من حوله بالأذى، ولذلك كان للعامل النفسي دور مهم في تحليل جرائم القتل التي وقعت داخل المجتمع الصليبي، فمن الصعب تجاهل ذلك العامل عند البحث عن الأسباب التي أدت إلى ارتكاب جرائم القتل، فالعوامل النفسية كالحقد والحسد قد تدفع الإنسان إلى قتل أقرب الناس إليه (2) وكان لذلك العامل النفسي

تأثير كبير في جرائم القتل التي وقعت في المجتمع الصليبي .
أما العوامل البيئية: فهي التي تتعلق بكل ما يقع على الفرد من ضغوط خارجية تدفعه إلى ارتكاب هذا السلوك، وهذه العوامل البيئية متعددة بدورها:
فمنها ما يتعلق بالبيئة الفيزيائية(3)، وما قد تتسم به من عزلة وهدوء وقلة سكان ومحدودية حركة، أو شدة زحام وكثافة سكان وسرعة حركة، ومنها ما يتعلق بالبيئة السياسية وغياب الديمقراطية والحرية وسيادة التحكم والتسلط وممارسة رذيلة الاضطهاد لسبب أو لآخر، ومنها ما يتعلق بالبيئة الاجتماعية ممثلة في الأسرة وما تتعايش معه من عدم توافق وتفكك أسري وفساد ومصاحبة رفاق السوء وتأثيرها السلبي على الفرد (4) .
وقد انطبقت العوامل السابقة إلى حد كبير على المجتمع الصليبي وتكوينه، وساعدت كثيراً في انتشار جرائم القتل بشكل موسع بين مختلف طبقاته وبطرق متباينة كما سنرى، بل وضع أيضاً استعداد عناصر ذلك المجتمع لارتكاب تلك الجريمة نتيجة لتكوينه المتعدد الجنسيات وصراعاتهم الداخلية.

ويعد الطمع في المناصب أو القفز على كرسي الحكم من دوافع جريمة القتل داخل المجتمع الصليبي، وهو ما شاهدناه في المرحلة المبكرة من الاحتلال الصليبي لأراضي المسلمين خاصة ببلاد الشام(5)، وعلى مدار تاريخهم في المنطقة على مدة قرنين من الزمان .
وكذلك من دوافع جريمة القتل، الصراع على تأكيد التبعية، وهو ما كان يحدث بين الأمراء الصليبيين، وكانت تقوم بسببه حروب طاحنة بينهم، مما كان يعرض المملكة الصليبية للخطر الدائم وعدم الاستقرار الداخلي(6)، ويضاف إلى ذلك أن المجتمع الصليبي احتوى على العديد من القتلة الأوربيين الذين استجابوا لدعوات المبشرين للحروب المقدسة - من وجهة نظرهم- في بلاد الشام، وذلك مثل صدمة كبيرة للعديد من الصليبيين الذين صاحبوا الجيوش الصليبية، وكانت حجتهم في مصاحبة الجيوش الصليبية هو التوبة عما اقترفوه من ذنوب جرائمهم(7)، غير أنهم بمجرد وصولهم لبلاد الشام واستقرارهم بها، وجدوها فرصة سانحة لكي يمارسوا جرائمهم من جديد، ولكن هذه

المرّة ضد بعضهم البعض (8).

وبالمقارنة بين العوامل الطبيعية والعوامل الشخصية التي وقفت وراء جريمة القتل، فالعوامل الطبيعية كان تأثيرها محدودًا وفي أوقات معينة كانت تدفع أولئك المجرمين لارتكاب جرائمهم، أما العوامل الشخصية فكانت أكثر تأثيرًا في انتشار جريمة القتل، والتأثير على المجرمين بصورة كبيرة حتى يقدموا علي مثل تلك الجرائم، فقد لازمتهم صفة الإجرام حتى مع استقرارهم في بلاد الشام وبعدهم عن وطنهم الأم في الغرب الأوروبي، وجاء نسلهم مكملًا لهم فكانوا قتلة آخرين، تنطبعا بصفات آبائهم على الرغم من تغير مستوى معيشتهم في بلاد الشام عن وضع آبائهم الاقتصادي في الغرب الأوروبي .

ويعد الدافع السياسي من الدوافع التي كان لها باع طويل في تفشي القتل داخل المجتمع الصليبي، فمصطلح الاغتيال السياسي يعني التخلص من الأشخاص والجماعات لدوافع سياسية مرتبطة باختلاف في الفكر والأيدلوجية عند الأفراد والجماعات (9)، ولذلك كان تأثير الدافع السياسي داخل المجتمع على جانب كبير من الأهمية، تلك التي جعلت الملوك والنبلاء الصليبيين يشتركون فيها .

وكان من أهم دوافع جريمة القتل داخل المجتمع الصليبي ببلاد الشام، الصراع بين رجال الدين ورجال السياسة، ومحاولات رجال الدين المستمرة التدخل في شئون الحكم، وتحليلهم عن دورهم الديني في وعظ وإرشاد الرعية، بل ولجوؤهم إلى استخدام القتل في التخلص من رجال السياسة (10)، بل وصل الأمر إلى حد انتشار ظاهرة فوضى القتل، فقد أصبحت جريمة القتل من عادات الصليبيين لتصفية الخلافات فيما بينهم، حتى لقد اعتبرها بعض مؤرخيهم من أسباب هزيمة الصليبيين في معركة حطين 1187م، وكان ذلك لكثرة إراقة الدماء بين صفوف الصليبيين (11)، وغيرها من الدوافع الأخرى التي سوف ترد في هذا الفصل.

وفيما يخص القتل كوسيلة لتصفية الخلافات السياسية، فقد بدأت تلك الجرائم مع

بداية تواجد الصليبيين بالمنطقة، ومنها ما قام به بلدوين الأول Baldwin I de

Bouillon في مدينة الرها Edessa، فعندما تقدمت الجيوش الصليبية تجاه بلاد الشام، انفصل بلدوين بجيشه واتجه إلى بلاد العراق، حيث مدينة الرها الأرمينية، وكان يحكم المدينة رجل يدعى توروس Toros (12) أو ابن هيثوم Het'um (13) وقد رحب توروس ببلدوين واتخذه وريثاً له في الحكم واشركه معه، غير أن الخلافات سرعان ما دبت بين الطرفين عقب عودة بلدوين من حملته من مدينة سمسياط. وقد استغل بلدوين كره الاهالي وزعماء الأرمن لتوروس، فقام بتحريكهم ضده وإن كان الوضع لا يحتاج لمحرك ضد توروس، فقد كان شخصية مكروهة (14)، ويضاف إلى تلك العوامل عداء قسطنطين بن روبين (15) أمير جرجر (16) لتوروس، والذي قام بتدبير مؤامرة ترمي إلى عزله، وعلى الرغم من علم بلدوين بتلك المؤامرة، غير أنه لم يحرك ساكناً، ولم يقدم المساعدة لتوروس عندما هاجمه الثوار وفتكوا به في 7 مارس 1098م، فقد حاول الهرب من الثوار، إلا أن سهامهم نالت منه (17)، ورواية أخرى تقول إنهم سحلوا جثمانه في الشوارع وقطعوا رأسه (18)، إلا أننا لا يمكن أن نبرأ بلدوين تماماً من تهمة المشاركة ولو بنصيب محدود في تحريض الثوار، أو على الأقل من تهمة التفريط في حياة توروس، وعدم القيام بواجبه كاملاً في حمايته، وبعد ذلك تولى هو حكم الإمارة (19).

وعلى الرغم من اختلاف الروايات التاريخية حول مقتل توروس حاكم الرها، إلا أنها أجمعت على أن بلدوين كان له نصيب كبير في تلك الجريمة، بل أنه كان المحرض الأول لها، خاصة بعدما جعله توروس خليفة له في الحكم، بل إن بلدوين هو القاتل الحقيقي لتوروس، وذلك طمعاً منه في الفوز بحكم الرها، وتأسيس إمارة صليبية بها، وذلك على الرغم من عدم اشتراك بلدوين في مهاجمة توروس، إلا أنه لم يقيم بتحذيره أو الدفاع عنه في الوقت الذي علم فيه بتدبير مؤامرة لقتله .

أما عن جرائم القتل التي كانت تتم بدافع التبعية، فمنها ما حدث عندما تولى برتراند Bertrand of Tripoli (1109- 1112) حكم إمارة طرابلس، وعمل على تأكيد تبعيته لملك بيت المقدس، وفي الوقت نفسه تناسى وعوده العريضة

للإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين (Alexius Comnena) (1080-1118م) عندما كان في ضيافته بالقسطنطينية. غير أن إمارة طرابلس ولدت ممزقة من الأساس، فبينما تولى برتراند حكم طرابلس، استولى وليم جوردان (William of Jordan) (21) على أنظرطوس (22) وعرقه (23)، وبذلك يكون قد تقطع أوصال الإقليم الواحد، مع ما نتج عنه من حزازات بين الجانبين، يضاف إلى ذلك اختلاف اتجاه الحكامين وتوزيع ولائهما توزيعاً متضاداً، فبينما اعترف برتراند أمير طرابلس بالتبعية لملك بيت المقدس، إذا بوليم جوردان صاحب أنظرطوس وعرقه، يقدم ولاءه لأمير أنطاكية، وقد كانت جميع تلك الظواهر وغيرها لا تبشر بخير، وأندرت بالصدام بين الرجلين، غير أن القدر لم يمهل وليم جوردان، فقد تم اغتياله، واختلفت المصادر في ذكر طريقة قتله، فقبل إنه قتل بسهم أطلق بالمصادفة ودون تدبير (24)، بيد أحد رجاله في ظروف غامضة وذلك في عام 1109م، وقد أشارت إليها المصادر الصليبية إشارة مقتضبة غير واضحة. (25)

وقد عدت جريمة قتل وليم جوردان من الجرائم التي لم يوجد لها تفسير، وخاصة في فترة صراعه مع برتراند حول أمر التبعية، ومما زاد من غموض تلك الجريمة، أن المصادر الصليبية لم تمدنا بالمعلومات الكافية عنها، غير أن ذلك لا ينفي التهمة عن برتراند كلياً، فمن مصلحته التخلص من وليم جوردان، حتى يستولي على أملاكه، وتكتمل سيطرته على إمارة طرابلس، وحتى لا ينازعه أحد في ملكه.

ويضاف إلى ذلك، أن العلاقة بين مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية ببلاد الشام لم تأخذ شكلها النهائي من حيث تبعية الإمارات للمملكة، مما أدى إلى توزيع ولاء صغار الأمراء الصليبيين بين كل من حكام الإمارات الصليبية وبين ملك مملكة بيت المقدس، فأدى ذلك إلى حدوث صدامات فيما بينهم، وبالتالي حدوث خلل في الجانب السياسي.

ومن حوادث القتل السياسي الشهيرة، جريمة قتل ميلون دي بلانسي (Milon de Plancy) (1174م) (26)، فقد تم اختيار ميلون وصياً للعرش على الملك الصليبي القاصر بلدوين الرابع 1174م، وعندما تولى المنصب أظهر ازدراءه لبارونات المملكة حتى لمن

علاه قدرًا منهم ولم يقيم لهم وزنًا (27)، ونتيجة لذلك تعرض ميلون لمناوأة الحزب المعارض، ونشأت عداوة خطيرة بين هذا النبيل وبين بعض بارونات المملكة، ورفضوا التعاون معه ولم يجتمعوا به واحتقره الجميع (28)، فقد كان رجلاً متغطرًا، وعندما أراد التغلب على غيرة الأمراء الآخرين منه، رجع إلى نكرة من غمار الناس يدعى روهارد حارس قلعة القدس، وتظاهر بأنه يمثل لتوجيهات هذا الرجل التافه (29)، واستأثر بالسلطة والإشراف على شئون المملكة تمامًا (30)، ثم لم يلبث أن ظهر معارض قوي لميلون وهو ريموند الثالث أمير طرابلس، والذي كان أسيرًا لدى نور الدين محمود من سنة 1164م، وحتى عام 1172م، ثم تم الإفراج عنه، واستغل محبة الأمراء له في المطالبة بأحقية في الوصاية على ملك بيت المقدس بلدوين الرابع (31).

ونتيجة لسياسة ميلون الخاطئة، حيث كان يقوم بتصريف شئون المملكة حسب هواه، كما أنه كان يوزع الإنعامات وفق ما شاء، مما أثار بذلك سخط الكثيرين عليه ونقمتهم له، حتى وصلت الأمور إلى طريق مسدود (32). نتيجة لذلك تأمر البعض سرًا للقضاء عليه، وعندما علم بتلك المؤامرة لم يهتم واستمر في تصرفاته الطائشة، وفي أحد الأيام وبينما هو يسير في أحد شوارع مدينة عكا الصليبية، طعنه شخص مجهول طعنة نافذة أودت بحياته وذلك في حريف عام 1174م، وقد اختلفت الآراء في سبب مقتله، فهناك رأي يقول إنه قتل نتيجة ولاءه الشديد للملك بلدوين الرابع، ورأي آخر يقول إنه قتل بسبب أنه كان يرتب في السر الخطوات للاستيلاء على زمام السلطة الملكية، حتى أشيع أنه أرسل إلى أقربائه في فرنسا لكي يحضروا إلى مملكة بيت المقدس الصليبية، حتى يكونوا عونًا له في تنفيذ رغباته (33).

وبتحليل تلك الجريمة، يرجح أن سبب مقتل ميلون هو استنثاره بالسلطة، وسوء استخدامهما، وفيما يبدو أن منصب الوصي على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، كان يغري الأمراء الصليبيين بفعل أي شيء من أجل الفوز بهذا المنصب، حتى ولو كان ذلك الشيء هو ارتكاب جريمة القتل لإزاحة المنافسين لهم عن الساحة، ويضاف إلى ذلك

مساعدة ميلون لقاتليه في تنفيذ جريمتهم، من خلال عدم اتخاذه لنفسه حراسة تحميه من غدر أعدائه، فرما تصور أنه لن يستطيع أي من معارضيه إصابته بأي أذى.

وبمقتل ميلون قام ريموند الثالث بالوصاية على مملكة بيت المقدس الصليبية وملكها الصغير (34)، غير أن قضية مقتل ميلون لم تنته عند هذا الحد، فلقد سارعت ستيفاني Stephanie ووريثة وادي عربية (35)، وأرملة ميلون دي بلانسي، باتهام ريموند الثالث Raymond III of Tripoli (36)، بالوقوف وراء اغتيال زوجها، ومع أن هذا الاتهام مبني على العداوة المستمرة التي كانت قائمة بين الرجلين، إلا أن هناك احتمال آخر وهو ذهاب ميلون ضحية عدم الاعتراف بالجميل ونتيجة لغضب سادة بيروت عليه، فعندما كان ميلون أسيراً قام الأمراء ببيع إقطاعياتهم من أجل إطلاق سراحه، ويبدو أن ميلون جرياً على عادته في التكبر ونكران الجميل والغرور لم يأبه بهم ولا بصنيعهم له، مما دفعهم للانتقام منه. (37)

ومن الجدير بالذكر أن عدم وجود دليل مادي يدين أحدًا بقتل ميلون، أدى إلى عدم معرفة قاتله، بالإضافة إلى إلحاق تهمة قتله بمعارضيه دون بينة.

وقد شهد القرن الثالث عشر الميلادي، من جرائم القتل، حيث تدهورت وانعدمت العدالة، فقد كانت دائماً بجانب الأقوى، لذا فقد انتشر الظلم في غياب الحق والعدالة، وسيطرة رجال الكنيسة ورجال الدين، وتبعيتهم للبابا الذي كان يأمر بفرض الضرائب الباهظة التي كانت تعود للكنيسة في نهاية الأمر، وشهدت تلك الفترة انتشار الفساد والقهر (38)، ويتضح من ذلك أن تلك الأوضاع التي مرت بها الإمارات الصليبية ببلاد الشام، كانت نتيجة حتمية لانهيار الأوضاع السياسية بداخل تلك الإمارات، وضعف قبضة السلطة المركزية .

ومن أشهر تلك الجرائم ما حدث عام 1219م، للأميرة ستيفاني ابنة ليو الأول الأرمني Leo I of Armenia (39)، (1198-1219م) فقد تزوجها جون أوف برين John of Brienne عام 1214م، وكان عنده ابنة تدعى يولاند، وكان

جون هو الوصي عليها حتى تبلغ السن القانونية لتولي العرش، غير أن ستيفاني أثبتت أنها زوجة أب سيئة، فقد عاملت الطفلة يولاند بقسوة، بل وحاولت وضع السم لها للتخلص منها، وعندما علم جون ذلك أخذ يبرح ستيفاني ضربًا لمحاولتها قتل ابنته حتى ماتت على أثر ذلك (40).

ويرجح مما قام به جون مع زوجته ستيفاني أنه كان شديد القسوة، نظرًا لكبر سنه مقارنة بزوجه صغيرة السن، ويظهر مدى تعلق جون بابنته يولاند، حتى أنه لم يتحمل معاملة زوجته القاسية لها، فأوسعها ضربًا حتى الموت، ولم يضع في حساباته أي اعتبار لما قد يجره ذلك من خلافات خارجية بين المملكة الصليبية والأرمن .

وكما قتل ريموند بن بوهمند الرابع أمير طرابلس، ننبه في البداية إلى أن سياسة بوهمند بعدما تسلم حكم الإمارة كانت تجنح إلى السلم والهدوء، غير أن حادث مقتل ولده كان له تأثير في تعكير صفو حياته، فلقد أقدمت جماعة الحشاشين على اغتيال ريموند بن بوهمند الرابع وذلك عام 1213م، في كاتدرائية العذراء المباركة بأنطربوس (41)، وبذلك اتخذت الحرب الدائرة بين الصليبيين والإسماعيلية منعطفًا خطيرًا بعد تلك الجريمة (42)، وعلى الرغم من أن المصادر لم تشر إلى السبب الرئيسي وراء تلك الجريمة، إلا أنه يبدو أن جماعة الإسماعيلية وراء تلك الحادثة (43)، لما كان بينهم وبين بوهمند الرابع من عداوة واضحة (44)، ويلاحظ أن الإسماعيلية قد لوحوا للإسماعيلية بإعفائهم من الفدية المفروضة عليهم في مقابل قتل ريموند بن بوهمند الرابع (45)، وعلى الرغم من ذلك فقد آثر بوهمند أن ينتقم من الحشاشين، وألا يسعى للنيل ممن حرضهم على ما فعلوه وبخاصة أنه لم يكن لديه أي دليل يؤكد شكه فيهم (46)

ومن الملاحظ أن الصراع تطور بشكل واضح بين الفرق الرهبان الفرسان الصليبيين وأمراء الصليبيين، فقد حاولت تلك الفرق الاستقلال بشؤونها عن غيرها من القوى السياسية، بل وتطور الوضع بها إلى الخروج على تعاليمها واستخدام العنف في البطش بخصومها، حتى لو أدى إلى ارتكابهم الجرائم، ولو باستخدام عناصر الحشاشين في البطش

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

بأعدائهم حتى ينفوا التهمة عنهم، ويضاف إلى ذلك قوة المال حيث كان له تأثير كبير على العناصر المتنازعة داخل المجتمع الصليبي.

كما نكب بوهمند في ابن له آخر مات مسموماً بسبب الخلافات السياسية، ففي حريف عام 1225م، أضطر بوهمند الرابع أمير طرابلس إلى مصالحة علاء الدين كيقباز سلطان سلاجقة الروم (1219م-1237م بعد طول عدااء(47) ، والذي كان يتحين الفرص للتوسع على حساب جيرانه الأرمن- واتفق معه على مهاجمة الأرمن، فبدأ كيقباز في غزو قليقية معتدياً على كل سكان السهل، واستولى على أربعة حصون، رغم حصول قسطنطين (48) ملك الأرمن على مساعدة الإمبراطورية والتوتون، فأرسل قسطنطين إلى بوهيمند كي يأتي لأخذ ابنه من قلعة العمودين (49)، وعندما وصل بوهيمند إلى تل حمدون أبلغه الرسل بأنه لا جدوى من ذلك، فقد أمر قسطنطين بدس السم لفيليب بن بوهمند الذي مات بعد ذلك بقليل (50).

وتجدر الإشارة إلى أنه كان لتضارب المصالح الصليبية الأرمينية أثره في المجتمع الصليبي، فقد أثر العلاقات بين الطرفين، حتى اضطر كل من الطرفين أن يستخدم سلاح القتل للتخلص من الطرف الآخر حفاظاً على مصالحه

وفي عام 1244م، كان معركة غزة الثانية أثر كبير على المجتمع الصليبي، فعندما تمكن الخوارزميون من استعادة بيت المقدس من الصليبيين، أدى ذلك إلى غضب البابا في روما على ملك الصليبيين كونراد بن فردريك الثاني وذلك لفشله في الحفاظ على مملكة بيت المقدس، لذلك أرسل البابا إليه جماعة كي يغتالوه نتيجة لتخاذله، غير أن الملك الصليبي عرف الأمر، واحتاط لذلك فأجلس مكانه شخصاً آخر فاغتالوه، وتمكن الملك الصليبي من اعتقالهم وصلبهم جزاء عملهم الإجرامي (51) .

وهكذا نتج عن معركة غزة آثار خطيرة على المجتمع الصليبي، ومنها استرداد المسلمين لبيت المقدس مرة أخرى، مما أدى إلى سلوك البابوية مسلك المجرمين في التعامل مع تلك النتائج الخطيرة، وهو الإقدام على قتل ملك الصليبيين نتيجة لما ضاع منه. أما فيما

يتعلق بتفشي القتل في المجتمع الكنسي، فيلاحظ أن توجهات رجل الدين اختلفت تماماً عن هدفهم الأصلي وهو وعظ الصليبيين أثناء رحلة حجهم، إلا أننا نجد البابا يتأمر على قتل أحد الأمراء من أجل الفوز بمنصب دنيوي، ومن أجل فرض السلطة الكنسية على المجتمع الصليبي، وهذا إن دل فإنما يدل على انحراف تام عن الأهداف الأساسية لرجل الدين.

ومثال ذلك ما حدث مع بلدوين أمير الرها، عندما تحالف كل من الأمير تنكريد ومبعوث البابوية دايمبرت من أجل منع بلدوين من الوصول إلى مدينة بيت المقدس، من أجل إعتلاء العرش، وذلك بعد وفاة أخيه جودفري، غير أن بلدوين أستطاع الهرب من الكمائن التي نصبها له أعداؤه، ووصل سالماً إلى مدينة بيت المقدس، معتلياً عرش المملكة (52)، ويدل ذلك على محاولات الكنيسة المبكرة فرض سيطرتها وسلطتها على العلمانيين من جهة، ومن جهة أخرى التحكم في ذلك المجتمع الوليد بطريقة غير شرعية.

ومن النماذج الأخرى لتدخل رجال الدين في الشؤون السياسية، وما نتج عنها من كارثة نتيجة لهذا التدخل، ما حدث بين كل من البطريك ستيفن الشارترى Stephen of Chartres (1128-1130م) (53)، والملك الصليبي بلدوين الثاني (1118-1131م)، فقد جاء الراهب ستيفن إلى مدينة بيت المقدس حاجاً، وبقي بها حتى يؤذن له بالعودة مرة أخرى، وفي تلك الأثناء اجتمع رجال الدين بمملكة بيت المقدس لاختيار بطريك جديد للمدينة، بعد وفاة البطريك جورموند Germond (54) (1118-1128م) ووقع اختيارهم على البطريك ستيفن، وبعد تنصيبه بطريكاً أخذ يثير المتاعب في وجه الملك بلدوين الثاني (55)، وفي الوقت نفسه رفض الملك بلدوين الثاني ادعاءات ستيفن من أجل التنازل عن كل من مدينتي يافا وبيت المقدس والموافقة على تبعيتها لكرسي البطريكية، وهكذا تم إحياء النزاع القديم بين رجال السلك الكهنوتي والعلمانيين (56)، ذلك الصراع الذي لم يخمده إلا وفاة ستيفن العاجلة في أوائل سنة 1130م، حيث يرجح أن البطريك ستيفن مات مسموماً وذلك تلبية للرغبة الملكية في وأد التطلعات الكهنوتية في مهدها، قبل أن تخرج عن السيطرة (57)، ومما يقوي احتمال تورط الملك في قتل ستيفن الحديث الأخير الذي

دار بين الاثنين عندما زار الملك بلدوين الثاني ستيفن وهو على فراش الموت وسأله عن حاله، فأخبره ستيفن (إنني الآن يا مولاي في الحالة التي تتمناها لي)، وهو ما يقوي من تورط الملك بلدوين الثاني في تلك الجريمة (58) .

من ناحية أخرى انعكس هذا الصراع الغربي على الأوضاع في الشرق اللاتيني Levant، وهو ما ظهر جلياً في الصراع بين البابوية والسلطة العلمانية الذي كان على أشده في تلك الفترة، وقد ظهر ذلك بشكل واضح في الصراع بين بطاركة بيت المقدس، وبين الملوك الصليبيين، فقد أراد البطاركة إخضاع السلطة العلمانية للسلطة الدينية، ونتج عن ذلك صراعات طويلة بين الطرفين، وأدى إلى ارتكاب العديد من الجرائم في سبيل تحقيق الأهداف الخاصة بكل جانب، خاصة عندما أراد رجال الدين التدخل في معترك الحياة السياسية، ومثال ذلك الصراع الذي قام بين كل من الملك بلدوين الأول ودائمبرت، وبين ستيفن الشارترى والملك بلدوين الثاني.

ولم تقف جرائم قتل رجال الدين عند ذلك الحد، بل امتدت للإمارات الصليبية الأخرى، ومنها ما حدث مع رادولف أو رالف أوف دمفرونث Ralph of Domfront (59) (1146م)، بطريك إمارة أنطاكية، حيث اشتد الصراع بينه وبين ريموند الثاني Raymond II- (1124-1130م) (60) أمير أنطاكية، وظهر رالف كمنافس لريموند في ذلك الصراع، غير أن ريموند استطاع استمالة بعض الأمراء بالإضافة إلى رجال الدين إلى جانبه، وتقدموا جميعاً بشكوى جماعية إلى البابا في روما، يشكون فيها سوء تصرف راولف، مما أدى إلى اضطرار الأخير إلى السفر إلى روما من أجل الدفاع عن نفسه أمام البابوية، وعندما أنهى مهمته في روما وعند عودة إلى إمارة أنطاكية مرة أخرى، وجد أعداءه من رجال الدين والأمراء في تزايد مستمر، مما أدى إلى تفاقم الأوضاع في أنطاكية، فقامت البابوية بإرسال أحد مندوبيها إلى أنطاكية للتحقيق في الأحداث التي تدور هناك، فعقد ذلك المندوب مجمعاً في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية في 30 نوفمبر 1139م، حضره حشد كبير من رجال الدين من مختلف الإمارات الصليبية، وانتهى

ذلك المجمع بإدانة راولف وعزله عن منصبه، ولم يلبث أن قتل مسموماً عام 1143م (61)، ويرجح أن رموند وراء تلك الجريمة، ولكن بشكل غير مباشر، مستخدماً في ذلك رجال الدين المناوئين للراف، حتى لا ينازعه خصم في إمارته، وربما أراد من تقديم شكواه للبابا في روما أن يبرئ نفسه مما هو مقدم عليه بقتله لغريمه راولف .

أما بالنسبة للنظام الكنسي الموجود بالإمارات الصليبية، فقد كان عامراً بالفساد، وتبدلت أهدافه الدينية إلى أهداف دنيوية، مما دفع برجال الدين إلى ارتكاب الجرائم للحفاظ على المكانة التي وصلوا إليها، ومنها على سبيل المثال ما حدث لأحد كرادلة البابا هونوريوس الثاني Honorius II (1124-1130م)، الذي قام بإرساله إلى الإمارات الصليبية ببلاد الشام. للنظر في أحوال الكنائس بها، غير أن هذا الكاردينال ما لبث أن وصل إلى مملكة بيت المقدس، وباشر مهامه في البحث والتفتيش على الكنائس، حتى أدركته المنية فجأة، وقد أشيع أنه قتل بالسم، مما أدى إلى غضب البابا في روما، فقام بإرسال أحد مندوبيه الأربعة الكبار، فعزل البطريرك الأنطاكي، وأقام بطريركاً آخر بدلاً عنه (62).

وهكذا يتضح لنا من تلك الجريمة أن الفساد انتشر في النظام الكنسي في الإمارات الصليبية، مما حدا بالبطاركة إلى التخلص من مبعوثي البابوية حتى لا يكشف الفساد الذي هم عليه، مما أثار غضب البابا عليهم، وقام بإرسال رجل آخر لم يستطيعوا التعرض له، مما كان له أكبر الأثر في صدور قرارات حرمان ضد الصليبيين في الساحل الشامي، ويضاف إلى ذلك تبدل؛ طبيعة الدور الديني لرجال الدين الصليبيين، وانشغالهم بالأمر الدنيوية، ومحاوله فرض السيطرة الكنسية على السلطة السياسية، مما كان له أكبر الأثر في تورطهم في ارتكاب الجرائم مثلهم في ذلك مثل بقية أفراد المجتمع الصليبي، وتكملة لمسيرة الفساد الكنسي ما حدث مع وليم الصوري (63) William of Tyre رئيس أساقفة مدينة صور، في الصراع بينه وبين البطريرك هرقل (64). فعندما تولى هرقل بطريركية بيت المقدس، إذا به يعلن فجأة ودون سابق إنذار توقيع قرار الحرمان ضد وليم الصوري دون محاكمة ودون أي حق له، مما يخالف سنن العدالة (65). وعندما استشعر وليم الصوري الظلم، لجأ إلى البابا في

روما لحسم قضيته، لكي يظل في وظيفته، وقد كللت مجهوداته بالنجاح(66) وفي أثناء ذلك كان البطريرك هرقل قد قام بتكليف أحد الأطباء بمرافقة وليم أثناء رحلته إلى روما، وذلك لوضع السم له مقابل مبلغ من المال، واستجاب الطبيب لتلك الرشوة المالية، ورافق وليم إلى مرسيليا ثم إلى جيفودان Gevaudan حيث توفي عام 1186م، ولما بلغ هرقل خبر الوفاة كر عائداً إلى مملكة بيت المقدس (67)

ومن الملاحظ أن الصراع بين رجال الدين داخل المجتمع الصليبي كان على أشده، مما أدى إلى اتخاذ أطرافه أساليب لا تتناسب مع مكائهم داخل المجتمع الصليبي لحسم القضايا لصالحهم، وتطور ذلك الأمر إلى حد استخدام القتل كوسيلة من وسائل حسم الصراع للفوز بمنصب كنسي.

ويلاحظ أيضاً من تلك الجريمة ترابط كل من جرمي الرشوة والقتل، فقد تم استخدام الأولى كوسيلة لتنفيذ الثانية، مما يدل على تزامن وقوع الجرائم المختلفة داخل الكيان الصليبي في وقت واحد، بل وتداخلها في بعض الأحيان كما في تلك الجريمة.

وقد تنوعت وسائل القتل لدى الصليبيين، فهناك القتل بالسم، أو بالخنجر إلى غير ذلك، ومن أمثلة القتل بالسم ما حدث للملك الصليبي بلدوين الثالث، فعندما كان في أنطاكية في آخر زيارة له، أراد أن يتناول دواء كان معتاداً احتفاظه به قبل حلول فصل الشتاء، لذلك حصل على حبات دواء من طبيب سرياني يدعى باراك Barak؛ وهو الطبيب الخاص بالأمير ريموند الثالث أمير طرابلس، وذكر وليم الصوري بأنه كانت هناك شائعات بأن حبات الدواء كانت مسمومة، وربما كانت تلك هي الحقيقة، لأنه تم تجربة باقى تلك الحبات بوضعها لأحد الكلاب، فمات ذلك الكلب بعد عدة أيام، وبمجرد أن تناول الملك بلدوين الدواء أصيب بحمى شديدة، وعندما أخذت حالته تتدهور، ترك مدينة أنطاكية إلى طرابلس ومكث هناك عدة شهور ساءت فيها حالته الصحية، وعندما شعر بدنو أجله طلب أن يحمل إلى بيروت وتوفي هناك في 10 فبراير 1162م، في سن الثالثة والثلاثين، وذلك بعد موت أمه الملكة ملىزندا بعدة شهور فقد ماتت الملكة في 11 سبتمبر

1161م، ويرجح أن الملك بلدوين الثالث مات مسمومًا على يد حزب أمه الملكة ميليندا الذي كان على رأسه ابنها عموري، لأن الملك بلدوين الثالث لم يقيم بتصفية حساباته مع كل أنصار ميليندا، وكان الملك يراعى شعور أمه رغم إبعادها عن الحكم، ولذلك يبدو أنه بعد موت ميليندا خاف أنصارها من انتقام بلدوين الثالث منهم، فدبروا موته بهذه الطريقة، إذ لم يبق في الحكم بعدها سوى ستة أشهر فقط (68).

وتوضح لنا تلك الحادثة أن الأمراء الذين كانوا ناقلين على الملك الصليبي، ولم يكن بمقدورهم الوقوف في مواجهته مباشرة أو معارضته، كانوا يستخدمون السموم في التخلص من أعدائهم، فمنها سهولة وضعها للخصم المنافس لهم، ومنها أنهم يستطيعون نفي التهمة عنهم، وهو ما كان يحدث بالفعل.

وبتحليل تلك الحادثة، نجد أن الحالات المرضية الناتجة عن الإصابة بالسموم قد تزايدت بشكل واضح داخل المجتمع الصليبي ببلاد الشام، وبالتالي يمكن إدراك أن أنواع السموم المختلفة قد استعملت من أجل الفتك بالقيادات السياسية الصليبية المتصارعة والمتنافسة، وقد وقف الطب الصليبي عاجزًا عن علاجها على نحو أدى إلى وفاة المتسمم في النهاية دون أن تقدم له أية وسيلة لإنقاذ حياته من الهلاك باستثناء بعض الحالات الخاصة، والواقع أن معرفة الصليبيين بأنواع السموم كانت جيدة، بل إنهم استعملوا تلك السموم في الفتك بالحيوانات المفترسة التي وجدوا صعوبة في اصطيادها مثل الفهود وغيرها (69).

وقد تقدمت صناعة السموم داخل المجتمع الصليبي، فوجد بالقرب من مدينة أريحا حقل صغير لتربية الثعابين والأفاعي من أجل استخراج السموم، وقد كان يتم في هذا الحقل اصطياد جميع أنواع الثعابين والأفاعي السامة، وذلك من أجل تربيتها ثم بعد ذلك تباع في المدن ويقوم بشرائها من هم متخصصون في صناعة أنواع العلاجات المختلفة من الثعابين وكذلك أنواع السموم المختلفة (70).

وخلال تلك الأحداث أحاط ملوك الصليبيين أنفسهم بسياح أممي محكم، يتكون من عدد كبير من الحراس المدججين بأنواع الأسلحة المختلفة، حتى صار من الصعب النيل

منهم، لذلك ظهرت طرق وأساليب متعددة لخرق هذا الجدار الأمني بغرض التنكيل بهم، منها دس السم لقتل الخصم، وقد صارت هذه الطريقة شائعة آنذاك. وعلى الرغم من أن ملوك الصليبيين احتاطوا لأنفسهم لئلا يقعوا ضحية لذلك، قام الخصوم بدس السم في الأطعمة والأشربة المعدة لهم، لذلك خضعت تلك المأكولات والمشروبات لرقابة أمنية مشددة وفحص دقيق من الأطباء الأمناء(71).

وعرف المجتمع الصليبي جميع أنواع السموم، فهناك السموم النباتية والتي تمثلت في نبات الخشخاش والأفيون، والسموم الحيوانية والتي تم استخراجها من الخنفساء والضفدع البري والأفاعي السامة، ثم يلي ذلك السموم المعدنية والتي كان أشهرها الزرنيخ (كبريت الزرنيخ)، وقد اختلفت درجة سمية تلك الأنواع بحسب اختلاف نوعيتها ومقدار الجرعة التي كان يتم دسها للشخص المطلوب القضاء عليه، وقد نتج عن حالات التسمم أعراض مختلفة مثل القيء والإسهال أو العطش الشديد، وظهور آلام شديدة على الشخص المصاب(72) وقد تفشي استخدام السموم في جميع فئات المجتمع الصليبي من الأمراء العلمانيين إلى رجال الدين وانتهاءً بطبقة العامة، واستخدمت السموم ضمن الصراع على السلطة بين الأمراء العلمانيين، كما كانت السموم هي السلاح المفضل لرجال الدين في صراعاتهم التي لا تنتهي حول المناصب الدينية المرموقة(73)، غير أنه من المفترض أن هناك حالات للإصابة بالسمية لدى قطاعات من المجتمع الصليبي خارجة عن نطاق القيادات السياسية والدينية، لم تشر إليها المصادر التاريخية الصليبية وتجاهلتها، ومن زاوية أخرى يلاحظ من خلال نصوص المصادر التاريخية الصليبية التي وصلت إلينا أن حالات التسمم المذكورة كانت فردية، ولم تكن هناك حالة واحدة تتسم بالطابع الجماعي طوال فترة تواجدهم ببلاد الشام، وبالتالي فضحايا تلك الحالات كانوا متناثرين وموزعين على مرحلة زمنية ممتدة، ولم يكونوا مركزين في مرحلة واحدة(74)، وقد أشار إليها جاك ديفيري كظاهرة متفشية. (75)

وقد انتشرت حالات الإصابة والقتل عن طريق السم بشكل كبير بين فئات العامة في القرن الثالث عشر، وخاصة في النصف الثاني منه، ونخص بالذكر مدينة عكا حيث كانت

تشهد جرائم قتل بالسم بمعدل مرتفع يوميا، فكان الزوج يقتل زوجته إذا فقد رضاها، وكانت الزوجة تقتل زوجها بالسم لكي تتزوج من غيره، وبذلك انعدمت الثقة تماما بين فئات المجتمع، وجاء ذلك دليلا على التفكك الأسري على الرغم من أن الأسرة ذاتها نواة المجتمع، والذي ساعد على انتشار القتل عن طريق السم، هو وجود تجار لتلك السلعة، كانوا يبيعون تلك السموم والمواد القاتلة الأخرى، بل وصل الأمر للتطور في صنع تلك السموم أن صانعي تلك المواد القاتلة، كانوا يربون في بيوتهم بعض الحيوانات، وكان يصنع من روثها نوعاً من السموم، وكل من أراد التخلص من عدوه كان يجد كل ما يشتهي لقتله، بحيث يتألم لمدة سنة إذا أراد القاتل ذلك، أو لمدة شهر أو لمدة يوم، إذا ما أراد له موتاً عاجلاً كما قرر البعض(76).

ويرجح أن الحرمان العاطفي كان له دوره في انتشار جريمة القتل بين الأزواج، فقد كانت المرأة تلجأ إلى قتل زوجها عندما كانت تعيش في مثل هذه الحالة، كما وأن الغيرة النسائية كان لها دورها في قتل المرأة زوجها إذا علمت أنه على علاقة بامرأة أخرى، وبذلك انتشر داخل المجتمع الصليبي كثرة العلاقات غير الشرعية، وعلى ضوء تلك العلاقة أيضا كان الزوج يقوم بقتل زوجته عندما يعلم أنها على علاقة برجل غيره، وكانت تلك العلاقات غير السوية منتشرة بكثرة داخل المجتمع الصليبي وذلك بسبب توافد الحجاج بشكل مستمر على الأراضي المقدسة والمدن الشامية التي خضعت للسيطرة الصليبية. ويضاف إلى ذلك سوء الأوضاع الاقتصادية بالمدن الصليبية وانتشار البطالة (77)، كل تلك المظاهر كان لها دور في تفسخ العلاقة الأسرية، وزيادة معدل العنف بين الأزواج، ومنها اللجوء إلى القتل كحل سريع لإنهاء المشاكل الاقتصادية .

وقد حدث تطور كبير في صناعة السموم بمدينة عكا الصليبية، فقد تفنن صانعو السموم في صناعة أنواع مختلفة ومتعددة منها، وقد راجت تلك السلعة بشكل كبير، ونتج عنها ارتفاع معدل جريمة القتل داخل المجتمع الصليبي، ومن ناحية أخرى زادت أرباح التجار من وراء المتاجرة فيها، وبعد أن كان الصليبيون يستخدمون تلك السموم بوضعها في السهام

والسكاكين في فترة تواجدهم ببلاد الشام، للقضاء على أعدائهم المسلمين)، أصبحوا يقتلون بها بني جلدتهم. (78)

ومن حوادث الاغتيال السياسي الغامضة التي ورد فيها السم كأداة لها، ما حدث عام 1148م، مع ألفونسو جوردان Alfonso Jordan كونت تولوز، وهو الابن الأكبر لريموند الصنجيلي الذي حارب في الحملة الصليبية الأولى، عندما رست سفينته في ميناء عكا، وبينما كان في طريقه إلى بيت المقدس لأداء واجب الشكر على نجاح رحلة حجّه، توقف عند مدينة قيسارية الساحلية، حيث تم استدعاؤه إلى مدينة طرابلس، غير أنه سرعان ما داهمه مرض توفي على إثره، وترددت الشائعات بأنه مات مقتولا بالسم بيد خصوم ريموند أمير طرابلس (79).

ومن المرجح أن ألفونسو كان له أعداء كثيرون، على الرغم من أنه كان يعيش في إمارته في فرنسا، وعندما قدم إلى بلاد الشام استشعر بعض أمراء الصليبيين خطورة تواجدهم في بلاد الشام على مراكزهم السياسية، فتم التخلص منه بطريقة سريعة وهي وضع السم له، مما أدى إلى وفاته ومن ثم التخلص من منافس عنيد.

وفيما يخص دور المرأة في جريمة القتل، فقد كان للمرأة دور مهم في جريمة القتل، ومن أمثلة ذلك ما كان من نزاع زوجي وخلافات شديدة بين ريموند الثاني أمير طرابلس (1137-1152م)، وزوجته هودرين Hodriene، الابنة الثالثة للملك الصليبي بلدوين الثاني، وأخت الملكة مليزندا، وقد بلغت العلاقة الزوجية بينهما درجة كبيرة من السوء وذلك في أوائل عام 1152م، مما استوجبت معه تدخل الملك الصليبي بلدوين الثالث وأمه الملكة مليزندا، بحكم الصلة العائلية لفض ذلك النزاع، وسافر بالفعل كل من الملك بلدوين والملكة مليزندا إلى إمارة طرابلس، غير أن نصائهما لم تحقق نفعاً، وصحبت مليزندا أختها هودرين إلى مدينة نابلس، بينما ظل الملك بلدوين الثالث بعض الوقت في طرابلس، ولم تكذب كل من هودرين ومليزندا تباعدان كثيراً عن مدينة طرابلس، حتى قتل ريموند الثاني بأيدي جماعة من الحشاشين، وصورة قتله أنه أثناء عودته من المدخل الجنوبي لعاصمته وعند دخوله

بوابة الولاية، هجم عليه جماعة من الحشاشين وطعنوه بخناجرهم، فسقط على الأرض مفارقاً الحياة، ولقد حاول أحد الفرسان المرافقين له ويدعى رادولفوس دي مارلو Radulphuse de Marlo الدفاع عنه، غير أنه لقي مصرعه هو الآخر، وحينذاك تعالت الأصوات والصياح فاندفع رجال الحامية بسلاحهم وتدفقوا في الشوارع يذبحون كل من يشاهدونه من المسلمين انتقاماً لمقتل سيدهم، وكان من ضمنهم جماعة الحشاشين التي اغتالت ريموند، وبالرغم من أن هوديرن عادت بسرعة لتذرف الدمع على زوجها القاتل، إلا أن ذلك لم يعفها من بعض الاتهامات والشكوك في تأمرها على قتل زوجها (80).

ولم تتوان القيادات الصليبية في الاتصال ولو سراً بعناصر الحشاشين للتخلص من أعدائهم، وذلك حتى يحافظوا على مظهرهم الاجتماعي ومكانتهم السياسية داخل المجتمع الصليبي، بل ولجوء الزوجة أيضاً إلى عمل اتصالات سرية مع القتلة من أجل التخلص من زوجها، ويضاف إلى ذلك ما نتج عن تلك الجريمة، وهي جريمة أكبر منها وأعني بذلك عملية القتل الجماعي والعشوائي للمسلمين داخل المدينة، وذلك بعد وقوع الحادثة مباشرة، وكان هدفهم قتل الجناة قبل هروبهم، ويضاف إلى ذلك الانتقام من المسلمين الموجودين داخل المدينة مع عدم وجود مبرر قوي لذلك .

أما فيما يتعلق بالعقاب بالقتل بسبب الجرائم السياسية أو الخيانة، فهو ما سوف نطرحه في تلك الحادثة، فقد شب نزاع بين كل من الملك الصليبي بلدوين الثالث وجيرارد جارينيه 1171م Gerard Grenier أمير صيدا (81)، ووصل ذلك النزاع إلى درجة كبيرة من السوء بين الاثنين، فقد نما إلى علم الملك الصليبي أن جيرارد قد خرج عن طاعته، وأحضر عددًا من المراكب استعان في قيادتها ببعض القراصنة، وقام بعمليات سلب ونهب لسائر المراكب التي كانت تحمل الحجاج المسيحيين والقادمة إلى الأراضي المقدسة بهدف الحج والزيارة، مما أدى إلى استياء الحجاج المسيحيين من ذلك التصرف، وتقدموا بالعديد من الشكاوى إلى الملك الصليبي، غير أن جيرارد لم يرتدع، فقام الملك بلدوين الثالث بطرده من بارونيته وفقًا لقانون التبعية الإقطاعية، فأتجه جيرارد إلى أنطاكية متبعًا نفس

أسلوب القرصنة، فطرده أيضاً أميرها، فلم يجد جيرارد أمامه سوى نور الدين محمود (1146-1174م)، فلجأ إليه، ورحب به نور الدين محمود خاصةً بعدما وعده جيرارد بالتعاون معه ضد الصليبيين، واشترك جيرارد في معارك كثيرة بجانب المسلمين ضد الصليبيين، مما أثار غضب الملك بلدوين الثالث، فصمم على التخلص منه وبالفعل نجح في القبض عليه، حيث كبله بالأغلال واصطحبه معه إلى مملكة بيت المقدس في طريق عودته، وهناك تمت محاكمته وإدانته وحكم عليه بالموت حرقاً بالنار (82).

ومن تلك الحادثة يتضح حالة التعاون بين بعض العناصر الصليبية وبين المسلمين ضد الصليبيين، وأنه عندما كان يتم الإيقاع بتلك العناصر التي ساندت المسلمين، كانت تقام لهم محاكمة عاجلة، ويتم فيها تطبيق عقوبة القتل بطريقة وحشية، ومنها الحرق لإرهاب من تسول له نفسه التعاون مع المسلمين مرة أخرى. ولا ريب في أن الصليبيين نظروا إلي من يقدم علي ذلك بأنه خائن لهم .

ونستنتج من ذلك أيضاً أن عهد الملك بلدوين الثالث كان أكثر عهود المملكة الصليبية التي شهدت حالات قتل أو محاولات للقتل، ويرجع ذلك إلى الحرب الأهلية التي وقعت بين بلدوين الثالث من جهة وأمه الملكة مليزندا وأخوه عموري من جهة أخرى، وما نتج عن تلك الحرب من حالة فوضى أمنية واضحة أدت إلى شيوع أسباب الجريمة داخل المجتمع الصليبي، وكثرت حالات الأثر الشخصي داخل المجتمع الصليبي، نتيجة شعور المجرم بصعوبة تعقبه .

ويتضح من خلال سرد تلك الجرائم على مدى القرن الثاني عشر الميلادي، تطور جريمة القتل ودوافعها تطوراً كبيراً، فمنذ بداية احتلال الصليبيين للمدن الساحلية الشامية، كان لديهم حماس كبير لقتل كل ما هو غير صليبي، بداية من قتل اليهود وحرقتهم بالنار، ثم إقامة المذابح للمسلمين المسلمين بالمدن الشامية، ثم قتل العناصر المسيحية الشامية المخالفة لمذهب كنيسة روما الكاثوليكية، والتي لم يفرقوا بينها وبين المسلمين، ويدل ذلك على مدى التعصب الأعمى الذي تملكهم، وتطورت جريمة القتل بشكل آخر داخل المجتمع الصليبي

نفسه، فقد كان القتل يتم لأسباب سياسية ومنها الرغبة في الاستيلاء على منصب معين، أو التخلص من قائد بعينه، ثم انتقلت جريمة القتل داخل المجتمع الكنسي لتخرج رجال الدين عن وقارهم ودورهم المعروف في إرشاد الناس ونصحهم، وذلك من أجل الوصول لأعلى المناصب الكنسية وما يحققه ذلك من نفوذ وثروة كبيرة، وشيوع القتل أيضاً بين أفراد الطبقة الحاكمة من النبلاء والملوك الصليبيين بهدف إزاحة المنافسين لهم وتحقيق سيطرتهم الكاملة على رعيّتهم، ومنها الشك في الولاء كما في حالة كونراد مونت فرات مع أطبائه، بل إن الخلافات الزوجية كان لها دورها في ارتكاب جريمة القتل بين الطبقة الحاكمة . أما عن جريمة القتل الجماعي فمنها ما قام به الماركيز كونراد أوف مونتفرات **Conrad of Montfort (83)**، فقد حدث أن وقع الماركيز كونراد فريسة لمرض كان يعاوده من فترة لأخرى، غير أن تلك المرة التي جاءته فيها نوبة المرض كانت أشد من سابقتها. ولما كان كونراد محاطاً بالأعداء من كل جانب، فقد ثارت شكوكه بكل من حوله، وتحيل أن الأطباء المعالجين قد دسوا السم له في الشراب، فأصدر قرارا بحق هؤلاء الأطباء، وهو قتلهم جميعاً نتيجة لأمر لم يفعلوه، وبرغم من أن الدواء الذي أعطوه له كان فيه شفاؤه(84) . وهكذا كان الشك بأي شخصية مهما كان منصبها كان يؤدي إلى مقتلها على الفور، وخاصة وقت الأزمات حتى أدى ذلك إلى اتساع عدم الشعور بالأمان من جانب العديد من الشخصيات. فقد كان من المتوقع قتلهم في أي وقت وبأي طريقة لمجرد الشك في سلوكهم. كما تبرز تلك الحادثة أن الماركيز لم يلتفت إلى أية قوانين لمعاينة المتهمين، بل إنه أصدر الحكم على الفور وتم تنفيذه دون أي معارضة من أحد . ومهما يكن من أمر، فقد قتل كونراد أوف مونتفرات، بعد قليل أثناء الحملة الصليبية الثالثة، فملوك أوروبا الذين شاركوا في هذه الحملة الصليبية، حملوا معهم ضغائنهم وأحقادهم الشخصية وصراعاتهم العرقية إلى بلاد الشام (85)، فقد انقسم المعسكر الصليبي أثناء الحملة الصليبية الثالثة إلى فريقين، فريق يؤيد جاي أوف لوزيجنان **Guy of Lusignan (86)**، يدعمه الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد (87)،

والفريق الآخر يؤيد كونراد أوف مونتفرات بزعامة فيليب أوغسطس (88)، ملك فرنسا لزعامة مملكة بيت المقدس الصليبية، وتم عقد مؤتمر بالفعل بين المتنازعين تقرر فيه تولي كونراد لعرش المملكة الصليبية، أما جاي لوزينجان فقد باع له ريتشارد قلب الأسد جزيرة قبرص وذلك تعويضاً له عن ملكه الضائع في مملكة بيت المقدس (89) .

ومن المرجح أن الصراع على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية كان على أشده بين قيادات المملكة، والذي كان ينذر بحدوث صدامات بين الصليبيين، ونظراً لأهمية تدخل ملوك أوروبا لكي يتم حسمها، فقد أفرزت ما كان عند الصليبيين من حزازات وصراعات خطيرة فيما بينهم، كانت من العوامل الأساسية لتدهور وضعهم السياسي وطردهم من أهم بلاد الشام بالكامل في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي.

وحدير بالذكر، أن أهم أسباب قدوم جاي لوزينجان إلى بلاد الشام، ما قام به عام 1168م من مهاجمة حراسة ملكة إنجلترا وقتل قائد الحرس، فكان العقاب هو إرساله إلى بيت المقدس لكي يدخل في خدمة الملك الصليبي بلدوين الرابع (90) .

غير أنه في أبريل عام 1192م، تم اغتيال كونراد بالقرب من منزله (91)، وصورة مقتله كانت كالتالي، عندما كان كونراد في وواقعة يوشك بالعودة إلى عسقلان لكي ينضم للحيش الصليبي هناك، إذا به يتلقى دعوة لتناول الغداء مع أسقف بوفيه (92)، وبينما كانت زوجته في الحمام وقد أشتد به الجوع، ذهب إلى الأسقف حتى تفرغ من اغتسالها، وبعد لقائه بالأسقف وأثناء عودته إلى داره، كان هناك رجالان من الحشاشين موجودين، وقد جلس كل منهما على جانب من الزقاق تجاه بعضهما البعض، فلما صار المركيز بينهما انتصبا واقفين لمقابلته، وتقدم إليه أحدهما ويده ورقة كأنما يعرضها عليه، فمد المركيز يده لأخذها فاستل الرجل خنجره وأغمده في صدر كونراد (93)، وقتل كونراد على الفور فقد كان الخنجر الذي طعن به مسموماً، أما فيما يتعلق بالقاتلين (94)، فقد ألقى القبض علي أحدهما فوراً وتم قطع رأسه، أما الثاني فقد لجأ إلى كنيسة من الكنائس مستجيراً بها، إلا أن أهلها أخرجوه وتم سجنه في وسط المدينة حتى فارق الحياة (95)، وربما هدف

الصليبيون من وراء سجنه إذلاله جزاء لما ارتكبه من جريمة، وأيضاً حتى يكون عبرة لغيره . من الملاحظ أن اغتيال كونراد كان موضع جدل قديماً وحديثاً، نظراً لما أثارته تلك الشخصية من مشكلات وأزمات خاصة داخل الكيان الصليبي، حتى امتدت أصابع الاتهام إلى العديد من من الشخصيات، وعلى الرغم من أن ريتشارد قلب الأسد، حضر المؤتمر الذي عقد من أجل الفصل في قضية ملك مملكة بيت المقدس، يرجح أنه كان غير راضٍ عما جرى في المؤتمر أو النتائج التي أفضى إليها من تولى كونراد عرش المملكة الصليبية واستبعاد جاي لوزيجنان عن بيت المقدس، مما أثار حفيظة ريتشارد فأراد الانتقام بقتل كونراد عن طريق الحشاشين، ويلاحظ أن كونراد كان له دور معاون في عملية اغتياله، فقد ساعد قاتليه على تنفيذ مهمتهم بكل سهولة، وذلك بعدم اتخاذه الاحتياطات الأمنية اللازمة، في الفترة التي كان أعداؤه في ازدياد بشكل مستمر، والجميع يريد القضاء عليه، سواء أكان من الصليبيين بسبب مشكلة عرش مملكة بيت المقدس، أم من المسلمين بسبب حمايته لمدينة صور وامتناعها عليهم، أم من الحشاشين الذين أرادوا الانتقام لما حل بسفانيتهم التي استولى عليها رجاله ورفضوا ردها .

وقد تعددت الآراء وتباينت حول أسباب مقتل كونراد في تلك الظروف وذلك التوقيت، فمن تلك الأقاويل أن الإسماعيلية أقدموا على قتل كونراد، عندما اعترض رجاله سفينتهم التي كانت تحمل تجارة لشيخ الجبل راشد الدين سنان (96)، وكانت قد أخذت طريقاً تجارياً في البحر المتوسط، فأسرها رجال كونراد بمن فيها، وعندما فشل راشد الدين سنان في مفاوضة كونراد على استعادة السفينة ورجاله الأسرى ورد أمواله؛ كان قرار سنان هو قتل كونراد جزاء لما اقترفه (97)

ورأي آخر يقول إن صلاح الدين كان وراء اغتيال كونراد، ذلك أن صلاح الدين راسل راشد الدين سنان لكي يقوم بقتل الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد، وإن قتل كونراد فله عشرة آلاف من الدنانير، وعندما لم يتمكنوا من قتل الملك الإنجليزي قاموا بقتل كونراد وذلك حتى لا يتفرغ صلاح الدين لهم، ويبقى دائماً في صراعات

مع الجيوش الصليبية (98)

ومن الجدير بالذكر أن ابن الأثير جعل صلاح الدين الأيوبي وراء جريمة قتل كونراد، وأنه وراء محاولة اغتيال الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد، ويرجح الباحث أن هذا الرأي غير مقبول، لأن الصراع كان على أشده بين كل من كونراد وبين ريتشارد قلب الأسد، مما يجعله المرشح الأول وراء اغتيال كونراد بأيدي الحشاشين.

أما الرأي الثالث وهو من أرجح الآراء، أن الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد وراء هذا الحادث، فرمما قام ريتشارد بذلك حتى تتهيأ له الساحة في الأراضي الشامية من جهة، ومن جهة أخرى لينفرد هو بزعامة الصليبيين في الأراضي المقدسة، وذلك بالتخلص من منافس خطير مثل كونراد (99)، أما الشق الثاني من هذا الرأي فهو أن الملك الإنجليزي ليس وراء هذا الحادث، وذلك للرسالة التي أرسلها راشد الدين سنان إلى الدوق ليوبولد صاحب النمسا، يشرح له فيها أن الملك ريتشارد ليس له علاقة بموضوع الاغتيال، وأنه هو المسئول عن هذا الاغتيال نتيجة لما قام به كونراد من مصادرة سفينته، بل ويقر راشد الدين في رسالته على مسئولية كونراد عن مقتل رينالد أمير صيدا (100)، وإن كان الحادث لا يخلو من شكوك حول تورط ريتشارد في الحادثة وإن لم يوجد دليل قوي ضده (101)

إن أمر تلك الرسالة التي بعث بها رشاد الدين سنان إلى دوق النمسا لمحير بالفعل، فلماذا يرسل راشد الدين سنان تلك الرسالة إلى دوق النمسا في ذلك الوقت؟، وأيضاً لماذا يدافع عن ريتشارد وينفي عنه مسئولية مقتل كونراد، بل ويكشف عن جريمة أخرى هي اغتيال كونراد لرينالد أمير صيدا، يرجح من وراء إرساله هذه الرسالة عدة أمور؛ أولاً: أنه أراد أن يكتسب حليفاً جديداً ممثلاً في شخصية ليوبولد دوق النمسا وهو شخصية جديدة على مسرح الأحداث ببلاد الشام، ثانياً: أراد الاستفادة بنشر الفرقة بين الصليبيين بتوضيح تلك المعلومات، وإبرازه دور كونراد في اغتيال رينالد أمير صيدا حتى يدخل الصليبيين في صراعات فيما بينهم بسبب تلك القضية، وتخف وطأهم عليه.

وترجح بعض الدراسات التي تناولت حادثة اغتيال كونراد مونترفرا، أن هنري

كونت شامبانيا هو الذي دبر أمر اغتيال كونراد، وذلك من أجل الحصول على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، عن طريق الزواج من أرملة كونراد وإن لم يتوج - مثل كونراد - حتى وفاته، على الرغم مما فعله بكونراد (102)

ومن جرائم القتل الجماعي التي تمت في القرن الثالث عشر الميلادي، ما تم عام 1233م، عندما أقدم قسطنطين ملك الأرمن وابنه هيثوم الأول على قتل عناصر من الداوية Templars، فقد تشكك كل من قسطنطين وهيثوم في أن جماعة الداوية تدبر مؤامرة للإطاحة بهما من على عرش الأرمن، ولذلك قام قسطنطين باعتقال بعض أعضاء الجماعة وأمر بإحراقهم أحياء وشنق البعض الآخر منهم (103)

ومن الملاحظ أنه مع قدوم القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، انتشر الشك داخل المجتمع الصليبي وخاصة المؤسسة العسكرية وعلاقاتها الخارجية بالقوى المجاورة، وبالأخص بالأرمن، ويرجح أن سبب ذلك هو شعور الصليبيين بتدهور مجتمعهم من الجانب الداخلي والخارجي على حد سواء، وكان من نتيجة انتشار الشك في الولاء القيام بعمل تهوري وقاس، مثل القتل بالحرق وهي مية بشعة انتشر العمل بها لمجرد الشك في ولاء التابعين .

وقد كان للعلاقات المتوترة بين الأمراء الصليبيين أكبر الأثر في تدهور الوضع الأمني في الإمارات والمدن الصليبية. وفي عام 1258م. اتسعت حدة الخلافات بين كل من بوهمند السادس أمير طرابلس وبين تابعه برتراند أمير جبيل، فلقد عمل هنري أمبرياكو Henry Ambriaco (104) (1252-1262م) على الاستقلال بمدينة جبيل بعيدا عن سلطة سيده بوهمند أمير طرابلس، بل لقد تطور الأمر إلى مهاجمة برتراند حاكم جبيل لسيده بوهمند في مقر داره بطرابلس. (105)

وقام برتراند بتعبئة قواته لمهاجمة طرابلس، وبالفعل تقابل مع بوهمند خارج طرابلس وتمكن من هزيمته، بل وإصابته بجرح خطير، غير أن بوهمند تمكن من العودة بصعوبة إلى طرابلس بعد هزيمته أمام برتراند، وبعدها تعافى بوهمند من إصابته ففكر جدًّا في الانتقام من

برتراند، فقام بعمل ترتيبات سرية من أجل القضاء على برتراند بالتعاون مع فلاحى القرى، من أجل أن يأتوه برأسه، وفي أحد الأيام وبينما كان برتراند خارجا لتفقد قراه مصطحباً معه أحد الفرسان، وكان في بعض الطريق أنحدار خطير ومن خلفه سور لأحد مزارع العنب، وعندما مر برتراند من تلك المنطقة وثب عليه حوالي اثني عشر نفرًا من الفلاحين وصبوا سهامهم نحوه، فحاول الفرار غير أنه سقط عن جواده وأصابته السهام في جميع أنحاء جسده حتى سقط جثة هامدة، وقطعت رأسه ثم قتل الفارس الذي كان مصاحباً له، وأرسلت رأسى الإثنين إلى بوهمند في سلة مصنوعة من الأغصان، وقد ابتهج الأمير بوهمند لذلك كثيراً وقام بإجزال العطاء للقتلة .

من الملاحظ أن العلاقات بين أمراء الصليبيين خلال القرن الثالث عشر الميلادي، كانت عامرة بالتوتر والصراعات العنيفة، والتي تمثلت أسبابها في؛ دوافع خارجية ظهرت في ضغوط المسلمين من أجل استعادة أراضيهم المحتلة من قبل الصليبيين، ودوافع داخلية تمثلت في نوعية المهاجرين الجدد وما صاحبهم من فروق مختلفة عن المجتمع الصليبي في بلاد الشام (106)، حتى لجأ الأمراء إلى أسلوب قتل أعدائهم عن طريق تابعيهم، بعدما عجزوا عن مواجهة أعدائهم أو قهرهم في ميدان المعارك والحرب المباشرة، وقد استخدموا في ذلك سلاح الرشوة الذي كان له سحر خاص في تطويع التابعين لخدمه سادتهم، بل وتطويع القتلة المحترفين سواء أكانوا من الصليبيين أم من المسلمين لأداء أغراضهم، ويلاحظ أيضاً ترابط كل من جريمة الرشوة والقتل، حيث استخدمت الرشوة كثيراً من أجل القتل .

وفي خلال فترة الهدنة عام 1282م، كان بوهمند السابع قد عقد العزم على الانتقام من جاي الثاني أمبرياكو Guy II Embericao (107) (1271-1282م) حاكم جبيل، الذي ألحق به عار المهزيمه من قبل، في حين كانت انتصارات جاي المتوالية على قوات إمارة طرابلس قد شجعتة على مهاجمة تلك الإمارة، وعندما انتهت الهدنة التي كانت معقودة بين الطرفين، تحرك جاي في يناير عام 1282م، نحو طرابلس بهدف الاستيلاء عليها (108)، غير أن الخلافات دبّت بين كل من جاي والداوية، بسبب عدم وجود ثقة

متبادلة بين الطرفين، مما أدى إلى لجوء جاي إلى برج الإسبتارية لمساندته، إلا أن تلك الأنباء وصلت إلى بوهمند السابع الذي سارع بمحاصرتهم في ذلك البرج. وتدخلت الداوية لرفع الحصار عن جاي بين الاسبتارية المنافسين للداوية، مقابل استسلامهم المشروط بالمحافظة على حياتهم، غير أن بوهمند غدر بهم، وقام بسمل أعين رفاق جاي من الداوية، وكان عقابه لبقية أعدائه أن أرسلهم إلى مدينة نيفين التابعة لإمارة طرابلس في فبراير 1280م، وقام بدفن أجسادهم حتى الأعناق وهم أحياء ثم تركهم يموتون جوعاً (108). مما دل على ما كان لديه من سادية مريضة .

ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من أن جماعة الداوية، مثلها مثل بقية الجماعات الدينية الصليبية الأخرى، كان لها قوانينها الخاصة بها في معاقبة المخطفين داخل الجماعة، غير أنهم لم يستطيعوا الصمود في وجه بوهمند ولا منعه من معاقبة إخوانهم، ويضاف إلى ذلك انتشار نوع آخر من القتل وهو الدفن حتى الرقبة وترك المتهم بلا طعام ولا شراب حتى الموت، وأيضاً اتباع طريقة سمل الأعين مع المتأمرين، كل ذلك يدل على مدى بشاعة تلك الجريمة وتطورها خلال القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين .

ولقد شهد عام 1270م، ضربة موجعة للمجتمع الصليبي، فقد أراد السلطان بيبرس أن يثير الفوضى داخل صفوف الصليبيين، وذلك بأن عقد اتفاقاً مع الحشاشين من أجل اغتيال فيليب مونتفرت (109) Philip of Montfort أمير صور، فلقد شعر الحشاشون بالامتنان لبيبرس لأنه خلصهم من سيطرة فرسان الإسبتارية، بغزواته التي قادها ضدهم، كما أنهم ازدروا بشدة المفاوضات الصليبية المغولية التي دمرت مقرهم الرئيسي ببلاد فارس (110). وتقابلت رغبتهم تلك مع رغبة السلطان بيبرس الذي علم أن فيليب قام بإرسال خطابات ورسائل إلى ملوك أوروبا يحثهم فيها على القدوم إلى بلاد الشام، ولذلك أراد بيبرس التخلص منه بأقصى سرعة، فاستعان بيبرس بالحشاشين لتحقيق هدفه، وبالفعل أرسل الحشاشون اثنين من أتباعهم إلى مدينة صور، وقابلا فيليب مونتفرت هناك وعرضاً عليه استعدادهما للتنصر وبالفعل وافق فيليب على طلبهما ذلك وقام بتعميدهم وأدخلهم في

خدمته ووثق بهم، وقد علم بمخططهم أحد فرسان الصليبيين وكشف سرهم، غير أنهم استطاعوا رشوته بمائة بيزنط، حيث ظل صامتًا، وفي يوم الأحد 17 أغسطس 1270م، بينما كان فيليب واقفًا عند مدخل الكنيسة يتحدث مع أحد أتباعه، دخلا عليه الكنيسة فوجداه هو وابنه جون أوف مونتفرت John of Montfort يقدمون القرابين وبصحبتهم فارس واحد يدعى وليم أوف بيكاجيني William of Picquigny، وبالفعل انتهز أحد الحشاشين الفرصة وانقض على فيليب وطعنه بالخنجر في صدره، ثم حاول قتل ابنه جون غير أن الحارس الخاص بجون استطاع القبض عليه، وتم قتل الحشاش الآخر، أما الحشاش الذي قتل فيليب فتم شنقه. وفيما يتعلق بالفارس الصليبي الخائن فتم التعرف عليه، فقبضوا عليه وعذبوه حتى مزقوا لسانه وقطعوا يده اليمنى ثم تم سحبه وشنقه في نهاية الأمر. (111)

ويلاحظ أن عمليات الحشاشين القاتلة لم تكن دائمًا بجانب الصليبيين ضد المسلمين، بل تغير الوضع وامتدت تلك الاغتيالات لصالح المسلمين أيضًا، وذلك كنوع من أنواع رد الجميل لما فعله بيبرس من تحريرهم من السيطرة الصليبية، كما يلاحظ أيضًا أن القادة الصليبيين لم يتخذوا حذرهم بشكل كامل بالنسبة لسلامتهم الشخصية، معتمدين في ذلك على قوتهم الشخصية وغرورهم في نفس الوقت، على أساس أن المسلمين لن يستطيعوا النيل منهم، وهو ما أثبت عكس ذلك على مر تاريخهم ببلاد الشام.

وفي عام 1272م، عندما كان الأمير إدوارد الإنجليزي Edward (112) موجودًا في مدينة عكا، كانت توجد نية للتخلص منه انتقامًا لما قام به من مذبحه للترکمان أمام حصن كاكون (113)، فقد قدم إلى مدينة عكا أحد الحشاشين مدعيًا أنه يريد التنصر، ولم يمانع الأمير إدوارد وأمر أن يبقى بين خواصه، بل وأقنعه ذلك الحشاش أنه يستطيع التجسس على المسلمين لصالح الصليبيين، وقام بذلك عدة مرات حتى أطمئن له الصليبيون، ووثق به اللورد إدوارد وسمح له بالتحدث نيابة عنه (114)، وفي يونيو 1272م، دخل الفداوي على إدوارد محاولاً قتله أثناء تسلمه أحد الخطابات منه، وكان الملك إدوارد حريصًا إققد استطاع

مقاومته وإسقاط الخنجر من يده على الأرض ولكن بعدما أصيب بثلاث طعنات في ذراعه، ودار بينهما قتال شديد استطاع الملك إدوارد خلاله الإيقاع به على الأرض وقتله وإن أصيب هو بجروح (115)، وقد بذلت زوجة الملك إدوارد إليانور كاستلا Eleanor of Castile جهداً كبيراً من أجل سلامة زوجها حتى تماثل للشفاء (116).

أما فيما يتعلق بعمليات القتل العشوائي والجماعي، فقد حدث بمدينة عكا عام 1290م، التي كان التجار يأتون من دمشق بمتاجرهم إليها، وتحديداً في أغسطس من ذلك العام، وصلت قافلة المحاربين المرتزقة إلى ميناء عكا، ومن لحظة وصولهم إلى المدينة وضعوا السلطات الصليبية في موقف محرج، حيث كانوا فوضويين وسكارى فاسقين، ولم يستطع قادتهم السيطرة عليهم، وذلك لعجزهم عن دفع رواتبهم بانتظام، وقد بدأوا يهاجمون الفلاحين المسلمين المسلمين، واندلعت أعمال الشغب في كل مكان، واندفع غوغاء الصليبيين في شوارع مدينة عكا يقتلون كل مسلم يقابلونه، ولأنهم كانوا معتقدين أن كل من له لحية مسلم، فقد هلك مسيحيون محليون، وارتفعت بارونات المدينة لما حدث، فتدخلوا لإنقاذ المسلمين، وقبضوا على بعض زعماء المشاغبين، غير أن أبناء تلك المذبحة وصلت إلى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الذي غضب بشدة لما حدث، وأصر على تسليم المجرمين له لكي يعاقبهم بنفسه على فعلتهم، وعقد البارونات مجلساً للتشاور فيما بينهم، حيث نشبت الخلافات وتناقضت الآراء حول تسليم المجرمين إلى السلطان. (117)

ومن المثير للانتباه هنا صمت المصادر الصليبية عن جرائم القتل التي كانت تتم داخل طبقة العامة الصليبية، وأكتفائهم بتريد أن المجتمع الصليبي عامر بالمجرمين الذين كانوا السبب الرئيسي في انتشار الجرائم وتعددتها داخل المجتمع الصليبي، واهتموا فقط بالطبقة الحاكمة، ويرجع ذلك إلى أن أغلب الكتاب الصليبيين كانوا من المؤرخين الرسميين للسلطة الصليبية، فلم يهتموا بالحوادث اليومية لطبقة العامة، وأيضاً يرجح صمت هذه المصادر عن ذكر جرائم القتل إلى كثرة حدوثها ووقوعها داخل المجتمع الصليبي، مما جعلهم يعزفون عن ذكرها حتى يظهرون مميزات المجتمع الصليبي ويسترون عيوبه القاتلة.

ويتضح مما سبق أن جريمة القتل لم تكن بشيء جديد على المجتمع الصليبي، ويرجع ذلك لتكوين المجتمع الصليبي ذاته والذي ضم بين عناصره العديد من القتلة المهارين من أوروبا، فارين بجرائمهم من وجه العدالة، بهدف التوبة غير أنهم سرعان ما تناسوا هدفهم الأساسي من الرحلة، وعادوا لممارسة جرائمهم مرة أخرى في المجتمع الصليبي ببلاد الشام. ويضاف إلى ذلك العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي مر بها الصليبيون ببلاد الشام، والتي اختلفت تماما عن واقع معيشتهم الأوربية، مما كان له أكبر الأثر في تفشي جريمة القتل داخل المجتمع الصليبي.

وكان للخيانة الزوجية دور مهم في انتشار جريمة القتل بين طبقات المجتمع الصليبي، حيث تسارع كل من الأزواج والزوجات في التخلص من الآخر، حتى يخلو له الطريق أمام مصاحبة طرف آخر يقضي معه وقتًا من المتعة، حتى لو أدى ذلك الأمر إلى كوارث اجتماعية.

كما تزايدت عمليات القتل بصورة كبيرة في القرن الثالث عشر الميلادي، داخل المجتمع الصليبي ببلاد الشام، نتيجة لتدهور الوضع الأمني داخل الإمارات الصليبية، وكثرة الصراعات بين عناصر المجتمع الصليبي نفسه.

ذلك عرض عن جريمة القتل في المجتمع الصليبي في القرنين 12، 13 م

الهوامش

- (1) عزت حسنين، جرائم القتل بين الشريعة والقانون دراسة مقارنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. القاهرة، 1993م، ص.ص 9، 10.
- (2) محمد عبد الله محمد مهيبو المقدم، الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب. جامعة المنصورة، 2005م، ص 73.
- (3) البيئة الفيزيائية: - وهى التي تشتمل على اليابسة والماء والسماء والمخلوقات الحية، والتي يطلق عليها البيئة الطبيعية، وهذا الطراز من البيئات هو الأساس الذي يتأثر معه الإنسان في شتى ما يقوم به من أوجه النشاط، رشيد الحمد، محمد سعيد صباريني، البيئة ومشكلاتها، ط. الكويت، أكتوبر 1979م، ص 25 .
- (4) أحمد حويبي وآخرون، البطالة وعلاقتها بالجريمة والانحراف في الوطن العربي، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ط. الرياض، 1998م، ص.ص 9، 10 .
- (5) روايات ميخائيل السورى الكبير، ضمن: الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل ذكار، الجزء الخامس، دمشق 1995م، ص 185.
- (6) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 1، ص 302.
- (7) J. F. Michaud, History of The Crusades, New York 1855, p268, Conder, The Latin Kingdom, p25.
- (8) ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص 157.
- (9) أحمد عبد القادر الشاذلي، الاغتيالات السياسية فى إيران، العربي للنشر والتوزيع، ط. القاهرة، 1997م، ص 5.
- (10) R. B. Yewdale, Bohemond I Prince of Antioch, Princeton 1917, p93.
- (11) مجهول، كتاب حملة الملك ريتشارد إلى أراضى القدس المقدسة، ت. سهيل ذكار، الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية، ج 31، ط. دمشق، 1995م، ص 20.

(12) تورس أو ثوروس:- هو أحد رجال فيلاريتوس زعيم جماعات الأرمن، حكم مدينة الرها بالنيابة عن الإمبراطورية البيزنطية، وفي عام 1095م، استقل بالمدينة، وارتضى بوجود قلعة الرها تحت حماية السلاجقة، وبعد طردهم قام بتقوية حصونه وقلاعته، وعمل على تقوية جيش مدينته، غير أنه سرعان ما أصبح غير مرغوب في إمارته، بسبب ضخامة الضرائب التي قام بفرضها على كاهل سكان المدينة، انظر:-

The Crusades An Encyclopedia, ed. Alan V. Murray, 4vols, Oxford 2006, pp 1185-1186.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص.ص 146-147.

(13) روايات ميخائيل السورى، ص 185 .

(14) محمود الرويضي، محمد سالم الطراونة، " دور الأرمن في تأسيس إمارة الرها وأنطاكية الصليبيتين (490-491هـ / 1097 - 1098م)", حوليات آداب عين شمس، م (30)، يوليه - سبتمبر 2002م، ص 194 .

(15) قسطنطين بن روبين:- كما تدعوه الحوليات الأرمنية، وهو ابن روبين ملك الأرمن، فقد كان حاكم ناجحا لإمارته، وكان أميراً شجاعاً وذا نخوة، وكان مقر إقامته بمقاطعته يحكم من خلالها أملاكه، وقد خاض في سبيل الحفاظ على إمارته العديد من الحروب، واستولى على كثير من الحصون والقلاع المختلفة المواقع، بل وصلت قوته إلى هزيمته للجيوش البيزنطية وأخذه العديد من الأسرى، ثم دخل في تحالفات مع الصليبيين ضد السلاجقة، وقد عمل على إعادة إعمار إمارته وإصلاح ما أضرته حروبه المستمرة، وتوفي عام 1100م أنظر:-

Vahrm's, Chronicle of The Armenian Kingdom in Cilicia during The Time of The Crusades, Trans: Charles Fried, , London, 1831, p.p 28-29.

(16) مدينة جرجر أو كركر:- وهى عبارة عن حصن كبير تقع بالقرب من ملطية بينها وبين آمد، ويقع بالقرب منها حصن الران، وكركر أيضاً حصن بين سميساط وحصن زياد، انظر:- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط. بيروت 1979م، ج4، ص 452-453.

(17) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص263.

(18) علية الجنزوري، إمارة الرها، ص69.

(20) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص.ص150، 149، الباز العريني، الشرق الأوسط، ص230، محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في الشرق والغرب، دار الغرب الإسلامي، ط. بيروت، 1982م، ص56، 57.

(21) برترام: هو الأبْن الأكبر لريموند دي سنجيل، كونت تولوز، فقد ترك والده جميع ممتلكاته في تولوز للمشاركة في الحملة الصليبية الأولى، وعندما توفي ريموند ورث برتراند ملكه عندما قدم إلى مدينة طورطوسة بمصاحبة الأسطول الجنوى عام 1109م وطالب بحقوقه في أملاك أبيه في إمارة طرابلس، فأخذ نصف أملاكه منحة من الملك الصليبي بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس، وأمتدت سيطرته لحدود جبال لبنان، وجبال النصيرية، وتوفي في يناير عام 1112م، وتولى بعده ابنه بونز حكم إمارة طرابلس، للمزيد عنه أنظر: Alan,

The Crusades An Encyclopedia, p165

(22) ألكسيوس الأول كومنين: ولد حوالي عام 1057م، وهو الابن الثالث لرجل نبيل يدعى جون كومنين وزوجته أنا دالاسين Ana Dalassene، وقد خدم في الجيش البيزنطي كجنرال تحت حكم الإمبراطور ميخائيل السابع دوкас Micael VII Docas 1071-1078م، ونقفور الثالث يوتانياتس Nicephor III Potaniates 1068-1078م، وبعد ذلك قام بثورة عليه وتولى الحكم في عام 1081م، كما تلقى دعم أسرة دوкас حيث تزوج من إيريني دوкас Irene DouKania عام 1078م، وقام بتطوير نظام الحكم في الإمبراطورية، وقام بتركيز القوى في يد العائلات الأرستقراطية التي تنتمي له بصلة قرابة، وكأفأهم على دعمهم له، وقد توفي في 15 أغسطس 1118م، للمزيد من التفاصيل عن حياته، أنظر:

Alan, The Crusades An Encyclopedia, p.p 45-46, COman, The Byzantine Empire, London, 1892, pp 256-269, Edwerd Foord, The Byzantine Empire, London,

1911, p.p331-344.

(23) وليم جوردان:- هو ابن عم ريموند صنجيل، ووريثه في ممتلكاته ببلاد الشام، فقد سحب ريموند خلال أحداث الحملة الصليبية الأولى، وظل متواجداً معه حتى مقتله في حصار مدينة طرابلس عام 1105م.، وتم إرسال ابن ريموند ألفونسوا جوردان إلى إمارة أبيه صنجيل بالغرب الأوربي، وورث وليم أملاك ريموند ببلاد الشام، غير أن وليم جوردان دخل في صراع آخر مع برتراند، الذي إمتلك القوة والمال، والذي وصل للساحل الشامي عام 1109م وطلب وليم جوردان الدعم من تنكرد أمير طرابلس، وتدخل الملك بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية لفض ذلك النزاع الذي إشتد بين الطرفين، وأعطى أنطربوس وعرقه لوليم جوردان، وأقطع برتراند بعض الأقاليم الأخرى، للمزيد من التفاصيل، أنظر:-

Richard J. Le Conte de Tripoli Sous La Dynastie Toulousaine, Paris, 1945, p61-65, Alan, The Crusades, An Encyclopedia, p 1279,

السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، ط. الإسكندرية، 1966م، ص.ص 141-146.

(24) أنطربوس:- وهي بلدة تقع على سواحل بحر الشام، وهي من أعمال دمشق من البلاد الساحلية، وأول أعمال مدينة حمص، وتعد أيضاً من أعمال مدينة طرابلس المطللة على البحر في شرقي عرقه وبينهما ثمانية فراسخ، وتمتلك المدينة برجين شديدي الحصانة مثل القلعة، انظر:- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص270 .

(25) عرقه:- وهي بلدة تقع شرقي مدينة طرابلس وبينهما أربعة فراسخ، وهي آخر أعمال دمشق، وتقع في سفح جبل، بينها وبين البحر نحو ميل، ويقع على جبلها قلعة حصينة تابعة لها، وتعد من العواصم تقع بين ريفية وطرابلس، انظر:- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج4، ص109.

(26) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص276 .

(27) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، ط. الإسكندرية، 1966م، ص.ص 141-146، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص302.

(28) ميلون دي بلانسي: - هو من مواليد شمانيا بفرنسا، وذهب إلى بلاد الشام عام 1160م، واشترك في حملات الملك الصليبي عموري الأول على مصر، وفي عام 1173م، تزوج من ستيفاني أرملة همفري الثالث أمير طورون، وفي 11 يوليو 1174م، توفي الملك عموري الأول، وخلفه ابنه بلدوين الرابع حيث كان طفلاً، وعين ميلون واصياً عليه، مما جعله محط أحقاد الآخرين من الأمراء، وقد قام بقيادة الأسطول الصليبي الذي بعث به وليام الثاني من صقيلة لمحاصرة مدينة الإسكندرية، غير أن منصب الوصي على العرش جعله يدخل في صراعات شرسة مع بقية أمراء البيت الصليبي، للمزيد من التفاصيل انظر:-
وليم الصوري، المصدر السابق، ج4، ص179.

Bernard Hamilton, "Miles of Plancy and the fief of Beirut", in The Horns of Hattin, ed. Benjamin Z. Kedar, Jerusalem, 1992, p. 136-46.

(29) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج4، ص 179 .

N. Hodgson, Women, Crusading And the Holy Land in Historical Narrtive, Woodbridge, 2007, p78.

(30) عبد الحفيظ محمد، مشكلات الوراثة، ص 101 .

(31) وليم الصوري، المصدر السابق، ج4، ص 179 .

(32) سعيد السيد علي فرغلي، آل كورتناي ودورهم في الصراع الإسلامي الصليبي، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، 1992م، ص194.

(33) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص 580 .

(34) وليم الصوري، المصدر السابق، ج4، ص 180.

(35) وليم الصوري، المصدر السابق، ج4، ص 180، عبد الحفيظ محمد، مشكلات

الوراثة، ص10.

(36) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص580.

(37) وادى عربية: أو عرابة بفتح أوله وتشديد ثانيه، وهى من أعمال عكا بالساحل

الشامي، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط. بيروت 1979م، ج4، ص92.

(38) ريموند الثالث: - هو أمير إمارة طرابلس وطبرية، ونائب الملك الصليبي لفترتين

(1174-1176م) ومن (1185-1186م)، وهو ابن لريموند الثاني أمير طرابلس

وهويدرنا أخت الملكة مليندا ملكة مملكة بيت المقدس الصليبية، وقد تولى الحكم في إمارة

طرابلس عام 1155م، ثم وقع في أسر نورالدين محمود عام 1164م عندما كان يهاجم

مدينة أرتاح، وظل في الأسر مدة ثمان سنوات، في حين كانت إمارته واقعة تحت سيطرة

الملك الصليبي عموري الأول، وبعد أن تم إطلاق سراحه في أوائل عام 1174م، تزوج من

إسشيفا Eschiva، أرملة والتر أوف سانت أويمر Walter of Saint Omer، وفي

ربيع عام 1180م، توجه كل من ريموند الثالث بصحبته بوهموند الثالث أمير أنطاكية

بجيوشهما نحو مملكة بيت المقدس من أجل تدعيم الملك الصليبي بلدوين الرابع، وتوفي عام

1187م، للمزيد من التفاصيل عن حياته، انظر:-

Baldwin, Raymond III of Tripoli and The Fall of Jerusalem (1140-1187), Princeton: Princeton University Press, 1936, Hamilton, Bernard, The Leper King and His Heirs: Baldwin IV and The Crusader Kingdom of Jerusalem, Cambridge, 2000.

(39) محمد مهيب، الاغتيالات، ص188.

(40) Annales des Terre Sainte, 1095-1291, Edi.: Gaston Raymoud, Paris, 1884, p445.

(41) ليو الأول الأرميني: نجح ليو الأول الأرميني كأحد أمراء أخيه روين الثالث الذي كان

قائدًا عامًا على كاليكيا الأرمينية، وقد نجح في حماية بلاده من اعتداءات السلاجقة

المستمرة، وقد استطاع مد نفوذ إمارته غربًا فيما وراء سلوقية، وشمالًا فيما وراء بوابات كاليكيا، وقد اهتم بتعمير إمارته، وأقام بها العديد من المشروعات، وقد قام بمفاوضة الإمبراطور فردريك برابورسا، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، من أجل أن يقوم بتتويجه رسميًا على بلاده، أثناء عبور فردريك برابورسا كاليكيا، غير أن مشروعه باء بالفشل نتيجة وفاة فردريك أثناء عبوره أحد انهار كاليكيا عام 1190م وذلك أثناء مشاركته بالحملة الصليبية الثالثة (1189-1192م)، وقد قام ليو بإرسال فرق عسكرية شاركت في حصار مدينة عكا خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة، وذلك من أجل مشاركة إخوانه الصليبيين على الرغم من الخلافات التي وقعت بينه وبين أمير أنطاكيا وجماعة الداوية، وفي 6 يناير 1198م تم تتويجه ملكًا في طرسوس بواسطة الأرمن الكاثوليك في حضور بطاركة السريان الأرثوذكس، ومبعوث البابوية، ومستشار الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الثالث أنجيلوس، للمزيد من التفاصيل، أنظر:-

Alan, Encyclopedia, p722, Nersessian, The Kingdom of Cilician Armenia, in Setton, Vol. 2, London, 1969. p.p 644-651.

(43) رنسيان، الحملات الصليبية، ج3، ص180.

(44) أولفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، ت. سهيل ذكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج 34، ط. دمشق، 1998م، ص69، نهي فتحي، إمارة طرابلس، ص72.

(45) محمد مهيب، الاغتيالات، ص200، عثمان عبد الحميد، الإسماعيليون في بلاد الشام، ص176.

(46) أسامة زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص236، رنسيان، المرجع السابق، ص184.

(47) نهي فتحي، المرجع السابق، ص72.

(48) محمد مهيب، الاغتيالات، ص200.

(49) نهي فتحي، المرجع السابق، ص73.

J. F. Michaud, History of The Crusades, New York, 1855, p190

(50) علاء الدين كيقباز: - هو ابن السلطان كيخسرو الأول، وتولى بعد وفاة أخيه كيكائوس الأول (1211-1219م)، وقد امتاز عهده بالرفاهية وزيادة العمران وتطور التجارة وتنمية الصناعة وتقدم الزراعة، فاستطاع أن يجعل من مملكته أغنى الممالك، وكان ذلك بسبب سياسته العسكرية الراجحة ودبلوماسيته المتفوقة، فقد مد حدود مملكته حتى الشاطئ الجنوبي للأناضول، حتى الساحل المواجه لجزيرة قبرص، وأقام مقره الرئيسي في موضع اسمه العلايا، وقد اهتم بقوته البحرية، حيث أنشأ أسطولاً قوياً، هاجم به كرمييا 1225م، في الوقت نفسه الذي أرسل فيه جيشاً لأرمينيا في الشرق، أنظر:

مجهول، أخبار سلاجقة الروم، من مؤلفات القرن السابع الهجري، ترجمة: محمد السعيد جمال الدين، المركز القومي للترجمة، ط. القاهرة، 2007م، ص. ص 2- 245، زبيدة عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، ط. القاهرة، ب.ت، ص120، يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ت. عدنان محمود سلمان، المجلد الأول، مؤسسة فيصل للتمويل، أستنبول، 1988م، ص72.

(51) قسطنطين: - بعد اغتيال أتان Atan تم تعيين قسطنطين نائباً للملك في مايو عام 1219م، ثم بتتويج ابنة أتان إيزابيلا ملكة على أرمينيا، والتي كانت وريثته الوحيدة، وعند زواج قسطنطين من العائلة المالكة، اعترف به البارونات ملكاً شرعياً على البلاد، وأقسموا له بيمين الولاء والطاعة، غير أنه سرعان ما دبت الاضطرابات في أنحاء مملكته، فقد دخل في صراعات مستمرة مع سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، ومع الصليبيين بإمارة أنطاكية، وتوفي قسطنطين عام 1223م، وخلفه ابنه هيثوم في وراثة العرش، للمزيد من التفاصيل أنظر:-

Vahrm's, Chronicle of The Armenian Kingdom in Cilicia during The Time of The Crusades, Trans: Charles Fried, London, 1831, p.p 46-47.

(52) قلعة العمودين أو العمادية:- هى قلعة تقع على ثلاث مراحل من الموصل من الشرق والشمال، وهي جبل من الصخر في الوطأة، وتحتها مياه جارية، وهي في جهة الشمال من أربل، انظر:- أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينود، ماك كوكين ديسلان، ط. باريس 1840م، ص350.

(53) حسين عطية، إمارة أنطاكية، ص321.

(54) سعدون عباس نصرالله، رحيل الصليبيون عن الشرق في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، ط. بيروت، 1995م، ص13.

(55) R .B .Yewdale, Bohemond I Prince of Antioch, Princeton 1917, p.93

(56) ستيفن الشارترى:- كان فارسًا ثم فيسكونتًا في مدينة شارتر بفرنسا، ثم التحق بخدمة الكنيسة بنفس المدينة، ثم ارتحل إلى الأراضي المقدسة حيث تم انتخابه بطريركًا لمملكة بيت المقدس من 1128-1130م، وقد كان أحد أسباب تقوية النفوذ الكنسي داخل المملكة الصليبية ببلاد الشام، ونتيجة لذلك دخل في صراع شرس مع الملك الصليبي بلدوين الثاني، وقد كان له دور في تنظيم نشأة جماعة الداوية، للمزيد عنه، أنظر:-

Hamilton, The Latin church in the crusader states, Landon 1980, Alan Murray, The Crusades, An Encyclopedia, p1123.

(57) جورموند:- من أصل فرنسي، حضر إلى الأراضي المقدسة قادمًا من مدينة بيكيني Piquigny، الواقعة في أسقفية أميينز Amiens ، حيث تولى بطريركية مملكة بيت المقدس خلفًا لأرنولف عام 1118م، وقد كان رجلاً معروفًا بالاستقامة، حسبما وصفه وليم الصوري، وقد استطاع أن يوفق أوضاع الكنيسة والمملكة الصليبية باقتدار أثناء فترة أسر الملك الصليبي بلدوين الثاني، وظل في منصب البطريركية حتى عام 1128م، للمزيد عنه، أنظر:-

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص344، سعيد عبد الله البيشاوي، الممتلكات

- الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1291م)، دار المعرفة الجامعية، ط. الإسكندرية، 1990م، ص.ص 140-141، هامش(2).
- (58) وليم الصوري، المصدر السابق، ج3، ص 67.
- (59) إبراهيم سعيد فهيم محمود، يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي (1099-1291م)، ط. الإسكندرية، 1991م، 130.
- (60) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج3، ص68، محمد عبد الله محمد مهيبو المقدم، الاغتيالات، ص209
- (61) وليم الصوري، المصدر السابق، ج3، ص68، سرور عبد المنعم، السياسة الداخلية والخارجية، ص21.
- (62) رالف:- ولد رالف بمدينة دمفرون بنورماندى جنوب فرنسا، حيث كان فارساً ثم انضم بعد ذلك للسلك الكهنوتي، ثم ذهب إلى بلاد الشام حيث تم انتخابه بطيررگا لأنطاكية خلفاً لبرنارد أوف فالنس، وسرعان ما دخل رالف في صراع مع ريموند أمير أنطاكية، انظر:-

B.Hamilton "Ralph of Domfront, Patriarch of Antioch (1135-1140)", in; Nottingham Medieval Studies, No.28, (1984), p.p(1-21)

- (63) ريموند الثاني:- هو ابن بونز أمير طرابلس، وكليكيأ أوف فرانس أرملة تنكريد أمير أنطاكية، ووصل ريموند للحكم بعد مقتل والده عام 1137م، ثم تزوج من هويدرينا Hodierna أخت الملكة ملبيندا Melisende ملكة بيت المقدس، والتي أُنجبت له ريموند الثالث Raymond III، ووقع في أسر زنكى، ثم أطلق سراحه، حيث دخل في صراع مع ألفونسو أوف جوردان Alphonse of Jordan، وقد كان لريموند علاقات مع فرسان الإسبتارية حيث منحهم قلعة الكرك، وقد كان من نتائج الصراع مع ألفونسو، عدم يتعاون ريموند مع قادة الحملة الصليبية الثانية في الهجوم على مدينة دمشق،

وتوفي ريموند الثاني عام 1152م، لمزيد من التفاصيل أنظر: -

Richard (J), *Le Conte de Tripoli Sous La Dynastie Toulousaine*, Paris, 1945, p.p 7-11.

(64) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج3، ص.ص 193-197، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص434.

(65) روايات ميخائيل السوري الكبير، ضمن: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل ذكار، الجزء الخامس، دمشق، 1995م، ص 165.

(66) وليم الصوري: هو المؤرخ الرسمي لمملكة بيت المقدس الصليبية في القسم الأول من القرن 12م، ولد في بيت المقدس حوالي عام 1127م، من أبوين فرنسيين، وقد تلقى وليم الصوري المؤرخ تعليمه الأول في إحدى المدارس التابعة للأديرة، وفيما بعد سافر إلى الغرب الأوربي خاصة فرنسا وبولونيا حيث تتلمذ هناك على مراكز العلم خلال نهضة القرن 12م، لمدة عشرين عامًا فيما بين عامي 1146-1165م، وعندما عاد أدراجه إلى بيت المقدس خلال عهد الملك عموري الأول (1163-1174م)، جعله مؤدبًا لابنه بلدوين الرابع، وطلب منه كتابة تاريخ المملكة الصليبية، وبالفعل ألف تاريخ الأعمال، وتاريخ الأمراء الشرقيين، والأخير مفقود، للمزيد من التفاصيل أنظر:

Edbury and Rowe, *William of Tyre Historian of the Latin East*, Cambridge, 1988, Krey, "William of Tyre The making of an Historian in the Middle Ages", S, Vol. XVI, 1941, PP149-166, Davis, "William of Tyre", in, *Relations between East and West in The Middle Ages*, ed. Baker, Edinburgh, 1973, PP64-77, R. Crawford, *William of Tyre and Maronites*, *Speculum*, Vol.30, No.2, (Apr 1955), PP. 222-228,

جمال الزنكي، "المؤرخ وليم الصوري في ميزان النقد التاريخي"، *المجلة العربية للعلوم الإنسانية*،

العدد: 85، السنة 22، 2004م، ص 41-47، سمايلي، المؤرخون في العصور الوسطى،
ت. قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة، 1980م، ص.ص 186-187، عمر كمال توفيق، "
المؤرخ وليم الصوري"، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، م(21)، عام 1967م، محمد
مؤنس عوض، وليم الصوري مؤرخاً للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية في المرحلة
من 1137-1150م، سلسلة دراسات شرق أوسطية، مركز بحوث الشرق الأوسط،
جامعة عين شمس، ط. القاهرة، 1995م .

(67) البطريك هرقل: هو في الأصل شخصية دينية فرنسية، ولدت في مقاطعة أفريجين
Auvergne في جنوبي فرنسا، وقدم إلى بيت المقدس وصار قسيساً، وتولى منصب رئيس
شمامسة بيت المقدس خلال المدة من 1169-1175م، وفي أعقاب هرنسيوس رئيس
أساقفة قيسارية عام 1175م، تم انتخابه من فوره لكي يتولى المنصب الشاغر، وقد مثل
المملكة الصليبية خارجياً حيث توجه عام 1178م مع وفد من رؤساء الأساقفة ورؤساء
الكنائس والأديرة إلى روما، وفي أعقاب وفاة عموري أنسلم بطريك بيت المقدس عام
1180م، تم انتخاب هرقل لكي يخلفه في منصبه، أنظر:

سعيد عبد الله البيشاوي، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-
1291م)، دار المعرفة الجامعية، ط. الإسكندرية، 1990م، حاشية(1)، ص 280،
مارشال بلدوين، اضمحلال وسقوط بيت المقدس 1174-1189م ضمن كتاب تاريخ
الحروب الصليبية، تحرير: سعيد البيشاوي ومحمد مؤنس، ص 285، حاشية (17)،

Kedar, " The Patriarch Eraclius", in Kedar (B.Z), Mayer,
and Smail (R.C), ed. Outremer Studies in the Crusading
kingdom of Jerusalem, Jerusalem, 1982, PP 177-204,
Regan, Saladin and the Fall of Jerusalem, London, 1987,
P55, M. Spinka, Latin Church of the Early Crusade,
Church History, Vol.8, No.2, (Jun1939), P.122.

(68) ذيل وليم الصوري، ص 83 .

(69) Archer and C. L. Kingsford, The Crusades, The Story of The Latin Kingdom of Jerusalem, New York, p 270, W. Besant, Jerusalem, The City of Herod and Saladin, London, 1871, p267.

(70) ذيل وليم الصوري، ص 83.

(71) عبد الحفيظ محمد علي، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية (113-1187م)، دار النهضة العربية، ط. القاهرة، 1984م، ص.ص 72،73.

(72) محمد مؤنس، "أضواء على الطب في المناطق الصليبية خلال المرحلة من 1098 إلى 1174م / 491-570هـ"، ضمن كتاب (عصر الحروب الصليبية بحوث ومقالات)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط. القاهرة، 2006م، ص 125 .

(73) Anonymous , City Of Jerusalem (1220 A.D) , Trans. C.R.Conder , P.P.T.S. London 1896, p59.

(74) نسرین الأربلي، التدابير الأمنية، ص.ص 133، 132.

(75) محمد مؤنس، أضواء على الطب، ص 125.

(76) مهيب، الاغتيالات في بلاد الشام، ص 208.

(77) محمد مؤنس، المرجع السابق، ص 126.

(78) Jacques de Vitry, Letters de Jacques de Vitry, (Par. R.B.C.Huygens), Leiden, 1960, p87.

(79) Jacques de Vitry, Letters de Jacques de Vitry, p87 .

(80) The Monk Theodosios the Constantinopolitan, The Life of Leontios patriarch of Jerusalem, Trans.: Dimitris Tsougarakis, New York, 1993, p129

(81) P. Mitchell, Medicine in the Crusades: Warfare, Wounds, and The Medieval Surgeon, Cambridge, 2004, p155.

(82) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج3، ص291.

France, The Crusades and The Expansion of Catholic Christendom, 1000-1714, New York, 2005, p137

(83) Natasha Hodgson, Women, Crusading and the Holy Land, p140,

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص.ص 512،513، أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص224، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، ط. الإسكندرية، 1966م، ص276، حامد زيان، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط. القاهرة 1983م، ص99.

(84) صيدا: - مدينة وقلعة تقع على الساحل الجنوبي من لبنان، على رقعة متسعة من الأرض تمتد قليلاً داخل البحر، وللمدينة مرفأً يحميه ريف صخري طبيعي، كما يحميه حصن بحري من المحميات الخارجية القادمة من البحر، انظر: - مولر، القلاع، ص90..

(85) أسامة زكي زيد، صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. الإسكندرية 1988م، ص148.

(86) كونراد أوف مونتفرات: هوابن وليم الثالث مركز مونتفرات بشمال إيطاليا، حضر أخوه وليم طويل السيف أكبر أبناء المركز إلى الشام في عام 1175م، وتزوج من سبيلا شقيقة بلدوين الرابع وانجب منها بلدوين الخامس، إلا أن وليم مات في عام 1177م وذهب أخوه الثاني رينيه إلى بيزنطة ومات هناك، وقدم أبوه المركز العجوز إلى بلاد الشام في عام 1185م، بعد موت الملك بلدوين الرابع ليرعى حفيده بلدوين الخامس، وكان المركز من بين أسرى صلاح الدين في حطين، وذهب كونراد إلى القسطنطينية حيث ساعد الإمبراطور اسحق أنجليوس (1185-1195م)، في القضاء على ثورة اندلعت ضده وتزوج من ثيودورا شقيقة الإمبراطور البيزنطي الذي تشكك في نوايا كونراد فيما بعد وساءت العلاقات فيما بينهما، فحضر كونراد وبصحبه بطانته من الإيطاليين، ورسا في مرفأً عكا،

وعلم أنها سقطت في أيدي صلاح الدين، فتظاهر بأنه تاجر من الغرب حتى تمكن من الإبحار إلى صور، وكانت والدته كونراد أختًا غير شقيقة لوالد الإمبراطور فريدريك بربروسا، وكان أبوه الماركيز العجوز أختًا غير شقيقة لأديلا والدته الملك لويس السابع، كما كان كونراد عما للملك بلدوين الخامس ملك بيت المقدس الطفل: للمزيد أنظر:

Ernoul, Chronique d' Ernoul et de Bernard Le Tresier, ed., M.L. de Mas Latrie, Paris, 1871, pp.180-181.

حسين عطية، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، الإسكندرية، 2000م، ص 201.
(87) مجهول، الحرب الصليبية الثالثة، ت. حسن حبشي، ط. القاهرة 2000م، ص 88.

(88) محمد مهيب، الاغتيالات، ص 190.

(89) جاي لوزيجنان: نبيل من أصل فرنسي، تزوج من سييلا بنت الملك الصليبي عموري الأول، وصار ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية عام 1186م، ووقع في الأسر يوم حطين، وبعد وفاة زوجته دخل في صراع على العرش مع كونراد مونتفرات، ثم تخلى عن عرش بيت المقدس في مقابل ملكيته لقبرص، للمزيد من التفاصيل عنه انظر:
مجهول، ذيل وليم الصوري، متفرق، محمد فوزي، نهاية الصليبيين، ص 20،

Ernoul, Chronique d' Ernoul, p 172-186, Cf. also, Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre Sous le regne des princes de la maison de Lusignan, T..I, Paris, 1861, PP1-42, Painter, The Houses of Lusignan and Chatellerault 1150-1250, Speculum, Vol.30, No.3, (Jul.1955), pp. 374-384, Id, The Lords of Lusignan in The Eleventh and Twelfth Centuries, Speculum, Vol.32, No.1, (Jan.1957), pp. 27-47.

(90) ريتشارد قلب الأسد: هو ابن الملك الإنجليزي هنري الثاني ووريثه في حكم إنجلترا، اعتلى عرش إنجلترا عام 1189م، وما لبث أن خرج للمشاركة في الحملة الصليبية الثالثة،

وبعد عودته من الشرق دخل في حرب طويلة مع فرنسا للمحافظة على أملاكه الأوربية، حتى توفي على أثر جرح بالغ، عام 1199م، للمزيد عنه أنظر:
أمبروز، صليبية ريتشارد قلب الأسد، ضمن الموسوعة الشامية، ج32، ترجمة: سهيل زكار، دمشق، 1989م، تواريخ آل بلانتجن، ضمن الموسوعة الشامية، ج30، ترجمة: سهيل زكار، دمشق، 1989م، ص217-280،

Gervas (The Monk of Canterbury), The Gesta Regum with its Continuation, ed, William Stubbs , R.S., vol.73., pt.2, London, 1965, pp86-91, Cf. also: Round (J.H), "Some no.71, (Jul., 1903), pp. 475-781, John Finlayson, "Richard, Coeur de Lyon", Romance History or Something in Between?, Studies in Philology, Vol.87, No.2(Spring1990).

(91)فيليب الثاني أوغسطس: ابن لويس السابع ملك فرنسا وخليفته، ولد عام 1165موتولى الحكم عام 1180م، وشارك في الحملة الصليبية الثالثة، حكم لمدة طويلة وصلت إلى 44 عامًا، إذ توفي عام 1223م، بعد أن رسخ نفوذ ملوك فرنسا ووسع نفوذهم مستغلا الحروب ضد المهرطقة المعروفة بالألبجينسية بمباركة البابوية، ولم يتوفى حتى صارت فرنسا قوة عظمى في أوروبا، للمزيد عنه انظر:

Walker, On the increase of royal power in France under Philip Augustus, London, 1888, p.p1-144; Hutton, Philip Augustus, London, 1896,p.p1-228.

(92) محمد فوزي، نهاية الصليبيين، ص43، مولر فيز (فولفغانغ)، القلاع أيام الحروب الصليبية، ت. محمد وليد الجلاد، مراجعة. سعيد طيان، ط. دمشق، 1984م، ص24.
(93)Corless Slack, Historical Dictionary of The Crusades, Oxford, 2003, p103.

(94) ابن شداد (القاضى بهاء الدين ت 1234م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، ط. القاهرة، 1994م، ص310.

Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, 1099 – 1291 A.D, London, 1897, p284.

(95) مجهول، الحرب الصليبية الثالثة، ج2، ص163.

(96) ذيل وليم الصوري، ص226.

(97) أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن الثانى عشر الميلادي/السادس الهجري)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. الإسكندرية، 1980م، ص228.

(98) مجهول، المصدر السابق، ج2، ص163، أبو شامة، الروضتين، ج2، المجلد4، ص175.

(99) راشد الدين سنان: هو راشد الدين سنان بن سلمان محمد أبو الحسن البصري، مقدم الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، خاصة في النصف الثاني من القرن 12م، وتحديدًا خلال المرحلة من 1163 إلى 1193م، وهو في الأصل من مدينة البصرة من قرية عرفت باسم عقر السدن، وقد سيطر على أتباعه سيطرة تامة، وقد وصف بأنه كان " بعيد الهامة عظيم المخاريق"، وكانت له قدرة كبيرة على مخادعة القلوب، ووصفته المصادر التاريخية السنية بأنه أباح لأتباعه المحرمات، وقد توفي عام 1193م، وبعد وفاته، أعتقد أتباعه في غيبته ورجعته، وهناك من قرر أن في حصن الكهف - وهو من حصون الدعوة الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام - يوجد الغار الذي اختفى فيه راشد الدين سنان، ويقال انه مدفون فيه، وزعموا أنه غاب فيه ويظهر منه، للمزيد أنظر:

ابن العميد، أخبار الأيوبيين، تحقيق: كلود كاهن، 1955-1957م، ص.ص 137-138، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط. بيروت، 1992م، ج6، ص117، شيخ الربوة الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق: مهرن، ط. بطرسبرج، 1865م، ص208، أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية

(القرن الثاني عشر الميلادي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. الإسكندرية، 1980م، عارف تامر، سنان وصلاح الدين، ط. بيروت، 1956م، عثمان عبد الحميد عشري، الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية 1097-1290م، ط. الخرطوم، 1983م، ص.ص 1-230.

(100) عثمان عبد الحميد عشري، المرجع السابق، ص 167.

(101) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، راجعه و صححه: - محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، ط. بيروت، 2003م، ج 10، ص 213.

(102) العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبيح، ط. القاهرة، 1965م، ص 589، عثمان عبد الحميد، الإسماعيليون، ص 168.

(103) مجهول، تواريخ أسرة بلاتنغت، ت. سهيل ذكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج 30، ط. دمشق، 1998م، ص 266.

(104) محمد فوزي، نهاية الصليبيين، ص 43.

(104) Eracles, pp195-198, Charles E. Nowell, The Old man of the Mountain, in: J.M. S, vol, 22, p508,

وأنظر: حسين عطية، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص 205، حاشية رقم (18)

(105) حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (1171-1268م/567-666هـ)، دار المعرفة الجامعية، ط. الإسكندرية، 1989م، ص 351 .

(106) هنري أمبرياكو:- وقد تولى حكم مدينة جبيل، وكان يعد العدو اللدود لبوهمند السادس صاحب طرابلس، ومنذ اللحظة الأولى التي تولى فيها حكم تلك المدينة، أعلن انفصال تبعيته عن كونت طرابلس، وأعترف بفضل الجنوية وساندهم، أنظر:-

سامية عامر، الصليبيون في فلسطين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2002م، ص 122.

(107) The Templar of 338، ج 3، ص 338، رنسيان، الحملات الصليبية، ج 3، ص 338، Tyre, part III of the Deeds of the Cypriots, Trans, Paul

Crawford, Cornwall, 2003, p32.

نهي فتحي، إمارة طرابلس، ص 88 .

(108) جاي الثاني أمبرياكو: - هو ابن أخت لورد بيروت جون أوف أبلين الأصغر الذي توفي، ولذلك فقد إنحدر من عائلة أصلها من مدينة جنوة الإيطالية تدعى أمبرياكو، وكان جده وليام أوف أمبرياكو حاكم جبيل، وقد دخل جاي في صراعات مع بوهيمند السابع أمير طرابلس، وقد قتل عام 1282م، للمزيد عنه أنظر:-

The Templar of Tyre, Op.Cit p71.

(109) نهي فتحي، إمارة طرابلس، ص 98 .

(111) Les Gesta des Chiprois, ed. R.H.C. Doc Arm, t.II, Paris, 1906, pp.748-750,

سامية عامر، الصليبيون في فلسطين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2002م، ص 135، إبراهيم خميس، دراسات، ص 354، نهي فتحي، إمارة طرابلس، ص.ص 98-99.

(110) فيليب مونتفرت: كان والده هو جاي مونتفرت، وأمه هيلفيس إبلين، تزوج من ماري الأرمينية ابنة ريموند روبين التي ورثت إقطاع تبين، كان شديد الولاء لأخواله آل إبلين، ومن ثم تصدى لمحاولة فلانجيري عام 1243م، للقضاء على الأبلينيين في عكا، شارك في المعركة الحربية التي هزم فيها الجيش المصري الصليبيين عام 1243م، كما شارك في حملة لويس على مصر وفر من الأسر في دمياط، وشارك مشاركة فعالة في الأحداث السياسية وذاع تأييده المطلق للملك هيو الثالث زلميز من التفاصيل أنظر:

The Templar of Tyre, part III of the Deeds of the Cypriots, Trans by, Paul Crawford, Cornwall, 2003, PP.60-63

(111) رنسيمان، الحملات الصليبية، ج 3،

(112) The Templar of Tyre, p.p 65,66.

(114) الأمير إداورد: هو ابن هنري الثالث ملك إنجلترا وولي عهده، ولد في (17 من يونيه

1239م)، قرر المشاركة في حملة لويس التاسع الصليبية على تونس عام 1270م، لكنه تأخر ووصل بعد فوات الأوان، لكنه قرر الوفاء بالنذر الصليبي الذي قطعه والده على نفسه ولم يستطع الوفاء به بسبب المشاكل السياسية التي تعاني منها بلاده، لكنه لم ينجز شيئاً، فغادر عكا بعد عقد هدنة مع المماليك في عام 1272م ليجد نفسه وقد صار ملكاً على إنجلترا بعد وفاة والده، لكنه ظل مهتماً بالحركة الصليبية دون أن يستطيع تقديم شيء يذكر في ظل مشاكله الأوربية وتدهور أحوال الصليبيين في بلاد الشام، حتى توفي عام 1308م، للمزيد عنه أنظر:

The Templar of Tyre, PP67-69, Eracles, L' Histoire d' Eracles Empereur et La Conquete De La Terre d'Qutremere, R.H.C, Hist. Occidentaux, Tom. II, Paris, 1849, pp. 61-62, The Chronicle of Bury St. Edmunds, Trans.: Antonia Gransden, London, 1964, PP46-54,

أيضاً: زينب عبد المجيد عبد القوي، الإنجليز والحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط. القاهرة، 1996م، ص 207-238، محمد فوزي، نهاية الصليبيين، ص 238 .

(114) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 215.

(115) أسامة زكي، الصليبيون، ص 238 .

(116) جرجس فام، الأحوال السياسية، ص 239.

P.Edward I, London, 1997, p78.

(117) رنسيمان، الحملات الصليبية، ج 3، ص 473.

معارك حمص الثلاث بين المماليك والمغول
(1260م، 1281م، 1299م)

د/حجازي عبد المنعم سليمان
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب – جامعة المنوفية

معارك حمص الثلاث بين المماليك والمغول (1260م، 1281م، 1299م)

كان للمغول أطماع واسعة في حكم العالم بحيث خرجوا من بلدانهم في شرق آسيا واجتاحوا أغلب قارة آسيا وصولاً إلى غربها وهاجموا أوروبا وهددوا مصر من خلال بلاد الشام، ثم تحطمت آمالهم في معركة عين جالوت 1260م على أيدي المماليك وما تلاها من معارك دارت بين الطرفين. وقد رسخ في عقيدة المغول أن المماليك يتحملون مسئولية إجهاض حلمهم الكبير، وحينما قرروا محاربة المماليك والانتقام منهم فإن معارك حمص الثلاث كانت أحد أهم ارهاصات تلك الرغبة الانتقامية.

وتعالج هذه الدراسة معارك حمص الثلاث التي وقعت بين المماليك والمغول من خلال عدة عناصر يتصدرها تحديد طرفي المعارك الثلاث وتسميتهم، وتاريخ وقوع المعارك الثلاث والدراسات السابقة وأهمية الدراسة وجدواها، وطبوغرافية مدينة حمص وأهمية موقعها الذي وقعت فيه أحداث تلك المعارك ثم أهم مقدماتها وأسبابها، وحجم الجيوش لدى الطرفين وتشكيلاتها وأهم العناصر المشاركة وتسليحها، ثم عالج الباحث أهم أحداث المعارك الثلاث والنتائج المترتبة عليها في دراسة مقارنة بين المقدمات والأحداث والنتائج.

ويهدف الباحث إلى الوقوف على المعارك الثلاث في حمص فحسب بصورة مركزة، للوقوف على دور المماليك والمغول وحدهما فيها، في دراسة مقارنة بين المقدمات والأسباب والنتائج لتسليط الضوء على القواسم المشتركة بين المعارك الثلاث والتطور النوعي في خططها والمصير الذي آلت إليه، وأهم النتائج التي ترتبت عليها.

أطراف المعارك الثلاث وتاريخ وقوعها:

أما أطراف تلك المعارك وتسميتهم فقد خاضها المماليك من جهة ومغول فارس - أو إيلخانات فارس - تمييزاً لهم عن مغول القفجاق الذين كانوا على وفاق مع دولة المماليك

من جهة أخرى، وليس من المنهج التاريخي استخدام التسمية الدينية في الإشارة إلى المماليك بأهم مسلمين ثم نعرض عن المغول تمامًا بقول المغول فقط دون تسمية دينية مماثلة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن التسمية الدينية غير مانعة بسبب مشاركة بعض أمراء المماليك في صفوف المغول على ما حدث في حمص الثانية والثالثة وهم مسلمون بالطبع، ناهيك عن أن غازان ذاته الذي قاد حمص الثالثة كان مسلمًا هو وبعض جنوده، وبالتالي لا يصح منهجيًا التفرقة بين الطرفين بمسلمين وغير مسلمين.

وعلى الرغم من وجود حلفاء مع المغول سواء من الصليبيين أم الأرمن أم الكرج في المعارك الثلاث أو في بعضها فإن القيادة والتحرك والتوجيه والكثرة كانت من نصيب المغول، ومن ثم لا يتعارض مع المنهج استخدام تسمية المغول كقيادة وتنظيم بصفتهم الطرف الثاني للمعركة، ولأن بعض الشاميين وغيرهم شاركوا في تلك المعارك إلى جانب المماليك فلا يصح منهجيًا أيضًا استخدام تسمية المصريين كطرف ثاني لأنها تسمية غير جامعة وغير مانعة في ظل مشاركة المصريين والشاميين، ولأجل ذلك فإن الباحث سوف يسمي هذا الطرف بالمماليك كقيادة وحشد ومشاركة وأكثر تأثيرًا بالنتائج.

وعن وقت وقوع تلك المعارك فقد حدث أولها في 10 من ديسمبر 1260م وعُرف باسم معركة حمص الأولى، وبعد حوالي 21 عاماً وقعت معركة ثانية بين الطرفين حملت اسم حمص الثانية في 29 من أكتوبر 1281م، وبعد حوالي 18 عاماً وقعت معركة ثالثة حملت اسم حمص الثالثة عام 28 من 23 من ديسمبر 1299م.

أهمية الدراسة وجدواها:

وتكمن أهمية الدراسة وجدواها من استعراض أوجه القواسم المشتركة بين المعارك الثلاث، ويتصدرها ثبوت مكان المعركة في شرقي حمص وشمالها الشرقي كمدخل مهم تحتم على الراغب في العبور إلى دمشق تخطيها وبالتالي فإنها كانت بمثابة خط أمني متقدم لدمشق وهذا ما أكدته ملابسات المعارك الثلاث.

ناهيك عن أنها وقعت جميعًا في ظل سلاطين المماليك البحرية الأقوياء، سواء في

ظل بيبرس على ما حدث في معركة حمص الأولى وقاد عنه المعركة الملك الأشرف موسى (1)، أو في ظل المنصور قلاوون على ما حدث في معركة حمص الثانية التي قادها قلاوون بنفسه، أم في ظل الناصر محمد بن قلاوون على ما حدث في معركة حمص الثالثة التي قادها الناصر محمد بنفسه أيضاً، ويُقابلهم لدى خانات المغول في الأولى بيدراً قائداً لهولاكو وفي الثانية منكوتمر (2) Monguodamor قائداً لأبغا خان (1234-1282م) (3)، وفي الثالثة الخان محمود غازان (1271-1304م) (4) بذاته.

إضافة إلى محاولة المغول في المرات الثلاث استغلال الوقت المناسب لمهاجمة المماليك، بحيث جاءت المعارك الثلاث في بداية حكمهم وقد واجه بعضهم معارضة شديدة من أمراء أنداد على ما حدث في عصري بيبرس وقلاوون تذرغاً باغتصامهما للعرش من الوريث صاحب الحق الشرعي وما هنالك من ادعاءات لقيادة معارضة قوية منعت بيبرس من قيادة جيشه لخوض حمص الأولى، واضطرت قلاوون إلى مصالحة مُعارضيه قبيل خوض المعركة (5)، أمام تدهور الوضع الداخلي وسوء أوضاع السلطنة المملوكية بسبب صراع الأمراء المتسلطين على أمور الحكم وقت عودة الناصر محمد لعرشه في المرة الثانية (6).

لقد انتصر المماليك في المعركتين الأولى والثانية انتصاراً مُلفتاً للنظر بينما خسرت المماليك معركة حمص الثالثة وإن كانوا قد نجحوا في محو آثار هزيمتهم بعد قليل في معركة مرج الصفر عام 1303م (7)، ومن هنا يأتي هدف دراسة الموضوع وأهميته حينما حطمت تلك المعارك المتعاقبة كبرياء المغول وبطشهم وقوتهم، وظهر المماليك بمظهر طيب بتقديمهم مصالح الدولة التي حملت اسمهم وبات لهم فيها من الحقوق والواجبات التي ترقى لدرجة المواطنة على مصالحهم الخاصة والضيقة، وبدلاً من تهديد تلك المعارك لعروش السلاطين الثلاثة ودولتهم فإنها رسخت لأقدامهم في الحكم لفترة طويلة وعملوا على ازدهار مصر وريقها، وزد على ذلك تمهيد معارك حمص الثلاث للقضاء على الخطر العسكري القادم من قبل المغول بتشذيبه وتخفيف حدته بحيث فتحت فيما بعد باباً للحوار بين الطرفين.

طبوغرافية حمص (9) ومواقع المعارك الثلاث:

وُعد حمص من المدن الشامية القديمة التي لعبت دورًا مؤثرًا في العصور القديمة وصدر الإسلام مع الفتوحات الإسلامية والفترة التالية لها، كما لعبت دورًا كبيرًا في العصرين الأيوبي والمملوكي بحيث صارت مركزًا عسكريًا مهمًا، وتواجدت بها بعض الفرق العسكرية وبخاصة حينما تحولت إلى نقطة انطلاق للحملات ضد الصليبيين في إمارة طرابلس (10). ومما زاد من قيمتها وقوعها على الطريق الشامي الداخلي الموازي لنهر العاصي الذي رطب من طقسها صيفًا، وسهل اتصالها بالبحر المتوسط سواء عن طريق طرابلس أم أنطربوس التي تبعد عن حمص مسيرة يومين.

إضافة إلى قرب حمص من بادية الشام التي تتصل بها من خلال تدمر (11) التي تبعد عنها ثلاث مراحل، وسلمية (12) التي تبعد عن حمص مسيرة يوم أو مرحلة (13)، كما تُعد حمص المحطة السابقة على دمشق مباشرة؛ فمن حلب إلى حمص خمس مراحل ومن حمص إلى دمشق خمس مراحل أيضاً، ومن ثم تحتم على كل من سعى لغزو دمشق المرور بـحمص.

وقد وقعت معركة حمص الأولى عند قبر خالد بن الوليد الذي يقع في الزاوية الشمالية الغربية من حرم مسجد خالد بن الوليد، في منطقة الخالدية في الجهة الشمالية الشرقية من حمص (14)، أما حمص الثانية فوقعت شمال قبر خالد بن الوليد (15) بين القبر والرسن (16)، في موضع اسماء النويري بوطأة حمص (17)، بينما أشار مفضل ابن أبي الفضائل إلى حمص الثالثة باسم معركة وادي الخزندار (18) حيث وقعت في مجمع المروج - أو مرج المروج - شرقي حمص فيما بين حماة وحمص (19)، وهذا يعني أن المعارك الثلاث وقعت في شرق وشمال شرقي حمص حيث مدخل المدينة للقادم من الشمال من حماة متجهًا إلى جنوب بلاد الشام، وهنا يتضح سر حدوث المعارك الثلاث في تلك المنطقة في ظل هدف المغول الواضح في الاستيلاء على دمشق - بعد سيطرتهم على حلب وشمال الشام - تمهيدًا لدخول مصر (20).

الدوافع والمقدمات:

أشار المؤرخون إجمالاً إلى أن أحد أهم أسباب حدوث تلك المعارك بشكل مباشر هزيمة المغول على أيدي المماليك في معركة عين جالوت، فظلت رغبتهم في الثأر والانتقام قائمة ما يقرب من أربعين سنة تقريباً (1260-1299م). ويرى الباحث أن خوض المماليك لتلك المعارك جاء كرد فعل على خروج المغول المتكرر لمهاجمة بلاد الشام وبقية الممتلكات التابعة لسلطنة المماليك مما استوجب ضرورة رد المماليك بقوة (21)، وبالتالي فإنهم كانوا يُدافعون عن البلاد التي يحكمونها وعن حقوقهم فيها، بينما كانت رغبة التوسع فضلاً عن الانتقام واضحة لدى المغول فتعين على المماليك صدهم بخوض حروب دفاعية لدرأ الخطر عن بلادهم.

وقد سعى المغول إلى استغلال الوضع السياسي القائم في دولة المماليك مُثلاً في خروج بعض الأمراء عن طوع السلطان القائم في الحكم، فاتصل المغول بهم ووعد بعضهم بمساعدتهم في محاربة المماليك، وعلى ما يبدو كان المغول أقل حرصاً ووعياً للدرس الذي أكد نسيان المماليك لخلافاتهم الشخصية، وتغلبهم عليها وعودتهم لجهة أقرانهم من المماليك في مصر قبيل حدوث تلك المعارك.

وقد أكدت معركة حمص الثانية والثالثة صحة تلك الفرضية، بينما خلت حمص الأولى من ذلك النوع من الاتصال، أما سنقر الأشقر (22) فقد تحلى عن تحالفه مع المغول وانضم إلى جبهة المنصور قلاوون في معركة حمص الثانية (23)، وحينما رفض قبجق (24) الخارج عن طاعة الناصر محمد التراجع وتمسك بتحالفه مع المغول متناسياً أقرانه من المماليك ومغلباً مصلحته الخاصة على مصلحة المماليك فإنه قُدر لوقوفه بجوار غازان أن يكون أحد عوامل انتصار المغول في معركة حمص الثالثة (25)، وفي اللحظة التي قرر فيها غازان التراجع خوفاً من كمين ربما نصبه المماليك فقد شجعه قبجق على مواصلة مطاردة المماليك، ولكن تأكد بعد قليل صحة حرص المماليك على العودة حينما ندم قبجق على ما فعل ورضخ لطلب السلطان في الصلح (26)، وانضم له في معركته ضد غازان في مرج الصفر (27)،

وتتجسد الخلاصة في أن الرغبة المغولية التي قادتهم للخروج من مسقط رأسهم لغزو العالم وهزيمتهم في عين جالوت وتصدي المماليك لكل هجوم مغولي هي التي نتج عنها وقوع المعارك الثلاث وغيرها من المعارك الأخرى.

حجم جيوش الطرفين وتشكيلاتها والعناصر المشاركة فيها:

وقعت حمص الأولى حينما هاجم المغول بلاد الشام في الوقت الذي عجز فيه بيبرس عن مغادرة مصر؛ لأن المعركة حدثت في وقت تالي لمعركة عين جالوت وما نتج عنها على الجبهة المملوكية من مقتل قطز واعتلاء بيبرس عرش السلطنة المملوكية خلفاً له، مما جعل سنجر الحلبي(28) وغيره من المعارضين يخرجون على طاعة بيبرس ولأجل ذلك فقد ظل بيبرس(29) في القاهرة تحسباً لأية حركات معارضة وقاد المعركة الملك الأشرف موسى صاحب حمص وشاركه فيها الملك المنصور صاحب حماة وزامل بن علي أمير بني ربيعة في عدة من العربان، علاوة على حامية حلب المملوكية بقيادة حسام الدين الجوكندار(30)، وهذا يعني أن بيبرس لم يحشد لهذه المعركة أية قوات من خارج قوات بلاد الشام تقريباً، ولذا لم يزد عدد الجيش الذي قاده الأشرف موسى عن 1400 ما بين فارس ومشاة.

بينما بلغ جيش المغول ستة آلاف(31)، بيد أن تلك القوات لم تكن سوى الحاميات المغولية المرابطة في إقليم الجزيرة، ومن نجا من المغول في عين جالوت، علاوة على فرقة من الصليبيين أرسلها فرسان إستبارية حصن المرقب(32) مكونة من مائتي فارس لتقاتل إلى جوارهم في وقت شهد محاولات جادة لإحداث تحالف بين المغول وأوروبا لتطويق العالم الإسلامي(33).

وفي حمص الثانية فقد قدم لها المقريزي مبكراً حينما رصد تحرك المغول من ثلاث جهات: من جهة بلاد الروم ومن جهة الشرق ومن جهة المغول في ثلاث فرق أكثرها شراً وقوة الأخيرة تحت قيادة منكوتمر بن هولوكو خان المغول(34)، وكان لوصول تلك الأنباء أسوأ الأثر على الجيش المملوكي حينما خاف الأمراء وقرر بعضهم الرحيل عن حلب وحماة وحمص ودمشق وشيزر وصهيون وغيرها إلى مصر، ودخل المغول حلب وأقاموا بها بضعة أيام

ثم رحلوا عنها في الوقت الذي تحرك فيه السلطان المنصور قلاوون (1279-1290م) لمقابلتهم ووصل إلى الشام ولكنه عاد حينما وقف على خبر عودتهم إلى بلادهم.

وقد أمر قلاوون رجاله في حصن الأكراد بمحاربة الصليبيين في المرقب (35)، ثم حشد كل من أمكنه استنفاره لهذه المعركة التي باتت بالنسبة له مهمة لوضع حد لهجمات المغول المتكررة على بلاد الشام، في وقت احتاج فيه إلى تثبيت موقفه الداخلي إزاء حركات المعارضة التي واجهت حكمه، بل إنه حرص على جذب بعض معارضيه وعلى رأسهم سنقر الأشقر إلى جانبه للإفادة من قوته وخبرته العسكرية. وضم جيش المماليك فرسان المماليك في مصر والشام علاوة على فرق من الأتراك والتركمانيين بينما قدم العربان في آل مرا وغيرهم فيما لا يقل عن أربعة آلاف كاملتي التسليح بالسيوف والرمح والخيول (36).

وقدر جوزيف دو كانسي (37) Joseph De Cancy جيش المماليك بخمسين ألفاً، بينما قدره داوي صور بنحو 80000 فارس وحوالي 100000 راجل (38)، أما ابن كثير فأقر بأنه بلغ نصف عدد الجيش المغولي أي خمسين ألفاً (39) وكذا كان تقدير اليافعي (40)، وأقر المقرئ بطريق غير مباشر اجتماع ما يقرب من خمسين ألف جندي لقلاوون في دمشق خلال شهر المحرم 680هـ (41)، أي قبيل المعركة بخمسة أشهر تقريباً.

أما الجيش المغولي فضمت تشكيلاته: المغول بقيادة منكوتمر والأرمن Armenian Kingdom of Cilicia بقيادة الملك ليون الثاني (1236-1289م) (42) King Leo II والكرج بقيادة الملك ديمتري الثاني (1259-1289م) (43) King Demetrius II ولم يستطع هيو الثالث ملك قبرص King Hugh III of Cyprus الوصول حتى بداية المعركة وكذلك بوهموند السابع أمير أنطاكية (44) Boemond VII.

وقدر دو كانسي الجيش المغولي بأربعين ألفاً (45)، في الوقت الذي قدره ابن كثير بمائة ألف واليافعي (47) بمثلهم، وجاء تقدير بيبرس الدودار له بثمانين ألفاً (48)، ووافقه

كل من النويري والمقريري بأنه بلغ ثمانين ألفاً، وانفرد النويري بأن ما يقرب من خمسين ألف منهم من المغول والباقي من الصليبيين والروم والكرج والأرمن، ثم اتفق كل من النويري والمقريري على تركيز أكثر من خمسة وأربعون ألفاً من المغول في القلب وحده (49). وأشار ابن أيبك إلى ورود أخبار قدوم المغول إلى قلاوون في مائة ألف في نهاية ربيع الآخر (50).

وقد أشار داوي صور إلى مراسلات أرغون (51) بالبابوية وملك فرنسا في محاولة للتحالف للتصدي للمماليك (52) ولكن لم يقف الباحث على أي نتيجة إيجابية لتلك المراسلات بحيث لم يكن لها تأثير في مجرى أحداث حمص الثانية (53). ويرى الباحث أن التقديرات التي قدمتها المصادر العربية والأجنبية لأعداد جيوش الطرفين قد شابها إما غلو في المبالغة في جيش الخصم أو بخس في تقدير العدد الحقيقي للجيش الصديق، ونظراً لصعوبة البت في تلك التقديرات فقد قرر الباحث عرضها كما قدمها المؤرخون.

أما عن حياد الصليبيين في تلك المعركة فيقدم دو كانسي مبرراً غير مقنع لامتناع الصليبيين عن مساعدة المغول ممثل في أن المماليك ونوابهم في بلاد الشام كانوا يقعون بين الصليبيين وبين المغول، وأن المغول لم يُرسلوا إلى الصليبيين للالتحاق بهم بعد استقرارهم في المنطقة التي دارت أحداث المعركة في محيطها (54). ويصعب فهم ما قاله دو كانسي أو ما يهدف إليه سواء الانفصال الجغرافي أم الفصل التكتيكي بالوقوف في موقع يمنع الاتصال بين المغول والصليبيين.

وأياً كان مقصد دو كانسي فإنه لم يكن دقيقاً في هذه الإشكالية، فقد كان الصليبيون مجبرين على عدم الوقوف بجانب المغول بمقتضى اتفاقهم - الذي دخل فيه فرسان الإسبانية - مع قلاوون لمدة عشر سنوات بداية مايو 1279م (55)، وبالرغم من إشارة السيد الباز العربي إلى أن إسبانية حصن المرقب لم يعتبروا أنفسهم داخلين في عقد الهدنة وانحازت جماعة منهم إلى ملك أرمينية (56) فإننا لم نقف في رواية دو كانسي ذاته - وهو أحد فرسان الإسبانية - على ما يُفيد وقوف الإسبانية أو غيرهم من الصليبيين بجوار المغول في حمص الثانية (57)، بينما كان النويري مقتضياً في إشارته إلى مشاركة الصليبيين إلى جانب

المغول في تلك المعركة بحيث لم يوضح اسم المشارك منهم أو صفته أو عدده (58). بيد أن التواصل بين صليبي الشام وأوربا بخصوص التحرك المغولي كان قائماً، بحيث كان الصليبيون يعلمون من خلال تقارير الغرب والرسائل التي يبعثون بها مع رسلهم بعض المعلومات المهمة عن التحركات المغولية، وهذا يتضح من قيام مقدم الإستراتيجية نيكولاس لورجن Nicolas Lorgn بإرسال خطاب إلى إدوارد الأول ملك إنجلترا يشكره على المعلومات القيمة التي أرسلها عن تحرك المغول صوب بلاد الشام، وقد أُوْرخت الرسالة في 25 من سبتمبر 1281م (59) وبعثت من عكا، أي قبيل اندلاع حمص الثانية بـ 35 يوم تقريباً، مما يعني أن التواصل بين أوربا والمغول لم يتوقف ولم يكن الصليبيون في الشام بمعزل عن ما يحدث في المنطقة، وأن الاتفاق المعقود بينهم وبين قلاوون هو ما أجبرهم على عدم المشاركة في حمص الثانية.

أما في حمص الثالثة فإن الإعداد للمعركة والحشد لها كان ضعيفاً من جانب المماليك، وذلك بسبب الاضطرابات الداخلية التي تعرضت لها مصر في بداية عصر الناصر محمد (1293-1441م) نتيجة عزله لمرتين على التوالي. وقد حدثت المعركة فور عودته لعرشه في المرة الثانية بحيث سبقت مقدمات المعركة وأسبابها عودته إلى عرشه بقليل (60).

وقد أشار المقريزي إلى تنافر المماليك وسيادة سوء الظن فيما بينهم بحيث تخرج موقف الجيش قبيل بداية المعركة، مما يعني أن حشد المماليك في هذه المعركة لم يكن لائقاً بمكانتهم العسكرية وبخاصة أن كل من سلالر وبيبرس المتحكمين في السلطنة رفضا الإنفاق على تجهيز الجيش برغم خروج المماليك بقيادة الناصر حينما علم بوجود المغول عند سلمية (61)، وأضيف إلى مشاكلهم سرعة تحرك الناصر بجيوشه حينما علم بتحرك المغول إلى مجمع المروج بحيث قطع ثلاث مراحل في مرحلة واحدة بدون ماء للخيل أو مرعى أو توقف للراحة فنفتت بعض خيول المماليك من تعب الركض والعطش (62).

ويُضيف داوي صور في تسليح المماليك بأنهم قدموا على خيول مُسلحة وعلى رؤوسهم الخوذ الحديدية وحملوا الرماح التي دفعوا بها المغول إلى الخلف وقتلوا الكثير منهم

بأستنتها، وأكد إجمالاً أن المماليك كانوا أحسن تسليحاً وأعظم فروسية من المغول (63)، وأضاف المقرئزي أن أمراء المماليك أمروا الجميع بالتخلص من الرماح "...واعتمدوا على ضرب السيف والدبوس" (64)، أما المغول فقد حملوا أقواسهم التي صارت أكثر أهمية من أسلحة المماليك وأمطروهم بوابل من السهام والنشابات بحيث وصفها مفضل بن أبي الفضائل بأنها كانت "...سهاماً كدفعه المطر أو كجرية السيل المنهمر..." (65).

وقد أفاد داوي صور بأن جيش المماليك بلغ 70.000 فارس (66)، بينما قللت المصادر العربية من حجمه إلى 20.000 وهو أمر متوقع في ظل الهزيمة التي حلت بالجيش المملوكي وبالتالي فإن تقليص بعض المؤرخين العرب لحجم جيش المماليك فلهووين الهزيمة، وضمت تشكيلات جيش المماليك أمراء المماليك والقبائل العربية الشامية (67).

أما المغول فلا ريب أن مجرد قدومهم من بلادهم ومواصلتهم الزحف إلى حمص لا يعني سوى أنهم قد حضروا ومعهم كل ما استطاعوا حشده من رجالهم، وبخاصة أن غازان خان هو من حرك تلك الجيوش وقاد المعركة في سابقة لم تحدث من قبل وهي قيادة إيلخان مغول فارس الجيش بذاته، كما لم يكن غازان وثنياً أو مسيحياً وإنما كان مسلماً (68)، ولم يمنعه ذلك من الإصرار على الثأر والانتقام من المماليك، حقاً لم نقف على تفاصيل حشوده ولا حجمها بشكل دقيق ولكنه حقق على الأقل بذلك الجيش ما عجز هولاءكو عن تحقيقه.

وقد أشار داوي صور إلى أن غازان لم يكن معه جميع رجاله لأنه لم يتوقع أن تحدث المعركة سوى في اليوم التالي، وقدر جيش غازان بـ 100.000 ألف مقاتل دون الإشارة إلى نوعية المقاتلين سواء مشاة أم فرسان، وجيش المماليك بـ 70.000 فارس دون الإشارة إلى المشاة، وضمت تشكيلات جيوشه فرقة من الأرمن بقيادة هيثوم الثاني (1299-305م) Hethom II مكونة من خمسة آلاف من رجاله (69)، وأضاف لهم النويري الكرج وغيرهم (70)، ناهيك عن قبجق الذي اصطحب معه أربعة أمراء غيره وذهب إلى المغول في العام الماضي خوفاً من غدر السلطان، وقد شجع هؤلاء الأمراء مشروع الحملة المغولية ضد

المماليك (71).

الأحداث:

وضع القائد المغولي بيدرا خطة عسكرية لقيادة معركة حمص الأولى تقوم على تكتيك الصدم والخرق بالعمق، حيث رتب جيشه مستفيداً من قوة اندفاع فرسانه ومن تفوقه العددي، ولما كان تقسيم جيشه هو التقسيم المغولي المعتاد، حيث ينتظم كل ألف مقاتل في فرقة فإنه التزم بذلك وجعل فرق جيشه خلف بعضها البعض كي تُشكل قوة صدم كبرى، بحيث إذا ما اندفعت مرة واحدة تمكنت بفعل حشدها وقوة اندفاعها من اختراق دفاع المماليك، ومن ثم الالتفاف على القلب عقب كسرهما لجناحي الميمنة والميسرة.

أما الملك الأشرف الذي قاد جيش المماليك نائباً عن السلطان بيبرس فقد وضع خطته لمواجهة التفوق العددي لصالح المغول، والتي قامت على الصمود أمام الصدمة الأولى للمغول بأي صورة، فجعل أمير حماة على رأس الميمنة وعسكر حلب في الميسرة، أما هو وعسكره فبقي في القلب، فإذا ما نجح المغول في سحق قلب جيش المماليك بالضربة الأولى فقد يُقدر النجاح لجناحي الميسرة والميمنة في فك الضغط عن قلب جيشهم، أما إن صمد القلب فسوف يساند جناحي الميمنة والميسرة من جهة أخرى.

والتقى الجمعان عند قبر خالد بن الوليد يوم الجمعة الخامس من العاشر من ديسمبر 1260م وبدا أن قلب الجيش المملوكي كان أقوى، فبعد أن ثبت جيش الأشرف موسى لهجوم المغول الأول فإنه قاد هجوم مضاد ضدهم قبل معاودتهم الكرة، ونجح في هزيمة المغول وقتل عدد كبير منهم ومن بينهم بعض أمراء المغول ومقدميهم، فانسحب المغول إلى حلب وقتلوا الغرباء الذين احتموا بها، وحينما جهز الظاهر بيبرس جيشاً إلى حلب ليتردهم عنها وعلم المغول - عن طريق الصليبيين - بوصول ذلك الجيش إلى غزة فإن المغول فضلوا الرحيل عن حلب مُسرعين بعد حصار دام أربعة أشهر (72).

أما في معركة حمص الثانية (73) فقد انقسم الجيش المملوكي إلى ثلاثة أقسام: تمركز السلطان قلاوون في القلب وقاد سنقر الأشقر الميسرة المملوكية (74)، وقاد عز الدين

أيك الأفرم الميمنة(75)، وانقسم جيش المغول إلى ثلاثة أقسام أيضاً: ملك أرمينيا مع قواته وألفين من المغول، وبالرغم من أن وصف جوزيف دو كانسي يُشير إلى قيادة ملك أرمينيا للميمنة فإنه عاد ليقول إن منكوتمر هو من قاد الميمنة وأضاف أنه اصطحب معه ألف جورجي(76)، ومجموعة أخرى مع قائد تركي اسمه سنقر التتري(77) بلغ عددها ثلاثة آلاف تركي(78).

ويرى الباحث في وصف دو كانسي خلطاً واضحاً لا يتضح سوى بعرض أحداث المعركة، وهنا يعود دو كانسي ذاته ليُقر بشكل غير مباشر ما قدمته المصادر المملوكية(79)، فاتضح أن منكوتمر تركز في القلب، بينما قاد الملك الأرميني بصحبة الكرج الميمنة المغولية(80)، وقاد سنقر التتري المسيرة المغولية(81).

وأفاد المقرئزي من خلال خطاب وصل إلى قلاوون من حماة - التي يعسكر بها المغول - أن المغول قووا القلب بخمس وأربعين ألفاً، كما قووا الميمنة أيضاً، وأوصى مُرسل الخطاب بتقوية مسيرة المماليك وبالاحتراز على السناجق أي الرايات، وبأن جيش المغول يضم خمسين ألفاً فضلاً عن ثلاثين ألفاً من الروم والكرج والأرمن(82).

حدثت المعركة شمال قبر خالد بن الوليد(83) ومرت بعدة مراحل: انتهت المرحلة الأولى بتغلب ميمنة الجيش المغولي على مسيرة الجيش المملوكي وهروب الأخيرة حتى ضواحي حمص وبجبرتها جنوباً وكانت أبواب حمص مغلقة آنذاك، فتوجهت إلى غزة ودمشق وما ترتب على ذلك من انكشاف جناح قلب مسيرة المماليك ومقتل كثير من سكان المناطق المحيطة وفقدان الخيول وقطعان الحيوانات وحرق الحقول وتخريبها وما إلى ذلك مما أحدثته ميمنة المغول بقيادة الملك ليو(84).

ووقعت المرحلة الثانية بين قلب جيش المغول وبين قلب جيش قلاوون، حينما ألقى منكوتمر بكل قوته على قلب جيش قلاوون وأصابه بالاضطراب(85)، ونتيجة لعدم احتراز المغول الذين احتفلوا بانتصارهم مبكراً وأخذوا يجمعون الغنائم فقد استجمع السلطان قلاوون قواته في القلب مرة أخرى وترتب على ثباته ومساعدة بعض الجنود العائدين من ميمنة جيشه

الفارة إحداهن توازن لصالح المماليك (86).

وترتب على جرح منكوتمر (87) فقدانه لوعيه وانقلاب كفة المعركة لصالح قلاوون وقد ضعفت الروح القتالية لدى المغول بعد ظنهم أن قائدهم قد مات. وحملت الميسرة المغولية حملة قوية على ميمنة المماليك ولكن تصدت لها الأخيرة ثم حملت عليها حتى هزمتها وأوصلتها للقلب الذي يقوده منكوتمر، فانكشف جناح الميسرة في قلب الجيش المغولي مما أضعف من موقف منكوتمر (88).

وقد أضاف ابن أيك الدواداري سبب آخر في هزيمة ميسرة المغول تمثل في قيام الأمير عيسى بن مهنا (89) بنهب أثقال المغول من خلفهم فرجعوا إليهم فركب المسلمون رقابهم وأقفيتهم وشالوهم شيئاً (90)، ناهيك عن ما أضافه دو كانسي من أن ابتعاد الملك ليو في مطاردة ميسرة المماليك أفقد قلب الجيش المغولي مساعدتهم لأنهم ابتعدوا كثيراً في مطاردتهم عن أرض المعركة (91).

بينما وقعت المرحلة الثالثة بين الملك ليو العائد من مرج حمص جنوباً إلى الشمال من مطاردته لميسرة قلاوون، حينما عاد ليُعسكر في أرض المعركة في انتظار منكوتمر (92)، ولم يترك أرض المعركة وينسحب سوى حينما أقنعه سنقر - الذي غرر بميمنة المغول - بالرحيل للحاق بركاب الملك وكي لا يكون خائناً له (93)، وفيما بعد هاجم سنقر الملك ليو في طريق انسحابه وتخطف رجاله، بينما مات بعض رجاله من الإرهاق والإعياء والسير في الصحراء في أماكن مجهولة بالنسبة لهم مما أفقد الملك الكثير من جنوده (94).

أما المرحلة الرابعة فوُجعت بين المغول الفارين من المعارك السابقة وبين مُطاردتهم من المماليك ممن هربوا إلى سُلمية والبرية أو إلى حلب والفرات، وبالرغم من إشارة دو كانسي إلى سقوط كثير من جنود الملك ليو خلال انسحابه فإنه نسب ذلك إلى خيانة سنقر التتري وإلى نقص المؤن والإعياء وعدم معرفة الطرق (95) ولم ينسبه إلى عملية المطاردة الممنهجة التي قادها الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري بأمر من السلطان في اليوم التالي (96)، ولم يُشر دو كانسي إلى أوامر قلاوون باعتراض المغول الفارين إلى الفرات بإحراق الأعشاب الجافة المحيطة

بضفاف النهر فمات منهم خلق كثير(97)، وقد أشار المقرئزي إلى أنه قُتل في تتبع المغول أكثر ممن قُتل في المعركة ذاتها(98).

وتمثلت المرحلة الخامسة والأخيرة في انسحاب أبغا (Abaqa) (1265-1282م) (99) خان المغول - من أمام قلعة الرحبة التي كان يحاصرها وصبه جام غضبه على منكوتر قائلاً له: "لم لا مت أنت والجيش ولا انهزمت" (100). والواقع أن قلاوون قاد هذه المعركة بطريقة تعكس مقدار الخبرة العسكرية التي اكتسبها في الفترة السابقة منذ الحملة الصليبية السابعة خلال أحداث معركة المنصورة، حينما وقف في أثناء المعركة على رأس تل ومعه بعض مماليكه لمتابعة تحركات فرق الجيشين، فإذا رأى أحد جوانب جيشه احتل بعث إليه بأطلاب مكونة من ثلاثمائة للمساندة(101).

وفي معركة حمص الثالثة وقف الأمير عيسى بن مهنا في الميمنة على رأس العربان، يليه الأمير بلبان الطباخي نائب حلب على رأس عسكر حلب وحماة، ووقف على رأس الميسرة أفض قتال السبع والحاج كرت نائب طرابلس والأمير بدر الدين بكتاش في عدة من الأمراء، أما في القلب فقد وقف بيبرس الجاشنكير وسالار(102) وأبيك الخزندار في عدة من الأمراء، ووقف الناصر محمد على بُعد مع حسام الدين لاجين(103) حتى لا يُعرف السلطان فيُقصد، وقد اضطر بيبرس الجاشنكير إلى الاعتزال بسبب إصابته بمغص شديد مفاجئ منعه من الثبات على فرسه (104).

وقعت المعركة في مرج المروج الذي يُعرف بوادي الخزندار(105) ومررت بعدة مراحل بدأت المرحلة الأولى حينما أمر غازان مقاتليه بالثبات وعدم الحركة إلى أن يتحرك هو حتى يتمكنوا من مهاجمة جيش الناصر محمد في الوقت المناسب، فلما انطلقت طلعية جيش الناصر - المعروفون بالزراقون - بالنفط المشتعل تجاه جيش المغول لم يتحرك غازان بعكس ما توقع المسلمون، وظل على ثباته حتى اقتربت طلعية المماليك منه وقد خمدت نيران النفط، فهجم بجيشه حملة واحدة، وانطلقت سهام عشرة آلاف مغولي من رماة الشباب نحو العربان وضغطت ميمنة جيشهم عليهم فولى العربان مُدبرين وخلفهم جيش حلب وحماة فهزمت

ميمنة الجيش المملوكي وهربت أمام مطاردة الميسرة المغولية (106).

أما المرحلة الثانية فحدث خلالها تمكن ميسرة جيش الناصر من التصدي لميمنة غازان فهزمتها وأجبرتها على الفرار وفقدت ميمنة المغول جراء ذلك نحو خمسة آلاف جندي (107). أما المرحلة الثالثة فكاد غازان أن يُولي الأذبار بيد أن تشجيع قبجق نائب دمشق له ثبته (108)، فنظم صفوفه وحمل على قلب جيش المماليك فلم يصمد سلار وسائر الأمراء البرجية (109)، وحين رأى غازان انسحاب المماليك فإنه أعطى الأوامر بامتطاء الخيول والضغط على المماليك بقوة فاتهمز المماليك (110)، وبهذا التكتيك نجح غازان في ربط رجاله بأرض المعركة حتى لا يفروا منها على ما حدث في حمص الأولى والثانية.

هذا والناصر محمد في أثناء ذلك "...مُعْتزِل ومعه الحسام وهو يبكي ويتهل ويقول: يا رب لا تجعلني كعبًا نحسًا على المسلمين، ويهم أن يفر مع القوم فيمنعه الحسام ويقول: ما هي كسرة، لكن المسلمين قد تأخروا ولم يبق معه من المماليك غير اثني عشر مملوكًا" (111)، وهذا مما قد يؤخذ على محمل الدبلوماسية لا الحقيقة لأن المعركة أسفرت عن هزيمة المماليك في النهاية.

وعاد مقاتلو ميسرة الجيش المملوكي الذين هزموا ميمنة غازان إلى حمص بالغنائم بعد العصر، فإذا بهم يرون الأمراء البرجية الذين يُمثلون قلب الجيش يُولون منهزمين وفي أعقابهم المغول يتبعونهم فبهتوا، بيد أن غازان أمر مقاتليه بالتوقف عن المطاردة خشية أن يكون كميناً على عادة المماليك (112)، ولم يتيقن المغول من معرفة أن المعركة حُسمت لصالحهم سوى مع انبلاج فجر اليوم الثاني فواصلوا مطاردتهم للمماليك الذي فقدوا أسلحتهم وعتادهم (113).

وتمثلت المرحلة الرابعة في دخول المغول دمشق وما صاحب ذلك من أحداث الهرب والاحتشاد الذي مات نتيجة له عدد كبير من العامة في دمشق، ثم اجتمع من بقي في المدينة بالجامع الأموي واتفقوا على إرسال عدة من شيوخ دمشق وقضاةها إلى غازان لطلب الأمان، فوافقهم الأخير على ذلك وصرفهم فعادوا إلى دمشق، وبعد يومين دخل غازان دمشق ومعه

نائبها قبجح(114).

ويتضح من مقارنة أحداث المعارك الثلاث حدوث تفاوت كبير في كيفية إدارة كل جيش لتشكيلاته القتالية، وقد نجح المماليك في تخطي أسطورة الرعب المغولي التي توقفت مع انتصارهم في عين جالوت، ولا ريب في أن خوضهم حمص الأولى بأسلوب المغول في التصدي لضربتهم الأولى القادمة من العمق لمنع تطويق جناحي جيشهم للمماليك قد مكّنهم من الانتصار عليهم وإجلائهم عن حلب وشمال بلاد الشام. وتطور أداء المماليك في حمص الثانية تحت قيادة المنصور قلاوون الذي أبدى قوة وصلابة في جمع جيشه بعد تفرقه بحيث كادت الهزيمة أن تلحق به، وأصبح لصفود قلاوون في القلب بعد صفود ميمنة جيشه في التصدي لميسرة المغول دور في الانتصار الذي حققه.

أما في معركة حمص الثالثة فقد حدث عكس ما تم في معركة حمص الثانية، لأن غازان توقع من دراسته لحمص الثانية أن المماليك سوف يقومون بتقوية القلب وبالتالي فإنه انتظر ريثما اقتربت منه طليعة الجيش المملوكي وافقدها الدعم الذي كان من الممكن تقديمه للقلب باختراق المغول وتفريقهم، وهذا يعني تطوير غازان لطريقة هجوم المغول حينما أمر رجاله باستخدام دروعهم كحاجز لمنع المماليك من التوغل فيما بينهم، وفي الوقت المناسب أمطر المماليك بوابل من السهام التي فرقت جموع المماليك(115). كما خيب غازان توقع المماليك بتقوية ميسرته بدلاً من الميمنة ولأجل ذلك انتصرت الميمنة وانهمزت الميسرة وهو عكس ما حدث في حمص الثانية في جناحي الجيشين.

النتائج:

كانت نتيجة معركة حمص الأولى لصالح المماليك وخسر المغول كثيراً من جنودهم، ولم يُقتل من المماليك الكثير وهرب مقدم المغول في أسوأ حال نتيجة لتلك الهزيمة(116). وترتب على حمص الأولى عدة نتائج على المستويين الداخلي والخارجي، فمن جهة تمكن بيبرس من توطيد حكمه بالقضاء على الأمراء الخارجين عن طاعته وبخاصة شمس الدين البرلي في الشهور التالية للمعركة مباشرة(117)، وكذلك جرى الاتفاق على إبقاء الأشرف موسى

أميراً على حمص حتى وفاته عام 1263 م ثم أضيفت إلى أملاك السلطنة (118). وعلى المستوى الخارجي فقد أنهت تلك المعركة أولى حملات إيلخانات المغول على الشام بعد هزيمتهم في عين جالوت، وإن كانت هناك حملات أتت بعدها ولكن لم تدم أي منها بالشام أكثر من سنة، علاوة على القوة التي خرج بها السلطان بيبرس من المعركة بحيث كان لها أثر واضح في الضغط الذي مارسه على الصليبيين في عكا ويافا وبيروت لطلب الصلح بالشروط التي ارتضاها الظاهر بيبرس نفسه (119)، ناهيك عن التحسن النوعي بين بيبرس وبركة خان مغول القفجاق بوصول مجموعة من مغول القفجاق مستأمنين لخدمة السلطان فأمر نوابه في الشام بحسن استقبالهم وعدم التعرض لهم (120).

وترتب على معركة حمص الثانية نتائج قريبة المدى وأخرى بعيدة، فالمعركة تُعد انتصار آخر للمماليك على جيش مغولي كبير يُعد الأقوى من نوعه بعد الجيش الذي دفعوا به في معركة عين جالوت، وأياً كان عدد الجيش الذي زاد ونقص من مؤرخ لآخر من مؤرخي الطرفين فلا ريب في كونه الأضخم من نوعه والأكثر عدة وعتاداً منذ ما يزيد على عشرين سنة تقريباً. وقد خسر المغول الكثير من مقاتليهم سواء بالأسر أم بالقتل (121)، وربما كان ذلك أحد عوامل نقمة أبغا على أخيه منكوتر نتيجة لتلك الهزيمة، وهي خسارة جعلت موقف المغول أكثر حذراً في الفترة المقبلة تجاه المماليك حتى معركة حمص الثالثة (122).

وخرج قلاوون من تلك المعركة أكثر قوة بحيث تمكن خلال الأعوام التالية للمعركة مباشرة من مهاجمة بعض الحصون التي استولى عليها المغول وامتلكها ومنها قطييا وثغر الكتخا عام 1283م، كما هاجم بلاد سيس نتيجة لقيام الأرمن خلال أحداث حمص الثانية بحرق جامع حلب فهاجم بلادهم وهزم جيشهم وعاد المماليك بالنصر والغنيمة عام 1283م.

وعلى المدى البعيد فإن الصليبيين لم يفيدوا من هذه المعركة، بل على العكس كانت وبالاً عليهم حينما خرج منها قلاوون أقوى وهاجم حصن المرقب أحد أملاك الصليبيين نتيجة إخلال أميره بالاتفاق الذي عقده مع المماليك مما استوجب مهاجمته وأجبرهم قلاوون

على تسليم الحصن ورحلهم إلى طرابلس عام 1285م (123)، وبعد قليل هاجم قلاوون طرابلس واستردها سنة 1289م، وبذلك لم يعد للصليبيين سوى عكا - وعدد قليل من المدن الساحلية الصغيرة أهمها بيروت - التي استردها ابنه الأشرف خليل بعد وفاة قلاوون بحوالي ثلاث سنوات أي عام 1291م ليُكتب للكيان الصليبي في بلاد الشام ذهاب بلا عودة (124).

وفيما يخص معركة حمص الثالثة فقد ترتب عليها نتائج مهمة ممثلة في هزيمة الجيش المملوكي على يد المغول لأول مرة منذ انتصار المماليك على المغول في عين جالوت، ولعل مما ترتب على تلك المعركة بصورة مباشرة تلك الخسائر في الأموال والأرواح بحيث قُتل عدد ليس بالهين من الأمراء والمماليك قدرهم المقريني بألف وعلى رأسهم الأمير أيدير الحلبي والأمير يلبان التقوي والأمير أربك نائب بلاطس وقاضي قضاة دمشق وغيرهم كثير (125)، وإن كان قد قتل اليافعي من عدد قتلى المماليك، بينما اتفق جميعهم على المبالغة في عدد قتلى المغول، بحيث قدرهم النويري - ووافقه المقريني - بأربعة عشر ألف مغولي بينما قدرهم كل من ابن أيك واليافعي بعشرة آلاف قتيل (127)، وبالرغم من إشارة داوي صور إلى إحداث المماليك أضرار بالغة بفرسان المغول بحيث قتلوا منهم الكثير فإن الباحث يرى في الأرقام التي قدمتها المصادر المملوكية عن قتلى المغول مبالغة يصعب قبولها في ظل الهزيمة التي لحقت بالمماليك.

فضلاً عن خسارة أغلب مدن بلاد الشام لصالح المغول لفترة قليلة بداية من حلب إلى حمص وحماة وصولاً إلى دمشق، وقد رفضت أغلب قلاع المدن الشامية التسليم لغازان بسبب فشله في الاستيلاء على قلعة دمشق (128)، ولكن لم تدم سيطرة المغول لأكثر من ثلاث سنوات.

ولعل مما تسبب في تلك الهزيمة التكتيك الذي قاد به غازان جيشه بحيث تسبب في إحداث خلل في الجيش المملوكي، فإن أضفنا لها مشاكل الجيش المملوكي الأخرى كمشكلات القيادة وقلة خبرة الناصر محمد سياسياً وعسكرياً وتحالف قبجق مع المغول

ضده، إضافة إلى الخلاف الكبير الذي حدث بين مماليك السلطان وبعض الأمراء الآخرين في أثناء الاستعداد للمعركة وعدم الإنفاق على الجيش (129)، الأمر الذي ترتب عليه فقدان الجنود لتركيزهم، خصوصاً حينما ساءت الظنون وكاد بعض الأمراء أن يغادروا السلطان إلى الكرك قبل بداية المعركة.

ناهيك عن حدوث سيل كبير أتلف كثيراً من أُنقال العسكر وافتقر عدة منهم لذهاب أموالهم وأثقالهم فتخوفوا أن "... يكون منذراً بقدم العدو وكسرة العسكر، وتحدث بذلك كل أحد حتى السوقة..."، وغلت الأسعار وكثر الإرجاف بكثرة المغول ورحيل أهالي القرى والمدن خوفاً من بطشهم (130). وأكد ابن أيبك أن المماليك لم يكثرثوا لهذه المعركة "... ولم يكن عند المسلمين في تلك النوبة اكتراث بالتتار، ولا كأنهم عندهم عدو، بل مُشمريين الذبول كأنخدار السيول الملتقى العدو المخذول..."، إضافة إلى ما أُشيع بشأن انسحاب المغول بسبب علمهم بقوة الجيش المملوكي وفُسر ذلك التصرف بأنه خديعة للمسلمين للإيقاع بهم وهو ما حدث بالفعل لأن الخديعة انطلت على بعضهم (131).

وكان داوي صور محقاً في قوله: "... لقد مضت سنين كثيرة منذ أن هُزم الجيش المصري، فقد ألقوا - أي المماليك - الانتصار على أعدائهم وهو ما أصابهم بكثير من الغرور حتى اعتقدوا أنهم يمكنهم هزيمة أي قوة في العالم..." (132).

ومن عقد مقارنة بين نتائج تلك المعارك يتضح أنه علي الرغم من إنسحاب المغول من بلاد الشام في المعركتين الأولى والثانية، وبرغم الانتصار الذي حققه المماليك فيهما فإن نتائج هزيمة المماليك في حمص الثالثة كانت أكثر قوة من الانتصارين السابقين، ويكاد الدودار يؤكد أن الهزيمة التي مني بها الناصر في حمص الثالثة هي التي جعلته ينتصر في معركته الأخيرة والأكبر مع المغول (133)، حينما قرر نسيان الهزيمة وقاد جيوشه لمواجهة المغول في معركة مرج الصفر التي ترتب عليها إنهاء خطر المغول بعد اعتناقهم للإسلام في أعقاب تلك المعركة، وصار للناصر محمد دور في إحداث مصالحة بين مغول فارس ومغول القبيلة الذهبية وتحسنت العلاقات فيما بعد بين مغول فارس وبين المماليك (134).

وبذلك يصح استنتاج آخر مهم تمثل في خروج السلاطين الثلاثة الذين جرت المعارك الثلاث في عهودهم أكثر قوة من ذي قبل برغم هزيمة الناصر في حمص الثالثة، وبخاصة أن التوقيت الذي هاجم فيه المغول في المرات الثلاث ونتج عنه ثلاث معارك قُصد به مهاجمة المماليك وسلاطينهم في مواقف ضعف على ما أشرت في أهمية الدراسة وجدواها، بينما جاءت النتيجة بخلاف ما توقع المغول وباتت نتائج تلك المعارك أحد أهم وسائل قوة السلاطين الثلاثة تاليًا ومن أهم عوامل تمكينهم لعصور حكم طويلة ومستقرة.

وعلى صعيد التخطيط العسكري فقد أفاد المغول من رصيد المعرفة التي اكتسبوها من اللقاءات العسكرية التي خاضوها ضد المماليك في التخطيط لحمص الثالثة، حينما تخلوا عن مهاجمة المماليك أولاً على غير عادتهم، وهذا يعني أن امتناع المغول عن مهاجمة المماليك هذه المرة فلأنهم أفادوا مما حدث في المعركتين السابقتين، ففي حمص الأولى - ومثلما حدث في عين جالوت وأبلستين - استخدم المغول الأسلوب التقليدي في الصدم والاختراق بالعمق ففهم المماليك ذلك وتغلبوا عليه بالتصدي لهم - على ما حدث في عين جالوت - مما عطل من قوة جناحي جيش المغول وفاعليتهما وأفقدتهما القدرة على تطوير المماليك، ثم ما حدث في حمص الثانية بالشروع في تحرك الميمنة ضد المماليك بكل قوة والجغرافيا داخل الأراضي الإسلامية حتى وصلت مشارف دمشق، الأمر الذي قلل من قيمة الانتصار الذي أحرزته ميمنة المغول بسبب عدم عودتها مباشرة لمؤازرة قلب الجيش والميسرة مما عرضهما للهزيمة ومن ثم هزيمة جميع المغول (135).

وعلى ما يبدو أن امتلاك المماليك لبعض عناصر القوة والسيادة الإستراتيجية لمواقع المعارك الثلاث بوصفها واقعة في ظهير قوة المماليك وعمق دفاعاتهم - وبالتالي افتقاد المغول لتلك الصفة - وما ترتب عليها من توافر المؤن والإمدادات ومعرفة ظروف البلاد الجغرافية وطبيعتها ومسالكها ودروبها التي لم تبعد كثيراً عن أرض المعارك التي وقعت شرق وشمال شرق حمص، ناهيك عن سهولة انسحاب المماليك وقت الهزيمة على ما حدث في حمص الثالثة عقب خسارتهم للمعركة إلى دمشق القريبة، وسهولة استبدال الجند أو

استدعائهم من دمشق أيضاً وما إلى ذلك من نتائج ترتبت على تصدي المماليك لعدوهم وهم داخل حدودهم.

بينما بدت إشكالية التمويل تلك وطرق الانسحاب جلية في موقف المغول في المعركتين الأولى والثانية، حيث تعقبهم المماليك وأجلوهم عن حلب وتعقبوهم إلى الفرات في حمص الأولى، كما كبدوهم خسائر فادحة، وأفقدوهم الكثير من أموالهم وجنودهم ما بين قتل وأسر خلال فرارهم والمماليك يتبعونهم عقب هزيمتهم في حمص الثانية. ولعل مما يمكن سياقه في هذا المضمار أن أحد أقوى عوامل نشوب تلك المعارك وهو التحرك المغولي ضد المماليك قد تحول إلى أحد أقوى عوامل انتصار المماليك على المغول.

وعانى سكان بلاد الشام الكثير من الويلات نتيجة ما حدث في بلادهم ومدنهم نتيجة لتغير السيادة بين المغول والمماليك على بلادهم، وقتل منهم كثير بلا ذنب بسبب انتقام المغول في بعض الأحيان على ما حدث في حمص الأولى، ناهيك عن معاناتهم من غلاء الأسعار بصورة جنونية تعدت كافة الاحتمالات حينما كان المغول يُحاصرون بعض المدن على ما فعلوا في حلب عقب هزيمتهم في حمص الأولى، فغلت الأسعار وعدم القوات وشح بين العامة (136)، وقد تكرر سيناريو القتل والغلاء فيما بعد بحيث صاحب كل دخول مغولي إلى بلاد الشام سواء في حمص الثانية أم الثالثة أم في غيرها من اللقاءات الحربية بين طرفي الصراع (137).

الهوامش

- 1- الملك الأشرف موسى مظفر الدين بن الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه، بن الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي. انظر: النويري (أحمد بن عبد الوهاب النويري ت: 733هـ): نهارية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفى فوار وحكمت فوار، ج29، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2004م، ص265.2
 - 2- هو منكوتمر بن هولاکو أخو أبغا بن هولاکو بن تولي بن جنکيز خان وتوفي سنة 681هـ/1282م. انظر: ابن أيبك (أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدوداري): كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: أ. هارمان، ج8، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، 1971م، ص248؛ ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت: 874هـ/1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1938م، ص301؛ ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص18-19.
 - 3- هو ابغا بن هولاکو بن تولي بن جنکيز خان وتوفي عام 680هـ/1281م. انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج4، مكتبة المتنبی، القاهرة، (د.ت)، ص16؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص294. وأيضًا:
- Fiey, (J.M.), Chretiens syriaques sous les Mongols: Il-Khanat de Perse, XIIIe - XIVE s, Louvain: Secrét. du CorpusSCO, 1975, pp. 33-40; Bertold, Geschichte der Mongolen: nach östlichen und europäischen Zeugnissen des 13. und 14, Jahrhunderts, 1968, pp.152-153, 192-194.
- 4- محمود غازان خان: ابن أرغون خان، وهو من سلالة ملكية تنتهي إلى جنکيز خان وهو من أبرز إيلخانات فارس وأقواهم، وقد اعتنق الإسلام قبل توليه الحكم سنة 694هـ/1295م، مما عُد نقطة تحول بالنسبة لديانة المغول في آسيا الوسطى، ويُعد عهد غازان بمثابة الفترة التي تحول فيها المغول من حياة البدو إلى الاستقرار. انظر عنه:

Fiey, Chretiens syriaques sous les Mongols, pp. 39-40.

5- جرت العادة أن يتخذ أولئك الأمراء المعارضون من حادثة خلع ابن السلطان ذريعة للمعارضة والاحتجاج والدفاع عن مبدأ الوراثة وواجبات الولاء والعهود، ولكنها في الواقع لم تخرج عن مجرد الرغبة في استغلال الظروف لمصالحهم الشخصية، فلو أن واحداً من هؤلاء الأمراء المعارضين تمكن من خلع قلاوون والوصول إلى السلطنة لما احترم مبدأ الوراثة الشرعية، لأن المعارضة هنا مسألة شكلية لتغطية ما بأنفسهم من طموح نحو العرش. ويتصدر هؤلاء سنجر الحلبي الذي كان نائباً لقطز في دمشق وقد سعى فور إعلان بيبرس من نفسه سلطاناً إلى معارضته وتلقب بالملك المجاهد واستدعى أعيان دمشق واستحلفهم وباقي نواب الشام فمنهم من حلف له ومنهم من امتنع، ومناهم بالأموال والاقطاعات كي ينصاعوا له 658هـ.

وكان المقرئ صريحاً حينما جعل اتصال سنقر الأشقر - الذي عارض قلاوون وتمرد على سلطنته وتغلب على شيزر وصهيون وبلاطنس وأعمالهم عام 678هـ/1279م اعتراضاً على سلطنة قلاوون وتذرعاً بحقوق وراثة أبناء بيبرس في العرش - بالمغول أحد أهم العوامل المباشرة في نشوب معركة حمص الثانية على ما يفيد الخطاب الذي عُثر عليه مع حامل رسائل منكوتر الذي وقع في أسره يجرّسه على غزو الشام ويمنيه بالمساعدة. وقد وقع في يد طرناطي النائب جماعة من المغول كأسرى منهم حرمدان (أي حامل رسائل) منكوتر، فوجد بها رسائل من سنقر الأشقر وأيتمش السعدي وغيرهم من موالي سنقر يجرّسون منكوتر على مهاجمة الشام ويعدون بالمساعدة على دخولها.

وقبيل اندلاع حمص الثالثة لجأ كل من قبجق المنصوري نائب دمشق وبكتمر السلاح دار في أواخر أيام السلطان لاجين - على أثر خلافهم معه بسبب سعيه إلى تنصيب الناصر سلطاناً للمرة الثانية - إلى الاتصال بالخان غازان محمود وشرحوا له سوء أحوال مصر والشام وحرصوه على غزوهما، فراق لغازان أن يحقق المشروع الذي فشل أجداده في تحقيقه بالقضاء على المماليك والاستيلاء على مصر والشام. وقد استهل غازان مشروعه

بعبور نهر الفرات في طريقه إلى الشام، فخرج الناصر محمد لملاقاته وكان قد عاد إلى مملكته في ولايته الثانية بعد مقتل لاجين: انظر: ابن أيك: كز الدرر، ج8، ص63-64، 240؛ النويري: نهاية الأرب، ج30، ص24-25؛ المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت: 1442م/845هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج1، ق3، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ص866-930. وأيضاً: قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك (التاريخ السياسي والحربي)، دار عين، القاهرة، 1998م، ص131-139.

6- عُزل الناصر محمد مرتين بواسطة هؤلاء الأمراء الطامعين، الأولى (1293-1294م) على يد لاجين المنصوري الذي عزله ونفاه بعد عام واحد من حكمه، وقُدِّر لـ "لاجين" البقاء سلطاناً أربع سنوات (1294-1298م)، ولكنه لم يستطع إرضاء الجميع وأثار حقد الأمراء فقتلوه واستدعوا الناصر محمد من منفاه. أما سلطنة الناصر الثانية فاستمرت عشر سنوات (1298-1308م) ازداد فيها نفوذ الأمراء وعجز الناصر عن السيطرة على الموقف لصغر سنه، فوقف حائراً أمام المنافسة التي اشتدت بين الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار، ولقي منهما الإساءة والتضييق المالي، فاضطر الناصر إلى التخلي عن السلطنة ومغادرة مصر إلى حصن الكرك.

وقد انتهز بيبرس الفرصة واغتصب العرش مُلقباً نفسه بالسلطان المظفر ركن الدين بيبرس، أما الأمير سلار فإنه اكتفى بنبابة السلطنة، واستمر الحال على هذا الوضع سنة واحدة ثار بعدها العامة والأمراء ضدّهما، ونتج عن ذلك عودة الناصر محمد إلى عرشه في احتفال شعبي كبير سنة 1309م، وهنا لم يتردد الناصر في الانتقام من كل من بيبرس وسلار، فمات الأول جوعاً حتى أنه أكل أصابعه أما الثاني فإنه أُعدم شنقاً. وتعدُّ سلطنة الناصر الثالثة (1309-1341م) سلطنته الحقيقية التي دامت حتى وفاته، ونظراً إلى كبر مدة الفترات الثلاث التي حكمها الناصر محمد فقد عُده واحداً من أطول عهود سلاطين المماليك (حوالي 43 سنة).

عن أحداث هذه الفترة وتداخلاتها انظر: النويري: نهاية الأرب، ج1، ق3، ص793-872؛ الشجاعي: تاريخ الملك الناصر محمد بن المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص793-872؛ الشجاعي: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى واولاده، فرايبورج (Freiburg)، ألمانيا، 1971م، ص3-102.

7- لم يستسلم المماليك إلى هزيمتهم في معركة حمص الثالثة وإنما تكتلوا ثانية وخرجت جمعهم إلى الشام لأخذ الثأر من المغول، وحينما علم غازان باقتراب جيوشهم من دمشق فإنه انسحب منها تاركاً المدينة في حماية من انضم إليه من أمراء المماليك، وقد ظن أنه يستطيع بهذه الوسيلة أن يشطر المماليك إلى حزبين متصارعين يضرب كل منهما الآخر، ولكن خاب ظنه بانضمام المماليك - الذين سبق أن أعلنوا له الولاء - إلى جيش المماليك القادم إلى الشام، وهكذا انتهت سيطرة المغول على بلاد الشام.

وحينما فشلت مساعي غازان لعقد الصلح مع المماليك كي يتصدى لمشاكله الداخلية فإنه قرر إرسال جيوشه إلى الشام بقيادة قائده قطلوشاه عام 702هـ/1303م فخرج الناصر محمد بجيوشه لملاقاته، وتقابل الفريقان عند مرج الصفر إلى الجنوب من دمشق، وكان النصر النهائي للمماليك، وارتدت فلول المغول إلى الفرات بعد أن فقدت ما يقرب من عشرة آلاف جندي بين قتيل وأسير. ويُعد هذا الانتصار الحلقة الأخيرة في سلسلة الوقائع الكبرى التي دارت بين الدولتين المملوكية والمغولية وزال خطر المغول بعد موقعة مرج الصفر عن مصر والشام حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي عندما عاودوا الظهور من جديد على يد القائد المغولي تيمورلنك. انظر: المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص930-938؛ ابن أيبك:

كنز الدرر، ج9، ص20-55.

8- The Templar of Tyre, Part III of the Deeds of Cypriots, Trans. by, Paul Crawford, (England, 2003), p.593.

9- مدينة حمص: طولها إحدى وستون درجة وعرضها أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة، وهي مدينة جليلة وقاعدة من قواعد الشام العظيمة، وهي في وطأة من الأرض ممتدة إلى نهر العاصي ومنه يشرب أهلها، حيث يُرفع الماء إلى دار النيابة بها وبعض مواضع بها.

وقد أخذت تضاريس حمص ثلاثة اتجاهات متميزة كنتيجة طبيعية لعوامل تكوين التضاريس الباطنية والخارجية: التضاريس البركانية والسهلية المتموجة في سهول حمص وما غربها، والتضاريس الإلتوائية في منطقة جبال وسط حمص وما بينها وتعادل 45% من مساحة حمص وتضم مجموعة من الجبال مثل جبال: الشومرية والأبيض والضليل والمنشار وغيرها، ثم التضاريس الصحراوية في منطقة الفيضات والحمام وتعادل 46% من مساحة حمص وتقع في جنوبي وشرقي الجبال التدمرية. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار إحياء التراث، بيروت، 1979م، ج1، ص. 207، 281

10- لعبت مدينة حمص دوراً مهماً على عصر الحروب الصليبية بفضل سيطرتها على منفذ حمص الذي ربط المنطقة الساحلية بالبحر المتوسط بالجوف السوري عن طريق وادي نهر العاصي، وفصل بين سلسلة جبال النصيرية شمالاً وسلسلة جبال لبنان جنوباً من خلال امتداده من الشرق إلى الغرب، وهما السلسلتان الملازمتان لساحل البحر المتوسط، وبذلك المنفذ تحكمت حمص في حركة المرور بين داخل البلاد وبين المنطقة الساحلية. تُعد حمص واحدة من أربع مدن مشهورة في بلاد الشام منذ القدم، حيث تحتل الترتيب الثالث بعد دمشق وحلب، كما تتوسط حمص موقعيهما، وهي بلدة كبيرة ذات قلعة حصينة، تمتد بساكنها إلى نهر العاصي. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995، ص43، 44. وأيضاً: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1966م، ص. 136

11- الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص21، 264؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص. 207، 281

12- تقع سلمية بعيداً عن الطريق وعن نهر العاصي على طرف البادية إلى الجنوب الغربي من حماة، وهي عبارة عن حصن صغير بينها وبين حمص مرحلة والمرحلة تساوي 24 ميلاً، أما الميل فإنه يساوي 1.6 كيلو متراً تقريباً، واحتلت بفضل موقعها مركزاً متقدماً على حافة

الصحراء، وصارت ملتقى للطرق المتجهة إلى حلب ناحية الشمال وإلى الرصافة في الشمال الشرقي، وإلى حماة وحمص في الغرب وإلى تدمر في الشرق، وقد تلاشت تلك المكانة تدريجياً منذ تدميرها على يد القرامطة عام 290هـ. انظر: محمد مرسي الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، الإسكندرية، 1980م، ص 48، 49. وعن غزو القرامطة للمنطقة انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت)، ج2، ص.60

13- المرحلة تساوي 24 ميلاً، أما الميل فإنه يساوي 1.6 كيلو متراً تقريباً.

14- النويري: نهاية الأرب، ج-31، ص21-22؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج-8، ص68-69

15- اليافعي (أسعد بن علي بن سليمان ت:768هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل منصور، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص.144

16- الرستن مدينة شامية تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة حمص على بعد 20 كيلو متر وإلى الجنوب من مدينتي مدينة حماة على بعد 21 كم.

17- النويري: نهاية الأرب، ج-31، ص.23

18- وادي الخزندار هو اسم موضع المعركة كما ذكره المقرئزي والدودار وابن أيبك، وقد أشار القلقشندي أن "الخزندار" هو الرسم الصحيح للكلمة، وقد اشار بن تغري بردي إلى أن وادي الخزندار يقع قريباً من سليمة حيث وقعت المعركة بقرها. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج5، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1945م، ص435. وأيضاً: المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص692؛ الدودار(الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدودار): زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالد.س. ريتشاردز، بيروت، 1998م، ص331؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج-8، ص68-69؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص.98

19- Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, , II, 1912, p. 471.

وكذلك: الدودار: زبدة الفكرة، ص. 331

20- وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج-2، ص 43-44. وأيضاً: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام، ص. 136

21- لم يتوقف المغول عن مهاجمة بلاد الشام منذ ما قبل عين جالوت ولم يتوقف المماليك عن الخروج لصدّهم عنها، ففي أعقاب معركة عين جالوت وتوابعها استغل بيدرا فرصة مقتل السلطان قطز، وثورة سنجر الحلبي والي دمشق على مقتله ضد بيبرس البندقداري لظنهم بقوع خلاف كبير بين الأمراء المعزية وهم لا يعلمون - على ما يبدو - بالصلح الذي عقد بين بيبرس وسنجر الحلبي، فجمع بيدرا جيشه من المغول الباقين في الجزيرة ومن نجا من عين جالوت، وشكل جيشاً قوامه ستة آلاف فارس، وهاجم حلب فهرب الأمير حسام الدين الجوكندار المقدم بمن معه من العسكر إلى جهة دمشق، وحينما رأى المغول هروبه فإنهم دخلوا حلب وملكوها وأخرجوا من فيها من المماليك ووضعوا السيف في رقاب بعضهم وأطلقوا الباقين فدخلوا حلب.

ووصل الأمير حسام الدين الجوكندار مع عسكره إلى حماة وبها صاحبها الملك المنصور، ثم تقدم المغول إلى جهة حماة فلما قربوا منها رحل الجوكندار والملك المنصور بعسكريهما إلى حمص ووصل المغول إلى حماة وهاجموها فأغلقت أبوابها، فطلب منهم المغول فتح الأبواب مقابل تأمينهم فلم يجيبوهم، ولم يكن مع المغول خسروشاه ولم يكن أهل حماة يثقون سوى فيه ثم أخرجوا للمغول بعض الطعام فاندفع المغول عن حماة للقاء المماليك وارتعب الناس بين أيديهم وخاف أهل دمشق واستعد الطرفان لخوض حمص الأولى.

وقد كثرت هذه اللقاءات بعد حمص الأولى، بحيث كانت مهاجمة المغول لبلاد الشام في العام السابق على معركة حمص الثانية سبباً في خروج قلاوون إلى لقاءهم، ودخل المغول إلى حلب وأقاموا بها بضعة أيام ثم انسحبوا إلى مشاتهم في الوقت الذي أعلن فيه قلاوون التحرك

لمواجهة المغول ووصل إلى الشام، ولكنه عاد حينما وقف على خبر عودة المغول إلى بلادهم. وكذا كان الحال عشية معركة حمص الثالثة حينما تأهب غازان للعبور إلى بلاد الشام وأرسل بعض فرق جيشه إلى بلاد الروم على وصف المقريري، ناهيك عن تزامن تحركات غازان مع وصول أسطول كبير في البحر المتوسط قبالة بيروت نسبة المقريري إلى الفرنجة ولم يقدر له الوصول إلى اليابسة لأن الرياح دمرته قبالة سواحل بيروت وأسر المسلمون من جنوده الكثير، ويرى المقريري أن خروج الأمير سلامش عن طاعة غازان في بلاد الروم ونهبه لجنوده في بلاد الشام من أكثر الأسباب التي حركت غازان لتأديبه ومهاجمة بلاد الشام ووقوع أحداث معركة حمص الثالثة. عن تفاصيل مقدمات معارك حمص الثلاث انظر:

النوري: نهاية الأرب، ج30، ص21-22؛ ج31، ص20-21، ص24-241؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص66-67؛ ج9، ص13-14؛ المقريري: السلوك، ج1، ق3، ص874-875، 877-878. وأيضاً:

The Templar of Tyre, III, pp.591-593.

وأيضاً: السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربية، 1986م، ص264-266؛ منذر الحايك: العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، 1996م، ج2، ص96.

22- لاقى المنصور قلاوون معارضة من الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب السلطان في دمشق الذي أعلن نفسه سلطاناً على بلاد الشام بمجرد سماعه بسلطنة قلاوون وعزل سلامش بن بيبرس، وانضم إليه عدد كبير من المماليك الظاهرية، كما أقام إلى جانبه سليل أيوبي وهو صاحب حماة، وكذلك شيوخ القبائل العربية المقيمة على حدود بلاد الشام والعراق سنة 1280م.

كان سنقر الأشقر نداءً للمنصور قلاوون وواحدًا من رجال بيبرس شأنه شأن قلاوون في ظل سلطنة بيبرس، وقد وضع هذا الأمر أيما وضوح عقب وفاة بيبرس ومبايعة الأمراء لولديه على التوالي، حيث كان قلاوون مثل سنقر في التوجهات والقوة والميول والمواقف. وعقب إعلان

قلاوون نفسه سلطاناً على الديار المصرية وإعلامه سنقر بما انتهى إليه حاله من السلطنة فإن الأخير استقل بدمشق على الفور وتلقب بالملك الكامل، وظل مستقلاً بأغلب بلاد الشام لمدة عام تقريباً (678-679هـ). انظر: النويري: نهاية الأرب، ج1، ص31، 8-9، 10-11، 13-16؛ الياغعي: مرآة الجنان، ج4، ص144؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص230-235، 240.

23- أكد بعض المؤرخين ما مفاده أن من عوامل انتصار قلاوون في تلك المعركة نجاحه في جذب سنقر الأشقر إليه قبل بداية المعركة بقليل، وقد فرح المسلمون بذلك نتيجة للم الشمل ولأن سنقر كان له من قوة الشخصية ما من شأنه أن يُرجح كفة المماليك. انظر: المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص690؛ بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1993م، ص72.

24- لم يخرج الأمير سيف الدين قبحق - أو قبحاق - وحده عن سلطة الناصر محمد وإنما انضم معه بعض الأمراء الآخرين ومنهم: الأمير سيف الدين بكتمر السلاح والأمير فارس الدين البكي، والأمير سيف الدين عزاز. عن قبحق وعلاقته بالمغول وبالناصر محمد بن قلاوون انظر: الدودار: زبدة الفكرة، ص331؛ النويري: نهاية الأرب، ج1، ص31، 241؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص886-888؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج9، ص375-376.

25- ابن أيبك: كنز الدرر، ج9، ص13-18؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق2، ص888-889.

26- المقرئزي: السلوك، ج1، ق2، ص900-901.

27- يقول داوي صور The Templar of Tyre عن ذلك: "...وحدث أن قبحق ومن في صحبته قد بقوا في دمشق مع "مولاي"، لأنهم كانوا في شدة الخوف من السلطان بسبب ما اقترفوه من فعال السوء، كما شرحت لك، وراسلوا أصدقائهم في مصر قائلين إنه

يجب أن يُؤثروا علي السلطان ليتصالحوا معه، وعند ذلك قبل السلطان عذرهم وأرسل إليهم عهد الأمان، ثم غادر قبجح وباقي الأمراء دون أن يكتشف "مولاي" ما عزموا عليه وساروا إلي مصر...". انظر:

The Templar of Tyre, III, p.611.

28- كان سنجر الحلبي نائباً لقطز في دمشق وقد سعى فور إعلان بيبرس من نفسه سلطاناً إلى معارضته وتلقب بالملك المجاهد واستدعى أعيان دمشق واستحلفهم وباقي نواب الشام، فمنهم من حلف له ومنهم من امتنع، ولكنه اصطالح في النهاية مع السلطان بيبرس. انظر: الدودار: زبدة الفكرة، ص 59-60؛ النويري: نهاية الأرب، ج30، ص 20-21؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص 63-64.

29- تعرض بيبرس خلال عام 659هـ لأكثر من حركة معارضة منها مؤامرة دبرت لاغتياله بين الأمراء المعزية، فقبض على جميع المتآمرين ومن بينهم الأمير بهاء الدين بغدي الأشرفي وحمله إلى القلعة وظل بمحبسه حتى مات. وكان من نتيجة ذلك خوف الأمير شمس الدين البرلي على نفسه ففر من دمشق لأنه ظن أن يحدث معه ما حدث مع الأمير بهاء بغدي، فتوجه إلى حلب وتملكها وانفرد بها وصادر الأمراء والعامّة وما إلى ذلك.

وقد لوحظ حرص بيبرس بعد هذه الأحداث مباشرة على إحياء الخلافة العباسية في القاهرة باستقدام الأمير المستنصر العباسي ومبايعته بالخلافة وتقليده لبيبرس بالبلاد المصرية والشامية والفراتية والجزرية والحجازية. وعلى ما يبدو أن ثمة علاقة بين ما حدث في القاهرة وما حدث للأمير البرلي الذي انهزم على يد المغول وتفرق عنه أتباعه، وبالرغم من محاولة المغول استمالاته بإقطاعه البلاد من جهتهم فإنه تجاهل عرضهم وراسل بيبرس واستأذنه في دخول الشام فأذن له وعفا عنه وأنعم عليه بالمال والخلع عام 1261م. انظر: النويري: نهاية الأرب، ج30، ص

20-22؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص 70-75، 88-96.

30- الجوكندار: لقب من يحمل الجوكان مع السلطان في أثناء لعب الكرة، وجمعها "جوكان دارية" وتعني "ممسك الصولجان". انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص 458.

وأيضًا: النويري: نهاية الأرب، ج30، 21-22.

31- عن الأشرف موسى وبقية أمراء المماليك والعربان ودورهم في معركة حمص الأولى
انظر: النويري: نهاية الأرب، ج30، ص21-22؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج8،
ص63-68.

ويرى ابن أيبك أن معركة حمص الأولى - التي اختزل أحداثها في عدة أسطر وكذلك النويري
- كانت أفضل من وجهة نظره من معركة عين جالوت، ويُعلل رأيه بأن المغول كانوا في
أعداد كثيرة للغاية برغم أنه لم يذكر لهم سوى ستة آلاف فارس. انظر: ابن أيبك: كنز
الدرر، ج8، ص68. وأيضًا: ابن كثير(الحافظ عماد الدين بن كثير ت 774هـ): البداية
والنهاية، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، 1998م، ج17،
ص423.

32- المرقب: حصن يقع على الساحل الشامي، بينه وبين انطرسوس ما يقرب من ثمانية
أميال، والحصن مشهور بالقوة والحصانة، وظل بيد فرقة فرسان الاستتارية الصليبيين الذين
دعموا المغول ضد المماليك. انظر: ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص85-86.

33- عن التحالف بين المغول وأوربا بعد معركة عين جالوت انظر:

The Templar of Tyre, pp.100-101; The Chronicle of Bury St. Edmonds, trans. by Antonia Grandson, London, 1964, p.63; Meyvaert, "An unknown letter of Hulagu, Il-Khan of Persia to king Louis IX of France", in Viator, (Vol.11, 1980), pp.245-261. See also: Ryan, (J. D.); The Interrelation of the Oriental Mission and Crusades Activities of the Papacy Under Nicholas IV (1288-1292)", Ph. D. thesis, New York university, 1972, pp.18-25; McLean, "An Eastern Embassy to Europe in the Years 1287-8", in E.H.R, vol.14, no. 54 (Arr., 1899), pp.307-313; Turner, "Unpublished notices of the Edward I, especially of his relation with the Mongols sovereigns

of Persia", in A.J.(vol. VIII, 1851), p.48.

وأيضًا: رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ط3، ترجمة: السيد الباز العريني، بيروت، 1993م، ص675؛ فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ من جنكيز خان إلي هولانكو خان، القاهرة، 1960م، ص194؛ عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا أثرها علي العالم الإسلامي، دار عين، القاهرة، 1997م، ص35-120، 59-122. وعن المشروعات والتقارير الأوربية لغزو العالم الإسلامي وفشل تحالف أوروبا مع المغول انظر: مارينو سانودو: كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، ترجمة: وليم رزق الله، راجعه سمير خادام، القاهرة، 1991، ص9-70، 120-182، 136-209، 260-274. وأيضًا: جمال فاروق الوكيل: تطور إستراتيجية الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي في ضوء كتابات مارينو سانودو، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، 2006م، ص26-49، 88-129. وأيضًا:

Guzman, "Simon of Saint-Quentin and the Dominican mission to the Mongol Baiju: A Reappraisal", in: *Speculum*, vol.46 (April, 1971), pp. 232-249; Nowll, "The historical Prester John", in: *Speculum* , vol. 28, no. 3 (jul., 1953), pp.435-455; De Rachewiltz, *Papal envoys to the great khans*, (London, 1941), pp.14-40.

1-The Chronicle of Bury st. Edmonds, p.63. See also: Fiey, *Chretiens syriaques sous les Mongols*, pp. 39-40, 70-71.

34- قدم الصليبيون مساعدة للمغول حينما دخلوا حلب في تلك الأحداث فقرر قلاوون محاربتهم، ولكن رجاله انهزموا وقُتل أكثر من مائتين منهم، فذهب قلاوون للقائهم بنفسه وذلك في حدود عام 679هـ. انظر: المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص681-683.

35- عن الصورة التي وُصف بها بعض العربان الذين شاركوا في معركة حمص الثانية يقول القلقشندي: "...أقبل آل مرا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح على الخيل المسومة

والجياذ المطهمة وعليهم الكزغندات الحمر الأطلس المعدني والديباح الرومي وعلى رؤوسهم البيض مقلدين بالسيوف وبأيديهم الرماح...". انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص435.

36- يُعد جوزيف دو كانسي - صاحب رواية معركة حمص التي ضمنها رسالته - أحد فرسان الاستتارية في مملكة بيت المقدس في عكا، وقد بعث برسالة طويلة إلى إدوارد الأول Edward I (1272-1307م) ملك إنجلترا الذي رد عليه برسالة يشكره فيها على التقرير الوافي الذي ضمنه أحوال الشرق عموماً وأخبار معركة حمص الثانية خصوصاً، وذيل دو كانسي رسالته بتاريخ 31 من أيار دون أن يحدد العام.

ونظراً لأن الملك إدوارد قد رد على رسالة دو كانسي عام 1282م وقد حدثت المعركة سنة 1281م ومن ثم فإن هذا يعني أن رسالة دو كانسي كُتبت بين مايو 1281 ومايو 1282م في وقت قريب للغاية من وقت حدوث المعركة، ولأن المعركة حدثت في 14 من رجب 680هـ/ 29 من أكتوبر 1281م، فهذا يعني أن الخطاب قد بُعث به في اليوم الأخير من مايو من عام 1282م. انظر:

Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy to king Edward I of England, The library of the Palestine Pilgrims' Text Society (Volume5, (London, 1896), (Index) pp.1-8, 13.

37- The Templar of Tyre, III, p.408.

38- ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص.574.

39- اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص.144.

40- المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص.686.

41- تنبه داوي صور إلى مصاحبة الملك الأرمني لغازان وقال عنه أنه يشبه إلى حد كبير أمراء الفرنجة (الصليبيين) في بلاد الشام. انظر:

The Templar of Tyre, III, p.407.

- 42- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.7.
43- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.7.
وأيضاً: النويري: نهاية الأرب، ج29، ص8-9.
- 44- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.7.
45- ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص574.
46- اليافعي: مرآة الجنان ج4، ص144.
- 47- بيبرس المنصوري: مختار الأخبار(تاريخ الدولة الأيوبية والدولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ)، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1993م، ص73.
- 48- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص21-22؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص692.
- 49- ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص282.
- 50- أرغون خان: هو الابن الأكبر لأبغا خان بن هولكو ورابع خانات المغول الإيلخانيين حكام فارس، تولى الحكم عقب اغتياله لعمه أحمد تكودار عام 1284م/683هـ.
- 51- The Templar of Tyre, III, p.591.
- 52- واصل أرغون سياسة والده أبغا خان في محاولة التفاهم مع الغرب لإيجاد وسيلة للتحالف ضد المماليك، فأرسل بأربع سفارات إلى أوروبا على غرار والده في أعوام 1285م، 1287م، 1289م، 1290م، وقد ألح فيها على ضرورة القيام بعمل عسكري مشترك للتصدي لدولة المماليك وتدميرها، ولكن لم يُقدر النجاح لسفاراته هو الآخر على ما حدث مع والده. انظر: محمد فوزي رحيل: نهاية الصليبيين، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2009م، ص321. وعن مراسلات أرغون بالبابوية انظر:
- Turner, "Unpublished notices of the Edward I, especially of his relation with the Mongols sovereigns of Persia", in

A.J.vol. VIII, 1851, p.48; Sinor, "Mongols and western Europe", p.531; Ryan, The Interrelation of the Oriental, pp.9-25, 71-82; 93-229; McLean, "An Eastern Embassy to Europe in the Years 1287-8", in E.H.R, vol.14, no. 54 (Arr., 1899), pp.307-313.

53- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.7.

54- حينما استهل عام 680هـ وقد قرر قلاوون الذهاب إلى الشام وردته رسل الصليبيين في طلب تجديد الهدنة مع الإسماعيلية وبقية الصليبيين في عكا لمدة عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام وعشرة ساعات تبدأ في 12 من محرم 680هـ، وبعدها بقليل وردته رسل بوهمند أمير طرابلس في عقد هدنة مدتها عشرة سنوات أيضاً تبدأ في 17 من ربيع الأول. انظر: المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص.685

55- السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربية (بيروت)، 1406هـ/1986م، ص299-300

56- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.7-12.

57- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص.21

58- LeBlévec, (Daniel), Cartulaire du prieuré de Saint-Gilles de l'Hôpital de Saint-Jean de Jérusalem (1129 - 1210), (éd.) Daniel LeBlévec, (Paris, 1997), III, pp.417-418.

59- عن تحركات المغول في بلاد الشام قبيل عين معركة حمص الثالثة واتصالاتهم بالأمير قبجق انظر: ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص375-376

60- المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص878-882؛ 888-889

61- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص241. وأيضاً:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, p. 471.

62- The Templar of Tyre, III, pp.601-602.

63- المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص.886

64- Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, pp.471-472.

65- The Templar of Tyre, III, p.610.

66- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص241؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص886-888؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص13-18.

67- The Templar of Tyre, III, p.593.

68- The Templar of Tyre, III, p.610.

69- ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص421؛ النويري: نهاية الأرب، ج31، ص241.

70- The Templar of Tyre, III, p.611.

71- ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص421؛ النويري: نهاية الأرب، ج31، ص21-22؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص68-69.

72- أشار بعض المؤرخين إلى أن معركة حمص الثانية لم يُر مثلها منذ عصور سلفت، وقيل إن وقت القتال بدأ من الضحى حتى نهاية النهار وقيل: بل بدأ من الثالثة على ما ذهب دو كانسي أو الرابعة على قول المقرئزي وحتى مغرب الشمس، وأن المغول لم يعتدوا هذه العدة منذ عشرين سنة. انظر: المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص692؛ بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص73؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص244-245. وأيضاً:

Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, p.7-11.

73- كان في الميسرة المملوكية المنكسرة سنقر الأشقر والحلي وركن الدين الجالحق وبمك الناصري والجاشنكير والأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح والأمير علم الدين الحلي ومن معهم والتركان وعسكر حصن الأكراد، وفي رأس الميسرة الأمير حسام الدين طرنطاي مع جماعته وبعض الأمراء في الجاليش. انظر: بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص73؛ النويري: نهاية الأرب، ج31، ص21-22؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص244-245.

74- تضمنت الميمنة المملوكية كل من الأمير بدر الدين بيسري والملك المنصور صاحب حماه والأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيري وآل فضل وآل مري وغيرهم من العربان. انظر: بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص73؛ النويري: نهاية الأرب، ج31، ص21-22.

75- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8.

76- أشار النويري إلى أحد مماليك الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الصالحي الذي انضم إلى المغول وحارب في صفهم ضد المماليك، ولكن لم يُشر إلى اسمه فربما كان هو المملوك الذي أطلق عليه دو كانسي سنقر التتري، أما جوزيف دو كانسي فإنه أطلق عليه Samgar. انظر: النويري: نهاية الأرب، ج31، ص21. وأيضًا:

Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, p.8.

77- بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص73. وأيضًا:

Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8-9.

78- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8-9.

79- رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، ج2، القسم الثاني، ص83؛ ابن حبيب: تذكرة التنبيه، ط1، مطبعة دار الكتب المصرية، 1976م، ج1، ص62-63؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص298-299. وأيضًا: عباس إقبال: تاريخ إيران، ص447.

80- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8-10.

81- المقريري: السلوك، ج1، ق3، ص692.

82- اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص144.

83- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8-9.

84- يختلف بيبرس المنصوري مع ابن كثير في أن ميمنة المماليك انتصرت على ميسرة المغول، ولكن يبدو أنه خلط بين القلب والميسرة لدى المغول حينما علق على انهزام ميسرة

المغول بأهزيمته منكوتمر الذي كان في القلب وليس في الميسرة، وفي هذه الحالة فإنه يكون متفقاً في ارتبائه مع دو كانسي أو أنه قصد أن هزيمة ميسرة المغول قد وصلت إلى جناح القلب فأثرت على قوته، ثم أقر بيبرس المنصوري بأن ميمنة المغول هزمت ميسرة المماليك وطاردت سنقر حتى سد حمص بعد عبور سنقر الأشقر نهر العاصي هارباً. انظر: بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص. 73

85- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8-9.
وأيضاً: النويري: نهاية الأرب، ج 31، ص 23؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 17، ص. 574

86- يُشير دو كانسي إلى أنه ترتب على قوة شخصية السلطان وثباته في أرض المعركة نجاحه في جمع رجاله بعد أن أمر بضرب النفير وصرخ فيهم، فاجتمع حوله من ظلوا على قيد الحياة وعددهم 600 رجل، ولكن يبدو ان دو كانسي خلط بين القوة المحيطة بالسلطان والمرافقة له وبين بقية جيشه، لكن اعتقاد المغول بانتصارهم دفعهم لجمع الغنائم والأسلاب وعلى رأسها استبدالهم خيولهم الضعيفة بخيول المماليك القوية والسريعة، وفي ظل حالة الارتباك التي أثارها المغول ظناً بأن المعركة انتهت لصالحهم ولبحثهم عن الغنائم وإثارة الغبار في أرض المعركة فقد تحرك السلطان صوبهم لمعرفة ما يحدث فوجد منكوتمر الذي ظن بدوره أنهم جنوده وكان معه فقط ما يقرب من 200 رجل لأن ميمنة جيشه بقيادة الملك لو كانت قد ابتعدت في مطاردة ميسرة المماليك في اتجاه دمشق.

ويتفق كل من ابن كثير ودو كانسي في ثبات السلطان مع القلب بالرغم من حرمانه من ثبات جناحيه في الميسرة والقلب، وان كان لذلك الثبات دور خطير في تفوقه وانتهاء المعركة لصالحه حينما عاد الأمراء المهزيمين مرة أخرى ليقفوا مع السلطان "... ثم إن أعيان الأمراء من الشجعان والفرسان... مثل سنقر الأشقر، وبيبرس، وطيبيرس الوزيري، وبدر الدين أمير سلاح، وايتمش السعدي، وحسام الدين لاجين، وحسام الدين طرنطاي، والدوايداري وأمثالهم لما رأوا ثبات السلطان ردوا إلى السلطان وحملوا حملات متعددة صادقة، ولم يزلوا

يتابعون الحملة بعد الحملة حتى كسر الله بحوله وقوته التتر، وجرح منكوتر، وجاءهم الأمير عيسى بن مهنا من ناحية العرض فصدم التتر فأضربت الجيوش لصدمة، وتمت الهزيمة والله الحمد". انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص574. وأيضًا:

Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.9. See also: The Templar of Tyre,III, p.591.

87- أقر كل من ابن أيك والمقريري في سبب جرح منكوتر وهربه وانخزاه أن منكوتر حينما رأى هزيمة ميسرته فإنه نزل إلى الأرض ليرى من أسفل الخيول حجم القوات المصاحبة لقتالهم فلم ير آخرهم من دواب الحمل والمؤن "... فظن أن ذلك كله مُقاتله، وأرمى الله الرعب في قلبه فركب فرسه وولى هاربًا..." لظنه أن عدد المسلمين أكبر بالرغم من أنه لم يزد عن ثلاثمائة مع السلطان وألف مع والد ابن أيك الدوداري بقيادة علم الدين زريق الرومي، فهلع وعزم على الهرب ولكنه فُتطر فسقط فنزل أصحابه لحمايته فتابعهم المماليك وتغلبوا عليهم، وقيل بل قام الأمير عز الدين الحاج أذمر بحملة شجاعة وطعن منكوتر فسقط فانكب المماليك على المغول ولحقوهم وهزموهم. انظر: ابن أيك: كنز الدرر، ج8، ص343-344؛ المقريري: المقريري: السلوك، ج1، ق3، ص690-691؛ وأيضًا: النويري: نهاية الأرب، ج31، ص23-24.

88- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.9; The Templar of Tyre,III, p.408. 593.

89- عيسى ابن مهنا: من أمراء العربان الذين شاركوا على رأس العربان في حمص الثانية وقاد الميمنة المملوكية التي انهزمت أمام ميسرة المغول ولكنه عاد ومعه العربان لمؤازرة السلطان في القلب وكان لصدوده هو وغيره مع السلطان دور في الانتصار. ولأسرة مهنا تاريخ عريق في محاربة المغول والصليبيين، بحيث كان مهنا بن عيسى كبير المقام وله صيت ذائع وكان مقربا من سلاطين المماليك بعدئذ، وقد رفض مهنا بن عيسى عرضًا من المغول بمحالفتهم ضد المماليك، وأفرد له موسى بن محمد اليوسفي ترجمة كبيرة في كتابه نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر. انظر: اليوسفي (موسى بن محمد يحيى ت 709هـ): نزهة الناظر في سيرة

الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطييط، عالم الكتب، 1986م، ص 89-91، ص 198-211؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص886؛ الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص. 37-90- ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص245. وأيضاً:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, pp. 328.

91- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8-9. See also: The Templar of Tyre, III, p.408.

92- The Templar of Tyre, III, p.591.

93- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.10-11.

94- كان للمصادر المملوكية رأي مخالف فيه واقعية وأكثر منطقية في تفسير فقدان الملك ليو لرجاله على تلك الشاكلة، فأشار ابن أيبك إلى قيام السلطان "... بلف السناجق في ذلك اليوم على رماحها حتى لا يُعلم بمكانه..."، وذلك للتحايل على ميمنة المغول العائدة للمرور بأرض المعركة ثم انقض عليها قلاوون وطاردها، وأضاف بيبرس المنصوري أن ميمنة المغول قررت الانسحاب وعدم مقاتلة قلاوون، ويُعلل بيبرس المنصوري ذلك الانسحاب نتيجة لمعرفتهم بهزيمة باقي الجيش ولأجل ذلك غادروا أرض المعركة دون الالتحام مع السلطان في معركة لا يعرفون لها نتيجة مضمونة.

وأكد المقرئزي أن مغول الميمنة رعا خيولهم عند مرج حمص انتظاراً لقدم بقية المغول وهم لا يعلمون بما جرى، وحينما بعثوا بمن يقف على أخبارهم وعلموا بهزيمتهم وفرار منكوتمر فإنهم لاذوا بالفرار أيضاً، وحينما عادوا للمرور بأرض المعركة أمر السلطان بلف السناجق وبوقف الضرب على الكوسات فمر هؤلاء فأمر قلاوون بمهاجمتهم فهزيمهم، ولو أنهم عادوا لهزموا السلطان وقتلوه ومن معه ليس لقلته من معه فحسب وإنما لأنه لم يعد بهم قوة. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص574-476؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص343؛ بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص73؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص693-695.

وأيضاً:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, pp. 329-330.

95- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.10-11.

96- أشار ابن أيك إلى مطاردة المغول التي حدثت في اليوم التالي للمعركة وقادها الأيدمري مصطحباً خمسة آلاف جندي حتى النهر الأسود، فقتل الكثير وأسر خمسمائة وكان العدد قابل للزيادة لولا أن عرب خفاجة دلوا كبار أمراء المغول على طرق الهرب ومسالكه إلى بلادهم.

كما قدم المقرئزي تفصيلاً لعملية المطاردة حينما بعث الأيدمري من حلب في متابعة المغول إلى الفرات ففروا وغرق منهم الكثير، وقاتل أهل البيرة بعضهم نحواً من خمسمائة وأسروا مائة وخمسين، وتوجه منهم نحو ألف وخمسمائة فارس إلى بغراس فقتل أكثرهم وأسر الكثير منهم، وحينما هرب نحو أربعة آلاف نحو سلمية فقد أخذت عليهم الطرقات والمعابر فساروا إلى البرية ليموتوا عطشاً وجوعاً، ولم يسلم منهم سوى ستمائة فارس فخرج عليهم أهل الرحبة فقتلوا أكثرهم وأحضرنا بعضهم إلى الرحبة فدقت أعناقهم بما. انظر: ابن أيك: كنز الدرر، ج8، ص343-344؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص698. وأيضاً: بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص73-74. وأيضاً:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, pp.244-245.

97- ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص476-574. وأيضاً:

Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.10-11; The Templar of Tyre, III, p.408.

98- المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص695-696.

99- أبغا خان: هو الابن الأكبر لهولاكو خان وقد خلف والده في حكم دولة مغول فارس منذ 664هـ/1265م حتى توفي عام 681هـ/1282م.

لمزيد من التفاصيل عن أبعغا خان انظر: رشيد الدين: جامع التواريخ، ج1، ص 223. وأيضاً: فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإلخانيين، ص33-117؛ عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (205هـ/ 820م- 1343هـ/1925م)، ترجمة وتعليق: محمد علاء الدين منصور، مراجعة: السباعي محمد السباعي، القاهرة، 1989م، ص443-449. وأيضاً:

Fiey, Chretiens syriaques sous les Mongols, pp. 33-40; Bertold, Geschichte der Mongolen: nach östlichen und europäischen Zeugnissen des 13. und 14, Jahrhunderts, 1968, pp.152-153, 192-194.

100- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت: 748هـ): العبر في خبر من غير، تحقيق وضبط: هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص326؛ رشيد الدين فضل الله الهمداني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاءكو من آباقاخان إلى كيخاتوخان، دار إحياء الكتب العربية، ص:83. وأيضاً: عبد السلام عبد العزيز فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، 1981م، ص162-164. وأيضاً:

Jean Richard, The Crusades, C. 1071-c. 1291, Cambridge University Press, 1999; p. 453.

101- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص23-25؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص693.

102- الأمير سيف الدين سلار: ينحدر من أصل مغولي أويراتي، وقد أسره المماليك في معركة أبلستين، ودخل في خدمة الصالح علي والأشرف خليل ابنا السلطان قلاوون، وأصبح نائباً للسلطنة في عهد السلطان لاجين، واستمر فيها خلال فترة حكم الناصر محمد الثانية، ثم قبض عليه الناصر محمد في فترة حكمه الثالثة وسجنه حتى الموت. عن دور الأمير سلار في أحداث هذه الفترة انظر: المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص681-937؛ ابن أيبك:

كنز الدرر، ج8، ص230-240

103- حسام الدين لاجين الأستادار: هو حسام الدين لاجين الرومي أستاذار السلطان قلاوون، ويُعرف أيضاً بلقب الحسام لاجين أستاذار، وقد قُتل في معركة شقحب أو مرج الصفر سنة 702هـ/1303م وهو بخلاف حسام الدين لاجين الذي تسلطن وتوفي في سنة 1299م.

أما حسام الدين لاجين المعروف بالصغير تمييزاً له عن الآخرين الذين حملوا الاسم ذاته فهو من مماليك السلطان نور الدين علي بن أيك، ثم اشتراه قلاوون، وحينما تسلطن قلاوون فإنه اعتقه ورفع منزلته وعينه نائباً على دمشق وزوجه من إحدى بناته، ثم أعلن لاجين نفسه سلطاناً على دمشق حينما خرج سنقر الأشقر على قلاوون فقبض عليه الأخير وحبسه لمدة عامين ثم عفا عنه وعينه نائباً للسلطنة لمدة 11 سنة حتى تسلطن الأشرف خليل فعزل لاجين وقبض عليه وحُكم عليه بالإعدام، ولكن سرعان ما عفا عنه الأشرف بشفاعة الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري وعينه سلاح دار. وكان لاجين ضمن الأمراء الذين تأمروا على اغتيال الأشرف خليل سنة 1293م، واختفى ولم يظهر في القاهرة سوى بعد تنصيب الناصر محمد سلطاناً على مصر، وشفع بعض الأمراء للاجين عند الناصر فعفا عنه مما اغضب مماليك الأشرف خليل وتمردوا عليه، فقام لاجين بنصح كتبغا بعزل السلطان الناصر محمد وتنصيب نفسه قبل أن ينتقم منهم مماليك الأشرف أو السلطان الناصر نفسه. وفي سنة 1295م عمل الأمير كتبغا بنصيحة لاجين وعزل السلطان الناصر ونصب نفسه سلطاناً على مصر وعين لاجين نائباً للسلطنة، وتوفي لاجين سنة 1299م. انظر: انظر: المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص681-937؛ ابن أيك: كنز الدرر، ج8، ص230-240، ج9، 13-17. وأيضاً: قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة 2007م؛ شفيق مهدي: مماليك مصر والشام، الدار العربية للموسوعات، بيروت. 2008.

104- ابن أيك: كنز الدرر، ج9، ص17-18؛ المقريزي: السلوك، ج1، ق3،

ص886-887

105- اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص172-173. وأيضًا:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, pp.471-472.

106- المقرئزي: السلوك، ج1، ق2، ص887؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج9، ص17.

107- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص241؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق2، ص887.

108- يُشير النويري إلى أن قبجق أخبر السلطان الناصر حينما اصطلحا بعدئذ أنه حينما نصح غازان بالثبات ومهاجمة المماليك فإنه كان يقصد أن يدفع بغازان كي يتم أسره من قبل المماليك عقب هزيمته. انظر: النويري: نهاية الأرب، ج31، ص241.

109- Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, p.472.

110- The Templar of Tyre, III, p.602.

111- المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص887.

112- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص241-242.

113- يعلق ابن أيبك على توقف المغول عن متابعة المماليك في اليوم الأول من أحداث المعركة بأنه كان بمثابة رحمة إلهية وبخاصة أنه كان بمقدور المغول المتابعة والاستيلاء على البلدان الإسلامية بسبب الحالة المزرية التي عانى منها المماليك بهروهم على تلك الشاكلة. انظر: ابن أيبك: كنز الدرر، ج9، ص17-18.

114- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص246-344؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق2، ص888-889. وأيضًا: اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص172.

115- ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص68.

116- الدودار: زبدة الفكرة، ص67؛ النويري: نهاية الأرب، ج30، ص21-22؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص115.

- 117- عن الصلح الذي تم بين الظاهر بيبرس وشمس الدين البرلي انظر: النويري: نهاية الأرب، ج30، ص36-37.
- 118- النويري: نهاية الأرب، ج30، ص24-25.
- 119- النويري: نهاية الأرب، ج30، ص27.
- 120- النويري: نهاية الأرب، ج30، ص37-38.

هدفت الدبلوماسية المملوكية إلى تخفيف ضغط مغول فارس عن بلاد الشام من خلال العلاقات الدبلوماسية مع المغول القفجاق، بحيث بات ضرورياً وضع حد للمغول الإيلخانيين، ولما كان بيبرس يريد ادخار قوته العسكرية لكي لا تتبدد في المواجهة مع مغول فارس فإنه لجأ إلى الدبلوماسية لتساعده في تحقيق مرماه، ولم يجد حيراً من المغول القفجاق في ظل العداء المشترك الذي جمع بين المماليك وبين المغول القفجاق ضد الإيلخانيين، ومن ثم الوصول إلى نوع من توازن القوى؛ فإذا كان المغول الإيلخانيين يتصلون بأوروبا والصليبيين في الشرق في إطار مشروعات عسكرية لضرب المماليك ووضعهم بين شقي الرحى، فقد تحالف المماليك مع مغول القفجاق لوضع المغول الإيلخانيين في الموضوع ذاته.

وقد ترتب على اعتناق بركة خان حاكم المغول القفجاق للإسلام قيامه بدور كبير في التقارب بين المماليك والمغول القفجاق، يُضاف إلى ذلك أصل الظاهر بيبرس الذي يعود إلى بلاد القفجاق مما أوجد نوعاً من الارتباط العاطفي مع دولة مغول القفجاق، ناهيك عن رغبة الظاهر بيبرس في استمرار تدفق الرقيق من بني جنسه من مصدره في منطقة القفجاق، ومن المعروف أنهم عماد الجيش المملوكي. انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص139. وأيضاً: فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي، ص42. انظر أيضاً:

Irwin, The Middle East in the Middle Ages, p.51.

- 121- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص24-25.
- 122- عن معركة مرج الصفر انظر: المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص897-898، 930-938.

- 123- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص26-27.
- 124- محمد فوزي رحيل: نهاية الصليبيين، ص50-300.
- أتت ثمار نشر الإسلام بين مغول فارس أكلها على المدى البعيد حينما اعتنق الخان القادم للمغول أحمد تكودار Teguder-Ahmad (1282-1284م) الإسلام وطلب مخالفة دولة المماليك. ولكن لم تدم السلطة في يد تكودار أحمد لأنه قُتل نتيجة لعلاقاته الطيبة بالمماليك. عن الرسائل المتبادلة بين تكودار أحمد وقلاوون انظر: الدودار: زبدة الفكرة، ص219-227. وأيضاً: رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ غازان خان، دراسة وترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد، 1998م، ص604-607. وأيضاً:
- Fiey, Chretiens syriaques sous les Mongols, pp.41-43.
- 125- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص242؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق2، ص888.
- 126- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص242؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق2، ص888.
- 127- اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص172؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج9، ص17-18. وعن قتلى حمص الثالثة انظر: الدودار: زبدة الفكرة، ص332.
- 128- النويري: نهاية الأرب، ج31، ص248-251؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص172-173؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق2، ص838-930.
- 129- المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص878-882؛ 888-889.
- 130- المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص885.
- وأيضاً:

The Templar of Tyre, III, p.604.

- 131- ابن أيبك: كنز الدرر، ج9، ص15-16.
- 132- The Templar of Tyre, III, p.607.
- 133- الدودار: زبدة الفكرة، ص331-332.
- 134- رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ص604-607.
- 135- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.9-11.
- 136- النويري: نهاية الأرب، ج30، ص23-24؛ ج31، ص257-259؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج8، ص68-69.
- 137- اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص172؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ق2، ص888.

وليم أف نيوبره مؤرخاً للحروب الصليبية في الشرق
من سقوط القدس إلى الفتح الإسلامي
(1099-1187م)
(دراسة تاريخية نقدية)

بحث من إعداد
د/ على أحمد محمد السيد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية (فرع دمنهور)

وليم أف نيوبره مؤرخاً للحروب الصليبية في الشرق
من سقوط القدس إلى الفتح الإسلامي
(1099-1187م)

شغلت الحروب الصليبية أذهان الناس وحركت أرقام المؤرخين وأثارت خيال الشعراء والفنانين في أنحاء الغرب الأوروبي أجيالاً بعد أجيال، وكان من الطبيعي أن يهتم راهب مثل وليم أف نيوبره William of Newburgh بتسجيل بعض أحداثها في معرض تناوله لتاريخ إنجلترا في مدونته التي تحمل عنوان *Historia Rerum Anglicarum* ، وتتألف من خمسة كتب، ينقسم كل منها إلى فصول متفاوتة العدد، ويتكون كل فصل من عدة فقرات، والمدونة عبارة عن سرد لتاريخ إنجلترا منذ الفتح النورماني لها عام 1066 م. حتى عام 1197م، وقد لقي هذا العمل المصير نفسه الذي حظيت به معظم الأعمال ذات الأهمية الخاصة المتعلقة بتاريخ إنجلترا في العصور الوسطى، إذ تم نشرها في مجموعة تاريخ إنجلترا منذ باكر العصور المعروفة باسم سلسلة اللفائف. *Rolls series* (1).

هذا وقد اعتمد الباحث على الترجمة الإنجليزية للنص اللاتيني التي نشرها الباحث سكوت ماكلتشى Scott Mcletchie عام 1999 م. تحت اسم: تاريخ وليم أف نيوبره، رسالة افتتاحية *"The History of William of Newburgh, The Prefatory Epistle"*، تعديلاً منه لما كان جوزيف ستيفنسون Joseph Stevenson قد نشرها بالإنجليزية منذ حوالي قرن ونصف، بحيث شكلت

الجزء الرابع من القسم الثاني من مجموعة مؤرخي إنجلترا الكنسيين (2) *The Church Historians of England* ولد مؤرخنا وليم William في بلدة بريدلينجتون Bridlington بمقاطعة يوركشير Yorkshire في عام 1135 أو 1136 م...، وتلقى تعليمه في دير مدينة نيوبره Newburgh الذي اتبع النظم الأوغسطينية (3) في الرهبنة، ومن هنا اقترن اسم

المؤرخ بالدير والمدينة الواقع فيها، وفي عام 1182 م. عاد إلى يوركشير بعد أن هجر زوجته الثرية، وهناك شرع في تدوين كتابه الشهير (4) الذي يبدو بوضوح أنه دونه قبل فترة قصيرة من وفاته في يوركشير 1198 م.، والمؤرخ ينتمي إلى مدرسة المؤرخين الشمالية؛ إذ سار على نهج كتابة المؤرخ بيده المجلد **Bede the Venerable** المتوفى عام 753 م.، ونظراً لكون وليم أف نيوبره راهباً؛ فقد كان معزولاً عن الحياة العامة، وكتابه يتسم بكثير من الغموض إلا أنه على درجة كبيرة من الأهمية والقيمة خاصة بالنسبة للفترة المبكرة من حكم الملك الإنجليزي هنري الثاني (1154-1189م) HenryII (5)

والواقع أن تصنيف مدونة هذا المؤرخ يضعها بين مصادر تاريخ إنجلترا، إلا أنه بعد فحصها تبين أنها تضم مادة تاريخية أصيلة وثيقة بتاريخ أوروبا الوسيط بصفة عامة. ولما كانت إنجلترا لها يد طولى في أحداث الحركة الصليبية في الشرق، وكذلك بقية دول أوروبا الغربية التي لعبت دوراً قد يكون أكثر أهمية في تلك الحروب، ولما كانت المدونة قد اشتملت على تأريخ لهذه وتلك، كان من الطبيعي أن تتضمن المدونة أيضاً تأريخاً لعلاقات تلك القارة الخارجية مع الشرق خلال فترة كتابة المؤرخ الممتدة منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين وهى الفترة التي واكبت شطر الحملات الصليبية وربما يزيد.

وعليه وقع اختيار الباحث لموضوع بحثه تحت عنوان "وليم أف نيوبره مؤرخاً للحروب الصليبية في الشرق من سقوط القدس إلى الفتح الإسلامي (1099 - 1187م). دراسة تاريخية نقدية".

وبحكم انتماء الباحث للمنطقة العربية فقد وجد من المناسب أن يستل من المدونة جانباً محدداً من الموضوعات ذات الصلة بالوطن، فكانت فكرة التركيز على موضوع الحركة الصليبية عند المؤرخ النيوبيري، ويلاحظ هنا التدرج الواضح في مدى اهتمامه بهذا الأمر وتوسعه كلما تقدم في الكتابة، حتى سيطر هذا الموضوع على المادة التاريخية الواردة في كتابه الأخيرين، ولهذا بالطبع ما يبرره؛ ذلك أن المؤرخ اهتم بشكل أوضح بتسجيل الأحداث

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

التاريخية الصليبية التي عايشها وعاصرت حياته، وتتمثل أبرزها في أحداث الحملة الصليبية الثالثة 1189 - 1192 م، وصولاً إلى آخر أحداث تلك المدونة والمتعلقة بالحملة الصليبية لهنري السادس Henry VI إمبراطور ألمانيا (1190 - 1197 م.)، والعام الأخير شهد وفاة كليهما. وعليه أقمّت دراستي على أساس تناول المادة التاريخية الخاصة بالحركة الصليبية في الشرق، حتى حدث فتح صلاح الدين الأيوبي للقدس في عام 1187 م، بصفتها وحدة موضوعية تاريخية واضحة المعالم، أما الأحداث التي وقعت في العقد الذي يتلو ذلك فأجد أنها جديرة بأن تدرس على حدة في دراسة أخرى على اعتبار أن صاحب المدونة يعد واحداً من المؤرخين الرواد لهذه الحقبة، كما أن أسلوبه في الكتابة عنها قد اختلف باتسامها بالمعاصرة والإفاضة والقدرة النقدية، ومن ثمّ يتمثل دور الباحث في إلقاء الضوء على أهمية المدونة وتتبع المادة المغمورة المتعلقة بالحركة الصليبية طوال فترة قيام مملكة بيت المقدس الصليبية في القدس فقط.

ذلك كان هو شأن الفترة الزمنية موضوع البحث، أما من ناحية الموضوع فلا شك أنه من الصعب دراسة المادة الصليبية في المدونة دون مضاهاتها بمثيالاتها التي في المصادر الصليبية المعاصرة؛ ولذا تخيرت أبرز الأعمال منها فكان كتاب "أعمال الفرنجة الحاجين لبيت المقدس" للمؤرخ الصليبي فولشر أف شارتر **Fulcher of Charters**، معتمداً على الترجمة الإنجليزية للكتاب (6)، ثم كتاب "تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحر" لمؤلفه وليم الصوري **William of Tyre**، معتمداً على الترجمة الإنجليزية له أيضاً (7)، أما فيما يتعلق بالسنوات القليلة التي توقفت فيها كتابات هذا المؤرخ بداية من عام 1883 م. حتى عام الأحداث الأخيرة في موضوع البحث فقد لجأت إلى تغطيتها باستخدام الحولية التي تعد تذييلاً للكتاب السابق، وانتسبت لرجلين هما: إرنول **Ernoul**، وبرنارد **Bernard** وكيل الخزانة المنشورة باللغة الفرنسية القديمة (8)، وكذلك لجأت في الفترة ذاتها إلى مؤلف روجر أف هوفدن **Roger of Hoveden** وعنوانه "حوليات روجر أف هوفدن، تاريخ إنجلترا وبلاد أوروبية أخرى في الفترة من 732 م إلى 1201 م (9).

وعلى هذا النحو فإن ملامح المنهج المتبع تتضح من خلال تقديم وإبراز المادة التاريخية الخاصة بالحركة الصليبية عند وليم أف نيوبره مرحلة بعد مرحلة، وحتى يمكننا تقييم كل منها فلا مناص من مضاهاتها ومقارنتها بالمادة الواردة عند أقوى الكتابات المعاصرة لكل مرحلة؛ لتوفير الخلفية التاريخية الضرورية على ما يأتي، فالمعروف أن المؤرخ فولشر أف شارتر سجل مدونته بحيث شملت أحداث الحملة الصليبية الأولى منذ الدعوة لها حتى عام 1127 م وتدعمت تلك الكتابات بكتاب وليم الصوري في الفترة ذاتها، لذا كانت مدونتها أساساً لتبيان أوضاع الشرق اللاتيني في تلك الحقبة، ثم يأتي ما سجله وليم الصوري - منفرداً في غالب الأحيان بداية من هذا العام حتى 1183 م. - أساساً لإبراز الجانب الآخر من الأحداث التي تستغرقها الفترة. وهكذا يكون الحال بالنسبة لمدونة إرنول وبرنارد، ولكتاب المؤرخ الإنجليزي روجر أف هوفدن اللذان يعدان من أفضل المدونات المعاصرة للسنوات الأخيرة من عمر مملكة بيت المقدس اللاتينية، أي حتى سقوط القدس في عام 1187 م ، وبالتالي تم الاستناد في اختيار المدونات الثلاث الأولى إلى أنها تناولت الحركة الصليبية وأن أصحابها يصنفون في العادة على أنهم مؤرخون صليبيون أقاموا في الشرق اللاتيني لفترات، أما اختيار المدونة الرابعة للمؤرخ روجر أف هوفدن فقد اختيرت استناداً على أنه مؤرخ معاصر تماماً للمؤرخ وليم أف نيوبره موضوع البحث، كما أنه مواطن إنجليزي مثله، حيث انتميا إلى المدرسة الاسكتلندية في الكتابة التاريخية؛ فتشابهها في ثقافتيهما الدينية، وحرصاً على تدوين تاريخ حكاهما الإنجليزي. ومن ثم يكون للمقارنة وقع أفضل وبعد أعمق.

بدأت وقائع مدونة وليم أف نيوبره التاريخية بالتعرض إلى الظروف التي دفعت المؤرخ إلى تدوين كتابه التاريخي، فيذكر أنه كلف من قبل أرنولد Ernald رئيس دير ريفو Rievaulx بإيجاز هذا العمل بأجرٍ مادي، الأمر الذي استوجب منه تقديم الشكر على ذلك. ثم انتقل المؤرخ إلى التعرض لجانب من مصادره التاريخية التي اعتمد عليها، فأشار إلى المؤرخ بيده Bede المتوفى عام 753 م. (10)، كما تحدث عن أحد الكتاب ويدعى جوفرى أف مونماوث Geoffrey of Monmouth صاحب كتاب "تاريخ الملوك

البريطانيون History of the British kings "المتضمن كثيرا من القصص الأسطورية عن الملك الإنجليزي آرثر Arthur (11)، ووجه وليم أف نيوبره لكتابه نقدا لاذعا. وما لبث أن تناول المؤرخ وليم الشعوب المكونة للمملكة الإنجليزية من بريتون Britons، ورومان Romans، وولشيين Welsh، وإنجليز Angles، وسكسون Saxons، واسكتلنديين Scots، وجانباً من تصارعهم من أجل إقامة مجتمعاتهم وممالكهم، وفي خط متواز تعرض سريعا لشخصيات تاريخية مثل الإسكندر الأكبر Alexander the Great، ويوليوس قيصر Julius Ceasar، وجعل من شخصية آرثر - المعروفة في التاريخ الإنجليزي- شخصية أسطورية مشيراً إلى بعض الملوك مثل ألفريد العظيم Alfred the Great ملك وسكس (871 - 899 م.)، ومن خلفوه من ذريته. ثم شرع المؤلف في تكوين وقائع كتابه بادئاً إياه بالحديث عن الملك وليم الفاتح (1066-1087 م.) الذي ذكره باسم William the Bastard أي وليم الوغد(12).

وإذا ما انتقلنا إلى المادة التاريخية ذات الصلة بموضوع البحث المتعلقة بالحروب الصليبية نجدها بداية تعاني عند وليم أف نيوبره مما تعانيه الكتابة التاريخية لدى مؤرخي أوروبا العصور الوسطى من مشاكل بشكل عام، ولعل إشكالية عدم الالتزام بالسياق التاريخي تعد واضحة في النص الواقع بين أيدينا، ويقر مؤرخنا بنفسه بهذا الأمر في مدونته، ويأتي اعترافه حليا في الفصل الرابع عشر من الكتاب الخامس(13) الذي خصصه للحديث عن تأسيس الدولة الإسلامية إيدانا ببدء الحروب الصليبية بعد صدامها مع الغرب حيث جاء به في أواخر المدونة، وختمه بعبارة " ولنعد الآن إلى ترتيب تاريخنا " توطئة منه لاستكمال الأحداث التي سبقت حملة هنري السادس الصليبية 1197 م، ذلك كان مجرد نموذج لأداء المؤرخ بغرض تنبيه القارئ للأسلوب المتبع، وأوثر أن أفق بشكل أكثر تفصيلا وأعماق تفسيريا لأسلوب كتابته في موضع آخر يأتي في ختام تناول مادته الصليبية كاملة في نهاية الدراسة. وفي ضوء ذلك يحسن التقديم لموضوع البحث بما ورد على لسان المؤرخ وليم أف نيوبره

نفسه في الفصل المذكور بكتابه الأخير، إذ أن نصه يتصل بمحاولته تفسير قيام الحروب الصليبية بشكل فريد في وضوحه، ورغم نزوع المؤرخ إلى التحامل على المسلمين، وهم الطرف الثاني في الصراع الناجم عن اندلاع الحروب الصليبية، إلا أن الباحث حرص على تقديم جانب مما ورد عن مراحل الإسلام الأولى وحركة الفتوحات الكبرى، التي كانت عنده بمثابة السبب الحقيقي لهذا الصراع وذلك وفقاً لما رآه المؤرخ إذ يقول: "وبعد عصر البابا المبارك جريجوري Gregory اشتبك جيش وثنى من الفرس ضد المسيحيين واقتلعوا الديانة المسيحية من القدس حيث إنها كانت بلا قوات تدافع عنها(14)". ذلك أن كسرى الثاني ملك فارس أعلن الحرب على الإمبراطورية البيزنطية ووصل بقواته خلقدونية في عام 608 م.، كما تم للفرس الاستيلاء على سوريا وبيت المقدس في عام 614 م.، وعلى مصر في 616 م.، وكان سقوط بيت المقدس بمثابة كارثة دينية بالنسبة للمسيحيين؛ إذ استولى الفرس على الصليب الحقيقي (صليب الصلبوت) مما أعطى تلك الأحداث صبغتها الدينية؛ فتحفز الإمبراطور هرقل (610 - 641 م.) لصددهم، وتمكن من ذلك في الفترة الواقعة من (622 - 628 م.) (15) في الوقت الذي أخذت فيه قوة ثالثة في النزوع على المسرح العالمي ألا وهي قوة المسلمين الفتيحة التي ستغير - بجدارة - وجه التاريخ خلال تلك المرحلة .

ويواصل مؤرخنا روايته في هذا الصدد قائلاً: " وقد أعقب الفرس في هذا المسار الهاشميون، وهم الذين بالأحرى يطلق عليهم اسم العرب المسلمين وبشكلٍ أقرب إلى الصحة الهاجريين (16) Hagarenes وهم يعملون تحت قيادة (على حد زعم المؤرخ) محمد الرسول المزيف.....، ولما هفت إليه قلوب من حوله من عشيرته بل وكثير من غيرهم بمحض إرادتهم وأسندوا إليه جميع أمورهم، استغل حماسة وشهوة توسيع نطاق نفوذه بشكلٍ أكبر وذلك تحت زعم التوسع في الدعوة إلى دينه، وكأن ذلك أمر من الله ألقاه إليه؛ فهاجم الأمم المجاورة وبدايةً قام بغزو البلاد المسيحية الواقعة في الشرق حيث بلاد الغساسنة ثم ولى وجهه بعد ذلك وشهر سلاحه تجاه الأراضي الخاضعة للدولة الفارسية حيث بلاد المناذرة

وتمكن من تحقيق مآربه بما لديه من حنكة وقدرات خاصة، وهو ما لم يكن له أن يحققه بما لديه من قوة. وعلى الرغم من أنه كان يبدو متديناً في كل أمر، إلا أنه نجح بشق السبل في قيادة القوم الذين غزاهم نحو خرافته بأن أبقى على شعائهم كما أبقى على وثنية الفرس الذين أخضعهم إلا أنه لم ينجح في إخضاع المسيحيين، ولم يتمكن من القضاء على اسم المسيح المقدس. ومع ذلك فقد انحصرت المسيحية حتى كادت أن تنقرض في بلاد مصر وليبيا أي الشمال الإفريقي وما بين النهرين أي بلاد العراق وسوريا وهي ممالك الشرق ذات الشهرة العتيدة في اعتناقها الديانة المسيحية فترة ما قبل سيادة المسلمين عليهم (17). ومن الواضح انها عبارات مغلوطه أملتها عليه روحه الصليبية المتعصبة ضد كل ما هو غير مسيحي كاثوليكي ثم استمر المؤرخ في تشويهه لرسالة الرسول (الكريم عليه الصلاة والسلام)، وروى قصصاً ملؤها الغلو في الكراهية والبهتان (18)، وكذلك اتهم المؤرخ الرسول بأنه اقتبس بعض تقاليد المسيحيين واليهود وأدخلها في دياناته لكسب ثقة الناس وضرب أمثلة على ذلك: فحرم أكل لحم الخنازير، وأقر عملية الختان لإرضاء اليهود، وشرع الغسل المتكرر (أي الوضوء) تشبهاً بعملية التعميد عند المسيحيين، وأمر بالبر وعدم السكر كما ورد في المسيحية، بينما انغمس في الشهوات وسمح لأتباعه بذلك مدعياً أن ذلك بتصريح إلهي (19)، ومع ذلك كله فقد " كان المسلمون يدعون بأنهم أرقى من قوما الأوربيين يا اقتصادهم - يا للحنن! - بينما هم يفوقوننا في جلسات السكر والعريضة، يا للجزبي !! ". هذا وقد شغلت قضايا تحريم أو إجازة بعض الأطعمة والطقوس وموقف المسيحية والرهبان منها مقارنةً بالإسلام اهتمام المؤرخ على مدى فقرات (20) .

ما لبث أن انتقل وليم أف نيوبره بعد ذلك إلى الحديث عن المسلمين في المرحلة التالية لوفاة الرسول حيث قال: " ازدادت تلك الطائفة الدينية البوائية المبنية على الخطأ قوّة، وذلك بعد أن أصابت عديداً من المقاطعات بالعدوى.....، حيث تمكنوا من الاستيلاء على الجزء الأعظم من العالم؛ إذ أن هذا الرجل النبي محمد ترك من خلفه أشياء أخذوا عنه مهارته وقوته في الخداع فأخضعوا أهل فارس الذين كانوا في ذلك الوقت أقوى أمم الأرض قاطبة

حيث دانت إمبراطوريتهم بكاملها لحكم العرب بعد أن استشرى الإسلام فيما بينهم. كذلك اتجه العرب الذين يعرفون أيضاً بالمسلمين إلى آفاق أخرى من العالم بغرض نشر دينهم ونجحوا في ضرب الحصار في ظروفٍ صعبة حول مدينة القسطنطينية، تلك المدينة التي كانت تنعم وبلاد اليونان حيث الإمبراطورية البيزنطية بإخلاصها للمسيحية، وما لبثوا أن شقوا طريقهم إلى أفريقيا، تلك القارة التي كانت تحت الحكم الروماني بيد أنها كانت تن من وطأة الحروب الأهلية، وبدون عظيم مقاومة تمكنوا من اجتياح هذه الولايات مترامية الأطراف غير مكتفين بالمهجوم عليها، وقضوا على المسيحية فيها التي كانت قد انتشرت منذ عصر قسطنطين الكبير Constantine the Great الإمبراطور البيزنطي 306-337م. وبرز في تلك البلاد أبطال شديدي البسالة في العقيدة: كالشهيد سبريان (21) Cyprian، وواضع النظريات المجيد أوغسطين Augustine هذا الألمي بحر الحكمة المسيحية (22). وها هم المسلمون لا يزالون يسيطرون على تلك البلاد حتى يومنا هذا.

لم يكن هذا العنصر الذي لا دين له راضياً عما أحرزته المسيحية من نجاحات؛ لأنهم وبإصرار ملؤه الغل قاموا بغزو أسبانيا التي يفصلها عن أفريقيا مضيق ذو عرض غير كبير، واستولوا على جزء مهم منها، وهو الذي يجوزونه حالياً باعتباره امتداداً لديانتهم الوضيعة، كما عبروا جبال البرانس أيضاً التي تفصل أسبانيا عن فرنسا، وتقدموا في مواجهة حماسة الفرنسيين المشتعلة وفقاً لمخطط، تحذوهم الأماني آملين أن ينشروا ديانتهم الآئمة في شتى أرجاء أوروبا، كما سبق لهم فعله في البلاد الأخرى، لكن الله القهار الجبار ذا الحكمة، في وسعه أن يوقف هذا السيل الجارف إذا ما شاء (23). وها هم واجهوا من صدهم عن إتمام زحفهم الثائر؛ ففي الوقت الذي تمكن فيه العرب من الانتشار في مملكة فرنسا مستغلين انهيار الإمبراطورية الرومانية كان الفرنج قد قاموا باتخاذ التدابير اللازمة والاستعداد لمواجهة تلك الحملة، ولذا عاد العرب أدراجهم مرة أخرى وُردوا على أعقابهم إلى أسبانيا".

لعل عرض هذه الفقرات في البداية يعد خير مقدمة تاريخية يمكن أن نستهل بها

الدراسة، ففيها تناول المؤرخ تاريخ صدر الإسلام وأثر ظهور هذه الديانة على البلاد القوية المجاورة لجزيرة العرب من خلال وجهة نظره الشخصية، فتعرض إلى الإمبراطورية الرومانية بعدما أصابها الوهن، وأصبحت عرضة لهجمات بلاد فارس الذين خلفهم المسلمون في عداة الإمبراطورية البيزنطية، وكما رأينا أشارت إليهم المدونة بالعرب أو الهاشميين أو بنى هاجر Hagarenes، وكالت لهم ولرسولهم محمد اتهامات باطلة عديدة، ثم تعرضت لصفات الرسول الخاصة، وبجحاه في إقناع تابعيه بالدعوة؛ لما كان لديه من قدرات ومهارات وحسن بيان، وأنه لم يكتف بأولئك الذين التفوا من حوله، إنما شرع في توسيع دولته على حساب الجيران. وبالفعل ترتب على مهاجمة بلاد فارس أن دخلت في الإسلام، ثم ما لبثت أن انضمت الشام ومصر وأفريقيا وأجزاء كبرى من أسبانيا غربًا، وكان كل ذلك على حساب الوجود الروماني المسيحي فيها. وأدرك المؤرخ دور الفرنجة في وقف الزحف الإسلامي في الغرب عند جنوب فرنسا حيث معركة بلاط الشهداء (732 م.). وعلى كل فكتابات صاحب المدونة تم عن أنه اطلع على جوانب من التاريخ والدين الإسلاميين، بيد أنه دائما ما كان ينظر إلى معتنقيه على أنهم مغتصبون للأراضي المسيحية التي كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية دون إدراك منه بارتضاء معظم شعوبها في الشرق هذا الدين، بينما نجد المؤرخين الصليبيين المعاصرين قد درجوا على رد اندلاع الحروب الصليبية إلى رغبة الكنيسة ومسيحيي أوروبا في تخليص الضريح المقدس من أيدي المسلمين بالدرجة الأولى (24). ويستشف من ذلك أن دافع الحروب الصليبية في نظر وليم أف نيوبره يتمثل في الدوافع السياسية، وعلى رأسها الرغبة في إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة باسترداد ما فقدته من أراضٍ من أيدي المسلمين، وهذا يدل على أن مؤرخنا لم يكن تقليديا في تقييمه للأحداث التاريخية رغم تعليمه الديني، وإن كانت لديه إشارات لا ينتفي معها وجود دوافع دينية أيضا يمكن ملاحظتها في ما ذهب إليه المؤرخ عن الإسلام والمسلمين، وما سمحت به الشريعة الإسلامية أو حرمة، في حالات مثل: إباحة تعدد الزوجات، وتحريم الخمر، وتحريم أكل لحم الخنزير، وإباحة ختان الرجل، وطهارة البدن بالوضوء، وذلك كله في تناول واضح. ومن

ذلك أيضاً ما ورد في أول إشارة للمؤرخ وليم أف نيوبره عن الحروب الصليبية؛ حيث أطلق عليها الحروب المقدسة، وذلك في الفصل الثاني من كتابه الأول (25).

وفي هذا الفصل شرع المؤرخ في الحديث عن تاريخ إنجلترا بعد وفاة الملك وليم الفاتح (1066-1086م) William the Conqueror، وكيف آل حكمها إلى ابنه وليم روفوس William Rufus (1087-1100م) وليس لابنه الأكبر - غير الشرعي - روبرت كارثوس (26) Robert Curthose، ثم جاء وليم أف نيوبره بمادة تعد أول ما يمكن رصده من تأريخه لأحداث الحروب الصليبية على مدى كتبه الخمسة، حيث قال: "كان روبرت أخو وليم الأكبر - والذي كان من الطبيعي أن يخلف أباه في العرش - أقل عجرفة وشراسة منه، لكنه أثبت أثناء إدارته لدوقية نورمندي (27) Normandy المحدودة كفاءة أقل، لتؤكد أنه لم يكن صالحاً لإدارة المملكة الإنجليزية، في حين كان في غاية البراعة في التعامل مع السلاح؛ حتى أنه كان متميزاً بصورة واضحة بعظم شأنه وتفوقه بين أكثر قادة العالم نبلاً وذلك أثناء حملته [الصليبية] الشهيرة والمجيدة على بيت المقدس...."، ثم واصل حديثه عن جوانب أخرى داخل المملكة الإنجليزية: كالصراع على السلطة، وظهور هنري الأول (1100-1135م)، وبعض من أحوالها الدينية.

ما لبث أن عاد المؤرخ ليستأنف حديثه عن الحملة الصليبية الأولى، فذكر ما نصه: "وأثناء فترة حكم الملك هنري الأول أشعل الله حماسة المسيحيين ضد المسلمين؛ إذ كان المسيحيون يمتلكون - بمقتضى شرع الله ومنذ أمدٍ بعيد - حرمة الله على أئمة حق موروث، ولعلي أقصد بذلك تلك الأماكن المقدسة التي بدونها لا تستقيم حياتنا، وعليه احتشدت أعداد كبيرة من المسيحيين على قلب رجل واحد كرد فعل لما أقدم عليه بابا روما أوربان الثاني Urban II (1088-1099م). ومن ناصره في خدمة الرب، الأمر الذي ترتب عليه أن اخترق أشجع أمراء الغرب - الذين ميزوا أنفسهم بالصليب شارة السيد المسيح - ممالك الشرق على رأس جيش ضخم، وبفضل جهودهم الصادقة نجحوا - بعد

مسيرة مرهقة للغاية- في الاستيلاء على بلاد بالغة الروعة مثل: نيقيا Nicea عاصمة دولة سلاجقة الروم الواقعة في إقليم بثنيا Bithynia ، وإنطاكية Antioch في إقليم سوريا Syria، وأخرها مدينة بيت المقدس ذاتها. وكان واضحاً أن روبرت كارثوس دوق نورمندي هو أبرز هؤلاء القادة، وقد وجد عند إعداده لهذه الحملة العسكرية بالتعاون مع الأمراء المسيحيين الآخرين أن موارده المالية غير كافية، وحينئذ رهن مقاطعة نورمندي إلى أخيه وليم روفوس مقابل مبلغ كبير من المال؛ مما أهله للانخراط في تلك الحملة الجلييلة، وبعد أن أنجز مهمته بنجاح عاد إلى بلده بعد غياب سنوات(28)".

هكذا لم يرتب مؤرخنا وليم أف نيوبره أحداثه التاريخية بدقة، ومن ناحية أخرى لم يتطرق إلا شذراً للدور الكبير الذي قام به البابا أوربان الثاني في الدعوة للحرب الصليبية منذ إلقائه للخطبة الشهيرة في مؤتمر كليرمونت Clermont عام 1095 م. وأورد نصها المؤرخ فولشر أف شارتر الذي كان من الحضور والمستمعين لخطبة البابا(29). وبينما صممت مدونة المؤرخ وليم أف نيوبره عن إيراد أية تفاصيل عن جهود روبرت النورمندي في إعداد جيشه الصليبي، إلا أننا لحسن الحظ نجد تفاصيل ذلك عند المؤرخ فولشر أف شارتر أيضاً الذي إنضم إلى جيش روبرت وكان في صحبته شاهداً للعيان، ومما ذكره أن الأمير اصطحب معه- زوج أخته- ستيفن كونت بلُّوا وشارتر Stephen of Blois and Charters، بالإضافة إلى عديد من النبلاء والفرسان والرجال من النورمان والإنجليز ومن مقاطعة بريتاني Brittany والأراضي المنخفضة، وتزايدت أعداد الجند يوماً بعد يوم حتى غَدَوْا يشكلون عدة جيوش، وواصلوا مسيرتهم حتى آسيا الصغرى على هذا النحو(30). ويقرر أحد المؤرخين المحدثين في دراسة أعدها: أن عدد الفرسان الذين خرجوا في جيوش روبرت يقدر بحوالي ألف فارس عدا المشاة(31). وقد صنفت حملة روبرت على أنها فرنسية العنصر؛ نظراً لأنها خرجت من نورمنديا(32). وأوضح لنا فولشر أف شارتر أنه عندما اكتملت الاستعدادات تحركت فرق جيش روبرت صوب الجنوب، فباركها البابا أوربان قبل أن تنتقل إلى السواحل الإيطالية ومنها إلى القسطنطينية، وفي مايو 1097 م. شاركت قوات

روبرت بقية الجيوش الصليبية التي يقودها الأمراء في معارك آسيا الصغرى. (33) كذلك لم يكشف وليم أف نيوبره عن تواريخ أحداث هذه المرحلة بوضوح- في حين كشف غيره عنها- حيث لم يحدد تاريخ خروج روبرت بجيشه في عام 1096 م.، وأن وليم روفوس وصل نورمندي ليتسلمها من أخيه روبرت في شهر سبتمبر من ذلك العام(34).

وفي هذا الإطار وعن زحف الأمراء الصليبيين صوب الشام، اكتفى وليم أف نيوبره بالإشارة إلى أنه رغم قلة الأعداد في جيوشهم، وما لاقوه من عناء في الطريق، إلا أنهم حاسوا ممالك الشرق وتمكنوا من الاستيلاء على جانب منها مثل مدينة نيقية(35) بمساعدة من الدولة البيزنطية، وذلك في 26 يونيو سنة 1097 م. التي استعادت السيادة عليها، ولم يلبث الصليبيون أن تقدموا، وترأس روبرت النورمندي جانبا مهما من الجيش(36). وبعد أن أحرزوا نجاحا ملحوظا، فرضت طموحات قادتهم تحديد اتجاهات جديدة لمسيرهم الصليبية، فانقسموا إلى شطرين: بأن اتجه تنكريد Tancred ومعه بلدوين أف بولون (البولوني Baldwin of Boulogne إلى قيليقية جنوب شرق آسيا الصغرى المتنازع عليها بين الأرمن والسلاجقة، بينما شق الجيش الصليبي طريقه في بلاد الشام(37). وهذه الوجهة لجيش القائدين تنكريد وبلدوين كانت تعنى البداية الحقيقية في تأسيس الكيانات الصليبية الرئيسية في الشرق اللاتيني؛ إذ نتج عنها قيام إمارة الرها كأول إمارة لهم هناك .

وحتى هذه المرحلة من الحملة الصليبية الأولى نلاحظ أن المادة التاريخية عند مؤرخنا جاءت مختصرة غير وافية؛ مما تطلب استكمالها من مصادر أخرى، وذلك فيما يتعلق بدور الإنجليز في الحملة الصليبية الأولى، وفي الواقع فإن صمت المدونة عن هذه الأحداث لا يمكن تبريره إلا ببعدها صاحبها الزمني عنها، فضلا عن اصطباغ الحملة بعنصرها الفرنسي النورمندي، ومن ثم لم تجد لها وقعا قويا عند مؤرخ إنجليزي رغم الوحدة السياسية التي كانت تجمع الإقطاعية بالدولة الإنجليزية .

وفي هذا الصدد اهتم المؤرخ وليم أف نيوبره بتقديم عرض موجز لتاريخ مدينة الرها القديم منذ عصرها المسيحي الأول وصولا الي العصر الصليبي، وذلك في مرحلة لاحقة من

المدونة حيث الفصل الثامن عشر من الكتاب الأول(38)، كافتتاحية لأحداث تتعلق بالحملة الصليبية الثانية، والتي أُوخ خروجها بالعام الثاني عشر من حكم الملك ستيفن(39) Stephen أي عام 1147 م. وأرجع سبب قيامها إلى ما سيأتي سرده، وبداية يذكر عن المدينة: " تقع فيما وراء نهر الفرات Euphrates العظيم مدينة الرها حاضرة إقليم ميزوبوتاميا Mesopotamia أي بلاد الرافدين، وهي مدينة نبيلة معروف اسمها الآن بمدينة Rohisia ، وبشكل أصوب مدينة Edessa أدسا أي الرها التي أخذت في التبشير بالمسيحية منذ عصر الإمبراطور قنسطنطين الكبير(40)، والمعروف عنها اقتناؤها ذخائر النبي توماس Thomas المبارك(41) التي نُقلت من بلاد الهند إلى هناك، ويُشهد للمدينة حماسها الشديد والمبارك تجاه العقيدة الكاثوليكية(42)"، ولعل المؤرخ يقصد مذهب الطبيعتين المعروف في ذلك العصر، ثم تعرض لجاناب من دور أهالي الرها المتفاني من أجل الدين، وإلى أي حد آثروا التجمع في كنيسة القديس توماس رغم معرفتهم لإقدام الوالي الروماني على قتلهم داخلها، مضحين بأنفسهم عازمين على الشهادة، إبان عصر الإمبراطور فالنز Valens (364 - 378م) الأريوسي المذهب .

وما برح المؤرخ مواصلة استعراض كفاح أهالي الرها الكاثوليك في المرحلة الثانية فيقول: " كذلك حينما قدر الله للمسلمين أن يستأصلوا شأفة المسيحيين والاستيلاء على بلادهم النبيلة- بشكل لا يمكن تصوره- حيث دانت لهم مدن مثل: الإسكندرية، إنطاكية، بيت المقدس ودمشق، فضلاً عن المدن المسيحية الأخرى في مجمل مصر وسوريا، وتم القضاء على كل ما له علاقة باسم السيد المسيح، ظلت مدينة الرها وحدها تلعب دور حامية حمى المسيحية، ليس فقط في حدود أسوارها ولكن في عموم الإقليم الواقعة في زمامه، وذلك رغم أنها كانت محاطة بكثير من الأعداء شديدي البأس، ومع ذلك لم يتمكنوا من غزوها حتى جاءت الحملة الصليبية الأولى."

ثم انتقل المؤرخ من فوره إلى الحديث عن تاريخ الرها تحت حكم اللاتين- أولى كياناتهم في الشرق- قائلاً: " وبعد وصول الصليبيين طلب أهل مدينة الرها الذين كانوا يعانون من

غارات الأتراك المساعدات من جيشنا إشارة إلى اللاتين؛ فكان أول حاكم عليهم من بلاد غالة بلدوين البولوني أشجع القادة، وأخو جودفري أف بوايون Godfrey of Bouillon الشهير، وعندما اعتلى بلدوين عرش مملكة بيت المقدس - بعد وفاة أخيه جودفري - حكم الرها عدد من القادة الآخرين الأقوياء(43).

على ذلك، ارتبط التأريخ لمدينة الرها عند وليم أف نيوبره بدخولها المسيحية، ثم شخصية قنسطنطين الكبير وثباتها على العقيدة الكاثوليكية، وبالفعل غدت الرها أحد المراكز الأولى للديانة المسيحية، الأمر الذي جعل كنيسة مقرأ مطرانية بلاد الرافدين(44)، واتخذت المسيحية فيها طابعاً مميزاً؛ حيث أنها ظلت تتكلم السريانية واحتفظت بحكامها وثقافتها المحلية(45) ولذا أكد المؤرخ على فضلها في المسيحية واقتنائها ذخائر الحوار توماس، بيد أنه لم يُشر إلى ما هو أكثر قداسة من ذلك وشائع عند المسيحيين، ألا وهو احتفاظ المدينة بمنديل السيد المسيح(46)، مبرزاً تميزها أيضاً ببقائها على المسيحية - حتى بعد الفتح الإسلامي - مقارنةً بجميع البلاد المحيطة. وفي الواقع يسهل أن نلتمس فضل المدينة عند مؤرخين صليبيين آخرين(47)، وهذا يُعد أمراً طبيعياً تداوله، خاصةً في مرحلة الصراع بين الشرق والغرب.

إضافة إلى ذلك فإن هذا العرض من قبل المؤرخ وليم تعوزه الدقة، وتغلب عليه المبالغة في إبراز عمق وشمولية الديانة المسيحية فيما بين أهالي الرها وإقليمها فترة قدرها هو بتسع مئة عام قبل الحروب الصليبية، فالثابت أن المؤرخ تأثر بما شاع عن المدينة من أنها حظت بوعد من السيد المسيح أطلقه لملكها أيجر - الذي عاصره - بأن الجماعة والفناء لن يدخلها أبداً تلك المدينة، وأن أعداءها لن يتمكنوا أبداً من النيل منها(48)، وهو الأمر الذي لقي صدقاً وهوى عند الأهالي؛ مما أدى إلى اشتها المدينة وزيادة فضلها. ومن ناحية أخرى فإن تاريخ المدينة يؤكد وقوعها في أيدي المسلمين في عام 640 م. صلحا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب(49)، وظلت الرها تابعة للحكم الإسلامي حتى استولى عليها البيزنطيون في عام 1032 م. على يد القائد جورج مانياخس George Maniaces، فظلت في

حوزتهم حتى الغزو الصليبي(50)، ومما يذكر أنه عندما دخل البيزنطيون الرها هجرها العرب ومعهم أهلها من المسيحيين الذين ألفوهم(51). وما لبثت أن هاجرت أعداد كبيرة من الأرمن إليها وهيمنوا عليها في عام 1077 م (52)، الأمر الذي جعل أحد الباحثين يصفها بأنها - منذ ذلك التاريخ - غدت بمثابة جزيرة من المسيحيين داخل محيط من المسلمين الأتراك(53). ومن ثم فإن سقوط المدينة في يد المسلمين ثم في يد البيزنطيين الأرثوذكس يقلل من قيمة رواية المؤرخ وليم السابقة من استمرار المدينة قلعة تزود عن المسيحية الكاثوليكية في إقليمها .

أما الأتراك الذين واصلوا غاراتهم على الأرمن داخل الرها- وفقا لما ذكره المؤرخ- فلعلهم أولئك السلاجقة بداية من عصر السلطان ملك شاه (1072 - 1092 م)، حيث نجحوا في الاستيلاء على مرعش، فأخذها منهم الصليبيون في أكتوبر 1097م. بالتعاون مع الأرمن. وما لبث أهالي الرها من هذه الطائفة أن ساندوا بلدوين أف بولون في الاستيلاء على مدينة الرها، ولذا سعى إلى أن يكتسب رضاهم بالزواج من أردا Arda ابنة أحد أمرائهم، فتهيأت أمامه الظروف لتأسيس أولى الإمارات الصليبية في الشرق ومقرها مدينة الرها(54). وعن الخطوة التالية للصليبيين فقد توقف الجيش الرئيسي أمام مدينة إنطاكية، ونجح في إسقاطها في أكتوبر 1098 م. (55) ولم ترد عند مؤرخنا إلا إشارة مقتضبة عن ذلك، بل إنه لم يتعرض إلى مسيرة الجيش حتى وصوله إلى مدينة بيت المقدس وفرض الحصار عليها، بيد أنه اكتفى فقط بالإشارة إلى سقوطها في أيديهم، وتولى جودفري أف بوايون الحكم فيها في يوليو 1099 م.، وإذا ما كان المؤرخ قد أحجم عن الوقوف على هذه الأحداث تفصيلاً، إلا أنه في موضع آخر تحدث عن فضل المدينة المقدسة لدى المسيحيين وتاريخها القديم، وكان أبرز ما ذكره عنها: " أن الله اصطفى تلك الأرض وباركها"، حتى جاء الصليبيون في عام 1099 م.، وطرردوا المسلمين منها في روح ملؤها الإصرار والهمة، وهذا تأكيد على إرادة الله بما كان للمسيحيين من حق وراثي في الأراضي المقدسة(56). وبهذا الحدث نأتي عند نقطة النهاية بالنسبة لوقائع الحملة الصليبية الأولى

عند مؤرخنا .

وحفاظاً على السياق التاريخي نعود لنوصل ما انقطع عند وليم أف نيويره عن دور روبرت النورمندي الصليبي، حينما ذكر أن أقصى ما شرف به هذا القائد اشتراكه في إسقاط هذه المدينة المقدسة، وكذلك مشاركته لهم في الانتصار على الفاطميين في معركة عسقلان في أغسطس 1099 م.، ويقول عنه: " وبعد أن شعر أنه أدى واجبه المقدس بنجاح غادر الأراضي المقدسة عائداً إلى وطنه نورمنديا في عام 1101 م.، بعد غياب سنوات". بيد أنه أرجع ما حققه روبرت من نجاحات إلى حدوثها في عهد الملك هنري الأول، وهو الذي حمل لقب هنري الأصغر Henry the Younger، وذكر عنه أنه: " رجل ودود، وأن نجمة أخذ ييزغ تدريجياً، حتى تمكن من تأمين عرشه وممتلكاته من إخوته غير الشرعيين والنبلاء الطامعين.(57)". ويوضح المؤرخ وليم الصوري ذلك، فروى أنه حين عودة روبرت وجد الأمور قد تبدلت تماماً، فقد حدث- أثناء تأدية واجبه الحربي المقدس- أن توفي أخوه الأصغر وليم روفوس دون وريث، الأمر الذي يؤول معه حكم إنجلترا إليه، غير أن أخاه هنري قد أشاع أن روبرت أصبح ملكاً على بيت المقدس، ولم تعد لديه نية العودة، فنجح بهذه الخديعة في تبوء العرش بدلاً منه، وعبر هنري البحر بقواته ونازل أخاه روبرت وأسرته وألقى به في السجن، حتى وافاه الأجل وآلت ممتلكاته إلى أخيه الملك. واللافت للنظر أن تأريخ هذه الأحداث لم يرد عند وليم أف نيويره إلا في اقتضاب(58)، والذي يلاحظ أنه سجل تاريخ عودة روبرت في عام 1101 م.، بينما سجله روجر أف هوفدن في العام السابق عليه سبتمبر 1100م(59)، أما ستيفن كونت بلوفا فقد عاد ثانية إلى فلسطين في عام 1102 م.، غير أنه قضى نجبه في ساحة القتال ضد الفاطميين ضمن أحداث حملة الرملة الثانية(60)، ولم تشر مدونة وليم لهذه الحادثة .

من ثم لم يخص مؤرخنا صاحب المدونة أحداث الحملة الصليبية الأولى في شقيها- وأعنى بهما: ما يتعلق بتأسيس إمارة الرها، ثم ما يخص الاستيلاء على كل من إنطاكية وبيت المقدس- باهتمام واضح أو تفصيلي، حتى تلك الإنجازات التي تتعلق بالإنجليز بوصفه مؤرخاً

إنجلترا، الأمر الذي كان واضحاً عند غيره من المؤرخين المعاصرين، وقامت عليها دراسات حديثة تناولت المادة الواردة عندهم بالتحليل والدراسة (61)، وعليه يمكن القول أن ما قدمه المؤرخ من مادة تاريخية عن الأحداث المتقدمة في الصفحات السابقة لا تعدو أن تكون مادة يغلب عليها التعميم دون التدقيق، اللهم إلا ما يخص مواطنه الأمير روبرت النورمندي الذي حظي منه بتسليط بعض الضوء عليه، كذلك يلاحظ أن المؤرخ اهتم بتاريخ عودة روبرت النورمندي إلى بلاده ووضع الإقطاعي في ظل حكم أخيه، ناسباً إنجازات إنجلترا في الحملة الصليبية الأولى إلى الملك هنري الأول رغم أنه لم يسعفه الوقت لعمل شيء يذكر، في حين كان الملك الإنجليزي الذي خرجت الحملة في عهده هو سلفه الملك وليم روفوس. وعليه نخلص إلى أن وليم أف نيوبره غير جدير بأن يعد من مؤرخي الحملة الصليبية الأولى المبرزين، خاصة فيما يتعلق بمرحلة الزحف على بلاد الشرق والاستيلاء على بيت المقدس؛ نظراً لشح ما ورد في كتاباته في هذا الصدد، إضافة لعدم التدقيق والتعمق في تناول أحداثها مقارنة بالأعمال المصدرية الصليبية الأخرى التي تم إقرانها بالنص .

ما لبث أن استأنف وليم أف نيوبره حديثه عن مدينة الرها فترة الحكم الصليبي بعد أن صارت حاضرة لأولى الإمارات الإفريقية في الشرق الإسلامي، حيث تناول باقتضاب أميرها الصليبيّين اللدّين خلفاً بلدوين الأول عليها، ووصفهما بالقويين، حيث ذكر: " وكان جوسلين JocelynI الأول آخر أمراء الرها الأقوياء؛ إذ حاول هو أيضاً التمسك بالدين المسيحي، وفي ظل حكمه وصحتها حكم ابنه قُدّر لأحد القادة الأرمن الخائنين - الذي كان من الحكام المحليين وآلت إليه إحدى القلاع الهامة لمجاورتها السور بحكم الوراثة- أن يكون سبباً في تسليم المدينة للأتراك؛ ذلك أنه كانت لديه ابنة فائقة الجمال، افتتن جوسلين الثاني بها فاختطفها واعتدى عليها، وقد فُجِعَ الحاكم الأرمني لما حدث لابنته من اعتداءٍ على شرفها، ولكنه أخفى حزنه وآلامه بمهارة، لحين أن يشمل انتقامه بإعداداً أكبر، وفي ليلة عيد الميلاد 25 من ديسمبر 1144 م أكثر المناسبات قداسةً- وبينما كانت الصلوات المقدسة مقامة داخل الكنائس وفقاً للطقوس المسيحية، أدخل هذا الخائن الأتراك سراً إلى

المدينة بموجب اتفاق مسبق فاندفعوا عاملين السيف في الأهالي العزل أثناء مراسم الصلوات في أمان، وقاموا بذبح رئيس الأساقفة، بينما كان واقفاً عند المذبح حسبما ورد إلينا(62)، وقد وجد المعتدون في هؤلاء الآمنين الفرصة المواتية لمباغتتهم واستحلال دمائهم؛ إذ كانوا متعطشين لدماء المسيحيين بلا ارتواء. وهكذا وعن طريق الخيانة، تسبب جوسلين- تلك الشخصية المختلة الفاجرة- في تسليم المدينة العتيقة - التي ظلت ترفع شعار المسيحية مدة تسعمائة عام- إلى الأتراك، ومن ثم سقطت المدينة في أيدي المسلمين بعد أن ظلت تحافظ على استقلالها لعدة عصور، متخذة موقف المدافع عن الديانة المسيحية، وخضعت لأكثر الأمم وضاعة على وجه الأرض. وإضافة إلى ذلك واصل الأعداء عصفهم بالإقليم؛ فتمكنوا من اجتياح حدوده من أذناها إلى أقصاها، ونجحوا في استئصال كل الوجود المسيحي في الجانب الآخر من نهر الفرات حيث الشرق، بعد أن أُجبرت على الدخول تحت سلطتهم المشنوم.(63).

وللوقوف على مدى قدرة وليم أف نيوبره على التأريخ لإمارة الرها الصليبية، نجده وقد تنبه لقيام أمير يدعى بلدوين- وهو أخ لجودفري- بتأسيسها، بيد أنه لم يشر إلى الأمير- التالي له وسمّيه- بلدوين أف بوج (1100- 1118م) Baldwin of Bourg كذلك اكتفى بالإشارة إلى أمير يدعى جوسلين ووصفه بصفات القوة تارةً ونعوت الخلاعة والتهتك تارةً أخرى، وبالرجوع إلى المصادر الأخرى يتضح أن جوسلين- الذي أشار إليه المؤرخ بداية- هو الأمير جوسلين كورتناي Jocelyn Courtenay الأول الذي أدار الإمارة (1119 - 1131م). بقوة واقتدار، أما إشارته إلى الاسم ذاته للمرة الثانية فهي تتفق مع شخصية ابنه الأمير جوسلين الثاني الذي حكم الإمارة (1131- 1150 م.)، أما الأمير الأرميني المشار إليه فهناك أكثر من أمير قدم ابنته أو أخته زوجة للأمرء الصليبيين الثلاثة الأول(64). ومن ثم لم يدرك وليم أف نيوبره وجود حاكمين للرها يحملان اسم بلدوين: بلدوين أف بولون وبلدوين أف بوج، في حين أدرك وجود أكثر من حاكم للرها يحمل اسم جوسلين الذين ينتمون إلى أسرة كورتناي، بيد أنه خلط بين شخص جوسلين

الأول وابنه جوسلين الثاني (الأرمني).

على هذا أيضاً تكون لدى الباحث انطباع بأن المؤرخ بدا متحاملاً على الأرمن في إمارة الرها، وما يلبث أن يتأكد لنا هذا الانطباع مرة أخرى عند حديثه عن دورهم في سقوط المدينة في يد عماد الدين زنكي للمرة الأولى في عام 1144م. وقد يكون تكرر ذلك مرة أخرى أثناء أحداث سقوطها للمرة الثانية في يد ابنه نور الدين محمود عام 1146م؛ إذ اتهم أحد حكامهم بالخيانة والغدر لصالح الأتراك. وعمّا صدر من كلمات قاسية من المؤرخ في حق المسلمين، فإنه يعكس النزعة الصليبية عنده ويتفق مع روح العصر، في حين كان تصويرهم بالعنف الشديد أثناء استرداد الرها أمر يتجه إلى الصحة، إذ أكدته المصادر الإسلامية أيضاً (65) وكان رد فعل منهم على سلسلة من خيانات الأهالي، كذلك لم تشر الدراسات المتخصصة في تاريخ الرها عصر الحروب الصليبية إلى وجود مؤامرة طرفاها الأرمن والمسلمون ضد الصليبيين وقت سقوطها في يد المسلمين .

وفي المرحلة التالية يستأنف المؤرخ وليم أف نيوبره الحديث عن الحملة الصليبية الثانية - التي كان قد أشار إليها في عُجالة في صدر الفصل الثامن عشر من الكتاب الأول- فذكر أن جيوشها خرجت أثناء فترة حكم الملك ستيفن أف بلُؤا وذلك في عام 1147 م.. (66)، حيث قال: "اجتمع حشدٌ لا يحصى من كل الدول والأمم المسيحية عندما سمعوا بما يفيد الإساءة للسيد المسيح- من خلال بعض الصور- لينضموا إلى رحلة حج إلى بيت المقدس (67)"، وأرجع سبب تلك الحملة- التي لقيت اهتمام من الجميع- إلى ما ترتب على سقوط الرها متناًولاً ذلك في الفصل ذاته، حيث قال: "نتج عن الفجعة التي أصابت الجميع عندما ترامى إلى المسامع ما ورد في تقرير عن كارثة سقوط الرها بأن نهض أكثر الأمراء المسيحيين في أوروبا قدراً وهما: كنراد الثالث Conrad III إمبراطور إيطاليا وألمانيا (68)، 1138 - 1152 م ولويس السابع Louis VII ملك فرنسا (1137 - 1180م). وأصبحت على أهبة الاستعداد لحمل راية السيد المسيح، بينما التحق بهما عديداً من النبلاء والأشراف، وأعداداً لا تحصى من الناس من شتى الأرجاء المسيحية في أوروبا"،

ولعله ذلك التقرير الذي حملة هيو أسقف جبلة Hugh Bishop of Jabala وخرج به من القدس في عام 1145 م. إلى البابا يوجينيوس الثالث Eugenius III م (1145-1153م) في روما، وربما يكون أيضا ذلك التقرير الذي رفعه الأسقف إلى كل من ملكي ألمانيا وفرنسا في سفارته إليهما، الأمر الذي ترك صداه بين القادة العلمانيين منهم والدينيين، فوجهت الدعوة إليهم للاجتماع في مدينة فيزلاى Vezely (1146م) حيث اتفقوا على توجيه حملة إلى الشرق (69).

وفي الواقع لم تمدنا المدونة بتفاصيل الدور الفعال الذي لعبته البابوية بعامة والقديس برنارد رئيس دير كليرفو St. Bernard of Clairvaux (1091-1153م) بخاصة في الدعوة للحملة الصليبية الثانية (70)، في حين اهتمت بإبراز دور كل من: كنراد الثالث ولويس السابع ملكي ألمانيا وفرنسا فيها، الذين حملا راية السيد المسيح، وذلك في الفصل العشرين من الكتاب الأول (71)، وهذا يترك انطباعا بأن المؤرخ كان يبدى اهتماما بذكر ما يتعلق بجهود الحكام والأمراء العلمانيين بدرجة أكبر من اهتمامه بدور رجال الدين، ولحسن الحظ وردت عند المؤرخ بعض التفاصيل الخاصة باستعدادات هذين الملكين للزحف في الحملة الصليبية الثانية فعدد الأمم التي انخرطت فيها: " فكان منهم تحت قيادة الإمبراطور: الإيطاليون والألمان، وتحت قيادة الملك الفرنسي: الفلاندرز والفلمنك والنورمنديون والفرنج والبريتونيون والإنجليز والبورجاندليون والبروفنساليون والأكويتانيون، سواء أكانوا من رجال الدين أم العلمانيين، ريفيين أم حضر، ومنهم الفارس ومنهم الراجل، وقد بلغت حماسة الملوك وكبار الأمراء أن جابوا البلاد على أقدامهم لإتمام الاستعدادات والتجهيزات، وبعد أن نجحوا في تجميع الحشود الضخمة قاموا بتقسيمها إلى جيشين رئيسيين، بحيث تولى كنراد قيادة الجيش الأول، بينما تولى لويس قيادة الجيش الثاني، وما لبثت أن أخذت القوات في التحرك صوب الشرق (72) .

وفي إطار الاستعدادات أيضا لتوجه الحملة إلى الشرق وفيما يتعلق بالشق الفرنسي منها، يذكر مؤرخنا في الفصل الحادي والثلاثين من الكتاب الأول (73): " أن الملك لويس السابع

قرر أن يصطحب معه زوجته الملكة إيلانور Eleanor الابنة الوحيدة لدوق مقاطعة أكويتين Aquitaine وليم العاشر William X ، وبفضل هذا الزواج انضمت الإقطاعية الواسعة إلى التاج الفرنسي، وحذا كثير من النبلاء- المشتركين في الحملة- حذو ملكهم، فاصطحبوا زوجاتهم معهم اللاتي أخذن معهن وصيفاتهن، مما تسبب في ضخامة عدد النساء في المعسكرات المسيحية، التي يجب أن تكون عفيفة طاهرة، ولكنها صارت مجالاً للفضائح التي وُصم بها الجيش(74) ، ولم يقدم المؤرخ تفاصيل أكثر من ذلك عن التدابير الخاصة بالاستعداد للحملة، ولكنه وضع بذلك يده على جانب من المشاكل التي صحبتها . وعن الشق الأول من الحملة فلم يقدر المؤرخ وليم أف نيوبره عدد الجيش الألماني بينما قدره المؤرخ روجر أف واندوفر بحوالي سبعين ألف فارس، فضلاً عن المشاة(75)، وعن تحركاته فيذكر مؤرخنا النيوبري: " عندما دخل الجيش هنغاريا المجر وبعد العمل على استرضاء ملك هذه الدولة جيزالثاني(76) Gyza II م. (1142-1161م) ليقدّم لهم ما يلزمهم من مؤن إضافية، عبروا نهر الدانوب Danube وتقدموا مخترقين إقليم تراقية - Thrace بعد أن اتخذوا الاستعدادات الضرورية لمواصلة المسيرة- حتى بلغوا في أمان تخوم القسطنطينية، وهناك أقاموا خيامهم دون المدينة، حيث استراحوا لعدة أيام عقدوا خلالها اتفاقية من بنود عديدة مع إمبراطور هذه المدينة الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول Manue II (1143-1180م)، ثم عبروا اللسان البحري الضيق الذي يدعى مضيق القديس جورج "St. George 6"، وهو المعروف حالياً باسم مضيق الدردنيل، وفي موضع آخر يوضح المؤرخ وليم: "أن البلاد المجرية التي تم المرور بها تعرضت لاعتداءات من أكثرية الجيش؛ حيث أبدؤا ألواناً من الغطرسة والشهوانية والفجور حيالهم، في حين امتثل الأقلية لما تم عقده من اتفاق(77)". وإذا ما كان المؤرخ الإنجليزي قد أقر بأن هناك اتفاقين قد أبرما بين كنراد وملك المجر عند المرور بأرضه لاسترضائه وبينه وبين الإمبراطور البيزنطي بعد وصول الألمان عند أسوار القسطنطينية، فإن المؤرخ البيزنطي كيناموس يشير إلى أن ذلك قد تم أثناء مقابلة سفارة بيزنطية للملك الألماني عند عبوره بلاد المجر، وفيه بذل يمينا للسفراء

بعدم إنزال أضرار بأراضي بيزنطة خلال اجتيازه لها مقابل الحصول على ما يلزمه من مساعدات (78)، ولذا فرمما يكون هناك اتفاق مسبق ومنفصل عقد مع المجرين يختلف عن تلك المعاهدة التي أبرمت بين العاهلين الألماني والبيزنطي تعلقت بالأراضي البيزنطية ذاتها .

وفي المرحلة التالية كان يفترض أن يتناول المؤرخ مسيرة الجيش الفرنسي الذي لم يقدر عدده أيضاً، بينما قدره المؤرخ روجر أف واندوفر بأنه يمثل عدد الجيش الألماني (أي سبعين ألف فارس عدا المشاة) إلا أنه كان يفوقه تدريباً وتسليحاً (79). بيد أن مؤرخنا أخذ يتحدث عن الجيشين معاً مستخدماً لفظة "المسيحيين"؛ حيث قال عنهم: "وعند وصولهم إلى آسيا الصغرى التي كانت مقسمة بين إمبراطور القسطنطينية مانويل الأول وسلطان قونية Iconium وكان آنذاك هو السلطان مسعود الأول ابن قلع أرسلان (1116 - 1156 م.)، واجهوا الغدر من الإمبراطور اليوناني؛ لأن قوما كانوا قد أثاروا حنقه بتجاوزات معينة ارتكبوها، بل ألبوا عليهم الله بغضبه جراء ما اقترفته أيديهم في صلفٍ وغرور ورغبة في الاستعباد"، ثم ساق المؤرخ شواهد من العهد القديم على أن الله لا ينصر قوماً بينهم عاص (80)، ورأى المؤرخ أن هذا قد انطبق على حالة الجيش المسيحي في ميدان المعركة بآسيا الصغرى، وفي ذلك يستكمل حديثه قائلاً: "لقد ترتب على جرائمهم تلك ما ترك أثره السيئ ليس فقط على حياتهم اليومية بصفتهم مسيحيين، إنما كذلك بوصفهم محاربين، ولذا لم يكن مستغرباً ألا تبتسم العناية الإلهية لهم؛ فقد كانوا بحق فاسدين ملوثين"، وتحكم المؤرخ عليهم قائلاً: "إن معسكراتهم التي يطلق عليها باللغة اللاتينية لفظة كاسترا *Castra* ما هي - في الحقيقة - إلا كاسترات *Castrate*، أي التي تم خصيها بتجريدتها مما شأها من أقدار وذنس، فلقد كانت معسكراتنا تعج بعدم العفة بسبب شهوانية الكثير منهم البيئة وفسقهم الفاضح، في الوقت الذي تباهاوا فيه واغتروا بكثرتهم وحسن تجهيزاتهم، وكانت ثقتهم في رحمة الله وقدرته قليلة جداً برغم تظاهرهم بالحماسة في الحرب من أجل قضيتته، واثبتوا حقيقة العبارة الإنجيلية: (ولكنه يعطى نعمة أعظم، لذلك يقول يقاوم الله المستكبرين، وأما المتواضعون فيعطيهن نعمة) رسالة يعقوب 6:4، فضلاً عن ذلك كله فبالرغم أنهم كانوا

في تلك الآونة يقيمون في أراضي خاضعة لحاكم مسيحي، كانوا قد عقدوا معه تحالفًا، وبالرغم من أنهم حصلوا على الإمدادات من قيادات جيشه بأوامر منه، إلا أن ذلك كله لم يشيهم عن نهب بلاده(81).

هذا السخط الواضح في العبارات التي استخدمها صاحب المدونة عمّا اقترفته القوات الألمانية والفرنسية، خاصة أشكال السلب والنهب ضد إخوانهم في الدين، لم ينفرد به هذا المؤرخ؛ إذ نجد على سبيل المثال من نظائره المؤرخين المسيحيين الغربيين أودو أف ديل Odo of Deuil الذي سبقه في ذلك، ووصف تصرفاتهم بعمل بربري أقدمت عليه قوات ألمانية مخمورة، أما القوات الفرنسية فلم تكن أقل فجورًا وعنفاً حينما سطوا على أموال الصرافين وممتلكات المواطنين البيزنطيين(82).

ثم سرد المؤرخ وليم وقائع المصير التعس الذي واجه الجيش المسيحي جراء ما أقدم عليه من نهب وسلب في بلاد الإمبراطورية البيزنطية قائلاً: " ونتيجةً لذلك أغار عليهم الإمبراطور مانويل الغاضب، فمن ناحية ضرب عليهم الحصار حتى استشرت المجاعة فيما بينهم، ومن ناحية أخرى أعمل فيهم السيف تقتيلاً، فعلى الرغم من أنه مسيحي إلا أنه لم يتردد في سفك دماء مسيحية. وأخيراً ونتيجة لتوقف جميع الإمدادات حالت كمائن العدو أيضاً دون التماس الجيش سبيله للحصول على المؤن مما عرض أفرادَه للإبادة إما بسبب الجوع، وإما بسقوطهم صيداً سائغاً في شرك العدو، حتى لونا سيوف الأتراك بدمائهم، ومن نجا منهم فقد آثر أن يبدل بذل دمه المسيحي بأسوأ وأحقر عبودية بأخذه أسيراً، ومن ثم تعرضوا بسبب غطرستهم وذنسهم لغضب الله الجارف أكثر مما تعرضوا إليه بفعل سيوف أعدائهم التي أخذت تصدهم. وما لبث أن وصل الجزء الأعظم من الجيشين الكبيرين لعله يقصد غالبية الشق الفرنسي مع البقية الباقية من الجيش الألماني الذي وقع ضحية المشاكل والمعارك إلى بيت المقدس بعد أن نجا الأميران الكبيران بالكاد من الفناء، وهناك لم يستطعا إنجاز أي عمل بطولي يذكر، فعادا إلى بلادهما بلا مجدٍ يخلد ذكراهما(83).

بذلك وفي حسرة بالغة أجمل المؤرخ وليم أسباب هزيمة الحملة الصليبية الثانية في آسيا

الصغرى، فأكد على أن مسيحيي هذه الحملة ذاقوا كسابقيهم مرارة غدر الإمبراطور اليوناني، تلك الخيانة التي تردد عنها الحديث عند عدد من المؤرخين المعاصرين، وبهمنا في هذا الموضوع ما ورد عند وليم الصوري عنها، حيث روى أن المرشدين البيزنطيين هم الذين اختاروا طريق الحملة بحيث غدت تحت سيطرة الأتراك، وحينما كان يسألهم كتراد عن أمور مهمة لتحركات الجيش كانوا يضللونه حتى أنهم هربوا ليلاً، وبدون المرشدين وجد كتراد جيشه في ضياع، كما شحت الإمدادات فأكلوا الدواب، وما لبث أن انقض عليهم السلاجقة من كل جانب(84). بيد أن مؤرخنا كان صارماً حين ألقى اللوم بشدة على اللاتين واتهمهم بصفات الدنس والطيش وأنهم استحقوا عقاب الله نتيجة مبادرتهم بالاعتداء على الممتلكات البيزنطية فحق عليهم أيضاً أن يُقَابَلُوا بحم غضب الإمبراطور، أما الملكان الألماني والفرنسي اللذان أشار إليهما المؤرخ مؤخراً بالأميرين الكبيرين فلربما أراد التهكم عليهما أو الخط من قدرهما، خاصة وأن ذلك الوصف جاء أثناء الإشارة إلى فرارهما مع فلول جيشهما المدمر الذي أرجع المؤرخ نجدتهم من المذبحة لما أظهره سلفاً من نخوة ونبيل وتواضع عند اجتيازهم لبلاد المجر، فاستحقت تلك الفلول بذلك أن يظلمهم الله برحمته(85). وفي الواقع فإن هذا النمط من الكتابة التاريخية لا تخلو من الصبغة الدينية وهي تعد أمراً شائعاً في هذا العصر ولا تبخس للمؤرخ ما قدمه من عمل، ومن ثم يتأكد لنا أن مؤرخنا وليم أف نيوبره نجح في أن يضع نفسه واحداً من مؤرخي أحداث الحملة الصليبية الثانية ولو لبعض جوانبها .

هذه النهاية التعسة بالنسبة للصليبيين تركت آثارها على المؤرخين المعاصرين الآخرين أيضاً. فاهتم جانب منهم بتسجيل بقية أحداثها المأساوية- والتي أغفلها وليم أف نيوبره- إذ تجدر الإشارة إلى أن وليم الصوري قد أولى المرحلة الأخيرة اهتماماً بداية من وصول الحملة إلى مملكة بيت المقدس، وانطلاقها نحو دمشق كي تكون هدفاً لها، وتفصيل القتال والحصار من حولها، ثم إقفالها وعودتها مهزومة حتى رحيل لويس السابع في العام التالي 1149م. (86). كذلك فمن المهم تتبع موقف المؤرخ روجر أف هوفدن من تسجيل وقائع الحملة؛ نظراً لأن الظروف التي تحيط به لا تختلف كثيراً عما أحاطت بمؤرخنا وليم أف نيوبره، فقد

وردت أحداث الحملة عند روجر في أسطرٍ معدودة، ولم يأت بأية تفاصيل كتلك التي عند وليم في كل مراحل الحملة، اللهم تلك الإشارة المتعلقة بفشلها أمام أسوار دمشق (87)، مما يبرز مؤرخنا ومدونته بصفة عامة متميزة في تناول أحداث تلك الحملة خاصة في مراحلها الأولى .

وفي الواقع لم يفت المؤرخ وليم أف نيوبره- في موضع آخر وهو الفصل الحادي والعشرون الكتاب الأول (88)- أن يذكر جانباً من الأحداث التي تلت هزيمة الحملة الصليبية الثانية وعودتها، وكانت قد نجحت عمّا وقع من خلافات بين الأمراء الصليبيين وداخل المعسكر المسيحي أثناء تواجدهم في الشرق، وفي حالة نادرة التكرار أفصح المؤرخ عن المصدر الذي نقل عنه، فكان أحد القساوسة العائدين من إنطاكية وقت أن كان المؤرخ في ريعان شبابه، والذي أقر بأنه نقل عنه الكثير مما كان في جعبته من أخبار عن الشرق اللاتيني، مؤكداً أن القس تحرى الدقة فيما روى؛ إذ كان شاهداً للعيان لما رآه من وقائع، وذلك من خلال موقعه في خدمة أمير إنطاكية ريموند أف بواتيه Raymond of

Poiers (1136-1149م) ومما أورده المؤرخ: "ترتب على نجاح المسلمين في إرغام المسيحيين على التقهقر من أمام أسوار دمشق إلى ثكناتهم بصورةٍ مخزية، وكذلك بعدما غنموا المغنم الكثيرة، وأوقعوا عدداً كبيراً من المسيحيين بين قتيل وجريح، أن بزغ نجمهم وحق لهم أن يتباهوا بما أحرزوه من نصر، لذا فقد كانوا واثقين للغاية من قوتهم حتى أصبح في مقدورهم لسنواتٍ طوال اقتحام الإمارات المسيحية ضمن خطة للقضاء عليها في الشرق قضاءً مبرماً، وللوقوف على كيفية ذلك نتناول بدايةً حادثة مقتل ريموند أف بواتيه الذي يعد أكثر أمراء إنطاكية إخلاصاً للمسيحية، وكان ذلك بمثابة الفأل العظيم بالنسبة للمسلمين، فلقد كان هذا الأمير بحق أشجع من دافع عن القضية الصليبية في الشرق، حيث تمكن من أن يكتسب لنفسه شهرة الأوائل من الميكابيين Maccabaeus بما أحرزه من أعمالٍ مجيدة.... فقد كان إقدامه وشجاعته في القتال سبباً في إلقاء الرعب بين المسلمين، فمتى كانوا يدفعون إليه بجيشٍ كانوا مضطرين إلى وضع مئة فارس ضد سيفه ومثل هذا العدد

ضد رمحه، ومن آيات ذلك أنه حينما تشجع المسلمون بانتصاراتهم وغدت إنطاكية تنن من وطأة تكرار هجومهم على أراضيها كان هو يخرج لمهاجماتهم برهطٍ من الرجال دونما الانتظار لجمع قوةٍ كافية، وبعد عدة بطولاتٍ مجيدة سقط صريعاً في ساحة القتال لتفوق أعداد أعدائه ضده شأنه شأن أبطال الميكابيين في العهود المنصرمة، وحينئذ أخذ المسلمون يدبرون الأمر من أجل اقتحام مدينة إنطاكية(89).

هكذا اقتصر حديث مؤرخنا عن ريموند أف بواتيه على تقييمه فارساً وحاكماً دون التعرض للتفاصيل الخاصة بخصائصه الجسمانية وظروف توليه الإمارة، مما أبرز قيمة المؤرخ وليم الصوري في مجال اهتمامه بتسجيل هذه التفاصيل، حيث بيّن أن ريموند هو الابن الأصغر لوليم التاسع دوق أكويتين والمقيم في بلاط هنري الأول ملك إنجلترا، وقد حضر سرا إلى إنطاكية، وتهيأت أمامه الظروف كي يكون حاكماً لها في أبريل 1136 م.(90). ويبدو أن إقامة الأمير ريموند أف بواتيه في بلاط الملك الإنجليزي هنري الأول قد تركت أثراً ما عند مؤرخنا وليم أف نيوبره بصفته مهتماً بالتاريخ الإنجليزي، فأولاه بعض الاهتمام، وقد أقرت المصادر الإسلامية والصليبية الأخرى بما أورده المؤرخ الإنجليزي من مادة، بيد أنها أوضحت تاريخ الانتصار على ريموند وقتله في 29 من يونيو 1149 م. عند آنب شرقي نهر العاصي(91).

ومرة أخرى- وفي موضع تال- ذكر المؤرخ جانباً آخر من نتائج الحملة الصليبية الثانية غير المباشرة، وكانت قد نجمت أيضاً عن الخلافات بين الصليبيين في الشام، حيث جاء في روايته: "عندما عاد الملك لويس السابع إلى وطنه مع زوجته إليانور موصوماً (92) بعار الفشل في حملته أخذت عواطفهما السابقة في التبدد تدريجياً، ونشبت بينهما أسباب الخلاف، حيث أهان الملك بسلوكه الملكة إهانة شديدة، بينما أكدت هي أنها تزوجت راهباً لا ملكاً. ومما قيل أيضاً أنها أثناء ارتباطها بملك فرنسا كانت تطمع في الزواج من هنري دوق نورمندي؛ لأنه كان أكثر مراعاة لمشاعرها، ونتيجة لذلك ألفتها رغبة في الطلاق، فطالبت به مما أدى إلى تفاقم النزاع، واشتدت إصراراً على طلبها حسبما قيل، ولم يبد الملك معارضة

لذلك، وأقدم على فسخ رابطة الزواج فيما بينهما بحكم القواعد الكنسية استنادا إلى شهادة رجال الدين بوجود قرابة بينهما، وذلك في عام 1151 م.، وترتب على ذلك أن انسلخت مقاطعة أكويتين عن فرنسا(93)، فضلا عن إقطاعية بواتوه(94). ورغم وضوح الرؤية عند مؤرخنا بشأن هذه الأحداث إلا أن هناك مزيدا من الإيضاحات نجدها عند غيره، إذ ذكر وليم الصوري ما أغفله وليم أف نيوبره عن علاقة القرابة بين الملكة وخالها ريموند أمير إنطاكية، إذ كانت الابنة الكبرى من أخته زوجة وليم العاشر، كذلك أوضح رغبة الملكة في تكريس الحملة لتوسيع حدود إمارة إنطاكية على حساب جيرانها المسلمين، ذلك الأمر الذي حمل هذا المؤرخ على إبداء سخطة عليها باتهامها بالرعونة والطيش، كما أشار إلى وجود ما يشين سلوكها سواء أثناء إقامتها في إنطاكية مع خالها أم حتى بعد العودة إلى فرنسا؛ حيث نهجت نهجا لا يليق أبدا بمكانتها الملكية؛ فلم تراع التزاماتها الزوجية ولم تخلص لزوجها(95). وهكذا أكملت روايته ما كان قد ذكره مؤرخنا وأكدت على المصادقية والقيمة التي أتت في مدونته التاريخية .

وبعد عرض المادة التاريخية عن الحملة الصليبية الثانية في هذه الفصول من المدونة يتبين أن صاحبها نجح في أن يضع يديه على السبب الحقيقي لخروج الحملة الصليبية الثانية، ألا وهو سقوط الرها في يد المسلمين، ومهد لذلك بتقديم رواية تاريخية عن اعتناق الإقليم للمسيحية والتمسك بها حتى بعد الفتح الإسلامي، وتحوله إلى إمارة حكمها اللاتين، ولكن عرض الأحداث كان يشوبه بعض الاضطراب الذي يلتمس فيه العذر للمؤرخ؛ نظرا لابتعاده- مكانا وزمانا- عن الوقائع التاريخية في هذه المرحلة. وتدخل الباحث بدوره بتوظيف المادة- كل في مكانها- بدون المساس بها إلا في حدود توزيعها. أما حينما تعرض لخروج الحملة وتحركاتها وصولا إلى فشلها فقد نحت المدونة جانبا معظم التفاصيل الخاصة بالدعوة للحملة وأسماء قادتها المدنيين والعلمانيين وتفاصيل دور كل من: الملكين كونراد ولويس والإمبراطور مانويل فيها، كما وقع المؤرخ في لبس بسبب عدم الفصل في الأحداث بين ما واجه الجيشين الألماني والفرنسي في آسيا الصغرى؛ فجاءت أحكامه عامة مطلقة في

هذه الجزئية، في حين وقع أسيرا للأفكار التي سادت الغرب الأوروبي آنذاك حول خيانة بيزنطة للقضية الصليبية، وبدا متميزا في تحميل الجيش الصليبي المسؤولية كاملة في الهزيمة وأرجع ذلك لسوء سلوكهم، وأخيرا يبدو أن فشل الحملة أمام دمشق كان كفيلا بجعل المؤرخ يصمت عن الكتابة عنها إبان وصولها إلى الأراضي المقدسة، ويكتفي بالإشارة فقط إلى فشلها. من ناحية أخرى نجحت المدونة في تسليط الضوء على بعض النتائج - غير المباشرة - لهزيمة الحملة، مثل تردي الوضع العسكري في إمارة إنطاكية جراء مقتل أميرها ريموند، وتزايد ضغوط المسلمين العسكرية عليها، وفي هذا الصدد أيضا كان تقييمه للأمر لا يختلف عن تقييم المؤرخ وليم الصوري - مؤرخ الشرق اللاتيني العتيد - فيما يخص الحكام، ومن ذلك أن كليهما اتفقا على ما يعيب سلوكيات الملكة إيلانور، وهذا نلمسه عند مؤرخنا فيما ذكره عن قصصها الغرامية في أوروبا، بينما غطى الآخر تصرفاتها المعيبة في إنطاكية، وهي أمور أوغرت صدر الملك لويس؛ ومن ثم ألفت بظلالها على الحملة، مما أدى إلى فشلها بالهزيمة .

ويواصل المؤرخ الإنجليزي تأريخه للأحداث حول إنطاكية، ومما يفهم منه أنه بمجرد وصول أخبار مقتل الأمير ريموند وما وقع من هزيمة في الجيش الصليبي إلى القدس، أسرع الملك بلدوين الثالث Baldwin III (1143 - 1162م) لنجدة المسيحيين هناك، وكان في رفقة جيشه فرسان طائفة الداوية العسكرية، و**Templars** وبالفعل وصل جيش الملك الصليبي في الوقت المناسب؛ نظرا لأنه لم يكن بالمدينة القائد الذي يمكنه الدفاع عنها، كما أن جيش المسلمين - الذي كان آنذاك تحت قيادة نور الدين محمود - كان قد وصل خارج المدينة وضرب حولها الحصار، وحينئذ أعلن جميع من بداخل إنطاكية خضوعهم الكامل للملك، وتهيأت الفرصة أمام بلدوين وقواته لاتخاذ التدابير اللازمة من أجل إنقاذ المدينة، ولم يمض وقت كبير حتى تنفس المدافعون الصعداء بأن أجزوا المسلمين على رفع الحصار، ولم يقتصر الأمر على ردهم؛ إذ تمكنت القوات الصليبية من تعقبهم حتى خارج الحدود، وما لبث أن نجح الملك في لم شعث الإمارة وقواتها، بينما وصلت إليه يوم بعد يوم إمدادات حربية؛ مما مكّنه من مهاجمة أراضي نور الدين في أعمال حلب، فتبدل الوضع من

موقف الدفاع والذود عن إنطاكية إلى الهجوم على المسلمين في عقر دارهم(96). وهكذا أجمل مؤرخنا في اقتدار تسجيل أحداث إنطاكية وحلب في تلك المرحلة بشكل يغلب عليه الإيجاز رغم غزارة المعلومات التي وفرها له القس الإنطاكي، مما يجعلنا نخرج بحقيقة أن المؤرخ اتخذ من الإيجاز منهجا له في الكتابة .

وفي أواخر الفصل الخاص بإمارة إنطاكية وأميرها ريموند انتقل المؤرخ الإنجليزي إلى الحديث عن جانب آخر من القضية الصليبية في الشرق، وفيها تناول أحداثا تتعلق بمملكة بيت المقدس الصليبية؛ إذ يذكر أنه بعد أحداث إنطاكية المؤرخة بعام 1149 م..:" كانت بلدة غزة الزاهرة- وهى إحدى بلدات فلسطين القديمة- من ممتلكات طائفة فرسان الداوية، وخلال بضع سنوات قاموا بترميم البلدة وتعميرها، ومن ناحية أخرى قام الملك بلدوين الثالث بمهاجمة مدينة عسقلان Ascalon والاستيلاء عليها منجزا بذلك عملا مجيدا، إذ كانت أكثر مدن هذا البلد ازدهارا وأقواها حصانة، الأمر الذي حال دون وقوعها في أيدي الصليبيين قبل ذلك، ومن ثم فقد تم إخضاع مجمل الأراضي الفلسطينية إليهم في ظل حكم هذا الملك(97)". وكالعادة نجد عند المؤرخين المسلمين المعاصرين- فضلا عن المؤرخ وليم الصوري- مزيدا من التفاصيل عن الأنشطة الحربية المصاحبة لعملية الحصار ثم إسقاط المدينة في يوم السبت الموافق الثاني والعشرين من أغسطس 1153 م (98).

وبعد إحصام المؤرخ وليم أف نيويره عن ذكر أحداث حوالي عشرة أعوام تتعلق بالحروب الصليبية في الشرق بشكل مباشر نجده يظهر اهتماما بأحداث الصراع بين نور الدين محمود والملك عموري الأول Amalric I (1162-1174م) محول الاستيلاء على مصر، ففي الفصل الثالث والعشرين من الكتاب الثاني(99) تناول أحوالها التي آلت بها إلى التدهور الشديد بشكل أغرى جيرانها بالطمع فيها؛ إذ كانت مواردها البشرية والاقتصادية الكبيرة كفيلة بترجيح كفة الطرف الذي يستولى عليها أو يضمها (100)، والواضح أن هذا القطر كان له وزنه الإقليمي البارز عند المؤرخ، فأفاض بعض الشيء في الحديث عن تاريخه القديم، مما ينم عن ثقافة ليست بقليلة، فذكرها باسم بابليون Babelion، وأدرك أنه رغم

أن هذا المسمى المعاصر هو ذاته مسمى بلاد بابل العتيقة الكلدانية- التي تأسست في العراق بعد الطوفان الذي قضى على مدينة نينوى Nineveh وكانت لها السيادة على الشرق لما يربو عن ألف عام- إلا أنها تختلف عنها، واعتقد في أن مؤسس بابلون المصرية هو الملك الفارسي قمبيز (552 - 525 ق.م.) عندما استولى على مصر، وهو الذي أطلق عليها هذا المسمى (101). وفي الواقع فإن هذه المعلومات التاريخية (102) تكشف عن أن مقدمها اكتسب ثقافته من خلال قراءات في الكتب الكلاسيكية واللاهوتية التي ضمتها مكاتب الأديرة في أوروبا عصر نهضة القرن الثاني عشر الميلادي .

استعرض المؤرخ وقائع السباق بين عموري الأول ونور الدين محمود من خلال حملتين حربيتين للملك الصليبي غافلا بعض ما يخص تلك الجولات، خاصة ما يتعلق ببواكيرها؛ إذ أورد وليم الصوري معلومات عن حملة سابقة للملك الصليبي وقعت أحداثها في مستهل سبتمبر 1163 م. وفيها أورد تفصيلاً أن الملك جاوز التخوم الشرقية للبلاد، وتمكن ضرغام وزير مصر من صد قواته بأن قطع الطريق عليها بكسر السدود المائية مستغلاً طبيعة النيل الجغرافية والفيضان (103)، ورغم فشل الملك هذه المرة في الاستحواذ على مصر إلا أنه تمكن من الوقوف على أجزاء من مصر (104). ويعتقد أنه نظراً لأن هذه الحملة لم تأت بأية نتائج عملية فقد تجاهلها وليم أف نيوبره في كتاباته .

فلقد اكتفى المؤرخ بتناول الأحداث التي وقعت في العام التالي أوائل أغسطس 1164 م. (105)، حيث قال: "قاد عموري ملك بيت المقدس حملة صليبية إلى مصر بدعوة من ملكها ولم يرد اسمه.....، وكان سبب ذلك أن الإمبراطورية المصرية تأثرت بخطر الأتراك، وهم قوم حرب مهرة كانوا تحت حكم الملك نور الدين، إذ بدأ المصريون شديداً الشراء في حين كانوا أقل شأنًا في تجهيزاتهم الحربية.....، وتحت رعاية هذا الملك تولى شيركوه- أكبر أمرائه والذي كان خبيراً محنكاً بأمر الحرب- قيادة جيش في سرية تامة، وعبر به أطراف الأراضي الصليبية حيث بادر بغزو الديار المصرية، وعندئذ رأى ملك مصر أنه مما يبعث على الخوف وفي غير صالحه أن تتهاوى أو تستسلم بعض المدن له، وبهذا الشكل

المتسرع التمس مساعدة الملك المسيحي بعد أن أدرك عدم قدرة المصريين على إسعافه، واعدًا إياه بتوثيق أوامر العلاقة به لاحقًا مع دفع جزية سنوية محددة، وعلى الفور قام الملك عموري في مهمة عالية بعمل الاستعدادات اللازمة في كامل مملكته واستبقى جزء من جيشه للتصدي لهجوم نور الدين في حالة قيامه بأي مغامرة حربية، في حين تولى قيادة الجزء المتبقي من جيشه الصليبي ودخل به مصر، وهناك تحالفت قواته مع ملك مصر في جيش واحد تمكن من محاصرة شيركوه مع قواته التركية في مدينة محددة لم يرد اسمها، وتمكنوا في النهاية من طردهم خارج البلاد مهزومين، وقد سمح لهم الملك الصليبي باجتياز الأراضي المسيحية في أمن وسلام في طريق العودة إلى وطنهم (106) قد أتت تفاصيل تلك الحملة عند المؤرخ وليم الصوري وفيها يتضح اسم ملك مصر فكان وزيرها شاور الذي كان قد نجح في قتل ضرغام وتولى الوزارة بدلا منه، وكذلك اسم البلدة التي حوصرت في مصر فكانت بلبس، وقد اختلف وليم الصوري مع مؤرخنا حينما أشار إلى أن حملة عموري تألفت من جميع جيش المملكة بما فيهم الأمير همفري الثاني **Humphrey II** صاحب بانياس، والذي ترأس الفرسان بصفة أنه كان يشغل آنذاك وظيفة كندسطلب المملكة (107) (أي قائد جيوشها)، ومن ثم استغرقت المادة الواردة عند وليم الصوري الخطوط العريضة لرواية وليم أف نيوربه عن أحداث الحملة ومؤكدة عليها .

تنبه مؤرخنا إلى الشق الآخر من خطة نور الدين الحربية في تلك الآونة، حيث وصفه بالمكر والخداع، ذاكرا تواجد الملك عموري على رأس حملته في مصر إبان ذلك، فيقول في روايته: " وبينما كانت الأحداث الحربية تستخدم هناك، لم يهدأ لنور الدين بال، بيد أنه تظاهر بعدم اكتراثه بما يجري، ونجح أخيرا في استمالة رجل منا عن طريق الرشوة؛ نظرا لأنه كان حديث عهد بالدخول في المسيحية، وكان هذا الشخص يتولى رئاسة حامية قلعة البلدة التي تسمى حاليا بانياس - بليناس **Belinas** الواقعة في الأراضي المواجهة لبلاد العدو، وقدما كانت البلدة تعرف باسم قيصرية فيليببي **Caesarea Philippi**، وقام نور الدين ومعه المسلمون بدخول المدينة في سرية بمساعدة هذا الرجل، ولم يعملوا السيف في أهلها، واكتفوا

بطرد الصليبيين وأسقف البلدة المسيحي منها، كما قاموا بتحصين وإبدال حامية البلدة بحامية جديدة، وقد أدت هذه الواقعة إلى تعكير صفو انتصارات الملك الصليبي عند عودته من مصر"، وفي مكان آخر من المدونة عبر المؤرخ عن تميز موقع بانياس بقوله: "تعد هذه البلدة مفتاح الأراضي المسيحية في مواجهة دمشق(108)". "، وقد شرح الرحالة المسلم ابن جبير الذي مر بتلك المناطق في عام 1183 م. وضع الأراضي عند بانياس بقوله: " أنه في تلك الجهات كان بين الإفرنج والمسلمين حد يعرف بحد المقاسمة؛ فهم يتشاطرون الغلة على استواء ومواشيهم مختلط."

فتبيننا لحقيقة الأحداث التي رواها وليم أف نيوبره عن بليناس؛ نقف على ما ذكره وليم الصوري الذي أورد المزيد عنها، فتعرض لموقعها الجغرافي وحدده عند سفح جبل لبنان، وأن مملكة دمشق تناخها من الشرق قرب الموضع الذي ينبع منه نهر الأردن؛ ومن ثم فهي تشكل في نظره الحد الشمالي لأرض بنى إسرائيل، وتعرض للمسمى القديم وسبب تسميتها قيصرية فيليبي، وذكر أن اللاتين قد حرفوا المسمى من بانياس إلى بليناس، ودعم المعلومات التي كان وليم أف نيوبره قد أوردتها بشأن أحداث بانياس الحربية، في حين أضاف عليه تفاصيل توضح أن ذلك كان بمثابة نوع من المناورة الحربية من قبل نور الدين بأن أشاع النية في مهاجمة بانياس بغرض الضغط على ملك بيت المقدس لشل حركته ومنعه من التدخل في شئون مصر، في حين أتى في روايته بما يشير إلى أنها سقطت بسبب إهمال النائب عليها وربما نتيجة رشوة قسيس يدعى روجر Roger ، بيد أنه لم يذكر شيئا عن مصير أهلها الصليبيين(109)، الأمر الذي كان واضحا عند مؤرخنا الذي قدم في هذا الصدد أيضا إضافة انفراد بها، وهي أن القلعة سقطت نتيجة رشوة القائم على حمايتها من قبل الملك الصليبي؛ نظرا لأنه كان مسلما حتى وقت قريب، ولكن بالرجوع إلى المصادر الإسلامية يتضح أن مؤرخنا وقع في لبس؛ نظرا لأنه منذ ما يزيد عن ثلاثة عقود برزت شخصية شيعية كانت قد استحوذت على القلعة بالفعل، ألا وهو إسماعيل العجمي، وخضعت له بانياس حتى تسلمها الصليبيون منه تحسبًا من حكام دمشق ونكاية فيهم(110)، بيد أن هذا

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

اللبس ينم عن أن صاحب المدونة كان يحاول تقصى أخبار الشرق، فوصلت إلى مسامعه بعضها مشوها أدخله في هذه الدائرة.

وفي واقع الأمر لم يكن سقوط بانياس في الثامن عشر من أكتوبر 1164 م. وحده الذي دعا عموري للخروج من مصر، إنما أدى تفاقم الوضع قبل ذلك بما يزيد عن الشهرين في إمارة إنطاكية إلى محاولة نجدها بعد قيام نور الدين محمود بمعاونة قوات الموصل والأراراتقة لمهاجمة قلعة حارم الواقعة في الشمال بشكل مباغت، وأنزل هزيمة كبرى بين الصليبيين خلال الأيام الأولى التي وصل فيها جيش عموري إلى مصر (111)، ولما كان سقوط بانياس قد حدث في تاريخ أقرب لانسحاب عموري من مصر في نوفمبر 1164 م (112)، فقد اعتبره مؤرخنا أنه السبب المباشر في الانسحاب دون الالتفات لهزيمة الصليبيين عند حارم وسقوطها، كذلك جاء وصفه للملك عموري بالمتنصر في هذه الجولة، وهو أمر لا يتفق مع الواقع، اللهم إذا وضع في حسابه أن وزير مصر كان قد عرض جانباً من ثروة مصر على الملك الصليبي مقابل حمايته من نور الدين، ومن ثم فلا فضل للملك الصليبي في ذلك، وإنما تنازل شاور وخذاعه لشيركوه يفسران النصر الجزئي الذي أحرزه الصليبيون في تلك الجولة .

ثم ينتقل المؤرخ إلى الحديث عما اعتبره الجولة الثانية من الحملات التي قادها الملك عموري على مصر والتي وقعت أحداثها في بواكير عام 1167 م.، ذاكراً أنه استقى مادته التاريخية من بعض المحاربين الصليبيين الذين اشتركوا في أحداثها، موضحاً أنه: " بعد بضع سنوات غدا الأتراك نور الدين ومجاهديه أكثر شجاعة وحماسة وقوة، ولم تحثهم في تلك المرة شهوة السيطرة على مصر بقدر ما حفزتهم رغبتهم في الانتقام مما حاق بهم من فشل سابق في الحملة الأولى، ذلك أنهم وصلوا أعماق مصر تحت قيادة شيركوه، وفي تلك المحاولة افتقد الملك المصري الخليفة الفاطمي أو وزيره ثقته بنفسه تماماً، ونتيجة لذلك راح يرسل السفراء على الفور يلتمسون المساعدة من الملك الصليبي وفقاً لما هو مبرم من معاهدات معه، فأخذ عموري يضع تدابير أكثر حذرًا، وتمكن من دخول مصر بقوات ضخمة من المشاة والفرسان، وهناك انضموا إلى الجيش المصري الفاطمي شيعي المذهب عاقدين العزم على

مهاجمة الأتراك السنة، فانسحبوا إلى الصحراء بمهارة ليكون قرار الهجوم بأيديهم لا بيد شيركوه(113). "، وفي الواقع تأتي المادة الواردة في كتاب الأعمال فيما وراء البحار لوليم الصوري لتبين هذه الأحداث، إذ أتت بتفاصيل اجتماع القادة الصليبيين في المملكة في مدينة نابلس، كما أبرز الكتاب جهود الملك في حشد وتنظيم جيشه، وخططه لجمع المال والعشور وتعرض لخط سير الجيشين الإسلامي والصليبي، حيث وصل الأول إلى أطيح عند الحيزة، ثم عبر النيل حيث عسكر في مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل، أما الجيش الصليبي فقد وصل إلى بلبس، ومنها اتجهوا صوب القاهرة وعسكروا عند الضفة الشرقية للنيل(114).

ثم يستأنف مؤرخنا الإنجليزي روايته، فتحدث عن وقوع مناوشات بين المعسكرين الإسلامي والصليبي لم يفصح عن تفاصيلها، ولكنه أوضح أنه في يوم عيد الفصح الموافق 19 من أبريل 1167 م.: " وبينما كان الصليبيون يحتفلون بهذه المناسبة- إبان إقامتهم داخل معسكراتهم المقامة في الضفة الشرقية للنيل- فإن هذه المناسبة المباركة لم تمر إلا وقد ظللها الله ببركاته؛ حيث توافرت للجيش مؤن وأطعمة لم تكن في حسابهم، وذلك من خلال صيد أعداد ضخمة من الخنازير البرية كانت قد ظهرت أمامهم فجأة(115) "، بيد أن المؤرخ وليم الصوري القريب من الأحداث لم يشر إلى هذه الرواية في سرده التفصيلي، وفيه سجل عقد اتفاقية صلح دائمة بين شاور وعموري تقوم على التحالف الحربي فيما بينهما، الأمر الذي منح الصليبيين فرصة مبادأة جيش شيركوه بالقتال ومناوشته بعد اجتيازه النيل ليلا(116)، وبذلك تجتمع الشواهد على أن ما كان من صيد ثمين رزق به المعسكر الصليبي قد يكون رمزا لمدد ومؤن أتت إليهم من حليفهم شاور، وإن صح ذلك فهذا يقوى الانطباع بأن المؤرخ لديه حس أدبي مميز جعله يستخدم الكناية فيما يعبر، وربما كان لديه من واسع الخيال حتى وضع هذه الواقعة في قالب أسطوري .

ويواصل المؤرخ وليم أف نيوبره روايته للأحداث الحربية في هذه المرحلة من الحملة على مصر، وفيها يذكر: " في صباح اليوم تقدم الصليبيون لمواصلة مطاردة أعدائهم، وعندما خارت

قوى فرق المشاة المشتبكة أمرهم الملك عموري بالتوقف عن القتال، وتقدم ومعه الفرسان سريعاً أمامهم، وفي المقابل حينما اكتشف هذا الأمر القائد شيركوه الخنك، عقد العزم على الدخول في المعركة بعد أن تأكد من أن النصر سيكون حليفه نظراً لتجرد الجيش الصليبي من عنصر المشاة، اعتماداً منه على تفوق سلاح الفرسان في جيشه، وتبع ذلك اشتباك دموي وشرس للغاية، استمر منذ الساعة السابعة نهاراً حتى آخر ضوء، وانتهى الأمر بأن لجأ كل من الجيشين إلى معسكريهما بعد أن أصابهما الخوف بسبب تناقص أعدادهما ومعنوياتهما بقدر واحد على حد سواء، ولم يفصل بينهما إلا نهر النيل عند مخاضة كان الصليبيون قد حرصوا بقوة على تأمينها والسيطرة عليها من أجل الأخذ بناصية أعدائهم، وفي جنح الظلام جمع الملك الصليبي قاداته ليتفقد الجيش، فراعته كثرة خسائره نظراً لوجود أعداد كبيرة من الجرحى بين صفوف الجيش، وأرجع وقوع تلك الكارثة إلى غياب الجزء الأعظم من قواته في الخلف، وحينئذ أبلغ القادة بأنه من المستحيل الاستمرار في المعركة مع الصباح، ولذا فما من بد من العودة في سكون الليل إلى بقية الجيش، ولقي ذلك القرار استحساناً من الجميع فانسحبوا في هدوء من الطريق ذاته الذي جاءوا منه، وأقدم الأتراك على اتخاذ الخطوة ذاتها فتقهقروا في احتزاز أيضاً (117). "، هذا وقد شرح وليم الصوري جهود الملك في إقامة جسر عند المخاضة، وأطال في الحديث عن المعارك السجال البرية منها والنهرية، وتميز بتحديد تاريخ المعارك ومكانها بل وأعداد المشاركين فيها وانتقال المعارك إلى المنيا في صعيد مصر وما آلت إليه (118) .

وبالنظر بعين مقارنة على النصوص المصدرية المتاحة في هذا الجانب من الجولة يتضح إلى أي حد كان وليم أف نيوبره موضوعياً في روايته، حيث بدت منصفة لشيركوه وجيشه، وهذا ما يستشف من رواية نظيره وليم الصوري دون إفصاح صريح منه، كما كانت إشارة مؤرخنا إلى أن الملك الصليبي قد انتابته الصدمة لعظم خسائره، ما يتضمن التأكيد على حيده. والذي حدانا إلى الإحساس بموضوعية مؤرخنا ما أورده المؤرخ ابن الأثير عن المعارك عندما أبدى دهشته من أن: " ألفي فارس يهزم معسكر مصر وفرنج الساحل (119) "،

ونخلص من ذلك إلى أن هزيمة الصليبيين غير كاملة، كما أن انتصار المسلمين لم يكن حاسماً . وتتمثل الخطوة التالية في هذه الجولة عند مؤرخنا في انتقال المعارك إلى مدينة الإسكندرية فيذكر: " توجه الأتراك إلى الإسكندرية، في حين اجتمع مشاة الجيش الصليبي إلى فرسانهم وتقدم الملك الصليبي لمحاصرة الإسكندرية، بعد ما تمكن من دعم جيشه بصعوبة بأعداد إضافية من القوات كان قد حصل عليها بالاستسلام، ونجح في طرد الأتراك مرة أخرى من مملكة مصر، وعاد إلى وطنه بمجد عظيم(120)"، وبذلك أنهى المؤرخ في إنجاز ما اعتبره الحملة الثانية للملك عموري على مصر، بينما يقدم المؤرخ وليم الصوري تفاصيل للأحداث يفهم منها أن القوات التي زود بها عموري جيشه ما هي إلقوات شاور التي تحالفت مع الصليبيين، كما أوضح أن شيركوه استولى على المدينة وحاصره عموري بداخلها؛ إذ أكد على أن أهالي المدينة هم الذين سلموها لشيركوه، وأضاف أن الحصار كان قد أحكم عن طريق الأسطول في البحر، فضلاً عن القوات المتحالفة برًا، كما أوضح أن الذي قاد عملية الدفاع داخلها كان صلاح الدين الأيوبي بعد أن تركه فيها شيركوه متوجهاً إلى القاهرة وما والاها من بلاد الصعيد، ومع اشتداد الحصار طلب صلاح الدين النجدة من عمه، وما لبث الطرفان بعد عناء القتال أن دخلا في مفاوضات الصلح، وعقدت اتفاقية بينهما انسحب بموجبها شيركوه وعموري بجيشيهما في الحادي والعشرين من أغسطس 1167 م.، أما شاور فقد تسلم الإسكندرية واستقر له الأمر في مصر في ظل الحماية الصليبية(121).

على ذلك نلاحظ مدى اهتمام مؤرخنا بإبراز الملك عموري بطلا صليبيًا، كذلك نلاحظ موضوعيته في تناول أحداث مصر، ولكن في ذات الوقت لم يتعرض البتة لما انتهى إليه السباق بين عموري وشيركوه، وهو الذي حسم كما هو معروف بخضوع مصر للدولة النورية، وبدأ عهد جديد انتهى بأن تولت مصر فيه دور الريادة في الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ذلك الأمر الذي سيحظى باهتمام المؤرخ ويتضح في الصفحات القادمة .

هكذا شمل المؤرخ الأسباب والأحداث فالنتائج المتعلقة بحملات الملك عموري على

مصر ودمج أحداثها في حملتين فقط، وبداية وضع يديه على الهدف من سياسة الملك الصليبي حيث أشار إلى طمعه في ثروة مصر نظرا لضعف استعداداتها الحربية، وفي المقابل ادعى أن ذلك كان هدف نور الدين محمود أيضا، بيد أنه أغفل الحملة الباكرة للملك الصليبي ضد مصر، فتحدث عن حملته الثانية على أنها أول ما قدمه من نشاط حربي صليبي ضد الفاطميين في مصر، فتناولت الأولى بالنسبة لروايته الخطوط العريضة لحملة 1164 م. وما ترتب عليها من نتائج، أما في الجولة الثانية فلم تكن بعض جوانبها واضحة المعالم عند المؤرخ؛ إذ وقع في بعض اللبس في عرض التفاصيل، ومن ذلك أنه أسند إلى الجيش الصليبي إمساكه بزمام تحديد موعد المعارك فيها بدخوله الصحراء، بينما كان شيركوه هو الذي خطط لذلك بجعل النيل يحول بين جيشه والصليبيين وقوات شاور، وأغفل المؤرخ بعض تفاصيل المعارك المهمة مبدئيا بعض الموضوعية من خلال إبراز فجاعة الصليبيين في خسائرهم أثناء القتال، ولم يلق الأضواء الكافية على أحداث حصار الإسكندرية، كما لم يصل إلى الحقيقة التي انتهت إليها حملات عموري وهي ظفر نور الدين محمود بمصر في نهاية المطاف، هذا في حين تعددت المصادر الإسلامية التي أبرزت تلك الأحداث فضلاً عن روايات وليم الصوري التفصيلية.

وفي المرحلة التالية من مدونة وليم أف نيوربه- وتحديدًا في الفصل العاشر من كتابه الثالث (122) يحرص المؤرخ على رصد الوضع الداخلي على الساحتين الصليبية والإسلامية، حيث قال: "أنه من الضروري تقديم نبذة عن أحوال مملكة بيت المقدس منذ عهد الملك عموري الأول، فقد توفي هذا الملك بعد عدة حملات عسكرية مظفرة قام بها، تاركًا الحكم لابنه القاصر بلدوين الرابع Baldwin IV (1174-1185م) الذي كان شابًا واعدًا للغاية؛ حيث قضى فترة حكم فيها المملكة بما لديه من قدرة عقلية فائقة دون القدرة البدنية؛ إذ أصابه الله بداء البرص (123)"، وبينما صمت مؤرخنا عن تحديد تاريخ وفاة الملك عموري وهو الحادي عشر من يوليو 1174 م.، وذكر الظروف التي أحاطت باعتلاء ابنه العرش، فإن وليم الصوري يطالعنا بها في إسهاب وتدقيق يضعنا أمام

مؤرخ قدير شاهد للعيان يسجل الأحداث، ومما أورده أن تنصيب بلدوين الرابع ملكا تم وهو لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره، وبموافقة من نبلاء المملكة، ولم يتم تعيين وصي على العرش، إنما تولى تسيير دفة الحكم بتعسف القائد العسكري ميلون أف بلانسي **Milon of Plancy** سيد إقطاعية شرق الأردن بحكم زواجه من سيدة الإقليم ستيفاني أف ميللي **Stephanie of Milly**، الأمر الذي رفضه كونت طرابلس ريموند **Raymond Count of Tripoli** (1152-1187م). بصفة قرابته بالملك، وطالب بالوصاية على العرش، فقد كانت والدته هوديرنا **Hodierna** خالة عموري الأول، كما أن زوجته هي إستيفاني أف بور **Stephanie of Bures** أرملة ولتر أمير الجليل **Walter Prince of Galilee**، وعلى هذا تقرر تنصيب ريموند وصيا على عرش المملكة في العام ذاته 1174م. بعد أن خلا أمامه الطريق بأن اغتيل ميلون أف بلانسي (124).

على الجانب الآخر تحدث وليم أف نيوبره تفصيلا عما يجري من أحداث في المعسكر الإسلامي، فسجل حدث وفاة نور الدين محمود على أنه وقع في الوقت ذاته تقريبا الذي توفي فيه الملك عموري (125)، علما بأن المؤرخين المعاصرين قد حددوا تاريخ وفاته الخامس عشر من مايو 1174 م. (126)، ومن ثم كان الفارق الزمني بين وفاة الملكين حوالي الشهرين، وأدرك صاحب المدونة أن مملكة نور الدين حين وفاته قد ضمت أراضي بلاد النهرين وسوريا (بلاد الشام)، بعد أن خلف والده (عماد الدين زنكي) الذي كان من الطبيعي أن يذكره بسوء "الملعون"، بينما وصف ابنه نور الدين محمود بأنه: " كان بمثابة سوط غضب الله على المسيحيين (127)"، وعليه تبدو كتابات المؤرخ النيوبري ذات الصلة بالقائدين عموري ونور الدين قزمية مقارنة بكتابات معاصره وليم الصوري في هذا الصدد؛ نظراً لأن الأخير بدا مسيطراً على قلمه وعالماً بما يدور من حوله باقتدار، ومن ثم يقتصر فضل ما جاءت به المدونة إبان هذه المرحلة في أنها أكدت ما ورد في المصادر المعاصرة، كما أنها عكست هموم أهل الغرب تجاه الأحداث التي تجرى عند إخوانهم في الشرق اللاتيني، وأن هناك تواصلًا لم يكد ينقطع مع اللاتين فيما وراء البحار.

أما شخص صلاح الدين الأيوبي فقد حاز على نصيب كبير من الاهتمام؛ ويتضح هذا في تقييم المؤرخ له، ذاكرا عنه في مواضع متفرقة أنه: "امتطى فرس سلفه نور الدين " محمود، ولعله يقصد بذلك أنه سار على دربه، كما رأى أنه لم يكن مجرد " سوط عذاب كسابقه بل كان مطرقة عذاب بالنسبة للمسيحيين"، وشرح المؤرخ باقتضاب الظروف التي أحاطت بإمساكه بالسلطة في الدولة النورية، فذكر: " أنه ابن أخي القائد الكبير شيركوه، وعندما مرض ثم توفي عام 1169 م، تولى صلاح الدين قيادة الجيش النوري في مصر(128)،" وتتفق المصادر الإسلامية مع المدونة فيما ذكرت، بيد أنها كانت أكثر إفاضة؛ حيث أوضحت الظروف التالية لذلك وكيف تولى صلاح الدين الوزارة في مصر واتخاذها قاعدة له في ظل التبعية للخلافة العباسية بداية من سبتمبر 1171 م، ثم وفاة آخر الخلفاء الفاطميين العاضد، وما حدث بعد ذلك بثلاثة أعوام تقريبا حين وفاة نور الدين محمود(129)، فأكدت ما كان وليم أف نيوبره قد ذكره عن ضم صلاح الدين دمشق في 1174 م.: " بلا ضربة ولا طعنة"، بيد أن مؤرخنا عزا حدوث ذلك بأنه: " حينما توفي نور الدين طلب صلاح الدين من أرملته عصمة الدين خاتون أن تزوجه، وعند ذلك سلمته دمشق وأعمالها، فضمها إلى ممتلكاته"، والثابت أن هذا الزواج لم يتم إلا بعد ذلك بحوالي عامين 1176 م.(130)، ومن ثم يجب تصويب ما ظن فيه مؤرخنا من أن ضم صلاح الدين دمشق كان نتيجة لزواجه من أرملة نور الدين، وأيضا كان الأمر فقد كانت هذه الخطوة بمثابة الخطوة الأساسية في توحيد الجبهة الإسلامية .

واصل صاحب المدونة حديثه عن الخطوات التي اتبعتها صلاح الدين لتوطيد أركان حكمه فيقول: " ولأن الجيش التركي كان يحبه للغاية؛ قام بتطوير سلطته بالخدعة وطور خداعه بالسلطة حيث حرم الصالح إسماعيل ابن نور الدين من ميراثه، واستولى على إمبراطوريته الشاسعة للغاية"، ولم يراع المؤرخ السياق التاريخي بدقة حيث جاء في مدونته: " إن صلاح الدين أتبع ذلك بنقل قواته إلى مصر وخلع أمراء هذه الدولة من مراكزهم واستولى على المملكة المصرية شديدة الثراء، كما استولى على ليبيا والجزيرة العربية، واكتسب اسمه رفعة

عالية وسطع نجمه متفوقا على جميع ملوك الشرق، وأصبح سلطانه يشمل ثمانى ممالك من أغنى البلاد، ومع كل هذه الإنجازات فقد شعر في قرارة نفسه أنه لم يفعل إلا القليل طالما أن الصليبيين الذين يحول بينه وبينهم البحر ما زالوا يسيطرون على بيت المقدس وإنطاكية ومدن سوريا الساحلية؛ ولذلك أقدم هذا الرجل الذي ليس له مثيل في دهائه وسلطانه يكرس ضدهم جميع ما لديه من قوات من شتى البلاد الخاضعة له واضعا نصب عينيه أن يلتهم الشعب الصليبي لقمة سائغة، وأن يطيح بصليب السيد المسيح في كل أرجاء مناطق الشرق حيث كان(131).

وبتتبع الكتابة التاريخية في المدونة فعلى نحو ما ورد في الفقرات السابقة نلمس قدرة المؤرخ على رصد أهم التطورات التي تجرى على الساحة الصليبية من انزواء قادة مثل: نور الدين محمود وعموري الأول بوفاتهما، وكذلك ما حدث من تحول على الساحة بسطوع نجم صلاح الدين بتوسيع إمبراطوريته بالاستيلاء على دمشق وغيرها توحيدا للجبهة الإسلامية، وأدرك المؤرخ هذا التحول في رؤية واضحة لما يصبو إليه القائد صلاح الدين ويخطط له، وأنه قصد من ذلك إزاحة الكيانات الصليبية في الشرق. ولما كان مؤرخنا مقيماً في الغرب فتحسب له تلك الرؤية الجلية رغم بعده عن الساحة، وهذا ما سيتأكد أيضا من خلال رصده للأحداث في الصفحات التالية .

ففيما قدمته المدونة يظهر لنا إلى أي حد وضع المؤرخ وليم أف نيوبره يده على حلقات الصراع بين المعسكرين الصليبي والإسلامي، وإلى أي حد نجح صلاح الدين في تحقيق إنجازاته وفقا لخطته بغرض توحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج، فتعرض في الفصل الحادي عشر الكتاب الثالث(132) إلى أبرز الجهود الصليبية كرد فعل على شروع المسلمين في توحيد جبهتهم بعد ضم دمشق، وفي ذلك يقول المؤرخ: " في حوالي ذلك الوقت، دخل فيليب كونت فلاندر **Philip Count of Flanders** الموقر المتصف بالتقوى والورع أرض مملكة بيت المقدس بجيش كبير، حيث كان عاقدا النية على إتمام عمل حربي ما ضد صلاح الدين، وعلى ضم أراضي جديدة إلى الممتلكات الصليبية في الشرق، إلا أن طائفة

فرسان الداوية وجهوا له إهانات شديدة، مما اضطره إلى التوجه إلى إنطاكية بناء على دعوة من أميرها بوهيمند الثالث Bohemond III (1163-1201م) ووسط جيشه والرفاق ضرب الكونت حصارا على مدينة هارينج Hareng (133) (حارم) إلا أنه لم يظفر منها بشيء، فعاد أدراجه إلى بلاده بخفي حنين مذلولاً مدحوراً (134). " وقد أرخ وليم الصوري قدوم هذه الحملة في (1177 م). امتدادا للحملة الأربع التي اشترك فيها أبوه ثييري كونت فلاندر Thiery Count of Flanders من قبل، وأضاف أن الآمال كانت معقودة من قبل أمراء الصليبيين في فيليب لإنجاز أهداف خاصة بهم، ولما بلغ المرض بالملك بلدوين الرابع ما حال دون مقاتلة المسلمين بنفسه لجأ إلى فيليب للقيام بهذه المهمة مقابل توليته الوصاية على عرش المملكة، ونظرا لتشكك الكونت في القادة الذين سيشاركونه الهجوم على مصر؛ أبدى تحفظات لم يقبلها نبلاء المملكة خاصة بيت إبلين في إقطاعية بينا، كما أظهر كل من: ريموند الثالث أمير طرابلس وبوهيمند الثالث أمير إنطاكية رغبتهما في الانتفاع بحملة فيليب لصالحهما، وغادر فيليب بيت المقدس في أواخر أكتوبر من العام نفسه وقاد أعمال حصار حارم، وعندما علم المحاصرون بقرب قدوم صلاح الدين فضوا الحصار، وعاد فيليب ثانية إلى بيت المقدس لقضاء عيد القيامة 25 من ديسمبر 1177 م. قبل إقفاله إلى القسطنطينية (135). وبذلك يكون مؤرخنا صاحب المدونة قد قدم إضافة انفراد بها موضحا بها سبباً آخر وراء انسحاب الكونت فيليب من الأراضي المقدسة إلى إنطاكية؛ حيث أشار إلى دور طائفة الداوية في ذلك .

وتتلاحق الفقرات في مدونة وليم أف نيوبره التي تتعلق بأحداث الحرب الصليبية ضد المسلمين في الشرق، مسجلاً أنه: " في شهر نوفمبر من العام ذاته 1177 م. حينما علم صلاح الدين أن أرض الرب تفتقر أكثر من العادة إلى المدافعين عنها- نتيجة انسحاب قواتها للاشتراك في أعمال حارم - قام بتوجيه هجوم مفاجيء عليها على رأس قوات لا حصر لها، ولم يتوقف عند الحدود بل اخترقها متجها إلى مدينة بيت المقدس مباشرة بالرغم من أنه كان لزاما عليه الاستيلاء أولاً على المناطق المتاخمة لبلاده، وحينئذ قام الأمير المسيحي

الذي عوضه ذكاؤه عمّا أصاب بدنه من جذام أي الملك بلدوين الرابع بسرعة ومعه جميع ما أمكنه حشده من جيش في وقت قصير، متأهباً لدخول معركة لم يعتبرها معركته شخصياً بل اعتبرها معركة الله، ولم يكثر بكترة أعداد جيش عدوه مرتكناً إلى مؤازرة الله له، دافعاً أمامه صليب الرب، وما لبث أن دخل في قتال مع الأعداء بالقرب من مدينة الرملة الصحيح أنها عسقلان التي كانوا قد ضربوا عليها الحصار، وتمكن من هزيمة تلك الجيوش الجرارة....، وقرر صلاح الدين أن يهرب، ففر بصعوبة بالغة من أرض المعركة، بينما لقي الآلاف من أتباعه حتفهم وبعون من الله أبلى المسيحيون بلاء حسناً في القتال، وكان ذلك قبل بداية شهر ديسمبر بسبعة أيام(136)، أي الخامس والعشرين من نوفمبر من العام المذكور .

هكذا تضمنت رواية مؤرخنا معلومات قيمة تبدو كافية للتعرف على ملامح أحداث معركة تل الجزر -Montgisard كما سماها وليم الصوري- حيث سجل بدقة تاريخ وقوعها، إلا أن هناك تفاصيل لم يخطها قلم صاحب المدونة، ومن ذلك أنه اكتفى بالإشارة فقط إلى إنفاذ صلاح الدين لقواته من الساحل رأساً إلى عسقلان، وظن أن الجيش الإسلامي حاصر الرملة في حين أن الملك بلدوين الرابع كان قد حوَّصر في عسقلان، كذلك لم يدرك المؤرخ ما أجراه الملك الصليبي من تحركات واتصالات مع الداوية في غزة- التي كانت خاضعة آنذاك لهذه الطائفة- من أجل الالتفاف عبر البحر لمباغثة قوات صلاح الدين المتناثرة من جهة الشمال، مما أوقع الهزيمة بها جنوب شرقي الرملة، ولم يشر إلى الحالة السيئة والفوضى التي انتشرت بين صفوف المصريين أثناء الانسحاب(137). وهكذا نلمس اهتمام المؤرخ وليم أف نيوبره بأحداث عام 1177 م. الحربية، وإبراز دور الداوية في فشل حملة فيليب كونت فلاندر في الشرق، متجنباً في الوقت ذاته إبراز دور تلك الطائفة في انتصار الملك بلدوين الرابع في معركة تل الجزر، مكتفياً بإرجاع هذا النصر إلى ذكاء وشدة بأس الملك الصليبي .

ومع تزامن الأحداث العسكرية ب بروز شخص صلاح الدين الأيوبي على الساحة الإسلامية يتحدث المؤرخ وليم أف نيوبره عن معارك أعقبت معركة تل الجزر بحوالي عام، ومن

ثم فهي تؤرخ بعام 1178 م، بيد أنه من بين المؤرخين المحدثين من يقر بأن هذا العام المذكور لم يشهد سوى عدة مناوشات والرد عليها بين الفريقين الإسلامي والصليبي رغم انتقال صلاح الدين إلى مقر حكمه في دمشق(138)، وغدا يطل مباشرة على الجبهة الشمالية لمملكة بيت المقدس. واستهل مؤرخنا الأحداث في هذا العام بقوله: " اشتعل غضب السماوات ضد المسيحيين الذين أقاموا في الأرض المقدسة؛ لأنهم كانوا يسلكون سلوكاً غير قويم، ذلك أن صلاح الدين هاجم الأراضي الصليبية مرتكناً إلى تفوقه في العتاد وأعداد جيشه الضخمة رغبة منه في محو آثار هزيمة العام السابق، في حين كانت قواتنا أفضل تنسيقاً وأكثر عدداً عن ذي قبل، الأمر الذي جعلهم مغترين بقوتهم غير معتمدين على الله، وحينئذ اندلعت المعارك بين الفريقين عند التخوم الدمشقية-الجليلية، لكن الله الذي كان قد منح النصر سابقاً للمتواضعين حال دون ذلك هذه المرة، حيث وقعت مذبحه كبرى بين صفوف الصليبيين، ولقي عدد كبير من الفرسان وقادة فرسان الداوية مصرعهم، إضافة إلى أعداد كبيرة أخرى من النبلاء، بيد أن ذلك لم يكن سوى بداية أحزان الصليبيين(139)"، وهكذا تتكرر الملاحظة وهي أن مؤرخنا يهتم بتتبع دور فرسان طائفة الداوية السليبي في الأحداث التي تجرى في الشرق، فهذه هي المرة الثانية التي يحرص على ذكرهم مقرونين بالفشل الصليبي .

وفي العام التالي 1179 م. اشتعل الموقف بالقرب من بانياس من جديد، إذ يسجل وليم أف نيوبره ما تصرفه أن فرسان طائفة الداوية شرعوا في تشييد أسوار قلعة في منطقة مخاضة الأحزان دعوها قلعة مخاضة بنات يعقوب (140) Jacob's Ford على نفقتهم الخاصة بغرض كبح جماح القوات الإسلامية التي عادة ما تنطلق من قلعة بانياس، وتهدد المناطق الصليبية داخل المملكة، ورغم الأعمال الدورية من الفرسان بهدف تأمين عملية البناء وارتفاع الأسوار لم يبد القادة المسلمون أي رد فعل فوري، إنما ظلوا مستنفرين لعمل ما قد يطلب منهم لمواجهة الأمر، وصدرت الأوامر بمحاصرة القلعة الجديدة بعد أن امتلأت بالعتاد والرجال، فاجتمع الجيش الصليبي عند طبرية لرفع الحصار، ومما أخذه المؤرخ

عليهم تراخيهم في التحرك، وبعد تشاور القادة أيقنوا أنه ليس من الحكمة مواجهة كل هذه الأعداد من المسلمين بدون انتظار مزيد من الدعم يأتي إليهم من القدس مع صليب الصليبوت. ونتيجة لهذا التكاثر سقطت قلعة مخاضة يعقوب وتم تسويتها بالأرض سريعاً، كما تم قتل عدد كبير من الذين كانوا يتولون الدفاع عنها، وغنم المسلمون كميات ضخمة من العتاد والمؤن. ولم ينقض وقت طويل على صلاح الدين بعد هذا الانتصار إلا وقد توغل في أراضي المملكة الصليبية بشكل مباغت، وأعمل فيها سيفه، فاستولى على مدينة نابلس التي كانت تدعى في الماضي سخيم Sychem، وهزم الجيش الصليبي وتشردم وهو مثنى بالجرار، وحاول الملك جاهداً جمع أشلائه (141).

وهكذا لخص مؤرخنا أسباب المعارك في العام المذكور، وما آلت إليه من نتائج لها ما وراءها، وعليه يحسن توضيح ذلك، فهو يرى أن الموقف تفجر عسكرياً عند مخاضة بنات يعقوب بسبب إصرار الداوية على بناء قلعتهم هناك رغم تعهد المملكة بعدم الإقدام على تحصين المنطقة، وأن الملك نصحهم بعدم تشييدها في ذلك المكان تحديداً، بيد أنهم جمعوا الأموال لبنائها هناك، مما دعا مؤرخنا وليم أف نيوبره لاتهمم بالخطورة التي تستوجب العقاب الإلهي. وبالفعل فرغم محاولة صلاح الدين استعاضة الصليبيين عن بنائهم القلعة بالأموال إلا أنهم استمروا في غيهم وبنوها (142). ومن الأحداث التي يمكن أن نبرزها أيضاً أن فرخشاه ابن أخي صلاح الدين ونائبه على دمشق هو الذي قاد جيش المسلمين في الجولة الأولى من القتال، وأنهم كادوا ينالون من الملك بلدوين الرابع وجيشه لولا تدخل القائد الصليبي همفري الثاني كندسطلب المملكة الذي أصيب بجروح بالغة في المعركة أدت إلى وفاته فيما بعد، ويذكر أن هذه الجولة كانت قبل حصار المسلمين للقلعة، أما حينما تم الالتحام بعد تدميرها فقد كان مقدم الداوية أودو سانت أماند Odo St. Amand من بين أسرى الصليبيين، إضافة إلى قادة صليبيين بارزين آخرين (143)، وأعقب ذلك عقد هدنة امتدت عامين بين بلدوين الرابع وصلاح الدين (144)، وهو أمر لم نجد له ذكراً عند مؤرخنا، كذلك فإن ما أورده من مهاجمة نابلس على أنه آخر أحداث المعركة في شمال

المملكة فإن هذا الحدث لم يقع إلا في سبتمبر 1183 م. (145)، ومن ثم فرواية وليم أف نيوبره لأحداث المعارك الأخيرة فوق أرض الجليل تتصف بالتعميم القائم على الوقوف على موضوع أو قضية معينة يتم سردها دون الاكتراث أو الالتزام بالسياق التاريخي بشكل دقيق، وقد يكون وازعه في ذلك هو الإتيان فقط بجوهر الأحداث .

بدأ إذن العقد الأخير من عمر مملكة بيت المقدس الصليبية بتهديدات صلاح الدين العسكرية الخطيرة تلك في الجنوب والشمال، إلا أن المؤرخ النيوبيريّ تنبه في خط متواز إلى وجود أخطار داخلية - ربما كانت أشد وطأة- فتناولها، ففي الفصل العاشر من الكتاب الثالث (المشار إليه سلفاً) أورد أن الملك الصليبي بلدوين الرابع كان قلقاً على مملكته بسبب مرضه العضال، ولذا اتخذ من التدابير: " ما يحفظ بها للذرية الملكية البقاء في حكم البلاد، خاصة وأنه لم يكن لديه أبناء، وذلك من خلال تزويج أخته " سيبلا - Sibylla التي لم تذكر المدونة اسمها- من شخصية مرموقة تأتي من غرب أوروبا تكون جديرة بتحمل مسئولية حكم المملكة، بيد أن تفاصيل ذلك نجدها عند المؤرخ وليم الصوري الذي أوضح أنها تزوجت الأمير وليم ذا السيف الطويل William Long-Sword ، إلا أنه توفي بعد وقت قصير في أوائل عام 1177 م ورغم أنها أنجبت منه طفلاً (بلدوين الخامس الملك اللاحق) إلا أن المشكلة كانت لم تزل قائمة في عدم وجود وصي (146).

وقد اهتم وليم أف نيوبره في الفصل السادس عشر من الكتاب الثالث (147) بالوقوف على جوانب من الشخصيات الصليبية في الشرق التي ارتبط مصير بيت المقدس بها، فتناول من جديد قضية زواج أخت الملك بلدوين الرابع (سيبلا)، حيث ذكر: " أن الملك آثر تزويجها ثانية من أمير آخر هو جي أف بوتوه Guy of Poitou ، الذي كان قد فر هارباً من الملك هنري الثاني ملك إنجلترا تاركاً مقاطعة أكويتين بعد أن نفاه منها، ومنذ ذلك الوقت أخلص جي في خدمته ملك بيت المقدس (148)"، ويتفق روجر أف هوفدن مع مؤرخنا في هذه الرواية، ويضيف أن فرار جي كان نتيجة إقدامه على جريمة قتل باتريك إيرل سالسبري Patrick Earl of Salisbury أثناء عودته من الحج (149).

وفي هذا الموضوع أيضا أبرزت المدونة شخصية ريموند الثالث أمير طرابلس، فذكرت عنه: "كان كونت طرابلس وصيا على عرش الملك الصبي بلدوين الخامس ابن سيبلا من زوجها الأول، ومن المفترض أنه هو الذي دس له السم فأماتته 5 من أغسطس 1186 م وهو رجل عظيم وقوي، كما كان على صلة قرابة بملوك المملكة سالفا، ولذا فقد كان طامحا في أن يكون ملكا ظنا منه أنه سيصل إلى مأربه بسهولة بالتخلص من هذا الطفل القاصر لم يتجاوز السادسة من عمره، إلا أن البطريك هرقل (Heraclius)

1180-1187م) وعدد من كبار أمراء الأرض المقدسة وكذلك فرسان الداوية والإسبتارية قاموا بمنح التاج الملكي إلى سيبلا والدة الملك المتوفى، وبصفتها أيضا ابنة الملك عموري الأول عظيم الشأن بين الصليبيين، الأمر الذي يجعلها أقرب وريث للعرش والأكثر أحقية له، بيد أنهم وجهوا اللوم لها على زواجها من رجل أجنبي جي أف بوتوه [150]". وهكذا تركت المدونة لوليم الصوري الإفاضة في وصف الأمير من كل جوانبه الجسمانية منها والعقلية، ومدى كفايته في الإدارة والحكم، وتعلمه للغة العربية وقدرته على فهم مشاكل الفرنج المحليين وكيفية حلها (151).

لم يكن جي أف بوتوه سوى ذلك الرجل الذي عرف في المصادر المعاصرة والمراجع باسم جي لوزينان Guy of Lusignan الذي كان قد حظي بإعجاب سيبلا، ورغم ما أبداه أخوها الملك بلدوين الرابع من تحفظات على زواجهما إلا أنه تم عقد القران بينهما في الخامس والعشرين من ديسمبر 1180 م. وحصلا على إقطاعتي يافا وعسقلان لهما (152)، وأكد مؤرخنا ولیم أف نيوبره وقوع هذه الأحداث؛ حيث قال: "وعندما حصلت الملكة على ملكية الحصون والمدن - بمساعدة رجال الداوية والبطريك هرقل - سلمت التاج الملكي إلى زوجها، وحينئذ تدمر النبلاء بشكل فاق كل الحسابات، ولم يستطعوا تحمل كل ما حدث، ويقفوا مكتوفي الأيدي أمام ارتقاء رجل أجنبي ليس من السلالة الملكية فوق رؤوسهم في حين أنه لا يزال - كما يعتقدون - هناك فرعا من العائلة الملكية [لعله يقصد به فرع الملك الإنجليزي هنري الثاني يمكن من خلاله أن يكون حكم

المملكة أكثر لياقة وشرفاً، وبالفعل كظم العديد منهم غضبهم وجعلهم الخوف أو قل المكر صامتين لمدة من الزمن، ومع ذلك فتظاهروا بطاعته، وتحينوا الفرصة المواتية للتوصل من سيادته عليهم(153)، وكانت هذه الروح التي سادت المملكة قد أدت إلى انقسامات خطيرة بانقسام نبلائها إلى حزبين(154) ظلاً يعكسان الوضع السياسي المتردي بين الصفوة لبضع سنين. وبذلك يتضح الفارق الواضح بين إيجاز وليم أف نيوبره وإسهاب وليم الصوري في تناوليهما للأحداث والشخصيات الصليبية في الشرق، ومع ذلك فهذا لا يعني أن الرؤية لم تكن واضحة عند المؤرخ الأول، إنما كان إيجازه يتضمن الدلائل على أنه كان مطلعاً على كثير من الأمور - خاصة الأساسية منها- التي تجرى بين اللاتين في الشرق، ويبدو أنه كان يقوم بعمله المكلف به، وهو تدوين تاريخه في إطار محدد ومرسوم .

ومازال المؤرخ يتتبع التدابير التي اتخذها الملك بلدوين الرابع لحماية للمملكة والأسرة الحاكمة فيها، فقد أشار في الفصل العاشر من الكتاب الثالث- السالف الذكر- إلى قيام الملك بإيفاد هرقل بطيريك بيت المقدس في عام 1184 م. لزيارة إنجلترا ممثلاً للكنيسة اللاتينية في الشرق بغرض إتمام مهمة طارئة(155)، ويوضح المؤرخ الإنجليزي المعاصر روجر أف هوفدن طبيعة تلك المهمة بأن البطيريك كان يتأس وفداً ضم كلا من مقدمي طائفة الداوية وطائفة الإسمتارية مع الشارة الملكية للملك بلدوين الرابع، ومفاتيح كنيسة الضريح المقدس وقلعة داود ومدينة القدس؛ بغرض مطالبة الملك هنري الثاني بضرورة الإسراع إلى الأراضي المقدسة لتولي عرش المملكة بصفته وريثاً له وبحكم قرابته بالملك فولك أف أنجو الملك الأسبق لبيت المقدس(1131 - 1143 م. لأنه أبو جيوفرى إيرل أنجو

Geoffrey Earl Anjou والدة الملك هنري. هذا وقد استقبلهم الملك في بلدة ريدنج Reading في حفاوة وترحاب، وتعرف منهم على أحوال المملكة الصليبية(156). ومن ثم نلاحظ بشكل واضح أن كتابات وليم أف نيوبره أتت مختصرة في تلك الحادثة عمّا ورد عند نظيره الإنجليزي روجر، رغم أن كليهما اتجها إلى إيجاز الحديث عن أحداث الشرق اللاتيني في الغرب، مما يعطى مؤشراً إلى أن زيارة البطيريك هرقل لم تكن لها وقع خاص عند

مؤرخنا إذا ما قيس بما تركته من اهتمام عند نظيره الإنجليزي .

ثم أجملت المدونة الأحداث العصبية التي مرت بها مملكة بيت المقدس إبان المشاكل والاضطرابات التي أعقبت وفاة الملك الصبي بلدوين الخامس عام 1186 م..؛ حيث أوردت: " أما ريموند كونت طرابلس فقد أبدى سخطاً شديداً على اعتلاء جي العرش الملكي مرتكناً على ما لديه من سلطة ودهاء، وأعلن رفضه على رؤوس الأشهاد ومعه عدد من قادة الصليبيين الانصياع إلى سيطرة الملك الغريب الذي يادر بتوجيه الهجوم عليه، فاضطر إلى الاستسلام للسلطة الملكية نظرا لعدم كفاية قوته، وحينئذ لجأ إلى صلاح الدين وحظي بسهولة على مساعدته؛ نظرا لأنه كان يسعى إلى إضعاف القوى الصليبية عن طريق إثارة الخلافات فيما بين أحزابها في غاية من الدهاء(157)". وقد اتفق عدد من المؤرخين الغربيين والصليبيين مع مؤرخنا في روايتهم لتلك الأحداث(158).

وفي الواقع بلغت شائعة انضمام ريموند إلى معسكر صلاح الدين حداً من القوة وصل بها إلى مسامع المؤرخين المسلمين المعاصرين، وهذا المعنى أكد عليه المؤرخ ابن الأثير بشكل وثيق الصلة في استخدام العبارات(159)، وهناك من المؤرخين الصليبيين من دعمها ووصل بها حد الحقيقة، واتهم ريموند بالخيانة؛ نظرا لأنه حصل على إمدادات عسكرية من صلاح الدين لتؤازره في نزاعه مع جي لوزينان حول العرش الملكي(160)، وقد عبرت هذه الأخبار البحار حتى بلغت أذني روجر أف هوفدن(161) وكذلك وليم أف نيوبره، فأدرك خطورة هذا الوضع على المملكة، وأدرك كذلك أن صلاح الدين لديه من الدهاء ما يجعله قادرا على استثمار هذا الموقف في بث الفرقة بين المعسكر الصليبي .

وفي المرحلة التالية من مدونة المؤرخ وليم أف نيوبره نجده يتناول أحداث عام 1187م، ذلك العام الحاسم في تاريخ الوجود الصليبي في الشرق، ففي الفصل الخامس عشر من الكتاب الثالث(162) يقر بأنه: " يكتب للتاريخ والأجيال القادمة لا لمعاصريه، حتى تكتمل العبرة ويتعظ من يتعظ."، وتناول في مرارة وحسرة تاريخ مدينة بيت المقدس وفلسطين عبر العصور، والأزمات التي واجهتها بسبب ضلال أهلها، فحق عليهم أن يلقوا

عقاب ربحهم، انتهاء باسترداد تلك الأراضي على عهد البابا أوربان الثاني، كي تقع تحت السيطرة الصليبية مدة سبع وثمانين عام، ثم تناول في الفصل التالي المنازعات التي أضعفت البيت الصليبي من الداخل منها إياه بعرض الأحداث والكوارث التي أخذت تحيق بالمملكة بعد لجوء ريموند الثالث إلى صلاح الدين، حيث قال: " وقد أعقب ذلك أن دفع صلاح الدين في شهر مايو بقواته من الأتراك إلى الأراضي الصليبية من ناحية طبرية التي كانت آنذاك تحت حكم الملكة آشيفا أميرة الجليل، وهناك دخلوا في معركة مع فئة معينة من فرسان الداوية وتمكنوا من ذبح أعداد كبيرة من بني جلدتنا وأقفلوا عائدتين محملين بالغنائم والأسلاب. "، ونظرا لوقوع هذه المعركة في وادي به عيون تدعى كريسون فقد عرفت تاريخيا بهذا الاسم(163).

وما لبث أن اتفق المؤرخان روجر أف هوفدن وإرنول مع مؤرخنا في القول بأنه: " لم تمض سوى فترة قصيرة بعد هذه الهزيمة حتى قام ريموند بتوسيط بعض أصدقائه بينه وبين الملك جي بغرض عقد الصلح معه(164)". ثم انفرد مؤرخنا بتحليل الموقف، فذكر: " أن الصلح الذي عقد بينهما ما كان إلا صلحاً صورياً؛ نظراً لأن هذا الأمير بل وجميع أمراء الأراضي المقدسة تقريباً كانوا قد دخلوا في اتفاقية سرية مع صلاح الدين بسبب سخطهم الزائد على الملك، وكان قد قيل أنه بموجب هذه الاتفاقية تعاهدوا على تسليم الملك الصليبي إليه، وفي المقابل عاهدهم صلاح الدين على أنه في حالة تسلمه لن يمنحهم من حق التصرف في مملكة بيت المقدس، وما حسبي بذلك إلا أنهم قد تعاهدوا مع الموت واتفقوا مع الجحيم، ظناً منهم أن هذا البلاء القادم لن يصيبهم حينما يأتي لزيارة الآخرين(165) .

ثمّة وقفة قصيرة عند هذه الأحداث وما سبقها من مواقف داخلية في المملكة؛ إذ تأكدت ملاحظة أن المؤرخ وليم أف نيويره قد أولى مرارا طائفة فرسان الداوية باهتمامه الواضح، حتى عن الإسهابية- الطائفة المنافسة لها- رغم طول باعهم هم أيضا في الحركة الصليبية، وهذا واضح منذ أن أبرز دور الداوية في التخطيط السليبي للهجوم على مصر في عصر الملك عموري الأول، كما تناول قتالهم ضد صلاح الدين بالقرب من بانياس وفوق

أرض الجليل، فضلا عن حرص المؤرخ على إبراز دورهم في توجيه الأمور الداخلية في المملكة، خاصة إبان فترات الأزمات التي مرت بها كما هو واضح في مشكلة تعيين الوصي على عرش المملكة، وما ترتب على ذلك من صراع حزبي لعبت الطائفة دورا كبيرا فيه، وهذا الاهتمام سنلاحظه كذلك في الصفحات التالية من خلال إبراز دورهم السياسي والعسكري. هذا كله لم نجد له تفسيراً عند مؤرخنا وليم، إلا أنه من الممكن أن يستشف عند روجر أف هوفدن الذي أشار إلى ما أطلقه الملك هنري الثاني من تعهدات بداية من عام 1172م. بقيادة حرب صليبية والاتفاق على تقديم مائتي فارس من طائفة الداوية لمدة عام (166)، كما نقل لنا نص الخطاب القوي الذي كان مقدم الطائفة تريشوس - Terricius لعله توروجا الذي ترأس الداوية (1179 - 1184م) قد أرسله إلى الملك الإنجليزي هنري الثاني لتنفيذ عهوده، وبالفعل أرسل هنري أموالا وهبات وفيرة إلى القدس للصراف منها دفاعاً عن المملكة، وقد أودع نصفها في معبد الرب **Templum Domini**، ولهذا دلالتة إذا كانت كنيسته مقراً لطائفة الداوية، ويقع بجوارها المكان الذي يضم جسمان قتلة توماس بكت **Thomas Becket** (167). وهكذا ارتبط تفضيل الملك هنري للداوية بفكرة التكفير عن ذنب، وعليه يبدو أن وليم أف نيوبره تأثر بما أحاط الطائفة من هالة سياسية بصفتها إنجليزي، وربما لمس ذلك داخل قصر الملك نفسه؛ فاستحوذ عليه الاهتمام بإبراز أخبار هذه الطائفة في الأراضي المقدسة .

وفي الفصل السابع عشر من الكتاب الثالث (168) يسرد المؤرخ وقائع التحركات العسكرية بين الطرفين الإسلامي والصليبي عقب معركة عيون كريسون، ومما رواه: "إن ثمانية آلاف فارس أو يزيد- حسبما قيل- توغلوا تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي محترقين التخوم في ثقة زائدة، وسرعان ما توجهوا إلى مدينة طبرية، وهاجموا قلعتها التي لم يتحصن بها سوى بضعة جنود مع آشيفا سيدة الإقطاعية، وعندما بلغ مسامع الملك جي تلك الأخبار قام على الفور بجمع جيش من شتى المواقع كاسرا ما اتبعه الملوك الصليبيون السابقون من تقليد حربي بإبقاء حامية كافية في مدتهم وقلاعهم حين الدخول في معركة، وذلك حتى لا يعرضوا

المملكة إلى خدعة مزدوجة عن طريق حرمان عظام قلوبهم التي هي المدن والقلاع من المدافعين عنها التي هي في حاجة إليهم، ورغم أنهم غالباً ما كانوا ينهزمون أمام أعدائهم إلا أنهم لم يبدر منهم أبداً أن عرضوا مملكتهم لخطر الفناء، بيد أن جي - ذلك الملك الذي عينته امرأة - كان سبباً في خراب المملكة الصليبية؛ نظراً لأنه أدار دفعة حكم البلاد في حمق شديد، ولم تكن الملكة براء من هذا الشر العظيم، وقد أمر بتقدم جميع قوات المملكة للقتال كتلة واحدة كما أمر قادة الجيش بإرغام المرضى على أن يسيروا جنباً إلى جنب مع الأصحاء إلى ميدان المعركة تحت إشراف منه وكأنهم بذلك يستطيعون إلقاء الرعب في قلب صلاح الدين بكثرة أعدادهم، الأمر الذي لم يجعل منهم سوى ضحايا وليسوا مقاتلين، وهكذا لم يبق في المدن سوى النذر القليل من الشيوخ مع النساء والأطفال، ومن ثم أضحي مصير كل مملكة بيت المقدس العتيدة معلقاً على نتيجة معركة واحدة (169). "، وفي المصادر الإسلامية نجد ما يؤكد سوء استعدادات الصليبيين للمعركة القادمة وعجز مدتهم عن الوقوف والتصدي لصلاح الدين. (170).

وفي الحقيقة فإن رؤية مؤرخنا وليم أف نيوبره لأحداث الإعداد لمعركة بيت المقدس الصليبية الفاصلة مع صلاح الدين تعد ثاقبة وموضوعية، ولم يضاهاه فيها أحد من المؤرخين الغربيين فيما وراء البحار الذين تم الرجوع إلى كتاباتهم، ومن ذلك أنه اتخذ موقف الناقد لما يجري من أحداث والممحص للأمور؛ إذ قارن بين حكم الملك جي وحكم الملوك السابقين عليه، وانتهى إلى وصفه بالحمق، كما أنه لم يبزيء الملكة سيبلا من انعدام حكمة الأوامر التي أطلقها زوجها الملك، الأمر الذي جعل منها شريك في كل ما يحدث، وخاصة فيما يتعلق بالقرار الخاطيء الخاص بترك مدن المملكة وقلاعها مكشوفة أمام المسلمين بزعم حشد أكبر عدد من المدافعين عنها بما فيهم الضعفاء لإرهاب صلاح الدين ويكفيها أنها هي التي عينته. ومن هذا وذاك نجد المؤرخ يؤكد باستمرار قدرته على تحليل الأحداث التي يتناولها والوصول إلى الأسباب والنتائج الخاصة بها في عمق .

أما عن المعارك في حطين فقد سلطت المدونة عليها بعض الأضواء، لعل في هديها نرى

الجديد، فحددت تاريخها بعيد ذكرى الحواريين بطرس St.Peter وبولس St.Paul الموافق السادس من يوليو 1187 م. بفارق يومين فقط عن الواقع، وهو يوم الرابع من يوليو، وقد ذكرت المدونة عن أحداثها: "من المعتقد أن ريموند الثالث كونت طرابلس قام عن قصد بقيادة الجيش الصليبي إلى منطقة صخرية ليس بها ماء، كما تكثر بها الشعاب الضيقة، رغم علمه جيدا بطبيعة تلك المناطق المحلية، فما لبث أن تعرض الجيش للخطر، مما أتاح الفرصة أمام أعدائهم لضرب الحصار عليهم من كل جانب إلى الحد الذي جعل الملك يجازف بالدخول في كل المهالك بغرض التقدم لمقابلة العدو، وذلك بناء على نصيحة من قاده النبلاء، فسمح لفرسان الداوية ببدء الهجوم، في حين قام هو بتنظيم جيشه وتقسيمه إلى فرق قتالية تسهلا لدخول المعركة وفقاً لما لديه من إمكانيات، وفي هجمة شديدة القوة والبسالة اخترق فرسان الداوية صفوف القوات المعادية كثيفة العدد، ووضعهم بين أمرين: إما الفرار وإما الدخول معهم في معركة، وفي هذه اللحظة اتضحت بوادر التواطؤ الشرير لرجالنا مع العدو بل وخيانتهم الشائنة؛ إذ خالف كونت طرابلس والنبلاء الآخرين مع قواتهم الترتيبات التي كان قد وضعها الملك، وتخلَّوا عمَّا أنيط إليهم من دور بتأمين فرسان الداوية في القتال؛ مما وضعهم في موقف خطير، ونتج عن ذلك أنه بينما كان فرسان الداوية يقاتلون المسلمين في بسالة موشكين على هزيمتهم تمكن أعداؤهم من تطويقهم بشدة، فوقعوا بين قتلى وأسرى، بينما سقط جيشنا إلى الأرض مغشياً عليه من الحرارة والعطش لجذب المنطقة وإفكارها من الماء(171).

وهكذا اتهم مؤرخنا الأمير ريموند الثالث بالخيانة الدامغة في هذه المرة أيضاً، شأنه في ذلك شأن مؤرخ إنجليزي آخر هو روجر أف هوفدن(172)، بيد أن هناك من الباحثين من يبطل هذا الاتهام، ويرى أن ريموند كان يتلقى أوامره من الملك حي أثناء المعركة وربما من قادة آخرين مثل جيرارد ريدرفورت Gerared Riderfort مقدم الداوية (1185-1189م) من خلال أوامر الملك، وهذا يتضح في إصدار الأوامر له بالتوجه من صفورية إلى حطين فطبرية(173)، وعليه فقد يكون مؤرخنا قد انساق وراء سماع الشائعات التي أحاطت

بالجيش الصليبي في ذلك الوقت فيما يخص هذا الموضوع .
وفي هذا الظرف الحرج الذي أحاق بالقوات الصليبية يذكر المؤرخ صاحب المدونة: " إن ستة من الرجال الصليبيين سيئي السمعة ارتدوا عن دينهم ودخلوا في الإسلام وانتقلوا إلى معسكر صلاح الدين وأبلغوه بخبايا المشاكل التي يعاني منها الجيش الصليبي، وعليه قرر مهاجمة حشودهم من كل صوب، وقطع أشلائهم جميعا تقريباً، في حين لاذ الملك بالفرار، فطارده تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين وأسرته واستولى على صليب الصلبوت منه، وأمسى مجمل الجيش الصليبي بين قتلى وأسرى، بينما تمكن النذر اليسير منهم من الفرار.....، أما كونت طرابلس فقد قيل أنه هرب ومعاونوه من ساحة المعركة، ولم يأبه المسلمون بتعقبهم(174)". ونجد شرحاً عند روجر أف هوفدن لبعض المادة التاريخية المذكورة تلك، حيث ذكر أسماء ثلاثة من فرسان الملك من الستة المشار إليهم، وتفصيل عملية أسره والاستيلاء على صليب الصلبوت(175). وإذا ما بدا صاحب المدونة مقلاً في تقديم بعض التفاصيل، بينما أوردتها غيره من المؤرخين الذين عايشوا الظروف نفسها، إلا أن مؤرخنا ظل متميزاً بقدرته على التحليل والنقد ووضع الأمور في نصابها بشكل أكثر عمقا ودقة، ولم يكتف بسرد الوقائع كما هو الحال عند غيره، أما حينما كان يوجه الاتهامات فعادة ما ينسبها لقول آخرين ويتعمد تسجيل ذلك .

وعن أسرى يوم حطين يذكر صاحب المدونة: " إن القائد صلاح الدين أمر بعزل من ينتمي منهم للدواوية والإستبارية الذين بقوا على قيد الحياة عن الأسرى الآخرين، ثم أمر بقطع رؤوسهم في حضرته؛ لكي يتمتع عينيه بتلك البهجة التي اشتاق إليها طويلاً، بيد أن سعادة الطاغية صلاح الدين كانت أكبر بأسر رينو دي شاتيون **Renauld of Chatillon** أمير إقطاعية..... ما وراء الأردن، حيث خصه صلاح الدين بالعقاب، إذ استجوبه في عنف، وعندما تلقى منه إجابات قوية ثابتة ذبحه بيديه، معتقداً أن الكثير من المتعة سوف تضيع إذا قام أي شخص آخر دونه بإراقة هذا الدم الغالي (176) وهنا تتجلى الروح الصليبية التي تسيطر على مؤرخنا وليم أف نيوبره، فهو من ناحية يظهر صلاح الدين

بأنه ذلك القائد الطاغية الذي يتشفى ويتهيج بقتل أعدائه، ومن ناحية أخرى أبدى إعجابه الشديد بشخص رينو؛ حيث وصفه بأنه: " يعد أكثر الرجال المسيحيين تدينا، وهو ذلك الرجل المرموق الجانب لاشتهاره بحسن القيادة في مجال الحرب وكذلك في رجاحة عقله، وهذا جلي فيه منذ إدارته القوية لإمارة إنطاكية وصولا إلى تميزه الواضح في حكم الصليبيين في الأراضي المتاخمة للجزيرة العربية(177)، ولعله من المعروف عند عدد من المؤرخين الحديثين أن هذا القائد يمثل أبرز مثل على النزعة الصليبية الممزوجة بالطيش والتهور والتطرف الديني ضد المسلمين (178)، بل وضد الصليبيين الذين أطلقوا عليه لقب اللص لما اقترفه من جرائم(179)، كما لقب بفيل الصليب تشبيها له بأبرهة الأشرم والفيل في اعتدائه على بيت الله الحرام في مكة(180).

مرة أخرى تبدو الروح الصليبية عند صاحب المدونة عندما نعت القائد صلاح الدين بما ليس فيه، وذلك حينما أقدم على جنى ثمار انتصاره الكبير في حطين، وقد خصص المؤرخ فصلا وهو الفصل الثامن عشر من الكتاب الثالث(181) لعرض النتائج المترتبة على الهزيمة في المعسكر الصليبي، وفيه يذكر أنه: " عندما بلغ الجيش المنتصر منتهاه إشباعا من ذبح الصليبيين، تحول إلى النهب، فبعد المعركة في حطين شرعوا في الاستيلاء على الأسلاب الهائلة من تلك الحشود الضخمة الذين أمسوا إما قتلى أو أسرى، وما لبث أن وصل هذا الطاغية بالغ الدموية بكامل قواته إلى مدينة عكا Ptolemais الزاهرة التي تدعى حاليا وفقا لقولهم، وتمكنوا من الاستيلاء عليها؛ نظرا لأنها بقيت مكشوفة بلا حامية- كما ذكرت سابقا- كما أنها كانت تحكم من قبل هؤلاء الذين لا يصلحون للحرب بسبب أعمارهم أو نوعهم، وذلك بموجب أوامر عليا حمقاء، ونظرا لأن صلاح الدين قد أصيب بالتحمة من ذبح الصليبيين، سمح للأعداد التي وجدها منهم داخل هذه المدينة بالرحيل دون أن يعترضهم بأذى انطلاقا من شعور بالرحمة غير مألوف بالنسبة له، وبعد هذا الفتح استدار إلى المدن والقلاع الأخرى، ونجح بعد حملة حربية قصيرة الأمد- لم يسفك فيها دماء- في إخضاع كل مراكز الثقل داخل مملكة بيت المقدس؛ إذ كان قد ترتب على معركة واحدة أن

قضى على كل حاميات المدن والقلاع، الأمر الذي لم يجد الطاغية معه أي صعوبة في الاستيلاء على أعنى حصون الصليبيين، التي كان يكفي لإسقاطها مجرد منع المؤن الغذائية عنها، اللهم ما عدا مدينة بيت المقدس ذاتها وصور وعسقلان(182)".

ولم يسجل مؤرخنا أسماء البلاد والبقاع التي استردها صلاح الدين في هذه المرحلة، بينما اهتم روجر أف هوفدن بتسجيل معظمها⁴، كما وقع مؤرخنا في لبس حينما اعتبر عكا هي ذاتها مدينة صور(183)؛ إذ أنه لم يميز جيدا بين المدينتين، وليس لديه خلط فيما بينهما إلا في هذا الموضوع، ويتأكد ذلك من أنه أشار في موضع آخر أن بطلمية هي عكا، كما ميز بين المدينتين في تناوله لأحداث لاحقة أخرى .

ووفقا لما ذكره المؤرخ النيو برّي فقد بقيت ثلاث مدن فقط خارج سيطرة صلاح الدين داخل المملكة، وكما عددها فهي: بيت المقدس وعسقلان وصور، وحري بنا حفاظا على السياق التاريخي أن نبادر بتقديم المادة التاريخية التي وردت عند المؤرخ عن إسقاط عسقلان، رغم أنه أتى بها بعد سرده لأحداث سقوط بيت المقدس مخالفا التسلسل التاريخي، ولعل تفسير وقوعه في ذلك الزلل يكمن في أن بيت المقدس طغت بأهميتها وبالأحداث المتعلقة بها على غيرها من المدن، فذكر: "إن عسقلان لم تسلم من يد صلاح الدين، شأنها في ذلك شأن كثير من المدن الفلسطينية، وهي تعد مدينة عظيمة، فر إليها الصليبيون بعد معركة حطين لقوة تحصيناتها، كما كانت تزخر بكميات هائلة من السلاح والمؤن التي أصبح لا جدوى لها، وكان الصليبيون قد أظهروا داخلها مقاومة شديدة في الوقت الذي عرض فيه الملك جي أن يتنازل عنها لصلاح الدين مقابل إطلاق سراحه شخصيا(184)", والواضح أن صلاح الدين كان حريصاً على إسقاط هذه المدينة بالذات في ذلك الوقت؛ لأنها تقع: "على طريق الديار المصرية فإذا أخذت أمنت الطريق واتصلت القوافل (185)", غير أن صليبي عسقلان لم يستجيبوا لنداء الملك بالتسليم، واستمروا في الصمود أمام هجوم صلاح الدين، حتى خارت قواهم ونفذت مؤنهم فطلبوا الأمان، فأمنهم صلاح الدين على أرواحهم وممتلكاتهم ودخل المدينة في الخامس من سبتمبر 1187 م.، بينما رحل سكانها إلى

مصر (186) ومنها إلى أوروبا.

أما مدينة بيت المقدس فقد حظيت ببعض التفصيل في رواية أحداث سقوطها، إذ وضع المؤرخ تاريخ ذلك في يوم عيد القديس ميخائيل الموافق 29 من سبتمبر 1187 م. وبعد واقعة حطين بما يقرب من ثلاثة أشهر، وهو تاريخ يسبق يوم الفتح الذي أجمع عليه المؤرخون بثلاثة أيام أي 2 من أكتوبر 1187 م. (187)، وفي ذلك يقول: " وامتد نفس هذا البلاء الناجم عن السخط الإلهي أيضا إلى المدينة المقدسة؛ إذ أرغم صلاح الدين البطريك والأهالي - الذين تسبب الخوف في أصابتهم بالإحباط - على الاستسلام له، وحينئذ أبقى على حياتهم وحرّياتهم سعيا منه فقط لأن يكتسب شرف التصدي بالرحمة، لكنه قام بطردهم من المدينة بعد أن جردهم مما لديهم من سلاح وأموال ودخلها في أهبة عظيمة (188) "، وهكذا تكرر من المؤرخ أنه حينما يضطر إلى ذكر حصال صلاح الدين الكريمة يقرنها دائما برغبته في الظهور والخيلاء وأنها بغرض اكتساب السمعة الطيبة فقط، وحقيقة فإن المجال لا يتسع للإفاضة في مدى الكرم والسماحة التي عامل صلاح الدين بها رجال الدين والأهالي إبان الفتح (189)، وهو أمر معروف متأصل فيه أقره المؤرخ نفسه بشكل أو بآخر .

ثم يستأنف المؤرخ حديثه قائلا: " عندما دخل صلاح الدين القدس قام بتدنيس الكنائس التي وضع يده عليها، وتعامل معها باعتبارها أسلاب، كما دمر الصليب الذي يمثل راية الرب بعد أن حقره وسخر منه، وأمر بتطهير معبد الرب الذي هو في حقيقة الأمر المسجد الأقصى بماء الورد وبكل توقيير وذلك كما لو كان المسيحيون قد دنسوه، فلم يكن هذا المبني في يوم ما عرضة للإيذاء ولا حتى من قبل المسلمين أنفسهم، ثم أحيا فيه الشعائر المتدنية، في حين أنه لم يبد القدر ذاته من الاهتمام بكنيسة الضريح المقدس؛ حيث استولى على جميع المقتنيات الذهبية والفضية بداخلها، كما أنه استصدر أمرا بمنح المسيحيين السريان حق الحماية والإشراف على الكنيسة بصفتهم السكان الأصليين لهذه الأرض، كذلك أصدر مرسوما يحرم على أي أجنبي أن يقترب من القبر المقدس بدون توقيير (190) . "، بذلك

اهتمت المدونة بإبراز سياسة صلاح الدين تجاه الأماكن المقدسة داخل القدس عند فتحها، ولكن غلب عليها الغبن في تقييمها؛ إذ زعمت تدنيس المسلمين للكنائس، وأنكرت إيذاء الصليبيين للمسجد الأقصى، وأقرت احترام المسلمين له وتطهيره، بينما أقرت حرص صلاح الدين على إعادة الأمور في القدس إلى نصابها قبل الغزو الصليبي، في حين نجد أن الصليبيين استخدموا أبنية المسجد الأقصى في عدة أغراض: تراوحت بين جعله مقر الملك الصليبي في الفترة الأولى من تأسيس المملكة، وسكننا للفرسان اللاتين من الداوية، فمارسوا فيه فنون الحرب والقتال، وجعلوا فيه مستودعاً لذخائرهم علاوة على استخدام جانب منه كنيسة لهم، كما جعلوا من أسفل المبنى حظائر لخيولهم وفقاً للتراث المسيحي أن النبي سليمان كان قد اتخذ من الجزء الجنوبي الشرقي منه اصطبلًا (191)، ومصدقاُ لذلك فإن أبا اليمن العليمي مؤرخ القدس والخليل المتوفى في أوائل القرن السادس عشر الميلادي يقول: " ولما تسلم السلطان صلاح الدين القدس أمر بإظهار المحراب داخل الأقصى، وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه هويا، وقيل اتخذوه مستراحا، وبنوا غربي القبلة دارا واسعة وكنيسة، فهدم ما قدام المحراب من الأبنية، ونصب المنبر، وأظهر المحراب، ونقض ما أحدثوه (192) "، وإضافة لذلك فإن ابن الأثير يقول عن صلاح الدين إنه: " أمر بعمارة المسجد الأقصى واستنفاذ الوسع في تحسينه... فشرعوا في عمارته، ومحو ما كان في تلك الأبنية من الصور...، وخلعوا الصليب، كما قاموا بإعادة الأبنية إلى حالها القديم...، وتطهير المسجد والصخرة من الأقدار والأنجاس... "، كما تم ترتيب المسجد وتنظيم إدارته " فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً (193) "، وتم غسل قبة الصخرة بماء الورد (194)، ولعلنا نجد جانباً من تلك العبارات وقد اتفق مع ما ورد عند المؤرخ النيوبري بشأن القدس .

أرجع المؤرخ صاحب المدونة مواقف صلاح الدين الكريمة تلك إلى: " إما أنه كان من منطلق الإنسانية، أم أنه كان لأجل مجده الشخصي، وفضلا عما سبق أظهر الرحمة بالمرضى الراقيدين في مستشفى القديس يوحنا المشهورة، وأمر بأن يجب أن توجه إليهم كل العناية المطلوبة حتى يتوفوا أو يتعافوا، ثم عهد بهذا الواجب إلى بعض الرهبان من دير المستشفى،

على أن يقوموا بواجبهم هذا في حرية وأمن كاملين(195)،" والواضح أنه هو ذلك المبنى الذي اتخذته طائفة الفرسان الإسطبارية مقرا لها، وكان قد أنشأه جماعة من الأمالفيين في عام 1070م. لينزل به الحجاج المسيحيون الفقراء، وقام على خدمتهم رهبان تحولوا إلى طائفة رهبانية مقاتلة في ظل الوجود الصليبي، وفي العقد السابع من القرن الثاني عشر الميلادي، لوحظ وجود مستشفين للجماعة بلغ اتساعهما معا ما يأوي أربعمائة من فرسان الإسطبارية عدا المرضى الذين يجهبون بكل ما يلزمهم في الحياة وبعد الممات، وفي العقد التالي وصف المبنى بأنه يضم إضافة إلى المستشفى كنيسة عرفت باسم كنيسة يوحنا المعمدان، وتم تجهيزه بالحجرات والأسرة حتى بلغ عددها ما يزيد عن الألف(196). وأياً كان الأمر فقد قدم المؤرخ الأدلة الدامغة على حسن تعامل صلاح الدين مع الطوائف المخالفة لدينه غير مرة، وعلى مضض منه برزت صورة هذا القائد المسلم مضيئة .

ومن الإجراءات التي اتخذت بالقدس وأشارت لها المدونة: " أنه بمجرد أن سقطت في يد صلاح الدين واستقر له الأمر فيها، قام بطرد سكانها الصليبيين، ثم تولى تقسيمها إلى مقاطعات قام بتوزيعها بين المقربين له.(197) "، وفي الواقع فإن ما اتخذته القائد من إجراءات في القدس بعد الفتح على هذا النحو الذي ذكره المؤرخ وليم لا يختلف كثيرا عن الواقع كما ورد عند المؤرخين المعاصرين - خاصة المسلمين منهم- مما يضيء على مؤرخنا المصدقية والموضوعية التي عهدناها فيه برغم التطاول والإيماءات التي أصدرها غير مرة، وقصد منها التشكيك في أن ما أقدم عليه صلاح الدين من أعمال خيرية ومعاملة طيبة للطوائف المخالفة لدينه كان من منطلق الدعاية الشخصية لنفسه .

وفيما يتعلق بمدينة صور، فقد ذكر المؤرخ أنها: " المدينة الوحيدة التي نجحت من السقوط في يد الأعداء، وهي مدينة عريقة طبقت الآفاق بشهرتها، وقاومت على مر الزمان أعظم الهجمات، إذ يذكر تاريخها أنها قد أجهدت القائد البابلي شديد البأس نبوخذ نصر (605 - 562 ق.م.)، كما قاومت القائد الهمام الإسكندر الأكبر(198)، وسببت له كثير من المشاكل. وفي هذه المرحلة أيضا كان لهذه المدينة أن تقع في يد صلاح الدين بالسهولة التي

سقطت بما بقية المدن إلا أن حكمة الله في ألا يذرى بكل شيء خاص ببقايا الصليبيين.....، وذلك حتى يجدوا لأنفسهم وللقادمين إليهم مأوى كي يلجأوا إليه، فحفظ لهم هذه المدينة(199)."، حيث اضطر صلاح الدين إلى تركها مؤقتاً، وأثر الانصراف إلى غيرها(200)، وحينئذ انكب أميرها كونراد أف مونتيفرات Conrad of Montferrat على تحصينها والدفاع عنها، وتوافرت أعداد كبيرة من الأوروبيين من دول شتى فيما وراء البحر لتنضم إلى الجيش الصليبي في صور؛ ولذا فقد أخذ موقفهم يتحول من الدفاع إلى الهجوم ضد المسلمين القريبين خارج المدينة. وراح المؤرخ يروي على مدى صفحات ما وقع من أحداث في المعسكرين الصليبي والإسلامي حول المدينة تمهيدا لوصول الحملة الصليبية الثالثة(201).

وفضلاً عما تناوله وليم أف نيوبره من تأريخ لمملكة بيت المقدس اللاتينية ومدنها الرئيسية بعد واقعة حطين، نجد لديه بعض الاهتمام بالتأريخ أيضاً لجانب من الكيانات الصليبية الأخرى في الشام، ففي إمارة طرابلس تعرض إلى السياسة التي اتبعها صلاح الدين حيال تلك الإمارة، حيث حظيت في الوقت ذاته في نظره بوضعية خاصة؛ ففي حين سجل أنه عمد إلى تدمير مملكة بيت المقدس، نجده وقد عفا عن طرابلس ورحمها من ضرباته بناء على عهد بينه وبين أميرها. ولم ينس المؤرخ أن يسجل شيئاً عن مصير ريموند الثالث أمير طرابلس، فذكر أن ريموند ومعه رينالد Reginald سيد صيدا دخلا إلى مدينة صور وسط قلة من أتباعهما أثناء انشغال أهلها بتحسينها " كما لو كانا يطلبان اللجوء إليها وربما بغرض الدفاع عنها"، في حين كانت النية مبيتة على تأليب الأهالي ضد حاكمها كونراد أف مونتيفرات أو الاستيلاء على القلعة، ولكن سرعان ما انكشف أمرها؛ وحينئذ أدرك ريموند عاقبة حياته، وندم على ما اقترفه من آثام؛ فعاد إلى طرابلس حزينا في حالة أشبه بالجنون، ومات كمدأ، فاختر أهلها بوهموند الثالث أمير إنطاكية سيدا عليه (202)، وبينما يذكر مؤرخنا ذلك إلا أن دراسة متخصصة تذكر أن ريموند الابن الأكبر لبوهموند الثالث تولى طرابلس بموجب وصية ريموند الثالث قبل وفاته (203)، بيد أن بوهموند الثالث كان

محتاجا لجهود ابنه البكر ريموند للدفاع عن إنطاكية، فأرسل ابنه الآخر بوهيموند الرابع لحكم طرابلس (1187 - 1233م).

وخارج مملكة بيت المقدس أيضاً حيث إمارة إنطاكية، ذكر المؤرخ أن صلاح الدين تمادى فيما خطط له؛ فتحول سريعاً صوب أراضي إنطاكية، وتمكن من تقويض سلطان الأمير بوهيموند الثالث في تلك الجهات " إلى حد أنه بعد استيلائه على اللاذقية ومدن الإمارة الأخرى لم يترك له أي ممتلكات تقريباً خارج أسوار إنطاكية(204)", وتؤكد الأحداث هذا الأمر، فمن الثابت أن صلاح الدين قام باختراق حدود إمارة إنطاكية غربي نهر العاصي، وتمكن من إسقاط عدة مدن وقلاع مهمة خلال صيف عام 1188 م كان من أبرزها: جبلة وحصن صهيون وأفامية، ووصل إلى جسر الحديد خارج أسوار إنطاكية من جهة الشمال، كما استسلمت حامية فرسان الداوية في قلعتي دريساك وبغراس، ولم يبق إلا فتح إنطاكية نفسها التي عزم صلاح الدين على مهاجمتها، إلا أن بوهيموند راسله طالباً عقد الهدنة معه على أن يطلق كل أسرى المسلمين في إنطاكية(205)، ومن ثم ظل مصير الإمارة الصليبية- كما صوره مؤرخنا- مدينة بلا عمق يحميها يتمثل في الأراضي التابعة لها. وهكذا فإن مؤرخنا وليم يقدم فيما يخص التأريخ للمدن الشامية مادة تاريخية إضافية جديرة بأن توضع في الاعتبار عند تقييم ودراسة الحروب الصليبية حيث إمارتا طرابلس وإنطاكية الصليبيتين، وإن كان الباحث قد عمد إلى عرضها بإيجاز لتخطيطها الحدود الزمنية المحددة للدراسة .

وبين طيات كتابات المؤرخ التي تغلب عليها الجوانب السياسية نلمس فيها أحياناً ما يمس الجانب الاجتماعي، ومما يخص الكيان الصليبي في الشرق نجد المؤرخ في الفصل الخامس عشر بالكتاب الثالث(ولعله يعد أكثر فصول المدونة تحليلاً وتقييماً لحال الصليبيين هناك) يتعرض لإحدى الظواهر المهمة، وفيها عمد إلى تقديم رؤيته الخاصة لمجتمع الصليبيين في بلاد الشام معتبراً أن ما آلت إليه أحوالهم من تردى كان السبب في انهيار سلطانتهم؛ حيث ذكر أن الأرض المقدسة لفظتهم وطردهم بعد مرور ما يزيد عن السبع وثمانين عاماً من إقامتهم

فيها كما فعلت مع الأمم العاصية السابقة، وأرجع سبب ذلك إلى ما اقترفوه من انتهاكات في حق المسيحية، وحدد في اتهامه هذا صراحة أولئك الصليبيين الذين يعرفون باسم البولانيين Pullani، معرفاً إيّاهم بأنهم: "هم المسيحيون اللاتين الذين سكنوا في الأصل الأراضي المقدسة بعد الغزو، وما لبثوا أن تأثروا بالمسلمين كثيراً بحكم الاحتكاك وقربهم منهم؛ ولذا لم يختلفوا كثيراً عنهم في العقيدة أو الأخلاقيات، وظهروا على أنهم نوع من الكائنات المحايدة بين المسيحيين والمسلمين من السكان"؛ الأمر الذي أدى في نظر المؤرخ إلى تدنيس أرض الله، أما فيما بعد- أي وقت تدوين المؤرخ لهذه الأسطر- فقد صار المسيحيون أكثر إخلاصاً، بيد أنهم من أمم شتى فبدوا "معزولين ومترفين ومسرفين ومقلدين وممثلين... فضلاً عما شاهدهم من عادات وتصرفات منكرة (206)". على هذا يبدو صاحب المدونة مؤرخاً موضوعياً وناقداً للمجتمع الصليبي، حيث وضع يده على جانب من المؤثرات والمتغيرات فيه، كما بدت رؤيته متشائمة تجاه هذا المجتمع سواء أقبل حطين أم بعد ذلك، فإذا ما كان البولانيون في نظره قد تسببوا في الانهيار الاجتماعي فإن حال الصليبيين بتشتتهم وتفسخ أخلاقهم وتعدد انتماءاتهم لا يجعلهم أحسن حالا من سابقهم الرومان. وما من شك أن مؤرخنا على هذا النحو قدم نموذجاً رائعاً لأسلوب تفكير الأوروبيين تجاه قضية الصليبيين وإخوانهم اللاتين في الشرق أواخر القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري، كما أكد على أنه ناقد اجتماعي وتاريخي جيد قادر على تسجيل الظواهر الاجتماعية والنفاذ إلى أغوارها ومسبباتها وما يترتب عليها من نتائج .

أما فيما يخص المجتمع الإسلامي عصر الحروب الصليبية فقد أدلى المؤرخ فيه بدلوه أيضاً، ففي الفصل الرابع والعشرين من الكتاب الرابع (207) يتحدث عن ظاهرة أثرت وألقت بظلالها عسكرياً وسياسياً على منطقة الشرق الأدنى بما حوت من كيانات إسلامية وصليبية؛ حيث روى: "مما يذكر أنه قد كان هناك في الشرق عنصر بشري ما خاضع تحت سطوة مسلم قوى النفوذ يدعونه الرجل الشيخ، وبلغ خضوعهم له حداً أنه تمكن من إقناعهم بالتضحية بأرواحهم، ومن ثم فقد نجح هذا الرجل في إغوائهم بأمكر الأساليب

الحروب الصليبية - حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى

والوعود الزائفة حتى اعتبروه بمثابة رسول يوحى إليه؛ واعتقدوا أنهم سيحصدون ثواب ذلك في حنة النعيم في الآخرة إذا أطاعوا أوامره في الدنيا. وحينما كان هذا الرجل يستشعر وقوع هجوم من أحد القادة الأقوياء ضده أو مجرد توجسه من التعرض لهذا الخطر، كان على الفور يرسل قتلة ممن - تنطبق عليهم المواصفات السابقة- بعد تحريضهم على التخلص منه بصفته عدوا حتى يفسح أمامه الطريق، ولم يكن لدى هؤلاء الأشخاص أي مأرب أو طموح سوى تحين الفرصة المواتية لتنفيذ الأوامر على أكمل وجه؛ فقد كانوا يعرضون أنفسهم للخطر، بل والموت أثناء قيامهم بمهمة اغتيال الشخصيات المحددة لهم، وكانوا يتبارون إلى إتمام ذلك في بحة كما لو كانوا يسارعون إلى مأدبة، ونظرا لأنهم كثيرا ما تأخذهم الجراءة عندما لا يكونون تحت المراقبة الدقيقة فيبادرون بالنفاذ من بين الحراس للقضاء على شخصية مرموقة؛ فقد احتاط الأمراء- المسلمون بصفة خاصة منهم- بأن أحاطوا أنفسهم بحراسة شديدة واعية، ولم يسمحوا إلا لأقرب المقربين إليهم من الدنو منهم إلا وهم في وسط حراسهم الخاصين، أما ملوكهم فلم يفرضوا على الرجل الشيخ الجزية، كما لم يجبروه على الطاعة لهم؛ إذ كانوا حريصين على ألا يعكروا صفوه بأي حال من الأحوال(208)". ولعل الرجل الشيخ هذا هو لقب كل من يتولى قيادتهم وكان اسم أولهم حسن الصباح زعيم طائفة الإسماعيلية الحشيشية(209)، ولما كان تأثيرهم عظيما في تلك الفترة اهتمت المدونة بذكرهم، كما استفاد المؤرخ المعاصر وليم الصوري بذكر جانب من أخبارهم ملقبا مقدمهم شيخ الجبل(210) .

أما عن الأسلوب الذي اتبعه القادة الصليبيون في تعاملهم مع طائفة الحشيشية فتوضحه المدونة على النحو الآتي: "وخلال فترة قوة الصليبيين في الشرق لم يجزؤ على التصدي لهذا الرجل وكان آنذاك يدعى سنان سوى رجال طائفة الداوية وحدهم- لما عرف عنهم من تفران إلى حد الموت في الهجوم- حتى أجبروه على إبرام معاهدة بالخضوع لهم"، ويفسر المؤرخ نجاح الداوية المذكور بما لديهم من حسن تنظيم، فيذكر أنه: "إذا ما اغتيل مقدمهم فهذا لا يترك أثرا كبيرا عليهم، إذ سرعان ما ينصبون من يحل محله، وسوف

يشورون أكثر وبانتقام أشد لذلك الذي فقدوه(211)", ويضيف المؤرخ في استفاضة أنه على الرغم من عدم التعرف بشكل واثق على الجهة التي اغتالت الأمير كونراد أف مونتيفرات بالتحديد إلا أنه يعتقد في أن الحشيشية هم الذين نفذوا تلك الجريمة ربما بإيعاز من جهات أخرى، وهذا الأمر لم ينجلي حتى حينه (أي حتى وقت تسجيل المدونة)؛ نظرا لأنهم أثناء التحقيق معهم أظهروا عدم المبالاة لما ينتظرهم من مصير، ولم يكن الموت رادعا لهم للإقرار بالحقيقة(212).

وكما عثرنا للمؤرخ وليم أف نيوبره في الفصل الرابع عشر من كتابه الخامس - وهو الكتاب الأخير - على ما كان جديرا بأن نستهل به وقائع هذه الدراسة؛ حيث جاء في أواخر المدونة بفقرات خصصها للحديث عن تأسيس الدولة الإسلامية إيذانا ببدء الحروب الصليبية بعد صدامها مع الغرب، فقد عثرنا فيه أيضا على ما نجده مناسبا كي يوضع في خواتيمها؛ نظرا لأن الأسطر الآتية تتعلق باقتصاديات المجتمع الصليبي، وفيها يقول المؤرخ: "أما صلاح الدين الذي كان بمثابة المطرقة لكل من هو مسيحي منذ بضع سنوات خلّت، فعندما أخذ في الاستعلاء عن حالة البحارة من قومنا [الأوروبيين]، وسمع بأنهم في العادة يأكلون أنواعا عدة من اللحوم في وجبة العشاء، قال: إن هؤلاء الناس ليسوا جديرين بأن يحظوا بالأرض المقدسة، نظرا لأنه حينما وقف على حقيقة رفاهية شعبنا فقد كان مدعاة لإثارة حفيظة المسلمين ضدنا، إذ كانوا هم أصحاب السبق في قوة اقتصادنا، الأمر الذي جعلهم يقولون: لعن الله هؤلاء الرجال المنعمين الذين يجب القضاء عليهم؛ إذ ليس هناك رجاء في هدايتهم(213)". ولهذا العبارة مغزاها فهي تبين إلى حد تأثر المجتمع الأوروبي إيجابياً باحتكاكهم بالمسلمين، حتى اعترف مؤرخنا بأن المسلمين هم أصحاب الفضل في انتعاشهم اقتصاديا، ومن ثم ارتفع مستواهم المعيشي، حيث اعتادوا على أكل صنوف عدة من اللحم جراء معاشة المسلمين في الشرق على هذا النحو، ولمستواهم المترف صاروا هدفا أمام المسلمين للقضاء عليهم، وفي الواقع يعد تناول المؤرخ بشكل إجمالي لبعض جوانب المجتمع الصليبي وطائفة الحشيشية في بلاد الشام تدعيما لموقفه حين الحكم عليه مؤرخا

للحروب الصليبية. وبالرغم من أن رؤيته للمجتمعين الصليبي والإسلامي في الشرق كانت من بعد، إلا أنها تعد بحق رؤية طائر؛ لاتصافها بالشمولية والدقة، إذ ظهر المؤرخ فيما دونه من ظواهر اجتماعية ودينية واقتصادية- فضلا عمّا دونه كذلك في النواحي السياسية- محملا وناقدا لما وصل إلى مسامعه، وما قرأه من أخبار الشرق اللاتيني، وقد وضعه ذلك في زمرة المؤرخين المعاصرين الجديرين بالتقييم.

الخاتمة:

وبعد الدراسة التي قُدِّمت عن هذه المدونة التاريخية لصاحبها وليم أف نيوبره يمكن الخروج منها ببعض الانطباعات، وهي تشمل الشكل والأسلوب والصياغة والمضمون، بل تطول تقييمًا للمؤرخ وكتابات، وإلى أي حد نجح أو أخفق في تقديم المادة التاريخية. بادئ ذي بدء- والحديث على العموم- نجد أن وليم أف نيوبره لم يكن دقيقًا فحسب في أسلوب كتابته، إنما بلغ من التدقيق الحد الذي يقرن به مع المؤرخين أصحاب الكتابات الأكثر تطورًا في عصره؛ فكثيرًا ما استخدم النهج النقاد بأن حاول إخضاع الكتاب السابقين عليه والأحداث التاريخية المعاصرة إلى التحليل والنقد، كذلك قدم مادته في موضوعية، بحيث غلبت عليها روح البحث العلمي، كما اصطبغت بالسرد في بساطة، ولكن كان يراعي في سرده أن يضعه في ثوب تاريخي، فضلا عن محاولته أن يكون منصفًا عند معالجة الأحداث والقضايا التاريخية القابلة للنقاش والجدل (204) وعلى الرغم مثلا من اختصاصه لقادة المسلمين- وعادة ما كان يذكرهم بسوء- إلا أنه انتقد الصليبيين واللاتين وبعض قادتهم بشدة وكَيَّل لهم التهم، وأظهر السخط عليهم في عدة مواقف. وما من شك أن الظروف التي سجل فيها مدونته كانت مهيأة بالنسبة له كي تجعل منه مؤرخا على هذا الجانب من الحيطة والنزاهة؛ فقد جاء عمله استجابة لتكليف من أرنولد رئيس الرهبان، وليس من قبل حاكم أو منتفع سياسي أو إقطاعي آخر، فتحرر من الكتابة التاريخية الموجهة، لذا فقد نجح في إخراج هذا العمل بغرض طرح العبر والعظات على الأجيال التالية، فبدأ مؤرخنا واعياً لدوره متفهما لأسس فائدة علم التاريخ بشكل تلقائي، وقدم العبر من واقع التجارب السابقة، وعليه فقد

نجح في تأدية وظيفته التي أوكلت إليه لإنجازها.

ومما يُذكر للمؤرخ أنه صنف نفسه بشكل غير مباشر على أنه مؤرخ إنجليزي من واقع إبراز جذوره في المعرفة التاريخية، ومن خلال اهتمامه بالتراث الإنجليزي بداية من العصر الروماني فالمسيحي فالأنجلوسكسوني فالنورماني. أما بالنسبة لموضوع الدراسة فإنه حدد غير مرة مصادر التي كان يستقى منها معلوماته، وهذا يتضح على سبيل المثال في أحداث مصرع ريموند أف بواتيه أمير إنطاكية عام 1149 م. نقلا عن أحد رجال الدين المعاونين للأمير عند إيابه إلى الغرب، وقابله المؤرخ في شبابه. كذلك نجده يشير في أحداث الجولة الثانية للملك عموري الأول على مصر أن مادتها التاريخية قد نقلت سمعا عن رجال كانوا في المعسكر الصليبي وشاركوا جيش الملك في تحركاته ومعاركه داخل مصر. كذلك تكرر عند المؤرخ التعرض إلى وقائع ترجع إلى العصر القديم، كانت قد وردت عند المؤرخ هيرودوت والمؤرخ يوسيبوس القيصري.... الخ، مما يؤكد على كلاسكية ثقافته وتعليمه.

إضافة لذلك وفيما يختص بتسجيل التواريخ يلاحظ أن المؤرخ النيوبري كان مقلا في ذكرها، إذ انحصر اهتمامه بإيراد تاريخ الأحداث الكبار مقرونة بالتاريخ الميلادي (ولادة السيدة العذراء للسيد المسيح) أو باعتلاء ملوك إنجلترا عروشهم أو بمناسبة دينية بارزة كذكرى الرسل والقديسين. ولم يقف المؤرخ موقف المسجل فقط للأحداث، إنما قام بتحليل بعض جوانبها والوصول إلى جوهر ما يجري بشكل عام. ولما كان مؤرخنا مقيماً في الغرب فتحسب له تلك الرؤية الجلية رغم بعده عن الساحة، ويتأكد هذا فيما اتبعه من رصده للأحداث، بيد أن تلك الظروف كانت وراء وقوعه أحيانا في زلات، يمكن أن نعدها أمورا طبيعية ومعتادة عند نظائره من المؤرخين المعاصرين.

ومن أبرز ما يتصف به المؤرخ في كتاباته أنه التزم ما أمكنه بالسياق التاريخي في الموضوعات الرئيسية التي تناولها عن الحروب الصليبية، منذ أحداث الانخراط في الحملة الصليبية الأولى وصولا إلى سقوط الرها 1144-1146 م فخروج الحملة الصليبية الثانية حتى فشلها من 1147-1149 م، ثم سقوط عسقلان 1153 م،، فحملات الملك

عموري على مصر، وأحوال كل من المسلمين والصليبيين في الشرق وصادمهما الحربي، انتهاء بموقعة حطين 1187 م. وما تبعها من الفتوحات للمدن الصليبية. غير أنه من الضروري الإشارة إلى أن السياق التاريخي لم يراع في العديد من النقاط الجزئية أو التفصيلية، وهذا يتضح في التعريف بالشخصيات العامة التي يكتمل تعريفها عند المؤرخ متأخرا، وذلك بعد الحديث عن جانب واحد أو جوانب متعددة من الدور السياسي أو الحربي الذي قامت به تلك الشخصيات. ومن ذلك تعرضه إلى شخصية كل من: نور الدين محمود والملك عموري الأول وريموند الثالث صاحب طرابلس وصلاح الدين الأيوبي والملك جي لوزينان. وهذا الأمر يندرج أيضا على الأحداث التاريخية، ومنها التأخر في التعرض لأحداث الغزو الصليبي لمدينة الرها، حين شرع في الحديث عن أحداث الحملة الصليبية الأولى، ورأى أن يؤجل ذلك إلى حين حديثه عن سقوط الإمارة قبيل الحملة الصليبية الثانية؛ بصفة أن الأمرين يشكلان وحدة موضوعية قائمة بذاتها، فالحملة الصليبية الثانية في نظره لم تأت إلا كرد فعل على سقوط الرها.

كذلك نجد المؤرخ وقد أدخل بالسياق التاريخي في بعض المواضع، ولكن قد يكون فيها ما يبرره؛ إذ دون وفاة الملك عموري من حيث الترتيب قبل تدوينه لوفاة نور الدين محمود، وربما يرجع ذلك إلى حرصه أيضا على الوحدة الموضوعية بأن ربط حدث وفاة نور الدين بموضوع توحيد الجبهة الإسلامية على يد خلفه صلاح الدين. وفي موضع آخر نجد المؤرخ قد أرجأ الحديث عن أحوال مملكة بيت المقدس الداخلية إلى ما بعد الحديث عن معركة حطين وسقوط القدس 1187 م.، ولعل مبرره الكامن في ذلك هو إرجاعه وقوع حدث السقوط إلى الأحوال السيئة التي آلت إليها المملكة في أواخر عهدها، ونتيجة لها. وبصفة عامة فقد يكون عدم الالتزام بالسياق التاريخي هو أبرز ما قد يؤخذ على المدونة، مع ضرورة الأخذ في الاعتبار وجهة نظر المؤرخ فيما دون.

وما يميز الكتابة التاريخية عند المؤرخ أنه اعتاد أحيانا أن يسبق عرضه للأحداث الخاصة بإمارة أو إقليم في الشرق بوضع تمهيد تاريخي له يتصف بالإيجاز يمتد من العصر القديم

وصولاً إلى فترة الصراع الإسلامي الصليبي، وهذا واضح في عرضه لتاريخ الرها القديم وفضلها على المسيحية ونضالها الديني وصمودها أمام الفتوحات الإسلامية حتى الغزو الصليبي، كما يتضح في عرضه لتاريخ مصر القديم والإشارة إلى بابل ونيوى (عاصمة مملكة آشور) وكمبيز الفارسي وإلى خصائص الدولة الفاطمية التي عبر عنها بساذجة عند مقارنتها بدولة الأتراك، وهذا بالطبع ينم عن ثقافة تاريخية كان المؤرخ قد ألم بها ربما أثناء حياته الديرية.

وقد ثبت من خلال أكثر من موضع على مدى هذه الدراسة أن المؤرخ تميز بأنه اتخذ من الإيجاز في الكتابة منهجاً حتى لو توافرت لديه المادة التاريخية إدراكاً منه بطبيعة وهدف ما يقوم به من عمل علمي، ومن ذلك الاكتفاء بالإشارة إلى فشل الحملة الصليبية الثانية بعودة الملكين كونراد الثالث ولويس السابع إلى بلادهما بلا مجد يخلد ذكراهما دون الدخول في تفاصيل إخفاق الحملة أمام دمشق. كذلك دمج لوقائع حملات الملك عموري المتعددة على مصر في جولتين - ربما لتشابهها - بشكل لا يخل معه سرد الوقائع المختلفة باختصار. وأيضاً نجده قد اكتفى بالتعرض إلى محاولة ريموند الثالث أمير طرابلس وبوهيموند الثالث أمير إنطاكية الانتفاع من الحملة الفلمنكية (1177 م./أما حين الوقوف على مسببات كارثة حطين بالنسبة للصليبيين فقد استعان المؤرخ بكلمات مقتضبة لتوضيح ذلك، إذ أبدى امتعاضه من القيادة من خلال وصف جي لوزينان بأنه أحمق، وأنه الملك الذي عينته امرأة، كما أشار إلى أنها شاركته في سوء تقدير الموقف لتركهما مدن المملكة بلا عظام أي بدون المدافعين عنها.

ومما يمكن تسجيله من ملاحظات على الكتابة التاريخية في المدونة أن المؤرخ اعتاد على إبداء الاهتمام بذكر ما يتعلق بجهود الحكام والأمراء العلمانيين بدرجة أكبر من اهتمامه برجال الدين، وهذا واضح فيما دونه عن الحملة الصليبية الأولى بإبراز دور روبرت أمير نورمانديا دون التوقف عند ما لعبته البابوية من دور أساسي في الدعوة لها. وأيضاً يلاحظ أن المؤرخ اهتم أثناء تسجيله لأحداث الحملة الصليبية الثانية بدور ملكي ألمانيا وفرنسا، في حين أغفل ما لعبه القديس برنارد أف كليرفو والبابا يوجينيوس الثالث من دور في قيامها. ولم يرد

ذكر لأي من بطاركة بيت المقدس سوى ذكر البطريك هرقل الذي دخل في دائرة الضوء عند المؤرخ بسبب زيارته للملك الإنجليزي هنري الثاني في إنجلترا، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان من اللافت للنظر ميل المؤرخ واهتمامه بإبراز دور طائفة فرسان الداوية دون طائفة فرسان الإسطارية في الأحداث حتى لو كان دورا سلبيا رغم عظم دوريهما العسكري، ويعتقد الباحث أن ذلك كان نتيجة لارتباط طائفة الداوية الروحي بأمر خاصة بالتاج الإنجليزي ولأسباب دينية وشخصية ونفسية تخص الملك هنري الثاني.

وفي العادة ما استخدم المؤرخ أسلوبًا رصينًا عذبًا به بعض المحسنات البلاغية، إضافة إلى جنوحه إلى التعبير بعبارات مختصرة تضم معاني دفيئة لها مغزاها، وهذا واضح في النص الإنجليزي الذي بين أيدينا، رغم أنها لغة وسيطة ليست باللغة الأم وهي اللاتينية، ومن ثم فالمفترض أن الكتاب بلغته الأصلية قد يحمل بشكل أوضح تلك المحسنات. من ناحية أخرى فقد تكرر عند المؤرخ - شأنه في ذلك شأن بقية المؤرخين المعاصرين له - الارتكان إلى أمثلة من العهدين القديم والجديد لا تخلو من تفسير خاص به تمشيا مع الأحداث التاريخية في عصر الحروب الصليبية، وقد أشار الباحث في دراسته إلى جانب منها فقط. وقليلًا ما نجد في كتابات المؤرخ الجوانب الأسطورية أو الأمور الخارقة للعادة التي ربما تكون واضحة في كتابات غيره من المعاصرين، ومن ذلك الإشارة إلى ورود أعداد كثيفة من الخنازير البرية بشكل فجائي لقمة سائغة إلى معسكر الجيش الصليبي تحت قيادة الملك عموري خلال حملته الثانية على مصر وعلى ضفاف النيل. أما حينما تناول مرحلة بعثة الرسول والفتوحات الإسلامية فأطلق لنفسه العنان في اختلاق أو ترديد قصص ليس لها أساس من الصحة، بحيث وصمت كتاباته بالأسلوب المتبذل في هذا الاتجاه.

وخلاصة القول أنه بعد معالجة سكوت ماكلتشي لنص مدونة وليم أف نيوربه التاريخية ومساهمته الفعالة في جعلها ميسورة في متناول المؤرخين المحدثين والباحثين المهتمين بالتاريخ الأوروبي الوسيط وتاريخ الحركة الصليبية في الغرب والشرق، أصبح ضروريا أن توضع في قوائم المصادر التي ينبغي الرجوع إليها؛ نظرا لما تتضمنه من مادة تاريخية أصيلة ومدققة، معاصرة

للفترة الزمنية الواقعة بين 1066 - 1197 م. وعلى الرغم من أن المادة ذات الصلة بموضوع الحروب الصليبية في الشرق الخاصة بفترة (1099 - 1187 م.) لم تكن على ذات درجة الاهتمام مقارنة بالمادة المتعلقة بالتاريخ الإنجليزي والأوروبي في الحقبة ذاتها في المدونة، إلا أنها بعد فحصها أثبتت أنها مادة مهمة وبها ما يسد بعض الثغرات الماثلة في المصادر اللاتينية الصليبية الأخرى ويكملها أو يؤكدتها. وعلى سبيل المثال فرغم الفارق الواضح بين إيجاز وليم أف نيوبره وإسهاب وليم الصوري في تناوليهما للأحداث والشخصيات الصليبية في الشرق إلا أن الأول لديه ما يضيفه أو ينفرد به أو يؤكد على حدوثه في كتابات المؤرخ الثاني كما أوضحت الدراسة. ولا يعنى إيجاز مؤرخنا للأحداث أن الرؤية لم تكن واضحة عنده، مما يستوجب التقليل من شأن مدونته، إنما كان إيجازه في تناول موضوعات البحث بمثابة أسلوب معتمد عنده في الكتابة، ويتضمن بين طياته الدلائل على أن المؤرخ بذل جهداً واضحاً في تدوين مؤلفه، كما أنه كان مطلعاً على كثير من الأمور التي تخص اللاتين في الشرق رغم بعده الجغرافي، وعليه فإن ذلك من شأنه أن يضعه ضمن المؤرخين الأساسيين المعاصرين الذين تناولوا الحركة الصليبية في الشرق. ذلك عرض عن المؤرخ وليم أف نيوبره كمؤرخ للحروب الصليبية في الشرق الأوسط فيما بين عامي 1099، 1117 م.

الهوامش

(1) William of Newburgh, *Historia Rerum Anglicarum*, ed. Howlett, R., in *Chronicles and Memorials of the Reigns of Stephen, Henry II, and Richard I*, 2 vols, RS no. 82, London, 1884 -1889.

(2) William of Newburgh, *the Church Historians of England*, vol. IV, part II, translated by: Joseph Stevenson (London: Seeley's, 1861); the electronic form of this presentation is © 1999 by Scott McLetchie, in: *Internet Medieval Sourcebook*.

وقد شمل التعديل تصنيف وتقسيم الفقرات الأصلية بإضافة الأرقام لها، كما تم إحلال وتبديل في حروف الكلمات الإنجليزية القديمة.

(3) وضع القديس بنديكت **Benedict** أسس الرهبنة الغربية في عام 529 م.، وخلال عدة أجيال شُرعت عدة قوانين لتنظيم العلاقات بين الرهبان فيما يعرف بحركة الحياة الديرية المنتظمة، وقد اتبع هؤلاء جميعاً قاعدة للحياة يُعتقد أن واضعها هو القديس أوغسطين المتوفى عام 430 م.، ومن ثم جاءت التسمية المعروفة بقوانين أوستين الكنسية **Austin Canons** نسبة إليه، وهى التى غدت ركيزة الفكر المسيحي الغربي لما يزيد عن الألف عام. انظر كولتون، ج.ح.: *عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة*، ترجمة وتعليق: جوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989 م.، ص 173 - 174؛ كريستوفر دوسن: *تكوين أوروبا*، ترجمة ومراجعة: سعيد عاشور، محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1967 م.، ص 54، 75 - 77، 251 - 252.

(4) Blakeley, L., Brian & Collins Jacquelin, *Documents in British History, (Early Times to 1714)*, 2 Vols., 2nd ed., London, 1993, vol. I., p.50 .

(5) *Catholic Encyclopedia*, ed. www.New.advent.org,

Art. William of Newburgh.

(6) ولد فولشر بمدينة شارتر بفرنسا في الفترة الواقعة بين سنتي 1058 - 1059 م.، واشترك في الحملة الصليبية الأولى في شهر أكتوبر سنة 1096 م.، وكان مرافقا للملك بلدوين أف بولون Baldwin of Boulogne، وأقام معه في الرها حيث كان يحكمها نحو عامين، ثم انتقل معه إلى بيت المقدس وبقي ملازما له حتى وفاته في عام 1118 م.، ثم مكث فولشر في بيت المقدس حتى عام 1127 م. راجع :

Fulcher of Charters, A History of the Expedition to Jerusalem, trans. by Frances Rita Ryan, (ed.) with an introduction by Harlod Fink, Konville, U.S.A., 1969, bassim .

(7) William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, 2 Vols., trans. by Babcock and Krey, New York, 1943.

ولد وليم الصوري في بيت المقدس سنة 1130 م.، وهو ينتمي لأسرة فرنسية شاركت في الحملة الصليبية الأولى، وقد عاش وليم الصوري فترة شبابه في الشرق اللاتيني، وأتقن اللغة العربية واليونانية واللاتينية والفرنسية، نهل العلم من مدن: باريس، وشارتر، وأورليان، وعاد بعد عشرين عاما إلى الأراضي المقدسة، عمل في خدمة ملوك المملكة، كما أخذ يترقى في المناصب الكنسية حتى صار مستشارا للمملكة الصليبية ورئيسا لأساقفة صور عام 1174 م.، ولذا كلف بمهام رسمية وسفارات مهمة، وفي عام 1180 م. حدثت تغيرات سياسية أحاطت بآماله في اعتلاء منصب بطريك بيت المقدس، وفي أغلب الظن مات المؤرخ في عام 1184 م. أنظر:

Edbury, P.W., William of Tyre, A History of the Crusades and the Kingdom of Jerusalem (1130-1184) , in: Bulletin of the Faculty of Arts in Alexandria University, 1988, pp.43 - 52.

راجع أيضا: عمر كمال توفيق: المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، عدد 21، 1970 م.، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1969 م.، ص 18 - 20.
(8) برنارد هو وكيل خزانة القديس بطرس St.Peter في دير كوربي Corbie بفرنسا كما يجزنا في آخر سطور الكتاب، ووضع الكتاب استنادا إلى مخطوط مفقود وضعه شخص يدعى إرنول بعنوان "حروب صلاح الدين" التي تحتل جزءا كبيرا من الكتاب، ويتوقف الكتاب عند عام 1231 م. انظر:

Ernoul, La Chronique d'Ernoul & de Bernard le Trésorier, ed. Mas-Latrie, Paris, 1871, p.472 .

(9) Roger of Hovden, Annals of Roger of Hovden, The History of England and of other countries of Europe from 732 to 1201 A.D., trans. From the Latin with notes and illustrations by Henry, T.Riley ,

(10)Vols., London, 1853 .

وينتسب روجر إلى هوفدن Hovden وهي إحدى قرى يوركشير Yorkshire الآن، وقد عمل روجر أستاذا للاهوت ودخل في خدمة الملك الإنجليزي هنري الثاني قسيسا للقصر، كما عمل أمينا لسر الملك، وقد جمع في كتابه بين ما نقله عن المؤرخين الآخرين، وما دونه هو بنفسه، ويلاحظ أنه أولى اهتماما بالأحداث في الأراضي المقدسة، ويلاحظ تدقيقه فيما كتبه هو بنفسه منذ عام 1155 م. انظر:

Ibid, vol. I, pp.I-XII.

(11)William of Newburgh, Op.Cit., Introduction .

(12) Catholic Encyclopeadia, Op.Cit.

وقد تعرضت الجزائر البريطانية فيما بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس الميلاديين لموجة أولى من الغزوات الجرمانية (الأنجلو - سكسون)، ولما نشب الصراع ضد أهل البلاد تحت قيادة المناضل آرثر تمكن من إحراز سلسلة من الانتصارات عليهم مما أبرز

شخصيته بين شعبه في شيء من الخيال بعد أن انتزع إعجابهم الشديد به. راجع: محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990 م.، ص 121 - 122.

. William of Newburgh, Op.Cit., Introduction.

(14) وضع هذا الفصل تحت عنوان: "عن محمد الرسول المزعوم وعن القانون الذي قدمه من خلال روح الخطأ، وكيف أصاب نفس هذا القانون العديد من الأمم بالعدوى". أنظر: وذلك يدل علي تعصبه الأعمى ضد أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام .

Ibid, bk. 5, ch. 14: 1 - 12.

المقصود به بابا روما الشهير جريجورى الأول الذي تولى الكرسي الرسولي ما بين 590 - 604 م.

(15) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 5, ch. 14: 1, 3.

(11) William of Newburgh, Op.Cit., Introduction .

(12) Catholic Encyclopeadia, Op.Cit.

وقد تعرضت الجزائر البريطانية فيما بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس الميلاديين لموجة أولى من الغزوات الجرمانية (الأنجلو - سكسون)، ولما نشب الصراع ضد أهل البلاد تحت قيادة المناضل آرثر تمكن من إحراز سلسلة من الانتصارات عليهم مما أبرز شخصيته بين شعبه في شيء من الخيال بعد أن انتزع إعجابهم الشديد به. راجع: محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990 م.، ص 121 - 122.

(13) William of Newburgh, Op.Cit., Introduction.

(14) وضع هذا الفصل تحت عنوان: "عن محمد الرسول المزعوم وعن القانون الذي قدمه من خلال روح الخطأ، وكيف أصاب نفس هذا القانون العديد من الأمم بالعدوى". انظر:

Ibid, bk. 5, ch. 14: 1 - 12.

المقصود به بابا روما الشهير جريجورى الأول الذي تولى الكرسي الرسولي ما بين 590 - 604 م.

(15) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 5, ch. 14: 1, 3.

(16) جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام، الطبعة الثالثة، إسكندرية، 1971 م.، ص 97-107.

(17) نسبة إلى السيدة هاجر زوج إبراهيم - عليه السلام- الذي أنجب منها إسماعيل - عليه السلام- ومما قيل عنه أنه من المستعربة، وتعد قبيلة بنى إسماعيل من جرهم التي أقامت في مكة، والقبيلة تنقسم إلى عمارات ومنها قريش، والعمارة تنقسم إلى بطون مثل بطن بنى عدي، وتنقسم البطن إلى أفخاذ مثل فخذ بنى هاشم وبنى أمية، وينقسم الفخذ إلى فصائل كفصيصة بنى العباس، عم الرسول عليه الصلاة والسلام. انظر: القلقشندي، (ت 821 هـ./1411-1414 بو العباس أحمد بن علي بن أحمد عبد الله: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإيبارى، طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1405 هـ./1984 م.، ص 11-14.

(18) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 5, ch.14: 1 - 3.

(19) Ibid, bk. 5, ch.14: 3 -7.

(20) وهنا إشارة واضحة من المؤرخ إلى سماح الإسلام بتعدد الزوجات الذي أعده شهوة جسدية من قبيل الزنا.

(21) Loc.cit.

(22) حمل سبريان لقب قديس، ولد في أسرة وثنية حوالي عام 200 م.، وتلقى تعليمه في أسقفية قرطاج بشمال أفريقيا، وما لبث أن أصبح له أفكاره وتعاليمه التي لقيت صدى واسع بين العامة والفقراء، كما لعبت دورا مميزا في الحفاظ على اللغة اللاتينية التي كتب بها الإنجيل في العصور الوسطى، فبرز واحدا من أعظم ثلاثة أساقفة في أفريقيا عرفتهم الكنيسة، كما يعد من أكبر من وضعوا نظمها، امتدت شهرته إلى كنائس غالة وأسبانيا غربا، كما اشتهر

عنه محاربتة للهرطقة والخروج عن الدين الكاثوليكي، وقُتِلَ إبان موجة الاضطهادات التي شهدتها قرطاج في أواسط القرن الثالث الميلادي، فأصبح يمثل أول شهداء الكنيسة في شمال أفريقيا. ولمعرفة المزيد راجع:

Raven, Suzan, Rome in Africa, 3rd ed., London, 1992, pp. 124, 157 - 161, 167 - 168.

(23) ينتسب القديس أوغسطين إلى مدينة هيبو Hepo بإقليم نوميديا (الجزائر) بشمال أفريقيا، وُلِدَ بها عام 354 م. كان وثنيا ماجنا ثم أعتنق الكاثوليكية، وأصبح حجة في الشئون الكنسية حيث يعد من أبرز فلاسفة المسيحية بعد أن وضع عدة نظريات في الدين شملت مؤلفاته، ولعل أهمها كتاب مدينة الله City of God، الذي دافع فيه عن المسيحية ضد الفلسفة الوثنية، وقد تأثر رجال الدين والرهبان بما ورد فيه من أفكار كثيرة، كما ترك أثرا في تنظيم الكنيسة وإصلاحها، وجعلته مؤلفاته أحد الأربعة الذين وضعوا النظريات التي بنيت عليها النظم الكنسية، وعليه ينسب إليه أنه هو الذي أتم التطور اللاهوتي الغربي، وزود الكنيسة بالأراء التي غدت دعامة الفكر المسيحي الغربي لألف ونيف من السنين، ونظرا لانتشار المذهب الدوناتى المخالف للكاثوليكية في شمال أفريقيا؛ خاض ضد أتباعه حربا ضروس، وتوفي أثناء حصار مدينته هيبو في عام 430 م. انظر:

Raven, Suzan, Op.Cit., pp. 123 - 124, 174 - 195 .

(24) William of Newburgh, Op.Cit., bk.5, ch. 14: 8 - 12 .

ويأتي مستشهدا بالعهد القديم: " وقلت إلى هنا تأتي ولا تتعدى، وهنا تُنخَمُ كِبْرِيَاءُ لِحَجَجِكَ " [أيوب 11:38].

1Fulcher of Charters, Op.Cit., pp.60 - 67; Raimond d'Agiles, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem, en: Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux, tome III, Paris, 1866, pp.292- 302; William of Tyre, Op.Cit., pp.336 - 337, 391.

(25) وضع تحت عنوان: "وليم روفوس - الملك النورمندي الثاني لإنجلترا- وأيضا حول الحملة على القدس". انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 2: 1 – 5.

(26) عندما توفي وليم الفاتح عام 1087 م.، توج ابنه وليم روفوس ملكا- بتوصية من أبيه- حتى عام 1100 م.، رغم أنه لم يكن الابن الأكبر، فحكم إنجلترا حكما استبداديا، ودخل في صراع مع أخيه الأكبر - غير الشرعي- روبرت كارثوس حول العرش الإنجليزي إلى أن اغتيل وليم أثناء رحلة صيد في عام 1100 م.
راجع:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch2: 1; cf. also, Lane Poole, Austin, from Domesday Book to Magna Carta 1087 - 1216, 2nd ed., Oxford, 1954, pp.113 - 115

(27) تميزت دوقية نورمندي في شمال فرنسا في تلك الآونة بأنها أفضل تنظيمًا من الناحية الإدارية، ومع ذلك فقد كانت أقل ثروة، وكان وضعها الجغرافي لا يسمح لها بالتوسع، إلا أنه بفضل طموحات أدواقها؛ كانت لها اليد العليا بعد الغزو النورماني لإنجلترا 1066 م.، ومنذ ذلك الوقت أصبح النورمان أقل خطرا على جيرانهم داخل القارة الأوروبية ذاتها. راجع:

Warren, W.L., Henry II, ed. London, 1977, p.7

William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch3: 2.

وصف روبرت- الابن الأكبر لوليم الفاتح- بدمائة الأخلاق وحسن التعامل والشجاعة، بيد أنه كانت تنقصه الكفاءة وحسن الإدارة، استقل بحكم مقاطعة نورمندي، بينما واصل المطالبة بحقه بالعرش الإنجليزي؛ فاستأنف غزو إنجلترا بعد وفاة أخيه، ولكن هنري الأول تصدى له، بل قام في عام 1106 م. بغزو نورمندي وضمها إلى أملاكه. انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، جزءان، الطبعة السادسة، مكتبة الأبحلج المصرية، 1995 م.، ج1، ص 458.

(28) William of Newburgh, bk.1, ch. 3: 4 .

اكتفى وليم أف نيوبره في موضع لاحق بالإشارة إلى فضل البابا أوربان الثاني في إسقاط القدس. انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk.3, ch.15: 3 - 4.

(29) للوقوف على ما ورد في خطبة البابا أوربان، راجع نصها في:

Fulcher of Charters, Op.Cit., pp.63 – 65.

(30) Fulcher of Charters, Op.Cit., pp.73, 75, cf. also William of Tyre, Op.Cit.,vol. I, pp. 148 - 149, 177 - 178 .

تزوج ستيفن كونت بلُوا من إديلا Adela ابنة وليم الفاتح في عام 1081 م، وترتب على هذه الزيجة أن أصبح لإقطاعية نورماندي Normandy وضعية سياسية خاصة. انظر:

Warren, W.L., Op.Cit., p.13 .

(31) Runciman, S., A History of the Crusade, 3 Vols., Cambridge, 1951 - 1954, vol. I, Appendix II, pp.336 - 341

(32) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جزءان، الطبعة السابعة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1997 م، ج1، ص 125.

(33) Fulcher of Charters, Op.Cit., pp.73 -74, 81 - 82 .

(34) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. I, p.180 .

(35) William of Newburgh, bk. 1, ch. 3: 4 -6.

(36) Fulcher of Charters, Op.Cit., p.82; William of Tyre, Op.Cit.,vol. I, pp.152- 153.

سعيد عاشور: المرجع السابق، ج1، ص 130.

(37) Oman, Ch., History of the Art of War in the Middle

Ages, 2nd ed., 2 Vols., New York, 1924, vol. I, p.272.

(38) الموضوع تحت عنوان: "عن أسباب الحملة الصليبية الثانية على القدس". انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 18: 1 - 4.

(39) هو الملك ستيفن أف بلُوا (1135-1154 م.) ابن الأمير ستيفن كونت بلُوا

وشارتر، الذي كان قد شارك في الحملة الصليبية الأولى مصاحباً الأمير روبرت النورمندي.

(40) بشأن مسمى الرها، يلاحظ أن المؤرخ جمع بين مسميها القديم Orrhei واسمها

الآخر Edessa في كلمة واحدة. انظر:

William of Newburgh, Loc. Cit.

تعرضت المصادر السريانية المعاصرة للحروب الصليبية لمسمى المدينة القديم "الرها"، وأوضحت أنه يتألف من شقين: أور Our بمعنى مدينة، ولما كان يسكنها الكلدانيون أضيف إلى هذا الشق هاي hai؛ لتصبح أورهاي، أي مدينة الكلدانيين. ولمعرفة المزيد راجع:

Michel le Syrien, Chronique de Michel le Syrien, éditée et traduite en français par Chabot, J.B., 3 tomes, Paris, 1906, tome III, p.278.

وعمّا شهدته المسمى من تطور وتحريف عبر عصور مختلفة راجع: علية عبد السميع الجنزوري: إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001 م.، ص 23 – 25، وتخلص الباحثة إلى أن أشهر مسميات المدينة على مر العصور هي: الرها العربية، وأدسا الإفريقية، وأورفا الحالية.

(41) دخلت الرها في حوزة الإمبراطورية الرومانية عام 216 م.، ثم دخلت تحت سيطرة مملكة تدمر 257 – 273 م.، وذلك قبل دخولها المسيحية.

Encyclopedia of Islam, art. Rohha .

(42) من المؤكد أن من أسباب ارتفاع مكانة مدينة الرها الدينية أنها تضم رفات بعض

الحواريين مثل: توما Thomas وتداوس Tedaws. انظر: العهد الجديد: إنجيل متى, طبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت، 1937 م، 3:10.

(43) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch.18.

كانت الرها قد اتخذت اتجاهها غربيا عندما أعيد تأسيس كنيستها على أسس من الاتحاد الوطني مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وتم ذلك تحت رئاسة الأسقف بالوت. راجع: علية عبد السميع الجنزوري: المرجع السابق، ص 29.

(44) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 18: 3 .

(45) William of Tyre, Op.Cit., vol. II, p.158

(46) علية عبد السميع الجنزوري: المرجع السابق، ص 30.

(47) يذكر المؤرخ يوسيبوس (264 - 340 م.) أن السيد المسيح قد أوعز إلى توما أحد الحواريين الاثنى عشر الذي أرسل تداوس أحد التلاميذ السبعين لشفاء أبحارا حاكم أدسا- الرها (13 - 50 م.)، أما المنديل المقدس فقد شاع أنه إذا ما غسل السيد المسيح وجهه انطبعت عليه صورته، فأخذت هذه الصورة إلى الرها لتحتفظ المدينة من أعدائها. ولمعرفة المزيد راجع: يوسيبوس القيصري: تاريخ الكنيسة، ترجمة مرقص داود، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1998 م، ص 46، هـ.3.

(48) Anonymus, Gesta Francorum Iherusalem, ed. Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux, Tome III, Paris, 1866, p.543 .

(49) Grégoir le Prêtre, Continuation de Mathew d'Edessa's chronicle, Recueil des Historiens des Croisades, Documents Armeniens, 2 Tomes, Paris, 1869-1906, tome I, p.159.

وللمزيد عن رسالة الملك أبحر والرد عليها من السيد المسيح انظر: علية عبد السميع الجنزوري: المرجع السابق، ص 30 - 31.

- (50) البلاذري، (ت 279 هـ./892 م.) أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، القاهرة، 1956 م.، طبعة أخرى، 5 ج، بيروت، 1957 م.، ج 5، ص 177.
- (51) Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Oxford, 1956, p.285 .
- (52) Michel Le Syrien, Op.Cit., tome III, p.280 .
- (56) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 97 - 98.
- (57) Grousset, R., L'Épopée des Croisades, Paris, 1939, p. 56 .
- (58) Fulcher of Charters, Op.Cit., pp.89 -92; cf. also William of Tyre, Op.Cit., vol. I, p.188.
- (59) راجع: الدراسة المتخصصة عن تلك الإمارة التي أقامها اللاتين في الشرق في: حسين محمد عطية: إمارة إنطاكية الصليبية والمسلمون (1171 - 1268 م./ 567 - 666 هـ.)، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1989 م.
- (60) William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch. 3: 1 -
- (61).Idem.
William of Tyre, Op.Cit., p.366
- (62) William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch. 3: 4 -6.
- (63) Roger of Hovden, Op.Cit., vol. I, pp.191 - 192.
- (64) Fulcher of Charters, Op.Cit., pp.167 - 169 .
- هذا وقد ترك ستيفن ابنين: هنري Henry وستيفن Stephen في سن صغيرة، تحت وصاية خالهما الملك هنري الأول، وقد نشأ هنري الطفل نشأة دينية بصفته راهبا. انظر:
- Warren, W.L., Op.Cit., p.13 .
- (65) Tyreman Christopher, England and the Crusades

1095 - 1588, Chicago, 1988, pp.13 -84.

سعيد السيد فرغلي: دور إنجلترا في الصراع بين المسلمين والصليبيين 1095-1189 م./488-585 هـ، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، آداب الإسكندرية، عام 2000 م، ص 54 - 135.

(66) أشار وليم الصوري إلى اسم رئيس الأساقفة وهو هيو الثاني Huge II الأسقف اللاتيني الذي دُبح في المحراب، وكان يتزعم المقاومة الصليبية ضد المسلمين.

William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, p.143.

(67) William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch.18: 3.

كان حكام الرها الصليبيون يسيطرون على الأراضي الممتدة من تخوم ماردين إلى الفرات، حيث حصون سروج والبيرة وسن بن عطير وجملين والموزر، فضلا عن مدينتي الرها وتل باشر التي اتخذت مركزا للحكم في الفترة الأخيرة. انظر: علية عبد السميع الجنزوري، المرجع السابق، ص 304.

(68) Runciman, S., A History of the Crusades, 3 Vols., Cambridge, 1952,vol. II, pp.247 - 248.

(69) Bernard of Clairvaux, Some Letters of Saint Bernard abbot of Clairvaux, from the translation of the late Tales, Vicar of Satisfield, selected by Francis Aidan Gasquet, D.D., London, 1994, p.49, No.XII, p.121, No.XXIX.

(70) يقع هذا الموضوع تحت عنوان: "كيف قاد الإمبراطور كنراد والملك لويس قواتهما إلى الشرق". انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch.20: 1 - 3.

(71) Ibid, bk.1, ch. 20: 1; cf. also Roger of Wendover, Flowers of History, 2 Vols., trans. From the Latin by Gilles, J.A., London, 1849, vol. I, p.449.

(72) ويقع تحت عنوان "عن طلاق ملك فرنسا من زوجته وزواجها من ملك إنجلترا المقبل".
انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch.31: 2.

(73) Ibid, bk.1, ch.31: 1.

(74) Roger of Wendover, Op.Cit., vol. I, p.449.

(75) هكذا ورد عند المؤرخ البيزنطي كيناموس بهذا الاسم. انظر:

Kinnamos, John, Deeds of John and Manuel Comnenus, trans. by: Charles, M. Brand, New York, 1976, pp.67 - 68.

(76) William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch.20: 1 .

(77) بغرض ضم الرها بعد بلدوين الأول أمير إفرنجي آخر هو بلدوين أف بوج الذي حاز محبة الأرمن وتقديرهم؛ حيث تقرب إليهم بالزواج من ابنة الأمير الأرميني جبريل، وقد أعانه هذا الزواج كثيراً على توطيد نفوذه، أما عن الحاكم الثالث للرها جوسلين الأول فقد جاء في وصف وليم الصوري له: " كان ذا خبرة واسعة بالحياة والناس، حذرا في كل ما يفعله، يظهر تعقلا شديدا في معالجة الأمور، وترتيب وتنظيم شئونه الخاصة"، وكان زواجه من ابنة ليون- التي أنجب منها جوسلين الثاني الذي حكم الإمارة من عام 1131 إلى 1150 م. - بغرض توطيد علاقته بالأرمن، وكان قد أبدى تمهونا أدى إلى ضياع الإمارة؛ نظرا لاستسلامه كلية لميوله المنحرفة وعدم الاكتراث بتقوية جيشه وتحصين القلاع أمام التهديدات الإسلامية، كما خلد إلى الراحة بعيداً في تل باشر عن الأخطار المحيطة بمقر الإمارة في الرها. انظر:

William of Tyre, Op.Cit., vol. I, p.450, vol. II, pp.52- 53, 140 - 142.

راجع أيضا الدراسات المتخصصتين في تاريخ أسرة كورتناى:

Nicholson, R.L., Joscelyn I, Prince of Edessa, The University of Illinois, 1954, pp.52-61, 88 -91; Joscelyn

III and the Fall of the Crusader States (1134 - 1199), The University of Illinois, 1973, pp.4 - 21 .

(78) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 282.

والتاريخ الذي ذكره وليم أف نيوية يتفق مع ما أورده أحد المؤرخين المعاصرين الآخرين من أن خروج الحملة كان في يونيو 1147 م. / محرم 542 هـ. انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch. 18: 1 ;

Odo of Deuil, De Profectione Ludovici VII in Orientem, edited with an English translation by Virginia Gingerick Berry, New York, 1948, p.11 .

(79) William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch. 18: 1- 2, ch. 21:1.

استخدم المؤرخ وليم أف نيوية لفظة الإمبراطور لصيقة باسم كنراد الثالث؛ نظرا لأنه أضفى على نفسه هذا اللقب، وذلك خاصة في مراسلاته مع الأباطرة البيزنطيين حتى يكون ندا لهم، الأمر الذي يفسر شيوع اتخاذه اللقب، والواقع أن كنراد مات في 15 فبراير 1152 م. وهو في طريقه إلى روما للحصول على التاج الإمبراطوري. راجع: محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول (1143 - 1180 م.)، دار المعارف، 1985 م.، ص 137، هـ.3.

7Ibid, bk.1, ch. 20: 1 - 2 .

(80) Kinnamos, J., Op.Cit., pp.68 -69.

(81) Roger of Wendover, Op.Cit., vol. I, p.449

(82) راجع نص العبارة التوراتية: "قم قدس الشعب وقل تقدسوا للغد. لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل. في وسطك حرام يا إسرائيل فلا تتمكن للثبوت أمام أعدائك حتى تنزعوا الحرام من وسطكم"، العهد القديم: سفر يشوع 7: 13.

(83) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 20: 2.

(84) Odo of Deuil, Op.Cit., pp.46 - 47, 75.

(85) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 20: 3.

(86) William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.168 - 172.

(87) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 20: 2.

(88) William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.163 - 184.

(89) Roger of Hovden, Op.Cit., vol. I, p.250 .

(90) انظر: ع تحت عنوان " عن ريموند أمير إنطاكية والاستيلاء على عسقلان ". انظر :

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 21: 1 - 2 .

(91) المكابيون: هم أسرة عبرانية كان أولهم متاثياس وجاء من بعده ابنه يهوذا الذي اشتهر بالمكابى، وما لبث أن شمل هذا المسمى جميع أفراد الأسرة التي شكلت حزباً مقاوماً للسلوقيين الوثنيين وأبدت ألواناً من البطولات في محاربتهم في فلسطين، وذلك في الفترة من 168 إلى 104 ق.م. فحصلوا على الاستقلال، وظل المكابيون يمثلون حزب اليهود في التعامل مع كل من: السلوقيين ومن بعدهم الرومان إبان حكم هيرودس الكبير (37 - 4 ق.م.). انظر: بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، بيروت، (د. ت.)، مادة: مكابيون.

(92) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 21: 1.

(93) William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.59 -60, 78 -79.

(94) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 304 - 305.

William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.196 - 198.

(95) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 1, ch. 31: 1 .

والأمير هنري هو ملك إنجلترا الملقب بهنري الثاني (1189 - 1154) Henry II م. وقد حاز على ملكه من خلال وراثة أمه ماتيلدا- ابنة الملك هنري الأول- وعلى دوقية نورمنديا من أبيه عام 1149 م إضافة إلى مقاطعة أنجو في 1150 م.، ويزواجه من إيلانور

ووفاة أخيه حكم أكثر من نصف فرنسا، وحينما توفي ستيفن أف بلُؤا آل حكم إنجلترا إلى هنري. راجع على سبيل المثال:

Roger of Hovden, vol. I, pp.251 - 252,254 .

(96) William of Newburgh, Loc.Cit .

ويضيف وليم أف نيوربه توضيحا لحدود إقطاعية أكويتين أنها امتدت من إحدى إقطاعيتي بريتاني Brittany وأنجو Anjou إلى جبال البرانس، وقد آلت إلى التاج الإنجليزي بحكم زواج إليانور من الملك هنري الثاني الذي كان أمير (دوق) نورمندي في ذلك الوقت، الأمر الذي جعل الملك لويس السابع يتميز غيظا، وإضافة إلى هذه المعلومات قدم المؤرخ مزيدا من التفاصيل عمّا ترتب من نتائج طلاق إليانور ثم زواجها، موضحا بذلك خلفية الأحداث التي وقعت في أوروبا مرحلة ما بعد الحملة الصليبية الثانية.

(97) Roger of Hovden, Op.Cit., vol. I, p.254.

(98) William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.178 – 180

(99) اختلف المؤرخون الصليبيون في تحديد تاريخ تأسيسها، وإن كان قد انحصر في الفترة الواقعة بين عامي 1118 و1120 م. ويرجع الفضل في تأسيس طائفة الداوية إلى فارس شمباني اسمه هيو أف باينز Hugh of Payens الذي تمكن من إقناع بلدوين الثاني بالسماح له ورفاقه بالنزول بساحة المعبد (المسجد الأقصى)، وقد خضعت الطائفة إلى القواعد الرهبانية المسكونية، وما لبثت أن أضحت مستقلة، وبمرور الوقت أخذ دور فرسان الداوية العسكري في النمو حتى أصبحوا يلعبون دورا مميزا في تاريخ الحركة الصليبية. راجع:

.William of Tyre, Op.Cit., vol. I, p.524

وراجع أيضا: إبراهيم خميس: جماعة الفرسان الداوية وعلاقتهم السياسية بالمسلمين في الشرق الأدنى الإسلامي (1118-1193 م. / 512-589 هـ.)، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1980 م.، ص 47-48.

(100) William of Newburgh, Op.Cit., bk.1, ch. 21: 1 - 2.

(101) Loc.Cit.

(102) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 497؛ ابن الأثير، (ت 1230 م). عز الدين أبو الحسن على بن أبي الكرم بن عبد الواحد الشيباني الجزري: الكامل في التاريخ، 12 ج، بيروت، 1979 م.، ج11، ص 188-189؛ سبط بن الجوزي، (ت 1257 م). أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، المجلد الثامن، ق 1-2، حيدر أباد،/1951 م.، ق 1، ص 209.

(103) يقع هذا الموضوع تحت عنوان "عن حملتي عموري ملك بيت المقدس على مصر"، انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch.23:2

(104) William of Newburgh, Loc. Cit.

قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، الكويت، شوال 1410 هـ./ مايو 1990 م.، ص 139 .

(105) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 1.

(106) فيما يتعلق بالمعلومات التي ساقها المؤرخ وإضافة إلى ما ذكره من وجود مدينة بابل في بلاد الرافدين، فمن الثابت أيضاً أنه توجد في مصر مدينة تسمى بابلون، وكذلك عرفت مدينة روما- في القرن الأول الميلادي - باسم بابل؛ لبذخها واضطهادها للمسيحيين الأوائل، ومن الثابت تاريخياً أن ملك بابل الكلدانية نابوبلاسر قضى على نينوى - عاصمة مملكة آشور القوية- عام 612 ق.م. وساعده على ذلك فيضان دجلة، وكانت نينوى قد اعتبرت العالم القديم كله عبدا لها، ولعل أقدم تاريخ يشير إلى قيام المملكة هو 2900 ق.م.، مما يشير إلى أن عمرها يزيد عن الألف عام كما ذكر المؤرخ. أما قمبيز فقد غزا مصر عام 525 ق.م. في عهد بسمتاك الثالث، الأسرة 26، واعتبر مصر ولاية فارسية. وللمزيد راجع: بطرس عبد الملك وآخرون: المرجع السابق، مواد: بابل، نينوى، آشور؛ الموسوعة المصرية: إشراف: أحمد فخري وآخرين، المجلد الأول، (تاريخ مصر القديمة وآثارها)، القاهرة،

1960 م.، ج1، مادة: قمبيز .

(107) William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.303 - 304.

(108) Baldwin, W. Marshall, The Latin States under Baldwin III and Amalric I (1143 - 1174), ed. in: A History of the Crusades, by: Setton, K.M., vol. I, 1st ed., U.S.A., 1958, (pp.523 - 563), pp.550 - 551.

راجع: ابن شداد، (ت 1234 م.) القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن تميم بن عتبة: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، أو سيرة صلاح الدين، تحقيق د. جمال الدين الشيال، طبعة أولى، القاهرة، 1964 م.، ص 26-27؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص 301؛ أبو شامة، (ت 1267 م) شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن إسماعيل: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان، بيروت (د. ت.)، ج1، ص 142 - 145 .

(109) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 2.

(110) Ibid, bk. 2, ch. 23: 2- 3.; William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.205 - 207, 307.

ابن شداد: المصدر السابق، ص 27-30.

(111) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 2, bk. 3, ch. 11: 3.

(114) ابن جبير: (ت 1217 م.) أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي: رحلة ابن جبير المسماة تذكرة الأخبار في اتفاقيات الأسفار، تحقيق: حسين نصار، القاهرة، 1955 م، ص 199.

(115) William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.304 - 307, 309 - 310.

(116) كانت طائفة الإسماعيلية الباطنية (الحشيشية) قد استحوذت على بانياس لوضع سنوات تحت قيادة هذا الزعيم، انتهت بتسليمها للفرنج عام 1129 م.، ولمزيد من التفاصيل راجع: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 221؛ ابن الأثير: المصدر السابق،

- ج10، ص29؛ انظر أيضا Grousset,R.,Op.Cit.,vol. II,p.661 .
- (117)William of Tyre, Op.Cit.,vol. II,pp.308 - 309;cf. also Runciman, S., Op.Cit., vol. II, pp.368 - 369 .
- (118) Schlumberger,G.,Campagnes du roi Amaury I de Jérusalem en Egypte, Paris, 1906, pp.101 - 102 .
- (119)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 2- 3 .
- (120)William of Tyre, Op.Cit.,vol. II,pp.317 - 318.
- انظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص 324 - 327، وكذلك: أبو شامة، المصدر السابق، ج1، ص143.
- (121) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 3.
- (122) William of Tyre, Op.Cit., pp.318 - 322.
- وفضلا عما ورد عند وليم الصوري عن بنود الاتفاقية، يمكن مراجعة دراسة اهتمت بالظروف التي أحاطت إبرامها، وناقشت مآرب الصليبيين منها في:
- Schlumberger,G.,Op.Cit., pp.115 - 117.
- (123) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 3 - 4.
- (124) William of Tyre,Op.Cit.,vol. II,pp.323 - 327,331 - 334.
- (125)ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص 327.
- (126)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 2, ch. 23: 4.
- (127) William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.334 - 335, 337 - 343.
- (128) يقع هذا الفصل تحت عنوان: "عن وصول بطريك إنجلترا، وعن وفاة ملك بيت المقدس... وفترة حكم ابنه... وعن صلاح الدين". انظر:
- William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 10: 12.

ويلاحظ أن السياق التاريخي عند المؤرخ في هذا الفصل مضطرب إلى حد ما؛ نظراً لأنه اشتمل على ذكر أحداث وقعت على مدى عقدين من الزمان دون لترتيب، وهذا الأمر سيأخذه في الاعتبار في الصفحات التالية.

(129)Idid, bk. 3, ch. 10: 2 .

(130)انتقل إقطاع شرقي الأردن إلى ستيفاني أف ميللي ابنة فيليب أف ميللي Philip of Milly بداية من عام 1167 م./562 هـ. كوريثة لممتلكات أمها المتوفاة وأبيها الذي سلك الرهبنة عام 1166 م./561 هـ.، وأصبح مقدا لفرسان الداوية، ولمعرفة المزيد انظر:

Tibble, Steven, Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem, Oxford, 1989, pp.88 -89 .

(131) William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.401, 416 - 417

(132)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 10: 2 .

(133)Idem.

(134) Idem.

لا شك أن شخصية نور الدين محمود قد اقتزنت بصحوة القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في الجهاد ضد الصليبيين المرتكن إلى صحة العقيدة ورغبة الجهاد في سبيل الله والسعي للوحدة الإسلامية، وجاء لكي يمثل أهم حلقات الكفاح الإسلامي في هذه المرحلة، وأبدى عبقرية سياسية وإدارية وعسكرية لتحقيق أهدافه النضالية ضد الصليبيين. وهناك أكثر من دراسة متخصصة عنه ومنها: حسين مؤنس: نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق، الطبعة الأولى، القاهرة، 1959 م.؛ حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، القاهرة، 1951 م.

(135)William of Newburgh, Op.Cit., bk.3, ch. 10: 2.

(136) ابن واصل، (ت 1298 م.) جمال الدين محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار

بني أيوب، ج1- 3، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، القاهرة 1953- 1960 م.، ج1، ص 168- 218.

(137) أبو شامة: المصدر السابق، ج1، ص 207؛ ابن شداد: المصدر لسابق، ص 50؛ أبو الفدا: (ت 732 هـ./1331 م.). إسماعيل بن علي محمود، الملك المؤيد صاحب حماة: المختصر في أخبار البشر، أربعة أجزاء في مجلدين، بيروت (د. ت.)، ج3، ص 56. راجع أيضا: Idem.

(138) Idem.

يستأنف المؤرخ في موضع آخر الحديث عن شخص صلاح الدين، ويضيف أنه رغم عدم انتمائه إلى سلالة ملكية إلا أنه تمكن ببرايعته وحنكته من تأسيس تلك الدولة الشاسعة، ونجح في إحباط محاولات كل قادة الغرب في النيل من البلاد، بيد أنه عند وفاته تم تقسيم إمبراطوريته وفقا لعدد من خلفوه، الأمر الذي جلب الفوضى والتناحر في بيته. عن ذلك راجع Ibid, bk. 3, ch. 10:

راجع

2.

(139) وضعه تحت عنوان: " كيف تم التغلب على صلاح الدين وكيف انتصر هو بعد ذلك ". انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 11: 1 - 4.

(140) بمراجعة المصادر المعاصرة الأخرى يتبين أن مدينة Hareng الواردة ذكرها في النص ما هي إلا مدينة حارم الواقعة على بعد ثمانية وخمسين كيلو مترا غربي حلب، وكانت آنذاك في حوزة الصالح إسماعيل بن نور الدين الذي نجح في اختراق صفوف المحاصرين بتجريدة إلى المدينة. أنظر:

William of Tyre, Op.Cit., pp.424 - 425, 436 - 445.

؛ ابن العديم، (ت 1262 م.). كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة: زبدة الحلب في تاريخ حلب، 3 ج، تحقيق: سامي الدهان، دمشق 1951 م.،

ج2، ص 25 - 26؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص 442 - 443.

(141) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 11: 1.

(142) William of Tyre, Op.Cit., pp.417 - 420.

وعن الظروف التي أحاطت بخروج حملة فيليب من الغرب الأوروبي راجع:

Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. I, pp.438 - 439, 452., cf. also, Macintyre, A.D., Williams, A.D., Henry II of England and the Holyland, ed. In English Historical Review, vol. XCVII, London, 1982, p.726 .

(143) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 11: 1 .

(144) يمكن مراجعة التفاصيل الخاصة بالخطط المتبعة وتحركات الجيشين الإسلامي

والصليبي وما وقع من هزيمة لجيش صلاح الدين في تلك المعركة في:

William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.425 - 429; Michel le Syrien, Op.Cit.,vol. III, p.373 .

العماد الأصفهاني، (ت 1200 م.) عماد الدين محمد بن محمد ابن حامد: البرق الشامي، ج 3، تحقيق: د. مصطفى الحيارى، الطبعة الأولى، عمان- الأردن، 1987 م.، ص 54 - 55؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص 443؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج1، ص 273.

(144)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 11: 2; Runciman, S., Op.Cit.,vol. II, p.418.

(145) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 11: 2.

(146)عرفها الفرنج كذلك باسم قلعة بيت الأحزان وهي تقع عند المجرى الأعلى لنهر الأردن بين بحيرة الحولة وبحيرة طبرية. ولمعرفة المزيد عن الحالة الأمنية في هذه المنطقة الحدودية راجع: على أحمد السيد: إمارة الجليل تحت حكم اللاتين ودورها السياسي في الصراع الصليبي الإسلامي في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي (1099 - 1154 م)، رسالة

ماجستير تحت النشر، جامعة الإسكندرية، 1988 م.، ص 290 - 294. ومن ثم فالقلعة تقع في موقع متوسط بين صفد ودمشق وطبرية. وقد شرع الصليبيون في تشييدها في أكتوبر 1174 م. أتى أبو شامة ببعض تفاصيل المعمار وما بذل في القلعة من أعمال بناء، وأوضح أهميتها العسكرية والأمنية على طريق التجارة. للمزيد راجعه في: الروضتين، ج2، ص8 - 13.

(147) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 11: 2- 3.

(148) William of Newburgh, Loc.Cit.; cf. also William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.438 - 440 .

(149) William of Tyre, Op. Cit., vol. II, pp. 440 - 445.

أبو شامة: المصدر السابق، ج2، ص 21 - 23.

(150) William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.449 - 451 , 466 - 468

عقدت الهدنة في مايو 1180 م.. بشرط أن "المسافرين يسافرون"، وألا تنقطع حركة القوافل بين الشام ومصر. انظر: ابن أيبك الدواداري، (ت 1331 م.) أبو بكر عبد الله بن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر، 10 ج، ووضع الجزء السادس بعنوان "الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية"، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، 1960 م.، ص 51. وللوقوف على تفاصيل المفاوضات، وتدقيق التواريخ الخاصة بالهدنة، راجع:

Nicholson,R.,Op.Cit.,pp.212 - 215 .

(151) العماد الأصفهاني: البرق الشامى، ج 5، تحقيق: فالح صالح حسين، الطبعة الأولى، عمان 1987 م.، ص 149 - 150؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج2، ص 50. راجع أيضا:

Ernoul, Op.Cit., pp.90 - 102 .

William of Newburgh,Op.Cit., bk. 3, ch. 10: 2, 111-112; William of Tyre,Op.Cit.,vol. II, pp.451-454 .

؛ نظرا William Montefrat والأمير وليم المذكور يعرف أيضا باسم وليم مونتيفرات لأنه أكبر أبناء ماركيز مونتيفرات، وهو من أغنى الأمراء في شمال إيطاليا، كما أنه كان ابن إمبراطور ألمانيا (1152 - Frederick I Barbarossa) عمدة فريدريك الأول بربروسا (1189 م). وخال الملك لويس السابع ملك فرنسا. انظر:

Runciman, S., Op.Cit., vol. II, p.411 .

(152) الذي يقع تحت عنوان "عن جي ملك بيت المقدس". انظر William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 16: 1

(153) Loc.cit.

(154) Roger of Hovden, Op.Cit., vol. I, pp.316 - 317.

(155) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 10: 2.

(156) William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.402- 403.

(157) Ibid, vol. II, pp.446 - 447.

وردت تفاصيل أخرى عن قدوم جي لوزينان إلى الشرق بموجب دعوة من أخيه عموري لوزينان، وكذلك عن زواج جي من سيببلا وتوليه يافا وعسقلان.

Ernoul, Op.Cit., pp.59 -60; cf. also Roger of Hovden, Op.Cit., vol. II, p.55

(158) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 16: 1.

(159) الجدير بالذكر أن ما أشار إليه وليم أف نيوربه من انقسام بين نبلاء بيت المقدس كان موضع اهتمام جانب من المؤرخين الصليبيين وبالذات وليم الصوري، وعليه اتجهت بعض الدراسات المتخصصة في تاريخ

حزبين في المملكة في العقد الأخير من عمرها، ضم الأول نبلاء أسرة إبلين إضافة إلى الأمير ريموند الثالث الوصي على العرش وجانبا كبيرا من فرسان الإيستارية، أما الحزب الثاني فضم أمراء أسرة كورتناي الذين دعموا موقفهم بالسعي لتعيين هرقل بطريكاً للمملكة عام 1180

م. على حساب وليم الصوري المرشح الأقوى للمنصب، فضلا عن ضم طائفة فرسان الداوية وأمراء لوزينان ورينو أف شاتيون Renauld of Châtillon حاكم ما وراء الأردن (1177 - 1187 م). انظر:

William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.449 - 451, 458 - 460; Ernoul, Op. Cit., p.115; Runciman, S., Op.Cit.,vol. II, pp. 425, 447 - 449; Tibble, S., Op.Cit., pp. 51-59; Nicholson, R., Op.Cit. pp.56 -99 .

(160) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 10: 1 .

وضع أحد المؤرخين الحديثين المتخصصين في تاريخ الإنجليز عصر الملك هنري الثاني Henry II تاريخ سفارة هرقل إلى الملك في العام التالي 1185 م. انظر:

Warren, W.L., Op.Cit., p.221 .

(161) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, p.46

وهناك من يشير إلى أن سفارة هرقل كانت بهدف إشعال حماسة قادة أوروبا بغرض الدعوة لقيام حملة صليبية كبيرة، وبدليل أن برنامجها شمل زيارة البابوية في روما والإمبراطور الألماني فريدريك (الأول) بارباروسا Frederick I Barbarossa (1152-1190م) وملك فرنسا فيليب (الثاني) Philip II Augustus أغسطس (1123-1180م)، فضلا عن الملك الإنجليزي هنري الثاني. ولمعرفة المزيد عن ذلك راجع:

Macintyre, A.D., Williams, A.D., Op.Cit., pp.731 -732.

هذا وقد تم تصحيح ما أورده المؤرخ روجر أف هوفدن في المتن من أن فولك أف أنجو أخ لجيوفري والد الملك هنري، في حين أنه والده.

(162) William of Newburgh, Op.Cit.,bk. 3, ch. 16: 1.

(163) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, pp. 62-63; Ernoul, Op.Cit., p.134 .

(164) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبيح، القاهرة، 1965 م، ص 68؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج11، ص 526 - 527.

(165) Ernoul, Op.Cit., pp.141 - 142.

(166) Roger of Hovden, Op.Cit., vol. II, pp.62-63.

(167) ويقع تحت عنوان: "أحقية السيادة على أراضي بيت المقدس والتي على أساسها يتم ابتلاع أهلها". انظر:

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 15: 1 - 6.

Idem.

(168) تقع عيون كريسون بين صفورية وكفر قنه في الجليل. ويمكن مراجعة تفاصيل هذه المعركة - التي شهدت مذبحه مروعة بين فرسان الداوية - في:

Runciman, S., Op.Cit., vol. II, pp.453 - 454

(169) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 16: 2; Roger of Hovden, vol. II, pp.64 - 65; Ernoul, Op.Cit., p.133

(170) William of Newburgh, Loc.Cit

ويستشهد المؤرخ في هذا الموضوع بالتوراة فيما نصه: "وَمُحَى عَهْدُكُمْ مَعَ الْمَوْتِ وَلَا يَثْبُتْ مِيثَاقُكُمْ مَعَ الْمَآوِيَةِ. السَّوْطُ الْجَارِفُ إِذَا عَبَّرَ تَكُونُونَ لَهُ لِلدَّوْسِ". راجع: سفر أشعياء, 18:28.

(171) Roger of Hovden, Op.Cit., vol. I, pp.355 - 357; cf. also Macintyre, A.D., Williams, A.D., Op.Cit., pp.723, 725 .

(172) Roger of Hovden, Op.Cit., vol. II, pp.46, 90 -91; Macintyre, A.D., Williams, A.D., Op.Cit., pp.726 -732.

ولد توماس بكت في عام 1118 م. وكان أقرب الأصدقاء إلى هنري الثاني، وتغير حاله معه

بعد تعيينه رئيسا لأساقفة كانتربوري Canterbury عام 1162 م.، وظن أربعة من فرسان الملك أنه يريد قتله؛ فقتلوه في عام 1170 م.، وتركت هذه الحادثة أثرا غائرا في نفس الملك، وحاول بسبل عدة التكفير عن ذنبه. راجع:

Warren, W.L., Op.Cit., pp.104 - 111; Warner, G.T. & Martin, C.H.K., The Groundwork of British History, Part I (55 B.C.- 1603), London, pp.85 - 89

الموضوع تحت عنوان: "حول معركة الجيش المسيحي، وأسر الملك مع الصليب المقدس"،
William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 17: 1 - 3.

(173) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 17: 3 .

(174) ومما ذكره ابن الأثير عن مصير بيروت لاحقا أنه رغم حصانتها الشديدة إلا أنها لم تصمد؛ لأن المدافعين عنها كانوا من التجار وأصحاب الحرف، ولم يكن من بينهم فرسان، مما أدى إلى استسلامها عند غزوها في السادس من أغسطس 1187 م. انظر: الكامل في التاريخ، ج11، ص 540 - 543؛ راجع أيضا: سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج8، ق 1، ص 433.

(175) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 17: 2 .

(176) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, p.66.

(177) Grousset, R., Op.Cit.,vol. III, p.463.

(178) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 17: 2.;
cf. also Ernoul, Op.Cit., pp.162 - 171 .

(179) Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, pp.65 - 66.

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 17: 3.

وتؤكد الروايات الصليبية الأخرى ما ورد عند مؤرخنا في هذا الصدد. وعن ذلك راجع أيضا:
Ernoul, Op.Cit., p.173; Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II,
p.66

(180) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 17: 3.;
cf. also Roger of Hovden, Op.Cit., vol. II, p.66.

Raymond de وهو مختلف وهو
.Castiglione

(181)William of Newburgh, Loc. Cit.

تؤكد دراسة خصصت لرينو أف شاتيون ودوره في الحروب الصليبية على أنه ينتمي إلى مدينة شاتيون الفرنسية، جاء إلى الشرق مع حملة الملك لويس السابع المعروفة بالثانية 1148 م.، وتولى حكم إمارة إنطاكية من خلال زواجه من أميرتها الأرملة كونستانس Constance، وساهم في إسقاط عسقلان في 1153 م.، وضم إليه حكم حارم مع إنطاكية في 1158 م. لكنه وقع أسيرا في يد نور الدين 1160 م. وخرج من الأسر عام 1176 م.، وبزواجه من ستيفاني أف ميللي Stephanie of Mili أصبح حاكما على إقليم شرقي الأردن بداية من عام 1177 م.، راجع:

Schlumberger, G., Renaud de Châtillon, prince d'Antioche, seigneur de la terre d'Outre-Jourdan, 2nd ed., Paris, 1920, bassim.

(182)Grousset, R., Op.Cit.,vol. II, p.729.

سعيد عاشور: المرجع السابق، ج1، ص 506.
(183) كان رينو قد أرسل في عام 1155 م. بعض السفن إلى جزيرة قبرص الخاضعة للبيزنطيين، فتمكنت من الإغارة عليها ونهبها وإنزال الأذى بأهلها، مما أثار استنكار المسيحيين عامة ولقبوه باللص. راجع:

William of Tyre,vol. II, pp.253 - 254; Michel le Syrien, Op.Cit.,vol. III, p.315.

انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1957م.، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002 م. ص 12.

(184)Hamilton, B., The Elephant of Christ, Reynald of Chatillon, ed. in: Monastic Reform Catharism and the Crusade 900 - 1300,Varior.Repr., (pp. 97 - 108), London, 1979, pp. 99 - 100.

(185) وجاء تحت عنوان: " كيف استولى صلاح الدين على أرض الميعاد والمدينة المقدسة William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 18: 1 - 2.," (186) Ibid, bk. 3, ch. 18: 1.

أفاضت بعض المصادر الإسلامية وأيضاً الأوروبية في الحديث عن الفتوحات الصلاحية فترة ما قبل فتح القدس وما بعدها، ولعل عرض المؤرخ ابن واصل مثلاً يقدم حصراً شاملاً ودقيقاً للفتوحات الأولى، فانطلاقاً من عكا ضم صلاح الدين مدن وقلاع الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا وشقيف - أرنون والفولة وجبل الطور وبيروت، وقام قاداته بالاستيلاء على يافا وسبسطية وتبين التي لقيت دعماً منه في إسقاط قلعتها، في حين استسلمت مدن مثل صيدا وجبيل، وفي الجنوب تم الاستيلاء على الرملة وبيننا والداروم وغزة والنظرون وبيت جبرين ثم الخليل وعسقلان، ذلك فضلاً عما سيلي القدس من فتوحات. راجع: ابن واصل: المصدر السابق، ج2، ص 202 - 209.

Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, pp.66 - 67.
(187)William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 8, ch. 25.
(188) Ibid, bk. 3, ch. 18: 2.

(189) ابن واصل: المصدر السابق، ج2، ص 209.

Mayer, H.E., The Crusader Lordship of Kerak and Shaubak, some preliminary remarks, in: Studies in the History and Archeology of Jordan,3 Vols., vol. III, (pp.197 - 203), Aman, 1987, p.202.

(190) Ernoul, Op.Cit., pp.185, 231 - 232

انظر أيضاً ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص 547.

(191) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 18: 1
ابن شداد: المصدر السابق، ص 81 - 82؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج2، ص 92؛
ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص 549؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي،
ص 206 - 207.

(192) William of Newburgh, Loc.Cit.

(193) يكفي بالإشارة إلى ما ورد في جانب من المصادر الإسلامية وإحدى الدراسات

الحديثه لأحد الباحثين الأوروبيين عن سطوع نجم صلاح الدين في كرمه أثناء فتحه للقدس. انظر: أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص 96؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 206 - 207؛

Richard, J., About an account of the battle of Hattin, ed. in: Speculum XXVII, 1952, referring to the Frankish mercenaries in oriental Moslem states, Cambridge, 1976, p.170 .

(194) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 18: 1.

(195) وللاستزادة عن ذلك الموضوع، راجع: على أحمد محمد السيد: أهم التطورات في أبنية القدس الدينية منذ الغزو الصليبي حتى استرداد المسلمين لها (1099 - 1187 م.)، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، أغسطس 1995 م.، ص 78.

(196) أبو اليمن العلمي، (ت 1522 م) أبو اليمن عبد الرحمن بن مجير الدين: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، بيروت، 1973 م.، ج1، ص 293.

(197) ابن الأثير: المصدر السابق، ج11، ص 551 - 552.

(198) عماد الدين الأصفهاني: الفتح القسي، ص 137.

Roger of Hovden, Op.Cit.,vol. II, p.90.

(199) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 18: 2.

(200) بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، بغداد، 1945 م.، ص 98-99. راجع أيضا:

Theoderick, Description of the Holy Places, 1172 A.D., trans. by: Aubrey Stewart, in: Palestine Pilgrim's Text Society, vol. V, London, 1894, p.22.; William of Tyre, Op.Cit.,vol. II, pp.242 - 245

(201) Idem.

(202) يضيف المؤرخ في موضع آخر عن صور وصفا لها، فيشير إلى وضعها كجزيرة ربطها الإسكندر الأكبر باليابس، ولذا فقد أحاطت بها المياه من كل جانب تقريبا، كما أن ميناءها يتمتع بالأمان التام، مما جعلها من أحصن المدن. راجع ما ورد في الفصل العشرين من

- الكتاب الثالث من المدونة، الموضوع تحت عنوان: "حصار صور وعودة الملك من الأسر".
William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 20: 1 - 2.
- حكم نبوخذ نصر بلاد ما بين النهرين وسوريا، واستأنف الصراع على فلسطين مع فرعون مصر، وهاجمها عدة مرات، وسبى كثير من سكانها، وهاجم مدن الساحل الفينيقي ومنها صور، ويرجع له الفضل في تشييد حدائق بابل المعلقة، وقد وردت أخباره كثيرا في الكتاب المقدس. راجع: بطرس عبد الملك وآخرون: المرجع السابق، مادة: نبوخذ نصر.
- (203) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 18: 2, ch. 20: 1 .
- (204) ابن شداد: المصدر السابق، ص 126.
- (205) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 19: 2, ch. 20: 1.
- وقد أورد المؤرخ وليم أف نيوبره تفصيلا دور الماركيز كونراد أف مونتيفرات في تكتيل جهود الصليبيين لحماية المدينة من أخطار صلاح الدين في هذا الموضوع أيضا.
- (206) Idem .
- حسين عطية: إمارة إنطاكية الصليبية والمسلمون، ص 166، 210 - 211؛ وقد حدد المؤرخ ابن العديم تاريخ وفاة ريموند الممتد بين 6 سبتمبر و5 أكتوبر 1187 م.، انظر: زبدة الحلب، ج3، ص 94.
- سعيد عاشور: المرجع السابق، ج2، ص 651.
- (207) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 20: 2.
- (208) ابن شداد: المصدر السابق، ص 86 - 94؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 230 - 231، 258 - 262؛ راجع أيضا: حسين عطية، المرجع السابق، ص 213 - 220.
- (209) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 3, ch. 15: 2 - 4
(210) الموضوع تحت عنوان: "عن اغتيال الماركيز كونراد". انظر:
- William of Newburgh, Op.Cit., bk. 4, ch. 24: 1 - 3.
- (211) William of Newburgh, Op.Cit., bk. 4, ch. 24: 2 .

(212) انشق إسماعيلية الشام عن الفاطميين بعد موت الخليفة المستنصر الفاطمي (ت 1094 م.)، ونادوا بإمامة ابنه نزار وبطلان إمامة ابنه الآخر المستعلي الذي ظل أتباعه في مصر ينتمون إليه، وقد عرف فرع الشام باسم الحشيشية أيضا، ونجح الحشاشون في تأسيس مملكة لهم حول مجموعة من القلاع عرفت بقلاع الدعوة، وذلك أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، مستغلين الفوضى التي سادت منطقة الشرق الأدنى الإسلامي والصراعات بين القوى الثلاث: الفاطمية والسلاجوقية والصليبية. راجع: جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص 226؛ وقد بلغت هذه الطائفة درجة كبيرة من الانحلال الخلقي حتى ذاق الصليبيون والمسلمون جميعا من جرائمهم الشيء الكثير، وكان مقدمهم بداية من عام 1169 م. هو راشد الدين سنان البصري، ولقبه الشيخ، وهو الذي نظم تلك الهيئة وأعطاهها طابعها المفرع. انظر: أسامة زكي زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن الثاني عشر الميلادي)، الإسكندرية، 1980 م.، ص 44 - 57، 155 - 168.

William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.389 - 393.

William of Newburgh, Loc.Cit .

من الثابت أن هناك معاهدة كانت قد وقعت بالفعل بين الحشيشية والداوية، ومما يؤكد ذلك أنهم طلبوا من الملك الصليبي عموري الأول في عام 1173 م. إسقاط الضريبة التي فرضتها عليهم الداوية بموجب هذه المعاهدة وقد بلغت ألفى دينار. انظر:

William of Tyre, Op.Cit., vol. II, pp.391 - 392 .

William of Newburgh, Op.Cit., bk. 4, ch. 24: 3..

(213) Ibid, bk. 5, ch.14: 6.

وهناك من المؤرخين الحديثين من يتفق مع الباحث في معظم ما خرج به من انطباعات عمّا دونه وليم أف نيوبره في كتابه. انظر:

Blakeley, L. Brian & Collins Jacquelin, Op.Cit., vol. I, p.50.

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
3	* المقدمة
4	* السيرة الذاتية العلمية للأستاذ الدكتور / إسحق عبيد.....
7	* كلمة الأستاذة الدكتورة/ عفاف صبرة، أستاذة تاريخ العصور الوسطى بجامعة الأزهر.....
10	* أ.د/ إسحق عبيد، فيلسوف "البدارى" الذي علمني الحكمة!!
17	* كسوف الشمس عام 1124م، دراسة لظاهرة فلكية في تاريخ الصليبيين.....
49	* قانون التأمين على خيل الحرب في مملكة بيت المقدس الصليبية قراءة في مجموعة قوانين بيت المقدس.....
79	* سياسة مملكة بيت المقدس الخارجية تجاه البابوية، وبيزنطة، والغرب الأوربي، والإمارات الصليبية خلال عهد الملك بلدوين الرابع(1174- 1185م).....
135	* الجهود التبشيرية لكثلكة النساء عصر الحروب الصليبية (القرنان 12،13م).....
149	* الملكة ميلسندا (1131-1153م/525-548 هـ) وضيفة خاتون (1185-1242م/581-640 هـ) دراسة مقارنة...
177	* أثر المؤرخين المسلمين في تطور الكتابة التاريخية في الشرق الاتيني وليم الصوري أنموذجا.....

الصفحة	الموضوع

199	*البطريك هرقل ودوره في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية (1180-1190م)
226	* مصادر تموين الحملة الصليبية الأولى 1095-1099م... ..
314	* بلـدوين الأول (1100 - 1118م)، وعمـورى الأول (1163 - 1174م) ملكان من عصر الحروب الصليبية دراسة مقارنة... ..
350	* جريمة القتل في المجتمع الصليبي ببلاد الشام في القرنين 12-13م... ..
400	* معارك حمص الثلاث بين المماليك والمغول (1260م، 1281م، 1299م)... ..
450	* وليم أف نيوبره مؤرخاً للحروب الصليبية في الشرق من سقوط القدس إلى الفتح الإسلامي (1099 - 1187م) (دراسة تاريخية نقدية)
552	فهرس الكتاب... ..